حمدي قنديل

عشت مرتين

سيرة ذاتية

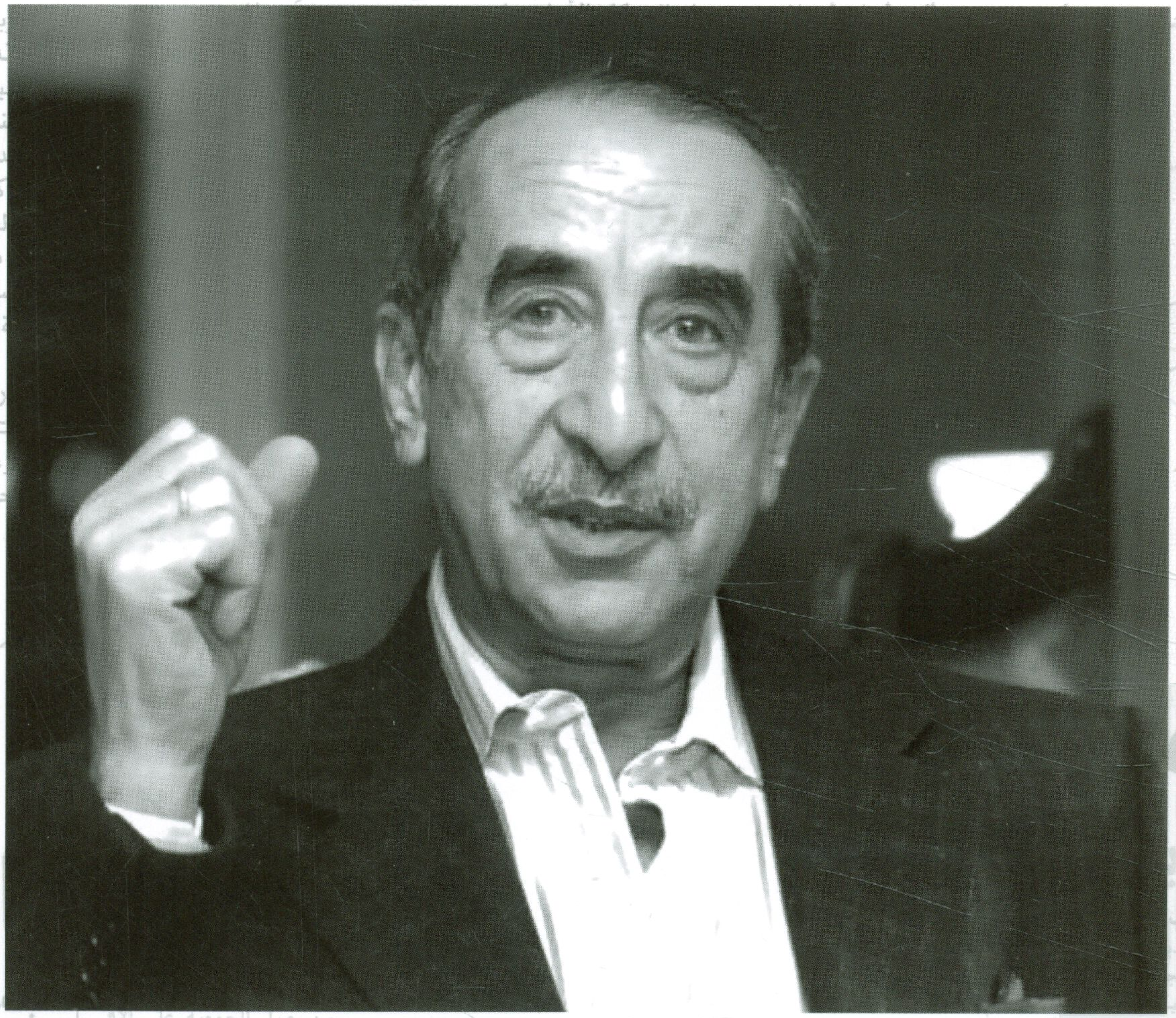

دار الشروق

عشت مرتين

عشت مرتين

حمدي قنديل

تصميم الغلاف: رجائي عبد الله

الطبعة الأولى ٢٠١٤

الطبعة الثانية ٢٠١٤

تصنيف الكتاب: سيرة ذاتية

© **دار الشروق**

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٢٨٣٢/ ٢٠١٣
ISBN 978-977-09-3281-0

حمدي قنديل

عشت مرتين

دار الشروق

إهداء

أقدم هذا الكتاب

إلى أصدقاء العمر الراحلين؛ د. أحمد زعفان وسعد لبيب وصلاح الدين حافظ وأحمد فراج وجمال بدوي وسعد زغلول فؤاد وصبري أيوب نصيف..

إلى «المرصد العربي للإعلام» في لندن، الذي منحني «جائزة التميز الإعلامي» لعام ٢٠٠٦، وقطبيه البارزين منى النشاشيبي وفؤاد مجدلاوي..

إلى «دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر»، التي أهدتني «جائزة تريم عمران الصحفية» في عام ٢٠٠٧، وسلمها لي سمو الدكتور سلطان القاسمي حاكم الشارقة.

إلى «ملتقى الإعلاميين الشباب العربي» في عمَّان الذي قدم لي جائزة «أبرز شخصية إعلامية رائدة» في عام ٢٠٠٩، ورئيسه هيثم يوسف..

إلى «نادي دبي للصحافة» الذي منحني جائزة شخصية العام الإعلامية «في ٢٠١٣، وسلمها لي سمو الشيخ محمد بن راشد نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة حاكم دبي..

إلى الرفاق الأقربين في مسيرة النضال ضد الاستبداد، الدكتور عبد الجليل مصطفى، والدكتور محمد غنيم، والدكتور محمد أبو الغار، والدكتور علاء الأسواني، والدكتور حسن نافعة، والمهندس يحيى حسين عبد الهادي، والدكتور ممدوح حمزة، والسفير إبراهيم يسري.. إلى الشباب الذي صنع ٢٥ يناير..إلى محمد العزبي، الذي خطوت معه أولى خطواتنا في عالم الصحافة، ودقق المعلومات الواردة في الفصول الأولى من الكتاب، والمهندس أسامة الشيخ الذي دقق معلومات الفصول الأخيرة، وشاركني في العديد من أحداثها..

* * *

وإلى زوجتي نجلاء، التي كانت دائما إلى جانبي، عونا وسندا، طوال الاثنتين والعشرين سنة الأخيرة..

المحتويات

مقدمة ٩

١ ـ بيت يعرف ربَّنا ١٩٣٦ - ١٩٥٢ .... ١٥

٢ ـ لو كنت درست مع البنات ١٩٥٢ - ١٩٥٦ .... ٣٧

٣ ـ مهنة مستباحة ١٩٥٦ - ١٩٥٩ .... ٦٩

٤ ـ آه يا دمشق ١٩٥٩ - ٢٠١١ .... ٨٣

٥ ـ سنوات التلفزيون الذهبية ١٩٦٠ - ١٩٧٠ .... ١٠٩

٦ ـ وما أدراك ما الستينيات ١٩٦٢ - ١٩٧٣ .... ١٣١

٧ ـ شيوخ يجمعون القمامة في الكويت ١٩٦١ - ٢٠١٠ .... ١٥١

٨ ـ في الجزائر، على ظهر عربة بطيخ ١٩٦٢ - ٢٠١٠ .... ١٦٩

٩ ـ حرب الريالات الفضية ١٩٦٢ - ١٩٦٣ .... ١٨٥

١٠ ـ عندما يذهب زمن العلوج ١٩٦٣ - ٢٠٠٥ .... ١٩٩

١١ ـ على جدار برلين ١٩٦٤ - ١٩٦٧ .... ٢١٥

١٢ ـ أوصيكم.. ١٩٦٨ - ٢٠١١ .... ٢٣٧

١٣ ـ الصلاة طبقا لتوقيت إنتلسات ١٩٦٩ - ١٩٨٥ .... ٢٥٣

١٤ ـ عصر استعمار المعلومات الجديد ١٩٧٤ - ١٩٨٦ .... ٢٨١

١٥ ـ الفلوس تتكلم.. ١٩٨٦ - ١٩٨٨ .... ٣١١

١٦ ـ زهرة تتفتح ١٩٨٩ - ١٩٩٢ .... ٣٢٩

١٧ ـ الجهاد لمنع الدش ١٩٩٣ - ١٩٩٧ .... ٣٤٩

١٨ ـ رئيس التحرير ١٩٩٨ - ٢٠٠٣ .... ٣٧١

١٩ ـ دريم، الحلم الذي انتهى بكابوس ١٩٩١ - ٢٠٠٩ .... ٤٠٧

٢٠ ـ قلم رصاص ٢٠٠٤ - ٢٠٠٨ .... ٤٢٣
٢١ ـ الجماعة زعلانين ١٩٩٧ - ٢٠١١ .... ٤٤٩
٢٢ ـ أمام ثلاث محاكم ١٩٦٧ - ٢٠١١ .... ٤٧١
٢٣ ـ الثورة التي خذلها البرادعي ٢٠١٠ - ٢٠١٣ .... ٤٨٧
٢٤ ـ مأساة «فيرمونت» ١٩٦٥ - ٢٠١٣ .... ٥١٧
٢٥ ـ الفصل الساخر الأخير من الدراما ٢٠١١ - ٢٠١٣ .... ٥٤١
الملاحق ٥٦٧

مقدمة

قاومت مرات إغراء الكتابة عما فات.. كنت دائما ما أجد أن الحديث عن التاريخ بعقلية الحاضر لابد أن ينطوي على بعض التدليس، وأن استرجاعه بعد فوات الزمن هروب من الغد، فضلا عن أنه أمر لا يفيد.. يقول كثيرون إن التذكر ليس صعبا كالنسيان، ولكن قاعدة كهذه يمكن أن تصلح في الكتابة عن الحب.. ما تحققت منه هو العكس تماما، فعندما بدأت أنبش في كتاب حياتي اعتصرني الشجن وأنا أتذكر أعزاء رحلوا، أو أتمثل مواقف مضى عليها دهر أو يزيد..

طيلة حياتي لم أنظر إلى الوراء.. دائما ما كنت أتطلع إلى المستقبل، وأجد في غموضه بريقا يحفزني على الاقتحام؛ لذلك كنت أعتبر الأيام الخوالي، على الرغم مما يقال عن الدروس التي تعلمها لنا، أوراق خريف ساقطة أو نيازك احترقت في الفضاء.. لا أدري أين هي الآن ريالات ماريا تريزا الفضية التي احتفظت بها في جيبي وأنا عائد من اليمن، ولا المسدس العتيق الذي أهداه لي صديق جزائري بعد أن وجده في بيت أحد المستوطنين الفرنسيين عندما هربوا أمام ثوار الجزائر، ولا الكاميرا «اللايكا» التي اشتريتها من برلين الشرقية قبل أن يسقط الجدار..

في كل ما مضى من سنوات، لم أرجع ثانية إلى صناديقي القديمة لألقي نظرة على بطاقة عضويتي أيام الدراسة الثانوية في فرقة التمثيل الدرامي، أو المقال الذي كتبته في مجلة الكلية عندما كنت طالبا في قصر العيني، أو ترخيص البنزين لسيارتي في اليمن موقعا من الرئيس السلال، أو المذكرة التي بعثها لي الدكتور عبد القادر حاتم يستدعيني «على الفور» من بغداد، أو حتى الرسالة التي أرسلتها قيادات الجمعية الوطنية للتغيير منذ ثلاث سنوات إلى الدكتور البرادعي تنبهه إلى مخاطر الغياب في

الخارج.. ولولا أن ابن شقيقتي السفير ياسر مراد احتفظ ببعض متعلقات جدته، أمي، ما وجدت صورة من أيام الطفولة والشباب أنشرها في هذا الكتاب..

لم أكن أنوي أن أزوق الكتاب بالصور لولا أن الناشر قارعني بحجتي، «كيف تكون هناك صحافة بلا صورة؟».. مع ذلك لم أتفهم ما الذي يهم القارئ في صورة لي ببنطلون قصير، أو أخرى أبتسم فيها لعدسة التصوير في بلاهة، أو ثالثة مع شخصية من تلك الشخصيات الهامة التي تتميز عادة بثقل الظل.. وكنت أرى أن نشر الصور الخاصة يستلزم قدرا من النرجسية، بل إن الصراحة إذا ذهبت بنا إلى مداها فلا بد من الاعتراف بأن كتابة المذكرات في حد ذاتها نرجسية مفرطة..

قرأت ما قرأت من مذكرات لآخرين بشك كبير دائما؛ ذلك أن أصحابها ـ وهم عادة من المتقاعدين ـ غالبا ما يضخمون من أدوارهم، وينزلقون مثل كل كبار السن إلى تفاصيل يضيع فيها الخيط الأساسي.. وجدت العديدين منهم يزيفون التاريخ أو يصفون حساباتهم معه، أو يحدثوننا عن بطولاتهم ويتأففون من التلميح إلى سقطاتهم، أو يفعلون مثلما فعل المفكر الكبير عبد الرحمن بدوي عندما نضحت مذكراته بكل مراراته بعد ما لاقاه في حياته من تجاهل وظلم، أو ينتزعون من قاع الذاكرة بعض ما رسب فيها من وقائع سمجة يظنونها طريفة، أو يسهبون في حوارات يقولون إنهم أجروها مع كبار القوم وصناع القرار، لا لشيء إلَّا ليوهمونا أنهم كانوا شركاء في صناعة سياسات أغلب الظن أن الكثير منها أودى بنا إلى المجهول..

لكنني أسقطت هذا كله من حسابي عندما التقيت في عام ٢٠٠٤ صديقا قديما؛ الكاتب السعودي البارز داود الشريان.. كان قد تعاقد مثلي مع تلفزيون دبي، وكان لدينا من الوقت قبل أن نبدأ العمل مايفيض وزيادة، حكينا فيه لبعضنا البعض عن كثير مما مضى.. كانت هذه أول تجربة إذاعية له؛ لذلك أظن أنه أراد أن يسمع مني عن سر المهنة، فبدأت ذاكرتي تستعيد عافيتها، وأقنعني أن فيها ما قد يفيد.. اقترح داود أن ينتج مذكراتي للتلفزيون، وطلب من صديقنا الأستاذ يوسف القعيد أن يكتب لها السيناريو، لكن مشاغلنا حالت دون أن نعكف على العمل المقترح بجد..

مضت خمس سنوات حتى دعيت إلى عمان لتسلم جائزة من «ملتقى الإعلاميين الشباب العربي»، وعندما طلب مني إلقاء كلمة آثرت أن تكون وصاياي للجيل القادم من الصحفيين.. جاءني في المساء طالب يدرس الإعلام وقال: «سمعت وصيتك لنا في المستقبل.. ليتك تحكي لنا عن تجربتك حتى نستخلص منها بأنفسنا العبر».. ظلت هذه الكلمات عالقة في أذني حتى شهور مضت عندما عزفت عن الظهور في التلفزيون وزهدت دنيا السياسة، وأصبح لديَّ من الوقت ومن الصفاء ما مكنني من أن أشرع في الكتابة..

سوف أتحدث عن تجربتي دون أن أنزلق إلى إعطاء الدروس.. لن أروي من الوقائع إلَّا ما رأيته بعيني أو سمعته بأذني، ولن أعمد إلى تبييض صفحتي أو تلويث خصومي.. لي بالطبع أصدقاء طوتهم دوامة الزمن، كما أن هناك من اختاروا أن يعادوني لأنني أخالفهم الرأي، لكنني أرجو أن أكون منصفا لأصدقائي عادلا مع غرمائي؛ إذ ليس في نيتي الانتقام، وليست لديَّ رغبة عارمة في تسجيل هدف في مرمى أحد.. يعرف رفاقي أنني قابض على قناعاتي حتى لو اشتعلت جمرا، لكنهم يعرفون جيدا أنني لا أميل للعراك، كما أنني ـ دون ادعاء ـ لا أود أو أعمد للإساءة إلى أحد، إلَّا إذا كان في قول الحقيقة ما يسيء..

لن أغوص كثيرا في بحر السياسة على الرغم من أنني قضيت معظم سنوات عمري أتابع أحداثها، بل إنني لن أكتب عن أيام يناير الثماني عشرة المجيدة التي كتب كثيرون عنها بالحق والباطل، حتى إن مؤرخ ثورة يوليو ١٩٥٢ اللواء جمال حماد قال فيهم: «إن كل من يكتب عن الثورة يجعل نفسه بطلا، وينسب لنفسه دورا لم يكن له».. إذا كان لي في الحياة دور يمكنني أن أزهو به، فمن المؤكد أن هذا الدور ليس هو دور السياسي، وإنما دور الصحفي الذي جاهد كي يعبر عما في صدور الناس على الرغم من كل قوى القمع والطغيان.. أما السياسة فحرصت دائما على مسافة تفصلني عنها، وظللت على الدوام جالسا على شاطئها أراقب بحرها الهائج، حتى اجتاحني موجه العاتي قبل سنوات فأخذت أصارعه دون أن أجيد العوم..

ليتني كنت أديبا مثل الكاتبة اللبنانية د. رجاء نعمة التي صاغت مذكراتها في مجموعة قصص سمتها «مذكرات امرأة شيعية»، وهي قصص قائمة على الواقع ولكنها صاغته روائيا بتفرد وصقلته ببعض الخيال.. لو كنت أستطيع لكان ذلك منفذا أتفادى به تعرية بعض من صادفتهم ممن امتهنوا الإعلام أو تدثروا بعباءة الثورة لأنني أكره تعرية الناس، ولا أميل إلى النميمة والثرثرة على الرغم من أن الصحفي عادة ما يكون حكاء محبا للإثارة..

أعرف أن الإثارة هي لب عملية التشويق، ولكنني لست في حاجة إلى اصطناع ذلك إذ إن حياتي لا تحتاج إلى تلوين، فقد كانت دائما حافلة بالدراما وبالشخوص الأقرب إلى أبطال الروايات.. كانت كلها معارك تلو معارك، خسرت بعضا منها وربحت البعض الآخر، ولكنني واصلت خوضها على الدوام.. ما أكثرهم أولئك الذين قرنوا اسمي بـ «سيزيف» الذي حكمت عليه الآلهة في الأسطورة الإغريقية المعروفة أن يحمل صخرة ضخمة إلى قمة الجبل، فما يكاد أن يبلغ القمة حتى تفلت الصخرة من يده فيعود من جديد.. ولكنني لم أشعر قط بأنني ضحية؛ إذ إن الصخرة لم تكن قط هي ذات الصخرة، ولا الجبل هو الجبل نفسه.. كانت محاولات الصعود مضنية دائما، ولكنها مع ذلك غالبا ما كانت مختلفة، جديدة وممتعة، بل إنها قادتني إلى أيام أحلى في معظم الأحيان..

كثيرا ما أحس أنني رجل محظوظ على الرغم من أنني لم أرزق بولد ولم تخلُ حياتي من مفاجآت مقيتة؛ فقد رزقني الله بالرضا، بهبة النسيان، بمكانة مرموقة بين أقراني، بحب كثير من الناس، بزوجة وإخوة وأخوات وأصدقاء نادرين، ببعض من المال يغنيني عن مذلة السؤال، بكثير من الجسارة التي تحفزني على قول ما أعتقد أنه الحق، وبمهنة أحبها طافت بي الدنيا شرقا وغربا.. ولم يقتصر نصيبي من الحظ على اليقظة بل إنني في أحلام المنام كثيرا ما أرى نفسي كطائر يحلق هبوطا وصعودا كيفما شاء، وأشاهد روايات من الفانتازيا الساحرة، وألتقي بأناس لم ألقهم من قبل، ليسوا كأشباح الرجال والنساء الذين نرى كثيرين منهم في الواقع، أو أذهب إلى بلدان وأماكن لم تطأها قدماي، فيها بحيرات ممتدة وأشجار باسقة وبيوت من بِلَّوْر..

لا أقصد بأنني «عشت مرتين» الإشارة إلى حياة اليقظة وحياة المنام، فحياة اليقظة وحدها تكفي وتزيد، عشتها طولا وعرضا، أخذا وردا، فيها الأسى والانكسار والفشل، وفيها الصمود والحلم والإنجاز، وفيها من المفاجآت والمفارقات مايعجز عن ابتداعه عتاة المؤلفين.. قبيل انتهائي من الكتاب علمت من الصديق العزيز الأستاذ عبد الله السناوي أن الفنان الكبير يوسف وهبي وضع مذكراته تحت عنوان «عشت ألف عام»، فحمدت الله أنه لا تزال لديَّ بقية من تواضع لأحسب حياتي بحياتين لا أكثر..

لاشك أن يوسف بك قام بألف دور على خشبة المسرح، ولا شك أن في حياته من النساء ما لايحصى ويعد، ولكن حياتي لم تكن سوى الحقيقة بلا أقنعة، كما أنها لم تشهد سوى القليل من العابرات، وزوجتين اثنتين من قبل، أزعم أنني عشت مع كل منهما حياة هانئة، وعندما تحتم الانفصال لم يسبقه أذى أو يلحقه ألم عصيّ على الاحتمال.. لكنني لم أجد من اللائق أن أتحدث عنهما طويلا دون استئذان، كما أنني أعترف بتناقض في شخصيتي يقال إنه ذلك الذي يميز مواليد برج الجوزاء، يجمع بين التفتح على الدنيا وبعض جذور محافظة، ذلك أنني أقدر المرأة وأفخر بها، لكنني أحاول أن أحميها من التلصص واللغو.. لذلك لا أعتقد أن كتب المذكرات هي المكان المناسب للخوض في حكايات النساء، وإن كان ذلك قد أصبح على ما يبدو حقا مكتسبا للقارئ..

لو خيرت لاقتفيت أثر صديقي رجل الأعمال ممدوح عبد الغفار الذي فاجأني منذ نحو عشرين عاما بكتابه الأول والأخير، وكان عنوانه بالإنجليزية WHAT MEN KNOW ABOUT WOMEN، أي «ما يعرفه الرجال عن النساء».. كان الكتاب ضخما وغلافه أنيقا للغاية.. في صفحته الأولى كانت المقدمة سطريْن: «هذا الكتاب ألفه رجل ذو رؤية.. وضع خلاصة تجاربه في الحياة مع النساء وسلوكهن وأخلاقهن في هذا الكتاب النافذ البصيرة».. وعندما بدأت أتصفح صفحاته المائتين، كانت كلها بيضاء من أول صفحة حتى آخر صفحة.. ولكنني لم أفعل ذلك تماما في حكايتي مع نجلاء، فقد رويتها ببعض التفصيل؛ لأنه بغير ذلك لا تكتمل بعض الأحداث، أو تنضبط أركان الرواية..

لا أدري في النهاية إذا ما كان الذي يحتويه الكتاب هو الذي توقعه القارئ، وإذا ما كانت قد وصلته الرسالة التي وددت أن تصل إليه : أن يحس عندما يضع الكتاب جانبا أنه أكثر قوة ومناعة ضد غوائل الزمن، وأكثر قدرة على الحلم باليوم الجميل الآتي.. أما بالنسبة لي فقد أحسست عندما انتهيت من الكتابة بكثير من الرضا؛ ذلك أنني أيقنت الآن أن الذكريات لا تعني شيئا إلَّا لو شاركني فيها الآخرون..

٣٠ نوفمبر ٢٠١٣

١

بيت يعرف ربّنا

١٩٣٦ - ١٩٥٢

◆ ◆ ◆

تمت المهمة بنجاح، وكنت أشعر بسعادة بالغة وأنا أرى المنشورات تتطاير مع الريح الخفيفة في صحن المسجد كما لو كنا في كرنفال.

◆ ◆ ◆

«اليخت ملك فاروق وليس ملكا للدولة، فلماذا تتكلف الدولة بتصليحه؟».

مصطفى بك مرعي

جذور أسرة أبي ترجع إلى بلدة «كفر عليم» في ريف محافظة المنوفية، وكذلك أمي التي أتى أجدادها من أبيها (عائلة حلاوة) من البلدة نفسها، أما أجدادها من أمها (عائلة الفقي) فهم من بلدة «طنبشا» المجاورة، وهكذا فأنا منوفي أبا وأما.. ولست أدري ما إذا كنت قد ورثت عن «المنايفة» طباعهم التي يتحدث عنها الأدب الشعبي، وأشهرها البخل، ولكني سأبادر، كما هو متوقع، إلى نفي هذه التهمة.. ويقول علماء الاجتماع إن «المنايفة» ميالون إلى الاستقرار والدوران في فلك السلطة، وهذا ما يمكن أن نكتشف مدى صدقه، بالنسبة لي على الأقل، في صفحات هذا الكتاب!

الثابت على أي حال أن «المنايفة» يقبلون على التعليم، وتقول الإحصائيات إن في المنوفية أكبر نسبة من المتعلمين مقارنة بعدد السكان، وكان هذا واضحا في قريتنا، وكان والدي وجدي لأمي مثالَيْن على ذلك؛ إذ درس كلاهما مثل كثير من أقرانهما من عائلات الفلاحين في الأزهر.. كان الأزهر هو الوجهة الأولى، وربما الوحيدة المتاحة للتعليم الأولي، ولكن والدي، عمر قنديل، لبس البدلة والطربوش فيما بعد عندما التحق بكلية دار العلوم قبل أن يسلك مهنة التعليم، أما جدي فتوح حلاوة فظل معمما منذ دخل المدرسة حتى أصبح نائب رئيس المحكمة الشرعية العليا..

كان الاثنان أولاد خالة وكانا متقاربين في السن، ومع ذلك فقد تزوج أبي من أمي برضاها بالرغم من فارق السن بينهما الذي يبلغ ٢٥ عاما، وأظن أن زواجهما كان مستقرا إلى حد كبير؛ إذ إنهما لم يختلفا أمامنا على الأقل، بل إننا لم نسمعهما يتصايحان قط.. كان أبي يعمل مدرسا في القاهرة عندما تزوج، ولا تزال صورة الزواج معلقة في بهو بيتي حتى الآن، والعروسان واقفان، يكاد يكون طولهما واحدا، هي في فستانها الأبيض بذيله الطويل تمسك في يدها باقة زهور، وهو يزين جاكتته بورود بيضاء ومنديل جيب أبيض.. كانا أنيقين، وكانت أمي جميلة، وظلت سنين طوالا

أنيقة وكأنها عارضة أزياء، وكان أبي يشاكسها إذا تأخرت عن موعد الخروج معه وهي تتزين، ويقول لنا: «يا ولاد، أصل أمكم جبناها من باريس في علبة»..

في بيتنا في الوايلي ولدت طفلتهما الأولى «سوزان» في عام ١٩٣٥ ولكنها سرعان ما ماتت، وجئت بعد ذلك بعام، وسموني «محمد حمدي»، وكانت الأسماء المركبة مسموحا بها في ذلك الحين وظلت كذلك حتى سنوات قليلة مضت، وكانت عائلات كثيرة تتيمن بتسمية الابن الأكبر على الأقل مقرونا باسم الرسول عليه الصلاة والسلام.. وعندما كبرت أنا وأخواتي قليلا كنا عادة ما نضحك كثيرا إذا مرت العربة التي نستقلها بالوايلي؛ إذ كنا دائما ما ننتظر من الوالدة أن تصيح وهي تشير إلى الشارع الذي كانت تسكن فيه: «هنا اتولد حمدي»، حتى إن أخي الأصغر كان يظن أن الشارع سمي باسمي..

أخي الأصغر هو عاصم قنديل، المحامي الآن، وهو آخر العنقود كما يقال، أما ماجد، اللواء المتقاعد الذي قضى عمره في سلاح المدفعية، فقد ولد بعد ولادتي بعامين، وبعده بعامين أيضا ولدت مرفت، وهي ربة أسرة متزوجة من لواء الأسلحة والذخيرة المتقاعد صالح صالح.. وبعد عامين آخرين جاءت شقيقتي مآثر، التي عينت معيدة بقسم اللغة الإسبانية في كلية الألسن، ثم حصلت على منحة لدراسة الدكتوراه في إسبانيا، وهناك بدأت حياتها كمترجمة فورية حتى تقاعدت قبل سنوات، فأصبحت تقضي نصف العام في القاهرة ونصفه الآخر في مدريد، إلَّا أنها منذ أتت إلى القاهرة عشية ثورة يناير وشاركت في كل أحداثها، أصبحت تقضي معظم وقتها في مصر، تسهم في الحركة الوطنية من خلال منظمات مثل «مصريات من أجل التغيير»، أو تدعو لمصر الجديدة في وسائل الإعلام والتنظيمات السياسية الإسبانية التي خبرتها جيدا..

وعلى الرغم من أن الفارق في السن بيني وبين مآثر ليس كبيرا، فإنني على نحو ما أعتبرها ابنتي، أما مرفت التي تصغرني بأربعة أعوام فهي تعاملني كأمي، تحنو عليَّ وعلى إخوتها جميعا كما كانت أمنا تفعل، وتذكِّرنا جميعا بالمناسبات التي نتجمع

فيها معا، وتطمئن عليَّ بالتلفون كل يوم تقريبا، وترسل لي بين الحين والآخر طبقا يماثل مذاقه طعم أطباق أمي تماما..

أنجبت مرفت ومآثر أولادا وبنات، أما أنا وماجد وعاصم فلم ينجب ثلاثتنا، والحمد لله أننا راضون بما قسم لنا، ولا أعتقد أن ذلك قد خلخل حياة أي منا؛ فماجد متزوج زواجا مستقرا منذ أكثر من ٤٠ سنة، أما عاصم فهو صاحب شخصية مستقلة تماما بالزواج أو بدونه، وهو أكثرنا حبا للحياة ومباهجها، ودائما ماينعش جلساتنا بحيويته وضحكته العالية.. كان عاصم محاميا كغيره من المحامين، عمله أن يدافع عن موكليه شركات وأفراد، إلَّا أن ثورة ٢٥ يناير فجرت أحلى ما فيه، وغيرته تماما فأصبح محاميا عن الشعب.. منذ ذلك الحين كرس حياته ومكتبه وشباب المحامين النابهين الذين يعملون معه للقضايا التي تتعلق بالثورة وأبنائها، وأحسب أنه ضلع في القضايا الكبرى كافة التي تشغل بال المصريين، بدءا بقضية القرن المتهم فيها مبارك وأعوانه بقتل المتظاهرين وحتى القضية المتهم فيها مرسي بالتخابر والهروب من السجن..

اختصني والدي ووالدتي بمعاملة مميزة وكأنها تنشئة لولي عهد سوف يتولى مقاليد الأمور بعد والده، ولست أدري لماذا لم يثر هذا حفيظة إخوتي، أو ربما أنني لم أعرف إذا ما كان قد أثار حفيظتهم.. في كل الأحوال فإنني أحمد الله على أن بيننا من التراحم حتى الآن مايزيد وكفاية.. عشنا جميعا أيام صبانا في طنطا التي انتقل إليها والدي مدرسا للغة العربية في مدرسة طنطا الثانوية للبنات وظل فيها معظم ما تبقى من سنوات عمله، رقي مدرسا أول، ثم أصبح وكيلا للمدرسة نفسها.. قضى والدي عمره إذن يعلم البنات؛ ربما لأنه كان معروفا بدماثة الخلق، ولعل خبرته هذه هي التي مكنته من التعامل بحنكة مع زوجته الصغيرة في السن..

كنا نسكن في طنطا في بيت من ثلاثة طوابق في ١٦ شارع الفاتح.. كنا في الدور الثاني، وفوقنا أسرة فؤاد، وتحتنا سيدتان فاضلتان أكبر قليلا في السن من أمي: زينب وبطة.. وكانت تجاور البيت من جهة فيلا يسكنها حكمدار مديرية الغربية (أي مدير أمن المحافظة بلغة هذه الأيام)، ومن الجهة الأخرى فيلا أسرة الشيخ الفاضل

محمد مطاوع التي أنجبت عددا من أساتذة الجامعة البارزين.. وفي البيت المقابل لنا أسرة زميلي في المدرسة جمال الحلفاوي الذي لم أكن أعرف بالضبط عمل والده، وفوقهم أسرة المستشار منتصر، وبجوارهم بيت كبير لأنسبائهم عائلة قابل الشهيرة..

كان بيتنا مثل كثير من البيوت المصرية، «يعرف ربنا»، ويعمر المساجد ويعمِّر في الأرض ويعامل الناس بالحسنى.. وكانت لأبي وأمي صلات طيبة بجيراننا جميعا، وكانت دائرة معارف أمي أوسع كثيرا من الحي الذي نسكنه، وكانت تستقبل في صالون البيت كثيرا من السيدات كل ثلاثاء.. أما أبي فكان يسافر إلى بلدتنا في المنوفية عادة في إجازة نهاية الأسبوع ليرعى شئونه هناك.. كان يملك بضعة أفدنة يزرعها بكمثرى كانت تسمى «الليكونت»، وأظن أنها هجين من الكمثرى الأوروبية والآسيوية، وكان كلما حل موسمها أرسل أقفاصا منها إلى الأهل والأحباب..

كان لنا في كفر عليم منزل ذو طابق واحد مبني بالطوب والأسمنت يطل على «الزراعية»، أي الطريق الرئيسي وسط المزارع، بين بركة السبع وزفتى.. كانت تطل على هذا الطريق منازل كبار أهل القرية وتمر به سكة القطار المتهالك بين البلدتين.. وكان يجاورنا بيت جدي لأمي من ناحية، ومن الناحية الأخرى بيت أكبر لابن عم والدي الدكتور علي قنديل الذي تخرج في الطب من أدنبرة وظل حتى نهاية عمره يلبس «البابيون» بدلا من ربطة العنق، وكان أبرز أبناء عائلة قنديل.. أما بقية عائلة الوالد، بما فيها شقيقه الوحيد عوض الله، فكانوا يعملون بالزراعة ويرسلون بعض أبنائهم للتعليم.. وكنا نعرفهم جميعا، ونحب من بينهم أبناء عم الوالد الشيخ عبد الرحمن والشيخ صالح، وكانا يتميزان بقامة مهيبة وعباءات سوداء هفهافة، وكانا كثيرا ما يجيئان لنا في طنطا وهما محملان بالفطير المشلتت والزبد وغيره، كذلك كنا ننتظر بتلهف الشيخ علي مصطفى ابن خالة الوالد الذي كان يتفنن في مداعبتنا بالحيل والألعاب الشائقة..

حتى دخلت الجامعة، كانت العائلة تقضي بضعة أسابيع في إجازة الصيف كل عام في بيتنا في كفر عليم، وكانت تفصله عن الطريق حديقة مساحتها نحو نصف فدان مزروعة بالعنب «البز» الذي لم أذق عنبا في حلاوته حتى الآن، وكانت تجاور

البيت زريبة بها جاموسة أو اثنتان وحمار حصاوي أذكر البردعة المزركشة بألوان زاهية التي كانت توضع على ظهره عندما يستخدمه الوالد في التنقل.. وكنا نلهو نحن بركوب الحمار في باقي الأوقات، ولكننا كثيرا ما كنا نلهو أيضا بدفع يد الطلمبة يمينا ويسارا لنملأ خزان البيت بالمياه.. كان البيت واسعا، به شرفة أمامية، وشرفة خلفية تكاد تضارع في مساحتها ملعبا لكرة السلة، وكانت تطل على فدانين يزرعان بمحاصيل مختلفة.. أما من الداخل فهناك صالة كبيرة وغرفتان للنوم لا أزال أذكر أسرتهما النحاسية التي تتدلى من أسقفها الناموسيات، وأذكر أيضا الكلوبات التي تضيء الغرف في المساء..

أما في الصيف فكان أبي معتادا أن يستأجر لنا واحدا من الشاليهات الخشبية التي عرف بها بلاج سيدي بشر نمرة واحد لمدة شهرين وأحيانا ثلاثة، وكان الشاليه هو هو كل صيف.. وكنا نتطلع إلى الإجازة طوال العام، حتى إن بعضنا كان يرتدي المايوهات تحت ملابسه ونحن نستعد للركوب في سيارة الأجرة التي ستقلنا إلى الإسكندرية وقد تكدس ظهرها بالحقائب..

قضيت وإخوتي طفولة هانئة، وكانت أمي معنية كثيرة بهندامنا، وقد احتفظت زمنا بملابسنا جميعا عند ولادتنا، وكانت تشتري لي ولماجد ملابس متماثلة حتى في ألوانها، كذلك كانت تعنى بتغذيتنا غذاء صحيا، وكانت ماهرة في المطبخ لم يجارها أحد حتى الآن في تنوع المأكولات «وتسبيكها»، وإن كنت كثيرا ما أشكو عندما تصر على أن آكل الكبدة «نصف سوا».. ولا أزال أذكر بعض ما كانت تتفنن في طهيه مثل الكرشة بكل ما فيها من بهارات، وصينية البطاطس، ولحم «النيفة» الملفوف بورق السيلوفان، وبرام الأرز باللبن، ولكن ذلك كله لم ينافس قط طبق البيض المقلي بالعجوة في إفطار الصباح.. ومع ذلك فلم تكن أمي تجد في كل ذلك ما يكفي؛ إذ كانت تصر أن يتناول كل واحد من أبنائها كل يوم ملعقة في الصباح من الحلبة المعجونة في السمسم والمكسرات..

ولم تكن متعتنا خارج البيت تقل عن متعتنا داخله.. كان البيت يطل على أرض زراعية ممتدة تتوسطها «شونة» لتخزين القمح.. ولم تمضِ إلَّا سنوات قليلة حتى

وجدنا أن جانبا كبيرا من الأرض المزروعة يحاط بسور، ثم يقلع ما في الأرض من زرع، ويقام مبنى صغير في ناحية وتمهد باقي المساحة كما لو كانت تعد لإقامة ملاعب رياضية.. وهذا ما كان بالفعل.. كان في طنطا في سالف الزمن طبيب اسمه أحمد عبد الله قيل إنه ترك المدينة قبل عشرين عاما أو نحوها وسافر إلى ألمانيا للدراسة والعمل، وعندما أحيل إلى التقاعد عاد إلى موطنه بـ«تحويشة العمر»، ويقال إنه عاد بزوجة ألمانية أيضا.. لم يستخدم ثروته في استثمار المال ولا في بناء مستشفى أو حتى في تملك بيت.. لا.. وضعه كله في إقامة نادٍ سماه «نادي إعداد الجيل»، ولعل اسم النادي ينطق بما كان الرجل يهدف إليه..

كانت في النادي ملاعب للكرة، تدربنا فيها أنا وماجد على يد ـ أو قل على قدم ـ الكابتن يوسف جوهر ذي العينيْن الزرقاويْن والشعر المصفف والمهارة اللافتة.. كان يستطيع إبقاء الكرة على قدمه المرفوعة دقائق كاملة ثم يقذفها إلى الوراء ويتلقفها بالقدم الأخرى.. وعلى الرغم من أنه احتوانا بصبره وملاطفته فإن لعب الهوكي هو الذي أغراني حتى بعد أن أصبت مرات في قصبة ساقي، إما بالكرة التي كانت صلبة مثل الحجر وإما بمضارب زملائي اللاعبين.. لعبنا في النادي كل الألعاب بما في ذلك السلة والطائرة، ولكن الإدارة كانت تخصص لنا وقتا إجباريا كل أسبوع للقاءات منتدى النادي التي كان يقودها رواد يرشدوننا إلى الكتب التي يختارونها لنا لمناقشتها، وهكذا قرأنا لأدباء ذلك الزمان ومنهم المنفلوطي والمازني والجارم وغيرهم..

كان أبي يسمح لي، بل يطلب مني أحيانا، قراءة جريدة «المصري»، وكانت هي الجريدة الوحيدة التي يشتريها كل يوم.. قرأت جريدة «الاشتراكية» في بيت صديق كان والده يشتريها بانتظام، فأصبحت أبحث عنها أنا الآخر بين الحين والحين، وأظنها أثرت كثيرا في توجيه ميولي، بل واستفزتني إلى أبعد حد عندما قرأت فيها مقال أحمد حسين الشهير «رعاياك يا مولاي».. كان المقال ممتدا على صفحتين تصدرته صورة لطفل حافي القدمين مهلهل الملابس وصور أخرى لنساء ورجال تنطق أحوالهم بالبؤس في أزقة القاهرة وأعماق الريف، وذُيِّلَ المقال بتوقيع «المخلص: أحمد حسين».. كان أبي أحيانا ما يشير عليَّ أيضا بالاستماع إلى برنامج ساخر يذيعه الكاتب فكري أباظة في الراديو بانتظام، وكانت لفكري أباظة شعبية كبيرة في تلك

الأيام لأن برامجه كانت تلقائية ساخرة دون نص مكتوب.. وبالطبع فإن جهاز الراديو كان يتصدر صالة البيت كما هو الحال في بيوت مصر في ذلك الحين، وكان موضوعا على رف عالٍ فوقه قطعة قماش بيضاء مطرزة.. وفي كثير من الأحيان كان أبي يستمع منه إلى تقاسيم العود وإلى بعض من الموشحات، وقد ورثت عنه ذلك، لكن الراديو كثيرا ما كان يصدح في البيت بأغاني محمد عبد الوهاب.. وكنت أحيانا ما أنتظر مطربة القطرين فتحية أحمد وهي تتعمد الدلال عندما تنتهي من الغناء وتقول: «تصبحوا على خير»..

لا أظن أن بيتنا كان معنيا كثيرا بالفنون على الرغم من أن والدتي كانت قد تدربت على عزف البيانو، وكنت أنا أميل إلى الرسم، وخاصة الكاريكاتوري، الذي كنت أستوحيه من جريدة «البعكوكة» الفكاهية أم الجرائد الساخرة في مصر.. وكانت تشدني إلى الجريدة شخصيات مثل «أم سحلول» و«الدكتور مكسوريان» و«حمار أفندي» التي كنت كثيرا ما أرسمها بالألوان، وقد احتفظت أمي بهذه اللوحات سنين طويلة حتى أهدتها إليَّ في عيد ميلادي الثلاثين.. وكنا نذهب إلى السينما بين أسبوع وآخر، وننتظر هذا الموعد بشغف عظيم.. عندها ترتدي العائلة أفضل ما لديها من ملابس، ونركب الحنطور، ونحجز «لوج» يسع العائلة جميعا.. ولا تزال بعض مشاهد أفلام ذلك الزمن عالقة في ذهني مثل «رصاصة في القلب» لمحمد عبد الوهاب وراقية إبراهيم، و«غزل البنات» لنجيب الريحاني وليلى مراد وأنور وجدي، و«السوق السوداء» لعماد حمدي وعقيلة راتب..

أما دراستنا فكانت مستقرة، ولم يرسب أحدنا في عام من الأعوام، وكنت معتادا قبل الامتحانات بشهر أو اثنين أن أضع جدولا للمذاكرة أوزع فيه الأوقات بالساعة والدقيقة على المواد المختلفة، وكنت أحدد الصفحات التي سأستذكرها في كل فترة، من صفحة كذا إلى صفحة كذا.. ولا أذكر أني رسبت في مادة سوى مرة واحدة عندما كنت في «مدرسة طنطا الابتدائية للبنين»، وعندما جاءت الشهادة بدائرة حمراء في اللغة الإنجليزية خلع والدي حزامه وضربني به مرة واحدة كانت هي المرة الأولى والأخيرة التي ضربني فيها أنا أو واحدا من إخوتي في حياته.. لم يكن الضرب

أو الصفع أو حتى الصوت العالي هو الوسيلة المتبعة في العقاب.. تكفي منه كلمة غضب أو حتى نظرة عابسة حتى نعود إلى الصواب..

الغريب فيما بعد أن اللغة الإنجليزية كانت هي المادة المحببة لي في الدراسة الثانوية، وكان مدرسها الأستاذ محمد علي أحب المدرسين إلى قلبي، وكنت في بداية كل عام دراسي أخصص نحو نصف الجنيه لتجليد الروايات المقررة مثل «الفرسان الثلاثة» و«قصة مدينتين»، وأطلب من إحدى المكتبات أن تضع لي ورقة بيضاء بين كل ورقة من أوراق الكتاب والأخرى حتى أكتب فيها ملاحظاتي أو ترجمة عربية لبعض كلمات الرواية ومصطلحاتها الإنجليزية.. ولم تكن الدروس الخصوصية معروفة عندئذ إذ كانت المدارس، حتى الحكومية منها، مدارس نموذجية..

درست المرحلة الثانوية في مدرسة «طنطا الثانوية الجديدة»، وكانت مبانيها حديثة وفصولها رحبة، وكان بها مبنى خاص يستخدم مطعما تقدم المدرسة لنا فيه طعام الغداء كاملا تسبقه الشوربة الساخنة وننهيه بفواكه طازجة، ولم يكن يغرينا شراء السندويتشات من الخارج؛ فقد كانت أمي تحصننا إزاءها بسندوتشات لذيذة من صنعها (والحمد لله أنه لم يكن هناك هامبورجر في ذلك الزمن).. وكان للمدرسة ملحق رياضي يقابلها، به ملعب لكرة القدم بالقياسات الأولمبية، وملاعب أخرى جانبية لرياضات أخرى.. أما الدراسة ذاتها، لب هذا كله، فكانت تسير بانتظام ودقة كما يتوقع كل من يعرف ناظرنا الصارم نجيب بك دميان، الذي لا أعرف إذا ما كان قد نال رتبته رسميا بإنعام من الملك أم بطلّته العابسة الآمرة.. وعلى الرغم من أن صورة المدرسة بكثير من تفاصيلها لا تزال عالقة بذاكرتي فإنني أدهش أن سقطت منها معظم أسماء المدرسين بل وأسماء الطلبة حتى أولئك الذين جاوروني منهم في «الدكة» نفسها..

أذكر فقط نبيل وهبي ربما لأنه كان يجاورنا أيضا في السكن، وكان مرحا على الدوام، وقد التقيت به بعد سنوات طويلة وهو مدير لفرع بنك مصر في قصر النيل فدهشت لأن الزمن لم يختطف روحه الساخرة.. أما سمير عامر فقد كان دائما في مقدمة الطلبة المتفوقين، وقد درس الصيدلة بعد ذلك في جامعة الإسكندرية وعين

معيدا في الكلية نفسها، وحصل بعد ذلك على منحة من الولايات المتحدة فنال شهادة الدكتوراه في عام ١٩٦٢ من جامعة شيكاغو.. وحتى عام ١٩٨٣ لم أكن أعلم شيئا عنه.. وقتها كنت أعمل في اليونسكو وأقيم في باريس عندما اتصل بي وقال إنه هو الآخر في باريس في زيارة قصيرة مع زوجته.. اتفقنا على موعد في بيتي، وعندما جاء أبلغتني حارسة العمارة، وكانت إسبانية، أن ضيفا قد وصل وأنه يستقل سيارة لم تشهد مثيلا لها في حياتها.. دخل سمير وفي رفقته صبية حسناء، زوجته مارجريت، وهي محامية ومغنية أوبرا أيضا.. أما هو فكان، كما قال لي، يستمتع بتقاعده.. عمل سمير عامر في قسم الأبحاث في شركة «برستول مايرز»، وهي واحدة من كبريات شركات الأدوية في العالم، وسجل باسمه ١٢ براءة اختراع لعل أشهرها هي أن مص الأسبرين أكثر فائدة من بلعه.. وفي بداية الثمانينيات باع حقوق كل هذه البراءات مقابل ملايين الدولارات، وبنى قصرا بطراز شرقي على شاطئ المحيط في سانتا باربارا القريبة من لوس أنجلوس أرسل لي صوره مؤخرا ليغريني بزيارته، ولم أكن في حقيقة الأمر محتاجا لإغراء..

أذكر بالطبع أيضا الزملاء الذين أصبحت صورهم تتصدر الصحف، وكانت لكل منهم معي حكاية.. هما اثنان: جمال بدوي وعمرو موسى.. جمال أصبح فيما بعد صحفيا لامعا وكاتبا كبيرا، وكنت أعتبرهَ واحدا من أفضل من تحدثوا على شاشة التلفزيون وهو يروي كحكاء بارع قصصا مثيرة من التاريخ.. وقد أصدر جمال جريدة ونحن ندرس في الثانوي باسم «الفجر»، لم تكن كغيرها من صحف الهواة تصدر كصحيفة حائط أو تطبع بـ «البالوظة» ولكنها كانت تطبع في مطبعة.. وقد دعاني للكتابة فيها، فكانت أول كتابة صحفية منشورة لي، وأظن أنها عندما نشرت لم تلفت نظر أحد..

أما الطالب الثاني الذي امتدت علاقتي به هو الآخر، عمرو موسى وزير الخارجية وأمين الجامعة العربية ثم مرشح الرئاسة، فكان كل من يعرفه يتوسم فيه النبوغ، وكان متفوقا طوال دراسته، وغالبا ما كنا نتنافس معا على المركزين الأول والثاني، وظل طويلا يتحدث عن هذه «المعركة» إلى الآخرين أينما تواجدنا معا، ويضيف ضاحكا أنه كان بالطبع الأول على الدوام، وكنت أقول إنني سلمت بأنه كان الأول منذ عين

وزيرا.. ولم يكن ثلاثتنا من زعماء الطلبة الذين يقودون المظاهرات، وإن كنا قد خرجنا في بعضها نردد الشعارات الملتهبة حينئذ: «الاستقلال التام أو الموت الزؤام» و«نموت نموت وتحيا مصر»، ونطالب بسقوط حكومات إبراهيم باشا عبد الهادي وحسين سري باشا في أواخر الأربعينيات.. وكان إلى جوار المدرسة معسكر للأسرى الألمان الذين أسرتهم القوات البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية، وكنت أشعر بكثير من الشفقة عندما أرى عيونهم التي يشع منها الأسى وهم يطلون من خلف نوافذهم المدججة بالأعمدة الحديدية، وكنت مثل كثير من المصريين وقتها أميل إلى هتلر ربما لأنه عدو عـدوي، لكنني لم أكن وقتها عضوا في حزب بعينه أو تيار من التيارات السياسية، وإن كانت ميولي الاشتراكية قد بدأت تتبلور..

كان لي في ذلك الوقت بطل أسطوري واحد هو لطفي فطيم.. كان في العشرينيات من عمره، وكان جارا لنا.. لفت نظري بزيارات «البوليس السياسي» المتكررة له، واختفائه لأيام أو شهور بعد أن يغادر منزله في «بوكس» الشرطة.. كان لطفي لغزا بالنسبة لي وعدد من أقراني، وازداد اللغز غموضا حين قال أحدنا إنه شيوعي.. ولم يكن هناك بد من أن أتربص به ذات مرة وأسأله إذا ما كان شيوعيا حقا، وماهي هذه الشيوعية؟ وقد أجابني يومها بإيجاز، لكنه وعدني أن نلتقي مرة كل أسبوع في الحديقة المواجهة لمدرسة طنطا الثانوية القديمة في شارع البحر ليحدثني باستفاضة.. وكان لطفي يكبرني بنحو عشر سنوات، وكان وقتئذ طالبا في الجامعة، وكان لطيف المعشر سريع الكلام حاد النظرات.. عندما التقينا في الموعد المحدد نبهني أن أكتم سر لقائنا ومكانه فازداد الأمر بالنسبة لي إثارة، وأعطاني يومها محاضرة موجزة تذكرت منها عبارتين براقتين، «العدالة الاجتماعية» و«المساواة بين البشر».. لما قلت لأبي ما سمعت قال إن ذلك كله في الإسلام، وطلب مني أن أستعد في عصر اليوم التالي ليصطحبني إلى جمعية «الشبان المسلمين».. سألته: الشبان أم الإخوان؟.. أذكر ما قال..

«لا، الإخوان شداد شوية».. ربما كان يعني متشددين، أو يعني أنهم ميالون إلى العنف، خاصة أن الأنباء كانت قد تواترت عندئذ عن مقتل النقراشي باشا رئيس الوزراء واللواء سليم زكي حكمدار العاصمة على أيديهم..

كان رائد أسرتي في «الشبان المسلمين» هو إبراهيم مصطفى، وكان رجلا سمح الوجه جذاب الحديث، ولم يكن يطلب من أحد أن يحفظ القرآن ولكنه كان يطالبنا أن نفهمه ويعيننا على ذلك، وقد دربني أيضا على تنس الطاولة، وكان ينظم لنا معسكرات كشفية في صحراء حلوان كل عدة أشهر، ويأخذنا إلى أفلام مختارة في دور السينما بالقاهرة، أظن أن أولها كان الفيلم الأمريكي «أفضل سنوات حياتنا» الذي يحكي قصة جنود عائدين من الحرب العالمية الثانية..

ولكن شخصية لطفي كانت تجذبني على الرغم من أنني لم أقابله من بعد سوى مرات معدودة.. في إحدى هذه المرات علم مني أنني على وشك السفر مع العائلة إلى الإسكندرية فبدا عليه أنه لم يكن سعيدا بذهابنا إلى هناك كل صيف.. كان يعتبر هذا كما قال «بورجوازية مقيتة»، وكنت أتعجب من أين له بمفردات اللغة هذه التي لا أدري بها على الرغم من أنني أول الفصل دائما في اللغتين العربية والإنجليزية، ولكنه فسر لي الأمر بأن إجادة اللغة لا تأتي سوى بكتابة المنشورات، ودعاني إلى بيته حيث أطلعني على بعض هذه المنشورات المكتوبة بخط اليد، وكان أحدها قاموسا في ألفاظ السباب، لعن فيه خاش الملك والحكومة والإنجليز جميعا.. يومها طلب مني أن أعاونه في نسخ المنشورات بخطي لأن الشرطة أصبحت تعرف خطه جيدا، وعندما تهربت طلب مني أن أعاونه في توزيعها على الأقل، وبدت لي المهمة أكثر إثارة..

قال إنه يعرف أنني أصلي الجمعة في مسجد قريب من البيت، ولكنه يطلب مني أن أصليها في الأسبوع التالي في مسجد السيد البدوي الحاشد عادة بالمصلين؛ لكي نوزع فيه منشورات معادية للملك.. ذهبت إلى منزله صباح الجمعة حيث شحنت حزمة من المنشورات داخل سترتي، وفعل هو الآخر الشيء نفسه، وذهبنا إلى المسجد.. توجه هو إلى الطابق الأرضي وطلب مني التوجه إلى الطابق العلوي، وقال: «عندما تنتهي الصلاة ويبدأ المصلون في التسليم اقذف المنشورات من أعلى إلى صحن المسجد بعد أن يلتفت الناس بالسلام إلى جانبهم الأيمن وقبل أن يلتفتوا للتسليم إلى يسارهم، وهرول إلى أسفل تجاه الباب دون أن تجري».. وتمت المهمة بنجاح، وكنت أشعر بسعادة بالغة وأنا أرى المنشورات تتطاير مع الريح الخفيفة في صحن المسجد كما لو كنا في كرنفال..

كانت تعليمات لطفي أن يتحاشى كل منا أن يلتقي الآخر لأسبوع كامل، ولكنني شغلت عنه سنوات طوالا كان قد طلق خلالها النشاط السياسي وسافر إلى الخارج، ربما إلى هولندا، وعندما عاد نجح في ميدان نشر الكتب وتوزيعها، وأصبح أستاذا لعلم النفس في الجامعة.. وقد علمت مؤخرا أنه عاش في السعودية نحو عشر سنوات توفي بعدها في عام ١٩٩٨..

أما المغامرة الأخرى التي لا أزال أختزن تفاصيلها حتى اليوم فكانت أيضا أيام دراستي الثانوية، وكان ميلي للصحافة قد ازداد بعد أن كتبت ما كتبت في صحيفة جمال بدوي.. بعدها علمت أن هناك صحيفة محلية تصدر في طنطا باسم «جريدة الإخلاص»، ولم تكن هذه الصحيفة تصدر بانتظام، وكان صاحبها ورئيس تحريرها هو الأستاذ محمد عبد السلام شتا.. كانت «الإخلاص» تنشر مواد اجتماعية صرفة، معظمها أخبار عن كبار الموظفين وعن مواليد وأفراح كبار القوم في مديرية الغربية وإعلانات عن محال ملابس ومطاعم وتهانٍ بالمناسبات..

ذهبت إلى الأستاذ عبد السلام في الجريدة، وكانت في حارة خلف قسم أول طنطا، وكان المكان من الضيق بحيث لم يكن هناك براح لمكتبه الذي كان مجاورا لآلة الطباعة.. يومها كان الرجل رابضا خلف المكتب، وقد لف حول كل كم من أكمامه كيسا من القماش الأسود ليحميه من الأحبار.. رحب بي ببعض المبالغة، وطلب مني أن أجمع أخبارا من هنا وهناك وآتي بها إليه بعد أسبوع، لكنه حذرني من أنه سيكون من الصعب القيام بهذا العمل إلّا لو أعطاني بطاقة صحفية، وقال إن لديه نوعيْن من البطاقات أحدهما «عادي» والآخر «لوكس».. ولم أكن وقتها أتخيل أنه يمكنني بهذه السهولة أن أحصل على بطاقة صحفية، فقد تراءى لي أنه لا يمكن أن يحصل أحد على مثلها إلّا لو كان يمارس المهنة منذ سنوات أو حاصلا على شهادة جامعية في الصحافة، لكن الأستاذ عبد السلام سرعان ما بدد هذا الوهم، وقال إنه لا توجد علاقة بين الشهادات والبطاقات، فلما سألت عن الفرق بين البطاقتين قال إن العادية من الورق المصقول، أما اللوكس فهي مغلفة بغلاف من الجلد الزيتوني.. اخترت اللوكس على الرغم من أن ثمنها كان أربعة جنيهات هي كل ما كان في «حصالتي»، وحصلت على مايثبت أنني أصبحت «مراسلا صحفيا».. أذكر أنني

ذهبت إلى الإسكندرية في ذلك الصيف، وعندما كنت أدخل إلى بلاج سيدي بشر نمرة ٢ الخاص كنت أبرز الكارنيه اللوكس وأقول بصوت عالٍ: «صحافة» فيسمح لي بالدخول دون أن أدفع الرسوم، وكنت أحس بزهو عظيم..

مع ذلك لم أمارس الصحافة في «الإخلاص» سوى أسابيع قليلة كنت أتردد خلالها بانتظام على مقر الجريدة، أنشر بعض الأخبار السقيمة، وأرقب الأستاذ عبد السلام باهتمام وهو يعمل، وأذهب إلى المطبعة في المساء بين حين وآخر.. في ذلك الوقت كان هناك جدل محتدم في البرلمان حول ترميم اليخت الملكي «المحروسة» في إيطاليا، وكانت الحكومة قد خصصت لهذا الغرض مليون جنيه، وهو الأمر الذي استفز نواب المعارضة، وخاصة المحامي الكبير مصطفى مرعي بك الذي قدم استجوابا في هذا الشأن وألقى خطابا ناريا قال فيه كلمته الشهيرة: «اليخت ملك فاروق وليس ملكا للدولة فلماذا تتكلف الدولة بتصليحه؟».. وقد تأثرت كثيرا بالخطاب فكتبت مقالا على خطى مرعي نفسها، وتسللت به في المساء إلى المطبعة وقمت بدسه في الصحيفة بعد أن خدعت «المطبعجي» في وردية الليل.. نزلت الكارثة بـ«الإخلاص»، وأغلقت الصحيفة، وألقي القبض على محمد عبد السلام شتا في قسم أول ولكنه سرعان ما دبر أمره فأفرج عنه خلال ساعات.. أما أنا فقد استطاع والدي أن ينقذني أنا الآخر، وعندما قرأ المقال شد أذني اليمنى وهو يقول معاتبا: «قبل ما تكتب كلام زي ده، إبقى شوف دراستك الأول».. وعندها ابتسم، وفهمت منذ ذلك الحين أنه لم ينزعج كثيرا مما فعلت..

وعندما كنت أقدم برنامج «أقوال الصحف» في التلفزيون المصري في الستينيات استضفت عبد السلام شتا في إحدى حلقاته، وكان يغرق في الضحك ونحن نذكِّر بعضنا بتفاصيل الحكاية، وقد أمطرني يومها بالمديح باعتباري خريج مدرسته الصحفية النابه.. وللأسف فإنني لم أسمع عنه بعد ذلك..

اجتزت امتحان «الثقافة»، أي امتحان السنة الرابعة، وكانت الدراسة الثانوية عندئذ لمدة خمس سنوات، وعندما اقتربت امتحانات التوجيهية (الثانوية العامة) تبدلت الأحوال.. مرض والدي مرضا شديدا اضطر معه للعلاج في مستشفى الجمعية

الخيرية في القاهرة، أما أمي فقد أرهقها السفر بين طنطا والقاهرة، واضطربت أحوال البيت، وكنت أنا وإخوتي في غم دائم، فأنهيت الامتحان بصعوبة، ولم أحصل سوى على ٦٠٪ بالكاد.. كانت هذه صدمة قاسية للعائلة التي كانت تتوقع لابنها المتفوق دائما أن يدخل الطب ويلبس البالطو الأبيض وينادوه: «يا دكتور»، وكانت أيضا صدمة لي أصابتني بضيق شديد خاصة عندما دخل الطب اثنان من تلاميذ فصلي، لكن حزني كان أكبر لحزن والدي الذي لابد أنه أحس أن مرضه كان السبب في إخفاقي..

بعد أن استوعب الجميع الصدمة في النهاية وخرج والدي من المستشفى وحمدنا الله وسلمنا بالأمر الواقع، اجتمع رأي العائلة وقتها على أن أدرس الطب في الخارج على الرغم من أنني كنت في السادسة عشرة من العمر، وبعد أن تشاوروا مع الدكتور علي قنديل اتفقوا على أن أفضل جامعتين تدرِّسان الطب في أوروبا هما أدنبرة في إسكتلندا ومونبلييه في فرنسا، وهكذا أرسل أبي برقيتين إليهما فردت مونبلييه بأنه ليس لديها أماكن شاغرة، أما إدنبرة فلم يصلنا منها رد، وربما لم تصل البرقية إليها.. وكان أن ذهبت مع والدي إلى القاهرة لنبحث عن مكان لي في الجامعة.. وكان الضباط الأحرار قد خلعوا الملك فاروق وتولوا الحكم قبلها بأيام، والغريب أن أمي كانت قد قصت علينا أنها رأت في الحلم شجرة كبيرة تنبت بسرعة وسط ملاعب نادي «إعداد الجيل»، وأن أعضاء النادي جميعا وقفوا ملتفين حولها وهم يهتفون: «تحيا مصر»، وقالت إنها تحس أن شيئا كبيرا سيحدث.. وأخذنا نتندر على روايتها بضعة أيام..

في فورة حماستي للثورة أبلغت أبي أنني أريد الالتحاق بالكلية الحربية فلم يعترض، لكنه قال إن الشباب يمكنهم أن يخدموا بلدهم في ميادين كثيرة، وإنه إذا دخل كل الناجحين الحربية لتوقفت الحياة.. وكان للكليات العملية تقدير خاص عند أبي، وأعتقد أنه لم يكن يحفل كثيرا بالكليات النظرية أو يتوقع خيرا وفيرا لخريجيها وإلَّا لما كان قد وافق على أن تكون دراستي الثانوية في القسم العلمي وليس الأدبي.. ولم أكن في الحقيقة أدري ما الخيار الأفضل لي.. أظن أن هدفي كان الفوز في المنافسة، فإذا كان الحاصلون على الشهادة الثانوية يتقاتلون على الوصول إلى الطب فليكن الطب.. لا بد لي أن أكون ضمن هذه الباقة المميزة، خاصة أن الطب كان مقياس النجاح ليس فقط لدى الأهل وإنما لدى المجتمع بأسره..

انسقت وراء هذا السباق الواهم، والغريب أنه لم يدر بخاطري قط أن ميولي الأدبية قد تدلني على الطريق إلى مستقبلي.. وفي كل الأحوال فلم أكن أعتبر نفسي موهوبا في الأدب على الرغم من ميلي إلى الصحافة، وعلى الرغم من حصولي على أعلى درجات في البلاغة والنحو، وعلى الرغم من أني ألقيت خطاب الطلبة أكثر من مرة في احتفالات أقامتها المدرسة وأولياء الأمور في «نادي طنطا الرياضي» بمناسبة انتهاء السنة الدراسية، وكنت عضوا أيضا في فريق التمثيل.. لذلك أرثي حتى الآن لحال الطلبة في هذه السن، كيف يستطيعون تحديد مستقبلهم خاصة إذا لم تكن لديهم موهبة ظاهرة أو ميل واضح تجاه دراسة بعينها..

ولكنني أصبحت على يقين بعد مرور السنين أنه إذا ما كانت لدى الطالب رغبة مؤكدة في دراسة بعينها فلنترك له القرار.. المهم أن يحب المهنة التي يعد نفسه لها، وأن يتفوق في الدراسة مهما كانت هذه الدراسة، فخير له وللمجتمع أن يكون رساما شهيرا أو محاميا بارزا بدلا من أن يكون طبيبا فاشلا أو مهندسا لا يميزه شيء عن ألوف المهندسين.. ولاشك أن هذا كله يرتبط بنظام القبول في الجامعات الذي يحدد مستقبل الطالب وفق ما حصل عليه من درجات، وهو واحد من الأسباب الأولى لفشل الجامعات في بلدنا..

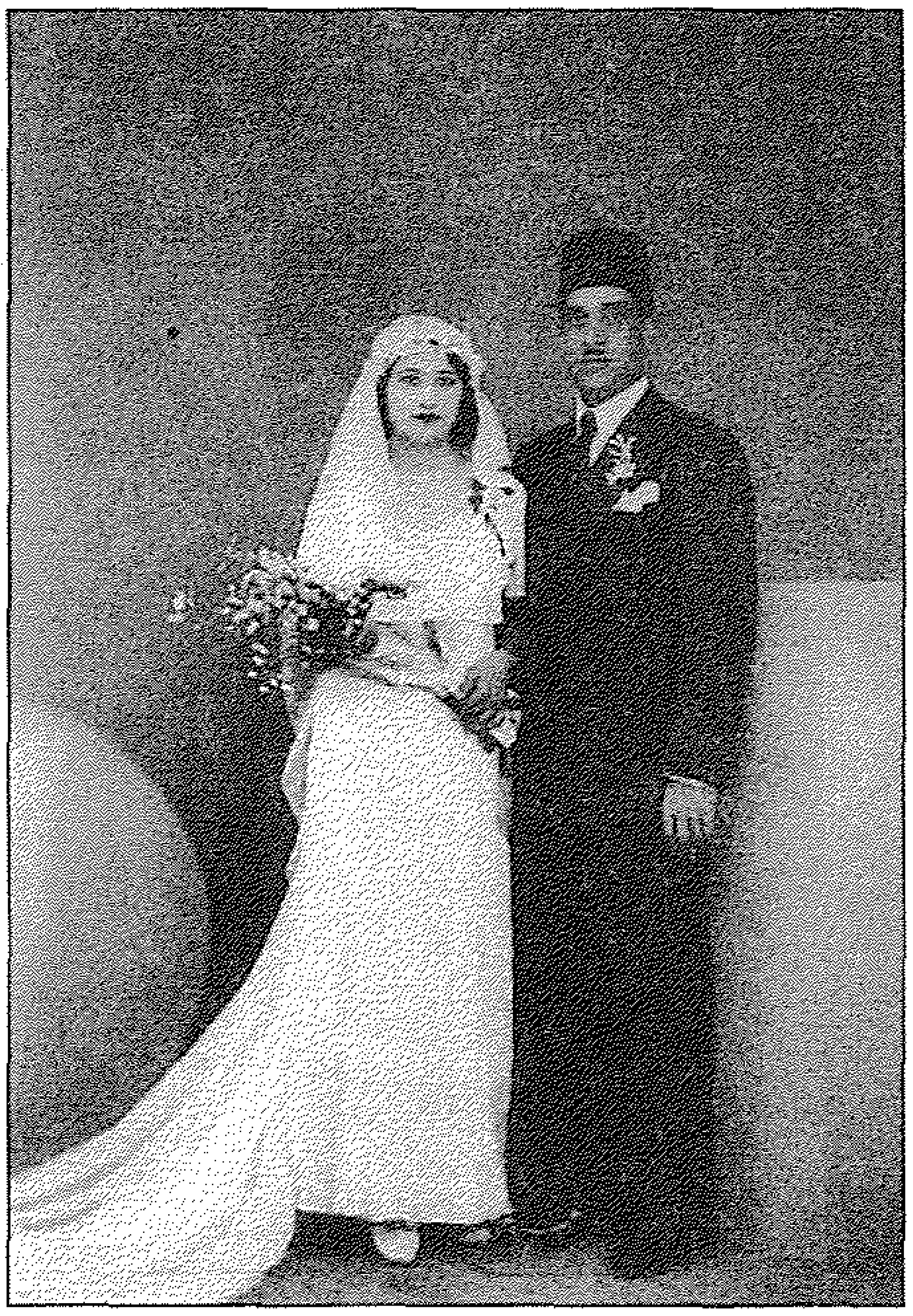

صورة زواج الوالد والوالدة (١٩٣٤).

في الثالثة من العمر (١٩٣٩).

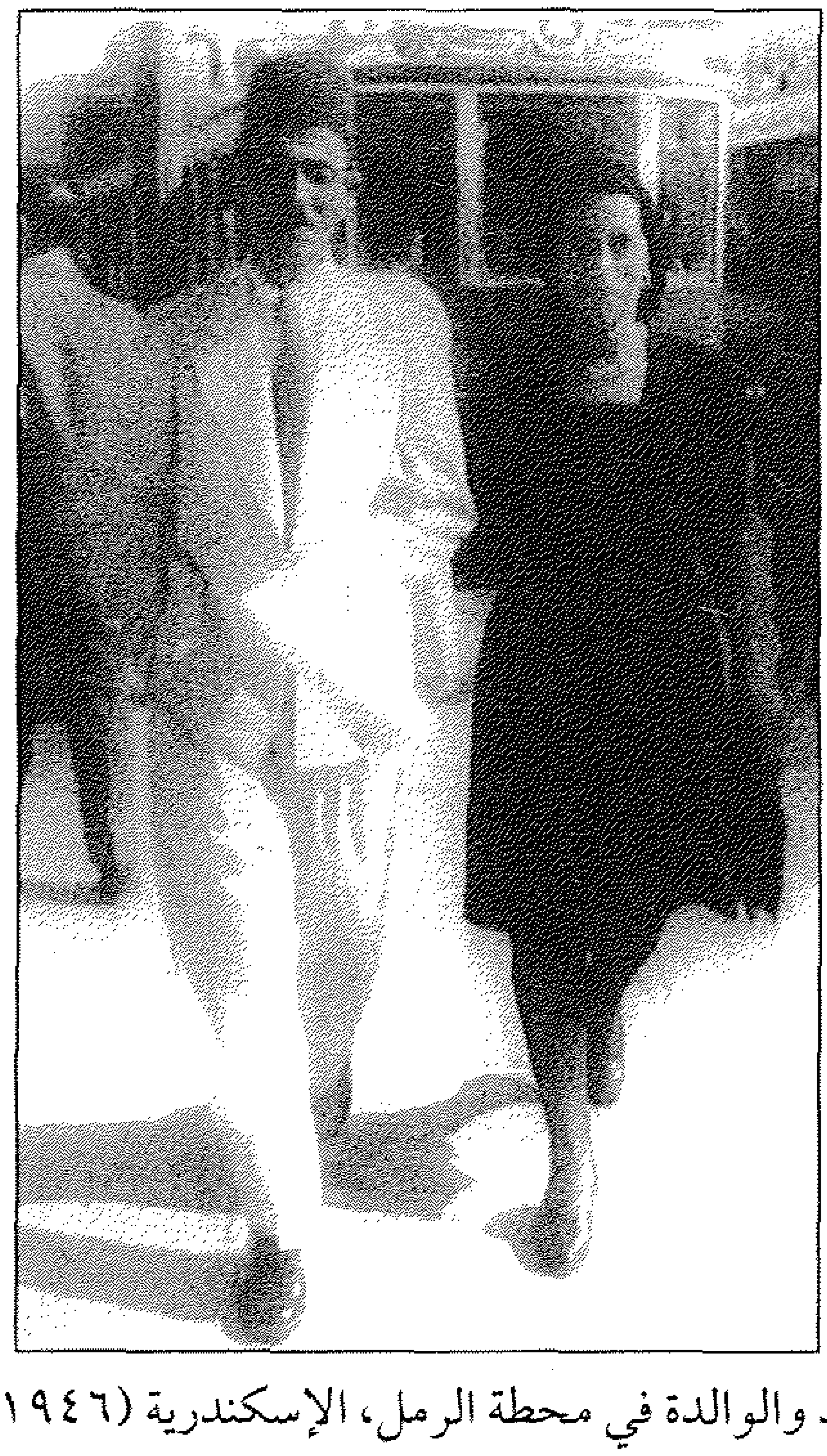

الوالد والوالدة في محطة الرمل، الإسكندرية (١٩٤٦).

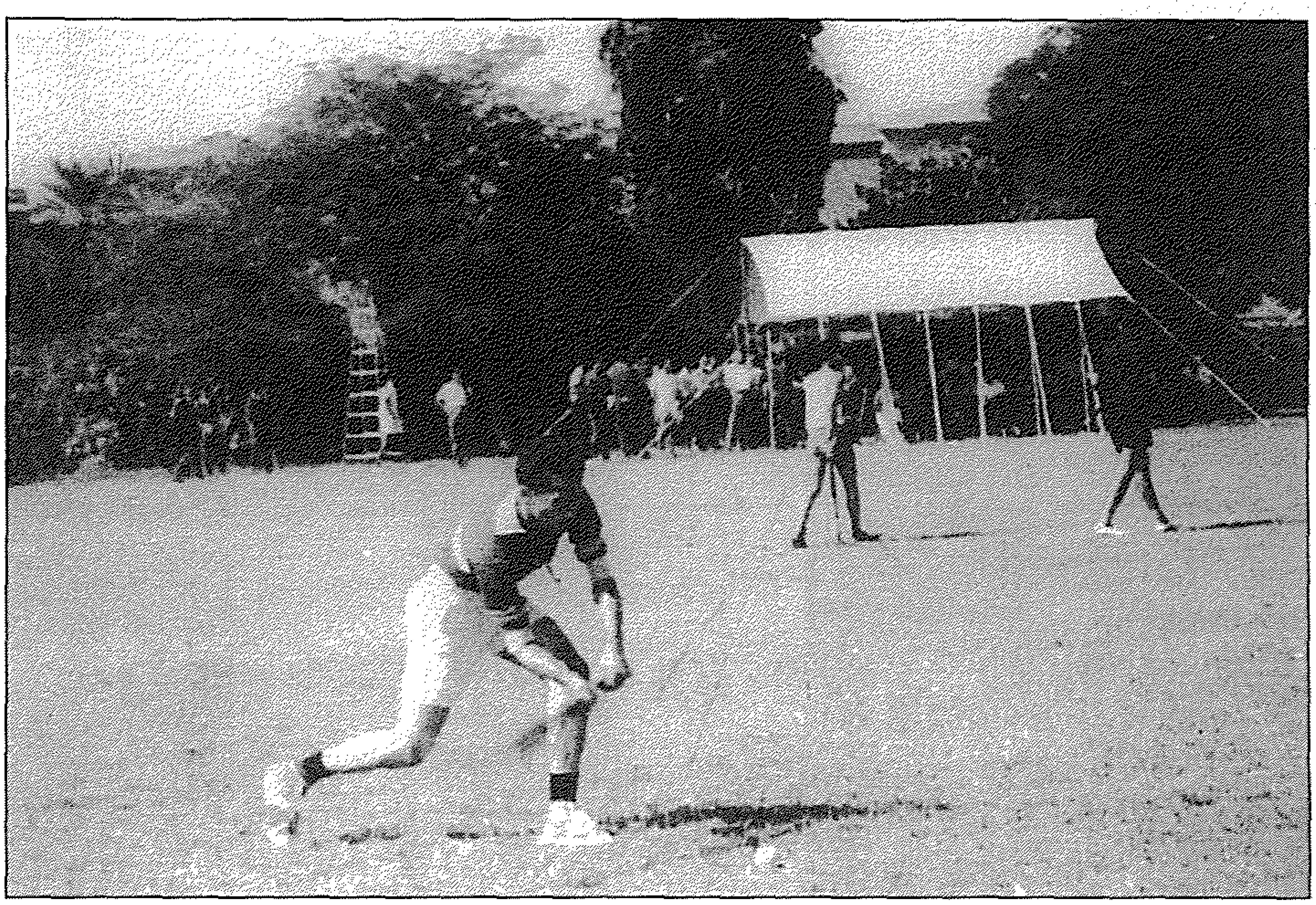

ألعب الهوكي في «نادي إعداد الجيل» (١٩٥٠).

فـي الصف الأخيـر إلى اليسار مع فريق الهوكي وناظر طنطا الثانوية نجيب بك دميان (١٩٥٠).

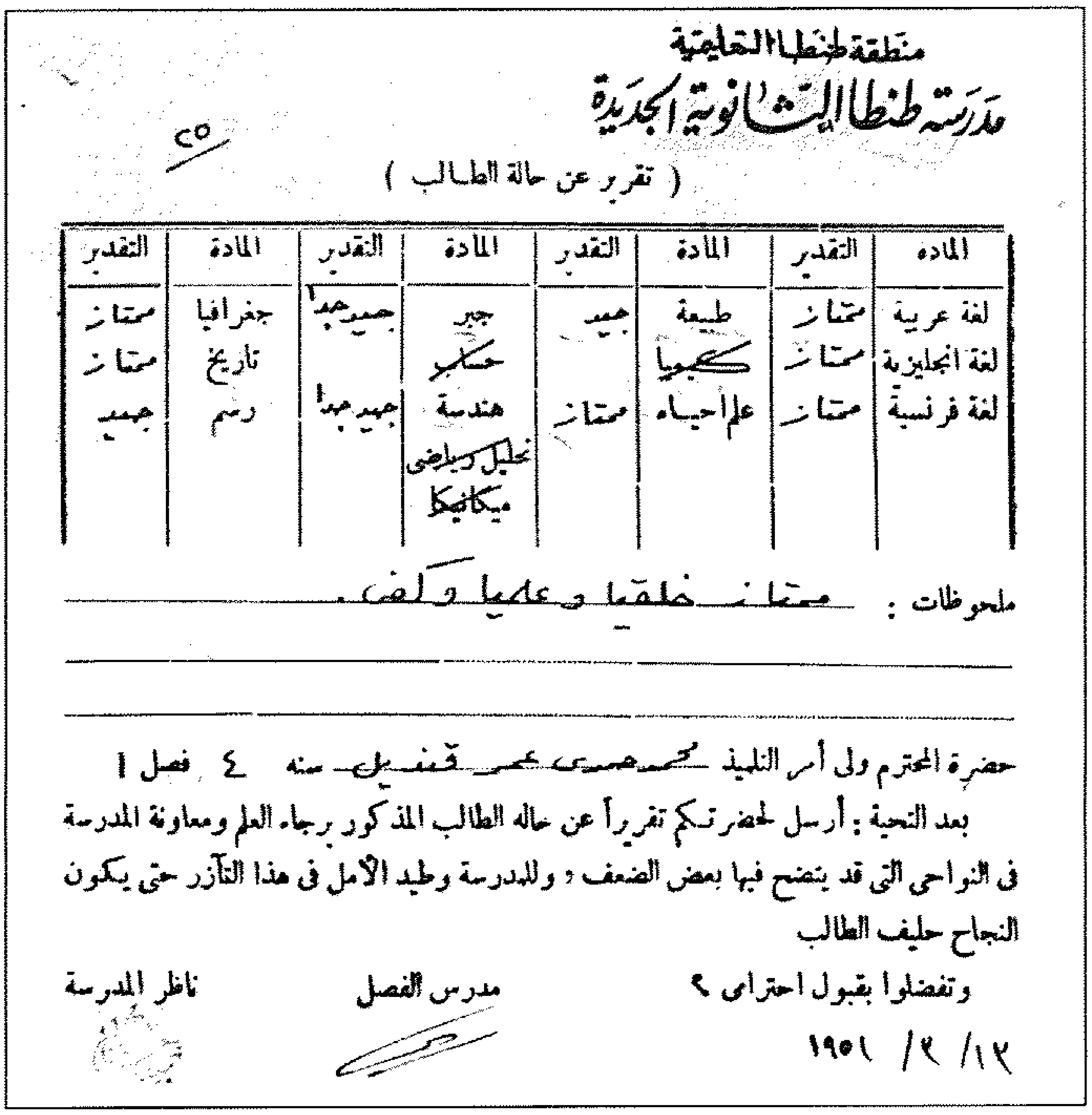

منطقة طنطا التعليمية
مدرسة طنطا الثانوية الجديدة

٢٥

(تقرير عن حالة الطالب)

المادة	التقدير	المادة	التقدير	المادة	التقدير	المادة	التقدير
لغة عربية	ممتاز	طبيعة	جيد	جبر	جيد جداً	جغرافيا	ممتاز
لغة انجليزية	ممتاز	كيميا		حساب		تاريخ	ممتاز
لغة فرنسية	ممتاز	علم أحياء	ممتاز	هندسة	جيد جداً	رسم	جيد
				تحليل رياضي			
				ميكانيكا			

ملحوظات : ممتاز خلقيا وعلميا وكف.

حضرة المحترم ولى أمر التلميذ محمد حمدى عمر قنديل سنه ٤ فصل ١

بعد التحية : أرسل لحضرتكم تقريراً عن حالة الطالب المذكور رجاء العلم ومعاونة المدرسة فى النواحى التى قد يتضح فيها بعض الضعف ، وللمدرسة وطيد الأمل فى هذا التآزر حتى يكون النجاح حليف الطالب

وتفضلوا بقبول احترامى ؟ مدرس الفصل ناظر المدرسة

١٢/ ٢/ ١٩٥١

شهادة أعمال السنة في «مدرسة طنطا الثانوية الجديدة» (١٩٥١).

بطاقة عضوية فريق التمثيل في طنطا الثانوية (١٩٥٢).

شلة قصر العيني في يوم تخرج شقيقي ماجد من الملكية الحربية (١٩٥٦) من اليسار : عادل السلاوي، مرتضى مغازي ، أحمد زعفان ، محمد البربري .. في الوسط : ماجد وأمامه أصغر أشقائي عاصم .

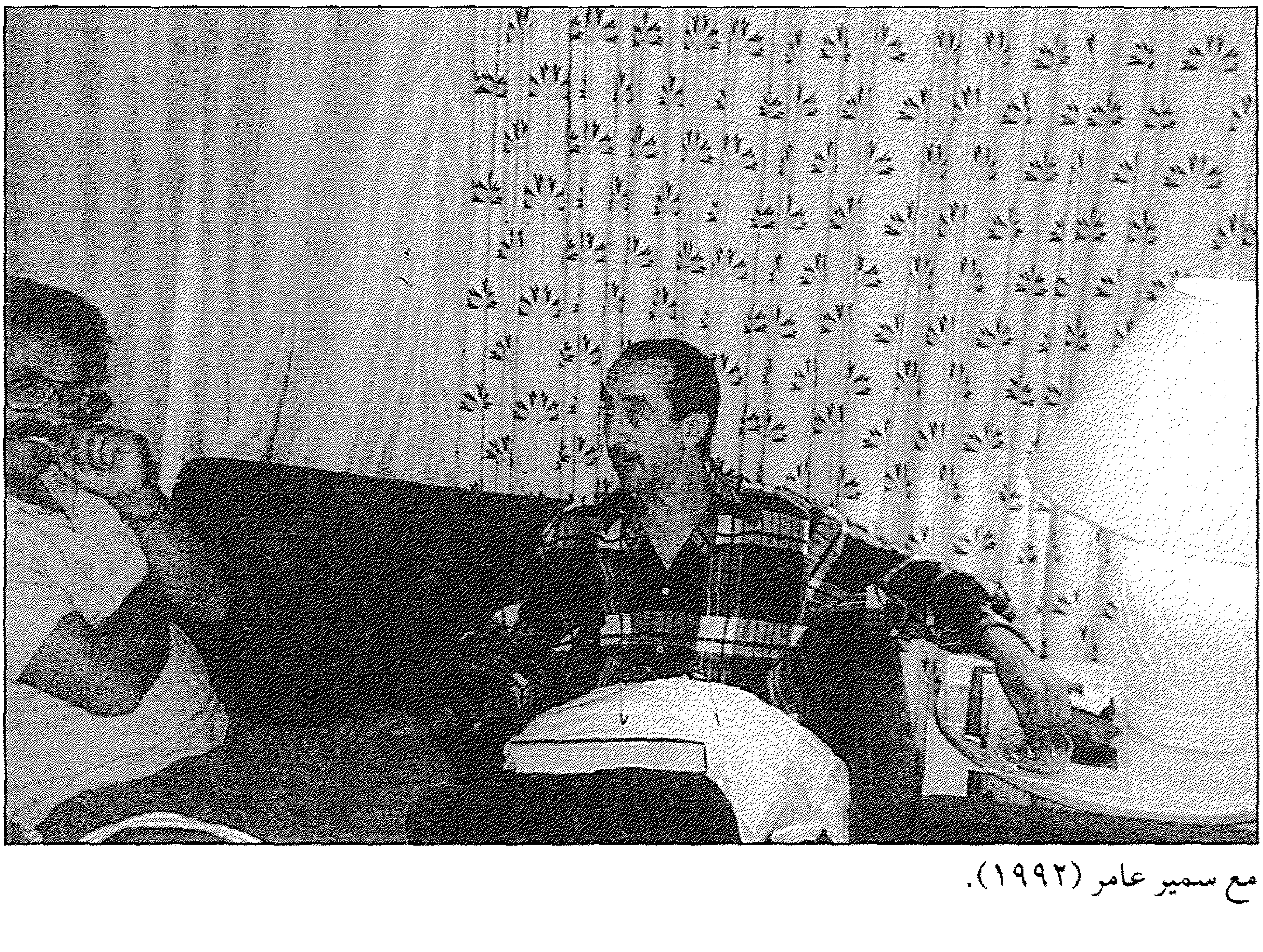

مع سمير عامر (١٩٩٢).

مع شقيقتي ميرفت (١٩٩٤).

مع جمال بدوي (١٩٩٦).

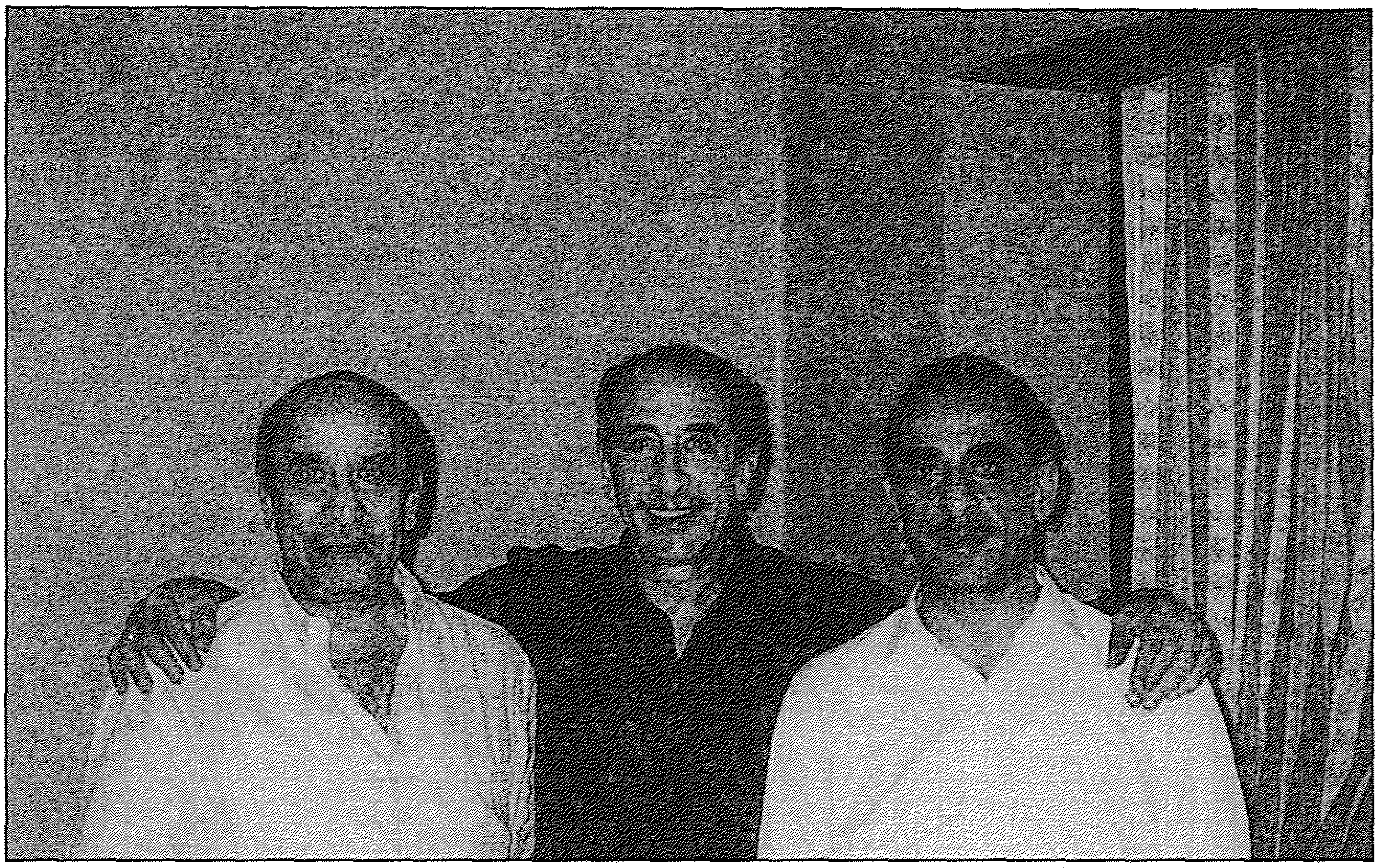

إلى يميني شقيقي ماجد وإلى يساري عاصم (٢٠٠٦).

مع عمرو موسى في «منتدى الاتصال الحكومي» بالشارقة (٢٠١٣).

(٢)

لو كنت درست مع البنات

١٩٥٢ - ١٩٥٦

◆ ◆ ◆

ظللت سنوات حائرا بين ظنوني، فإما أن ياسر عرفات خيل إليه ونحن في أثينا أنه يرى فلسطين لشدة تعلقه بها، وإما أنه كان قد بدأ منذ مطلع شبابه يلعب دور السياسيين الذين يبيعون الأوهام للناس ويلعبون بعواطفهم.

◆ ◆ ◆

صارحني أنني سأدخن «أجدع حشيش في مصر»، فعاندت لأثبت للجميع أن «الأفندي» لا يهزه الحشيش، ودخنت بدلا من السيجارة ثلاثا.. وعندما غادرتهم ضعت في مسالك القلعة.

قادني مجموعي في الثانوية العامة إلى واحد من اختيارين؛ إما كلية العلوم وإما معهد الكيمياء الصناعية.. وكان أبي يتكهن بأن للتعدين والبترول مستقبلا كبيرا في مصر؛ ولذلك رجح كفة كلية العلوم، بل وقال: «اعمل حسابك من الآن، عندما تبدءون في التخصص، فسوف تدرس في قسم الجيولوجيا».. وكانت كلية العلوم المتاحة هي علوم الإسكندرية..

كانت نقلة ثقيلة في حياتي من البيت الدافئ إلى المجهول.. سافرت مع والدي إلى الإسكندرية، وكان لنا هناك أقارب يعيشون في حي فيكتوريا، طلب والدي منهم أن يساعدونا على إيجاد مسكن لي يفضل أن يكون مع «ناس طيبين»، وكان يفضل أن أعيش مع أجانب من هؤلاء الذين كانت الإسكندرية لا تزال زاخرة بهم.. أذكر أننا عندما ذهبنا إلى «فيلا» من المواقع المرشحة، فتحت لنا الباب شقراء فاتنة في نحو الثلاثين وهي تقفز على السلم بخفة ورشاقة لتستقبلنا، وبعد أن قادتنا إلى الصالون وقدمت لنا الشاي ورحبت بالساكن الجديد سأل والدي إذا ما كان أبوها أو أمها سيلحق بنا لنتحدث في «الموضوع»، فأجابت: «أنا الذي سأتحدث.. أنا الوحيدة في هذا البيت»، وضحكت ضحكة ماكرة.. ولست أدري ما الذي قاله أبي عندئذ، لكنني أعجبت كثيرا بلباقته وهو يتحدث طويلا دون أن يقول شيئا ذا معنى.. وعندما خرجنا من باب المنزل اكتفى بالقول: «أظن يا حمدي السكن ده مش مناسب»..

أخيرا اهتدينا إلى عائلة يونانية.. كانا زوجين في الستينيات من عمرهما، وكانت الشقة نظيفة، وكانت قريبة من محطة النقراشي وهكذا فهي لا تبعد بقطار أبو قير سوى نصف الساعة من محرم بك حيث توجد الكلية، فاتفقنا مع الرجل على السكن والإفطار مقابل ١٢ جنيها في الشهر، واشتركت في مطعم مجاور للكلية لتناول الغداء فيه مقابل أربعة جنيهات أخرى..

كان الرجل تاجر خنازير.. لا يهم.. المهم أن الحياة سارت على مايرام، من البيت إلى الكلية ومن الكلية إلى البيت، ولم يكن يشغلني شيء آخر على الرغم من أن هذه كانت المرة الأولى التي أعيش فيها وحدي.. خرجت عن القاعدة مرة واحدة فقط حين دعاني ابن إحدى العائلات من معارفنا ذات ليلة إلى المنزل الذي كان يسكنه وحده لأشاركه حفل عيد ميلاده، لكنني لم أستسغ حضور بعض الساقطات ربما لأنهن كن يحاولن إغراءنا على نحو مكشوف ومصطنع.. لو كن أكثر ذكاء فالأرجح أني كنت سأقع في الفخ.. على أي حال، فقد نسيت في اليوم التالي مباشرة تلك المغامرة التي لم تكتمل، وتفرغت لدروسي كما هي العادة..

أذكر أنني اشتريت كتبا كثيرة، وكان معظمها بالإنجليزية، وكنت أستغرق في الدراسة إلى حد أنه لم يكن يغريني في المدينة الكبيرة شيء سواها، ولم يكن لي بعدُ أصحاب ولا رفاق أزورهم ويزورونني، وربما كنت أحس أيضا بشيء من تأنيب الضمير لأنني لم أستطع دخول كلية الطب.. بدأت بالتدريج أضيق بالبيت وصاحبه، ثم بالكلية وعلومها، وداهمتني نوبات من الصداع لم أكن أعرفها من قبل، ولم يمضِ شهران حتى استولى عليَّ شعور جارف أن أعيد امتحان التوجيهية وأحصل على مجموع أستعيد به كرامتي وسط أقراني وأعيد به البهجة إلى الأسرة، وأظن أن هذا كان دافعا هاما لعودتي إلى طنطا، وأعتقد أن أبي وأمي لم يمانعا في ذلك بل ربما كانا يحبذانه..

بدأت أجمع كتب التوجيهية مرة أخرى وأعد نفسي للامتحان، إلَّا أن نوبات الصداع كانت تتكرر بسرعة أكبر وحدة بالغة، ولم أكن أستطيع القراءة أكثر من دقائق معدودة، وظن الجميع في بداية الأمر أنني أحتاج إلى نظارة طبية ولكن نظري كان سليما، وهكذا صحبني أبي إلى القاهرة حيث طفنا بأطباء في كل التخصصات عدا أمراض النساء والأطفال، وخلعت وقتها ضرسا ربما لم أكن مضطرا لخلعه، وأجريت لي تحاليل عجيبة وصور أشعة لا عدَّ لها.. وحتى نستكمل دورتنا على عيادات الأطباء، فقد رأى أبي أن نذهب أيضا إلى طبيب أمراض نفسية، هو الدكتور عبد العزيز عسكر، وبالرغم من أنه نصح بحاجتي إلى عدة جلسات، فإنني عزفت عن ذلك..

وهكذا قفلنا عائدين إلى طنطا ونحن في حيرة، والصداع لا يزال على حاله، وكان التفسير المنطقي الذي توصلت إليه صديقات أمي بعد أن أمضين معها يوما كاملا يبحثن فيه الأمر هو أن «الولد معمول له عمل».. وهكذا جيء برجل معمم إلى البيت، وأعدت له غرفة مظلمة وحده، خرج منها بعد ساعة ليعلن على الجميع أن الولد معمول له عمل فعلا، وأن هذا العمل مدفون في الحقول المجاورة لمستشفى طنطا الأميري، وأننا يجب أن نخرج في اليوم التالي في الفجر لنبحث عنه ونبطل مفعوله.. وعندما جاء الرجل بالحنطور مع أول خيط من خيوط النهار نزلت إليه مع أبي الذي كان ممتعضا امتعاضا شديدا لتورطه في كل هذه الرواية، لكنه حاول إخفاء شعوره.. وتوقف الحنطور بنا بجانب سور المستشفى، ونزل الرجل معصوب العينين ونحن وراءه، وعندما أمسك بالسور بيده، خطا ثلاث خطوات عدَّها بحرص، ثم توقف وخلع منديله من فوق عينيه ونادى على واحد من الفلاحين الذين كان يعملون في الحقل بالقرب منا: «إفحت هنا يا جدع»، وإذا بخرقة ملفوفة في قطعة من القماش القذر تظهر من باطن الأرض فيتلقفها الرجل بيده متلهفا كما لو كان قد وجد كنزا..

عاد بنا الحنطور إلى البيت، حيث طلب الرجل طشت غسيل مليئا بالماء، ونثر فيه كثيرا من الملح وهو يقرأ القرآن ويفك اللفافة بيديه، حتى ظهرت بداخلها ورقة ملفوفة بعناية فقال الرجل إنها هي «العمل».. وعندما هَمَّ بإلقاء الورقة في الماء أطبق والدي على يده وصمم على أن يقرأ ما في الورقة.. حاول الرجل أن يقنع والدي بأن من يلقي نظرة واحدة على العمل تعمى عيناه، ولكن والدي لم يتراجع، وقد ازداد إعجابي لحظتها به، ولم أكن أتخيل أنه يخفي وراء وجهه السمح كل هذه القوة والحزم، وبدأ والدي في قراءة الورقة، ولم يجد مكتوبا فيها سوى آيات من القرآن فتساءل: كيف يجلب كتاب الله الضرر؟ وفوق هذا وذاك لم يجد ذكرا لاسمي في الورقة، فطرد الرجل شر طردة.. ومنذ ذلك الحين وأنا لا أصدق الدجالين أو أتعامل مع العرافين..

ربما كان الاستثناء الوحيد قد حدث بعد ذلك بسنوات قليلة، وكنت لا أزال طالبا بالجامعة، فقد زرت محمد جعفر قارئ الكف الشهير في شقته بشارع قصر العيني، وكان بعض رفاقي قد أقنعوني عندئذ أن قراءة الكف علم قديم راسخ، وأنها شيء

مختلف تماما عن ضرب الودع أو تحضير الجان أو فتح المندل، ودفعت جنيهين اثنين في تلك الجلسة، وكان ذلك في أواسط الخمسينيات.. وحتى الآن فإن ذاكرتي لا تعي شيئا مما قال سوى أنه تنبأ بأني سأموت في الخارج وأدفن في مصر، وأعترف أن هذه النبوءة أزعجتني لوقت طويل فيما بعد، خاصة أنني قضيت حياتي أتنقل من مكان لآخر..

وكانت أمي ـ شأنها شأن سيدات مصريات كثيرات ـ مولعة بمخاطبة المنجمين، ولكنها كانت أذكى بكثير من أن تنطلي عليها حيلهم، وفي واقع الأمر فقد كان التبرك بأضرحة الأولياء واحدا من هواياتها المفضلة، وكان لها بالطبع أولياء مفضلون، ذهبت إلى بعض منهم مثل «السيد البدوي» و«الشيخة صباح» عندما اشتد بي الصداع، وكانت حدته قد وصلت إلى درجة أنني لم أكن أستطيع النوم إلَّا بصعوبة.. ولم تنفع المهدئات أو المنومات، فنصح عمي أبي أن أدخن سيجارة عندما أدخل سريري، فربما دارت بي رأسي ونمت، وهكذا كانت أول سيجارة في حياتي هي تلك التي أوقدها لي عمي بينما كان أبي واقفا إلى جواره.. ولم أنم ليلتها، ولم أقلع عن التدخين منذ ذلك الحين..

فاتني الدور الأول من امتحانات التوجيهية ولم يكن قد تبقى على الدور الثاني سوى شهرين اثنين، لكنهما كانا كافييْن مع دأبي وإصراري، ودخلت الامتحان، ولم نكن قد دخلنا بعد عصر مجاميع المائة في المائة وما فوقها؛ لذلك أهلني مجموعي بـ ٥, ٧٤٪ لدخول كلب طب قصر العيني، فعم الفرح البيت كله وامتد إلى المعارف والجيران، وبدأت في الاستعداد للرحيل إلى القاهرة..

* * *

كانت القاهرة تعني لي جدي لأمي الذي كنا نذهب إلى بيته أكثر من مرة كل عام حيث كان يوزع علينا الكثير من الهدايا، وأحيانا ما يطلب من سائق سيارته الـ «ناش» الأمريكية أن يأخذنا في نزهة قصيرة، وكنا مغرمين بجمع علب سجائر «الكرافن إيه» التي كان يدخنها، وكانت العلب من الصفيح الأحمر، ومع ذلك فلم تكن أحلى أوقاتي هي تلك التي أقضيها في بيت جدي، ولكنها كانت تلك التي أجلس فيها إلى

ابن خالتي علي الدولتلي، الذي كان يسكن في البيت المقابل.. وكنت أكبره بأشهر قليلة، وكان مزاجنا يتطابق كثيرا في الجد والهزل وفي ترتيل القرآن بصوت مسموع، وكان صوته رخيما.. كنا نرتاد كذلك المسجد المجاور للبيت بانتظام، وفي إحدى المرات رأيت عرسا في المسجد فهرعت إلى بيت جدي أحاول أن أطلب حكمدار القاهرة حتى يوقف هذه المسخرة، ولا أزال حتى اليوم أضيق بمراسم عقد القران في المساجد، وبما يحدثه الضيوف من هرج ومرج لا يتواءم مع وقار المكان وجلاله..

لكنني عندما ذهبت إلى القاهرة هذه المرة كان جدي قد توفي، ومع ذلك فلم يكن لي مقصد سوى بيته في شارع صالح كرم المتفرع من خلوصي في شبرا حيث أقمت مع جدتي، وكانت صحتها لا تزال جيدة إلَّا من بعض ضعف في النظر، ولما كنت أكبر أحفادها جميعا فقد عاملتني معاملة خاصة.. كانت الدراسة في السنة الإعدادية تجري في كلية العلوم في الجامعة، أي في الجيزة، وكان المشوار طويلا بعض الشيء ولكنه كان محتملا، وأذكر أنه في إحدى المرات ونحن في نهاية الشهر لم يكن في جيبي مليم واحد فعاقبت نفسي وعدت مشيا إلى شبرا، ومنذ ذلك الحين تعلمت كيف أضبط مصروفاتي، وكنت أحتفظ على الدوام بجنيه أضعه تحت مرتبة السرير حتى لا تمتد إليه يدي دون حاجة..

كانت القاهرة مدينة مختلفة تماما عن الإسكندرية.. كانت تنبض بالحياة ليلا ونهارا.. وبالرغم من أنني كنت قد زرتها مرات عديدة من قبل، فإنني اكتشفت أنني لم أكن أعرفها على الإطلاق.. وقد أضعت في اكتشافها كل ما كان يسمح به المصروف الذي كان يعطيه لي والدي، وكان عشرة جنيهات في الشهر، وهو مبلغ معتبر يمكن أن يكفي كل صنوف التسلية البريئة، والواقع أنني لم أجرب غيرها من صنوف التسلية سوى مرة واحدة.. كان ذلك عندما دعاني أحد الزملاء في الكلية إلى سهرة في القلعة، وصارحني أننا سندخن ليلتها «أجدع حشيش في مصر»، ولم أمانع لكنني لم أشعر براحة تجاه المكان الذي قصدناه وكان قبوا في بيت متهالك، ولا بالجالسين حولي، كما أنني استنكفت أن أدخن «الجوزة».. ويبدو أن أحدهم لاحظ ذلك فنادى بصوت عالٍ ساخرا: «يا اخواننا لفوا سجاير للأفندي»..

عاندت لأثبت للجمع أن «الأفندي» لا يهزه الحشيش فدخنت بدلا من السيجارة ثلاثا، ولكنني عندما غادرتهم مبكرا ضعت في مسالك القلعة وحواريها وأنا أبحث عن محطة الأوتوبيس، ولم يكن هذا ما أزعجني.. الذي أزعجني حقا هو الشعور بأن هناك أحدا يطاردني.. تملكني جبن شديد لم أعرف كنهه، وكان هذا كافيا كي لا أعاود الكرَّة مرة أخرى..

وفي أحد الأيام التقيت بإبراهيم مصطفى رائدنا السابق في جمعية الشبان المسلمين، فأخذني معه إلى بيت المهندس مصطفى مؤمن في شارع قصر العيني، وكان زعيم طلبة الإخوان المسلمين في جامعة القاهرة في الأربعينيات، وهناك حضرنا ندوة لمناقشة كتاب أحمد بهاء الدين الذي كان قد صدر حديثا «النقطة الرابعة تعني الحرب» (النقطة الرابعة هي برنامج مساعدات أمريكية أطلقه ترومان عند توليه الرئاسة في ١٩٤٩)، واستكملنا مناقشة الكتاب بعدئذ في ندوة أخرى.. وقد ألهبت هذه المناقشات عدائي لأمريكا، وترسخ لديَّ اعتقاد بأنها وراء معظم المصائب في مصر، وأنها تحرك كثيرا من الخيوط من وراء الستار، وأن الستار لا بد أن يكون تلك الكيانات الغريبة التي كانت لا تزال نشطة في البلاد على الرغم من قيام الثورة.. الماسونية مثلا.. ما هذا التنظيم المحكم الإغلاق، وكيف تعترف به الدولة دون أن تعرف عنه شيئا، ولماذا انضم إليه كثير من وجهاء البلد السياسيين ورجال المال ورجال الثقافة أيضا؟ ذهبت إلى مقرهم في شارع رمسيس قرب محطة مصر عدة مرات ولكني لم أفلح في الاقتراب منهم، وكذلك كان الحال مع مكتب «جماعة التسلح الخلقي» العالمية في جاردن سيتي.. أما البهائيون فكانوا أكثر انفتاحا، وقد ذهبت إلى محفلهم في العباسية مرات ولم أستوعب رسالتهم حتى بدءوا في محاولة ضمي إليهم وعندها توقفت.. خشيت أن أعتبر معاديا للثورة أو جاسوسا لأمريكا!

استغرقت جولاتي هذه أشهرا قليلة لم أخرج منها بنتائج جلية حتى جاء مارس ١٩٥٤ عندما حدثت الأزمة المعروفة بين محمد نجيب ومجلس قيادة الثورة، وكنت من بين أولئك الذين يناصرون محمد نجيب لأنه، على ما فهمت، كان هو الذي ينادي بعودة الجيش إلى ثكناته وتشكيل حكومة برلمانية في حين كان الآخرون يصرون على البقاء في السلطة، وكان نجيب رمز الثورة لدى الكثيرين، وعندما صدر

القرار بإقالته خرجت من الجامعة مظاهرات استمرت عدة أيام.. في أحد هذه الأيام وصلنا إلى كوبري قصر النيل فطاردتنا الشرطة واعتقلت الكثيرين، ولكنني استطعت النجاة مع البعض عندما سارعنا بالعَدْو تجاه فندق شبرد، واختبأنا في جاراج عمارة «الشمس» المجاورة له؛ حيث استتر بعضنا داخل السيارات والآخرون تحتها أو خلفها، وظللنا في هذا المخبأ ساعات حتى تأكدنا أن الشرطة غادرت المكان عندما صاح ضابط في الخارج: «حارجع لكم تاني يا ولاد الكلب»..

بعد أن كنت أتابع قراءة مجلة «الفصول» التي كان يصدرها محمد زكي عبد القادر تحولت إلى مجلة «روز اليوسف»، وزاد حنقي على الحكم بعد اعتقال إحسان عبد القدوس، ولم أفهم كيف تعتقل الثورة ذلك الرجل الذي كشف الأسلحة الفاسدة.. ولكنني كنت أحاول على الدوام الاهتمام بالدراسة، وغالبا ما كنت أفشل.. كانت العلوم الأربعة التي ندرسها غاية في الملل، وكنت إذا حضرت محاضرة أتابعها بصعوبة بالغة، وكثيرا ما كنت أهرب من المحاضرات للعب مع فريق الجامعة للهوكي، وعندما أعود للبيت لم أكن أطيق الاستذكار سوى لأوقات قصيرة.. وهكذا كان مصيري المحتوم الرسوب في كل المواد، وأذكر أنني حصلت في إحداها على صفر، أما في الكيمياء الحيوية، وكان كتابها يزيد على ٣٠٠ صفحة باللغة الإنجليزية، فلم أستطع الإجابة سوى على فقرة واحدة من سؤال بين أسئلة الامتحان الخمسة، وكان السؤال على ما أذكر حول تركيب غاز الأوزون، ونلت مقابل هذه الإجابة درجتين اثنتين من مائة درجة..

لم تصدمني النتيجة كثيرا، وقررت العودة إلى طنطا، وحلقت شعري «على الزيرو» وحبست نفسي في المنزل لا أغادره لمدة شهرين فاستطعت بذلك اجتياز امتحانات الدور الثاني، ونقلت إلى سنة أولى طب، أي إلى دراسة الطب الحقيقية في قصر العيني..

* * *

قصر العيني دنيا ثانية.. أول ما أذكره عنها الآن ليس المشرحة أو قاعات المحاضرات، ولكن شلة الأصدقاء الجدد الذين امتدت صداقتي بهم العمر كله؛ أحمد زعفان وعادل السلاوي ومحمود طلعت الذين أصبحوا فيما بعد من أشهر

الأساتذة (عادل أستاذ الأطفال هاجر إلى أمريكا فيما بعد)، ومرتضى مغازي الذي فَضَّلَ الحياة طبيبا مرموقا في التحاليل في الإسكندرية، وكذلك محمد البربري الذي عاد إلى مدينته طنطا.. كنا نقضي معا وقتا رائعا في القاهرة وخارجها.. كنا نسافر بين الحين والآخر إلى العين السخنة التي كانت عندئذ مجرد صحراء قاحلة حيث ننصب خيمتنا ونعود في اليوم نفسه أو نبيت ليلة أو اثنتين، وفي أحيان أخرى كنا نستأجر سيارة «جيب» نذهب بها إلى العلمين ومرسى مطروح، أما في القاهرة فكنا نقضي كثيرا من الوقت في الأنشطة الجامعية.. وفي إحدى المرات شاركت أنا وعادل في مسرحية كوميدية كانت أدوارنا فيها تافهة وثقيلة الظل أيضا، ولم نعد إلى ذلك مرة أخرى.. وكنا نجتمع كثيرا عند مرتضى؛ حيث كان الوحيد بيننا الذي يسكن وحده.. كانت عائلته في الصعيد، وكانت شقته مواجهة لقصر العيني، وكنا نلقبه بـ«عم الحاج» ليس فقط لأنه كان أكبرنا سنا ولكن لأنه كان أكثرنا تعمقا في الدين ومواظبة على طقوسه ونوافله؛ ولأنه دائما ما كان يطعمنا مما طبخت يداه ومما يرسله له الأهل من خزين..

كانت سهرتنا الكبرى في منزله عادة هي الخميس الأول من كل شهر مع أم كلثوم حيث كنا نجتمع لترتيبها قبل الموعد بساعات، فنعد عشاء فاخرا في حدود ما في جيوبنا، ونشتري أحيانا حماما محشوا بالفريك، ونحضِّر إبريق الشاي وكئوسه، ونرص علب السجائر ونضيف إليها بعض علب إنجليزية.. لم يكن أحدنا يدخن الحشيش أو غيره من المخدرات، وحتى انتهينا من الدراسة لم يعرف معظمنا المسكرات.. كان همنا الأول في ليلة كهذه التسابق لاصطياد المكان الذي سيختاره كل منا، سواء كان سريرا أو كنبة، أو شلتة أو سجادة، أو كرسيا نمد عليه سيقاننا، وكنت عادة ما أفضل أن أستلقي على سرير وأضع سماعة طبية من ناحية على أذنيَّ ومن الناحية الأخرى على الراديو الترانزستور الخاص بي.. كانت أم كلثوم تدخل حينئذ في نخاشيشي..

لم يكن لأحدنا وقتها قصة حب.. ربما كانت لدينا مشاريع قصص حب، غالبا ما كانت من طرف واحد.. كانت هذه ثاني سنة دراسية نجلس فيها مع الفتيات جنبا لجنب في فصول الدراسة، وكنت أظن في البداية أن ذلك يمكن أن يكون مثيرا للغرائز، لكن وجودهن كان يهذب من سلوكنا كثيرا.. لست أريد أن أقول إنهن كن

مثل الملائكة عندما يرتدين البلاطي البيضاء، ولكنهن كن جنسا لطيفا فعلا خاصة لو كن جميلات، وكنت أتمنى لو كنت قد درست مع البنات منذ دخولي المدارس حتى أعتاد مخالطتهن دون أن يدق قلبي تلك الدقات السريعة.. والواقع أنني لم أكن أعرف من الجنس الآخر إلَّا أختيَّ الاثنتين وبنات خالاتي وخالي، وعندما كنت في السنة الأولى الثانوية أعجبت كثيرا بواحدة من بنات صديقة لأمي، ولا أعرف تماما إذا ما كنت أحببتها أم لا، ولكنني أذكر أني لم أجرؤ على الحديث معها سوى مرة واحدة، وكان حديثا قصيرا للغاية وأظن أنه لم يكن مفهوما البتة، لا لها ولا لي.. كانت العلاقة الوحيدة الملموسة بيننا هو احتفاظي في شنطتي بصورة التقطت لها وسط عائلتها، وقد أنهكتني محاولات إخفاء الصورة لعدة أسابيع فأعدتها إلى المكان الذي سلبتها منه: صندوق الصور الخاص بأمي..

وظلت علاقتي بالجنس الآخر عذرية حتى بعد دخولي الجامعة.. وفي السنة الأولى كانت أقصى مغامرة يمكن أن نقوم بها هي أن نركب موتوسيكل أحمد زعفان «اللامبريتا»، ونطوف به على دور السينما الصيفية في الروضة حيث كان يسكن عدد من زميلاتنا، ونتوقف بكل دار فنترك عند الباب ٢٥ قرشا تأمينا يسمح لنا بالدخول، ونبدأ في البحث عنهن، فإذا تصادف وجود إحداهن مع إخوتها أو صديقاتها حاولنا أن نجلس خلفهن، وعندما تضاء الأنوار يبدو اللقاء كما لو كان صدفة..

وكنا أحيانا ما نذهب في رحلات مشتركة إلى الهرم، أو نلبي دعوة السلاوي للذهاب إلى عزبة العائلة في بردين في الشرقية، وكان يأتي بسيارة والده «المركوري» الأمريكية الصفراء إلى نقطة التجمع التي سينطلق منها رتل السيارات.. وأذكر أننا كنا نقضي الليل في رعاية الحاج مرتضى نضع مخططات وبدائل، بل ورسوما كروكية؛ بحيث نضمن أن يجلس كل منا إلى جانب من يحب، وعندما تأتي اللحظة المشهودة كنا دائما ما نفاجأ بانهيار أحلامنا كافة، وبالبنات جميعا يركبن إحدى السيارات وحدهن..

والواقع أن كل مشروعاتنا للتقرب من زميلاتنا لم تفلح؛ ربما بسبب أن هذه العلاقات كانت الأولى من نوعها بالنسبة إلينا، وأننا لم نكن ناضجين بما فيه الكفاية..

ولست أشك في أن هذه كانت خسارة لنا؛ إذ إن كثيرات من زميلاتنا كن على مستوى عالٍ من الجمال والخلق، وكانت نتائج امتحاناتهن في معظمها أفضل من نتائجنا، وأصاب العديد منهن شهرة واسعة، وتزوج العديد منهن من زملاء آخرين لنا، بعد التخرج غالبا.. أما أثناء الدراسة فلا أعتقد أن أيا من الفتيات أو الفتيان كان يعطي اهتماما كبيرا للزواج، فقد كانت الغالبية تسعى إلى أن تحمل لقب «الدكتور» في المدة المقررة، أي في ست سنوات ونصف السنة تماما.. وكنت أنا الاستثناء الوحيد، فبالإضافة إلى أنني تركت دراسة الطب، فقد خطبت إحدى زميلاتي، وكانت رائعة إلَّا أنني كنت مثالا للحماقة..

أستطيع أن أقول، في العموم، إن الشلة كانت جادة، وخاصة في الدراسة، وكيف لا ووالد محمود، الدكتور محمد طلعت، كان أستاذنا في الهستولوجي (علم دراسة الأنسجة العضوية)، وأحسب أنه الأستاذ الوحيد الذي كنت أحبه على الرغم من أنه كان دائما مقطب الجبين، لا بسبب خيبة طلبته في العلم الذي يدرِّسه وإنما بسبب خيبتهم في اللغة الإنجليزية، وكانت محاضراته كوكتيلا جميلا في العلم واللغة، وكنت أحضرها جميعا، أما باقي المحاضرات فلم أحضر منها الكثير، وكان يشجعني على ذلك أننا لا نمتحن إلَّا في نهاية السنة الثانية..

* * *

في نهاية السنة الأولى، عندما أتى صيف ١٩٥٥، تلقت وزارة التعليم العالي دعوة من جمعية التسلح الخلقي العالمية لتوفد بعضا من طلبة الجامعات لقضاء شهر في مقر الجمعية في سويسرا، ومع أنني كنت أرتاب في الجمعية منذ ذهبت إلى مقرها في القاهرة إلَّا أنني كنت راغبا بشدة في السفر، وقد أهلني لذلك أنني كنت قد انضممت للحرس الوطني.. سافرت بالفعل ضمن الفريق الذي تشكل من ٣٦ طالبا من جامعات مصر المختلفة بالإضافة إلى أربع طالبات، أذكر من بينهن سامية راشد التي أصبحت فيما بعد أستاذا للقانون الدولي في جامعة القاهرة، وكوثر عامر التي أصبحت طبيبة وإن كانت قد قضت معظم سنوات عملها في الكويت.. وكان يشرف علينا رائد هو الدكتور فوزي حسين الذي كان مدرسا في علوم القاهرة ورائدة هي الدكتورة إجلال رفاعي، وكانت هي الأخرى مدرسة بالكلية نفسها..

بدأت الرحلة بالباخرة إلى جنوا حيث قضينا الليلة، ومنها إلى روما بالقطار.. وكان مقررا للرحلة أن تستغرق شهرا، وقد أعطاني والدي خمسين جنيها إسترلينيا كمصروف جيب لهذه الفترة، وكان مبلغا محترما بمقاييس ذلك الوقت، إلَّا أنني أنفقت منه خمسة جنيهات كاملة على مباهج جنوا في الليلة الأولى التي وطأت فيها قدماي أرض أوروبا.. وفي الأمسية الوحيدة التي قضيتها في روما، تسللت من المجموعة وذهبت مع ثلاثة من الزملاء إلى ملهى ليلي صيفي في «فيلا بورجيزي»، ولم نكن ندري أنها من أرقى أحياء روما.. لما أخذنا أماكننا لمحت على مائدة قريبة منا اثنتين من أجمل الفتيات اللاتي رأيتهن في حياتي، وهيئ لي أن إحداهن تبتسم ابتسامة موجهة لي شخصيا وكأنها بطاقة دعوة مفتوحة.. وعندما نبهت أصحابي مباهيا، وطلبت أن يتقدم أحدهم معي لينعم بصحبة الفتاة الأخرى، أحجم الجبناء جميعا عن التصدي لهذه المهمة، ولم أنتظر حتى أسمع نصائحهم فلحقت بالفتاتين في ثوانٍ، وبادرت بسؤالهما عما إذا كانتا تودان أن تتناولا شيئا، فقالت إحداهما: شمبانيا.. سألهما الجرسون: زجاجة أم كأسين؟ فنظرت كل منهما إلى الأخرى وقررتا على مايبدو معاملتي بشفقة، وطلبتا كأسين فقط، واضطررت أنا لطلب الثالث، ولم أكن قد شربت خمرا من قبل، ولابد أنهما لاحظتا ذلك..

خصتني الفتاة المجاورة لي ببعض الاهتمام، ولكنه لم يتجاوز السؤال عن بلدي واسمي وعما إذا كانت هذه أول زيارة لي لإيطاليا، ثم أتبعت ذلك بسؤال عما إذا كنت أعرف الإيطالية، وعندما قلت لها إنني لا أعرف منها كلمة، قالت إنها ستعلمني كل يوم ثلاث كلمات.. استبشرت خيرا على الرغم من أنه كان علينا أن نغادر روما في اليوم التالي، وتوقعت أن تكون الكلمة الأولى هي «أحبك» مثلا أو شيئا من هذا القبيل، لكنها كانت «بوناسيرا» أي مساء الخير، أما الثانية فكانت «جراتسي» أي شكرا، ثم هبت واقفة وهي تقول: أما الكلمة الثالثة يا عزيزي فهي «أريفيدرتشي» أي وداعا، وذهبت، ومعها ذهبت الفتاة الأخرى.. ووجدت الجرسون ينقض عليَّ كالوطواط ومعه فاتورة الحساب، وكان يعادل أحد عشر جنيها إسترلينيا.. تذكرت الجنيهات الخمسة التي أنفقتها في الليلة السابقة، فوجدت أن ثلث مصروفي لمدة شهر ضاع في ليلتين اثنتين فقط، فلعنت إيطاليا وبناتها، ولعنت أصحابي هم الآخرين..

غادرنا روما بالقطار إلى سويسرا، وعندما وصلنا إلى مقر الجمعية في بلدة «كو سور مونترو» وجدناه قصرا غاية في الفخامة، وفور دخولنا إليه وجدنا لافتة عريضة معلقة في أول حائط يواجهنا كتب عليها «لا تدخين، لا كحوليات، لا نساء» No smoking. No drinking. No women.. سألنا باستنكار واضح عن مغزى هذه اللافتة فقيل لنا إن هذا هو شعار جمعية التسلح الخلقي، وعندها أدركت أن سوء الطالع يلاحقني، وفكرت لدقائق في العودة من حيث أتيت، على الأقل لأدخن، إلَّا أن الرفاق الثلاثة الدائمين سرعان ما ناقشوا الأمر، وبعد مداولات لم تستغرق أكثر من دقائق معدودة كنا جميعا نشعل سجائرنا، حتى أولئك الذين لم يكونوا يدخنون بيننا فعلوا ذلك تضامنا.. ولاحظنا أن موظفي الاستقبال اضطربوا، وطالت المشاورات بينهم، والمناقشات معنا، إلَّا أننا قررنا ألا نتراجع، وعندما وجدنا منافض السجائر مبعثرة على الموائد الصغيرة في البهو في اليوم التالي، أحسسنا بأننا سجلنا انتصارا على الخواجة..

كنا نعلم بالطبع أن هذا تصرف همجي، إلَّا أننا منذ ركبنا الباخرة من الإسكندرية، وتجمعنا معا لأول مرة، بدأ البعض يروي روايات مريبة عن جمعية التسلح الخلقي، وقال أحدنا إنها بالتأكيد جمعية صهيونية، وقال آخر إنها جمعية رجعية تضم كثيرا من عملاء الاستعمار في المنطقة مثل ابن الجلاوي باشا في المغرب وابن نوري السعيد في العراق، وكان رأي أكثر المتحدثين رفقا بالجمعية أنها تتستر خلف الأخلاق لإشاعة الشذوذ الجنسي.. وبالرغم من أن الغالبية كانت ترى أن أهم ما في الرحلة هو الاستمتاع بالسفر إلى أوروبا، فإن الكثيرين منا كانوا متشوقين لحل لغز هذا التسلح..

ازددنا حيرة بعد أن قضينا أول ليلة في القصر الذي كان يحتوي على نحو مائة غرفة أو أكثر، وكان هناك شباب عديدون من دول أخرى، منهم الآسيويون ومنهم الأفارقة وكذلك شباب وشابات من أمريكا اللاتينية، ولكن عدد الأوروبيين كان كبيرا.. وقادنا هؤلاء إلى غرف المبيت حيث يشارك واحد منهم كلا منا غرفته، وقد توجسنا أن هؤلاء الأوروبيين عينوا لمراقبتنا، وأخذنا الاحتياطات اللازمة حتى لا ينجحوا في هتك أعراضنا.. كانت طقوس الحياة في القصر أن نتناول العشاء مبكرا، أي في نحو

الساعة الثامنة، وبعد ذلك كان مسموحا لنا بنحو نصف الساعة نقضيها في المكتبة أو في بهو القصر أو حديقته، ثم نتوجه بعد ذلك للنوم مباشرة.. وبالطبع فقد حاول معظمنا أن يفلت من هذا الجدول الصارم، لكننا لم ننجح دائما، واضطررنا في النهاية للانصياع لسبب واحد، أنه كان علينا أن نستيقظ في الخامسة صباحا..

وكان من نصيبي غرفة فيها شاب دنمركي أيقظني في الصباح وطلب مني أن أجثو على الأرض وأضع رأسي على السرير وأغمض عينيَّ لمدة عشر دقائق أفكر خلالها فيما ارتكبته من آثام من قبل، ثم نذهب إلى الإفطار، وبعدها نتوزع في حلقات يشارك نحو عشرة منا في كل منها، ونبدأ بالاعتراف بخطايانا ثم نقاشها ومحاولة التوصل إلى طرق تخلصنا منها..

كانت طقوسا غريبة حقا، وازدادت الغرابة مع تتالي الاعترافات.. «تذكرت أنني قبل سفري من بلدي لم أصالح أختي الصغيرة، وكنا قد تشاجرنا في اليوم السابق».. «أعترف أنني أخفيت على والدي أنني رسبت في مادتين في الامتحان الأخير».. «قطفت أمس باقة من الزهور من الحديقة دون أن أخبر الحارس».. «تسللت أمس من غرفة النوم إلى خارج القصر حيث شربت كوبا من البيرة في المقهى المجاور لمحطة السكك الحديدية».. وكانت هذه الطقوس هي المجال المفضل لسمر الليل والسخرية فيما بيننا من «أولاد العبيطة» هؤلاء، ولكن بعضنا أكد أن هؤلاء ليسوا «أولاد عبيطة» ولكنهم يريدون من وراء ذلك شيئا واحدا هو معرفة نقاط الضعف في كل منا، ثم بدأ غضبنا يتصاعد عندما بدأ قادة الجمعية يلقون علينا محاضرات في مكارم الأخلاق وكأننا عصبة من الضالين، وأخذنا نناقش الأمر أياما انتهينا بعدها إلى تكليف مجموعة صغيرة منا لتدرس كيف نرد بعمل مضاد..

كنت واحدا من هؤلاء، وكان بيننا المأمون أبو شوشة الذي كان صوته قد ظهر في برامج إذاعية قبل ذلك بشهور، وكذلك صلاح حتحوت الذي كان أكبرنا سنا وأطولنا قامة وكان يدرس في السنة النهائية في كلية العلوم.. وبعد نقاش مطول فيما بيننا انتهينا إلى أن كل قيم الأخلاق موجودة في الأديان السماوية منذ مئات السنين، ولهذا فسنرد بالإسلام.. سنكتب مسرحية عن إسلام عمر بن الخطاب، وسنطلب من الجمعية أن

تدبر لنا الملابس اللازمة لنقدم العرض على مسرح القصر.. وهكذا شاركت مع ثلاثة من الزملاء في كتابة المسرحية، وترجمها إلى الإنجليزية زميل مسيحي حزنت الآن كثيرا أني نسيت اسمه، واتفقنا على أن تبث الترجمة فورية أثناء العرض، وأحضرت لنا الجمعية بالفعل ملابس من لندن، واستقبلت المسرحية استقبالا حافلا..

قمت أنا بدور عمر رضي الله عنه، ولا أزال أذكر اللحظة التي رفعت فيها السيف على شقيقتي فاطمة لما علمت بأنها دخلت الإسلام فضاع الكلام تماما من ذاكرتي، فصحت بالعربية: «الحقني يا صلاح، الحقني يا صلاح»، فلحقني صلاح من وراء الستار ولقنني النص، وأغلب الظن أن الحاضرين من الأجانب لم يلحظوا الخلل إذ إن الترجمة ظلت مستمرة.. وعندما عدنا إلى القاهرة قدم الدكتور فوزي حسين تقريرا عن رحلتنا وعن الجمعية إلى الجامعة، وأظنه اقترح فيه أن توضع الجمعية تحت الفحص والاختبار، وفيما بعد طالبتُ بإغلاقها في تحقيق صحفي طويل عندما التحقت بمجلة «التحرير»، وأغلق مكتبها في القاهرة بالفعل..

* * *

ما إن عدنا إلى بدء الدراسة في خريف ١٩٥٥ حتى بدأت الانشغال بالمجلة التي كانت الكلية على وشك إصدارها.. كانت الكلية قد قررت أن تخصص من ميزانيتها مبلغا كافيا لإصدار مجلة لاتحاد الطلبة، وطلبت من الدكتور ناصح أمين (الذي كان مدرسا بالكلية عندئذ وأصبح فيما بعد أستاذ التحاليل الطبية الشهير وأحد أطباء عبد الناصر) أن ينتقي بعض الطلبة لإصدارها.. اختار الدكتور ناصح زميلنا صبري أيوب رئيسا للتحرير إذ لم يكن في الكلية طالب آخر له دراية بالصحافة، وكان صبري يراسل مجلة «روز اليوسف» بالأخبار بين الحين والآخر، وأحيانا ما تنشر هذه الأخبار مقرونة باسمه.. كنا نسمي صبري «العميد» إذ إنه سجل أكبر عدد من مرات الرسوب في السنة الثانية، أظن أنها بلغت أربع مرات، كما أنه كان الطالب الوحيد في الكلية الذي يرتدي دائما بدلة كاملة برباط عنق وصديري تتدلى من جيبه سلسلة ساعة عتيقة.. رشحني صبري للعمل معه مديرا للتحرير ورشح مسعود مسعود ليصبح سكرتيرا للتحرير، وكان مثلنا يدرس الطب اضطرارا (عمل معي فيما بعد في ART)..

وحاولنا أن نضم إلينا أيضا زميلنا محمد العزبي (الكاتب الكبير في الجمهورية فيما بعد)، وكان صديقا لثلاثتنا، إلَّا أنه لم يكن يأتي كثيرا إلى قصر العيني في تلك الأيام، ومع ذلك لم نتركه إلَّا بعد أن كتب مقالا للمجلة..

بدأنا العمل باختيار الطلبة والأساتذة الذين سيكتبون المقالات أو يجمعون الأخبار والمعلومات، وأخذنا ننقب في تاريخ الكلية ونبحث عن خريجيها البارزين الذين تولوا مناصب هامة ولا زالوا على قيد الحياة، وجمعنا قدرا كبيرا من الصور الفريدة.. وكان الدكتور ناصح متفتحا إلى حد كبير، وربما تقدميا أيضا، وهكذا أفسح لنا أن نكتب ما نريد.. كنا نطمح إلى إصدار المجلة بمستوى فني راقٍ وأن نطبعها بألوان «الروتوغرافور»، وكانت وقتها أرقى وسيلة للطباعة بالألوان، على أن يكون غلافها من ورق «الكوشيه» المصقول، فقررنا أن يتم ذلك في دار أخبار اليوم.. طلبنا موعدا مع الأستاذ مصطفى أمين، فحدده بعد أيام قليلة.. دخلنا مكتبه وكأننا متجهون إلى محراب مسجد، وقضينا معه نحو ربع الساعة لم نقل فيها سوى كلمات قليلة في حين كان هو يغمرنا بالنصائح، وكان أولها ألَّا نهمل دراستنا، ثم أعطى تعليماته إلى سكرتيره سليم زبال بأن تمدنا الدار بكل مانريد من معلومات وصور وأن يذلل لنا كل ما قد يصادفنا من عقبات..

كان سليم زبال صحفيا هو الآخر، وقد ذاع صيته بين أبناء المهنة بعدها بسنوات عندما انتقل إلى مجلة «العربي» الكويتية وكتب فيها سلسلة من الاستطلاعات الصحفية في بلدان عديدة.. كان أول التسهيلات التي قدمها لنا هو الإذن بأن نتخذ من ركن في قاعة الاستقبال مقرا لنا عندما نذهب إلى الدار، وكنا نجلس ساعات كل يوم نكتب ونعيد الكتابة ونقص ونلصق ونرسم الماكيت (إخراج الصفحات) وننزل إلى المطبعة ونصعد إلى الأرشيف، وظللنا على هذا المنوال لمدة قاربت الشهرين.. كنا مدللين في أخبار اليوم كثيرا.. كان الصحفيون الكبار والصغار وكذلك عمال المطبعة يسهلون لنا دائما عملنا، فيوحي أحدهم لنا بفكرة، ويعدل لنا آخر إخراج صفحة، ويعطينا ثالث صورة من الأرشيف.. وقد احتفلت أخبار اليوم معنا عندما انتهت طباعة المجلة، وانضمت إلى الاحتفال زميلتنا سميحة النجدي التي تصدرت صورتها الغلاف، وقد توفيت في ريعان شبابها بعد تخرجها بسنوات، وكانت آية في

الجمال والخلق.. أما أنا فقد كدت أطير فرحا بنشر مقالي في المجلة «بقلم حمدي قنديل» تحت عنوان «ذئاب ونعاج في الجامعة»، وكان يدور حول العلاقة بين الطلبة والطالبات، الموضوع الذي شغل بالي كثيرا.. وعندما اطلعت على المقال مؤخرا هالني ما فيه من سطحية..

كانت القاعة التي اتخذناها مقرا لنا توجد في الطابق الأول الذي يمر به مصطفى وعلي أمين في طريقهما إلى مكتبيهما، وعندما نكون هناك كانا دائما ما يتوقفان عندنا للتحية مرة، أو لحديث قصير يطمئنان فيه على سير عملنا والاطلاع على ما أنجزناه مرة أخرى.. في إحدى هذه المرات ناداني مصطفى أمين، ثم فاجأني بالسؤال: «تحب تشتغل معانا؟».. من ذا الذي يقول: لا لدعوة كتلك من أشهر الصحفيين في مصر في ذلك الحين.. لا أدري ما الذي قلته له تماما.. غمرني إحساس بالنشوة لم أعرف له مثيلا في حياتي من بعد، ولكنه نبهني: «كل ده بعد ما تمتحن وتنجح.. حانتظرك لما تطلع النتيجة»..

قبل فجيعة الامتحان ـ وكنا وقتها في عام ١٩٥٦ ـ واجهتنا فجيعة أقسى، إذ جاءنا الدكتور ناصح أمين ينقل لنا النبأ الصادم أن إدراة الكلية قررت مصادرة المجلة؛ بدعوى أننا تطاولنا على الجامعة وأساتذتها، وكنا بالفعل قد انتقدنا الأساتذة ولكننا لم نتطاول عليهم، لهذا رجحنا أن يكون سبب المصادرة هو مقال محمد العزبي، وكان مقالا ملتهبا عن الكفاح الوطني لطلبة الطب عبر الزمن، أو أن يكون أصحاب العيون والآذان المفتوحة قد علموا أننا من أنصار محمد نجيب.. لم يهتز الدكتور ناصح عندما علم بمصادرة المجلة على الرغم من أنه كان قد تلقى تعنيفا شديدا من مجلس الكلية على ما علمنا.. ظل الرجل صلبا عنيدا فخورا بالعمل الذي قام به معنا، وهكذا كان أول من عرفت من أبطال الدفاع عن حرية الصحافة..

استسلمنا بعد أن أبلغنا الدكتور ناصح بأنه لا فائدة من الشكوى وأن العميد في غاية الغضب، وبدأنا الاستعداد للامتحان الذي اجتزناه جميعا بالنتيجة نفسها، كما لو كان هناك اتفاق بيننا جميعا على الرسوب في التشريح والفسيولوجي والنجاح في باقي المواد والنقل إلى السنة الثالثة، على أن ندخل امتحانات الإعادة بعدها بشهور

في المواد التي رسبنا فيها.. لم أكن كاذبا تماما إذن عندما ذهبت إلى الأستاذ مصطفى لأبلغه بأنني نجحت في الامتحان.. أذن لي بالدخول على الفور، وعينني في الليلة نفسها محررا في مجلة «آخر ساعة».. (التفاصيل في الفصل التالي)..

* * *

بعدها بأيام ناداني صبري إلى الملاعب ليحدثني في أمر قال إنه هام.. «أنا على صلة باتحاد الطلبة العالمي في براغ IUS كما تعرف، وسيعقد الاتحاد مؤتمره السنوى هذا العام في المدينة نفسها، وهم يواجهون أزمة مع السلطات المصرية التي ترفض مشاركة طلبة من مصر في مؤتمر تعقده منظمة يسارية».. على الرغم من أن عبد الناصر كان قد عقد صفقة الأسلحة التشيكية الشهيرة في العام السابق، أي في عام ١٩٥٥، وعلى الرغم من وقوفه ضد سياسة الأحلاف العسكرية الغربية فقد كان حذرا من تسلل الخطر الشيوعي إلى مصر في ذلك الحين، وهكذا رفضت سلطات الأمن مشاركة مصر في المؤتمر..

لم ييأس الاتحاد العالمي، وواصل المسئولون فيه الاتصال بصبري أيوب، وربما أغراهم أنه يرأس تحرير مجلة طلابية تعرضت للقمع.. اتصل بي صبري ذات يوم وسألني إذا ما كنت أستطيع المرور عليه في المساء، وعندما ذهبت إليه كان لديه ضيف أجنبي هو رئيس اتحاد الطلبة العالمي «يوري بليكان»، وهو تشيكي أصبح فيما بعد رئيسا للتلفزيون.. تكلم بليكان طويلا عن الاتحاد وعن المؤتمر وودعناه بعد أن وعدناه بالحضور، كذلك وعدناه بأن ننسق ـ كما طلب ـ مع ياسر عرفات الذي أبلغنا فيما بعد بأنه سيحضر المؤتمر هو الآخر.. لم يكن ياسر عرفات شخصية معروفة عندئذ.. كان مجرد طالب مثلنا يدرس في كلية الهندسة بجامعة القاهرة، وإن كنا قد اجتمعنا به من قبل في ندوة عقدت في مقر اتحاد الطلبة الفلسطينيين باعتباره رئيسا للاتحاد..

بعد مقابلة «بليكان» أعلن عبد الناصر عن تأميم قناة السويس، وتأزمت العلاقة مع الغرب، ومع ذلك ظل رفض الجامعة للمشاركة في المؤتمر على ماهو، وهكذا بدأنا نتشاور حول تشكيل وفدنا، واتفقنا على أن نصطحب معنا زميلنا سليمان إدريس

(الذي أصبح زعيما نقابيا في شركة الحديد والصلب فيما بعد) واقترحت أن نضم طالبة إلينا أيضا، فرشح صبري سناء فتح الله (الناقدة المسرحية الكبيرة فيما بعد)، وكانت تتدرب في دار أخبار اليوم عندما كنا نطبع المجلة، وكثيرا ما كانت تعاوننا في إعدادها.. اتصلنا بسناء فوافقت على الفور، وهكذا بدأنا التحضير للسفر الذي اتفقنا مع ياسر عرفات أن يكون عن طريق أثينا..

حجزنا السفر بالبحر بالباخرة التركية «إسكندرون»، وكان ثمن تذكرة السطح سبعة جنيهات، وهو أرخص ثمن ممكن للمبيت على سطح الباخرة، وإن كنا علمنا من بعض العارفين أنه عند الرحيل من الميناء يمكننا التفاهم مع أحد البحارة لاستئجار سرير في عنابرهم مقابل جنيهين اثنين طوال الرحلة، وكنا نأمل في الحصول على سرير واحد على الأقل نضمن به بعض الراحة لسناء.. سافر معنا في الرحلة نفسها ياسر عرفات أيضا، ومعه اثنان من زملائه الطلاب: صلاح خلف الذي اشتهر فيما بعد باسم «أبو إياد» ورافق ياسر عرفات في مسيرته في حركة فتح حتى تم اغتياله في تونس في ١٩٩١، وزهير العلمي الذي أصبح رجل أعمال بارزا يعيش حتى الآن في دولة الإمارات حيث التقينا مرات، أعطاني في إحداها هدية غالية هي مجموعة من الصور التقطت لنا خلال الرحلة..

قبل أن نستقل القطار جميعا من أثينا في اليوم التالي اقترح ياسر عرفات أن نزور الأكروبول فذهبنا معا إلى حيث يقع هذا المعبد الشهير فوق هضبة عالية (اسمه باليونانية يعني «الهضبة العالية»).. من فوق الهضبة أخذ عرفات يحدق طويلا من خلال نظارة معظمة ثم ناداني، ولما اقتربت طلب مني أن أثبت عيني في النظارة وسألني: «هل ترى فلسطين؟».. فلسطين؟! فلسطين تبعد عن هنا مئات الكيلومترات يا ياسر.. قال عرفات: «ولكني أراها بوضوح، بل إنني أرى قبة الصخرة تلمع».. عندما سددت النظارة إلى الوجهة التي حددها لم أتبين شيئا سوى مياه البحر على مدى البصر، وظللت سنوات بعد أن بدأ اسم عرفات يلمع في أواخر الستينيات حائرا بين ظنوني، فإما أنه خيل إليه بالفعل أنه رأى فلسطين لشدة تعلقه بها، وإما أنه قد بدأ يلعب دور السياسيين الذين يبيعون الأوهام للناس ويلعبون بعواطفهم..

كانت رحلة ممتعة بالقطار استقبلنا بعدها في محطة براغ استقبال الفاتحين، وقدمت لنا باقات الزهور، وعندما تقدمنا صبري وسط جمع من البنات والصبية الذين كانوا يلوحون بأعلام مصرية وفلسطينية صغيرة بدا كما لو كان رئيس دولة، خاصة أنه كان الوحيد بين القادمين والمستقبلين الذي يلبس بدلة بصديري تتدلى منه سلسلة ساعة.. ولما افتتح المؤتمر وجاء دور صبري ليلقي كلمة مصر تكرر المشهد ودوت القاعة بالتصفيق والهتاف لناصر ووقف الأعضاء جميعا تقديرا واحتراما، أما أنا وسناء وسليمان فقد سالت من مآقينا الدموع.. ذقت منذ ذلك الحين معنى الاعتزاز ببلدي وبنفسي كمصري..

بقينا في براغ أياما كما كان مقررا، تفقدنا خلالها معالمها، وحضرنا عددا من الندوات، ودعينا لحضور مسرحية، وزرنا مصنعا ومزرعة وكذلك إحدى الدور الصحفية الكبرى، وقضينا بعض أمسيات مع الوفود العربية القادمة من السودان ولبنان وسوريا والجزائر، واجتمعنا كذلك مع أعضاء من الوفد السوفيتي بناء على طلبهم، ولبينا على الفور دعوتهم لزيارة موسكو بعد انتهاء المؤتمر، ولكن سليمان إدريس قرر العودة إلى القاهرة.. وكان مألوفا في ذلك الوقت ألا تطبع التأشيرات للاتحاد السوفيتي في جواز السفر حتى لا تسبب متاعب للزائرين القادمين من دول كمصر وغيرها، وبدلا من ذلك كانت التأشيرة تمنح على ورقة منفصلة..

لم نكن على أي حال في حاجة لبذل جهد لاستخراج تأشيرة أو استصدار تذاكر سفر فقد قام زملاؤنا السوفيت بترتيب كل شيء على نحو دقيق، وسافر وفدنا بالقطار إلى موسكو حيث استقبلنا استقبالا أكثر تواضعا من ذلك الذي وقع في براغ وإن لم يقل دفئا وحماسا.. كانوا يسموننا وفد ناصر، وربما لهذا استضافونا في فندق لا يليق إلا بالوزراء ومن على شاكلتهم، والحق أن كل فنادق موسكو الكبرى كانت عندئذ أشبه بالقصور.. وفي صباح اليوم التالي جاءنا المترجم «إيفان» الذي رافقنا طوال زيارتنا، وأبلغنا أننا ضيوف على «الكومسومول» (اتحاد الشبيبة الشيوعية)، وأعطى لكل منا نسخة من برنامج مطبوع للأسبوع الأول، وقال إننا في نهاية الأسبوع سوف نقرر معا إلى متى تطول الزيارة.. تضمن البرنامج رحلة إلى لينينجراد (استعادت اسمها القديم،

سانت بطرسبرج في عام ١٩٩١) ثاني المدن السوفيتية بعد موسكو، التي اشتهرت بمقاومتها الباسلة ضد حصار الجيش الألماني لها خلال الحرب العالمية الثانية، وهو حصار امتد ٤٥٥ يوما.. وكانت هناك رحلة أخرى إلى باكو عاصمة أذربيجان التي يمثل المسلمون نحو ٩٠٪ من سكانها، نعود بعدها إلى موسكو..

في موسكو كان أول بند في البرنامج بعد الذهاب إلى مسرح «البولشوي» (أي المسرح الكبير باللغة الروسية) هو زيارة إذاعة موسكو (أظن أن اسمها عندئذ كان: صوت روسيا).. هناك استضافونا في القسم العربي، وأجروا حديثا مع كل منا حول تأميم القناة وحول مؤتمر براغ وكذلك حول الثورة المصرية.. كانت هذه أول مرة يخرج فيها صوتي على موجات الأثير، ولم أكن أعلم عندئذ أنني سأعمل في الإستوديوهات بقية عمري، ولا كنت أعلم أن الشاب الذي جلس معي نحتسي الشاي إلى أن ينتهي صبري وسناء من التسجيل سيصبح بعد سنوات وزيرا لخارجية روسيا ثم رئيسا لحكومتها في عهد يلتسين.. كان الشاب هو «يفجيني بريماكوف» الذي كان يعمل بالقسم العربي في الإذاعة عندئذ.. في المساء جاءنا المترجم إلى الفندق، وهناك أبلغنا أن الإذاعة تعرض علينا نحن الثلاثة العمل بها.. وافق صبري على الفور، ورفضت سناء دون تردد، أما أنا فقد استمهلته حتى الغد لأتخذ قراري..

فوجئنا في اليوم التالي بنقل صبري إلى فندق آخر، ولما زرناه وجدناه يقيم في جناح فاخر به صالون فسيح وضع في جانب منه بيانو، وعلى الجانب الآخر مائدة عليها بعض المأكولات الخفيفة وجردل فضي صغير فيه زجاجة أشبه بالشامبانيا على نحو ما كنا نرى في الأفلام.. «واو»، صاحت سناء في بهجة بادية، وعندما نطقت ملامح وجهها بكل هذا البشر دار ببالي لوهلة أن أعرض عليها الزواج، وأن يعيش اثنانا في هذا القصر في تبات وبنات ونخلف صبيانا وبنات يملأون علينا الحياة في هذا البلد البارد، ولكنني تراجعت عن الفكرة في اللحظة نفسها.. كان كل منا مشغولا بأحلام المستقبل، في الصحافة أولا وأخيرا.. طمأننا صبري أنه لن يباشر العمل إلّا بعد سفرنا، أما أنا فظللت غارقا في الصمت.. كل ما كان يشغل بالي هي الزيارة التي قررت أن أقوم بها في الصباح للسفارة المصرية..

ذهبت دون موعد، وطلبت مقابلة سفيرنا الشهير محمد عوض القوني الذي استقبلني بعد انتظار قصير، فرويت له قصة وفدنا وأخبرته بالعرض الذي تلقيناه، وبأنني راغب في العمل في الإذاعة عدة شهور ولكنني أريد أولا استئذان السلطات المصرية.. كان هذا هو القرار الذي توصلت إليه خاصة بعد أن زاد إعجابي بعبد الناصر بعد تأميمه للقناة، وأيقنت أنه لا يمكنني العمل بدون إذن والاصطدام مع النظام.. أثنى القوني على قراري، وقال إنه سيبلغ القاهرة بالأمر وسيفيدني بعد ذلك بالرد..

كان مرافقنا إيفان حريصا على أن يأتينا إلى الفندق بين يوم وآخر حتى لو لم يكن هناك برنامج خاص معد لنا، وفي أكثر من مرة صاحبنا في بعض الجولات الحرة، وفي غيابه كان صبري هو دليلنا بالطبع، فعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف عن موسكو أكثر مما نعرف فإنه اعتبر نفسه مواطنا صالحا من سكان المدينة منذ أن وافق على العمل بالإذاعة.. أول درس لقنه صبري لنا كان ضرورة التخلص من أي كراهية مسبقة كتلك التي تضمرها الدعايات الغربية.. «الغرب لا يرى شيئا جيدا في روسيا أبدا، وربما سمعتم من قبل أو ربما تسمعون من أحد من الأجانب المقيمين في فندقكم أن موسكو مدينة متخلفة عن لندن مثلا، أو أن الناس يقفون في طوابير لشراء الخبز، أو أن الأمن يراقبكم طوال الوقت وأنه سيلقي القبض عليكم إذا رأى في أيديكم آلة تصوير.. انسوا كل هذه الأساطير حتى تستطيعوا أن تحكموا حكما صحيحا على الأمور، وبعدها قرروا لأنفسكم»..

كان صبري محقا إلى حد كبير في ملاحظته، وكنت سعيدا أن سناء هي الأخرى اقتنعت بما قال، وهكذا انطلقنا كلنا في شوارع موسكو ننظر إلى ما حولنا بعيون محايدة قدر ما أمكننا.. والواقع أن الشوارع كانت لا تقل في نظافتها عن نظافة مدينة «مونترو» السويسرية التي كنت قد زرتها في العام السابق، بل هي أنظف كثيرا من شوارع جنوا.. وعندما قابلنا أول طابور نراه اكتشفنا أنه طابور انتظار لشراء الصحف من «كشك» شبيه بأكشاك الجرائد في شوارع القاهرة، وكانت هناك في الشوارع الرئيسية أكشاك أخرى أكثر عددا، ولكنها لبيع السجائر.. لاحظنا في مرة أخرى صندوقا حديديا تستطيع أن تأخذ منه زجاجات الصودا أوتوماتيكيا إذا ما وضعت فيه ١٠ كوبيكات (أي واحد من عشرة من الروبل)، وهو ما يساوي نحو ٢٠ قرشا، وكنا كثيرا ما نرى

سيدات بلباس أبيض جالسات على دراجات يتقدمها صندوق لبيع الآيس كريم تعلوه مظلة في العادة، لكن ما لفت نظرنا حقا كان السيدات اللاتي يبعن زجاجات اللبن المرصوصة في صندوق مثبت على عجلات يتجولن به في الشوارع.. سألت سناء: «ألا يفسد اللبن في هذا الجو الحار؟»، ولكن صبري سارع بإجابتها: «يعني بتاع اللبن في بلدكم بيشيله في تلاجة؟»..

رأينا في موسكو لأول مرة الأوتوبيس ذا الطابقين الذي كان قد ارتبط في أذهاننا بمدينة لندن، وركبنا الترولي باص عدة مرات دون أن نرى أي كمساري ولم نعرف إذا كان هذا أمرا معتادا أم استثنائيا، أما ركوب المترو فكان أشبه بجولة في متحف للفرجة على محطاته التي كانت مثل قاعات القصور الملكية.. لم نركب التاكسي في موسكو، وكانت السيارات الخاصة قليلة، وأكثرها شيوعا هي سيارة «لادا» الصغيرة أو «موسكوفيتش»، أما السيارة «زيس» فخر إنتاج الصناعة الروسية فهي سيارة كبار رجال الحزب والدولة المفضلة..

اشتريت من موسكو فانلة رياضية زرقاء مطابقة لفانلة نادي «الدينامو»، وكانت بكم طويل بخلاف الفانلات التي يرتديها عادة لاعبو كرة القدم، ولكنني لم أجد ملابس أخرى جذابة.. لم أرَ إلَّا قليلا من السيدات أو الرجال يرتدون زيا أنيقا في موسكو ولكنني وجدت كثيرين يرتدون ملابس نظيفة، أما الغالبية فكانت ملابسها متقشفة.. لم تكن موسكو تخلو من طبقة فقيرة، ولكن الفقراء كانوا يحصلون على الضروريات بما في ذلك المسكن، وإن كان هناك كثيرون في مساكن جماعية تقيم فيها عائلتان تتقاسمان غرفة الاستقبال والمطعم والحمام.. وقيل لنا إن أحوال المعيشة أكثر بؤسا في الريف وحتى في البلدات القريبة من العاصمة..

ناقشت مع إيفان الكثير مما رأيناه، وقلت له ذات يوم: «يا إيفان، رجال الأمن السريون هنا أكثر من سكان الفندق»، وضحكت ولكنه قطب جبينه وقال: «الفنادق فيها أجانب كثيرون، ولا يمكن أن يكون هؤلاء جميعا أصدقاء مثلكم.. رجال الأمن هؤلاء يحمون البلاد، وهم أبطال حقا».. تأكدت بعد أيام أن واحدا منهم تبعني وأنا ذاهب إلى السفارة، ولا يمكن أن تكون صدفة أن يركب معي الأوتوبيس نفسه وأنا عائد، ثم

ينزل في المحطة نفسها المواجهة للفندق.. على أي حال، كان قد مضى على إقامتنا في موسكو ثلاثة أسابيع، والآن عليَّ أن أرحل.. كان السفير القوني قد تلقى ردا على رسالته من القاهرة، وكان الرد موجزا للغاية: «خالك بيقول لك: عد فورا إلى القاهرة».. كان خالي المقدم صادق حلاوة يشغل المنصب المناسب لطلبي بالتحديد.. كان «رئيس قسم مكافحة الشيوعية» في وزارة الداخلية!

قبل الرحيل، قضينا ليلة ساهرة بدعوة من المنظمة الوطنية للطلبة في أحد مقار الحزب الشيوعي، وجلسنا إلى مائدة عشاء كبيرة تحلق حولها نحو عشرين شخصا، وكان بين الجالسين لسبب غير مفهوم ثلاثة من كبار ضباط الجيش.. ليلتها احتسيت الفودكا لأول مرة، ولذلك فمن الطبيعي ألا أذكر كم كأسا تناولت.. كل ما أذكره عن تلك الليلة أن الضباط كانوا يعبون الفودكا كالماء تماما، وأنهم كلما ملأوا كئوسهم أفرغوها مرة واحدة في جوفهم.. وفي نهايات السهرة كانوا كلما انتهوا من كأس يقفون ويهتفون بحماس بالغ، وكنا نشاركهم الوقوف والهتاف باللغة الروسية أيضا على ما أعتقد.. وكنت كلما نظرت إلى النياشين التي كادت تغطي صدورهم تعجبت كيف انتصر الجيش السوفيتي في الحرب العالمية الثانية..

كنت محظوظا برحيلي من موسكو إذ إن خروشوف قام في العام التالي، ١٩٥٧، بإقصاء كبار قادة الحزب والدولة، وبعد أن كان يدين عبادة الفرد أيام ستالين انزلق عهده هو ذاته إلى الطريق نفسه، واتخذ عدة قرارات خاطئة لعل العداء لعبد الناصر كان واحدا من أبرزها.. أما صبري أيوب فقد استكمل دراسة الطب في تشيكوسلوفاكيا، وعين فيما بعد مدرسا بجامعة «روستوك» في ألمانيا الديموقراطية، ثم عمل مديرا للدعاية في شركة أدوية كبرى..

* * *

في القاهرة كانت تهديدات الغرب قد تصاعدت، وبدأ التلويح بالعدوان على مصر، وهكذا التحقت بالحرس الوطني ضمن الكتيبة التي بدأ تشكيلها في قصر العيني.. وقد تقاطر الأساتذة والطلبة للانضمام إلى الكتيبة، وبدأ التدريب بشكل يومي لنحو ساعتين، ووزعت علينا فيما بعد مدافع رشاشة، وأذكر أنني في أول يوم حملت فيه مدفعي وأنا

عائد إلى البيت شعرت بالرجولة الكاملة وبالمسئولية الكاملة أيضا، وكان كثيرون غيري يحملون مدافعهم وبنادقهم في الشوارع.. لم تكن الثورة تخشى شعبها..

وقبل العدوان الثلاثي بأيام تم توزيع معظم فرق الحرس الوطني في البلاد على مواقعها، وكان الموقع الذي خصص لفصيلتي في القاهرة مجاورا لحي المرج.. وكنا نقضي الليل في المزارع مختبئين في قنوات الري أو تحت الشجر نعين أنفسنا على البرد بالشاي الذي كان يجيء به أهل الكفر المجاور في براد ما إن يفرغ حتى يأتونا بغيره.. كانت مهمتنا أن نقاوم أي إنزال محتمل للغزاة بالمظلات وأن نخبر بذلك ثكنة عسكرية غير بعيدة عنا.. وقد أمضينا هناك نحو عشرين يوما، ولكننا لم نصادف سوى حادث واحد عندما هبط طيار بالمظلة إثر سقوط طائرته المغيرة على بعد كيلومتر منا، وهكذا هرعنا جميعا تجاهه عدا واحد فقط من مجموعتنا ظل يهتف بحماس: «روحوا.. ربنا معاكم.. أنا حاحرس لكم هنا البطاطين».. وقد أصبنا بخيبة أمل كبيرة عندما وصلنا إلى مكان هبوط الطيار فإذا به قد اختفى بعد أن ألقى الفلاحون القبض عليه وقيل إنهم سلموه للجيش..

الحمد لله أننا لم نقبض عليه نحن، فلو كان ذلك قد حدث فعلا لكنت قد قتلته، ليس فقط حبا في الوطن ولكن أيضا لأنتقم لأخي ماجد.. كان ماجد قد حصل على التوجيهية في سنة ١٩٥٤ والتحق بالكلية الحربية، ووسط التحديات التي كانت تواجهها البلاد صدر قرار بزيادة عدد قوات الجيش فكثفت الكلية الدراسة بحيث يتخرج الطلبة بعد ١٨ شهرا، وهكذا تخرجت دفعة ماجد (وكان ضمنها المشير طنطاوي) في سنة ١٩٥٦ وهو لم يكمل من عمره الثامنة عشرة، وبعد أن تخرج نقل على الفور إلى غزة قبل أن يهاجمها الأوغاد..

لا أذكر أن أيا من أبي أو أمي أبدى ملاحظة عندما كنت أعود إلى البيت كل عدة أيام.. لم يسألني أحدهما مرة لماذا أحمل المدفع الرشاش، أو قال لي: «انتبه لدراستك، بلاش الحرس الوطني»، أظن أن كليهما كان يعتقد أنني أؤدي الواجب الذي عليَّ أن أؤديه.. وكانا رابطي الجأش تماما وهما يستمعان إلى أخبار اجتياح غزة وسيناء، وكنت كثيرا ما أندهش لذلك وإن كان قلبي يكاد ينخلع عندما أراهما

يتمتمان بآيات القرآن مع كل خبر، وعينا أمي مغرورقتان بالدمع في حين يكاد الشرر يتفجر من عيون أبي..

كان يقضي وقته كله يتسقط أخبار ماجد من الأقرباء والمعارف، لكن أحدا لم يكن يعلم شيئا عن مكان وحدته العسكرية أو عما حدث لها في غزة، إلّا أنه كان يطمئن أمي بروايات مختلفة.. وبعد نحو أسبوعين من بداية العدوان، اتصل أحد الضباط وأبلغنا أن وحدة المدفعية التي تضم ماجد قد وصلت إلى مشارف القاهرة، وأنها ستعسكر بعد ساعات في مدرسة المنيرة الإعدادية بالقرب من كلية التجارة، وما إن انتهت المكالمة حتى سارعت ذاهبا إلى هناك، إلّا أن أحد الضباط أبلغني أن ماجد سوف يعود بعد ساعتين أو ثلاثا وأنه ربما يكون قد ذهب إلى منزله..

عدت إلى شبرا حيث كانت العائلة قد ذهبت إلى منزل جدتي منذ بداية العدوان، ولكن ماجد لم يكن هناك.. وبعد أن مرت ساعة أو نحو ذلك إذا به يصل، فانفجرت أمي في بكاء لم أره من قبل إلّا عند وفاة جدي وخالي الأصغر المحامي عبد الحميد حلاوة.. كانت عينا ماجد جاحظتيْن حمراويْن، ووجهه أصفر، وهزاله يوجع القلب.. أكل أكله دسمة أعدتها أمي على عجل، وتكلم قليلا فلم نفهم من حديثه شيئا ذا بال، ونام نحو ساعة أو أقل، وبعدها وجدناه منتصبا في كامل ملابسه متأهبا للنزول.. تمنيت أن أكون ضابطا مثله..

حتى يومنا هذا لم أعرف ماذا حدث لماجد بالضبط خلال تلك الأيام.. قرأت مرة في إحدى الصحف بعد ذلك بسنوات أن كتيبته ركبت القطار من غزة لبعض الوقت ثم استخدمت السيارات وقتا آخر، وبعد ذلك قطعت نحو نصف المسافة إلى القناة سيرا على الأقدام.. وعندما حارب أيضا في ٦٧ و ٧٣ لم أعرف ماذا فعل بالضبط.. لم يكن يتحدث قط عن الجيش وسط العائلة أو أصدقائها؛ بسبب التزامه أو بسبب تواضعه، لا أدري.. وكانت أمي كثيرا ما تقول إنه لولا أنها تراه في بزته العسكرية لشكّت في أنه ضابط فعلا، لكنها كانت تتهلل كثيرا عندما تسمع هنا أو هناك عن سمعته في القوات المسلحة، وكانت عندما يثني أحد عليه تعيد ترديد الحكاية أياما وأياما.. وقد حمدت الله أنها توفيت قبل أن يحال ماجد إلى المعاش وهو في التاسعة

والأربعين بعد أن خدم ثلاث سنوات في رتبة اللواء.. لو كان ذلك قد حدث في حياتها لكانت قد ماتت كمدا، يرحمها الله برحمته الواسعة..

كانت أمي قد أصيبت بالسرطان قبل وفاتها، ولكنها ظلت تصارعه بشجاعة وإصرار وكذلك بتفاؤل مذهل أكثر من خمس عشرة سنة، وكانت مقبلة على الحياة على الدوام تماما كما كانت قبل أن يطالها المرض اللعين.. والواقع أنها لم تكن مرضت من قبل سوى لعدة أشهر في منتصف الخمسينيات عندما أصيبت بنوبة ربو عندما كنا نعيش في طنطا، وهكذا نصحها الأطباء بالسكن في منطقة جافة، فكان قرار العائلة بالانتقال إلى القاهرة حيث كنت أدرس في قصر العيني وماجد يدرس في الحربية، وكان والدي قد ترك تعليم البنات ورقي ناظرا لمدرسة المحلة الكبرى الثانوية، ولم يكن قد تبقى على إحالته للمعاش سوى عدة شهور.. وكانت المفاضلة بين حلوان أو مصر الجديدة، فرجحت كفة مصر الجديدة في النهاية..

كانت مصر الجديدة في منتصف الخمسينيات ضاحية جميلة هادئة، تم تخطيطها منذ بداية إنشائها وفقا لاشتراطات عمرانية صارمة، وكانت تتميز بمبانيها المتناسقة ذات الطرز الإيطالية والعربية.. ولو كان هناك منا من لم يذهب إلى مصر الجديدة وقتها لكفاه أن يشاهد عبد الحليم حافظ وهو يسير في شوارعها في فيلم «الوسادة الخالية» الذي صور هناك في الوقت الذي انتقلنا فيه إليها.. ولايزال هناك حتى الآن شواهد على المعمار القديم ماثلة في كنيسة البازيليك، وفندق هليوبوليس هاوس الذي أصبح يسمى قصر الاتحادية، وهناك أيضا جروبي والأمفتريون، وكذلك قصر البارون ذو المعمار التايلندي.. ولم يكن مترو مصر الجديدة وسيلة مواصلات مثلى فقط للسكان، بل إنه كان العامل الذي اجتذب الكثيرين مثلنا للسكن في هذه الضاحية، وكان بالإضافة إلى ذلك يستخدم بغرض النزهة، وكانت عرباته التي صنعت في بلجيكا نظيفة ومواعيده نموذجا للدقة كما أن ركوبه كان مجانيا في أيامه الأولى.. ولا بد لمن يتذكر أن البارون إمبان الذي أنشأ ضاحية مصر الجديدة منذ أكثر من مائة سنة قد مد خطوط المترو ليشجع الأهالي على السكن في الحي، أن يتساءل اليوم: كيف فات على كل المسئولين في مصر من بعد أن يمدوا خطوطا للمترو إلى

مناطق مثل الشروق ومدينتي والرحاب؛ حتى تيسر الحياة على سكانها وتجتذب آخرين للخروج من قمقم القاهرة؟

ولكن السؤال الأول هو: كيف تدهور حال مصر الجديدة على النحو الذي نراه الآن؟ لاشك أن الزيادة السكانية الهائلة قد تكون العامل الأهم، لكن الذي خرب مصر الجديدة فعلا هو الفوضى التي اجتاحت مصر كلها فأتاحت للكل أن يضربوا بالقوانين واللوائح عرض الحائط، والفساد الذي شاع من قمة الحكم إلى قاع المحليات.. ولما كانت مصر الجديدة قد أصبحت مقصدا لسكنى كبار القوم خاصة لما تولى مبارك السلطة، فقد عاث الكبار فيها فسادا، ويعرف سكان مصر الجديدة الأصليون هؤلاء الكبار كما يعرفون الوافدين الجدد منهم بالاسم، ويعرفون ما دمروه من القصور القديمة لتبنى مكانها عمارات فارهة أصبحت سكنى لعدد من وزراء مبارك وأعوانه وأنجاله وأصفيائهم.. وعلى الرغم من أن سوزان مبارك كانت حريصة على إقامة لمسات تجميل في الحي هنا وهناك مثل منع مرور السيارات في الكوربة كل يوم جمعة أو بناء مكتبة باسم الحي أو إقامة حديقة باسمها، فإن هذه كانت مجرد لمسات لتجميل البيئة المجاورة لقصرها، أو كانت استكمالا لديكور استقبالها مع الجوقة التي كانت تصاحبها في المناسبات المعدة سلفا للتصوير..

لا أريد أن أتصيد ثغرة لأنتقد الحكام.. أتحدث فقط عن الألم العام، لكني لا أنكر أن الجانب الشخصي في الأمر قد يكون أشد إيلاما أحيانا.. وما آلمني في هذا كله أن هناك في السلطة من عبث بذكرياتي..

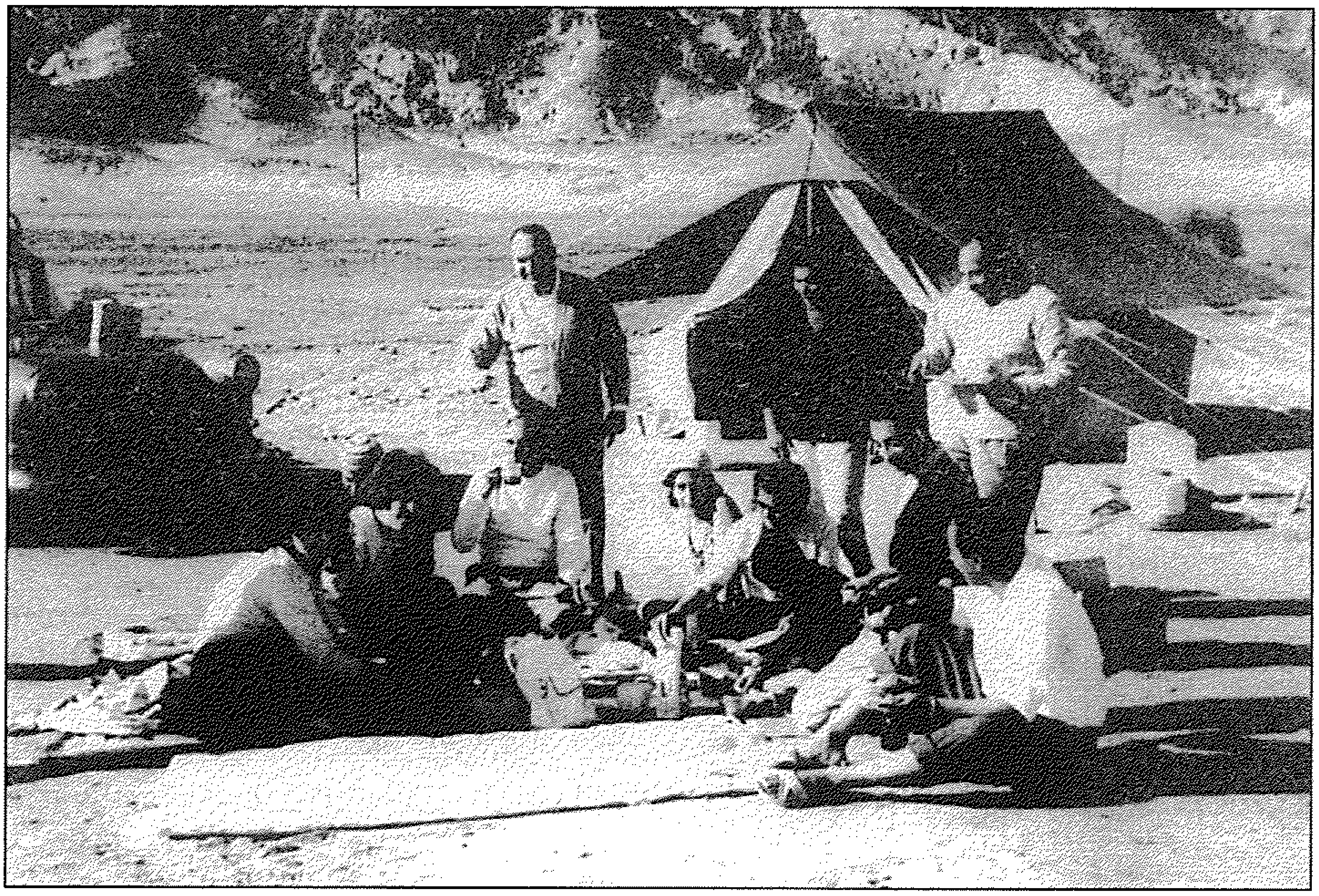

مع زميلات وزملاء طب قصر العيني في العين السخنة (١٩٥٤).

وفي نزهة نيلية إلى القناطر الخيرية (١٩٥٥).

إلى يميني سليمان إدريس (بالنظارة) وإلى يساري صبري أيوب أثناء استقبالنا في براغ لحضور مؤتمر «اتحاد الطلبة العالمي» (١٩٥٦).

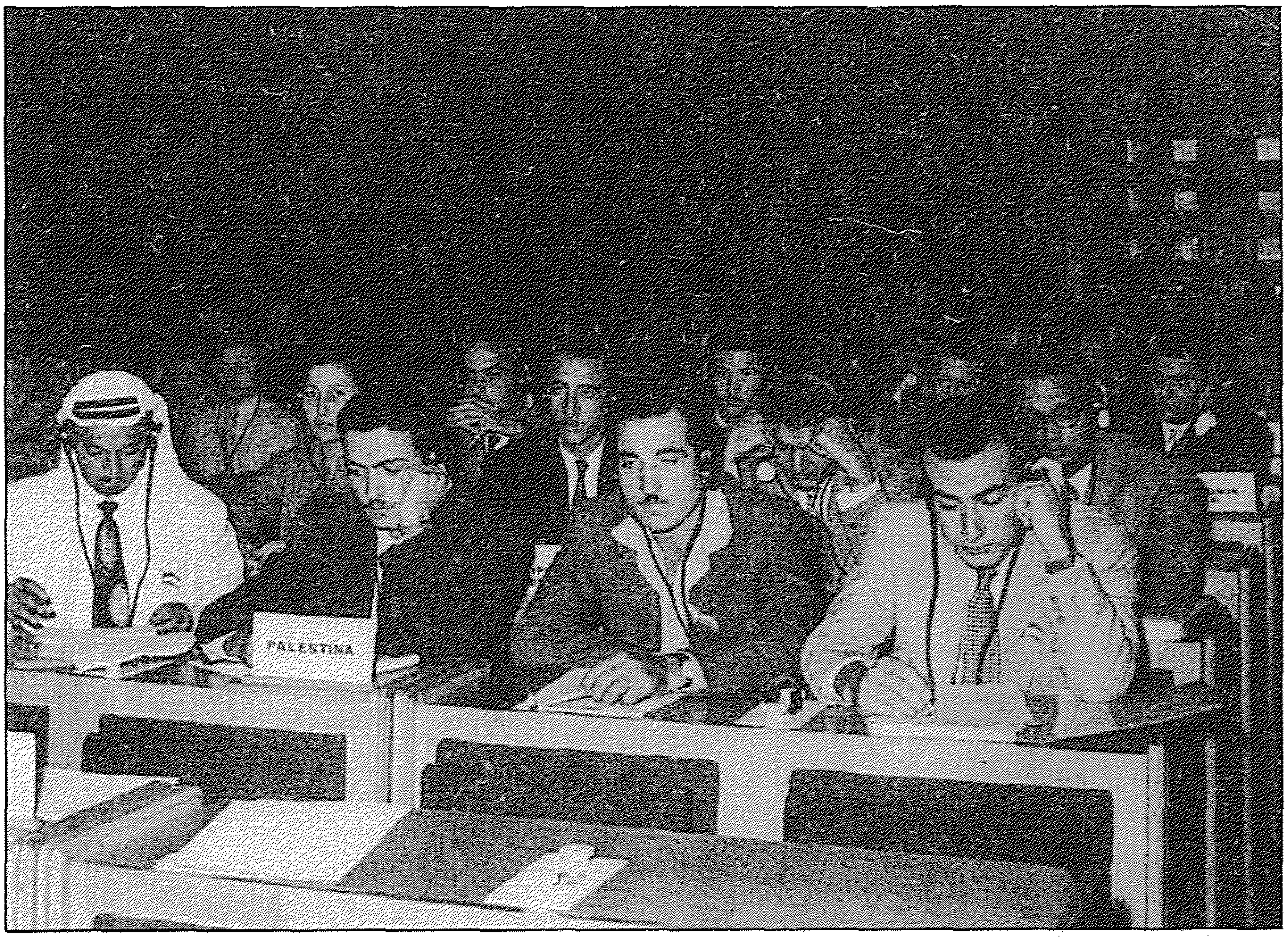

في إحدى جلسات المؤتمر، الصف الأول من اليسار: ياسر عرفات، عضو فلسطيني مقيم في براغ، صلاح خلف، زهير العلمي .. الصف الثاني من اليسار: سناء فتح الله، أنا، صبري أيوب، سليمان إدريس.

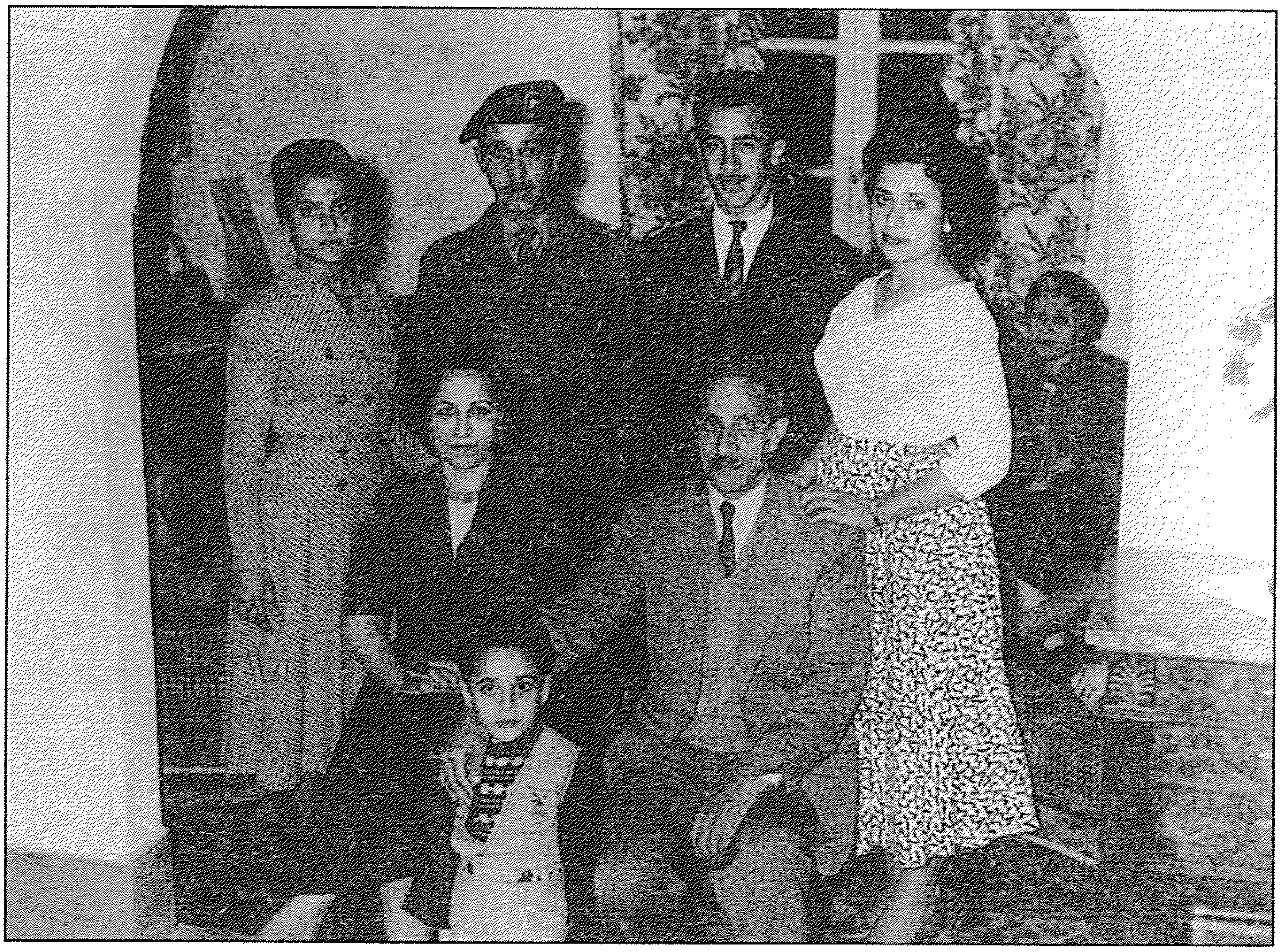

يوم الاحتفال بتخرج ماجد : الوالد والوالدة جالسان وبينهما عاصم وإلى يساري ميرفت ، وإلى يميني ماجد ثم مآثر.

٣

مهنة مستباحة

١٩٥٦ - ١٩٥٩

◆ ◆ ◆

أيام كنت أكتب باب «حظك هذا الأسبوع»، وأدفع جنيها لكل قارئ.

◆ ◆ ◆

كان الدكتور خليل صابات أستاذ الصحافة يقدمني إلى الناس قائلا: «هذا حمدي قنديل.. فلح لأنه لم يحضر محاضرة واحدة لي».

ظهرت نتيجة امتحانات ثانية طب في المساء، وأبلغني الدكتور ناصح أمين بها قبل أن تعلن بساعة.. نجحت، بمعنى أنني نقلت إلى السنة الثالثة وإن كان عليَّ أن أدخل امتحان الإعادة بعد شهور في التشريح والفسيولوجي.. ولكنني قبل أن أذهب إلى البيت لأخبر العائلة بالنتيجة، توجهت أولا إلى أخبار اليوم لعلِّي أستطيع مقابلة الأستاذ مصطفى أمين..

عندما دخلت على سكرتيره سليم زبال لم يعبأ بي كثيرا؛ ربما لأنه كان غارقا في تصفح بعض الأوراق بيد، وكانت سماعة التلفون في اليد الأخرى.. وقفت أنتظر، وإذا بمصطفى أمين يفتح الباب الذي بين غرفته وغرفة سليم.. نظر لي بطرف عين ونصف ابتسامة، وعندما قلت له إني انتقلت إلى السنة الثالثة، بدا كما لو كان قد تذكرني.. أذن لي بالدخول، ولم تستغرق المقابلة سوى بضع دقائق فوجئت به بعدها يطلب سليم زبال في التلفون ويبلغه أنني سأعمل محررا في مجلة «آخر ساعة» مسئولا عن باب «أنت تكتب ونحن ندفع»، وأن مرتبي سيكون ١٥ جنيها شهريا..

كدت أقفز من الفرح عندما غادرت مكتبه وهو يقول لي: «مبروك».. أصبحت الآن صحفيا، وهذا أول عمل لي في حياتي.. قال سليم زبال إن فريق مجلة كليتكم هذا محظوظ فقد قرأ الأستاذ مصطفى مقال العزبي وقرر أيضا تعيينه في «آخر ساعة»، وساقني إلى صالة التحرير المجاورة للسلم الخلفي للدار.. كانت مطفأة تماما، وعندما أشعلنا الأنوار وجدت الصالة واسعة للغاية، وبها نحو ١٥ مكتب إيديال كئيبة اللون.. أشار سليم إلى مكتبي في ركن على يسار الداخل إلى القاعة خصص ليتسع لدولابين من الصاج إلى جوار المكتب، وقال إن الدولابين مخصصان للرسائل الموجهة للباب الذي كلفت بتحريره، وعندما انصرف، فتحت أولهما فإذا بفيض من الرسائل ينهمر على الأرض، وكان معظمها لا يزال مغلقا.. كان باب «أنت تكتب ونحن ندفع» هو بريد قراء المجلة، وكان على محرره أن يختار من بين رسائله ما

يصلح للنشر، ويدفع جنيها لصاحب الرسالة التي تنشر.. وكانت الرسائل ترد بكثرة إلى الباب، لكن الحاقدين على محمد تبارك محرره السابق سرعان ما أبلغوني في اليوم التالي أنه كان مشغولا عن الرسائل بالتحقيقات التي ينشرها في المجلة لأنها تعنون باسمه، وكما كنت أتوقع فقد قال لي البعض الآخر إنه لم يكن ينشر سوى رسائل أصدقائه وأقربائه..

على أي حال، لم أضيع وقتا، وبدأت أفتح الرسائل واحدة بعد أخرى بأناة أحسد عليها نفسي الآن.. وعندما أوشكت الساعة على التاسعة أشار إليَّ الساعي عبد الشافي بأنه لابد من إغلاق الصالة لأن المجلة لا تسهر في المساء كصحيفة الأخبار، لكنني نفحته خمسين قرشا، وظللت أسهر كل ليلة وأدفع لعبد الشافي خمسين قرشا كل ليلة أي إنني كنت أسلم مرتبي كاملا له كل شهر..

وبعد بضعة أسابيع اكتشف بعض الزملاء أن أسلوبي أفضل مما كانوا يظنون، فكلفت بكتابة باب «حظك هذا الأسبوع».. دهشت دهشة بالغة عندما أبلغت بذلك إذ كنت أظن أن مثل هذا الباب لا بد أن يحرره عالم فلك، ولعل هذا ما جعلني أتجاهل قراءة تنبؤات الأبراج في الصحف منذ ذلك الحين.. وعندما بدأت تقديم برنامج «أقوال الصحف» في التلفزيون فيما بعد، كنت أعقد بين حين وآخر مقارنة بين حظ برج من الأبراج أو أكثر في صحف مختلفة والتناقض فيما بينها..

ذهبت إلى محمد العزبي لأفشي له السر، أن باب الحظ يكتبه الصحفيون لا علماء الفلك، فإذا به يقول لي إنه كان مكلفا بكتابة هذا الباب قبلي على الرغم من أنه عين في قسم التحقيقات الصحفية الذي كان يشرف عليه صلاح منتصر.. على أي حال، تأقلمت سريعا مع كتابة باب الحظ، ولا أنكر أنني استخدمته في كثير من الأحيان وفقا لأهوائي، فإذا ما كانت هناك فتاة أود مغازلتها تنبأت بأنها ستلتقي بمن تحب في الأسبوع ذاته، وإذا ما نغص أحدهم عليَّ مزاجي توعدته بوابل من المصائب التي ستحل به مهما حاول الإفلات.. كان الساعي عبد الشافي أول من تذكرت فناديته: «إنت اتولدت يوم إيه؟».. قال: «يوم الأربع».. «يا عبد الشافي باسألك يوم إيه في الشهر يعني؟».. أجاب: «٧ أكتوبر».. أمسكت بقلمي، وتحت برج الميزان أخذت

أكتب: «سوف تقوم بأعمال إضافية هذا الأسبوع دون أن تتقاضى مليما واحدا».. وبدأت فيما بعد أنتظم في الحضور صباحا وأقضي نهاري كله منكبا على العمل.. وهكذا كنت أبتعد أكثر وأكثر عن قصر العيني..

أتاح لي باب الحظ أن أستعرض أسلوبي في الكتابة، وهكذا لم يمضِ شهران حتى عينت مراجعا لصفحات المجتمع، أي مكلفا بإعادة كتابة المواد التي يقدمها المحررون بالطريقة والمساحة المناسبة.. وكان أشهر محرري هذه الصفحات في ذلك الحين هو مهدي صادق يرحمه الله، ولم تكن لهيئته صلة بالمجتمعات الراقية التي يكتب دائما عنها.. كان ضخم الجثة، وكانت سحنته داكنة ووجهه مكفهرا على الدوام، وكان سريع الغضب طيب القلب، وكان بديهيا أن يغضبه تقديم أخباره إلى «مفعوص» مثلي لأعيد تحريرها.. وقد حاول الاصطدام بي في البداية إلَّا أن مدير التحرير جميل عارف حماني من سطوته عدة مرات..

في إحدى هذه المرات جاءني مهدي صادق وأعطاني على مضض ما كتبه، وطلب مني بلهجة آمرة أن أدفع به على الفور إلى المطبعة، لكنني أعدت كتابة صفحاته جميعا وعدلت وحذفت وأضفت، وعندما علم بذلك شخط فيَّ شخطة كدت أقفز بعدها من شباك الصحافة وأعود إلى قواعدي في كلية الطب، ولكنني لم أتنازل.. وصدر العدد فإذا به يتجه إليَّ في الصباح ذاته في خطوة صارمة، وعندما اقترب تملكني الذعر، إلَّا أنه أخذ يربت على ظهري بود رقيق وهو يبلغني ويعلن على كل من في صالة التحرير أنه من الآن فصاعدا سوف يدفع ثمن كل مشاريبي من البوفيه من جيبه الخاص..

استمر عملي في آخر ساعة عدة أشهر، وكانت المجلة وقتها في أزهى عصورها.. كان الأستاذ هيكل هو رئيس التحرير، وإن كنت لم أقابله مرة واحدة، وكان أقطابها الذين لمعوا جميعا فيما بعد هم صلاح هلال، وصلاح منتصر، وصلاح جلال، وجميل عارف، ومحمد وجدي قنديل، وفتحية بهيج.. وقد حاولت الاقتراب منهم لأفهم السر في تفوقهم ولكنني لم أوفق كثيرا..

لم ينقطع عملي في المجلة سوى شهر واحد عندما طلبت إجازة لحضور مؤتمر اتحاد الطلبة العالمي في براغ الذي شارك فيه أيضا وفد من طلبة فلسطين برئاسة ياسر

عرفات، فأرسلت خبرا عن الخطاب الذي ألقاه في المؤتمر إلى المجلة، ونشر الخبر مقرونا باسمي لأول وآخر مرة.. لم يكن الخبر على هذا القدر من الأهمية ولكن ذكر اسم المحرر كان على ما أظن مجاملة معتادة من إدارة التحرير تجاه أولئك الذين يعملون وراء الستار، وقد بالغت الإدارة في الاهتمام فنشرته في جريدة «الأخبار»، وكان أول خبر ينشر في الصحف عن ياسر عرفات، وظل يتذكر هذا الأمر سنوات طويلة، وقبل أن يتوفى بنحو عامين طلب مني شقيقه الدكتور فتحي عرفات (الذي كان مديرا لمستشفى «فلسطين» في مصر الجديدة) صورة من الخبر لينشر في كتاب كان يحرره أحد الصحفيين الأجانب، ولكنني للأسف لم أكن قد احتفظت بمثل هذه الصورة..

لم أمكث بآخر ساعة طويلا حتى أتمتع بعرض مهدي صادق المغري، فقد جاءني العزبي يبلغني أن هناك عرضا من مجلة «التحرير» له ولي للعمل فيها مقابل راتب قدره خمسة وعشرون جنيها.. وكانت مجلة «التحرير» تصدر عن «دار التحرير للطبع والنشر» التي تصدر كذلك جريدة «الجمهورية»، وكانت الدار قد أنشئت في سنة ١٩٥٣ لتتحدث بلسان الثورة، وكان رئيس تحرير المجلة هو المقدم عبد العزيز صادق أحد أعضاء الصف الثاني من «الضباط الأحرار»، ولم يكن تولي ضباط لمثل هذه المهام أمرا يلفت النظر في تلك الأيام التي بدأ فيها الضباط يتسربون إلى الصحافة والإذاعة.. وكان عبد العزيز صادق قد تعرف على محمد العزبي من قبل، وقال له إنه يريد مجموعة من شباب الصحفيين للنهوض معه بالمجلة، وهكذا اختارني معه، وكانت اختياراته كلها من «أخبار اليوم»، أحمد بهجت وإبراهيم راشد ونهاد رجب، ولم يمكث واحد منهم في المجلة طويلا..

بدأنا العمل في «التحرير» في أول يناير عام ١٩٥٧.. كنت واحدا من الأربعة الذين قسمت المسئولية بينهم عن أبواب المجلة، أسعد حسني ومحمد العزبي وجمال سليم وأنا.. لم يكن حولنا سوى عدد محدود من الصحفيين المبتدئين كانوا يعملون مندوبين للأخبار، وكانوا أكفاء في معظمهم، وعلى الرغم من أن الكثيرين منهم لم يتلقوا تدريبا مهنيا، فإن قلائل هم الذين أتوا بالوساطة أو الفهلوة.. ومرة أخرى كان من بين الأبواب التي أراجعها باب المجتمع، وكان يحرره ممدوح عيسى محرر المجتمع الشهير.. كان

ممدوح بقامته القصيرة وكرشه المنتفخة وابتسامته العريضة المزمنة يبدو أكثر براءة من المتوقع من محرري المجتمع المنغمسين دائما في حياة الليل، وكنت دائما ما أقول له إن بابه يجب أن يسمى «المجتمع المخملي»، فقد ظل يعيش في مجتمع ما قبل الثورة زمنا طويلا لا يتحدث فيه إلّا عن الوجهاء وسيدات الصالونات والحفلات التنكرية وما إلى ذلك، وكانت معظم هذه الأخبار مناقضة للمزاج العام.. لم أكن من التزمت بحيث أطلب منه بابا عن «المجتمع الثوري»، ولكني كنت أود أن يحول اهتماماته وعلاقاته، وأن يبحث عن أخبار لا تستفز القارئ العادي على الأقل..

كان ممدوح من التلامذة النابهين في مدرسة «فبركة» الأخبار، وهي مدرسة كانت قد ترعرعت في الأربعينيات في أحضان المعارك السياسية بين الأحزاب التي كان شائعا فيها استخدام الأسلحة المحرمة كافة، وقد انكمشت هذه المدرسة إلى حد كبير بعد إلغاء الأحزاب إثر قيام الثورة؛ وبسبب خشية الصحفيين من ضباطها أيضا.. لكن فبركة ممدوح كانت شيئا مختلفا تماما، إذ لم يكن يبغي من ورائها سوى مجاملة فرسان الليل ونجوم الفن، من ذلك مثلا الخبر الذي نشره عن «الوجيه» سامي الخادم الذي وجه دعوة إلى ست فتيات أجنبيات لحضور حفل لأم كلثوم، وكيف ظل يترجم لهن الأغاني بلغات مختلفة طوال الحفل.. ولم يكن ممدوح يدري أن قصته الوهمية هذه سرعان ما ستنكشف؛ إذ إن حفل أم كلثوم، لحظه العاثر، كان قد ألغي في ذلك الشهر..

كانت لنا نوادر كثيرة مشابهة مع ممدوح، وكنا نقضي وقتا ممتعا، ونعمل كفريق فعلا، ولا أذكر أننا اختلفنا في العمل، لا فيما بيننا ولا مع مدير التحرير محمود سالم الذي أصبح كاتبا كبيرا خاصة في أدب الأطفال، واشتهر بالعديد من سلاسل الكتب البوليسية أبرزها «المغامرون الخمسة»، وكان رسام الكاريكاتير حجازي قد انضم أيضا إلى المجلة، وكان هناك سكرتيران للتحرير أحدهما صفوت عبد الحليم والآخر صلاح صادق شقيق رئيس التحرير.. وكان لكل منا اهتمامات مختلفة..

كانت القضايا التي تشغلني متباينة وربما متعارضة، وأظن أن أحدا لم يستطع أن يعرف إلى أي تخصص كنت أميل، ولا كان بإمكاني أن أتنبأ بأي طريق سأشق.. مرة كنت أكتب تحقيقا عن «جمعية التسلح الخلقي العالمية» وخطورة تسللها إلى مصر،

وثانية أكتب خبرا، وفي مرات أخرى كتبت عمودا إنسانيا نفذت فيه إلى أعماق ـ أو ما تصورت أنه أعماق ـ بعض المشاهير.. أذكر أن الراقصة هاجر حمدي كانت بين تلك الشخصيات، وكانت قد اعتزلت وافتتحت محلا لملابس السيدات في شارع سليمان باشا، فقضيت عندها يوما بكامله دعتني بعده إلى مطعم ومقهى «إكسلسيور» المجاور حيث تناولنا سندوتشات مخ وفنجان شاي، وانتظرت بعد نشر العمود أن تتصل بي لتقول شيئا بعد أن غمزتها غمزتين وسط شلال المديح ولكنها لم تفعل.. بعد ثلاثين سنة التقيتها في منزل صديق يجاور منزلها الذي اختارته بعيدا عن الناس قرب الأهرامات محاذيا لترعة الزمر، فقالت: «عندما تزورني في منزلي سأثبت لك أنني لا أزال أحتفظ بمقالك».. كانت بالتأكيد أستاذة في المجاملة..

محمد العزبي كان ينخر في الصحف الأجنبية كالسوسة، ويكتشف فيها الكثير مما كان يصلح للترجمة والتعليق، وكان أكثرنا اهتماما بالسياسة، وكانت صلعته وقامته المهيبة ونظارته الطبية توحي بكثير من الجد، وتنبىء بأنه هو بيننا الذي سيصبح كاتبا لامعا، لكنه كان في حقيقة أمره أكثرنا استخفافا بالصحافة وسخرية من الحياة، وكان خفيف الظل أستاذا في المقالب.. وكانت المقالب من ألمع سمات الحياة في بلاط صاحبة الجلالة في الأربعينيات والخمسينيات، بل إن عديدين من الصحفيين لم تكتمل مكانتهم بين أهل المهنة سوى لأنهم أجادوها..

أما جمال سليم (وهو والد رسام الكاريكاتير الشهير عمرو سليم) فقد كان مغرما بالتحقيقات الصحفية، وكانت تحقيقاته دائما ما تثير المشكلات مع رئيس التحرير لأنها تعرى كثيرا من العورات.. كان ناقدا رافضا دائما، وكان قلمه حادا ومزاجه حادا، سريع الغضب سريع الصفاء، في حين كان أسعد حسني رقيقا هادئا لا تكاد تلحظه بين الحاضرين، وعلى أي حال فهو لم يكن كثير الجلوس في المكتب الذي كان يتقاسمه أربعتنا، فقد كان مسئولا عن الشئون العربية، وكان يعيش ليله ونهاره مع زعماء حركات التحرير الذين كانوا يقيمون في القاهرة، ومع المسئولين في الحكومات العربية والمعارضين لها على السواء..

وعلى الرغم من أن أربعتنا كنا نعتقد أننا هيئة أركان «التحرير» فإن «الزعيم الركن» إسماعيل عبد التواب، كما كنا نلقبه، كان الأشهر والأكثر حضورا بقامته العريضة ونظارته الشمسة الداكنة التي كان يضعها ليلا ونهارا، وحقيبة يده التي لم تكن تفارقه

لما فيها من أوراق هامة كما كان يذكِّرنا دائما.. لم يكن لإسماعيل منصب معين، ولكنه كان إذا نشر له شيء في المجلة على عمود واحد فإن اسمه يعلوه على عمودين اثنين، وكان يستطيع الدخول على رئيس التحرير في الوقت الذي يراه، وكان على صلة بجهات عديدة، معروفة ومجهولة، ويعرف الأقطاب النافذين في البلد حتى أولئك الذين في مجلس قيادة الثورة أو يوحي لنا بذلك على الأقل.. وكان كثيرا ما يداعبني أنا والعزبي، وكنا نحب ضحكته العالية ونتسلى كثيرا بحديثه عن «بواطن الأمور».. وكثيرا ما جلسنا في الدور الثاني في مقهى «أم كلثوم» في الظهيرة لنحتسي الشاي فيأتون له على الفور بالشيشة، وبعد أن يأخذ منها عدة أنفاس يبدأ في إصدار فتاويه حول المشاكل التي كانت تواجهنا في المجلة بين حين وآخر.. ولما لم يكن لهذه المشاكل حصر، خاصة في العام الثاني للمجلة، لذلك كان النقيب سيد زكي في مباحث الصحافة ضيفا دائما علينا، ولم نعتبره يوما واحدا من هؤلاء الأوغاد الذين يسوقون الصحفيين إلى السجون، بل عاملناه في كثير من الأحيان كواحد منا.. لم يكن لدينا ما نخفيه، أما هو فأظن أنه كان سعيدا لأنه يكتب تقاريره وافية وينجزها على وجه السرعة..

وقتها، بعد أن استقر بي الحال أنا ومحمد العزبي في مجلة «التحرير» وأصبح لنا سعر في سوق الصحافة، قررنا أن نترك دراسة الطب ونتفرغ للعمل الصحفي في الوقت الذي نحاول فيه الحصول على شهادة جامعية، أي شهادة جامعية، تنفعنا في الزواج على الأقل.. وهكذا أخذنا نتصل بأصدقائنا الذين يدرسون في مختلف الكليات فيما يشبه الاستفتاء بحثا عن الكلية التي لا تتطلب منا جهدا كبيرا أو انتظاما في حضور المحاضرات، وكان الإجماع على قسم الصحافة في كلية الآداب، ولم يكن قد أصبح كلية مستقلة بعد.. وكنا قد سمعنا أن الأستاذ مصطفى أمين قد اختطف الثلاثي الذي فتن الكلية (سناء البيسي وصافي ناز كاظم وسناء فتح الله) وهن في السنة الأولى، ليضمهن متدربات في دار «أخبار اليوم».. لا بد أن هذا الرجل كان لديه جهاز راداره الذي لا يشبه رادارا آخر، أو حفارا خاصا ينقب به عن بذور النجاح.. تحكى لنا الكاتبة الكبيرة سناء البيسي في كتابها «سيرة الحبايب» أن الأستاذ مصطفى ألقى محاضرة على طلبة السنة الأولى، وطلب منهم بعدها أن يصوغ كل منهم نبأ

موجزا عن المحاضرة ليختبرهم.. كان الخبر الذي كتبته: «حضر الأستاذ مصطفى أمين ليلقي محاضرة لم أفهم منها شيئا؛ لأنه كان ينفث كلماته بين أنفاس سيجارته التي غرسها بين شفتيه فضاعت مع الدخان».. في اليوم التالي فوجئت به يستدعيها للتدريب في أخبار اليوم..

كنت أنا والعزبي قد اتخذنا قرارنا بدخول قسم الصحافة، ولكن المشكلة عندئذ كانت هي أننا أصبحنا في شهر يناير على ما أذكر، وأن التحويل من كلية لأخرى أصبح محظورا لأن امتحانات الفصل الأول كانت قد أوشكت.. ذهب العزبي إلى الدكتور شوقي ضيف الذي كان عندئذ أستاذا بالجامعة، وكانت تربطه به صلة قرابة، فتوسط له حتى ألحقه بكلية الآداب، وذهبت أنا إلى عبد العزيز صادق أبلغه بالأمر وأرجوه التوسط بما له من مكانة، ومن حسن الحظ أن سكرتير عام جامعة القاهرة عندئذ، عبد العظيم شحاته، كان هو الآخر من الصف الثاني للضباط الأحرار مثله، وهكذا فعندما تم الاتصال بينهما حدد لي شحاته موعدا في اليوم التالي..

ذهبت إليه، وكنا في اليوم السابق مباشرة لامتحان الفصل الأول.. كان الرجل غاية في اللطف فأخذني إلى ركن في مكتبه وجلس إلى جانبي يحدثني كأب، وينبهني إلى أنني مقدم على خطوة هامة في حياتي بالتحول من دراسة الطب إلى دراسة الصحافة، ويطلب مني أن أعاود التفكير في الأمر وأن أتحدث فيه مع عائلتي، وعندما تبين له مدى إصراري استبقاني عدة ساعات حتى أنجز في الدقائق الأخيرة كل إجراءات الالتحاق بكلية الآداب كطالب منتسب وكان الامتحان في اليوم التالي في مادة الترجمة، وهي مادة لا تستدعي لحسن الحظ الرجوع إلى كتب..

لم يكن بدء الامتحان في اليوم التالي هو أصعب ما في الأمر.. الصعب حقيقة هو كيف أبلغ أبي وأمي بأني سأترك دراسة الطب، وكيف سيكون وقع هذه الكارثة عليهما.. صحيح أنهما يعلمان باهتماماتي الصحفية ويدريان بأنني أعمل في مجلة «التحرير»، وإن كانا لا يستريحان لهذا كثيرا، ولكنهما سيصابان بصدمة إذا ما علما بالخطوة التي اتخذتها.. تفتق ذهني عن أن أفضل سبيل هو أن أنقل لهما الخبر بالتدريج، وهكذا لجأت إلى «حجة البليد» وأبلغت والدي في البداية أن أساتذة قصر العيني يضطهدونني، واستخدمت واقعة مصادرة مجلة الكلية في ذلك قدر ما

أستطيع، ثم ذهبت إليه مرة ثانية بعد عدة أيام أطلب منه أن يسعى إلى نقلي إلى طب جامعة عين شمس، لعلني أجد فرصة أكبر للنجاح.. لكنني، من ناحية، أشفقت عليه من الاتصالات التي بدأ إجراءها، ومن ناحية ثانية فقد وجدت أن المصارحة كانت السبيل الذي اتبعته معه دائما، وكان الأكثر نجاعة..

هكذا استجمعت قواي ذات يوم وطلبت منه أن أحدثه في أمر هام.. اختلى بي في غرفتي فاعترفت اعترافا كاملا.. أنصت قليلا ثم قال: «هذا في النهاية قرارك يا حمدي، لكن تذكر أنك أنت وحدك الذي ستتحمل نتائجه في النهاية، فهل أنت واعٍ تماما بخطورة ذلك على مستقبلك؟».. قلت: «نعم».. قال: «مع ذلك فكر ثانية في الأمر بهدوء، على أن نلتقي بعد أيام ثلاثة لنعاود الحديث».. عدنا للحديث بعد ثلاثة أيام فأبلغته أنني مستريح لقراري، فلم يعلق سوى بالقول: «ربنا يوفقك»، على أنه طلب مني طلبا واحدا هو أن أحتفظ بأوراقي في كلية الطب في حال ما إذا راجعت نفسي في المستقبل..

احتفظت بأوراقي في كلية الطب، ولعلها لا تزال هناك حتى الآن إذا لم تكن قد بليت مع الزمن أو ألقي بها في القمامة، وبدأت أستعد للامتحان الذي اجتزته بالفعل بسهولة، واجتاز العزبي الامتحان أيضا.. وكما أبلغونا من قبل، كان من السهولة أن نجتاز الامتحانات في السنوات التالية جميعا إذا ما تفرغنا تفرغا كاملا أيام الامتحانات وحدها، ولم يكن صعبا أن يتكرر ذلك حتى عندما ذهبت للعمل في سوريا في عام ١٩٥٩؛ إذ ذهبت إلى القاهرة ليلة الامتحان، ومر الأمر بيسر، وحصلت على الليسانس في ١٩٦٠ بتقدير جيد، وكذلك محمد العزبي.. وكان الدكتور خليل صابات أستاذ الصحافة الشهير يمازحني دائما عندما ألتقي به بعد ذلك في مناسبة من المناسبات الاجتماعية بعد أن عملت بالتلفزيون وذاعت شهرتي، فيقدمني إلى الناس قائلا: «هذا حمدي قنديل.. فلح لأنه لم يحضر محاضرة واحدة لي».. ولم أكن كطالب منتسب مطالبا بحضور المحاضرات، ولكنني كنت دائما ما أبادر لمجاملته فأزعم أنني كنت طالبا مشاغبا، وأنه هو الذي كان يمنعني من حضور محاضراته..

درسنا الصحافة لا لأنها صحافة، ولكن لأن شهادتها يمكن أن تقتنص دون عناء كبير، والواقع أن مناهج القسم لم تكن قد تبلورت بعد عندما التحقنا به؛ إذ كان قسما

حديثا لا يزيد عمره على عامين، وكان هذا أمرا غريبا خاصة أن دراسة الصحافة في مصر كانت قد بدأت منذ زمن بعيد، عندما أنشأت الجامعة الأمريكية في عام ١٩٣٥ قسما للصحافة يمنح درجة البكالوريوس، ثم أنشئ في جامعة القاهرة في عام ١٩٣٩ «معهد الصحافة العالي»، الذي تحول فيما بعد إلى «معهد التحرير والترجمة والصحافة» في كلية الآداب، ثم أصبح قسما للصحافة في الكلية في عام ١٩٥٣..

كانت الدراسات التطبيقية في القسم محدودة للغاية، أما التدريب في المؤسسات الصحفية فكان يتم حسب التساهيل، ولم يكن هناك سوى عدد محدود من الأساتذة الذين يدرسون الصحافة، لذلك كانت الكلية تحشو في القسم مناهج مختلفة، وتستعير له محاضرين من الأقسام الأخرى في الكلية ومن كليات أخرى بالإضافة إلى بعض مشاهير الصحفيين.. كان بعضنا يقول إن المناهج مثل خلطة من بقايا الطعام الذي يلقى عادة في سلال المهملات، وآخرون كانوا يقولون إنه يفتح لهم آفاقا واسعة..

لا أستطيع أن أحكم اليوم على مدى صواب هؤلاء أو أولئك، ذلك أنني حاولت أن أتعقب خريجي القسم في العام الذي درست فيه، فلم أستطع أن أتذكر أسماءهم لأننا كنا نلتقي في الامتحان ونفترق بعده.. لا أذكر سوى ثلاثة فقط؛ صلاح الدين حافظ الذي عرفته بعد عدة سنوات من تخرجنا ولم نفترق حتى اختاره الله إلى جواره، والدكتورة عواطف عبد الرحمن التي لم يلمع اسمها لأنها أصبحت أستاذة في كلية الإعلام، ولكن لأنها أصبحت وجها بارزا من وجوه النضال الوطني.. وقد اشتريت مؤخرا كتاب حياتها «صفصافة» لعلِّي أجد فيه أسماء بعض زملاء الدفعة، لكنه ـ كما توقعت ـ كان يحكي عن نشأة حركة الاستقلال في إفريقيا أكثر مما حكى عن قسم الصحافة وطلبته.. أما ثالث الذين أذكرهم فهو رؤوف مسعد، وقد التقيته عدة مرات أثناء سنوات الجامعة، ولكن الحياة فرقت بيننا عندما هاجر إلى هولندا وأصبح قصاصا وناقدا له كتابات مرموقة ينشرها على فترات متباعدة في الصحف المصرية..

دراسة الإعلام مشكلة حار فيها كثيرون، وهي مشكلة مزمنة ليس في مصر وحدها وإنما في غيرها من البلدان العربية، وقد عنيت بها اليونسكو منذ عام ١٩٦٩، وبعدها بعدة سنوات اتفقت المنظمة مع جامعة الرياض على عقد ندوة عن دراسات الإعلام في

الدول العربية، على أن يسبقها تقرير تحليلي حول عمل الكليات والمعاهد والمراكز المختصة بالتعليم والتدريب الإعلامي.. وقمت مع الدكتور أحمد حسين الصاوي أستاذ الصحافة القدير في الجامعة الأمريكية بإعداد هذا التقرير في عام ١٩٧٩؛ حيث تكفل هو بالدراسات الجامعية، أما أنا فعنيت بمراكز التدريب.. ولا يزال هذا التقرير هو المرجع الرئيسي في هذا المجال على الرغم من مرور أكثر من ثلاثين سنة على وضعه، تطورت فيها دراسات الإعلام بشكل ملحوظ في معظم الدول العربية..

أثار التقرير عند صدوره الاهتمام بقضية إعداد الإعلاميين، وبعد انعقاد ندوة الرياض أخذ بعض المتخصصين في الدعوة لقيام رابطة تضم كليات ومراكز تدريب الإعلام العربية، كان من بينهم الدكتور المنصف الشنوفي مدير معهد الصحافة وعلوم الإخبار في تونس، والدكتور نبيل دجاني رئيس فرع الدراسات الإعلامية بالجامعة الأمريكية في بيروت، والزبير سيف الإسلام الأمين العام للمركز العربي للدراسات الإعلامية في القاهرة، والدكتور سمير حسين الأستاذ المساعد بقسم الإعلام بجامعة الملك عبد العزيز في السعودية.. وانعقد في عام ١٩٨٠ اجتماع في ليبيا للتحضير لقيام هذه الرابطة، وعرض الليبيون عندئذ استضافتها لديهم، وربما كان هذا واحدا من أسباب فتور الحماس للأمر فيما بعد..

لكن السؤال الذي لم يجد الإجابة الحاسمة حتى الآن هو: ما الوسيلة المثلى لإعداد الإعلامي الناجح؟ وقد خلصت بعد مرور السنين إلى أن هذه المهنة تشترط الموهبة أولا ثم تصقل بالدراسة، ولكن الدراسة لا تستدعي بالضرورة مدة أربع سنوات، بل ربما كان الأوفق أن يشترط في دارس الإعلام أولا أن يحصل على درجة جامعية في أي فرع من فروع العلم، وأن يكتفي بدراسة عليا في فنون الإعلام وعلومه لمدة سنتين.. بهذا يمكن أن نعد الإعلامي المتخصص الذي يستطيع التصدي للمقتضيات المستجدة لصناعة الإعلام.. وقد تعززت قناعتي هذه عندما بدأ عصر الفضاء ودخل الاستثمار الخاص إلى ميدان الإذاعة والتلفزيون، وهكذا أطلق العديد من المحطات المتخصصة، منها محطات اقتصادية ورياضية وصحية وأخرى مخصصة للسياحة أو للتاريخ أو الفنون وغيرها، وكل من هذه المحطات

تتطلب متخصصين في مجالاتها.. أما الصحافة المطبوعة، فسواء تأثرت بهذا الاتجاه أو بقيت على حالها فهي تحتاج على الدوام إلى متخصصين في كل مناحي الحياة..

وقد حظيت مؤخرا بأن أتعرف على نموذج رائع للمعهد الذي كنت أحلم به منذ منتصف السبعينيات، عندما دعاني صديقي المهندس راضي ألخص رئيس مجلس إدارة «معهد الإعلام الأردني» لإلقاء الكلمة الرئيسية في حفل تخرج الدفعة الرابعة من المعهد في أكتوبر ٢٠١٣.. ولا يزيد عدد خريجي هذه الدفعة على ٢٠ شخصا، كانوا قد حصلوا على شهاداتهم الجامعية من كليات مختلفة ثم تلقوا دراسات عن الإعلام في المعهد لمدة عام، أهلتهم لنيل شهادة موازية لشهادة الماجستير.. ويختار الدارسون بعد امتحان قبول عسير للتعرف على مواهبهم واستعدادهم للعمل في مهنة الإعلام.. وتتميز الدراسة بأنها تحتوي ـ بالإضافة إلى المحاضرات النظرية ـ على برنامج تدريب حقيقي مكثف في غرف تحرير وإستوديوهات مماثلة لتلك التي في المؤسسات الإعلامية.. وترعى المعهد الأميرة ريم علي (ابنة السفير طالب الإبراهيمي) التي كانت تعمل قبل زواجها بشقيق ملك الأردن في قناة CNN، وأظن أن رعايتها للمعهد كانت سببا في تلقيه دعما ماليا معقولا من مؤسسات أردنية ودولية، وتقديم دورات تدريبية في دول أجنبية مختلفة..

أعرف أن مثل هذا المعهد لا يروق للأكاديميين، وربما لا يروق أيضا لنقابات الصحفيين إذا ما تدفق الخريجون على سوق الصحافة الذي اكتظ بأعداد تفيض عن الحاجة في مصر وفي بلدان عربية أخرى.. وعلى أي حال فقضية إعداد الإعلاميين قضية مهنية شديدة التخصص، تحتاج إلى مناقشة أوسع في مقام آخر، وربما كان السؤال الذي يوحي به مشهد الإعلام في مصر الآن هو: ما الضوابط للسماح بممارسة هذه المهنة، وإلى متى يظل الإعلام مستباحا للهواة والمشبوهين وأولئك الذين دفعتهم الوساطة إلى الصدارة؟!

مع الدكتور أحمد حسين الصاوي في جامعة الرياض (١٩٧٩).

مع صلاح الدين حافظ (إلى اليسار) وشريف الشوباشي (في الوسط) في باريس (١٩٨٤).

٤

آه يا دمشق

١٩٥٩ – ٢٠١١

◆ ◆ ◆

واحد من أسباب الانفصال بين مصر وسوريا كان سلوك الضباط المصريين الكبار في دمشق.. مع ذلك فقد كررت سوريا الخطأ نفسه مع لبنان، ولكنها لم تكن المفعول به بل أصبحت هي الفاعل.

◆ ◆ ◆

قلت: «يا سيادة الرئيس، إن كان لي أن أطلب شيئا واحدا فهو أن تقود بنفسك انفراجة سياسية، وأن تقترب من معارضيك، وأن تفرج عن المعتقلين السياسيين».

جاءني أسعد حسني زميلي في مجلة «التحرير» وعميد الصحفيين المعنيين بالشئون العربية في أحد أيام فبراير سنة ١٩٥٩، وطلب مني أن نلتقي مع نصوح بابيل نقيب الصحفيين في سوريا وصاحب جريدة «الأيام»، وقال إن اللقاء سيكون في فندق سميراميس ظهر اليوم نفسه.. ذهبنا إلى هناك وأنا على يقين أن أسعد رتب لي اللقاء حتى أجري حديثا للمجلة مع الرجل، وأنه صاحبني لأنه صديق له..

نصوح بابيل رجل طويل عريض.. عندما لقيته ذكَّرني على الفور بالسياسي السوري الكبير شكري القوتلي، ولما قلت له ذلك في بداية حديثنا عرفت أن ما يجمعهما أكثر كثيرا من «الشاسيه»، بل إنه من أقرب المقربين للقوتلي منذ زمن بعيد.. أحسست على الفور أنه قريب مني كذلك، ليس فقط لأنه يبدو في عمر أبي ولكن لأنه كان ودودا للغاية دون مجاملة مفتعلة.. الواقع أنني لم أعرف الكثير عن بابيل حينما تحدثنا؛ إذ لم تستغرق المقابلة سوى وقت قصير للغاية.. كل ما فهمته في الدقائق الأولى أنه متحمس للوحدة بين مصر وسوريا، وبعدها دخل مباشرة في الموضوع.. جريدته جريدة عريقة وشهيرة في سوريا، وهو راضٍ عنها تماما، إلَّا أنه غير راضٍ عن إخراجها الصحفي؛ ولذلك فهو يعرض عليَّ أن أكون مسئولا عن ذلك..

كنت وقتها في بداية العشرينيات من العمر؛ ولذلك شعرت ببعض الزهو أن أطلب كخبير «أجنبي» في مكان آخر، خاصة أنني لم أكن معروفا كثيرا في بلدي كسكرتير تحرير بارز.. مع ذلك فقد كنت واثقا من أن لديَّ إمكانات النجاح بعد أن عملت نحو عامين في مجلة «التحرير»، ثم انتقلت بعد إغلاقها إلى جريدة الجمهورية حيث تدربت شهورا على الإخراج الصحفي على يد رائد العطار (الذي أصبح فيما بعد أشهر مصمم لصفحات الصحف في مصر)، لا يزال عالقا بذهني منها حتى الآن الليالي التي كنت أقضيها في المطبعة ورائحة حبرها الفواحة.. كنت على وشك أن أطلب من نصوح بابيل مهلة للتفكير، ولم يكن الأمر بالنسبة لي هو الانتقال إلى سوريا

(التي أصبحت الإقليم الشمالي في دولة واحدة) بقدر ما كان التأكد من أنني سأقوم بالمهمة على نحو ما يجب، إلَّا أن الرجل فاجأني بأنه يود لو أجبته في الحال إذا كنت على استعداد للسفر معه إلى دمشق خلال الأسبوع نفسه..

أجبت بالإيجاب حتى قبل أن أعرف الراتب الذي سيعرضه؛ من ناحية لأنني أحببت سوريا بعد أن كنت قد زرتها مرتين من قبل؛ ومن ناحية أخرى لأن عملي لم يكن بعقد ثابت، كما أنني كنت أدرس الصحافة في كلية الآداب بالانتساب، أي إنني أذهب للجامعة مرتين كل سنة للامتحانات.. وعندما أخبرت أبي بالأمر سألني سؤالا واحدا: «وما الذي ستفعله بدراستك؟».. قلت إن زملائي سوف يوافونني بالكتب والمذكرات، ووعدت بالحضور إلى القاهرة لأداء الامتحان.. كنت على يقين أن العائلة لن تمانع؛ فقد رباني أبي وأمي على حب السفر، بل كانا يحرضانني عليه..

* * *

كنت أغادر مصر في صيف كل عام أثناء دراستي الجامعية مع بعض أصدقائي المقربين حيث نقضي شهرا في أوروبا متنقلين بين بلدانها.. سافرنا مرتين بالبحر إحداهما إلى جنوا والأخرى إلى ميناء بيريه اليوناني، ومرتين عن طريق دمشق، ثم تركيا، ومنها إلى أوروبا عن طريق بلغاريا.. المرة الأولى إلى دمشق كانت في عام ١٩٥٧، وكان رفيق السفر هو محمد العزبي زميلي في مجلة «التحرير».. وكنا قد أخذنا الطائرة إلى دمشق، ومنها انطلقنا إلى حلب ثم عبرنا الحدود إلى أضنة، وبعدها ركبنا القطار إلى إسطنبول.. لا أذكر من إسطنبول سوى المأكولات التي تشبه مأكلنا، وعبق التاريخ في كل شارع وزقاق، وضفاف البوسفور حيث يقسم المضيق المدينة إلى شقين كل منهما في قارة..

بعد أن قضينا ثلاثة أيام هناك كانت وجهتنا بلغاريا، فرحنا إلى محطة «سركيسي» التي تنطلق منها قطارات إلى بلغراد وبودابست وبوخارست، وكذلك إلى صوفيا.. كانت بلغاريا أفقر البلدان الشيوعية، وكانت عملتها التي تسمى «الليف» منهارة أمام العملات الصعبة التي كنا نستبدلها في أماكن شبه معروفة.. حسب اتفاق سابق، قام

نبيل السلاوي السكرتير الثالث في السفارة وشقيق زميلي في الطب عادل بحجز الفندق لنا عن طريق السفارة حتى نسدد فاتورة الفندق بالعملة المحلية، وعند دخولنا الفندق طلب منا أن ندفع أجر الإقامة مقدما، وكان الأمر غريبا علينا، إلَّا أننا لم نتبين أنه بديهي للغاية إلَّا بعد سنوات؛ إذ كيف يضمن الفندق سداد مستحقاته في الوقت الذي لم تكن فيه بطاقات الائتمان قيد التداول؟

لم نجد في العاصمة صوفيا ما يثير؛ فهي مدينة صغيرة لم يكن عدد سكانها عندئذ يزيد على نصف المليون نسمة إلَّا قليلا، وآثارها التي كان معظمها من الكنائس تكاد تكون مركزة في حي واحد، وكان هناك أيضا مسجد من أيام العثمانيين.. ولم نكن مغرمين بقضاء إجازاتنا على الشواطئ في مصيف مثل «فارنا» على البحر الأسود، وهكذا بقينا هناك ثلاثة أيام أعاننا في الصبر عليها حفاوة السفير الذي كان يهوى الأدب والغناء، وصحبة السلاوي..

من هناك رحلنا إلى يوغوسلافيا التي كنا قد رتبنا رحلتنا إليها جيدا بعد أن التقينا مراسل وكالة «تانيوج» اليوغوسلافية للأنباء في القاهرة.. أعدت لنا هيئة الاستعلامات في بلغراد برنامجا حافلا بالزيارات تضمن رحلة إلى سراييفو وأخرى إلى زغرب، وخصصت لنا سائقا مسلما وإن كان لا يعرف عن الإسلام شيئا، لازمنا كظلنا حتى إنني لا أزال أذكر اسمه «كمال يشارفتش»، وصاحبنا أيضا مرافق كثيرا ما كان يتلعثم في الحديث، كما انضم لنا شاب ياباني يبدو أنه كان من الناشطين في نقابات الصيادين؛ إذ كان لا يتحدث سوى عن الأسماك والبحار، وربما ضموه لنا لأنه كان في زيارة ليوغوسلافيا في وقت زيارتنا نفسه توفيرا للجهد والنفقات.. كان البرنامج معدا طبقا للنسق الشيوعي تماما؛ اجتماع مع الحزب، وآخر مع نائب وزير الخارجية، وحضور مسرحيات وزيارة متاحف ومصانع، وتناول عشاء مع عمدة بلدة ريفية، ومطبوعات عديدة تتصدر الكثير منها صور تيتو..

في سنة ١٩٥٨ كانت المرة الثانية التي أسافر فيها إلى سوريا، وكانت الوحدة وقتها قد أعلنت، وكان معي زميلي السابق في كلية الطب صبري أيوب نصيف.. نزلت مع صبري في فندق «سمير» في «ساحة المرجة» في وسط دمشق وكان وقتها من فنادق

النجوم الثلاثة الحديثة.. كنا ننوي البقاء هناك يومين نغادر بعدهما إلى تركيا.. في اليوم التالي تلقيت مكالمة تلفونية في الفندق.. قال المتحدث إنه المقدم طلعت صدقي من المكتب الثاني، أي مخابرات الإقليم الشمالي، وإنه يريد أن يقابلني.. جاءني وقت الغروب، وقال إنه يود أن يحدثني في موضوع هام، ولذلك فهو يقترح أن نتمشى قليلا في أرض معرض دمشق الدولي حيث لا نلفت الأنظار.. عندما وصلنا إلى هناك فتح الموضوع مباشرة.. «يا أخ حمدي لماذا تعملون وحدكم؟».. لم أفهم السؤال، ولكنه استمر يسأل: «لماذا لا تستعينون بنا؟ هل تعتقدون أنه بعد أن تقضوا في دمشق أياما معدودة فقط تستطيعون الحصول على المعلومات الصحيحة اللازمة؟»..

بدأت مقاصده تتضح فنفيت أي صلة لنا بالمخابرات المصرية، وقلت إنه على الرغم من أننا نعمل بالصحافة فإننا لسنا في مهمة صحفية.. نحن صحفيون مبتدئون لا نزال ندرس في الجامعة، وقد اعتدنا كل عام أن نتعرف على بلدان أخرى وناس آخرين معتمدين على منحة مالية زهيدة من عائلاتنا.. لست أدري إذا ما كان الرجل قد صدقني، ولكنه جاء في اليوم التالي، وذهبنا أيضا إلى أرض المعرض.. هناك قال لي: «سواء كنتم تعملون للمخابرات المصرية أم لا، فسوف أعرض عليك الآن عرضا أرجو ألا تتحرج من رفضه على الفور لو أردت، أما إذا كنت تود أن تقدم لسوريا وللعروبة خدمة فسوف أكون شاكرا».. صمت برهة وصمت أنا الآخر، فاستطرد يقول: «تعرف مشكلة لواء الإسكندرونة».. قلت: «أعرفها.. هذه أرض سورية استولى عليها الأتراك».. قال: «ونحن نجاهد من أجل استردادها، ويعمل فيها رجالنا على الدوام، ولكن مجموعة منهم ألقي القبض عليها في العام الماضي، وهم الآن يحاكمون، ولدينا رسالة هامة يمكن أن تساعد على تبرئتهم، وهذه الرسالة نريد تسليمها إلى القنصل (السوري) في إسطنبول».. ذكر لي اسم القنصل الذي لا يحضرني الآن، وسألني إذا ما كنت على استعداد لتوصيل الرسالة.. أشهد أنه نبهني بشدة إلى مخاطر المهمة، وأبلغني أن المخابرات التركية لو ضبطت الرسالة معي أثناء التفتيش الدقيق على الحدود فربما يكون مصيري الإعدام.. وافقت دون تردد، ولكنني قلت إن لي شرطا واحدا هو أن أبلغ السفير في أنقرة، التي سأزورها بعد زيارتي لإسطنبول.. قال: «افعل ما ترى.. المهم أن تصل الرسالة بسرعة»..

على الرغم من ثقتي بلا حد بصبري أيوب فإنني قررت أَلَّا أطلعه على الأمر سوى بعد تسليم الرسالة حتى لا يتوتر.. في اليوم التالي ذهبنا بسيارة أجرة إلى حلب، ومنها بسيارة أخرى إلى معبر «باب الهوى» السوري على الحدود، وكنت قد وضعت المظروف الذي سلمه لي طلعت صدقي في حقيبة يدي، ووضعت فوقه مجلة «روز اليوسف» بألوانها التي تلفت النظر.. قدَّرت أنه مادامت الصحف العربية ممنوعة في تركيا، فسوف تلفت المجلة نظر ضابط الجمرك، والأرجح أنه سيركز اهتمامه فيها، وبذلك لن يلتفت إلى المظروف.. يا إلهي، هذا ما حدث تماما عندما بلغنا نقطة الحدود التركية.. صادر الضابط المجلة ولم يفتش الحقيبة.. أحمدك يارب.. السؤال الوحيد الذي سأله لي الضابط هو ما إذا كان معي بن أم لا، وهو السؤال نفسه الذي وجهه لكل الذين معنا في السيارة؛ إذ يبدو أن مهربي البن كانوا كثيرا ما يستخدمون هذا الطريق..

من الحدود التركية توجهنا إلى أضنة، ومنها أخذنا القطار إلى إسطنبول.. عندما ركبنا القطار سارعت إلى الحمام وأنا أحمل حقيبتي، حيث أخرجت منها المظروف ووضعته على صدري تحت القميص وعدت إلى مكاني، لكنني ظللت أسمع قرقعة الورق طوال الوقت.. أحسست بتوتر بالغ، فعدت مرة أخرى بالحقيبة إلى الحمام وأعدت المظروف إلى مكانه، وعندما وصلنا إسطنبول أخذت أعد الساعات حتى يأتي الصباح وأسلم الرسالة.. كانت تعليمات طلعت صدقي ألا أتصل بالقنصل، وإنما أن أذهب إلى القنصلية في الصباح كمواطن عادي وأطلب مقابلته، وسوف يكون مستعدا لاستقبالي، وهذا ما حدث.. بعدها ذهبت إلى أنقرة وأبلغت السفير بالأمر..

* * *

كان هذا الشريط يدور أمام عينيَّ بكل تفاصيله وأنا جالس في الطائرة إلى جانب نصوح بابيل متجهين من القاهرة إلى دمشق.. كنت في غاية السعادة وأنا ذاهب إلى إقليمنا الشمالي، والأماكن التي عشقتها والناس الذين أحببتهم في زياراتي القصيرة السابقة.. الآن سأقيم هناك، بل هنا..

منذ اليوم الأول عاملني نصوح بابيل كأب لا كصاحب عمل.. كان حريصا على راحتي الشخصية أولا، على سكني وما إلى ذلك، بل إنه وفقا للعقد الذي وقعناه كان

عليه أن يدفع لي مرتب شهر مقدما إلَّا أنه قال إنه ملتزم بوعده لكنه سيعطيني نصف المبلغ فقط خشية أن تضيع الفلوس في «الكلام الفارغ» إذا ما تسلمتها دفعة واحدة، وقال إنه سيحتفظ بالباقي لديه إلى أن أطلبه وقت الحاجة.. لم أكن مرتاحا أن يحدثني الرجل في أول لقاء «رسمي» بيننا عن «الكلام الفارغ» وأنا سكرتير تحرير الجريدة.. في النهاية هو ليس أبي، لكن الأيام أثبتت لي أن صاحب «الأيام» كان الأب البديل؛ الأب الوحيد في الغربة..

لم أحس بتلك الغربة قط في دمشق، ولم يطف ببالي في أي لحظة أن أفعل ما يفعله المغتربون عادة عندما يأخذون في مقارنة كل أمر بما يقابله في بلدانهم.. والحق أن نصوح بابيل كان أحد الأسباب في هذا، فقد دعاني إلى بيته عدة مرات، وعرَّفني بأبنائه الثلاثة الذين لا أذكر منهم سوى مروان.. قابلت مروان منذ سنوات قليلة، وعلمت مؤخرا أنه يقيم في كندا.. أما الابنة الوحيدة، رغدة، فقد كانت أجمل من ربات الجمال الإغريقيات، وكانت الفتاة الأولى التي أعجبت بها في دمشق على الرغم من أنني لم أكلمها كلمة واحدة، أما الثانية فكانت جارتي عندما وجدت سكنا في الصالحية، بجوار الشارع التجاري الشهير، لدى عائلة أرمنية الأصل، وكانت تسكن البيت المقابل، ولم أعرف أن اسمها «رفا» سوى بعد أشهر ثلاثة، وأنا على وشك أن أغادر مسكني إلى مسكن آخر..

غادرت المكان لأنني غادرت الجريدة.. لا، لم تكن هناك مشكلات في العمل، كنت أعلم أنه بطبيعته مؤقت.. ما عليَّ إلَّا أن أضع التصميم الجديد وأنفذه لفترة حتى يعتاد الزملاء عليه ثم يطبقوه بأنفسهم دون حاجة إلى وجودي، وهذا ما كان بعد الأشهر الثلاثة.. عندها شاءت الصدف أن ينطلق مشروع لصحيفة يومية جديدة في دمشق هي جريدة «الجماهير» التي كان وراءها قطبان شهيران في حزب البعث، د. جمال الدين الأتاسي ود. عبد الكريم زهور، وكان كلاهما يمثل جناحا ذا صبغة اشتراكية مميزة في الحزب الذي أصدر قرارا بحل نفسه في اليوم التالي لإعلان الوحدة، أي في ٢٣ فبراير ١٩٥٨..

قبل إصدار الجريدة دعا مؤسسوها فريقا من الصحفيين والكتاب من مصر ليعاونوهم على إصدارها، كان بينهم ثلة من نجوم الكتابة اللامعين، مثل الأديب

رجاء النقاش والشاعر أحمد عبد المعطي حجازي والصحافي ابراهيم نوار (رئيس تحرير جريدة «الجمهورية» فيما بعد)، وعبد السلام الشريف أستاذ الفنون الذي كان مسئولا عن تصميم صفحات الجريدة.. دعاني رجاء للالتحاق بهم طوال الشهر الذي سيقيمون خلاله في دمشق، ووافق الدكتور الأتاسي، وهكذا انتقلت للعمل في «الجماهير» مع هذا الفريق المتفرد، وعندما جاء وقت رحيلهم وقع اختيارهم عليَّ كسكرتير تحرير للجريدة..

انتظم العمل، ولم يكن هناك ما ينغصني سوى ذلك التوتر المكتوم بين مؤسسي الجريدة وبين عبد الحميد السراج الذي أصبح وزيرا لداخلية الوحدة ورئيسا للمكتب التنفيذي للإقليم الشمالي، وكان هذا التوتر يعكس في حقيقته العلاقة المضطربة بين البعث والسراج؛ أقرب الضباط السوريين إلى عبد الناصر.. مع ذلك فقد ازداد توزيع الجريدة بسرعة فائقة، وتصدرت الصحف السورية في وقت قصير، ومضت شهور على هذا النحو الذي أوحى لي بأن حياتي ستبدأ في الاستقرار، إلَّا أن هذا كان مجرد وهم..

أعلن وقتها عن إجراء الاتحاد القومي لأول انتخابات له في دولة الوحدة التي كنت واحدا من الملايين المتحمسة لها، فقررت أن أرشح نفسي في دمشق لمجرد أن أؤكد أن هذه الوحدة واقع وليس مجرد شعارات.. قدمت أوراقي إلى وزارة الداخلية كما هو مقرر، ولكن لم تمضِ أيام حتى اتصل بي ضابط مصري شاب يعمل في مكتب الاتصال المصري في الداخلية السورية، وهو المكتب المعني بشئون المواطنين المصريين المقيمين في الإقليم الشمالي، وطلب مني الذهاب إليه، وفي مكتبه فاجأني عندما طلب مني سحب ترشيحي.. عندما سألت عن السبب، قال: «أصارحك، أنت المصري الوحيد الذي رشح نفسه في سوريا، وإذا سقطت في الانتخابات فسوف يستغل ذلك للنيل من الوحدة».. عبثا حاولت أن أجادل، فقد قال الضابط بحسم: «أمامك ٤٨ ساعة لتقرر وإلَّا فإننا سوف نصادر بطاقتك الشخصية ونعتبر ترشحك لاغيا»..

غمرني شعور بالقمع خاصة أني كنت أعتقد أن لديَّ فرصة للنجاح، ليس فقط لحماس الإخوة السوريين الجامح في ذلك الوقت لمصر ومن يأتي منها، ولكن أيضا لأنني ترشحت ضمن قائمة تضم أسماء لها شعبية في دمشق، من بينها عدنان

عيطة صاحب محل النظارات الشهير في وسط المدينة، ولم تكن له صلة بالسياسة لكن شبكة معارفه كانت واسعة.. على الجانب الآخر خشيت كثيرا أن أفقد بطاقتي؛ إذ لم يكن لديَّ جواز سفر بعد إلغاء السفر به بين الإقليمين الشمالي والجنوبي، وهكذا كانت البطاقة هي الوثيقة الرسمية الوحيدة التي تثبت شخصيتي.. لم يستغرق الأمر ساعات حتى اتخذت القرار.. نشرت مقالا في «الجماهير» حكيت فيه القصة بتفاصيلها، وفي اليوم التالي وصلني إخطار رسمي بأن ترشيحي اعتبر لاغيا لأن «أوراقه ليست مكتملة»، وصودرت البطاقة..

تسبب المقال في أزمة جديدة بين الجريدة والداخلية، أي بينها وبين عبد الحميد السراج، إلَّا أن الجانبين تجاوزاها، ولكن لم تمضِ أيام حتى وقعت أزمة أخرى داخل الجريدة بسبب تحقيق صحفي قام بنشره صديقي الصحفي المصري الشهير سعد زغلول فؤاد.. سعد لم يكن صحفيا فقط، لكنه كان أيضا في طليعة الفدائيين في حقبة النضال من أجل الاستقلال في الأربعينيات والخمسينيات، وكانت له صولات وجولات على امتداد الوطن العربي كله، حكم عليه خلالها بالإعدام مرتين وأفلت من المشنقة، وقاتل إلى جانب الجزائريين أثناء ثورتهم، ورافق الفلسطينيين في كفاحهم سنوات.. وظل على الدوام نقيا صافي النفس لا يملك من الدنيا إلَّا ما يكاد يستره، حتى استراح من رحلته المضنية في الحياة..

اشتهر سعد زغلول فؤاد أيضا بسيارته «الفورد» المكشوفة من طراز عام ١٩٢٤ التي كان قد اشتراها من مزاد السيارات الملكية بعد ثورة ٥٢ بمبلغ مائة جنيه، وهي السيارة التي كان يستقلها عندما رأيته وأنا جالس على مقهى «الهافانا» الذي كان الملتقى المفضل للسياسيين والأدباء السوريين في قلب دمشق.. قفزت من مكاني إليه، واصطحبته إلى المقهى، وعلمت منه أنه كان قد وصل إلى دمشق قبل أيام هاربا من حكم بالإعدام في بغداد أيام عبد الكريم قاسم.. أخذته من يده وقدمته للدكتور الأتاسي، وكان الأستاذ أحمد بهاء الدين قد أوصاه به، فأصدر على الفور قرارا بتعيينه في الجريدة.. وبدأ سعد يعمل بدأب وهدوء لم يعتده في حياته الحاشدة بالمطبات، إلَّا أنه سرعان ما انزلق إلى مطب جديد..

كلف سعد مع مصور الجريدة «سركيس بالجيان» بإعداد تحقيق صحفي حول انتخابات الاتحاد القومي، وبالفعل قدم التحقيق في اليوم التالي، إلَّا أنه أسهب كثيرا في التفاصيل حتى إن التحقيق تعدى الصفحة المخصصة له فاختصرت منه نحو فقرتين عند النشر.. جاء سعد في المساء إلى مقر الجريدة في حي «المهاجرين» على حافة جبل قاسيون في دمشق، وكان مكتبي في قاعة كبيرة أجلس في جانب منها في حين يجلس في الجانب الآخر «إميل شويري» مدير التحرير، وما إن أبلغت سعد بأنني قمت بالاختصار حتى ثار.. كان يعتقد أن إميل هو الذي حذف ماحذف لأنه بعثي، ولأن التحقيق الصحفي شهد بنزاهة التصويت والفرز الذي أشرف عليه السراج عدو البعث.. لم يصدق سعد أنني الذي قمت باختصار التحقيق، وفجأة قفز إلى الجانب الآخر من الغرفة ليبدأ بينه وبين إميل تلاسن حاد، انتهى بأن التقط سعد مطفأة السجائر من على مكتب إميل وقذفه بها في وجهه.. كان هذا آخر أيام سعد في الجريدة..

لكن هذه لم تكن المفاجأة الوحيدة.. مفاجأة أكبر جاءت بعدها بأيام.. لم تكن المفاجأة هي وصول مقال الدكتور جمال الأتاسي لي قبل أن أتناول إفطاري، فقد كان معتادا أن يرسل مقالاته بانتظام في وقت مبكر هو والدكتور زهور (وكان إلياس مرقص وسامي الدروبي كذلك من أبرز الكتاب المنتظمين)، ولا كان عنوان المقال «الصمت موقف» هو المفاجأة.. كانت مقدمة المقال معتادة تعكس الأزمة المألوفة مع السراج ومع السلطة في القاهرة التي كتب عنها الأتاسي مرات من قبل، ولكن اللهجة هذه المرة كانت حادة، بل إنها تصاعدت حتى قال الأتاسي في نهاية المقال: «عندما توصلت مع أخي عبد الكريم زهور إلى تحليل المرحلة، والمخاطر الخارجية والداخلية، وسيادة عقلية كمال الدين حسين وعبد القادر حاتم وغيرهما في إدارة المجتمع على النقيض من عقلية الرئيس عبد الناصر، وجدنا أن الحل الوحيد المتاح لنا هو الاعتصام بالصمت كتعبير عن الاحتجاج».. وهكذا صمتت «الجماهير» وتوقفت عن الصدور في عام ١٩٥٩..

عدت إلى الشقة التي كنت أشارك سعد زغلول في سكناها، وأخذنا نبحث ما العمل فاهتدينا إلى أن الطريق الوحيد أمامنا هو محاولة الالتحاق بالصحف البيروتية التي كانت وقتها مطمحا للصحفيين العرب كافة، لكن المشكلة التي كانت تحول دون

ذلك هي أنه لم يكن معي جواز سفر ولا حتى بطاقة شخصية.. قال سعد: «لا تحمل همّا.. سنسافر إلى بيروت».. كانت بيروت بالنسبة لي حلما لم أستطع تحقيقه طوال إقامتي في دمشق، وكانت وقتها مركز السياحة والتجارة في المنطقة، وقبل هذا وذاك منبر الصحافة العربية الحرة..

حزمنا حقيبتينا، ووضعناهما في سيارته «الفورد» العتيقة المكشوفة، وانطلقت بنا السيارة صوب الحدود اللبنانية عبر طرق جبلية يعرفها سعد جيدا، وعندما عبرنا الحدود إذا بالجو يمتلئ فجأة بأزيز الرصاص.. قال سعد: «لا تخشَ شيئا، هذه الطلقات هي تحية لقدومنا، فنحن الآن في أرض لبنانية يقيم بها الدروز التابعون للشيخ شبلي أغا العريان، وهو ورجاله أصدقائي منذ كنت أهرِّب لهم السلاح في العام الماضي عندما كانوا يقاومون الرئيس اللبناني كميل شمعون الذي استدعى الأسطول السادس لضرب مصر وسوريا».. وهكذا واصلنا السير إلى قلب بيروت حيث أقمنا في فندق متواضع صغير..

كان الفندق في «ساحة البرج».. لم أعد أذكر اسمه، ولكنني أتذكر أنه كان مجاورا لدار سينما اسمها «ريفولي»، وكان يشغل الطابقين العلويين في بناية ليست قديمة تماما، وكان إيجار الإقامة فيه ثلاث ليرات ونصف الليرة للشخص في الليلة، وكان أفضل مايميزه أنه كان يقبل الزبائن دون حاجة إلى جواز سفر، أما أسوأ ما فيه فكان الغرفة التي أعطوها لنا، فقد كان في الغرفة سرير ثالث خالٍ ولكنه شغل في اليوم التالي بزبون جديد كان شابا أمريكيا في عمرنا.. في المساء أخذني سعد إلى شرفة الغرفة المطلة على الساحة وهو بادي الغضب.. قال: «الواد ده CIA، لازم نمشي».. عذرته، إذ كان قد قضى الكثير من أيامه مطاردا فقلت: «في كل الأحوال أنا لا أستطيع البقاء معه تحت سقف واحد.. رائحة جواربه تقتلني»..

وهكذا غادرنا الفندق غير آسفين سوى على محل الفلافل الشهير الذي كان تحت البناية، ولم يكن سعد يعرف فندقا آخر يقبل الزبائن دون جوازات سفر، فاستأجرنا غرفتين لدى عائلة لبنانية.. وكانت هذه أول مرة أزور فيها بيروت التي بهرتني أضواؤها ومقاهيها الثقافية، وأظن أنني جلست في معظمها ابتداءً من مقهى «نورا» في ساحة

الدباس إلى «لا روندا» في شارع بشارة الخوري ومقهى «مسعود» في باب إدريس و«إكسبريس» في شارع الحمرا.. وعلى الرغم من أنني سمعت أن تلك المقاهي هي ملتقى السياسيين والأدباء اللبنانيين وكذلك اللاجئين السياسيين الهاربين من مختلف الدول العربية، فإنني لم ألتقِ سوى عدد محدود من أولئك وهؤلاء، وكان من بينهم كريم مروة الذي أصبح قياديا في الحزب الشيوعي اللبناني فيما بعد، والسياسي الكبير صائب سلام صاحب الشعار الشهير «لبنان واحد لا لبنانان»، وعدد من الشعراء العراقيين والسودانيين أظن أنهم كانوا يحضرون مؤتمرا من المؤتمرات التي كانت تحفل بها بيروت على مدار العام..

مع ذلك لم أكن أشعر بأنني مقبل على الحياة في بيروت.. كان لديَّ إحساس عميق بالظلم والمرارة بسبب مصادرة بطاقتي الشخصية في دمشق وحرماني من الترشح في الانتخابات، وزاد اكتئابي لأنني لم أجد عملا مجزيا في هذه المدينة الصاخبة التي تلتهم ما في جيبك قَلَّ أم كثر، أما سعد فقد التحق على الفور بجريدة «السياسة» التي كان على صلة بصاحبها عبد الله اليافي رئيس الحكومة الأسبق، وكان من أقطاب ثورة ١٩٥٨ المعادين لشمعون ولحزب الكتائب..

كانت «السياسة» واحدة من كبريات صحف لبنان، لكن سوق بيروت كانت في ذلك الوقت حافلة بالصحف، وكان من أشهرها أيضا الأنوار والنهار والحياة والمحرر والسفير والجزيرة، وكانت هناك صحف أخرى تصدر بلغات مختلفة خاصة الفرنسية والإنجليزية، ومجلات في كل التخصصات، وكانت الصحيفة تباع بقروش زهيدة أي بأقل من ليرة.. كان ذلك زمن الصحفيين الكبار، وكان من ألمعهم غسان تويني وسعيد فريحة وسليم اللوزي، وكان كل منهم صاحب جاه وسلطان.. ولاشك أن سعد زغلول كان محظوظا أن يعمل في واحدة من تلك الصحف، ويحتمي بصاحبها القطب الكبير الذي ظل زمنا يتصدر المشهد السياسي في لبنان..

مع ذلك ظل سعد يحس على الدوام بأنه مطارد، وما إن مضى أسبوع حتى جاءني يقول إنه تزوج في الصباح.. من؟.. قال: «ألمانية».. متى رأيتها؟.. قال: «أول أمس وأنا في المطعم أتناول الغداء».. بكم تزوجتها؟.. كانت إجابته أنه تزوجها عن حب

وأنه سيسافر معها للإقامة في ألمانيا.. ولما سألته من أين سيدبر نفقات السفر أبلغني أنه باع سيارته إلى توكيل «فورد» في لبنان بـ ٤٥٠٠ ليرة باعتبارها سيارة قديمة نادرة.. مع سعد زغلول عليك أن تتوقع دائما مفاجأة من هذا القبيل، ولكن المفاجأة الأكبر كانت عندما أبلغني أنه سيسافر بعد يومين اثنين.. قلت: «هذه كلها أمور تخصك على أي حال، ولكن كيف أعود أنا إلى مصر أو حتى إلى سوريا؟»..

طمأنني سعد بثقة أن الأمر هين للغاية، وأنه سيدبر لي وسيلة للسفر إلى دمشق.. في اليوم التالي صحبني إلى عاصمة الجنوب اللبناني صيدا، حيث قدمني إلى معروف سعد الزعيم الناصري الكبير الذي كان ملء السمع والبصر، وكان ليلتها جالسا في مقهى في البلدة القديمة.. كان معروف سعد واحدا من أقطاب القوميين العرب الذين ناصروا القضية الفلسطينية وواحدا من أبرز السياسيين في لبنان، حتى قتل في عام ١٩٧٥ وهو يقود مظاهرة لصيادي السمك ضد الحكومة التي سمحت لإحدى الشركات باحتكار الصيد بطول سواحل لبنان، وكان هذا أول وآخر لقاء لي معه، وإن كانت صلتي قد استمرت بالعائلة، وخاصة بابنه الدكتور أسامة سعد الذي تزعم «التنظيم الشعبي الناصري» وانتخب عضوا في المجلس النيابي سنة ٢٠٠٥.. أسامة متزوج من سيدة مصرية «إيمان» تعرف صيدا وناسها كما لو كانت قضت فيها عمرها كله، وكانت المرة الأخيرة التي التقيتهما في مايو عام ٢٠٠٩ عندما دعاني لألقي كلمة في الاحتفال بيوم شهداء الصحافة في مركز توفيق طبارة في صيدا..

نادى معروف سعد على واحد من رجاله وظل يهمس في أذنه طويلا، ثم التفت لي وقال إن الرجل سيرتب لي المبيت في بيت من بيوت العائلة ثم السفر إلى دمشق في الغد، وإن عليَّ أن أنفذ تعليماته بدقة، وهكذا ذهبت إلى منزل ذي طابقين له حوش واسع في أطراف المدينة لأقضي الليلة، وقبل أن يودعني الرجل قال: «في الفجر سيأتي أحد الإخوان لإيقاظك، وسيعطيك لباسا عليك أن ترتديه وتذهب معه إلى الشام على نحو ما سيبلغك».. جاءني الرجل الآخر في الفجر وبيده لباس أشبه بـ«العفريتة» التي يرتديها العمال ونزل بي إلى الحوش حيث وجدنا سيارة نقل ضخمة.. قال: «ضع حقيبتك في السيارة»، وبعد قليل بدأ عدد من الرجال يحمِّلون

السيارة بالفواكه فوق الحقيبة.. أين أجلس؟ قال: «إلى جانبي.. أنا الذي سأسوق السيارة وأنت من الآن التباع»..

وهكذا مضت السيارة نحو نقطة الحدود المعروفة بـ«المصنع»، ولما اقتربنا من الجانب اللبناني طمأنني أننا لن نواجه فيه مصاعب، إلّا أننا عندما دخلنا الجانب السوري نبهني إلى الاستماع لكلامه جيدا.. «سأوقف محرك السيارة عندما نصل إلى المخفر هناك وأنادي على الشباب ليدفعونا، وعندما يقف المحرك انزل وادفع السيارة أنت أيضا مع الآخرين دون أن تتفوه بكلمة.. سوف أشغِّل المحرك بعدئذ، عندها اقفز فورا إلى جانبي، سنكون في أمان».. نفذت التعليمات تماما، ووصلنا في سلام إلى دمشق..

* * *

لكن الأقدار شاءت أن أعود إلى دمشق بعد نحو عام من هروبي.. في هذه المرة استقبلني في المطار بعض الرسميين؛ حيث كنت موفدا من تلفزيون القاهرة لمدة أسبوع أقرأ فيه نشرات الأخبار في تلفزيون دمشق، وكان زملاؤنا السوريون يأتون هم الآخرون إلى القاهرة بين وقت وآخر تنفيذا لبرنامج التبادل بين المحطتين.. منذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا ظل حبل صداقة متين ممتدا بيني وبين عدد من الإذاعيين السوريين مثل خلدون المالح الذي أخرج في بدايات حياته بعض مسلسلات دريد لحام وغيرها وقدم في التلفزيون برامج لافتة، كما تعرفت أيضا إلى واحد من الرجال النادرين الذين قابلتهم في حياتي هو صباح قباني مدير التلفزيون..

التقيت وقتها أيضا لأول مرة مع واحد من أشهر نجوم التلفزيون هو عبد الهادي البكار الذي كان يقدم برنامجا ذاع صيته هو «ع الماشي».. كان البكار بالغ الإيمان بالوحدة بين مصر وسوريا وبزعامة عبد الناصر منذ كان يعمل بالإذاعة السورية أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، وعندما قامت الطائرات المغيرة بقصف محطات الإرسال الإذاعي في أبي زعبل، حرم الشعب السوري من متابعة أحداث المعركة، فما كان من البكار إلّا أن اقتحم أحد إستوديوهات الإذاعة ليطلق لصوته العنان صارخا: «هنا القاهرة من دمشق، هنا مصر من سوريا، لبيك لبيك يا مصر»..

يروي الكاتب الدكتور موفق أبو طوق أن «عبد الناصر علم بما جرى فوجه للبكار دعوة مفتوحة لزيارة مصر عبر السفير المصري في دمشق محمود رياض، وعقب توقف القتال في السويس سافر البكار إلى القاهرة، وقابل الرئيس المصري الذي أكرمه وقتئذ بترحيب دافئ استثنائي، وعندما قامت الوحدة فيما بعد لازم البكار عبد الناصر ليغطي إذاعيا معظم الزيارات التي قام بها الرئيس إلى محافظات الإقليم السوري»..

وهكذا فلما حدث الانفصال هاجمه البكار، كما كان متوقعا، بضراوة، واضطر للهروب من سوريا وبدأت رحلة نضاله ومعاناته الطويلة التي أخذته إلى لبنان والعراق ثم إلى مصر التي عاش فيها لاجئا سياسيا سنوات طويلة انتهت بوفاته في ٢٠٠٩.. ولكنه قبل أن يرحل أصدر كتابا في بيروت بعنوان «صفحات مجهولة من تاريخ سوريا الحديث» أهداني نسخة منه، وكان قد راجع فيه معتقداته وانقلب على نفسه منتقدا فكرة الوحدة من أساسها..

انقطعت عن سوريا سنوات عديدة بعد أن وقع الانفصال في ١٩٦١، ولكنني عندما توليت العمل في «اتحاد إذاعات الدول العربية» في ١٩٦٩ ذهبت في إطار أعماله عدة مرات إلى دمشق، خاصة أنها كانت تستضيف مركز التدريب التابع للاتحاد، وكانت أولى هذه المرات في فبراير ١٩٧٢ عندما عقدنا الجمعية العامة هناك، وذهبت مرات أخرى عندما عملت فيما بعد في منظمة اليونسكو.. وفي سنة ١٩٧٦ عندما عين الدكتور جمال العطيفي وزيرا للإعلام والثقافة طلب من المنظمة إعارتي لمهمة لمدة أسبوع.. كانت المهمة في دمشق وليس في القاهرة.. كان الدكتور العطيفي قد قرر إدخال تعديلات جذرية على الشاشة المصرية، من بينها إذاعة الإنتاج التلفزيوني السوري بانتظام، وأوفدني للاتفاق مع هيئة الإذاعة والتلفزيون السورية على التفاصيل، واختيار أولى المواد التي ستتم إذاعتها..

كنت وقتها قد كتبت عدة مرات في الصحف أطالب تلفزيون مصر، وهو الذي سمى نفسه «التلفزيون العربي»، أن يعرض الإنتاج المتميز للدول العربية الأخرى، وقلت إنه صحيح أن مصر هي أكبر قاعدة للإنتاج التلفزيوني العربي ولكنها يجب أن تعترف بأن هناك آخرين برعوا في هذا الإنتاج أيضا، وأن مصر ستكبر باحتضان إبداع

أشقائها، وقلت أيضا إن الزعم بأن المشاهد المصري لن يفهم لهجات الآخرين حجة سخيفة، ولو كان اختلاف اللهجات مشكلة حقا فسوف تحل مع التعود عبر الزمن، وأشدت بالإنتاج السوري بصفة خاصة.. ولكنني كنت متحمسا أيضا لبعض ما ينتج في بلدان أخرى مثل برنامج «افتح يا سمسم» التعليمي الشهير الذي كان ينتج في الكويت، وفي إحدى المناسبات ذهبت مع مدير التلفزيون الكويتي محمد السنعوسي إلى همت مصطفى عندما كانت مديرة للتلفزيون نحاول إقناعها ببث البرنامج من مصر، ولكننا لم ننجح معها ولا مع غيرها، حتى كانت تلك المهمة التي أوفدني فيها الدكتور العطيفي إلى سوريا..

بعد ذلك زرت سوريا مرات، وكنت كلما ذهبت إليها شممت رائحة سوق الحميدية عندما تطأ قدماي المطار، وأتذكر بائع الكازوزة على ضفة بردى وهو يدلي بزجاجاته في النهر حتى تبرد، وكرافتات «الأرجانس» و«السولكا» التي كنت أشتريها من محال «الحفار»، وقصر الضيافة في «أبو رمانة» وعبد الناصر في شرفته بينما الألوف تحتها تهز الميدان بالهتاف، وقهوة الهافانا يتصدر مجلسها المناضل العراقي حسين الحلاق، هو يتحدث ونحن لا نملك إلّا الصمت.. أتذكر رفا، وأتذكر سيارة سعد التي كانت تلفظ أنفاسها ونحن نصعد جبل قاسيون، وأتذكر أيضا المكتبة المواجهة لفندق سميراميس التي كانت تبيعنا الكتب بالشكك.. آه يا دمشق..

أصبح لي هناك أصدقاء ومعارف لا حصر لهم.. على المستوى الرسمي كنت على صلة بعديد من المسئولين، وكانت تربطني مودة خاصة مع نائب الرئيس فاروق الشرع، وكنت قد اكتشفت أنه كان هو الآخر عضوا في اتحاد الطلبة العالمي في براغ، وعندما غاب عن المشهد بعد قيام الثورة في سوريا أدركت أن هناك خطأ جسيما في بنية النظام، وقد أكد هذا الخلل غياب الدكتورة نجاح العطار هي الأخرى، وهي أول سيدة تشغل منصب نائب الرئيس في العالم العربي، وكانت وزيرة لامعة للثقافة، وكنت أحتفظ لها بتقدير خاص.. خلفها في الوزارة واحد من أقرب أصدقائي في سوريا هو الدكتور رياض نعسان أغا، وأظن أنه صاحب أغزر إنتاج ثقافي في محطات التلفزيون العربية جميعا، وقد عين فيما بعد سفيرا في الإمارات حيث أقام فيها منذ أن انشق عن النظام في ٢٠١٢، وكان لانشقاقه وقع خاص إذ كان قد عمل

لسنوات مديرا لمكتب الشئون السياسية في رئاسة الجمهورية ومستشارا سياسيا للرئيس حافظ الأسد..

بين المسئولين الذين عرفتهم أيضا العماد مصطفى طلاس الذي كان وزيرا للدفاع لنحو ثلاثين عاما غرف فيها من كل المتع وقرض الشعر عنوة وكتب مقدمات لعشرات الكتب وغازل كل من قابل من النساء، حتى انشق في ٢٠١٢ وأقام في باريس بمنزل ابنته ناهد أرملة تاجر السلاح الشهير أكرم عجة.. أما نائبه العماد آصف شوكت فكان العقل المدبر في الوزارة حتى قتل في ٢٠١٢، وكان هو وزوجته بشرى الأسد (شقيقة الدكتور بشار) أول من يعلم بوجودي في دمشق حتى ولو ذهبت إليها في زيارة خاصة.. وقد آلمني أنها تعرضت لغضب شقيقها عندما لُـقبت زوجته بالسيدة الأولى، فاحتجت ظنا أن هذا سيجرح والدتها (حرم حافظ الأسد) التي توفيت في فبراير ٢٠١٣، وذهبت بشرى بعدها لتعيش في دبي..

في الجانب المعارض كان المناضل حسن عبد العظيم قطب التجمع الوطني الديموقراطي وشيخ المعارضين قبل قيام الثورة وبعدها هو الملجأ لي عندما يتكاثف الضباب وتنعدم الرؤية، وكنت على صلة وثيقة أيضا باثنين من أهم رموز المعارضة السورية في الخارج هما الدكتور هيثم مناع الناطق الرسمي للجنة العربية لحقوق الإنسان، والدكتور برهان غليون رئيس مركز دراسات الشرق المعاصر في جامعة السوربون (الرئيس الأسبق للمجلس الوطني السوري) منذ أن كنت أقيم في باريس.. وكان لي أصدقاء عديدون بعيدون عن حلبات السياسة، مثل سهيل الصغير وزياد العطار، الذين رافقتهما في اتحاد الإذاعات العربية.. وكثيرا ما التقيت في شهور الصيف الفنان الكبير دريد لحام وقضينا أوقاتا من البهجة يندر أن تتكرر..

لكن علاقاتي بالمجتمع السوري وصلت أيضا إلى دوائر أخرى، ولا أزال حتى الآن على صلة دائمة بياسين دغمش الذي ذهب أيام شبابه ليدرس في ألمانيا فعاد منذ سنوات قليلة يحمل لقب «سيناتور»، وقد التقيته صدفة عام ٢٠٠٠ ولم تفترق عائلتانا منذ ذلك الحين.. أما طلال الزين، وهو واحد من أكبر ملاك ناقلات الغاز في العالم، فغالبا ما يكون لقائي معه خارج سوريا.. في عام ٢٠٠٣ كنا في اليونان عندما أقامت

السفارة المصرية حفل استقبال لسوزان مبارك أثناء زيارتها لأثينا، وكان الحفل في واقع الأمر لجمع التبرعات للمشروعات الخيرية التي ترعاها حرم الرئيس السابق ولمكتبة الإسكندرية أيضا، وكان الزين مدعوا فتبرع بشيك بمليون دولار، ولكنه جاءني بعدها إلى الفندق مندهشا من أن الشيك أعيد له حتى يعيد كتابته باسم سوزان مبارك! كنت ألتقيه عادة مع خالد الشماع صاحب مصانع النسيج، وكثيرا ما كنت أتلقى من خالد أول مكالمة بعدما يذاع برنامج «رئيس التحرير» أو يتوقف عن البث..

ذهبت مرات إلى دمشق للقاء هؤلاء الأصدقاء، ومرات أخرى لإجراء تسجيلات لـ «رئيس التحرير» أو لـ «قلم رصاص» من بعد.. سجلت مقابلات تلفزيونية مع قادة فلسطينيين مثل خالد مشعل ونايف حواتمة وطلال ناجي وماهر الطاهر وكذلك مع شخصيات سورية عديدة.. وذهبت في إحدى المرات لإلقاء محاضرة كان عنوانها «تحديات أمام الإعلام العربي» في مكتبة الأسد التي جعل منها الرئيس حافظ الأسد واحدة من أهم وأضخم المكتبات في العالم العربي، وناديت بأن ينعتق الإعلام من سيطرة الدولة ويتمتع بقدر أكبر من الحرية؛ الأمر الذي أحرج وزير الإعلام عندئذ الدكتور محسن بلال، وكان جالسا في الصف الأول بين عدد من كبار المسئولين في الدولة، بينما القاعة حاشدة بجمهور يطالبني بالمزيد..

* * *

لم تتح لي فرصة اللقاء بالأسد الأب من قبل ولكني التقيت الرئيس بشار أربع مرات؛ ثلاثا منها في دمشق في ٢٠٠٦ والأخيرة في باريس في يوليو ٢٠٠٨ عندما كان يشارك في مؤتمر هناك.. في المرة الأولى اتصلت بي الدكتورة بثينة شعبان التي كانت عندئذ وزيرة للمغتربين وإن ظلت المستشارة المقربة من بشار، وأبلغتني أنه يريد لقائي في مقابلة شخصية..

ذهبت إلى هناك، حيث أبلغت أنه ينتظرني في مكتبه الخاص خارج القصر الجمهوري، وهو المكتب الذي يقع بالقرب من ساحة الأمويين مجاورا لأحد مباني المخابرات.. فوجئت به يستقبلني على سلم الفيلا بابتسامة عريضة، وعندما جلسنا معا كان أول ما قاله: «أتعرف لماذا أردت أن ألتقي بك؟».. قلت: «خير يا سيادة الرئيس»..

قال: «أود أن أسألك سؤالا واحدا لأعرف منك أنت الإجابة عنه، لماذا تؤمن بالعروبة إلى هذا الحد؟».. قلت مناكفا: «وهل لديك فيها شك؟».. ضحك ضحكة عالية، واستمر حديثنا لنحو ساعة ونصف الساعة، تكلمنا فيها بود خالص كأننا أتراب على الرغم من الفارق في السن، ولم نترك موضوعا من موضوعات الساعة إلَّا طرقناه، إلَّا أنني لاحظت أنه يريد أن يتفادى الحديث عن مصر مبارك وأن عينه على لبنان..

أذكر أنني قلت له: «يا دكتور بشار، أنتم لم تستفيدوا من درس الانفصال بين مصر وسوريا، وأنت تعرف أن واحدا من أسبابه كان سلوك بعض ضباط القيادة المصريين المقيمين في دمشق.. أنتم الآن تكررون الخطأ نفسه، لكنه بدلا من أن تكون سوريا هي المفعول به أصبحت هي الفاعل»، ورويت له بعض الروايات التي علمت بها أثناء زياراتي لبيروت وروى هو لي روايات أكثر غرابة.. قلت: «إذن فأجهزة مخابراتكم تكاد تعرف كل شيء»، ولكنه قال إنه استقى هذه المعلومات من أصدقائه القدامى، ولذلك فهو يثق فيها تماما.. بعدها استرسل الأسد في الحديث عن شئون سوريا الداخلية، وعن عائلته وأولاده، وعندما أوشكت المقابلة أن تنتهي قلت: «ياسيادة الرئيس، إن كان لي أن أطلب منك شيئا واحدا قبل أن أغادر فهو ضرورة أن تقود بنفسك انفراجة سياسية داخلية، وأن تقترب من معارضيك وأن تفرج عن المعتقلين السياسيين.. نحن نعاني في مصر من أوضاع مشابهة قد تؤدي إلى انفجار»، فقال: «وعد سوف أفي به، ولنا في ذلك لقاء آخر»..

جاء اللقاء الثاني بعدها بأسابيع.. سافرت إلى لبنان ضمن وفد شعبي مصري بعد نشوب حرب تموز (يوليو) ٢٠٠٦ مباشرة.. أذكر أننا عندما تجمعنا في تظاهرة في مطار القاهرة اقترب مني أحد لواءات الشرطة وهمس في أذني: «قل لحسن نصر الله إن مصر كلها معه».. ذهبنا عن طريق دمشق بعد أن كنا قد حددنا مسبقا موعدا مع الرئيس بشار، وبالفعل التقيناه.. كان الوفد يضم النائب السابق سعد عبود والمحاميين عبد العظيم المغربي ومحمد منيب والناشطتين السياسيتين الشهيرتين شاهندة مقلد وكريمة الحفناوي والباحث رفعت سيد أحمد وغيرهم.. كان الهدف من المقابلة مطالبته بالإفراج عن المعارضين الذي ألقي بهم في السجون دون محاكمة، وعلى الرغم من أن الحديث شابته بعض الحدة من الجانبين، فإنه وعدنا بالاستجابة لمطلبنا..

بعد ذلك بأسابيع أخرى كان لقاؤنا الثالث عندما لبى الرئيس بشار طلبي بإجراء حديث حول حرب تموز لتلفزيون دبي الذي كنت أعمل به عندئذ، وأظن أنه كان حينها هو الآخر في حاجة ليقول للناس شيئا بعد الحرب.. كنت في أغسطس أقضي مع زوجتي بضعة أيام من إجازتي في فيينا عندما جاءتني مكالمة من مدير التلفزيون يخطرني بأن الرئيس بشار وافق على إجراء المقابلة، وأن الموعد قد تحدد بعد غد.. لم تكن معي ملابس مناسبة ولا حتى حذاء، فسارعنا إلى السوق نرتب أمرنا، وفي اليوم التالي انطلقنا إلى المطار، هي إلى القاهرة وأنا إلى دمشق..

عندما تأهبت للخروج من الفندق قبل التسجيل بنحو ساعة فوجئت أن بنطلون البدلة واسع بعض الشيء وأنه ليس لديَّ حزام، فراح طاقم الإنتاج يبحث عن حزام لي في أسواق دمشق، ولم يكن ذلك أمرا سهلا في هذه الساعة المبكرة، ولكنهم عثروا على حزام في اللحظة الأخيرة.. كان بشار ودودا كما عرفته، ولاشك أن هذا كان ظاهرا لمن شاهد المقابلة عندما تم بثها في اليوم التالي، إلَّا أنني مع ذلك تطرقت إلى الموضوعين الحساسين لديه: لماذا لم يطلق الجيش السوري طلقة واحدة في الجولان، ولماذا لا يفرج عن المعتقلين السياسيين؟ ولم تكن إجاباته شافية.. عندما تحدث عن الجولان مثلا قال إن المقاومة هناك «قرار شعبي، ومن غير المنطقي أن تقول دولة إنها ستذهب إلى المقاومة؛ لأن الشعب يتحرك للمقاومة بمعزل عن دولته عندما يقرر هذا الشيء»، أي أن الشعب هو المسئول!

ولكني ألححت في السؤال، مرة أقول: «أليس في سوريا غيرة أن حزب الله حقق ما حققه، وأنتم لم تستطيعوا تحرير الجولان لا بالجيش ولا بالمقاومة؟»، ومرة أسأل: «إلى أي حد ستصبرون على إسرائيل؟»، ثم أعود للقول إن «البعض كان يتوقع أن تهب سوريا لنجدة المقاومة اللبنانية، بل كان البعض يتوقع منك إجراء عسكريا ما عندما حلقت الطائرات الإسرائيلية فوق قصر الضيافة في اللاذقية، وحتى قبل سنتين عندما أغارت إسرائيل على عين الصاحب وقتلت عشرات السوريين».. قلت له يومها أيضا إن «أول حق للناس في وطنهم أن يتكلموا بحرية»، وعدت لأذكِّر أن جماعة مثل جماعة منتدى الأتاسي أو مثل الأعضاء في الاتحاد الاشتراكي وآخرين غيرهم قد يكونون أكثر ولاء لبلدهم وهم في المعتقل من بعض الذين خارج السجون، ولكنه

رد بـ«الكليشيه» التقليدي: «لا نريد الحريات التي تستغل من الخارج.. نريد حريات ضمن إطار الوطن»!.. ولم أنسَ في ختام حديثنا أن أتعجب «أن تكون قطر على الخط نفسه مع سوريا.. أنا محتار في وضع قطر على الخريطة السياسية، وبما أنكم التقيتم بهم مرات ومرات ولكم صداقات مميزة معهم خاصة في السنوات الأخيرة، فهل يمكن أن تقولوا لنا ماذا تفعل قطر بالضبط؟»..

على الرغم من إجابات الرئيس بشار، فقد كان أملي فيه كبيرا.. صحيح أن وراثته للحكم كانت تنافي كل ما أومن به ولكن ما وقع قد وقع، والحاصل أننا الآن أمام رئيس شاب درس في الخارج ولو لفترة قصيرة وزوجة شابة هي الأخرى (أسماء) حاصلة على بكالوريوس في المعلومات من لندن، يمكن لهما أن يدفعا دماء طازجة في شرايين دمشق التي تكلست في عهد حافظ الأسد بعد أن امتد ثلاثين سنة.. وكنت أعلم أن الزوجة من أسرة طيبة وأن والدها طبيب قلب شهير في لندن هو فواز الأخرس، ويقال إنه ظل كما يعرفه الناس دمثا متواضعا حتى بعد زواج ابنته من رئيس سوريا، وقد التقيت زوجته لأول مرة بالصدفة في لندن في محطة أوتوبيس، فصافحتني يومها بترحاب بالغ، ودعتني وزوجتي إلى بيتها..

عندما اشتعلت الثورة في سوريا بعد مصر تعاطفت مع الثوار مثلما تعاطف معظم المصريين الذين هبوا ضد الاستبداد والفساد في بلدهم، ولكنني لم أعلن ذلك صراحة في البداية.. في مايو ٢٠١١ فضلت أن أذهب أولا إلى الرئيس الأسد لأنصح بالتفاهم مع المعارضة، وكان ذلك في اعتقادي لايزال عندئذ ممكنا، فاتصلت بأحد المقربين منه، وهو الصديق ياسر النحلاوي، مقترحا الذهاب له في الوقت الذي يختاره، وقلت له صراحة إن أسلوب القمع الذي يتبعه النظام مع الثوار لم يعد مقبولا، وإن النظام يحرج أصدقاءه مثلي بالمضي في هذا الطريق، ووعدني النحلاوي بالرد عليَّ في اليوم ذاته، إلَّا أنني لم أسمع منه بعد ذلك..

تفاقمت الأمور على نحو ما نعرف، وامتدت الثورة إلى مناطق أوسع.. وقتها هاجم أعوان بشار رسام الكاريكاتير المعارض الشهير علي فرزات في ساحة الأمويين وهو عائد إلى بيته فجرا وأوسعوه ضربا على يديه وأصابعه فنقل إلى المستشفى مصابا

بارتجاج في المخ «علشان تتلم ماترسمشي ضد أسيادك»، وكان إبراهيم قاشوش الذي غنى أغنية الثورة الشهيرة «ياللا إرحل يا بشار» قد ذبح من حنجرته قبلها بأسابيع على أيدي الشبيحة أنفسهم.. عندها وصل بي الاستفزاز إلى مداه فقلت في برنامجي الذي كنت أقدمه في قناة «التحرير» حينئذ إن أمثالي «اللي كانوا بيشوفوا أمل في بشار الأسد في وقت ما، لا يمكن بعد كل المجازر اللي حصلت يقفوا النهاردة جنب نظامه، مهما كنا متأكدين إن قوى أجنبية بتستهدف هذا النظام.. اللي عارف إن فيه قوة أجنبية متقصداه ما يديلهاش فرصة، ما يفتحلهاش الباب»..

مع ذلك يبدو أن صوتي لم يصل للكثيرين؛ إذ إنه بعد أيام استنجد بي بعض أنصار الأسد في سوريا لأعلن دعمي له، وفعل أصدقاؤه في لبنان ـ وهم كثر ـ الشيء نفسه.. بعد الثورة ببضعة أشهر اتصل بي من بيروت الصديق النائب السابق ناصر قنديل يطلب مني أن أزور دمشق، وقال: «إنك على صلة وثيقة بالرئيس وتعرف معظم الأقطاب المعارضين.. لماذا لا تذهب إلى دمشق للسعي بين الطرفين؟»، وأخذ يؤكد لي أنه بخلاف ما نراه على شاشات التلفزيون فالشام هادئة تماما، وأنها لا تزال كما عرفتها دائما بمقاهيها ومطاعمها العامرة، وقال إنه مستعد لاستقبالي في بيروت ومصاحبتي إلى دمشق لو أردت، وأكد لي أن الرئيس بشار سيكون في انتظاري.. وبعدها بساعات تلقيت مكالمة مماثلة من الصديق فيصل جلول الكاتب اللبناني القومي الذي يعيش في فرنسا، وقال هو الآخر إنه يمكنه أن يغادر في اليوم التالي إلى بيروت حتى نذهب معا إلى دمشق..

ترددت كثيرا، فقد كنت من ناحية مشغولا بأمورنا في مصر، ومن ناحية أخرى كنت قد أيقنت أن «بشار» وصل في عناده إلى نقطة اللا عودة، فحسمت أمري وواصلت الوقوف إلى جانب المعارضة، ولكن الأمور تطورت على النحو الذي تطورت إليه فيما بعد، وهالني التدخل الفاضح للغرب الذي كان يهدف إلى إسقاط بشار منذ زمن، وهو التدخل الذي تجلى مؤخرا في التهديد بتوجيه ضربة عسكرية خاطفة إلى سوريا، عارضتها بشدة.. ولا أنكر أن إصرار قطر على دفع العرب إلى حصار سوريا بمقاولة من الولايات المتحدة قد استفزني أيضا، وعندما بدأ الجهاديون من الجماعات الإسلامية المتطرفة يتدفقون على سوريا من أنحاء الأرض جميعا كتبت

في إبريل ٢٠١٣ في «تويتر» أقول إنه «على الرغم من تأييدي للثورة السورية بعد أسابيع من بدايتها، فإن قلقي يزداد من دور جبهة النصرة التي بايعت زعيم القاعدة»..

ولا أزال قلقا من هذا الدور حتى الآن، بل إن قلقي يزداد مع مرور الوقت، ولا أجد حلا للوضع المتفجر في سوريا إلّا من خلال المعارضة التي قاومت قمع النظام من الداخل سنوات طويلة، وبجهد مخلص ومباشر بعيدا عن الأوركسترا الغربية وأعوانها في المنطقة، أتراكا كانوا أم عربا، وبعيدا أيضا عن التيار الإسلامي المتطرف.. عندها فقط يمكن أن ينجلي الموقف عن طريق إلى حل مناسب لوضع معقد قد يهدد المنطقة برمتها..

منشورات الدعاية لانتخابات الاتحاد القومي في حي المهاجرين بدمشق (١٩٥٩).

سعد زغلول فؤاد يشعل سيجارته وراء مقود السيارة الفورد ، ومعنا الصحفيان المصريان محمد حمودة (إلى الأمام) وصلاح جلال (إلى الخلف).. في دمشق (١٩٥٩).

مع نجلاء في فيينا عندما استدعيت إلى دمشق (أغسطس ٢٠٠٦).

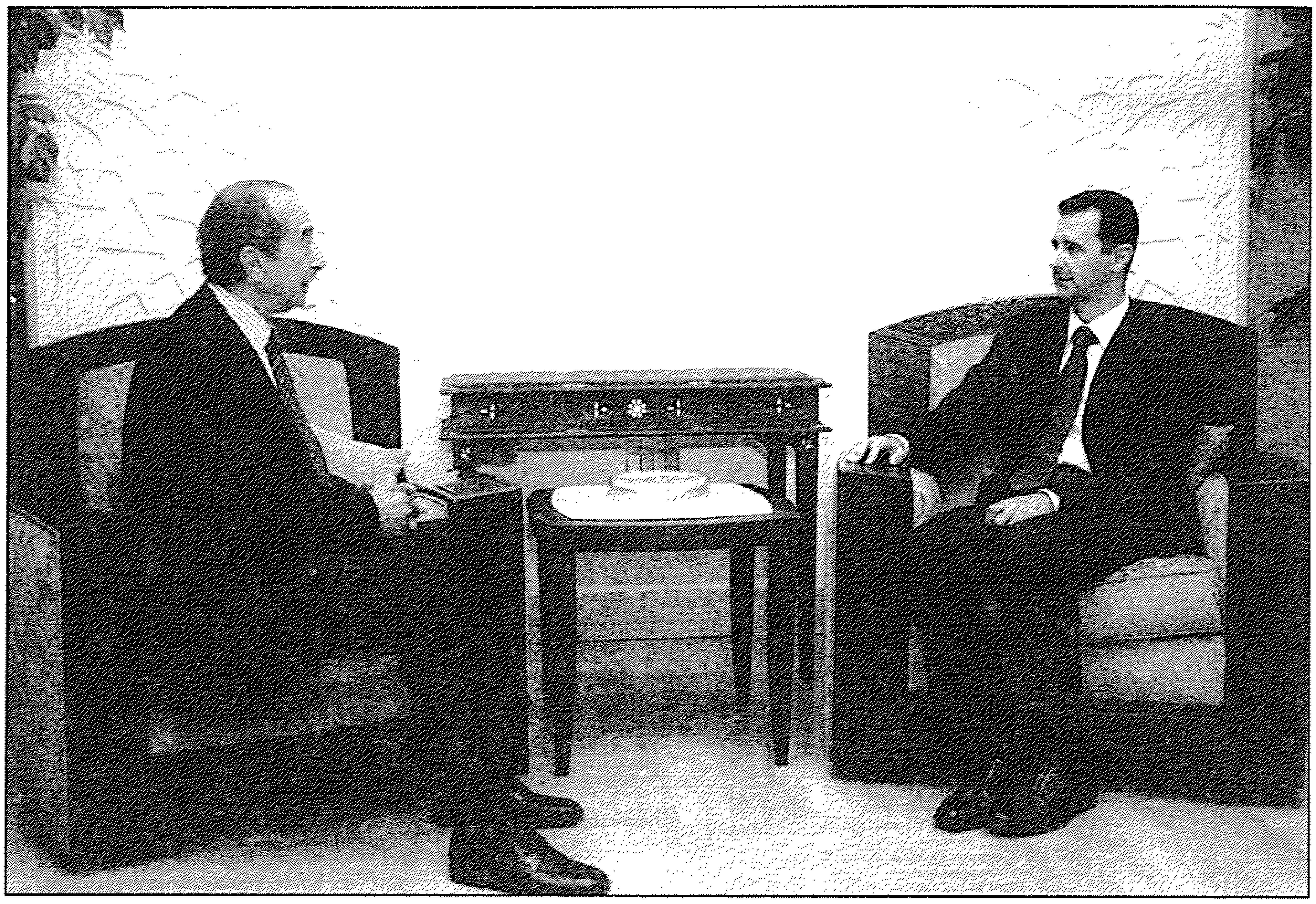

في اجتماع خاص مع الرئيس بشار الأسد (إبريل ٢٠٠٦).

مع الرئيس الأسد قبيل تسجيل حديث التلفزيون (أغسطس ٢٠٠٦).

٥

سنوات التلفزيون الذهبية

١٩٦٠ - ١٩٧٠

◆ ◆ ◆

نجاح التلفزيون يعتمد على أربعة معايير: أن يكون للدولة مشروع وطني.. أن يتحلق حول رسالتها إجماع شعبي.. أن ينبع من رحم نهضة فكرية وثقافية وفنية.. أن يعمل بمستوى مهني عالٍ.

◆ ◆ ◆

استغرقنا في النوم كل على كرسيه حتى جاء من دق على زجاج السيارة: «إصحى يا فندي النهار طلع».. ولا أظن أنه تبين أن النائمة إلى جواري كانت سعاد حسني.

سافرت إلى أوروبا عدة مرات وأنا طالب بالجامعة، لكنني لم أشاهد التلفزيون ولو مرة واحدة على الرغم من أن استخدامه كان قد بدأ يشيع في البيوت الأوروبية الراقية في الخمسينيات من القرن الماضي، ولذلك عندما عرض عليَّ الصديق الراحل أحمد سعيد أمين العمل في التلفزيون المصري لم أكن أدرك تماما كنه العمل.. أحمد هو واحد من الفرسان الأربعة المقربين من الدكتور عبد القادر حاتم وزير الإعلام حينئذ، الذين قامت على أكتافهم وكالة أنباء الشرق الأوسط بعد أن أصبحت الوكالة الرسمية الناطقة باسم الحكومة في منتصف الخمسينيات.. أما الثلاثة الآخرون فهم شريف منصور وسند أبادير وأحمد سعيد عبد الحليم.. اتفقنا في تلك الليلة من مارس ١٩٦٠ أن نلتقي في «كازينو الشجرة» الذي كان يطل على النيل في المنطقة المقابلة لفندق «كونراد» الآن.. كان الدكتور حاتم قد كلفهم قبل عدة أسابيع بمعاونة الإذاعي الشهير سعد لبيب، الذي كان قد عين سكرتيرا عاما للتلفزيون، في تأسيس قسم الأخبار بالتلفزيون وترشيح العاملين فيه..

عندما التقينا في المساء عرضوا عليَّ العمل معهم، فوافقت لأنني كنت معجبا بهم ومتشوقا لاستكشاف مجال عمل جديد؛ ولأنني كنت قد عدت من سوريا قبلها بأسابيع دون أن أجد عملا مناسبا بعد.. كان المحامي زكريا لطفي جمعة مرشح دائرة مصر الجديدة الدائم لمجلس الأمة قد أغراني للعمل معه في مجلة جديدة أصدرها باسم «مصر الجديدة»، وكان أهم ما في الإغراء أن صديقتي مديحة عزت (التي اشتهرت فيما بعد على صفحات روز اليوسف ببابها: تحياتي إلى زوجك العزيز) كانت رئيسة التحرير، كما أن الذين يعملون في المجلة كانوا مجموعة فريدة من المشاغبين: عبد الوارث الدسوقي (الذي أصبح صحفيا شهيرا) ومنيرة عبد الجواد (وكيل وزارة الثقافة فيما بعد) وممدوح زاهر (كبير مندوبي أخبار التلفزيون في

الستينيات).. وكان أجرنا يكاد يسد نفقاتنا اليومية، وكنا نحصل عليه من زكريا جمعة بشق الأنفس، وفي أكثر من مرة أعطاني شيكات بلا رصيد..

غادرت الكازينو مع الفرسان الأربعة وتوجهنا إلى سعد لبيب على الفور.. كان مبنى ماسبيرو لا يزال قيد البناء، وهكذا استأجر التلفزيون عدة شقق في وسط القاهرة، كانت الشقة التي خصصت لسعد لبيب منها تقع في شارع الجلاء.. تحمست كثيرا للقائه، ليس فقط لأنني على وشك تسلم عمل معه ولكن لأنني كنت أعشق طريقته الرصينة الودودة عندما كان يتحدث في البرنامج الثاني في الإذاعة.. أظن أنه لم يكن لديه يومها الكثير من الوقت وهو يحضر لمشروعه الكبير، إذ قال على الفور: «مادام أربعتهم يرشحونك فاعتبر نفسك واحدا منا من الآن.. إلَّا أنني أريد أن أصارحك، سلطتي في تحديد المرتبات سقفها ١٤ جنيها ونصف الجنيه.. إذا وافقت أوقع قرار تعيينك الآن، أما إذا كنت تريد مرتبا أكبر فعلينا الانتظار حتى يجتمع مجلس إدارة التلفزيون لنعرض عليه الأمر».. قلت في الحال: «موافق وبعدها نرى».. قال: «إذن فهناك وظيفة شاغرة تناسبك هي سكرتير تحرير قسم الأخبار.. هناك سكرتيران للتحرير.. زميلتك تم تعيينها منذ أيام، وقد رشحها أصدقاؤنا أيضا لأنها كانت تعمل معهم في الوكالة.. اسمها نوال سري».. كان ذلك في مارس ١٩٦٠، أي قبل بدء إرسال التلفزيون بأربعة أشهر..

لم أكن أعرف «نوال»، لكننا سرعان ماتفاهمنا، وظللنا صديقيْن حتى اليوم.. كان عملنا الرئيسي هو إعداد النشرة الإخبارية في صورتها الأخيرة.. لم تكن هناك أقمار صناعية تنقل لنا أخبار العالم مباشرة وقتئذ، وكان مصدرنا الوحيد وكالتين عالميتين لأخبار التلفزيون هما «فيزنيوز» و«يونايتد برس» اللتان كانتا ترسلان الأخبار مصورة على أفلام ١٦ ملم في مظروف يصل بالطائرة كل يوم من لندن، وفي بعض الأحيان كان المظروف يتأخر أياما.. ومع كل خبر في المظروف كان هناك نص بالإنجليزية نترجمه ونصوغه على نحو يتفق مع لقطات الفيلم.. أذكر أننا كنا وقتها نستخدم ساعة كرونومترية «ستوب ووتش» لنتبارى في دقة قياس وقت هذه اللقطات خاصة بالنسبة إلى سرعة المذيع الذي سيلقي النشرة في القراءة.. صلاح زكي كان الأسرع إذ كان يقرأ ١٢٠ كلمة في الدقيقة؛ ولذلك كنا نحشو له النشرة بكلمات أكثر، أما سميرة

الكيلاني فلم تكن تقرأ سوى ٨٥ كلمة في الدقيقة؛ ولهذا كان النص الذي يقدم لها أكثر اختصارا.. وعلى الرغم من ذلك التفاوت في السرعة فلقد كان الاثنان أستاذيْن..

انتظمت التجارب قبل الافتتاح بأسابيع، لم تنقطع سوى يومين أو ثلاثة عندما انتقلنا إلى مبنى ماسبيرو الذي لم يكن قد اكتمل تجهيزه يوم الافتتاح.. كان الافتتاح في ٢١ يوليو.. بدأ إرسال «التلفزيون العربي» في القاهرة ودمشق في وقت واحد، السابعة مساء، بآيات من القرآن الكريم، تبعها نقل افتتاح مجلس الأمة وخطاب الرئيس عبد الناصر فيه، ثم نشيد الوطن الأكبر، فنشرة الأخبار التي قرأها صلاح زكي..

كانت هذه أول مرة يشاهد فيها المصريون جهازا يعرض لهم الأحداث وقت وقوعها في بيوتهم، بل ويقدم لهم المسرحيات والأفلام التي أنتجت في مصر وخارجها.. ربما رأي بعضهم قبل ذلك بعشر سنوات محاولة قصيرة شبيهة عندما تزوج الملك فاروق زواجه الثاني من عروسه ناريمان في سنة ١٩٥١، فقد فوجئ الناس يوم الزواج بشاشات عرض كبيرة تثبت في ميادين القاهرة الرئيسية لتنقل لهم مراسم الزواج واحتفالاته من محطة إرسال أقيمت في باب اللوق، وفي سنة ١٩٥٣ عرضت شركة فرنسية إقامة محطة دائمة للتلفزيون في القاهرة، إلَّا أن مشروعها تعثر..

شركات التلفزيون الغربية الكبرى كانت هي الدافع وراء دخول التلفزيون إلى عديد من الدول العربية في البداية.. من هذه الدول العراق الذي نشأ فيه التلفزيون الرسمي في عام ١٩٥٧ عندما أقيم في بغداد معرض للإلكترونيات شاركت فيه شركة PYE البريطانية للتلفزيون بعرض معدات ستوديو متكامل ومحطة إرسال، وأغرت الحكومة العراقية لشراء المعدات بعد انتهاء المعرض لتقيم بها أول محطة تلفزيون هناك.. ولكن الاستعمار، الفرنسي خاصة، كان أسبق من الشركات في إدخال التلفزيون للدول العربية التي كانت تحت سيطرته، وإن كان يستهدف الجاليات الفرنسية وليس الجمهور العربي، وهكذا تم مد إرسال التلفزيون الفرنسي إلى المغرب عام ١٩٥٤ ثم إلى الجزائر في ١٩٥٦.. بعد ذلك بعام واحد بدأ التلفزيون التجاري الخاص في الدول العربية بمحطة إرسال صغيرة في الكويت يملكها تاجر من أصل إيراني تبث ساعتين من الأفلام السينمائية يوميا.. وفي العام نفسه أقامت شركة أرامكو الأمريكية

للبترول محطة محدودة الإرسال بالظهران في السعودية، تلتها محطة أخرى في لبنان أنشئت في عام ١٩٥٩ بواسطة شركة لبنانية خاصة..

على الرغم من أن معظم أجهزة «التلفزيون العربي» كانت من شركة RCA الأمريكية، فإن أحدا لا يستطيع القول إن شركة بعينها كانت وراء قيام التلفزيون في القاهرة أو دمشق.. قام التلفزيون أساسا على أكتاف أبناء الإذاعة مثل صلاح وسميرة وتماضر توفيق وعبد الحميد يونس وسامية صادق وعباس أحمد وأنور المشري وهمت مصطفى وسعيد أبو السعد وكمال أبو العلا وغيرهم.. كان معظم هؤلاء قد أوفدوا إلى الخارج لتلقي تدريب مكثف في هذا المجال الإعلامي الجديد..

الأقرب إلى نفسي بينهم كان أنور المشري على الرغم من أنني لم أكن قد عرفته من قبل.. أول حديث تبادلته معه كان بعد شهور من بدء الإرسال.. كنت قد اجتزت اختبار المذيعين وبدأت في أغسطس ١٩٦٠ تقديم برنامج «حكايات وراء الأخبار» بالصوت فقط.. ولم تمر شهور حتى طلب مني رئيس تحرير الأخبار بهي الدين نصر أن أقرأ لأول مرة نشرة أخبار التاسعة الرئيسية، ولم يكن قد تبقى على موعدها سوى ثلث الساعة.. لما حاولت التملص أبلغني أن هذه أوامر.. «الدكتور حاتم قال: خلوا الجدع السوري ده يقرا لنا النشرة الليلة دي»، وضحك.. كان عبد القادر حاتم يعرف العاملين جميعا واحدا واحدا؛ إذ لم يكن عددنا عندئذ في التلفزيون كله يزيد على ٦٠٠، وكان يظن أنني سوري ربما لأن أحدا أبلغه أنني كنت أعمل بالصحافة في سوريا قبل التحاقي بالتلفزيون.. كان المقرر أن يقرأ أنور المشري تلك النشرة، وكانت أوراقها بالفعل في يده عندما أبلغوه أن يتخلى عنها لي.. لم يغضب.. برقة بالغة وحرص صادق طلب مني أن أقرأ النشرة أمامه قبل أن أقرأها على الهواء حتى يطمئن إلى إلقائي..

وقتها كان في الجيل السابق لنا رموز يتصرفون كرموز ويحيطوننا نحن المذيعين الجدد بالرعاية.. كانت تماضر توفيق توصيني بأن أستمع إلى نشرات الأخبار في الإذاعات المختلفة، وأن أقرأ أخبار الصفحة الأولى في الصحف بصوت عالٍ أسجله في جهاز تسجيل، وأستمع له بعد ذلك فأكتشف بحسي الشخصي أخطائي، وكانت سميرة الكيلاني تقول لي دائما: عندما تدخل إلى الإستوديو انسَ مشاكلك ولا تفكر

في شيء سوى في المادة التي تقدمها؛ لأن الجمهور لا يغفر للمذيع وجهه العابس.. أظن أنهما أيضا لم تبخلا بالنصح على مذيعات التلفزيون الجدد: ليلى رستم وسلوى حجازي وزينب حياتي.. زينب اختفت من الشاشة سريعا بعد أن تزوجت من دبلوماسي مصري، وسلوى ـ يرحمها الله ـ راحت في حادثة الطائرة الليبية، التي أسقطتها طائرات إسرائيلية داخل الأراضي المصرية في عام ١٩٧٣ بعد أن قدمت برامج ذاع صيتها، في مقدمتها «عصافير الجنة»، وهي التي كانت يوم طلت علينا عصفورتها.. أما ليلى فكانت الأكثر إثارة للجدل والشغب؛ ربما للسبب الذي ذكره الكاتب الصحفي جليل البنداري «أن جمالها لاذع كعسل النحل ولسانها لاذع كقرصة النحلة».. كان أشهر أعمالها «نجمك المفضل» و«الغرفة المضيئة»، أما أفضلها في اعتقادي فلم يكن الحديث الشهير الذي أجرته مع الدكتور طه حسين وأدباء ذلك العصر، وإنما ذلك الذي كان مع خبراء الصواريخ الألمان الذين استعانت بهم مصر في الستينيات..

بالنسبة لي، كان البرنامج الذي عرفني الناس به هو «أقوال الصحف»، وكنت قد قدمته في سبتمبر ١٩٦١ بعد أن قدمت برنامجا فاشلا باسم «دقت الساعة » لم تذع منه لحسن الحظ سوى خمس حلقات فقط.. وعندما بدأت تقديم «أقوال الصحف» يوميا توقف بعد الحلقة الخامسة.. قال لي رئيس تحرير الأخبار: «الوزير بيقول لك استريح شوية».. كانت هذه هي الشفرة في ذلك الحين للإعراب عن غضب السلطة.. سألت عن السبب فلم أتلقَ ردا من أحد، فذهبت في إجازة إلى رأس البر، وما كدت أصل حتى علمت أن سبب الغضب هو أنني أوردت خبرا عن الرئيس عبد الناصر في نهاية البرنامج وليس في بدايته على نحو ما تذاع دائما أخبار الرئيس..

قررت على الفور العودة إلى القاهرة والذهاب إلى مكتب الرئيس في منشية البكري، ولم أكن قد ذهبت إلى هناك من قبل، وطلبت مقابلة سامي شرف سكرتير الرئيس للمعلومات.. قلت له: «يا سامي بك، أريد أن أعرف من الرئيس شخصيا إذا كان يعترض على إذاعة خبر عنه في نهاية برنامج»، وحكيت له الحكاية.. ضحك سامي شرف وطلب مني الانتظار في استراحة مكتبه.. بعد قليل ناداني ثانية، فوجدت في مكتبه نجلي عبد الناصر، عبد الحكيم وعبد الحميد، اللذين جاءا لـ«الفرجة» عليَّ

بعد ما كانا قد شاهداني على الشاشة.. أخذت نفسا عميقا، الحمد لله أن سؤالي لم يكن مستفزا.. وهذا ما كان.. بعد دقائق قال سامي شرف: «الريس بيقول لك خد الجرايد وروح على الإستوديو بتاعك على طول من غير ما تكلم حد»..

هكذا عدت بعدها بأيام، ولم يفاتحني أحد في التلفزيون في الأمر، وكأن شيئا لم يحدث، واستمرت إذاعة «أقوال الصحف» نحو ثماني سنوات دون متاعب تذكر.. كان البرنامج قائما في الأساس على استعراض الصحف، ولم يكن هذا في حد ذاته شيئا جديدا؛ إذ كان من المألوف عرض ما بالصحف في برامج الإذاعة المصرية والعربية وكانت هناك برامج شبيهة في محطات التلفزيون الأجنبية التي سبقتنا..

كنت أعد البرنامج بنفسي، وظللت أقول زمنا إن مقدم البرنامج يجب أن يكون هو المعد في الوقت ذاته، وإن من لا يستطيع إعداد برنامج عليه أن يحجم عن تقديمه.. ولم تكن ظاهرة الاستعانة بالصحفيين من خارج التلفزيون لإعداد البرامج معروفة عندئذ وإن كانت قد تسللت في ذلك الوقت، وكان الغرض منها على الأرجح أن يقوم الصحفيون بالنشر عن البرنامج وصاحبه، وكانت هناك استثناءات لذلك بالطبع، ثم تعقَّد إنتاج البرامج الإخبارية فيما بعد وأصبحت تذيع التقارير المصورة وتستضيف الشخصيات البارزة وتلاحق الأخبار أولا بأول فازداد اعتمادها على الصحفيين..

لم يكن إعداد البرنامج أمرا عسيرا عليَّ.. التقديم كان مشكلتي؛ إذ لم أكن قد شاهدت برنامجا تلفزيونيا في الخارج من قبل، وكنت نادرا ما أستطيع متابعة التلفزيون في مصر خاصة أنه لم يكن قد مضى وقت طويل على إنشائه، كما أن عملي في تحرير نشرات الأخبار كان في المساء عادة.. ولم يكن هناك أمامي شخص أقلده، كما أنني كنت أريد أن أضيف إلى الشاشة شيئا جديدا.. ظللت ساهرا ليلة إذاعة الحلقة الأولى أقلب في الأمر دون أن أتوصل إلى نتيجة، فقررت أن أتوقف عن التفكير قبل أن أجن، وأن أذهب في الصباح وأتصرف على النحو الذي يخطر ببالي، وليحدث بعدها ما يحدث..

كان البرنامج يذاع في الحادية عشرة صباحا لمدة ربع ساعة، وزادت مدته إلى نصف الساعة في السنة الثانية، وعندها بدأت تعاونني زميلتي في قسم الأخبار كوثر

مطر وتظهر معي في بعض الحلقات زميلة أخرى هي فوزية العباسي، وكان العمل معهما ممتعا.. وبعد عدة شهور، كان البرنامج يعاد بثه في الخامسة بعد الظهر..

في واحد من تلك الأيام كنت نائما في غرفتي بالبيت، فطلبت والدتي من الخادمة أن توقظني حتى أشاهد البرنامج عند إعادة إذاعته.. تطلعت الخادمة إلى الشاشة وقالت لوالدتي: «ولكنه هناك في التلفزيون كما ترين».. أعادت والدتي عليها الطلب أن تذهب لإيقاظي، ويبدو أن البنت سايرتها فدقت على بابي: «يا أستاذ، يا أستاذ».. من المؤكد أنها كانت توقن أني لن أرد، فلما قمت من سريري وفتحت الباب ووجدتني أمامها قفزت من مكانها وهي تصيح: «يالهوي، يالهوي»، ثم انطلقت نحو باب البيت واختفت.. وفي المساء علمنا أنها وصلت بلدتنا، وهي بلدتها أيضا، وأخذت تحكي لكل من قابلها أن «بيت عمر قنديل في مصر مسكون بالعفاريت»..

أظن أن السبب الأول في رواج البرنامج هو أنه كان مختلفا كثيرا عما عرفه الناس من برامج الصحف، فقد كان يقدم بلغة بسيطة وسيطة بين الفصحى والعامية، هي مايعرف بلغة الصحافة.. أذكر أنني كنت حريصا على ألّا أستخدم في حديثي أي كلمة بلغة أجنبية، حتى ولا كلمة «أوكى» التي اعتاد عموم الناس استعمالها؛ من ناحية لأن اللغة العربية غنية بالألفاظ، ومن ناحية أخرى لأنني كنت أرى أن استخدام لغة أجنبية فيه شيء من الاستعراض والتعالي على المشاهد.. وقد التزمت بهذه القاعدة طوال حياتي..

كان البرنامج يعرض الصحف العربية والأجنبية بالإضافة إلى الصحف المصرية.. وفي الأيام السابقة لنكسة ١٩٦٧ اتصل بي أنور السادات، وكان وقتها رئيسا لمجلس الأمة، يسألني من أين أحصل على صحف الخارج فأجبته بأنها متاحة في مكتبة مدبولي في ميدان سليمان باشا (طلعت حرب)، وأن لي صديقا طيارا يأتيني ببعضها أحيانا، وعاود الاتصال أيام الحرب يطلب عددا بذاته من صحيفة أمريكية.. لم يقتصر عرض الصحف على الأخبار السياسية أو حتى الجادة وحدها، وكان يتضمن على الدوام مسحة من السخرية التي يستملحها المصريون، وكنت أضيف في كثير من الأحيان تعليقي الخاص على ما في الصحف من أخبار أو مقالات، وأبحث أنا الآخر مثلي مثل العاملين في الصحف عن أخبار جديدة.. وفي مرحلة لاحقة وضعت في

الإستوديو آلة «تيكرز» لتنقل آخر الأخبار التي تتداولها وكالات الأنباء قبل الانتهاء من البرنامج، كما بدأت في استضافة شخصية كل يوم كنت أفضل أن تكون من عموم الناس بدلا من المسئولين والمشاهير الذين كانت تعج بهم البرامج الأخرى..

في إحدى المرات استضفت بوابا كان قد أرشد عن قضية جاسوسية في المعادي، وأخذ الحماس الرجل وهو يشرح كيف أنه قام بما قام به لا طمعا في المال وإنما حبا للوطن، وأنه لا يملك من الدنيا سوى ما عليه من ملابس، وفجأة انتصب الرجل واقفا وخلع جلبابه على الهواء وهو يصيح: «ده كل اللي عندي في الدنيا، أنا راجل على باب الله» فأذهلتنا المفاجأة، وبعد أن هدأت قليلا أخذت أهدئ من روعه: «مصدقك والله.. ماهو ما دام بواب لازم تبقى على باب الله»..

ذاعت شهرة البرنامج أيضا بسبب الصحفي نبيل عصمت صاحب أشهر صفحة لأخبار النميمة في الصحف المصرية، وهي صفحة «أبو نضارة» في جريدة الأخبار، وكان قد نشر في أحد الأيام خبرا عن وفاة المطربة فتحية أحمد، ولكنني علمت أنها لا تزال على قيد الحياة وأن الخبر كاذب، وهكذا نقلت الخبر على ما هو عليه ثم انتقلت إلى ركن آخر في الإستوديو فإذا بفتحية أحمد جالسة بشحمها ولحمها تكذب بنفسها الخبر.. لم ينَس لي نبيل عصمت ذلك بقية حياته، واستمر في الهجوم عليَّ عدة أسابيع يوما بعد آخر بأسلوب مقذع، إلا أن ما خفف من غضبي أن الأستاذ مصطفى أمين أنصفني في اليوم التالي للبرنامج عند انعقاد مجلس التحرير اليومي في الجريدة، إذ بلغني يومها أنه قال إننا يجب أن نعترف أن البرنامج قام بخبطة صحفية ممتازة، وإن محرري الصفحة يجب ألا ينزعجوا، فحمدي ابن أخبار اليوم في النهاية..

وكنت كثيرا ما أنتقد في البرنامج الأوضاع السائدة طالما كان ذلك بعيدا عن السياسات العليا للبلد وبعيدا عن الحكام، وعلى أي حال فقد كنت مؤمنا بعبد الناصر وقيادته وبالثورة المصرية.. ولم يكن معظم المشاهدين يصدقون أن التلفزيون الرسمي يمكن أن يسمح بمثل هذا الانتقاد، وفي ذلك الوقت راجت شائعة أنني لا أخشى الحكومة لأن خالي هو المشير عامر.. وقد يكون أصل هذه الإشاعة أن خالي، لواء الشرطة الصادق حلاوة، كان مديرا لمكتب زكريا محيي الدين..

أذكر وقتها أن إعلانا ظهر في إحدى الصحف اليومية مساحته نصف صفحة عن «شركة الأخشاب والمساكن الجاهزة» التي يملكها القطاع العام، وكانت هذه الشركة تنتج بين ما تنتج أعواد الثقاب.. وعلى الرغم من أن نوعية هذه الأعواد كانت ـ كما يعرف الكافة – في منتهى السوء، فإن الإعلان كان يشيد بإنتاج الشركة على نحو مستفز، وكان الأكثر إثارة للاستفزاز أنه لم تنشر في الإعلان صورة عن مصانع الشركة أو منتجاتها.. كل الصور كانت لرئيس مجلس الإدارة، وكان ضابطا من ضباط الصف الثاني أو الثالث للثورة هو الصاغ محمد أبو نار، وكان يقال وقتئذ إنه واحد من «شلة المشير»، لكنني عرضت الإعلان في البرنامج، ونددت بإنفاق فلوس القطاع العام في الدعاية للأشخاص لا للإنتاج، وأخرجت من جيبي علبة كبريت وأشعلت منها عودا ففرقع في الإستوديو أمام الكاميرات..

فرقع الصاغ من الغيظ، وكلمني متوعدا أن هذا سيكون آخر يوم لي في التلفزيون، ونصحني أن أبحث عن وظيفة أخرى، ولم يفته أن يذكر اسم المشير في حديثه، فرويت القصة بالتفصيل في اليوم التالي على الهواء، وأعلنت أنه إذا لم أظهر في اليوم الذي يليه فلن يخفى السبب عندئذ على المشاهدين، لكن الذي حدث هو أن الصاغ ذهب بأمر من المشير نفسه، وأوقفت إعلانات شركة الأخشاب، وبقيت «أقوال الصحف»، وحصل البرنامج على المرتبة الأولى بين برامج التلفزيون على مدى عدة سنوات، وربما كان البذرة المبكرة لما يعرف اليوم ببرامج «التوك شو» المسائية..

كان الدكتور حاتم يشجعني دائما، ويتصل بي كلما استحسن شيئا في برنامجي.. وكان إذا ما علم بأنني في الإسكندرية وهو يقضي إجازته الصيفية هناك، يستدعيني إلى «كابينته» في المنتزه لأشرب معه فنجانا من الشاي.. كان يعاملني كأخ أصغر له.. وفي إحدى المرات، وأظن أننا كنا في عام ١٩٦٦، ناداني في مكتبه في ماسبيرو، وبدأ يحدثني عن ضرورة الاستقامة في السلوك وأهمية السمعة بالنسبة إلى الشخصيات العامة.. قلت: «خير يا فندم.. هوه فيه حاجة حصلت؟».. قال: «سمعت طراطيش كلام عنك إنت وشوية بنات، لكن سألت حماد بك (مدير الإذاعة والتلفزيون) فقال: كل ده ما حصلشي».. والواقع أنه على الرغم من«شطحة» هنا أو «شطحة» هناك فإنني كنت في غاية الحرص على صورتي لدى الرأي العام، وكنت أدرك تماما أن

الكثيرين كانوا يتخذون من المذيعين مثلا في ذلك الوقت.. لم يدع الدكتور حاتم لي الفرصة لأقول له شيئا من هذا، فقد استطرد: «تعمل حسابك من دلوقتي، حانرشحك لمجلس الشعب في الانتخابات اللي جاية.. مش كفاية يبقى عندنا طاهر أبو زيد لوحده عضو في المجلس»..

لا شك أن البرنامج منحني شهرة لم أكن لأتخيلها، ولكنها كانت ترجع أيضا إلى أن عدد مقدمي البرامج وعدد القنوات كان محدودا، ولا أذكر أني شكوت من الشهرة مثل أولئك الذين يسمون بـ «النجوم»، ولكنني كنت سعيدا بها بل ومزهوا في بعض الأحيان، وكثيرا ما كانت تجيئني باقات ورود من مصادر معلومة وغير معلومة، ودعوات من كبار القوم وصغارهم، وخطابات ومكالمات.. لكن حكاية المانجو بالذات كان لها طعم خاص، ففي سنة ١٩٦٣ كان يصلني في مبنى التلفزيون قفص من المانجو الفاخر كل أسبوع دون أن أعرف مصدره، وكان القفص يصل بانتظام في مساء الثلاثاء، وعندما طلبت من أمن «باب ٤» أن يتحرى الأمر أخبروني أن القفص جاء مع سائق سيارة ليموزين سوداء فارهة ولكنه يرفض الإفصاح عن اسم الراسل.. انتظرت للأسبوع التالي، وتبعت السائق بعد أن سلم المانجو حتى وصلنا إلى السيارة التي كانت تقف خلف العمارة المجاورة لماسبيرو، وما إن ركب السيارة حتى فتحت بابها الخلفي وقفزت داخله..

كانت الدنيا ظلاما فلم أرَ غير سواد في سواد، ثم استطعت أن أتبين أن هناك شخصا جالسا إلى جانبي لما رأيت حذاءه، ولكن الحذاء لم يؤكد أنه رجل أم امرأة.. كل ما تأكدت منه أن هذا الشخص قصير للغاية لأن الحذاء كان يعلو بكثير عن أرض السيارة.. أخذت أسأل: «مين اللي قاعد جنبي؟ مين اللي قاعد جنبي؟»، وعندما جاءني الجواب عرفت أنها امرأة.. طلبت منها أن تخلع الخمار، وعندما فعلت تمنيت لو لم أكن ألحت في الطلب.. كانت دميمة للغاية فغلبني إحباط شديد، ولكنني حاولت أن أكون لطيفا بل وافقت على تلبية دعوتها على العشاء.. ذهبنا إلى كازينو مجاور للقصر العيني الجديد، وما إن جلست حتى نادت النادل: «هات له كيلو كباب»..

كظمت غيظي وأنا أقول لها: «أولا أنا الذي أنادي الرجل لا أنتِ.. ثانيا ما حكاية هات له هذه؟ وأخيرا: الكباب هنا ليس بالكيلو ولكنه بالطبق».. بعد العشاء مدت

يدها تحت المائدة وبدأت تلعب في بنطلوني فاستعذت بالله من الفضيحة التي يمكن أن تحدث، حتى اكتشفت أنها تمد لي يدها بعشرة جنيهات لأدفع الحساب.. اعتذرت شاكرا، وتنفست الصعداء عندما غادرت.. ولما جاء الثلاثاء التالي ولم يصل المانجو لعنني كل الزملاء الذين كانوا ينتظرون القفص كل أسبوع..

ما أذكره عن تلك السنوات من حياتي في التلفزيون التي انتهت برحيل جمال عبد الناصر هو أننا كنا سعداء، راضين برواتبنا المتواضعة.. بدأت بـ ١٤,٥ جنيه، وانتهت بـ ٥٥.. وكنت أتقاضى ٧٠ جنيها بدل ملابس في السنة في حين كان البدل للمذيعات مائة جنيه.. في هذه السنوات اشتريت سيارة نصر ١٣٠٠ بقسط شهري ٢٠ جنيها على مدى ٢٤ شهرا، كما تزوجت من زميلتي مذيعة النشرة الفرنسية في الإذاعة علية البرعي في عام ١٩٦٦ في حفل استقبال في فندق شبرد أظن أنه كان أنيقا كلفني ٢٤٠ جنيها، بالتقسيط أيضا.. كان هذا هو حبي الناضج الأول.. وعندما علم الأستاذ أنيس منصور بنيتي في الزواج بعدما نشر خبر الخطوبة في الصحف، قال لي: «إوعى تعملها يا حمدي.. إنت طالع، واللي طالع لازم يخفف الحمولة».. أشهد أن حمولتي لم تحل بيني وبين ارتقاء درجات السلم، إن لم تكن قد دفعتني إلى مزيد من الصعود..

كما قلت، فقد كان جيلي في التلفزيون جيلا سعيدا.. لم نكن نلهث وراء المال.. كنا نحترم أنفسنا ومهنتنا.. أذكر أنني وصلاح زكي وغيرنا رفضنا أن نقرأ الإعلانات، التي كانت تدر على المذيع دخلا شهريا قدره خمسون جنيها، أي ما يساوي ضعف مرتبي عندئذ؛ لأننا كنا نرى أن مقدم البرامج السياسية أو مذيع النشرات الإخبارية يجب ألّا يبيع صوته، وليس من اللائق أن يروج لمبيد للصراصير أو حتى لمعجون للأسنان، بل إنني رفضت التعليق على الأفلام التي كانت تتابع يوميا العد التنازلي لبناء السد العالي لأنها أنتجت بواسطة «شركة المقاولون العرب»، على الرغم من أنها كانت من شركات القطاع العام..

أعترف أنني ضعفت أمام المال مرة واحدة.. كان ذلك في مايو ١٩٦٥ عندما ذهبت إلى حسن حلمي مدير برامج التلفزيون في مكتبه.. لم أكد أفتح الباب حتى سألني بكثير من الجد والصرامة: «طولك كام سنتي؟».. لدهشتي لم أرد، فترك

مكتبه ووقف إلى جانبي، ثم تطلع إليَّ وقال: «مظبوط»، فإذا بالجالسين في المكتب ـ وكانوا نفرا من السينمائيين ـ يهللون في نفس واحد: «طه حسين».. كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن فيلم اسمه «الأيام» يخرجه حسن حلمي وأرشح فيه للقيام بدور عملاق الأدب.. والواقع أنني راوغت وتهربت في البداية، لكنني ضعفت عندما علمت أن الأجر سيكون بألوف الجنيهات، واستمر الصراع بداخلي عدة أيام حتى حسمت أمري وقررت الرفض، وعندما ذهبت لإبلاغ حسن حلمي بادرني قائلا: «يا حمدي للأسف الفيلم تأجل، ربما لأمد طويل»..

وعندما عدت إلى دنياي، دنيا الأخبار، تعجبت أنني فكرت يوما في التخلي عنها.. كنا نعمل بدأب ونتنافس بشرف ونؤمن برسالة.. كنا نحس ـ على عكس ما رأينا فيما بعد ـ أننا فريق واحد ينجز مهمة سامية بإخلاص وهمة.. كان التلفزيون في ١٩٦٠ هو مشروع الثورة الأول وأظن أنه لقي منها اهتماما بالغا لسنوات عديدة تالية، بل وسنوات سابقة أيضا.. منذ عام ١٩٥٤، أي بعد قيام الثورة بعامين، تقدم الصاغ صلاح سالم وزير الإرشاد القومي عندئذ بمشروع إلى الرئيس عبد الناصر لإنشاء التلفزيون وإقامة محطة إرسال فوق جبل المقطم، فوافق عليه الرئيس وأوكل المشروع إلى المهندس صلاح عامر وكيل الإذاعة للشئون الهندسية، الذي يعتبر رائد الهندسة الإذاعية في مصر والوطن العربي، وأصدرت الحكومة قرارا باعتماد ١٠٨ آلاف جنيه لمبنى الإذاعة والتلفزيون على مساحة ١٢ ألف متر مربع في ماسبيرو بارتفاع ٢٨ طابقا، هو المبنى القائم اليوم على نسق مبنى التلفزيون الفرنسي.. كان المقرر عندئذ أن يبدأ التلفزيون إرساله في ١٩٥٧، لكن العدوان الثلاثي عطل المشروع حتى كان عام ١٩٥٩ عندما اتخذ القرار النهائي ببدء التنفيذ، وفتحت العطاءات لتوريد الأجهزة في يوليو فتقدمت لها ١٤ شركة عالمية كبرى..

قد يبدو غريبا أن الذي فاز بالعطاء كان شركة أمريكية هي شركة RCA، ولكن علاقات مصر بالولايات المتحدة كانت وقتها مستقرة خاصة بعد موقفها لإنهاء العدوان الثلاثي، بل إنه في عام ١٩٥٩ ذاته عقد اتفاق بين البلدين لتوفير القمح الأمريكي بالجنيه المصري، وقدمت واشنطن ٣٠٠ منحة دراسية لمبعوثين مصريين.. الأهم من هذا أن شركة RCA كانت هي رائدة التلفزيون في العالم، وهي التي أدخلته

إلى أمريكا منذ عام ١٩٢٨، وهكذا كانت معدات التلفزيون في معظمها أمريكية، بل إن مستشار البرامج كان أمريكيا أيضا.. وعلى الرغم من وجود عدد من الخبراء الهندسيين من ألمانيا الشرقية معنا في البدايات فإنه عندما أوفدت بعثات التدريب قبل الافتتاح ذهب معظم الدراسين إلى الولايات المتحدة، في حين ذهب البعض إلى ألمانيا شرقا وغربا وإلى إيطاليا وإلى بريطانيا.. ولم تزد مدة البعثات جميعا على بضعة أشهر، فقد كان من المقرر أن يستغرق تنفيذ المشروع ١٨ شهرا، ولكن الدكتور عبد القادر حاتم صمم على اختصار المدة إلى ٦ أشهر فقط وكان له ما أراد في مصر وسوريا معا.. أذكر أن أصعب ما في المشروع كله كان إقامة إستوديو التلفزيون ومحطة إرساله في دمشق على قمة جبل قاسيون؛ إذ كان ارتفاعها ١١٥٠ مترا مما ضاعف من متاعب تحميل المعدات على السيارات إليها، ولكن التلفزيون بدأ البث هناك في موعده كما بدأ في القاهرة..

كان البث على قناة واحدة في البداية ولمدة ٦ ساعات يوميا تبدأ في السابعة مساء، ثم ارتفع المعدل إلى ١٣ ساعة بعد أن بدأت القناة الثانية إرسالها في ٢١ يوليو ١٩٦١، وفي ١٩٦٢ ظهرت القناة الثالثة، ووصل متوسط ساعات الإرسال إلى ٢٠ ساعة في اليوم، تدرجت في الزيادة فيما بعد.. ومع امتداد ساعات البث اتسعت الرقعة الجغرافية التي يغطيها التلفزيون حتى وصلت إلى أقصى الصعيد، عندما أقيمت في ١٩٦٢ محطة إرسال في أسوان كانت تبث ٣ ساعات يوميا من البرامج، التي تشحن إليها من القاهرة بالطائرة..

على أن الجانب الذي أغفله مؤرخو التلفزيون هو ذلك المصنع الذي لم يكن لمشروع التلفزيون أن يكتمل بدونه؛ مصنع «شركة النصر للتلفزيون» في دار السلام، وهي شركة كانت تتبع «المؤسسة الاقتصادية»، وكانت تصنع أجهزة الاستقبال في الإقليمين الشمالي والجنوبي، وقد تمت تصفيتها في عام ٢٠٠٦ ضمن خطة الإجهاز على القطاع العام التي عرفت باسم «بيع مصر».. كان التلفزيون قد استورد قبيل بدء إرساله نحو ٦٠ ألف جهاز استقبال من شركة RCA ومن فيليبس الهولندية، وبعد أن بدأت شركة النصر في تصنيع أجهزتها بلغت نسبة المكونات المصرية فيها نحو ٧٠٪ في منتصف الستينيات.. كانت الأجهزة من ثلاثة قياسات هي ١٤ و ١٧ و ٢١ بوصة،

وكان سعر أرخص قياس ٤٠ جنيها تدفع بالتقسيط بالنظام الشهير عندئذ «ادفع الربع والباقي على سنة وربع»، ثم أنتج فيما بعد جهاز الـ ٢٣ بوصة، الذي عرف باسم «التلفزيون الموبيليا» لأنه كان يباع بقاعدته وصندوقه الأنيق جاهزا، وكان يهدى إلى الشخصيات البارزة التي تزور القاهرة، وكان سعره ١٦٠ جنيها بالتمام.. وقد وصل إنتاج الشركة في عام ١٩٦٥ إلى ٢٠٠ ألف جهاز، تدفقت ألوف منها إلى الأرياف مع تواصل دخول الكهرباء إليها، وصدّر منها ٥٠٠ جهاز إلى اليونان، عندما دخلها التلفزيون في عام ١٩٦٦..

من أكثر المشاهد التي أبهرتني عندما زرت الشركة وهي في بداية عملها مشهد العمال وهم يفككون الصناديق الخشبية، التي كانت تحمل المكونات المستوردة، ويحولونها إلى دواليب ومكاتب حتى لا يفرطوا في أي شيء مهما تدنت قيمته.. في عصر مبارك فرطت الدولة ذاتها في هؤلاء العمال المهرة الذين كان قد بلغ عددهم ١٧٥٠ عاملا..

ليس القصد أن أقارن بين عهدين، لكن الفيصل في هذا كله إذا ما تحدثنا عن تلفزيون الأمس واليوم، في عصر عبد الناصر أو في عصر مبارك أو مرسي هو ما يراه المشاهد على الشاشة.. وما من شك في أن «التلفزيون العربي»؛ تلفزيون الستينيات، كان يشبع احتياجات المشاهد الرئيسية الثلاثة؛ الإعلام بمعنى تزويده بالأخبار وخلفياتها، والتعليم والتثقيف، والترفيه النظيف.. كانت للتلفزيون وقتها رسالة، بدءا ببرامج محو الأمية حتى برامج الثقافة الراقية.. يكفي أن نذكر أسماء بعض البرامج لندرك قيمة ما كان ينقله إلى الناس.. هناك «دنيا الأدب»، «الجديد في العلم»، «من صفحات التاريخ»، «عصر العلوم»، «شريط الثقافة»، «فن وفكر»، و«الخالدون».. بين مثل هذه البرامج كان يشدني برنامجان؛ أحدهما هو «عالم البحار» الذي كنت أتابعه بسبب جاذبية مقدمه الدكتور حامد جوهر، أما البرنامج الثاني فكان البرنامج الطبي «حياتك بين أيديهم»، خاصة إذا ما استضاف الدكتور خليل مظهر الذي كان رئيس الجهاز التنفيذي لتنظيم الأسرة.. كان مظهر في رأيي أكثر المتحدثين قدرة على الإمساك بالمشاهد في الستينيات، وهي قدرة لم تتوافر وقتها لكثير من أهل السياسة والكلام، ولم تتوافر من بعده سوى للقلائل، في مقدمتهم جمال بدوي، الذي كان

واحدا من كبار الحكائين المصريين، وعالم الوراثة الدكتور أحمد مستجير على الرغم من أنه لم يلفت أنظار كثير من المشاهدين، ثم أستاذ الاقتصاد الكاتب الكبير د. جلال أمين في تلفزيون هذه الأيام..

كانت البرامج في معظمها جادة مفيدة، لكنها لم تكن عابسة الجبين، بل إنها كانت مسلية أيضا، مثل برنامج «نافذة على العالم» ومثل «عالم الحيوان».. في العام الماضي التقيت في متجر في «أبو ظبي» بشيخ طاعن في السن من أهل البلد، توقف أمامي برهة، وقال إنه مهما مرت السنون فهو لا يزال يذكر صوتي تماما منذ أن كنت أقدم «عالم الحيوان» في تلفزيون مصر.. لم يكن من المناسب أن أخذل الرجل الذي تذكر برنامجا أذيع في تلفزيون القاهرة قبل ٥٠ سنة، وهكذا لم أخبره بأن محمود سلطان هو الذي بدأ بهذا البرنامج مسيرته، التي انتهت بكرسي في مجلس الشعب..

لكن الأكثر شهرة من البرامج كان الإنتاج التلفزيوني المسرحي.. كان التلفزيون قد كوَّن في ١٩٦١ ما سمي «مسرح التلفزيون» الذي تشكل من عشر فرق تعرض مسرحياتها للجمهور ما بين أسبوع وأسبوعين، ثم يتم تصويرها لملء ساعات الإرسال الدرامية على الشاشة.. وكان المسرح يضم أربع شعب هي: المسرح الحديث والمسرح العالمي والمسرح الكوميدي ومسرح الحكيم.. وكانت للكوميديا بالذات شعبية كبيرة، ولا يزال كثيرون منا يتذكرون حتى الآن الصدى الذي أحدثته أعمالها مثل «أنا وهو وهي» و«مطرب العواطف» و«حالة حب» و«أصل وصورة».. وكانت معظم هذه المسرحيات من اقتباس وتمصير المنتج الكبير، شفاه الله، سمير خفاجي، وقد تألق في هذه المسرحيات نجوم كبار مثل عبد المنعم مدبولي وفؤاد المهندس وأمين الهنيدي وعادل خيري ومحمد رضا وأبو بكر عزت ومحمد عوض وشويكار وخيرية أحمد وثلاثي أضواء المسرح وغيرهم، وكان كثيرون منهم من نجوم البرنامج الإذاعي «ساعة لقلبك»..

وكانت هناك برامج منوعات عديدة لقيت قبولا كبيرا لدى المشاهدين، بينها «كاميرا ٩» لأماني ناشد و«كلمة سر» لنجوى إبراهيم، التي اختطفتها السينما فيما بعد.. أما سمير صبري الذي وضع قدما في السينما وأخرى في التلفزيون فكان قبل

برنامج «النادي الدولي» هو المايسترو المعتمد لمهرجان التلفزيون الدولي الذي عادة ما كان يعقد في الإسكندرية، وعادة ما يستضيف فاتن قلوب المصريات «روجر مور» نجم المسلسلات الأمريكية..

بعد حفل افتتاح المهرجان في عام ١٩٦٤ كان عليَّ أن أعود إلى القاهرة، وعندما أوشكت أن أغادر فندق «سان ستيفانو» الذي كان يقام به المهرجان أخذت أبحث عن صديق العمر سعيد عثمان مدير مكتب الدكتور حاتم لعله يرافقني في السفر فلم أجده، لكنني قابلت سعاد حسني في بهو الفندق، ولما علمت أني مغادر إلى القاهرة طلبت مني أن أصطحبها معي في سيارتي لأنها مرتبطة في الصباح بتصوير فيلم في القاهرة.. كنا في الثانية صباحا، وكنا مجهدين تماما، ومع ذلك انطلقنا حتى وصلنا إلى الاستراحة في منتصف الطريق الصحراوي، وهناك غلبني الإجهاد والنوم فسألتها إذا ما كانت تستطيع قيادة السيارة بدلا مني فقالت إنها متعبة تماما، وهكذا لم يكن هناك مفر من أن أَصُفَّ السيارة إلى جانب مكتب التلفونات هناك، واستغرقنا في النوم كل في كرسيه حتى جاء موظف في المكتب ودق على الزجاج: «إصحى يافندي النهار طلع».. ولا أظن أنه تبين أن النائمة إلى جواري هي سعاد حسني..

كان المخرج ميلاد بسادة يقدم مع سمير صبري حفل المهرجان في تلك الليلة، وكان يقدم كل أسبوع أيضا برنامج «الباليه» ويخرج «مجلة التلفزيون»، ولكنه سرعان ما هاجر إلى كندا.. أما المخرج الذي أثار كثيرا من الضجيج فكان محمد سالم رائد برامج المنوعات ومبتكر الفوازير، وكان قد قدم من أمريكا عند افتتاح التلفزيون بعد أن درس التمثيل هناك، ولكن الكاتب الكبير كامل الشناوي أقنعه بأنه ممثل فاشل، ولم يكن قاسيا في ذلك.. كان الأستاذ كامل يحبه ودائما ما يداعبه، وكنت كثيرا ما أذهب إلى مقهى «نايت آند داي» في فندق سميراميس لأحضر جلساتهما التي كانت أحيانا ما تنتهي بظهور عبد الحليم حافظ، ثم يأخذني الكل في مرات عديدة إلى بيتي في سيارة أحدهم، لا اهتماما بي ولكن لأنني كنت أسكن في مصر الجديدة، وكان كامل الشناوي لا يستطيع النوم حتى يكمل جولة طويلة في شوارع القاهرة عادة ما تستمر حتى الفجر وتنتهي في بيته بجاردن سيتي..

وكان المخرج الأشهر للدراما التي شكلت وجدان الناس في الستينيات، هو نور الدمرداش (والد المذيع معتز الدمرداش) الذي عرف بعد ذلك بملك الفيديو، ولعل أشهر ما أخرجه كان مسلسل «لا تطفئ الشمس» و«هارب من الأيام» ثم «السقوط في بئر سبع» قبل وفاته.. وعلى الرغم من أن نور الدمرداش ظهر على الشاشة كممثل أيضا، فإن حظه فيها لم يتعدَ حظ زميله محمد سالم إلا قليلا، وظل تميزه الأكبر خلف الكاميرات لا أمامها.. وخلف الكاميرا عادة ما تسقط من الذاكرة أسماء مخرجي الأفلام التسجيلية الأوائل، ومنهم سعد نديم ومن بعده صلاح التهامي.. وكان في مقدمة الذين عملوا في صمت أيضا دون أن يعرفهم الناس، المهندسون الإذاعيون بأجيالهم المتعاقبة من عرفة الزيان والجارحي القشلان إلى فاروق إبراهيم وفاروق عامر ومحمود كشك وطاهر أبو السعود..

أما على الشاشة ذاتها فكان ألمع نجومها همت مصطفى كقارئة نشرة، وأحمد فراج في برنامجه الذي يعد من أطول برامج التلفزيون عمرا «نور على نور»، وماما سميحة «عبد الرحمن» التي كانت كل عائلات مصر تود لو ظهر أطفالها في برنامجها.. وبالطبع فإن نجوما آخرين جددا ظهروا على الشاشة السورية في الوقت ذاته.. يكفي أنها قدمت لنا دريد لحام الذي كان أستاذ كيمياء، وعندما استوعب كيمياء المزاج العربي قدم لنا روائعه المعروفة مع رفيق دربه نهاد قلعي.. وإلى جانب دريد ظهر مقدمو برامج وقراء نشرات وصل صوتهم وصيتهم إلى القاهرة مثل عبد الهادي البكار وخلدون المالح ومروان شاهين وسامي جانو وهدى زلفو وهيام طباع، ثم رشا مدينة التي كان لها فيما بعد برنامج في القاهرة استمر سنوات..

على أن الذي لم يباره أحد في الشهرة على شاشتي دمشق والقاهرة كان عميد معلقي كرة القدم محمد لطيف الذي كان يمتع الناس بمعلوماته وقفشاته وحرصه الدائم على شكر مدير الأمن على المجهود الذي بذله لإتمام المباراة.. ولا أظن أن أحدا يمكنه أن يجادل في أن كابتن لطيف كان من أسباب الرواج الكبير الذي لقيته كرة القدم عندئذ، والذي أدخل ألوف الجنيهات إلى خزائن النوادي.. وقد تضاعف هذا الرواج بعرض مباريات كرة القدم الأجنبية، التي كان جمهور الكرة يعرف نجومها بالاسم، مثل دي ستيفانو وبيليه وستانلي ماتيوز وختتو وغيرهم..

كان بعض هذه المباريات يذاع في اليوم التالي لها مباشرة، وبذلك لم تكن تلقى أهمية أقل من تلك التي تلقاها خطب الرئيس عبد الناصر عندما يكون في الخارج.. روى لي مؤخرا الدكتور صباح قباني الذي كان مديرا لتلفزيون دمشق عند افتتاحه ولسنوات فيما بعد أنه عندما ألقى الرئيس خطابه في الأمم المتحدة في شهر سبتمبر، أي بعد افتتاح التلفزيون بشهرين، كان المقرر أن تصل الطائرة التي تحمل الشريط السينمائي للخطبة إلى مطار دمشق الساعة الثامنة مساء، ولما كان موعد نشرة الأخبار هو الثامنة والنصف فقد اتخذت كل الإجراءات لضمان نقله إلى الإستوديو بسرعة، ومن بينها إرسال رتل من عدة سيارات إلى المطار حتى إذا تعطلت واحدة منها قامت أخرى بالمهمة.. ولحسن الحظ وصلت الطائرة في موعدها وأذيعت الخطبة في النشرة..

كان هناك اهتمام فائق بأخبار الرئيس بالطبع، ولكن التلفزيون واكب معظم الأحداث المهمة التي شهدتها المنطقة وشهدها العالم في تلك الحقبة، وما أكثرها.. وكان من أفظع المشاهد التي أرَّقت المشاهدين لليالٍ طوال مذبحة قرية ماي لاي الفيتنامية التي قتلت فيها القوات الأمريكية ٣٤٧ شخصا، وكذلك مشهد زعيم الكونغو باتريس لومومبا بعد أن وقع في أيدي القوات المرتزقة البلجيكية وهم يعذبونه ثم يعدمونه رميا بالرصاص، وهو المشهد الذي أدمى قلب عبد الناصر كما علمت (اعترف الضابط الذي قاد القوة بعد ذلك بسنوات بأنه قطع جثة لومومبا قطعا صغيرة وأذابها في حمض الكبريتيك واحتفظ باثنتين من أسنانه).. وكنا نتابع نضال الشعوب الإفريقية من أجل الاستقلال أولا بأول، ولا تفوتنا تغطية الأحداث في دول عدم الانحياز خاصة في الهند ويوغوسلافيا، ولا أحداث مثل بناء سور برلين، واغتيال كيندي ومن بعده اغتيال مارتن لوثر كينج، وثورة ماو الثقافية في الصين، والثورة الطلابية في باريس..

ولكن الاهتمام بالأحداث العربية كان في صدر رسالة التلفزيون، وكان من حظي أن أتولى مسئوليته.. وما أزال أذكر حتى الآن كل لحظة من الأيام التي قضيتها أتابع الأخبار في الدول العربية في سنوات التلفزيون العشر الأوائل مع مصوري أخبار التلفزيون وعميدهم رشاد القوصي.. وكنا قد تعرضنا للموت معا مرتين؛ إحداهما في اليمن عندما ذهبت قواتنا إلى هناك في ١٩٦٢، والأخرى في العراق عندما

وقع انقلاب ١٩٦٣.. وأذكر مرة أخرى في اليمن أيضا كدت فيها ألقى حتفي في صرواح مع اللواء عبد المحسن كامل مرتجي عندما حاصرتنا قوة مناهضة للثورة، ومرة رابعة خلال معركة الكرامة على ضفاف نهر الأردن التي هزم فيها الإسرائيليون على يد قوات «العاصفة» الفلسطينية هزيمة ساحقة في ١٩٦٨.. وأذكر اليوم الذي تسللت فيه إلى عدن في ١٩٦١ ضمن وفد لاتحاد المحامين العرب وهي تحت الاحتلال البريطاني، واليوم الذي تسللت فيه إلى قاعدة المرسى الكبير البحرية الفرنسية قبل استقلال الجزائر، وكذلك اليوم الذي سافرنا فيه واقفين في طائرة نقل روسية من طراز أنتونوف إلى بنزرت لنقل زيارة الرئيس إلى هناك في ١٩٦٣ ليهنئ تونس بجلاء القوات الفرنسية.. وأذكر نجاحنا أنا وهمت مصطفى ومراقب الأخبار أحمد سعيد أمين في تسجيل حديث فريد مع الملك حسين، وفشلنا في إجراء حديث آخر مع ملك المغرب الحسن الثاني على الرغم من دعوته لنا وبقائنا في الرباط ضيوفا عليه ننتظر..

لكن وجوه السياسيين لم تكن هي الوجوه التي تصدرت وحدها الشاشة، فقد رأى الجمهور لأول مرة في التلفزيون طه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وغيرهم يتحدثون صوتا وصورة، بل إن التلفزيون كان يجري وقتها مقابلات مع أدباء أجانب، أذكر منها مقابلة جان بول سارتر أثناء زيارته لمصر قبل حرب يونيو بأشهر قليلة..

ولم يكن التلفزيون لينجح في إنتاجه الثقافي إلا لأن مصر كانت تشهد وقتها حياة ثقافية وفنية مفعمة بالحيوية.. كان في مصر كتاب يصدر كل ٦ ساعات عن هيئة الكتاب، وكان فيها عمالقة كبار في الأدب والفن.. كان في مصر أدباء مثل فتحي غانم وإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي، وكان فيها شعراء مثل عبد الرحمن الشرقاوي وصلاح عبد الصبور ومحمد عفيفي مطر، وكان فيها ملحنون مثل السنباطي والموجي وبليغ حمدي وكمال الطويل.. كان فيها علماء بارزون وصحفيون عمالقة وقامات كبار من المحامين والمهندسين وأساتذة الجامعات ونوابغ في مناحي الحياة جميعا.. وكان فيها أيضا مطربون يطربون.. تكفي أم كلثوم بحفلاتها الشهرية في سينما قصر النيل الذي كان الحضور فيها دائما بملابس السهرة، ويكفي محمد عبد الوهاب وعبد الحليم وفريد الأطرش وفايزة أحمد ونجاة الصغيرة.. أما نجوم السينما فلم

يكن لهم حصر، مديحة يسري ونادية لطفي وأحمد مظهر وفاتن حمامة وشادية ورشدي أباظة وسعاد حسني وفريد شوقي وغيرهم وغيرهم، كذلك كان مخرجو السينما الرواد أمثال يوسف شاهين وصلاح أبو سيف وأحمد بدرخان وتوفيق صالح الذي طفش إلى العراق بعد ملاحقته سياسيا في السبعينيات..

قلت مرة في مقال في صحيفة «الشروق» نشر بمناسبة اليوبيل الذهبي للتلفزيون في عام ٢٠١٠ إن نجاح التلفزيون، أي تلفزيون، يعتمد على أربعة معايير؛ أولها أن يكون للدولة التي تعبر عنها المحطة مشروع وطني ودور قومي في محيطها، والثاني أن يتحلق حول رسالتها إجماع شعبي، والثالث أن تنبع المحطة من رحم نهضة فكرية وثقافية وفنية، أما المعيار الأخير فهو أن تعمل بمستوى مهني عالٍ.. واليوم أعود فأؤكد أن المعايير الأربعة توافرت في أيام التلفزيون الذهبية في الستينيات، وأن واحدا منها لا يتوافر لتلفزيون اليوم الذي يخدعنا باحتفالات اليوبيل الذهبي، وإطلاق قناة باسم «التلفزيون العربي» تخصص لبث تراث تلفزيون الستينيات أعلن أنها سوف تبث بشكل دائم إلا أن الأمر انكشف عندما صدرت الأوامر بقصر بثها على أيام معدودة؛ ذلك أن تراث التلفزيون تم تبديده في صفقات شائنة بيع فيها التراث من أفلام وأغانٍ إلى قنوات عربية خاصة، كما أن التلفزيون خشي من أن يذكِّر مشاهديه بالأيام الخوالي ويثير المقارنات بين شاشتها وشاشة أيامنا هذه..

وقلت في المقال نفسه إن «تلفزيوننا الآن هبط من أيام الستينيات الذهبية، بما لها وما عليها، إلى ما يقرب من الحضيض، وذهبت ريادته العربية إلى غير رجعة، وإنه بعد أن تحنط التلفزيون، تماما مثل النظام الذي يعبر عنه، نجده اليوم يتردى تماما كما يتردى النظام؛ ولذلك فلن يضللنا تلفزيون اليوم بإضاءة المشاعل عند سفح الهرم ليحتفل بيوبيل ذهبي لتلفزيون الأمس الذي لم يخرج من ضلعه.. التلفزيون الآن ليس في حاجة إلى عملية تجميل بل هو في حاجة ماسة، شأنه شأن النظام القائم، إلى عملية تغيير.. الحل هو أن يرحل النظام القائم قبل أن يحتفل هو بيوبيله الذهبي»..

ورحل النظام، ولم أكن أدري أن وريثه في الحكم سيقضي على ما تبقى، ويعيد مصر كلها إلى عصور ظلام مضت.. لكن الله سلَّم..

«أقوال الصحف» (١٩٦٢).

ندوة مع وزير التعليم «سيد يوسف» في حلقة خاصة من «أقوال الصحف» (١٩٦٥).

(٦)

وما أدراك ما الستينيات

١٩٦٢ - ١٩٧٣

◆ ◆ ◆

سألت السادات: بأي لقب أقدمك؟.. سألني حسين الشافعي: كيف أعود للقاهرة؟.. طلب مني د. حاتم أن أرأس التحقيق في ثورة التصحيح.. حاورت الكولونيل عساف ياجوري.. قلت لمحمد فائق: اتفضل يا سيادة الوزير بص من الشباك.. روى لي المشير مؤامرة الإخوان.. ووبختني أم كلثوم: «ده كل اللي ربنا فتح بيه عليك؟!».

◆ ◆ ◆

عندما أبلغت الدكتور حاتم أننا لم نجد في الفيديو شيئا ذا بال اتهمنا بأننا سذج، وأننا لا ندري بما يدور في ماسبيرو الذي يحتشد مبناه بالشيوعيين.

أذعت معظم الأحداث الهامة خلال الستينيات، وبالطبع كانت هذه الأحداث أحداثا سياسية، إلا أن إحدى المناسبات الفنية كان لها تأثير عميق على عملي، هو الحفل الذي كان يقام في نادي ضباط الجيش بالزمالك مساء ٢٦ يوليو من كل عام احتفالا بذكرى طرد الملك.. كنا في عام ١٩٦٢ عندما طلب التلفزيون مني في الدقيقة الأخيرة تقديم الحفل لتغيب مقدمه الأصلي، فذهبت إلى هناك دون أن أدري عن تفاصيل الحفل شيئا، وعندما وصلت علمت أن مهمتي ستقتصر على تقديم أم كلثوم، فاختليت بنفسي دقائق في إحدى غرف إدارة النادي لأعد المقدمة، ولكنني وجدت أن الأمر لا يحتاج إلى عناء، وأنه لن يكون مطلوبا مني أن أصف فستانها أو لون المنديل في يدها كما يفعل جلال معوض في الإذاعة؛ لأن الحفل يذاع في التلفزيون، ومشاهديه يتابعون بأنفسهم كل التفاصيل..

صعدت إلى خشبة المسرح فوجدت أمامي على بعد أمتار جمال عبد الناصر جالسا في الصدارة ومن حوله أعضاء مجلس قيادة الثورة، لكنني لم أتحقق من شخصياتهم لأنني لم أستطع أن أحول نظري عن عبد الناصر، وعلى الرغم من أنه ابتسم ابتسامة عريضة مشجعة فإن رعشة خفيفة أصابتني.. بعد ثوانٍ من الصمت تقدمت خطوة أخرى ثم قلت بصوت أقرب إلى الصياح: «أيها السادة، إليكم أم كلثوم»، وقفلت عائدا.. وجدت أم كلثوم في طريقي تتقدم على خشبة المسرح، فاستوقفتني وقالت: «ده كل اللي ربنا فتح بيه عليك؟».. ومضت..

إلى الآن لا أعتقد أنني أخطأت، إذ بماذا يقدم المرء أم كلثوم سوى أن يذكر اسمها، إلا أنه كان من الممكن أن أضيف بعض «الحشو» في دقيقة أو اثنتين، سواء بالتذكير بمناسبة الحفل أو الحديث عن أم كلثوم نفسها ببعض عبارات التفخيم وإن كانت لا تحتاجها حقا.. على أن ما استفدته مما جرى درسان؛ الأول أنني لا بد من أن أتزود بالمعلومات اللازمة عند إقدامي على أي مهمة، أما الدرس الثاني فهو ألَّا أقدم

من بعد أي حفل فني حتى ولو كانت المناسبة سياسية، وألا يتجاوز عملي المجال الإخباري أبدا.. وهذا ما التزمت به..

* * *

أول الأحداث السياسية الكبرى التى أذعتها كانت قرارات التأميم في يوليو ١٩٦١، وكان مقررا إذاعتها في النشرة الرئيسية في المساء في كل من الإذاعة والتلفزيون.. ووفق ما طلب مني ذهبت في الساعة السابعة إلى مكتب السيد علي صبري، أما جلال معوض فذهب إلى الدكتور حاتم، وتسلم كل منا كشوف الأسماء.. أدهشني ثقل المظروف الذي تسلمته، ولكنني طبقا للتعليمات لم أستطع فتحه إلا عند دخول الإستوديو.. كل ما كنت أعلمه أن القرارات تتعلق بتحديد ملكية الأرض الزراعية وتأميم بعض المؤسسات الكبرى، لكن المفاجأة كانت في عدد هذه المؤسسات وعدد الأشخاص الذين انطبقت عليهم القرارات.. ظللت أكثر من ساعتين على ما أذكر أقرأ الجداول، وكان مدير الإستوديو يزودني بكوب من الماء بين حين وآخر على الرغم من أن ذلك لم يكن أمرا مألوفا عندئذ..

كنت متحمسا للقرارات الاشتراكية، لكنني على النقيض لم أتحمس للانضمام إلى التنظيم الطليعي أيام الاتحاد الاشتراكي.. وكان سامي شرف قد استدعاني إلى مكتبه في عام ١٩٦٣ وأبلغني بأن الرئيس قرر إقامة هذا التنظيم السري لحماية الثورة، وأنه سيتشكل من خلايا يتكون كل منها من عشرة أشخاص، وأنني سأرأس واحدة من هذه الخلايا، وأخذني إلى غرفة جانبية وقال: «سأتركك لبعض الوقت حتى تختار أسماء الأعضاء معك».. كنت قد عاهدت نفسي من قبل ألا أنضم إلى أي تشكيل سياسي وأن أتفرغ لعملي المهني تماما؛ ولذلك فلم أنضم إلى التشكيلات التي أقامتها الثورة؛ سواء كانت هيئة التحرير التي قامت في عام ١٩٥٣ أو الاتحاد القومي في ١٩٥٧ أو الاتحاد الاشتراكي في ١٩٦٢، وربما كان الاستثناء الوحيد لذلك هو رغبتي في الترشح في انتخابات الاتحاد القومي عندما كنت أعيش في دمشق في عام ١٩٥٩، وكان دافعي عندئذ هو مشاركة أحد المصريين في الانتخابات تثبيتا لدعائم الوحدة مع سوريا، وعلى أي حال فإنني لم أدخل هذه الانتخابات في النهاية..

أعترف أنني جلست لبعض الوقت في مكتب سامي شرف أسائل نفسي فيما إذا كنت أقبل الانضمام هذه المرة إلى التنظيم الطليعي بعد أن جاء ترشيحي من مكتب الرئيس نفسه، وما إذا كنت سأخون الثورة إذا ما تخليت عن المهمة التي لا بد أن الرئيس لديه دوافع هامة وراءها، ولكنني قررت في النهاية أن أظل على موقفي، وطمأنت نفسي أن رصيدي يسمح بالانسحاب، وأن عملي في التلفزيون في كل الأحوال يتيح لي أن أسهم في حماية الثورة بما أستطيع.. وهكذا عدت إلى سامي شرف أستأذنه في تأجيل تقديم كشف الأسماء حتى الغد، ولم أعد إليه بعد ذلك.. أحسست بكثير من تأنيب الضمير فيما بعد؛ لأنني لم أكن أمينا مع رجل أحببته منذ التقيته أول مرة عندما توقف برنامجي «أقوال الصحف»..

* * *

يونيو ١٩٦٧ كان الحدث السياسي الكبير الثاني الذي تابعته.. أتذكر يوم ٥ يونيو بكل تفاصيله.. كنت في بيتي أنتظر السيارة العسكرية التي ستمر بي في الفجر لتنقلني إلى مقر الشئون العامة للقوات المسلحة في مصر الجديدة؛ حيث نخطر هناك بالمكان الذي نتجه إليه للتصوير.. كانت زياراتي لسيناء قد تعددت في الأيام السابقة لتغطية تحركات الجيش، وكنت أرتدي زيا شبه عسكري في هذه المهام، ودائما ما كانت زوجتي قلقة كلما خرجت في مهمة وأجواء الحرب تقترب.. أشفقت عليها يومها من التوتر فارتديت ثيابا مدنية، وأبلغتها أنني لن أذهب إلى الجبهة اليوم وأني متجه لاجتماع عسكري هام في القاهرة، وذهبت.. وعندما وصلنا إلى الشئون العامة قيل لنا إننا سنذهب يومها إلى قاعدة فايد الجوية التي سيصل إليها بعد وصولنا بقليل الفريق طاهر يحيى رئيس وزراء العراق؛ ليتفقد القوة العراقية المرابطة هناك مع القوات المصرية، وسيرافقه في الزيارة حسين الشافعي نائب الرئيس..

كان معي المصوران محمد رجب وفاروق صالح ومهندس الصوت محمد البلتاجي.. وصلنا وقت الإفطار فأفطرنا مع الطيارين المصريين في «ميس» الضباط، ثم قمنا بتصوير وصول الضيف العراقي، وبعدها اتجهنا إلى القوة العراقية التي كانت تقوم بتدريبات روتينية.. وفجأة، بينما نحن هناك إذا بدوي انفجار هائل تبعته

انفجارات أخرى متتالية، وكانت الساعة وقتها تشير إلى التاسعة إلا الربع.. أخذتنا المفاجأة فلم نتبين تماما ماذا حدث، إلا أنني بعد دقائق لمحت طائرة تحترق عن بعد على المدرج، وبعدها مباشرة لمحت طائرة إسرائيلية تمرق فوقنا في الجو، وتتالت الانفجارات.. سارعنا إلى سيارة التلفزيون، وعندما سألنا السائق: إلى أين؟ قلت: «تحرك في أي اتجاه لكن بسرعة»..

بعد أن ذهبت بنا السيارة يمينا ويسارا ونحن لا نعرف أين المفر، انتهى بنا الأمر في نادي الطيارين على ضفاف القناة.. كان هناك نحو ٢٠ طيارا يتصايحون بهستيرية، وظل واحد منهم يخبط رأسه في جدار حتى سال منه الدم.. فهمت من أحدهم أن معظمهم فقدوا طائراتهم قبل أن يصلوا إليها، وأن ثلاثة من زملائهم فقط استطاعوا الطيران لكنهم لا يعلمون مصيرهم.. خرجت من المكان قبل أن أصاب بالجنون، وعندما وصلت إلى السلم الأمامي إذا بسيارة جيب مكشوفة قادمة وفيها حسين الشافعي جالس إلى جوار الجندي السائق.. سألني إن كانت لديَّ معلومات مفصلة عما حدث فأجبته بما أعرف.. قال إنه سيعود إذن إلى القاهرة، لكنه استدرك: «تفتكر ناخد أي طريق؟».. نصحت بالطريق الصحراوي..

عدنا نحن على الطريق الزراعي الذي كان يمر بثلاثة مطارات عسكرية هي أبوصوير ثم بلبيس ثم أنشاص، لعلنا نستطيع أن نجد شيئا مناسبا للتصوير، وكانت الطائرات الإسرائيلية تدوي فوق رؤوسنا بين حين وآخر فنغادر السيارة ونرتمي إلى جانب الطريق، أما المطارات فكانت تتصاعد منها النيران جميعا، في حين كان راديو السيارة ينقل لنا أخبارا عن عشرات الطائرات التي أسقطتها قواتنا.. بعد أكثر من سبع ساعات وصلنا القاهرة، وكان عليَّ أن أقدم ليلتها نشرة أخبار الساعة التاسعة.. ليس بي حاجة أن أصف في أي حال كنت ولا على أي نحو ظهرت.. بعد النشرة مباشرة استدعاني الأستاذ محمد فائق وزير الإعلام وقال: «وجهك عابس جدا».. حكيت له تفاصيل اليوم الدامي.. قال: «لكن الموقف تحسن الآن، وقد أبلغتني القيادة العسكرية بتفاصيل مطمئنة»..

حتى الآن أوقن أن «فائق» كان صادقا؛ فهو وزير مكانه الطبيعي هو مكتبه في الوزارة وليس الوقوف على شاطئ القناة ليتحرى الوضع بنفسه.. جاءته بيانات لم يكن

بمستطاعه سوى أن يذيعها.. المؤكد أن قيادة الجيش خدعتنا خدعة كبرى، وللأسف فإننا تحققنا من ذلك بعد ساعات، فقد علمت في صباح اليوم التالي ٦ يونيو أن عبد الحكيم عامر أصدر قراره في الفجر بانسحاب الجيش من سيناء، وبدأت الأخبار تصلنا من هنا وهناك تفيد أن القوات المسلحة تتخبط في انسحابها بدون حماية جوية وهي تتجه إلى قناة السويس، وأن الوحدات التي تتحرك على الطرق الطولية اصطدمت بالأخرى التي تحركت على الطرق العرضية، بل وتصادمت المدرعات والدبابات في أحيان كثيرة، وقد وجد الطيران الاسرائيلي في تلك الوحدات لقمة سائغة فانقض على القوات البرية المنسحبة بعد أن كان قد أغار على القوات الجوية في اليوم الأول للعدوان.. هكذا دمر الجانب الأكبر من العتاد، واستشهد مئات وأُسِرَ آخرون، وأفلت ألوف واصلوا السير على الأقدام حتى وصلوا إلى قراهم يحملون إليها حكايات مرعبة أثارت كثيرا من الأسى والسخط، في حين نقل لنا بعض من الضباط الصغار في القاهرة أن قيادة الجيش تكاد تكون قد انهارت تماما..

والحق أنه بالرغم من شعبية عبد الحكيم عامر بين كثير من الضباط، فإنني لم أنبهر به على مدى السنوات القليلة السابقة منذ انفصال سوريا عن دولة الوحدة في سنة ١٩٦١؛ وذلك بسبب سلوك أعوانه المدللين في دمشق وبسبب فسادهم الذي انتشرت روائحه في القاهرة، ولم أكن أعتقد أنه يملك الكفاءة اللازمة لقيادة جيش مثل جيش مصر، لكن الحشد العسكري الهائل في سيناء الذي كنت أصوره بين يوم وآخر أنساني هذا كله وأوحى لي بكثير من الثقة، حتى باغتتني وباغتت المصريين جميعا النهايات المفجعة للحرب، بل وبداياتها التي شهدتها منذ اللحظة الأولى..

مع كل ذلك فلم يكن بإمكاني أنا أو غيري أن نقول غير ماقلنا يوم ٥ يونيو، فلا أظن أن أي عاقل كان يجرؤ يومها على أن يعلن للناس أن جيشهم هزم هزيمة منكرة؛ إذ إن هذا إما أنه كان سيقوض عزيمتهم تماما وإما أنه كان سيستفزهم استفزازا بالغا، وقد يدفع البلد إلى فوضى تضاعف من الهزيمة وآثارها.. كنت أفضل أن نصارح الشعب بالهزيمة بالتدريج حتى يستطيع أن يستوعب المأساة، وكان من الضروري أن يكون هناك تنسيق أكبر بين قيادات القوات المسلحة وبين أجهزة الإعلام.. لكن هذا كلام نظري يمكن أن نطلقه اليوم بالمجان من كراسينا الوثيرة بعد ما يقرب من خمسين

سنة؛ إذ إن الأوضاع العسكرية الضاغطة عندئذ كانت تفرض نفسها، والتطورات السياسية تتلاحق والتوتر يزداد يوما بعد آخر..

* * *

همس بعضنا أن الخطأ في الحرب كان سياسيا في الأساس، وحمَّل آخرون وزر المأساة للخطة العسكرية أو للدعم الأمريكي لإسرائيل، لكن النقاش لم يدم طويلا فقد جلبت لنا الأيام التالية مفاجأة لا تقل وطأة يوم ٩ يونيو عندما ألقى عبد الناصر خطاب التنحي.. كنت في إستوديو ٤ وقتها مع همت مصطفى حيث قدمنا الخطاب الذي بدأ بثه من بيت عبد الناصر في منشية البكري في السابعة مساء، ولما وقعت المفاجأة المذهلة عندما قال: «قررت أن أتنحى تماما ونهائيا عن أي منصب رسمي أو دور سياسي»، وقبل أن يكمل الخطاب حتى نهايته، قررنا معا أن نطالب عبد الناصر بالبقاء.. «كلام رجالة؟»، سألت همت.. قالت: «كلام رجالة».. انطلقنا فور أن انتهى الخطاب.. كان من السهل إيقافنا بإغلاق خط الإرسال من الإستوديو، لكن أحدا لم يخطر بباله ذلك وسط الفوضى العارمة.. فجأة، دخل علينا عبد الحميد يونس مدير التلفزيون، وكانت يده اليمنى ملفوفة بالجبس.. طلب منا أن نتوقف عن الكلام على الفور، إلا أن الذي شجعنا على الاستمرار كان مدير الإستوديو الشاب صبحي عبد السلام العيص الذي انفجر في عبد الحميد يونس يطالبه بالخروج من الإستوديو ويهدده بكسر يده اليسرى..

بعد دقائق طلبنا الوزير إلى مكتبه، وعندما دخلنا صاح فينا: «إنتو عملتوها مسرحية؟ الريس يتنحى وبعدين التلفزيون بتاعه يقول له: لأه؟».. جادلته همت، وانطلقت أنا إلى شباك مكتبه أفتحه وأقول له: «يا سيادة الوزير إسمع الناس وأنت في الدور التاسع بتقول إيه».. كان الصياح من حواري بولاق يتصاعد مطالبا الرئيس بالبقاء وتحمل المسئولية، ولم نكن ندري وقتها أن مصر كلها بل وشعوب العرب جميعا تطالبه بأن يبقى..

ولا أزال حتى اليوم أعتقد أنني لم أكن مخطئا عندما طالبت عبد الناصر بالبقاء وإلا فإن البلد كان سينجرف إلى المجهول، وعلى أي حال فقد أثبتت الأيام لحسن حظي

أن بقاءه كان الضمان الأول لاستنهاض الهمم وبدء حرب الاستنزاف ووضع الخطة التي كانت أساسا لحرب أكتوبر.. وفي أيام قليلة بدأ الجيش يستعيد روحه فانتصر في معركة رأس العش بعد ثلاثة أسابيع فقط من النكسة، ثم أغرق الباخرة إيلات وبدأ حرب الاستنزاف عندما رفع عبد الناصر شعار «لا صوت يعلو على صوت المعركة»، واستهل هذه الحرب بإقامة حائط الصواريخ الشهير..

أعرف أن ندائي يومها لا يمت للمهنية بصلة كما يعتقد كثيرون، ولكن اللحظات الفارقة في التاريخ لها خصوصياتها.. في مثل هذه اللحظات يعلو عادة صوت العاطفة، ولا يملك المذيعون السيطرة عليها دائما، ولدينا أمثلة عديدة على ذلك في مناسبات متباينة وقعت في دول مختلفة.. وعلى الرغم من أنه من السهل انتقاد ذلك في أجواء التطاحن والاستقطاب السياسي التي تحيط بهذه الأحداث عادة، فإنه إذا تصرف المذيع على نحو معاكس ولم ينفعل بالحدث فسوف يقابل بالانتقاد أيضا.. رأيي في مثل هذه المواقف إذن هو أن نرخي الحبال قليلا دون أن تنفلت العواطف بلا حساب، وأن نميز بين الخبر والتعليق قدر إمكاننا..

* * *

لم يبقَ معنا عبد الناصر سوى سنوات معدودة.. في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ انتقل إلى بارئه.. ما إن تتالى بث آيات القرآن الكريم على الشاشة وأنا في البيت حتى هرولت إلى مبنى التلفزيون الذي كان على مقربة خطوات.. لم يساورني شك في أن الخطب جلل، لكنني طردت من ذهني أن يكون عبد الناصر قد أصابه سوء.. مع ذلك فقد طاردني هاجس أنه ربما يكون قد اغتيل، ولعل هذا ما دفعني إلى الذهاب لا إلى إدارة الأخبار وإنما إلى مكتب الوزير..

هناك كانت تنتظرني الصاعقة.. لم يكن الأستاذ هيكل الذي عين وزيرا للإعلام قبل عدة شهور في المكتب.. كان الدكتور محمد حسن الزيات مندوب مصر الدائم في الأمم المتحدة يجلس مكانه، وهو يضيف الرتوش الأخيرة إلى البيان الذي سيذاع على الأمة، وكان يمسك بالقلم في يد وبالتلفون في اليد الثانية، وعلى الجانب الآخر على الخط كان الأستاذ هيكل يناقشه في الصياغة الأخيرة.. بعد دقائق حضر أنور

السادات ليلقي البيان، وصحبته مع السيد فرج وكيل وزارة الإعلام إلى إستوديو ٤، وأعدت التجهيزات على الفور، وتهيأتُ لأن أقدم السادات وأعلن أنه سيوجه بيانا إلى الأمة، وكان ذلك في الساعة الحادية عشرة إلا خمس دقائق، لكنني قبل أن أظهر على الشاشة بثوانٍ تذكرت فجأة بأي صفة أقدمه، فربما يكون قد حدث في الساعات القليلة السابقة ما لا أدريه.. سألته: «بأي لقب أقدمك سيادة النائب؟».. رمقني بنظرة لم أتبين عندئذ معناها وقال: «أنور السادات، مش كفاية كده؟!»..

لا أذكر بالضبط ما الذي فعلته بعد البيان.. ليس في ذاكرتي مشهد واحد من تلك الليلة ولا أعرف ماذا قيل لي ولا ماذا قلت.. كل ما يمكن أن أتذكره أنني دخلت البيت مع الخيط الأول من الفجر، فإذا بزوجتي متشحة بالسواد وهي تبكي بكاء موجعا ولا تنبس بحرف.. أما أنا فقد قررت أن أترك عملي في التلفزيون لسبب بسيط، وربما يكون في نظر البعض متسرعا، أنني لا أستطيع أن أتكلم عن رئيس آخر أو باسم رئيس آخر غير عبد الناصر، وكان هذا بالنسبة لي سببا كافيا.. عزمت على تنفيذ قراري بعد أن أودع عبد الناصر، وهكذا ذهبت يوم الوداع إلى التلفزيون فوجدت زميلاتي كلهن بملابس الحداد والرجال واجمين ولا أحد منا يقول للآخر شيئا، ولا حتى كلمة عزاء أو مواساة، في حين كانت أصوات المظاهرات خارج المبنى تخترق الجدران من ناحية بولاق بالأهازيج النائحة التي نسجتها القلوب الجريحة..

لم تنزل من عينيَّ دمعة واحدة حتى دخلت الإستوديو لإذاعة الجنازة، وبدأت المشاهد تترى من الشوارع وكأن القاهرة أمامي غارقة في الدموع.. كان الأنين الذي يعتصر الناس يطنطن تارة ويخبو تارة أخرى: «يا جمال يا حبيب الملايين».. حاولت أن أترجم هذه المشاهد إلى كلام يقال، لكن البكاء كان يغالبني كلما هيئ لي أنني تماسكت، وظللت على حالي هذا ساعات إلى أن دفن عبد الناصر، حتى إن الكثيرين لقبوني بعدئذ أنا وجلال معوض الذي أذاع مراسم الجنازة في الراديو بجلال معيط وحمدي منديل.. كان كل منا يحس يومها أنه هو ذاته الذي في الكفن، ولم يكن هذا إحساسنا وحدنا.. كنا نعبر عن إحساس الناس..

* * *

أعرف أن «التعبير عن الناس» عبارة مخادعة، وأنها يمكن أن تستخدم بواسطة كثيرين للتمويه أو للتغرير، ولكن التفاف الشعب حول عبد الناصر وثورته كان كاسحا لا ينكره جاحد.. عندما تنحى انتفضوا، وعندما مات مزقهم الأسى..

كان للثورة أخطاؤها ولاشك، وفي مقدمتها مصادرة الحريات وسيطرتها على الإعلام.. عن نفسي فقد اعتذرت للإخوان المسلمين منذ سنوات عن الأحاديث التي أجريتها مع المعتقلين منهم في السجن الحربي عام ١٩٦٥، وكان الإخوان وقتها قد شكلوا تنظيما سريا جديدا قاده سيد قطب الذي أرسى مبادئ تكفير المجتمع وحكامه في كتابه «معالم في الطريق»، وانتشر التنظيم في عدد من المحافظات، وقام بتدريب أعضائه على العمليات العسكرية ووضع خططا لتدمير منشآت الدولة وجمع تقارير سرية عنها، وحضَّر زجاجات مولوتوف وقنابل، ولكن التنظيم انكشف قبل أن يقوم بتنفيذ أي من مخططاته واعتقل معظم قادته.. روى لي المشير عامر في بيته بالحلمية التفاصيل، وفي السجن الحربي قمت بإجراء أحاديث مع المعتقلين، أذيع عدد منها في التلفزيون.. وقد راجت في بعض مؤلفات الإخوان بعدئذ أكذوبة، أنني كنت أطلب من ضباط السجن أن يبدلوا المعتقلين الذين كنت أستجوبهم بآخرين حتى أحصل على اعترافات صريحة، بل إنني كنت أصفع بعضهم إن لم يعترف الاعتراف الذي أريد، وأشارك في تعذيبهم أحيانا!

ذهب عنفوان الشباب، وفي لحظة حساب مع النفس، أيقنت أنني ارتكبت خطأ مهنيا وأخلاقيا باستجواب معتقلين قيدت حريتهم فاعتذرت، ورحب الإخوان باعتذاري بامتنان، والتقيت عددا من قادتهم فيما بعد، وكنت أحضر دائما مناسبات خروج أقطابهم من السجن مثل د. عبد المنعم أبو الفتوح ود. جمال حشمت ود. عصام العريان، واستضفت آخرين في برامجي مثل مهدي عاكف مرشدهم العام ود. محمد حبيب نائب المرشد وقتها، وغيرهما.. ولكنني عندما اختلفت مع مرسي في ٢٠١٢ وهاجمته، عادوا عن طريق تنظيمهم الإلكتروني يذكِّرون ـ في لغة لا علاقة لها بدين ولا خلق ـ بحكاية السجن الحربي ويضيفون إليها روايات وروايات عن عبد الناصر وحكمه وأيام الستينيات التي كثيرا ما كرروا أنهم لم يشهدوا فيها سوى المذابح والمشانق..

لا أريد هنا أن أترافع عن الحريات في عهد عبد الناصر ولكني أومن بأنه من المستحيل أن نحاسب عصرا بمقاييس عصر آخر.. في ذلك العصر لم تكن الديموقراطية ومعاييرها مطروحة على الأجندة العالمية على النحو الذي نجده اليوم، ولم يكن المصريون مشغولين بها كما هم اليوم.. وقتها كان الناس يتطلعون إلى التحرر الوطني وإنهاء الاحتلال وكانوا مشغولين بالعدل الاجتماعي أكثر من انشغالهم بالحرية، بل كان البعض منهم على استعداد للتضحية بهذه الحرية إلى حين في سبيل تحقيق أهداف الثورة السامية الأخرى، وقد حققت الثورة هذه الأهداف التي لبت طموحات المواطنين الأقل حظا على وجه الخصوص..

أمم عبد الناصر القناة لصالح الشعب.. بنى السد العالي الذي اعتبرته الأمم المتحدة في عام ٢٠٠٠ أعظم مشروع تنموي وهندسي في القرن العشرين.. استصلح ٩٢٠ ألف فدان، وتحول نصف مليون فدان من ري الحياض إلى الري الدائم.. تملك الفلاح الأرض التي يزرعها.. تحقق الاكتفاء الذاتي من المحاصيل الزراعية كافة.. وصل محصول القمح في آخر عهده إلى ١١ مليون طن، تمثل ٨٠٪ من الاحتياجات (في عام ٢٠١٢ / ٢٠١٣ قدر المحصول بـ ٨,٥ مليون طن، أي أقل من نصف الاحتياجات).. أقيم ٣٦٠٠ مصنع بينها مجمع الحديد والصلب.. تضاعف في عهده عدد طلبة الإعدادي والثانوي والجامعات نحو ٦ مرات.. عهد عبد الناصر هو عهد العدل الاجتماعي، وهو عهد الكرامة والعزة الوطنية التي لا تقاس بأرقام..

وفي كل الأحوال، فقد أجرى الناصريون أنفسهم مراجعات لسجل الحريات في تجربتهم، بل وتعدى ذلك إلى كل ما مس الأحزاب السياسية والقضاء والنقابات وغيرها، ولم يكن ذلك بقصد التطهر من الأخطاء أو ادعاء الحكمة بأثر رجعي، ولكنه كان يهدف إلى تصحيح المسار..

لا أحد يمكنه أن يدعي أننا كنا نرفل في نعيم من الحريات، والكل يعرف أن الشيوعيين عانوا من الحبس والاعتقال خمس سنوات كاملة بين ١٩٥٩ و ١٩٦٤، وأن رموز كل القوى الوطنية بمختلف أطيافها دخلت سجون طره والقلعة في ١٩٦٦، وكان بين هؤلاء صديقي الأقرب محمد العزبي الذي روى الكثير عن تلك الفترة

في كتابه «كناسة الصحف»، وكان بينهم صحفيون آخرون عديدون وأدباء وشعراء وفنانون منهم عبد الرحمن الأبنودي وسيد حجاب وصلاح عيسى وجمال الغيطاني وغيرهم وغيرهم.. ونعرف أيضا أن السلطة أمرت حلمي سلام رئيس تحرير جريدة الجمهورية في عام ١٩٦٤ بتطهير الجريدة من الكتاب والصحفيين المناوئين لها، وأن ٣٩ منهم فصلوا عندئذ من بينهم طه حسين، ووزع العديد منهم على المجمعات الاستهلاكية وعلى شركة باتا للأحذية.. كذلك نعرف أن المعتقلات استضافت في مناسبات عدة بعضا من أنصار عبد الناصر أنفسهم مثل الدكتور إبراهيم سعد الدين وغيره من قادة التنظيم الطليعي ومنظمة الشباب..

* * *

تذكرني هذه الوقائع بواحدة من أكبر عمليات القمع التي شهدها الإعلام المصري في تاريخه الحديث، وكان ذلك في بداية حكم الرئيس السادات عندما قاد ما يسمى «ثورة التصحيح»..

في مايو ١٩٧١ كلفني الدكتور حاتم بأن أرأس لجنة تحقيق في التهمة التي وجهت إلى التلفزيون والإذاعة بتخريب الاحتفال بعيد العمال الذي ألقى فيه الرئيس السادات خطابه في أول مايو، وقال إن الرئيس السادات وافق على رئاستي للجنة، وطلب مني أن أذهب إلى وكيل وزارة الإعلام فتحي بركات، وهو قاضٍ سابق؛ ليفيدني بالمعلومات المفصلة.. كنا في بدايات الصيف ومع ذلك فقد كان «فتحي بك» يرتدي بدلة بصديري أخرج من جيوبه ورقة صغيرة مثل «البرشام» الذي يلجأ إليه الطلبة في الامتحانات، وأخذ يتلو التهم.. «في الدقيقة كذا والثانية كذا هناك سيدة تحاول أن تتخفى وهي تتسلل خارجة من السرادق.. في الدقيقة كذا والثانية كذا تجد عددا من كبار المسئولين في الصفوف الأولى يظهر على وجوههم الاشمئناط من خطاب الرئيس، وفي الدقيقة كذا والثانية كذا صور لجمال عبد الناصر يرفعها بعض الحاضرين، وفي الدقيقة كذا والثانية كذا تجدون أن المخرج يركز بالكاميرا على الذين يخرجون من سرادق الاحتفال، وهكذا»..

لم أستمع إلى باقي الملاحظات واستأذنت فتحي بركات في أن آخذ برشامته، وذهبت إلى الدكتور حاتم كما كان مقررا فوجدت في مكتبه واحدا من رؤساء

نيابة أمن الدولة أبلغني حاتم أنه سيكون عضوا في اللجنة معي، وطلب مني اختيار عضوين آخرين معنا من العاملين في التلفزيون، فاخترت المخرج أحمد عبد الفتاح والمهندس فاروق إبراهيم.. وبعد أن راجعنا شرائط الفيديو التي سجل عليها احتفال مايو حرصت أولا على أن أستطلع رأي رئيس نيابة أمن الدولة، وكنت لا أطمئن له لأنني لم أكن أعرفه من قبل وربما كان هو يبادلني الشعور نفسه، ثم تبادلنا الكلام بحذر حتى اكتشفت أنه انتهى إلى النتيجة نفسها، أن التشويش الذي حدث على السادات لا يمكن أن يكون بتدبير من التلفزيون والإذاعة، فلقد كان من المستحيل على المخرج أن يتفادى نقل صور الرئيس عبد الناصر التي انتشرت في جميع أرجاء السرادق، أو يتفادى أصوات الهتافات ضد الرئيس السادات والحفل مذاع على الهواء.. أما بالنسبة إلى الحديث عن المشمئنطين الجالسين في الصفوف الأولى، فهؤلاء في العادة رؤساء مؤسسات ووكلاء وزارات، لا يتوقع منهم أن يقفوا على كراسيهم ليصفقوا للخطاب.. ولم نلاحظ أن المخرج ركز على الخارجين من السرادق، وعلى أي حال فإن خروج البعض كان طبيعيا للغاية؛ فنحن في حلوان وفي شهر مايو والجو حار والسرادق مزدحم ولا شك أن هناك عمالا يريدون الخروج مبكرا ليلحقوا بأوتوبيس قبل الزحام الكبير الذي سيصاحب انتهاء الخطاب.. ثم إن «المتسللة» هذه لم تكن أكثر من سيدة تريد الخروج هي الأخرى، وكانت تحمل في يدها حقيبتها وتحمل معها صحيفة أيضا، ويبدو أنها رفعت الحقيبة والصحيفة لتتفادى احتكاكها بأرجل الجالسين لا «لتتسلل» من السرادق..

ذهبت إلى الدكتور حاتم في الصباح في مكتبه لأبلغه بما توصلنا إليه، وعندما وجدت معه الوزير أحمد عبده الشرباصي ترددت في فتح الموضوع، ولكنه طلب مني أن أتحدث فبادرته بالقول إن البلاغ الذي قدمه إلى وزير العدل يوجه فيه التهمة للتلفزيون بإفساد خطاب الرئيس كان يجب أن يوجه إلى النائب العام، وأردت أن أسوق إليه النتائج التي توصلنا إليها بالتدريج فقلت إنه في ضوء ما رأيناه في الشريط وجدنا أن الأمر معقد بعض الشيء وربما يكون الاتحاد الاشتراكي أو تكون جهة أخرى هي التي حاولت إفساد الاحتفال؛ لذلك بحثت مع رئيس نيابة أمن الدولة

إمكانية سحب البلاغ، ولكنه أكد أن البلاغ من حق الدولة ولا يمكن سحبه، ثم تدارك وقال إننا في ظروف استثنائية قد تبيح إجراءات استثنائية أيضا..

لم يصبر الدكتور حاتم كثيرا وقال: «سيبك من التفاصيل دي.. كل ده مش مهم.. المهم لقيتوا في الشريط إيه؟»، وعندما قلت إننا جميعا لم نجد في الشريط شيئا ذا بال اتهمنا بأننا سذج، وأننا لا ندري بما يدور في ماسبيرو الذي يحتشد مبناه بالشيوعيين، وعندما انصرف الشرباصي أخذ يذكر لي بعض الأسماء ويقرنها بحكايات لا صلة لها بأحداث مايو بل ولا بالسياسة في بعض الأحيان.. ثم طلب مني حاتم تشكيل لجنة أخرى فاعتذرت لسبب اختلقته وهو السفر إلى ميونيخ في مهمة تتعلق باتحاد الإذاعات العربية، فطلب مني إبلاغ فتحي بركات بتحويل الأمر كله إلى المدعي العام الاشتراكي، وتشكيل لجنة جديدة بعد عودتي،وكتابة تقرير بخط اليد أسلمه إليه فور الانتهاء منه.. ذهبت إلى بركات، وبعد أن أبلغته الرسالة قلت: «يا فتحي بك، أنت رجل قانون لك سمعتك فيما بيننا.. أرجوك ألا تستمع سوى لضميرك، أما فيما يتعلق بي فسوف أخرج من مكتبك الآن إلى باب المبنى ولن أعود إليه بعد ذلك».. بعد سنوات نشرت تفاصيل القصة في الصحف أكثر من مرة في حياة الدكتور حاتم (آخرها في حديث مع الأستاذ وائل قنديل بصحيفة العربي في ٨/ ١٠/ ٢٠٠٠، وآخر في الصحيفة نفسها مع الأستاذ ماهر حسن في ٦/ ١٢/ ٢٠٠٩، وكذلك في حديث مع الأستاذة وفاء الشيشيني في مجلة آخر ساعة نشر في ٢٨/ ١٠/ ١٩٩٨)..

بعد لقائي بفتحي بركات ذهبت إلى صديقي سعد لبيب أنذره بأنه سيكون في أول قائمة المتهمين لأن «حاتم» ردد اسمه أكثر من مرة، وهذا ماحدث؛ فقد أحيل هو وصلاح زكي إلى المعاش بقرار جمهوري، وفي القرار نفسه وردت أيضا أسماء محمد أمين حماد مدير الإذاعة والتلفزيون والسيد فرج وكيل وزارة الإعلام والسيد الغضبان مراقب عام الشئون السياسية في صوت العرب.. وعزل آخرون من وظائفهم بعد أن حوكموا بتهمة الاشتراك في التآمر على السادات وصدرت ضدهم أحكام بالسجن مددا مختلفة، وكانوا ثلاثة؛ إسحق حنا مراقب عام الشئون السياسية في الإذاعة ومحمد عروق مدير إذاعة صوت العرب وسعد غزال من صوت العرب أيضا.. ونقل من الإذاعة والتلفزيون يومها نحو ٩٠ من العاملين إلى

وزارات ومؤسسات أخرى، بينهم فاروق خورشيد مدير إذاعة الشعب الذي نقل إلى وزارة الشئون الاجتماعية، وسعاد كامل مدير البرنامج الأوروبي والموسيقى في الإذاعة (السياحة) وأميمة عبد العزيز كبير مذيعي الإذاعة (التخطيط) وسميرة الكيلاني مراقب عام البرامج الثقافية في التلفزيون (التعليم العالي) وعباس أحمد مراقب عام التخطيط والمتابعة في التلفزيون (استصلاح الأراضي) وممدوح زاهر مراقب عام البرامج الإخبارية في التلفزيون (الشركة القومية للتوزيع) وزوجته مقدمة البرامج في التلفزيون ثريا عبد الوهاب (الشباب)، وكذلك مذيعتان في التلفزيون هما جيهان المكاوي (التعليم العالي) وليلى بسيوني (السياحة).. وأبعد أيضا لطفي نور الدين مراقب عام أفلام التلفزيون إلى وزارة الشباب، ورمضان خليفة مراقب شئون الإنتاج في التلفزيون (التربية والتعليم) وعبد المنعم سلام المذيع بالتلفزيون (التربية والتعليم) والمخرج إبراهيم عبد الجليل مراقب برامج الأطفال في التلفزيون (استصلاح الأراضي) والمخرج سعيد عيادة وكيل مراقبة المنوعات في التلفزيون (الشباب) ووجيه الشناوي وكيل مراقبة البرامج التعليمية (النقل) ومخرج المنوعات في التلفزيون روبير صايغ (الشباب) وغيرهم وغيرهم..

كما نقل كل من صلاح عويس مراقب عام برامج صوت العرب وزوجته سهير الحارثي مراقبة البرامج الفنية في صوت العرب إلى وزارة السياحة أثناء إعارتهما للأردن، وكذلك عبد الوهاب قتاية مراقب البرامج العقائدية في صوت العرب أثناء إعارته لإذاعة الشارقة (الأوقاف) والمذيع صبري ياسين أثناء إعارته إلى ليبيا (التربية والتعليم) والمذيع حسن شاش أثناء إعارته إلى موسكو (التربية والتعليم أيضا).. ولم يفلت آخرون من المصير نفسه.. وتوزعت نخبة من خيرة أبناء الإذاعة والتلفزيون في مختلف الدول العربية بعد هذه المذبحة التي تعد أكبر مذبحة في تاريخ ماسبيرو، بينهم جلال معوض ومحمد أبو الفتوح مراقب الشئون السياسية في صوت العرب اللذان ذهبا إلى ليبيا، واستضاف الدكتور سلطان القاسمي حاكم الشارقة مجموعة أخرى يتقدمها محمد عروق..

وكانت التهمة الموجهة لمعظم هؤلاء الذين فصلوا أو نقلوا بالجملة أنهم ناصريون، وبالرغم من أن بعضهم كان كذلك وأن عددا منهم كانوا أعضاء في التنظيم الطليعي فإن

كثيرين منهم لم يكن لهم نشاط ولا ميول سياسية معروفة.. وقد أرقني لفترة السؤال: إذا كانت هذه هي التهمة فكيف لا أكون ضمن المتهمين، وكيف يطلب مني الدكتور حاتم رئاسة لجنة التحقيق وهو يعرف تماما موقفي؟ وكانت الإجابة الوحيدة الممكنة التي توصلت إليها هي أن الدكتور «حاتم» كان يثق في ولائي له ولاء كاملا، وفي أنني سأغلِّب هذا الولاء على أي اعتبار آخر، وكان يعتقد ـ مخطئا ـ أن المشاحنات التي كانت بيني وبين البعض مثل محمد أمين حماد مدير الإذاعة والتلفزيون أو صلاح زكي ستجعلني أنحاز إلى صفه ضدهم..

* * *

نسيت ذلك كله عندما جاء عام ١٩٧٣.. كنت جالسا في مكتبي في اتحاد الإذاعات العربية ظهر يوم ٦ أكتوبر لما سمعت خبر الهجوم المباغت على إسرائيل في الساعة الثانية بعد الظهر، فتركت كل ما في يدي وانطلقت بسيارتي إلى التلفزيون.. ذهبت إلى مكتب الدكتور عبد القادر حاتم مباشرة، وعندما قابلته قلت: «جئت لأسلم نفسي إذا كان بمقدوري أن أساهم بشيء».. أشهد أن الدكتور «حاتم» لم يتردد.. طلب مني النزول إلى الإستوديو مباشرة، حيث أقمت إقامة تكاد تكون دائمة عدة أيام هي الأيام التي سبقت انسحاب القوات المصرية الذي وصفته السلطة وقتئذ بأنه «انسحاب تكتيكي» بسبب «ثغرة الدفرسوار» يوم ١٥ أكتوبر..

في ذلك الوقت أجريت الحديث الشهير مع الكولونيل «عساف ياجوري» صاحب أعلى رتبة بين الضباط الإسرائيليين الذين أسرهم الجيش المصري.. كان «ياجوري» قائدا للواء ١٩٠ مدرع، وكانت مهمة هذا اللواء أن يخترق بدباباته «الباتون» الدفاعات المصرية ليصل إلى مدينة القنطرة غرب، ثم يتقدم منها ليحتل الإسماعيلية، ولكن مدفعية الجيش الثاني سحقت دباباته، وتمكنت القوات من أسره.. كنت فخورا بإجراء الحديث مع «ياجوري»، لكنني عندما عدت إلى المنزل قابلتني والدتي بوجه عابس، ثم إذا بها تعاتبني على إجرائه.. لم أستطع أن أضبط أعصابي فصحت: «تعاتبينني يا أمي على الحديث؟ ليه؟ لأن الراجل كان إسرائيليا؟».. قالت: «لا، لأنه أسير».. أفحمتني إجابتها فلم أنطق بكلمة، وشجعها ذلك على أن تستطرد فتبوح بما

في صدرها: «وماذا تتوقع مني إذا أعلن التلفزيون الإسرائيلي غدا أنه سيذيع حديثا مع الأسير ماجد قنديل؟».. كان أخي ماجد وقتها ضابطا في الجبهة في منطقة القنطرة، وكان قد نجا في الحربين السابقتين في ١٩٥٦ و ١٩٦٧.. مرة أخرى لم أستطع أن أعقب على كلامها..

والحق أنني عدت أكثر من مرة في السنوات التالية إلى المعاهدات الدولية وخاصة «اتفاقية جنيف بشأن معاملة أسرى الحرب».. وفي كل مرة كنت أعيد التفكير فيما إذا كنت قد خالفت بحديثي مع ياجوري المادة التي تنص على أن الأسير «لا يطلب منه سوى الإفصاح عن اسمه وتاريخ ميلاده ورتبته ورقم هويته العسكرية»، أو تلك التي تنص على أنه «لا يجوز إكراه الأسرى لاستخلاص معلومات منهم»، أو المادة التي تشير إلى أنه « يجب حماية الأسير من فضول الجماهير».. وعلى الرغم من أنني لم أكن مطمئنا إلى أن الحديث مع ياجوري يتفق مع هذه القواعد القانونية، فإنني كنت أعزي نفسي دائما بأن الصهاينة خالفوا كل المواثيق الإنسانية في تعاملهم مع الفلسطينيين عموما ومع الأسرى من رجال قواتنا المسلحة بصفة خاصة..

كان حديث «ياجوري» هو آخر عمل تلفزيوني قمت به أثناء حرب أكتوبر، ولكنني تابعت اهتمامي بأحداثها عن قرب، وفي يوم ٢٨ أكتوبر، عندما أجريت المحادثات بيننا وبين الإسرائيليين لتحديد خطوط وقف إطلاق النار، وهي تلك المحادثات التي أجريت في خيمة الأمم المتحدة التي أقيمت في نقطة الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة السويس، طلبت من فريق التلفزيون الذي ذهب إلى هناك لتغطية المباحثات أن أرافقهم لأشاهد هذا الحدث الغريب، وهناك اعتليت سيارة لوري عسكرية حيث جلست فوق كابينة السائق، وأخذت أراقب ما يجري.. لم أصدق نفسي يومها أننا سنجلس مع الإسرائيليين على الرغم من أن الترتيبات كلها كانت قد تمت، وعندما رأيت الفريق عبد الغني الجمسي قائد الوفد المصري في المحادثات يدخل الخيمة صدمت صدمة صاعقة حتى إنني سقطت من فوق السيارة وأصبت بشرخ في قدمي..

سارعت إلى قصر العيني حيث كان صديقي أحمد زعفان أستاذا للعظام فقام بلف قدمي بالجبس، ولم أكن أستطيع السير سوى بعصا أتكئ عليها، وكان الذين

يصادفونني عندئذ وأنا بالجبس والعصا يظنون أنني من المقاتلين الذين أصيبوا في المعارك.. وعلى الرغم من أن ذلك شرف عظيم لأي مقاتل فإنني كثيرا ما كنت أحاول أن أشرح حقيقة الأمر، حتى إنني مازحت زوجتي فطلبت منها أن تعلق على صدري لافتة تعلن أنني لست مصاب حرب، لكنني أعترف أنني خدعت بعض الناس أحيانا عندما تركتهم لظنونهم، وعلى الرغم من أنني لم أكن مزهوا بنتائج الحرب..

كنت ولا أزال أعتقد أن الرئيس السادات خذل جيشه؛ إذ إن الجيش كان قد حقق في الحرب انتصارا مبهرا، وكان باستطاعته التقدم إلى الممرات في سيناء مما يضع مصر في موقف تفاوضي أفضل عند انتهاء العمليات العسكرية، لكن السادات أجهض هذا التقدم في وقت مبكر، حتى إن صديقه «هنري كيسنجر» قال إنه بدد كل أوراق الضغط التي كان يمتلكها في البداية..

مع ضباط على ضفة القناة، وإلى اليسار المصور فاروق صالح (مايو ١٩٦٧).

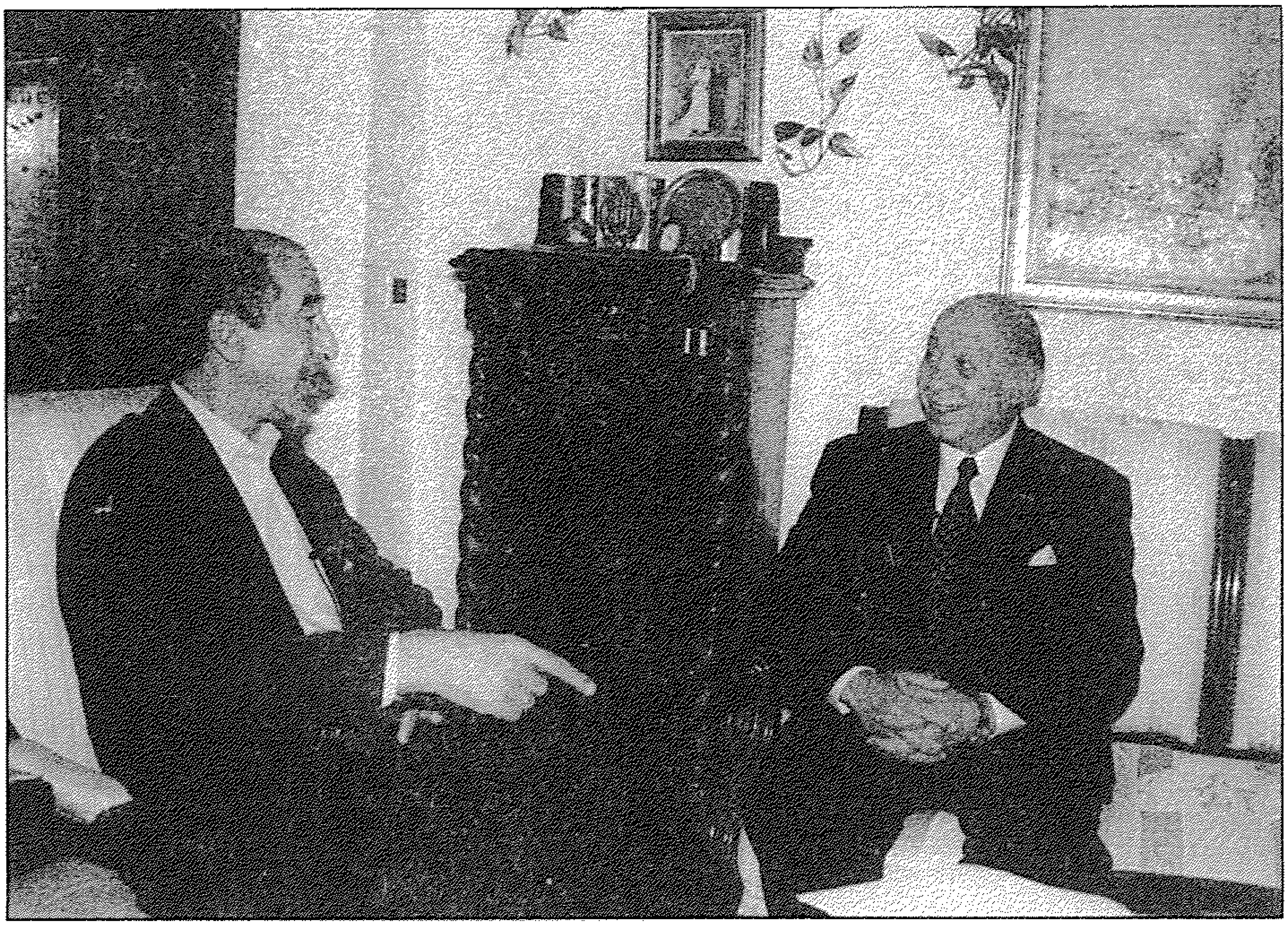

مع وزير الإعلام الأسبق محمد فائق (١٩٩٧).

٧

شيوخ يجمعون القمامة في الكويت

١٩٦١ – ٢٠١٠

◆ ◆ ◆

بعد «عاصفة الصحراء» هزم صدام، ولكن الولايات المتحدة لم تستطع الإجهاز على أسطورته.. لم يربح أي من الطرفين.. الرابح الوحيد من الحرب كان طرفا ثالثا لم يظهر في المشهد من قبل.. CNN.

◆ ◆ ◆

قال: «هذه الأوراق هي توكيلات رسمية لك بالتصرف في كل أمواله».. كانت الأوراق موجهة منه إلى البنوك التي يتعامل معها في القاهرة وبيروت ولندن، وكانت حساباته فيها بالملايين.

عندما تفجر الصراع بين العراق والكويت في عام ١٩٦١، وتقرر أن يرأس محمد عبد الخالق حسونة باشا أمين عام الجامعة العربية وفدا للوساطة لزيارة العراق والسعودية والكويت، كلفني التلفزيون بمرافقة حسونة باشا، وكانت هذه أول مهمة لي لتغطية الأحداث خارج مصر، لكنه لما كانت العلاقات متوترة في ذلك الوقت بين الجمهورية العربية المتحدة وبين كل من العراق والسعودية، فقد اقتصرت مهمتي على الكويت وحدها..

بعد إعلان استقلال الكويت فاجأ عبد الكريم قاسم العالم في ٢٥ يونيو ١٩٦١ بعقده لمؤتمر صحفي أعلن فيه أن «العراق لن يتنازل عن أي قطعة أرض من الكويت التي انتزعها المستعمر»، وأنه بصدد إصدار مرسوم بتعيين شيخ الكويت ـ عبد الله السالم الصباح وقتئذ ـ قائمقاما لقضاء الكويت الذي سيتبع لواء البصرة، وهدد قاسم بقطع العلاقات الدبلوماسية مع أي دولة تعترف باستقلال الكويت، وقال إنه «سيشعل حربا ضروسا في الشرق الأوسط إذا لم تضم الكويت إلى العراق»، ثم أعقب المؤتمر بإصدار أوامره بالاستيلاء على السفن الكويتية الراسية في ميناء البصرة وتجميد أموال الكويتيين في البنوك العراقية..

فسر البعض حدة اللهجة في مؤتمر قاسم الصحفي بالمزاج المتقلب للزعيم العراقي وبالأزمات الداخلية التي كان يواجهها حكمه، وإن لم يستبعد كثيرون أن لعابه سال بسبب النفط الذي تفجر في الكويت، لكن اعتبار العراقيين للكويت جزءا من أراضيهم له تاريخ طويل.. مهما كان الأمر فقد كان قاسم جادا؛ إذ بدأ في تحريك قواته تجاه الأراضي الكويتية، وعلى الجانب الآخر طلبت الكويت مساعدة عسكرية من بريطانيا والسعودية، وحركت بريطانيا أسطولها بالفعل تجاه الكويت وأنزلت نحو ألف من الجنود على أراضيها بعد خمسة أيام من إنذار قاسم.. كانت الوحدة لا تزال قائمة بين مصر وسوريا (حدث الانفصال في أواخر سبتمبر)، وكان موقف الجمهورية

العربية المتحدة وقتها أنها لا تقبل الضم بالقوة وأن الوحدة يجب أن تكون تعبيرا عن إرادة شعبية حرة، وأن «مصير الأمة العربية يعلو على أي مجد شخصي وعلى أي مطمع إقليمي وعلى أي معاهدة أو وثيقة قديمة»، وهكذا فعندما تقدمت الكويت بطلب للانضمام إلى الجامعة العربية وإرسال قوة عربية بدلا من القوة البريطانية لحمايتها، وافقت الجمهورية العربية وإن فضلت هي ألا ترسل قواتها لتـتفادى أي تأويل وتتجنب أي عناد من جانب العراق أو بريطانيا..

قررت الجامعة قبل أن توافق على انضمام الكويت لها واستفزاز العراق بذلك أن ترسل وفدها برياسة حسونة باشا، وعلقت اجتماعاتها حتى يتم الوفد مهمته التي كان قد بدأها بزيارة العراق.. سافر حسونة باشا في البداية إلى بغداد، أما أنا فذهبت إلى الكويت مع المصور رشاد القوصي لنكون في انتظاره هناك، وكنا ضمن وفد من الصحفيين المصريين يتصدره الصحفي الكبير موسى صبري، وكانت هذه أول زيارة لي هناك.. لم تكن الكويت قد ازدهرت بعد على نحو ما رأيته في زيارات أخرى في السبعينيات والثمانينيات، ومع ذلك فكان يبدو بوضوح أن المدينة كلها كانت ورشة للعمران.. في ذلك الوقت لم تكن هناك مبانٍ كبرى سوى مبنى البلدية، وكان المتحف الوطني الذي أنشئ حديثا في مقدمة المعالم التي يزورها الضيوف الأجانب، وقد نظم لنا الديوان الأميري زيارة إلى هناك قمنا بعدها بجولة قصيرة قادتنا إلى شارع «فهد السالم» الذي كان يعج بالمحال التجارية، وكذلك شارع «دسمان»، وكانت سيارات التاكسي من الكثرة بحيث تلفت الأنظار ربما لأن السيارات الخاصة لم تكن قد انتشرت بعد..

لم يكن في الكويت وقتها سوى عدد محدود من الفنادق المتواضعة، وعلى أي حال فلقد كان الوفد في ضيافة الكويت الرسمية، وبذلك فقد أقمنا في واحد من قصور الضيافة بالقرب من «قصر السيف» وهو قصر الحكم الذي يطل على الشاطئ.. كانت الإقامة مريحة للغاية، وغرف القصر بسيطة ولكنها أنيقة وواسعة، وكنت أقيم في إحدى هذه الغرف مع القوصي؛ حيث نبدأ عملنا في الصباح فلا نعود سوى في المساء، وبين كل اجتماع يعقده حسونة باشا وآخر كان القوصي يصور لقطات تسجيلية للمدينة للاحتفاظ بها في أرشيف التلفزيون.. وكانت الحكومة الكويتية قد

عينت واحدا من المسئولين في القصر ليكون ضابط اتصال مع الوفد المصري، وكان شابا نشطا للغاية له اتصالات واسعة..

في مساء أحد الأيام عدت إلى غرفتي فوجدت على الطاولة المجاورة للسرير مظروفا مغلقا كتب عليه اسمي، فلما فتحته وجدت به ١٥٠ دينارا، ولمحت مظروفا مماثلا مجاورا لسرير القوصي الذي لم يكن قد عاد للغرفة بعد.. استبد بي شعور بالغضب والاستفزاز، هل يظنون أنه يمكنهم شراء صحافة مصر مقابل دنانيرهم؟.. ذهبت إلى موسى صبري وأبلغته بما جرى، وأظن أنني كنت منفعلا للغاية وأنا أقول له: «الفلوس دي لازم ترجع لهم دلوقتي»، ولكنه طلب مني أن أهدأ أولا، ثم قال: «اسمعني يا حمدي.. افعل ما تريد، لكن افعله بهدوء.. هم يريدون مجاملتنا، وهذه هي طريقتهم، ثم تأكد أن بعض زملائك سيقبل المظروف وأظنك لا تريد أن تحرجهم»، ولكنه استوقفني قبل خروجي من غرفته وقال: «لكن قبل أن تخرج أريد أن أحييك».. هدأت قليلا وانتظرت حتى الصباح فأعطيت المظروف لمرافقنا الكويتي شاكرا، فتقبل الأمر ببعض الاندهاش وهو يقول إن المسألة ليست كما تخيلت، وإنهم بدلا من أن يقدموا لنا هدايا لسنا في حاجة إليها فقد أرادوا أن يتركوا لنا حرية الاختيار..

عدنا إلى القاهرة، وبعد أسابيع أبلغني رئيس قسم الأخبار في التلفزيون أن الدكتور «حاتم» يطلبني إلى مكتبه، وعندما ذهبت إلى الوزير بادرني بالسؤال: «لماذا لم تخبرني بما حدث معك في الكويت؟»، ولم ينتظر الإجابة فقد عرفت منه أنه التقى موسى صبري في اليوم السابق، وأنه أطلعه على قصة المظروف.. وكانت هذه بداية صعودي في التلفزيون محاطا برعايته الدائمة.. لاستكمال حكاية الكويت أقول إنه بعد عودة حسونة باشا وافقت الجامعة العربية على انضمام الكويت لها، وتم الاتفاق على إرسال قوة عربية مشتركة إليها حلت محل القوات البريطانية التي انسحبت، وظلت هذه القوة هناك حتى انقلب عبد السلام عارف على قاسم في عام ١٩٦٣..

أما حكايتي مع الكويت فقد طالت، إذ زرتها بعد ذلك عدة مرات، كان أولها في عام ١٩٦٤ عندما أوفدت إلى التلفزيون الكويتي لمدة أسبوع لأقرأ نشرات الأخبار هناك في إطار برنامج التعاون التلفزيوني بين البلدين.. وكان البث التلفزيوني الرسمي

المنتظم قد بدأ هناك في عام ١٩٦١، وكان من بين المؤسسين محمد السنعوسي الذي أصبح وزيرا للإعلام في ٢٠٠٦، وظل واحدا من أعز أصدقائي حتى اليوم.. تعرفت إلى السنعوسي في القاهرة التي كان كثيرا مايتردد عليها بعد أن تخرج في المعهد العالي للفنون المسرحية، وعندما ذهب إلى أمريكا ليستكمل دراسته العليا أقام مع المخرج الكبير الراحل مصطفى العقاد شركة للإنتاج السينمائي هناك، وهي الشركة التي أسهمت فيما بعد في إنتاج الفيلم الشهير «الرسالة».. وقد بدأ السنعوسي عمله في التلفزيون بالإخراج، وارتقى السلم فأصبح مراقبا عاما للبرامج، ثم وكيلا مساعدا لوزارة الإعلام فوزيرا، لكنه لم يمكث في الوزارة بضعة أشهر حتى قدم ضده استجواب نيابي فآثر الاستقالة قبل طرح الاستجواب للنقاش..

كان الاستجواب بشأن سياسته الانفتاحية التي «تخالف تقاليد البلاد» على نحو ما قال النائب، ولم يكن هذا جديدا بالنسبة إلى السنعوسي الذي تعرض لاستجوابات مماثلة عندما نظم مهرجانا للتلفزيون أثناء إدارته له ودعا للمهرجان نجوما من أهل الفن المصريين وغيرهم، وقد أثار هذا حفيظة بعض النواب؛ إذ كيف تدعو الدولة فنانات «عاريات» ليتصدرن منتدياتها.. في كل الأحوال كان السنعوسي يسبق دائما كل مألوف في عصره، وكان يرتدي الملابس الإفرنجية على الدوام إذ لم يشاهد من قبل بـ «دشداشة»، وقد تزوج سيدة فاضلة مسيحية عراقية الأصل كانت زميلته في العمل ضاربا بالأعراف المتداولة عرض الحائط، وكان محقا في اختياره..

ولما ظهر السنعوسي على الشاشة في سنوات العقد الماضي عرفه المشاهدون بجرأته النادرة في تناوله للموضوعات التي يطرحها في برنامجه الذي عرف باسمه «السنعوسي»، وكان يقدم البرنامج خارج الإستوديو دائما، وهكذا التحم بمشاكل الناس على نحو جعلني أوصي المذيعين الشباب عندنا بضرورة متابعته.. ولا يخلو بحث حول تلفزيون الكويت من الإشارة إلى بعض حلقات هذا البرنامج، مثل تلك التي صورها في أحد السجون مع الغارمين (المتهمين بإصدار شيكات دون رصيد لظروف قاهرة وصدرت ضدهم أحكام بالسجن)، وقد توالت التبرعات بعدها على البرنامج لسداد مقابل هذه الشيكات وأفرج عن العديد منهم، كما يذكر الكثيرون

الحملة التي قادها في حلقة أخرى للعناية بنظافة البيئة تحت العنوان الطريف «الفار بدينار»، أي إن البرنامج يسلم دينارا لكل من ينجح في صيد أو قتل أحد الفئران..

لكنني عندما رحت إلى الكويت للمرة الثانية في ١٩٦٤ كان السنعوسي مراقبا للبرامج في ذلك الحين، وكنا نقضي معا وقتا طويلا، وكان هو الذي أخذني من يدي إلى الإستوديو لأقدم منه أول نشرة أقرؤها هناك، وعندما طالعت النشرة قبل إذاعتها وجدت فيها خبرا لا يتفق وسياسة مصر وربما كان مستفزا لها.. لا أذكر الآن الخبر بالضبط لكنني أذكر أنني اعتذرت عن قراءة النشرة، وعلى الرغم من أن السنعوسي رجاني مرات أن أعدل عن موقفي لكنني لم أفعل، وقد تسبب ذلك في وضع بالغ الحرج له؛ إذ إنه لم يجد مذيعا آخر سوى في الدقيقة الأخيرة.. ولا شك أنني كنت مخطئا من الناحية المهنية فأنا مجرد «قارئ» نشرة يفترض أن يقوم بعمله بتجرد، والمفترض أن المذيعين لن يضمنوا أبدا أن أخبار النشرات كافة ستكون على هواهم، وإذا ما كنت قد قبلت المهمة للكويت فلقد كان يتحتم عليَّ الوفاء بها.. لحسن الحظ فإن هذا الحادث لم يعكر صفو علاقتي بالسنعوسي التي توطدت في السنوات التالية، وتعرفت من خلاله إلى أصدقاء جدد في الكويت، ومن خلالهم على آخرين، حتى هيئ لي وقتها أن لي أصدقاء في الكويت أكثر من أولئك الذين في القاهرة..

* * *

هكذا فعندما غزا صدام الكويت في ٢ أغسطس ١٩٩٠ كنت في غاية القلق.. ياترى ما الذي حصل للسنعوسي ورضا الفيلي، وفيصل المسعود؟ وأين عبد الرحمن الحوطي وسليمان العسكري وأحمد الربعي وفيصل الخالد وفيصل حجي وسليمان الفهد؟ وما الذي حدث لجواد بو خمسين على وجه الخصوص، وكان الأقرب إليَّ عندئذ على الرغم من أن علاقتي به لم يكن يزيد عمرها على أربع سنوات، وكان واحدا من كبار رجال الأعمال في الكويت؟ مرت أيام وبدأت أطمئن على بعضهم الواحد تلو الآخر، إلَّا بوخمسين.. أسبوعان أو أكثر مرا ولا يعرف أحد عنه شيئا، إلى أن فوجئت برجل يتصل بي من الأردن، يقول بلهجة يمنية: «معي خطاب عاجل من «أبو عماد» وهو هام جدا.. أرجوك أن تقابلني في عمان».. هرولت إلى عمان لأتسلم

الخطاب الذي أبلغني فيه بوخمسين أنه نجح في تهريب عائلته، وأنها في طريقها الآن إلى القاهرة حيث ستقيم فيها تحت مسئوليتي، ولكن المسئولية الفادحة بالفعل كانت تنتظرني في مظروف آخر كبير حمله الرسول ذاته، فقد كانت فيه رسالة مفادها أن «هذه الأوراق هي توكيلات رسمية لك مني بالتصرف في أموالي».. كانت الأوراق موجهة منه إلى البنوك التي يتعامل معها في القاهرة وبيروت ولندن، وكانت حساباته فيها بملايين يصعب إحصاؤها، أما سطور الرسالة الأخيرة فكانت بالعامية المصرية: «أما عن نفسي، فأنا مش طالع من هنا»..

مش طالع من هنا؟! لماذا لم يطلع من الكويت مع الباقين؟ ما الذي دهى الرجل، وماذا عن أعماله الممتدة من شرق العالم إلى غربه؟ مش طالع ليه؟ كنت أريد أن أفهم، ولكنني لم أتبين شيئا حتى كان الأسبوع الثالث للغزو، وإذا باتصال تلفوني (وكنا قبل عصر المحمول) يكاد يصلني صوته منه بصعوبة، يبلغني أنه مع صحابه الذين أعرف بعضهم ينظمون هناك صفوف المقاومة: الشيخ صباح ناصر السعود والشيخ علي سالم العلي، وكلاهما من الأسرة الحاكمة، وعبد الوهاب الوزان وعبد الله الأيوب وعبد الله اليوسفي وجاسم العون وتوفيق الأمير وغيرهم وغيرهم..

زادت دهشتي.. هذا رجل يلعب بمئات الملايين، وله مصالح واستثمارات هنا وهناك يمكن أن يفقدها في غمضة عين، بل يفقد حياته ذاتها برصاصة طائشة.. مقاومة؟ ما له وأمثاله بالمقاومة؟ لكن الأمر كان كذلك عندما تتابعت الاتصالات.. تبين أن هؤلاء الرجال ومئات غيرهم ممن ينتمون إلى الطبقات العليا والوسطى قد نظموا تحت الاحتلال ما يشبه الحكومة المدنية، وحملوا السلاح وحملوا القلم أيضا.. في البداية أصدروا نشرة تطبع بالبالوظة، ثم على الآلة الكاتبة، ثم على مطبعة صغيرة، وهي الجريدة التي صدرت فيما بعد في الكويت المحررة باسم «٢٦ فبراير» (صودرت عدة أيام لأن أحد كتابها، المحامي صلاح الهاشم، انتقد عمل بعض الإدارات الحكومية!).. سارع أمير الكويت ومعه عدد من أقطاب الأسرة الحاكمة إلى اللجوء للسعودية، وكان معظم من تبقى في الكويت وقتها هم أقل الناس دخلا ممن لم يستطع الهرب، ومع ذلك فقد تكاتف كل من تبقى، وكانت هناك شبكة محكمة تنقل الغذاء والمال ممن عنده إلى من ليس عنده.. كانت هناك خلايا من الأطباء المتطوعين، وكان

المهندسون وغيرهم من أصحاب المهن يوزعون الخبز والزيت والأرز وكبار القوم يجمعون القمامة.. كانت لدى الكويتيين قضية لأول مرة منذ الاستقلال..

اتصل بي الشيخ جواد فيما بعد وطلب مني أن أحاول تزويدهم بأجهزة إذاعة سرية ليستخدموها في استنهاض همم الأهالي وبث بيانات المقاومة، وكان الحل الأوفق الذي توصلت إليه أن نستأجر باخرة من قبرص تثبت فيها الأجهزة وتصبح كمحطة عائمة تبحر إلى الخليج حيث ترسو في البحر بالقرب من سواحل الكويت؛ بحيث يغطي إرسالها البلاد بكاملها بالإضافة إلى جنوب العراق أيضا.. وبدأت الترتيب لذلك بالفعل، وإذا بمحمد السنعوسي يصل إلى القاهرة، ويخبرني أنه جاء ليعد معي «خطة برامجية وهندسية للإذاعة والتلفزيون في الكويت بعد العودة» انتهينا منها في أسابيع قليلة بمعاونة عدد من الخبراء، كما أنه كان يود أن يتخذ من القاهرة مقرا له للاتصال بالدوائر السياسية والإعلامية الدولية التي يمكن أن تساند الكويت في معركتها، وتمنى لو استطعت أن أتفرغ من أعمالي لهذه المهمة القومية..

كانت المهمة كذلك بالفعل، ولم تكن لديَّ أعمال كما يتخيل.. منذ عودتي إلى مصر بعد عشر سنوات في اليونسكو لم يتقدم لي أحد في القاهرة بعرض عمل واحد، لا من الحكومة ولا من غيرها.. عرفت بنفسي وقتها أن البلد لا يقدر أبناءه، خاصة أن زميلين لي كانا قد تركا العمل في اليونسكو في العام الذي تركتها فيه؛ أحدهما شاب من بنجلاديش اسمه «محفوظ أنام»كان يعمل في الإدارة التي أرأسها وقد تولى رئاسة تحرير إحدى الصحف في بلاده، والآخر هو الهندي الذي خلفته في رئاسة «مكتب إعلام الجمهور» في المنظمة «دليب بادجاونكار»، وقد ترأس تحرير «تايمز أوف إنديا» أكبر صحف الهند، وكان له عندئذ تصريح مشهور تداولته الصحف العالمية الكبرى يقول فيه: «لا يعلو أحد في الهند منزلة على رئيس تحرير التايمز في إدارة شئون الأمة سوى رئيس وزراء الهند»..

أما أنا فتفرغت مع السنعوسي متطوعا للمهمة الجديدة، وبالرغم من مشاعر الرثاء للعراقيين الذين استنزفتهم من قبل الحرب مع إيران، وبالرغم من أنني لم أصدق تماما أن الكويت هي الحمل الوديع البريء من الخطايا، فإنني كنت ناقما على صدام

حسين الذي شق صفوف الأمة، وغزا أراضي دولة شقيقة بجيش عاث قتلا ونهبا وسحلا في الأبرياء.. ودائما ما كنت أتذكر كلمة لمندوب الكويت في اجتماع الجامعة العربية قال فيها إنه عندما سمع الأهالي في بلاده بأن الجيش العراقي يتحرك، أخذوا يتخلصون من كل الحبال التي في الكويت خشية أن يستخدمها الغزاة في سحلهم.. إلَّا أنني لم أكن حزينا على الكويت وناسها فقط، ولكنني كنت أتساءل ما إذا كانت ستنتهي مع هذا الغزو تجربة الصحافة الحرة التي كانت تزهو بها الكويت وسط العالم العربي كله، وكنت أجد ـ ولا أزال ـ أن هناك تعددية وحرية في صحف الكويت أكثر حتى من تلك التي في لبنان؛ إذ إنها لا تخضع في العموم للنفوذ الحزبي أو الخارجي أو تتعرض بسهولة للضغوط المالية..

لم يكن هناك بد من الاتصال بشركات العلاقات العامة العالمية الكبرى حتى نبدأ الحملة الدولية المناهضة للغزو، ولما كانت معظم هذه الشركات في أمريكا فقد اخترنا واحدة من أشهرها هي شركة «هيل آند نولتون» Hill & Knowlton التي التقينا بممثليها مرة في باريس وأخرى في القاهرة، وهالتنا المبالغ الباهظة التي تطلبها تلك الشركات مقابل هذا العمل؛ ولذلك لم نستعن بأحد سوى في أضيق الحدود الممكنة.. ولحسن الحظ أن الغمة سرعان ما انكشفت، وإن كان على حساب دماء عديد من الشهداء سواء من الأهالي أو من الجيوش المشاركة في «حرب الخليج الثانية» (حرب الخليج الأولى هي تلك التي كانت بين إيران والعراق)، وكانت ثماني دول عربية منها مصر قد ساهمت بقوات في المعركة التي قادتها أمريكا وسمتها «عاصفة الصحراء»، والحق أنني كنت أتمزق وأنا أشاهد في التلفزيون الجنود الأمريكيين وهم يطأون بأقدامهم الأراضي الكويتية والعراقية معا..

لم أكن أعفي صدام حسين من مسئوليته في ذلك، لكنني كنت أميل كثيرا إلى أن الولايات المتحدة استدرجته لارتكاب جريمة الغزو، وكانت هناك دلائل عديدة على ذلك أوضحها ما قالته له السفيرة الأمريكية في بغداد قبل الغزو من أنه إذا هاجم الكويت فسوف تعتبر أمريكا ذلك مسألة داخلية فيما بين دولة عربية وأخرى، وهكذا وقع في الفخ.. كان صدام يظن أنه سيكون الطرف الرابح، وكانت الولايات المتحدة تظن أنها الرابحة، ولكننا بعد انتهاء «عاصفة الصحراء» اكتشفنا أن «صدام»

هزم هزيمة مهينة، وأن الولايات المتحدة أخرجت قواته من الكويت، ومع ذلك لم تستطع الإجهاز على أسطورته.. الرابح الوحيد من الحرب كان طرفا ثالثا لم يظهر في المشهد من قبل.. CNN..

كانت محطة تلفزيون CNN قد أنشئت في الولايات المتحدة في عام ١٩٨٠، لكنها لم تعرف على المستوى العالمي سوى بعد غزو الكويت؛ وربما لهذا يقول كثيرون إنها ولدت مع الغزو الذي كلفت بتغطيته عديدين من مراسليها ذهبوا إلى الكويت لمرافقة القوات الأمريكية وإلى العراق لمتابعة الأحداث على الجانب الآخر، واختصت القناة القاهرة بواحد من أكبر مكاتبها في المنطقة، وأقامت على عجل إستوديو مكشوفا كامل التجهيز على سطح فندق «هلتون رمسيس» كانت تستضيف فيه المعلقين كل يوم، وكنت واحدا من هؤلاء..

كانت القناة قد نشرت مكاتبها في عدد من الدول العربية، وأقامت مكاتب في الولايات المتحدة ذاتها، وكان هناك على مايبدو اتفاق بينها وبين العراقيين والأمريكيين على السواء لتقديم التسهيلات كافة لها، وهكذا كانت من ناحية تنقل لنا على الهواء مباشرة صور القوات الأمريكية وهي تغادر كاليفورنيا، والطائرات وهي تطير من ألمانيا، والبوارج والمدمرات وهي تجوب مياه الخليج، والقواد مع طلائعهم الأولى والثانية والثالثة وهي تصل واحدة بعد أخرى إلى الكويت، ومن الناحية الأخرى فقد سمح لمراسليها في العراق بأن يصوروا قوافل الدبابات وهي متجهة صوب الجنوب، وصدام وهو يجتمع مع مجلس الثورة، ووزير التجارة وهو يعرض كمية الأرز المقررة للمواطن كل شهر.. وكان كل من الجانبين العراقي والأمريكي يوجه إنذاراته إلى الآخر من خلال CNN، وبالطبع فقد صورت الشبكة الأمريكية المعركة كاملة على أرض الكويت، بل كانت المصدر التلفزيوني الوحيد لها، وهكذا تابع المشاهدون العرب وغيرهم الحرب بعيون CNN..

* * *

بعد دحر القوات العراقية ذهبت إلى الكويت يدفعني حب الاستطلاع لكي أكتشف بنفسي آثار العدوان، فذهبت إلى هناك على متن أول طائرة مصرية للركاب تصل الكويت بعد الغزو.. كان المطار الذي خرجت منه ودخلت مرات ومرات من قبل

خرابا يبابا.. المباني مرشوقة بطلقات المدافع متفحمة من الحرائق، والأرض تناثرت عليها قطع الزجاج ودانات فارغة.. هنا بقايا سيارات وهناك لافتة مطموسة تكاد تظهر عليها كلمة «مرحبا» عندما كانت الكويت ترحب بكل ضيوفها..

آخر الضيوف الثقلاء خاضوا هنا في المطار معركة ضارية دامت يوما كاملا بعد انسحاب معظم قواتهم.. من يومها ظل المطار ثكنة عسكرية.. لم أجد مضيفا يستقبلنا ولا حتى سلما متحركا واحدا نهبط به من الطائرة، وهكذا نزلنا على سلم يشبه ذلك الذي نستخدمه في بيوتنا، وبعدما صعد عاملان إلى مخزن الطائرة، أخذا من هناك في إلقاء الحقائب لنا.. كانت حقيبتي هزيلة لو قارنتها بعشرات الصناديق والأشولة والحقائب من كل نوع وحجم التي كان يحملها الركاب الكويتيون.. اندهشت عندما رأيتها بهذه الكثرة، واندهشت أكثر لما كان يظهر من ثناياها.. بالعشرات وربما بالمئات شموع وخراطيش سجائر وباكوات كبريت وعلب فول مدمس وعصائر وزجاجات مياه معدنية ومواقد غاز، وكأنهم عمال مصريون عائدون من الكويت في الزمن الغابر..

لم يكن هناك ضابط جوازات في المطار، وكان المدرج قريبا من الطريق العام، فحملت حقيبتي مشيا على الأقدام حتى بلغت الطريق، وهناك لم أجد بالطبع سيارات التاكسي المألوفة فوقفت في الشمس الحارقة أنتظر معجزة، وكان من حظي أن ألمح سيارة عسكرية عليها العلم الفرنسي.. قلت لنفسي: لو توقف سائقها وحدثته بالفرنسية فلا بد أنها ستوحشه وسط هذا الطوفان الأمريكي الذي أغرق الكويت، وألوف اللافتات التي لا تحمل سوى صور بوش.. نفعت الحكاية، ولم يكفّ سائقي عن الحديث عن الحرب ودور الفرنسيين فيها.. مساكين الفرنسيون.. جاءوا وحاربوا وكأنهم لا جاءوا ولا حاربوا.. تصدر الأمريكيون المشهد ولم يفسحوا لهم منفذا واحدا يطلون منه..

اكتشفت أنني والجندي الفرنسي ذاهبان إلى فندق «هوليداي إن» الذي يملكه صديقي جواد بوخمسين، أكثر الفنادق حظا في النجاة من عسكر هولاكو.. كل ما لحق به من خسائر مجرد قذيفتي بازوكا دمرت عشر غرف أو نحوها، وحريق التهم الاستقبال والخزائن وأجهزة الاتصالات.. حكى لي المقيمون في الفندق أنهم أخرجوا منه عندما صدرت الأوامر للعراقيين بالانسحاب، ودخل الأشاوس فألقوا

في البهو الرئيسي بسائل غريب وأضرموا فيه النار حتى إنها فتتت حوائط الرخام.. لم ينقذ الفندق يومها إلّا منافذ الإطفاء في سقفه الشاهق..

الناس هنا تقول إنه لو تأخر دخول قوات التحالف يوما واحدا لكانت الكويت قد سويت بالأرض.. الخطة كانت واضحة وأولوياتها محددة.. كان العراقيون بجيش مخابراتهم الذي زرع في الكويت منذ سنوات بعيدة يعرفون البلد مثل كفوف أيديهم، وكانت أوامرهم تقضي بأن تدمر مباني الحكومة وفي مقدمتها أجهزة حفظ المعلومات والاتصالات أولا، ثم الفنادق، ثم المراكز التجارية والمباني الكبرى، ثم أي شيء وكل شيء بعد ذلك.. أكو أوامر أن يحرق الأصل (العراق) الفرع (الكويت) وتأكل الأم كالقطط أولادها.. قالها ضابط عراقي بزهو إلى جمع من الأسرى الكويتيين: «المحافظة ١٩ لا يمكن أن تكون أكثر بهاء من العاصمة بغداد.. سنسويها بالأرض حتى تصبح أحقر من أقذر أحياء البصرة».. لكن القدر الساخر جعلنا نرى البصرة تدمر، ومعها كركوك وكربلاء ومائة مدينة ومدينة في العراق ذاته، أما الكويت فقد ظلت معظم مبانيها على حالها أو أقرب ما تكون إلى ذلك..

ما إن علم أبو عماد بوصولي حتى أخذني من يدي إلى سيارة تقف بالقرب من باب الفندق وقال: «خذ السيارة واذهب بها حيثما شئت، لن يسألك أحد عن رخصة قيادة ولن تجد ضابط مرور، بل إن الكويت كلها تخلو الآن من الإشارات الضوئية تماما».. أول شيء يلاحظه الزائر أن المرافق الأساسية انهارت، والكهرباء والماء والاتصالات انقطعت.. فندق «الميريديان» احترق بكامله، ومعه «الشيراتون» وباخرة «رمادا» وفندق «المسيلة».. صحيح أنه لحق بها أيضا مبنى الحاسب الآلي ومركز البحوث العلمية والمتحف وبرج الطيران الكويتية ومبنى المجلس الوطني وعدد من المراكز التجارية الكبرى، لكن المباني الأخرى تكاد جميعها تكون سليمة، والمساكن والفيلات كلها قائمة كما كانت، والمباني الشاهقة كأبراج نيويورك في منطقة البنوك لم يسقط منها حجر..

معظمنا عن بعد تخيل أن الكويت قد دكت دكا، لكنها لم تكن كذلك.. الذي حدث أنها نهبت.. المال والذهب لطشوه من البنوك.. معظم المتاجر سرقت بضاعتها ثم أشعلت فيها النيران.. مبنى التلفزيون لم تعد فيه آلة واحدة حتى الآلات الكاتبة.. لم

ينجُ جهاز واحد للكمبيوتر في أي مبنى عام من السرقة.. المدهش أنهم كانوا يسرقون الشاشات فقط.. ظنوها أجهزة تلفزيون، وربما ظنوا أيضا أنها ستذيع لهم برامج غير تلك التي يظهر فيها المهيب صباح مساء في التلفزيون العراقي.. لم يكن يداني ولعهم بأجهزة الفيديو والتلفزيون سوى شبقهم إلى إطارات السيارات.. صحيح أن آلاف السيارات أخذوها إلى بغداد، لكن المشهد الذي لا تخطئه عين هو الآلاف الأخرى الملقاة دون إطار واحد على جوانب الطرق..

مع ذلك فإن هذا كله يهون أمام الجريمة الكبرى التي ارتكبها العراق في الكويت، فقد أحرقت القوات العراقية أكثر من ٧٠٠ بئر للبترول قبل انسحابها، وهكذا غطت السماء سحابة سوداء امتدت إلى الدول المجاورة (استغرق إطفاؤها ٨ أشهر).. عدت إلى الفندق، وهناك لاحظت أن كل من يخرج منه يسود جلبابه في دقائق، وهذا ما حدث لملابسي أنا الآخر..

ليت الأمر اقتصر على الملابس.. في الأسبوع السابق كنت قد ذهبت إلى سويسرا لأتخلص من التدخين.. كان صديقي الكاتب الكبير سعد الدين وهبة الذي كان يدخن ثلاث علب سجائر كل يوم قد ذهب إلى هناك قبلها بأشهر؛ حيث كان قد حجز موعدا لدى خبير في العلاج من التدخين في بلدة قريبة من زيوريخ، وتبعه أيضا صديقنا ريمون إسكندر (موزع برامج التلفزيون الدولية البارز) وكان هو الآخر مدخنا شرها، وعاد الاثنان بعدها إلى القاهرة وقد امتنعا عن التدخين تماما، ولم يعودا إليه ثانية.. ذهبت إلى الرجل نفسه، وكان اسمه ميشيل جوزيف، فأجلسني أمامه وبدأ يضغط بأصابعه على أماكن في الرأس والصدر لا بد أنه يعرفها جيدا، وبعد نحو عشر دقائق انتفض واقفا وصافحني قائلا: «مستر قنديل، مبروك، من الآن لم تعد من المدخنين، ولكن عليك أن تلقي بعلبة السجائر في الطريق عندما تخرج من هنا»..

لم أفعل، وعندما عدت إلى الفندق في زيوريخ كان أول شيء يخطر ببالي أن أحاول تدخين سيجارة فوجدت نكهتها مثل ورق الصحف المحروق، وكررت التجربة مع فنجان قهوة فلم تختلف النتيجة، ثم كررتها بعد الأكل فظلت النكهة نفسها، وعندئذ أيقنت أني شفيت من التدخين حتى إنني عندما ذهبت إلى مطار زيوريخ عائدا إلى القاهرة في اليوم التالي طلبت حجز مقعد على الطائرة في المنطقة التي يمنع فيها التدخين (كان

التدخين لا يزال عندئذ مسموحا به في الطائرات)، ولأول مرة لم أشترِ من السوق الحرة سجائر «البلايرز» التي كنت أدخنها ولم تكن توجد بسهولة في أسواق القاهرة..

ذاع اسم ميشيل جوزيف في مصر بعد أن رويت أنا وسعد الدين وهبة الحكاية للصحف، وكان استنتاجنا أنه يستخدم في العلاج طريقة أشبه بالإبر الصينية وإن كان يستخدم أصابعه بدلا من الإبر، وتعاقد حزب الخضر معه على الحضور إلى مصر ليعالج الجمهور العام مقابل عشرة جنيهات للفرد في الجلسة.. قامت الدنيا وقعدت، وامتلأت الصحف بالتحقيقات ورسائل القراء الذين أشاد بعضهم بالمعالج السويسري ولعنه آخرون.. لعل هذا الخلاف يرجع إلى الطريقة التي يستخدمها الرجل في العلاج؛ إذ كان يحمِّل المدخن جانبا من المسئولية.. كان يطلب من رواده كما طلب مني من قبل أن نعلن لمن حولنا في البيت والعمل أننا أقلعنا عن التدخين حتى نخجل من التراجع أمامهم إذا فكرنا في العودة إليه، وكان يقول أيضا إن تأثير علاجه يمتد لأسبوع تقريبا وبعدها على كل شخص الاعتماد على قوة إرادته، ولكنني لما سمعت منه هذا كله لم آبه بما قال.. استولى عليَّ حب الاستطلاع لأعرف ما الذي فعله بي الرجل، فأخذت أدخن سيجارة صباح كل يوم لأرى إن كان مذاقها يختلف عما كان عليه في اليوم السابق..

عندما عدت من الجولة بالسيارة في الكويت وقد حرق صدري دخان البترول، أسرعت أبحث في الفندق عن سيجارة.. قلت لنفسي: «وهل يقارن إيذاء سيجارة بإيذاء كل هذا الهباب من حولي؟».. وكان أن عدت للأسف إلى التدخين، وأخذت أروي الواقعة لكل من حولي.. ولكن «أبو عماد» كان مشغولا بموضوع آخر، مشروع آخر، لا بد أنه أرسلني في جولة السيارة ليمهد له.. كان يود أن أرى الخراب حتى أدرك أبعاد الفرص المتاحة أمام الحكومة المصرية، وكذلك شركات المقاولات ورجال الأعمال المصريين ليأخذوا جزءا من الكعكة.. تحمست للفكرة كثيرا، وعلى الفور نظمنا رحلة إلى الكويت شاركت فيها عدة شركات خاصة وعامة، وأقمنا معرضا للمنتجات المصرية افتتحه سبعة وزراء كويتيون.. وكانت الدول الغربية قد تقاطرت على تنظيم معارض لمنتجاتها حينئذ، ولكن معرضنا سبق الجميع، حتى المعرض الأمريكي..

المفاجأة كانت أننا اكتشفنا أثناء ذلك أنه لم تعد هناك في الكويت كعكة.. الكعكة كانت إعادة بناء المرافق الأساسية وتجهيزها، وهذه المرافق كانت قد أسستها وجهزتها من قبل شركات عالمية كبرى، ومن الطبيعي أن تقوم الشركات نفسها بالتجديد والإصلاح، أما مصر فلم تكن فيها تكنولوجيا تماثل تلك التي لدى شركة موتورولا الأمريكية التي كانت تبني من جديد نظم الاتصالات الخاصة بوزارتي الداخلية والدفاع وغيرهما.. ومثلها شركات غربية متعددة، في مقدمتها الحوت المفترس «بكتيل» وأباطرتها الذين يحكمون العالم..

سألت نفسي: أين نحن من هؤلاء، وأين ساستنا؟ عندما زار جون ميجور رئيس وزراء بريطانيا الكويت بعد غزوها بأيام؛ شعرت بالأسى أن الدكتور عاطف صدقي لم يكن أول رئيس وزراء يزور الكويت.. جاء ميجور ومعه نحو خمسين من رجال الأعمال الإنجليز، ظلت غالبيتهم أو ظل مساعدوهم في الكويت أياما وأسابيع.. لا أدري لماذا نصبت صحفنا مأتما على مصر وحظها العاثر هناك، وهاجموا المهندس حسب الله الكفراوي وثمرة زيارته الوحيدة، ترميم قصر بيان الأميري.. صحيح أن العملية كانت متواضعة، لكنها كانت تتناسب مع قدراتنا؛ لذلك قامت بها شركتا «المقاولون العرب» و«علام» بكفاءة، وأتموا العمل قبل موعده، وبسبب وجود الشركتين في الكويت، أتتهما أعمال أخرى متناثرة تتناسب مع قدراتهما، أما الكعكة فقد تبخرت.. كل الذي تبقى قطع متناثرة من الجاتوه، بل ربما من العسلية..

خسر الشيخ جواد في تنظيم المعرض وفي دعوة الشركات المصرية بعض المال، ولكنه قام بواجبه في حدود المستطاع.. وفي اليوم الذي أغلق فيه المعرض قال لي: «أعرف أنك غير معتاد على أجواء التجارة والمقاولات وربما تأففت منها، لكني واثق أنك أرضيت ضميرك».. قلت: «تعرف يابو عماد بافكر في إيه؟ بافكر ياترى ربنا حيدينا العمر وييجي اليوم اللي نتقابل فيه، إنت وأنا وأصدقاؤنا في الكويت، مع أصدقائك وأصدقائي في العراق؟».. لكن الزمن سرق منا هذا الحلم، ولما جاء الرجل إلى القاهرة بعد أيام، وكانت له أعمال مختلفة فيها، قال إنه واثق أن خطانا لن تفترق؛ ولهذا فهو يعرض عليَّ أن نقيم معا شركة يباشر من خلالها أعماله، وأقوم أنا من خلالها بما أراه من عمل في مجال الإعلام إن أردت، وهكذا أقمنا شركة باسم يمكن أن يغطي أعمالا متباينة سميناها «البيت العربي»، وسددت أنا ثلث رأس المال

وهو الثلثين، واشترينا مكتبا فاخرا في «برج الجيزة الإداري» في شارع مراد، إلَّا أنني لم أحقق في الشركة سوى نتائج متواضعة..

* * *

في عام ٢٠٠٠، وقع في الكويت حادث كان مثار اهتمام مصر كلها.. اختفى طفلان لأب مصري يقيم في الكويت متزوج من إيطالية، ثم تبين أن والدة الطفلين نقلتهما إلى السفارة الإيطالية هناك ومنها تم تهريبهما إلى إيطاليا بمساعدة نائبة إيطالية.. وقتها كنت أقدم برنامج «رئيس التحرير» في التلفزيون المصري، فذهبت إلى الكويت؛ حيث اكتشفت الحقيقة المذهلة، أن النائبة الإيطالية كانت ترأس في بلدها لجنة تدعو إلى إطلاق أسرى الكويت في العراق، وبحكم عملها كانت على صلة بوزير الدفاع الكويتي، الذي كان عندئذ الرئيس الأعلى لحملة «أعيدوا إلينا أسرانا» فسهل لها الخروج بالأطفال من المطار.. فضحت الوزير، على الرغم من أنه كان الرابع في ترتيب الأسرة الحاكمة (التفاصيل في الفصل ٢٢)..

منذ ذلك الحين بدأت أشعر بفتور الرسميين الكويتيين معي، وعندما أعدم الأمريكيون صدام حسين يوم عيد الأضحى انقلب هذا الفتور إلى عداء صريح، بعدما تحدثت في برنامجي «قلم رصاص» من تلفزيون دبي أنعي الزعيم العراقي وألعن الاحتلال الأمريكي، وهاجمني عدد من كتاب الصحف الكويتية ببذاءة..

* * *

دخلت في أزمة أخرى مع الكويت في عام ٢٠١٠؛ وهي الأزمة التي وقعت في إبريل عندما أبعدت الكويت ٢٦ مصريا من المناصرين لـ«الجمعية الوطنية للتغيير» (تفاصيل قصتهم في الفصل ٢٣)..

وفي حين أن اتصالاتنا بالسفارة الكويتية في القاهرة لم تسفر إلا عن كلام حلو منمق، فإن ظني لم يخب في رجالات الكويت ومجتمعها السياسي.. تعددت الاحتجاجات على قرار الاعتقال والإبعاد من جانب عدد من المنظمات، مثل «جمعية الشفافية الكويتية» و«الجمعية الكويتية لحقوق الإنسان» و«الجمعية الكويتية لمناهضة التمييز العنصري»، ومن نواب مثل وليد الطبطبائي ومبارك الخرينج وساجد العبدلي، ومن كتاب مثل عبد اللطيف الدعيج والدكتور غانم النجار وحسن

الموسوي وعديدين غيرهم.. من بين ما قاله هؤلاء: إن قرار الإبعاد متسرع، وإنه أول إبعاد جماعي تقوم به الكويت، وإنه يخالف الدستور الذي يكفل حرية التعبير، وإنه يسيء إلى سمعة الكويت، وإنه منافٍ لأصول العدالة، وإنه ألحق أذى غير مبرر بالمبعدين وأسرهم.. كما أثار المعترضون أسئلة مثل: ماذا لو كان هؤلاء قد خرجوا لتأييد الحزب الحاكم في مصر؟ ولماذا لم تعترض سلطات الكويت على مظاهرات الإيرانيين الذين تظاهروا أمام سفارة إيران في يونيو ٢٠٠٩؛ احتجاجا على إجراءات الحكومة الإيرانية ضد المعارضين لها في الانتخابات؟ وكيف يسمح للكويتيين بالتظاهر في القاهرة أثناء احتلال العراق لبلادهم، ولا يسمح للمصريين في الكويت بإبداء رأيهم في شئون بلدهم؟!

على أن مأساة المقيمين في البلدان العربية ليست مأساة المصريين وحدهم.. إنها مأساة كل عربي ينتقل من بلد عربي إلى آخر، أو يهجر بلده الأم ليقيم في بلد ثانٍ.. عندئذ لابد له أن يسلم بأن مصيره معلق بأيدي الكبار الذين يرسمون سياسات الدول، ومعها مصائر البشر، فإما أن تطيب الحياة إذا ساد الصفاء بين هؤلاء الكبار، وإما أن تنقلب إلى جحيم إذا ما تناحروا..

سعد الدين وهبة وإلى يساره سميحة أيوب، وإلى يميني ريمون إسكندر (١٩٩٢).

٨

في الجزائر، على ظهر عربة بطيخ

١٩٦٢ - ٢٠١٠

◆ ◆ ◆

من أيام العز: أيام عبد الناصر وبن بلة، إلى أن أصبح بلد المليون شهيد ـ بالنسبة لنا ـ بلد المليون بلطجي وجميلة بوحيرد أصبحت غانية في سوق الدعارة، وفي الجزائر أصبح المصريون صهاينة وأعلامهم ديست بالأقدام.

◆ ◆ ◆

كان بوتفليقة عازما على تحقيق الوفاق في المجتمع الجزائري الممزق بين الميني جيب والجلباب الأفغاني.

لم تكن مهمتي هذه المرة مثل أي مهمة أخرى؛ إذ كانت إلى الجزائر؛ بلد المليون شهيد التي جاهدت ضد الاستعمار الفرنسي ١٣٠ عاما، وها هي الآن تستعيد سيادتها السليبة.. كنا في منتصف يوليو ١٩٦٢، وبناء على اتفاق إيفيان بين الجانبين الجزائري والفرنسي كان قد أفرج قبل عدة أشهر عن بن بلة ورفاقه الأربعة الذين اختطفتهم فرنسا في ١٩٥٦، وأجري الاستفتاء بين الجزائريين، وصوتت الغالبية الساحقة منهم بالموافقة على الاستقلال، واعتبر ٥ يوليو هو يوم الاستقلال الوطني للجزائر..

كانت الجزائر عندئذ تحكمها حكومة مؤقتة يرأسها بن يوسف بن خدة الذي كان وزيرا في الحكومة المؤقتة الأولى برئاسة فرحات عباس، وكان بن بلة يشغل رمزيا منصب نائب الرئيس في الحكومتين أثناء سجنه، ولما تم الإفراج عنه توجه إلى الرباط ثم القاهرة ومن بعدها طرابلس يعقد الاجتماعات هنا وهناك للتمهيد لإعلان استقلال البلاد، إلَّا أن هذه الأيام كشفت بوضوح عما كان معروفا من قبل من خلافات داخل جبهة التحرير، وخاصة بين بن بلة ومعه هواري بومدين رئيس أركان جيش التحرير من ناحية، وهي المجموعة المعروفة باسم مجموعة تلمسان المجاورة للحدود المغربية، وبين آخرين عرفوا باسم مجموعة تيزي أوزو (نسبة إلى بلدة شرق العاصمة) يتصدرها بوضياف وكريم بلقاسم..

تقرر أن يتحرك جيش التحرير من بلدة وجدة المغربية تجاه الجزائر العاصمة ليحسم النزاع لصالح بن بلة هو وفريقه الذي كانت تسانده مصر.. وجدة هي عاصمة الإقليم الشرقي للمغرب، وهي لا تبعد عن الحدود المغربية الجزائرية بأكثر من ١٥ كيلو مترا، يسكنها منذ سنوات طويلة ألوف من الجزائريين، وهكذا كانت حاضنة طبيعية في السنوات الأخيرة لقيادة أركان الجيش الجزائري التي يرأسها بومدين وعدد من وحداته التي أمدتها مصر بالسلاح.. وعندما ذهبنا إليها في ٢٠ يوليو كنا نرى المقاتلين الجزائريين يتجولون بأسلحتهم في الشوارع، وكانت ثكناتهم في أطراف

المدينة معروفة للرائح والغادي.. كنا ننوي البقاء هناك عدة أيام لنصور استعدادات الجيش لدخول العاصمة، وكان بين من قابلتهم هناك عبد العزيز بوتفليقة ولكنني لم أقم بتسجيل حديث معه عندئذ؛ لأن الساعات القليلة التي قضيناها في وجدة لم تتح لنا ذلك، والحق أنني أيضا لم أكن أعرف موقعه تماما في قيادة الأركان.. وبالرغم من أن أكثر من ٣٥ سنة كانت قد مرت عندما قابلته بعد انتخابه رئيسا للجمهورية، فقد تذكر أنه التقى في وجدة وفدا من التلفزيون المصري وإن لم يتذكر تماما وجوه أو أسماء من التقاهم..

كنا نعلم أن بومدين قد جهز قواته لتزحف إلى العاصمة بحيث تحسم الموقف لصالح بن بلة وفريقه، ولكن بن بلة فاجأنا بقرار الزحف بحيث تصل القوات إلى الجزائر يوم ٢٢ يوليو، وهكذا سارعنا إلى استباق وصولها هناك حتى نكون في استقبال بن بلة عند دخوله المدينة، ولكننا لم نستطع الحصول على سيارة لتنقلني إلى هناك مع المصور فاروق صالح وفني الصوت محمد البلتاجي ومعنا كاميرا «الأوريكون»؛ وهي آلة ثقيلة تصور بالصوت والصورة، يبلغ وزن معداتها نحو ٨٠ كيلو جراما.. لم يكن أمامنا في النهاية إلَّا أن نركب سيارة لوري محملة بالبطيخ، فأفسحنا مكانا وسط البطيخ للكاميرا، وجلسنا نحن فوقه، وكانت الرحلة ممتعة خاصة عندما دخل الليل ولفحت وجوهنا ريح خفيفة منعشة.. قطعت السيارة الطريق الذي يبلغ طوله نحو ٥٠٠ كيلو متر في نحو ٩ ساعات توقفنا خلالها في تلمسان ثم مستغانم وبعدها شرشال، ثم وصلنا العاصمة في الفجر..

وما إن اقتربنا من هناك حتى بدأنا نسمع نفير السيارات يدوي بنغمة واحدة تماشي الهتاف: «بن بلة، بن بلة»، وكان زحام السيارات يشتد كلما اقتربنا من وسط المدينة حتى توقفت بنا سيارتنا تماما.. على الرغم من أن الشمس لم تكن قد أشرقت بعد فقد خرجت العاصمة كلها لاستقبال بن بلة، وافترش القادمون من الضواحي أرصفة الطرق للاحتفال بانتصار الثورة التي استمر كفاحها المسلح أكثر من سبع سنوات، وحفز الخلاف الذي كان قائما بين بن بلة وبن خدة رئيس الحكومة المؤقتة على تشكيل مظاهرات ضخمة لم تنقطع ليلا أو نهارا.. وقد أربكت هذه المظاهرات المستوطنين الفرنسيين الذين كانوا لا يزالون مقيمين في الجزائر؛ فأصاب الهلع

كثيرين منهم وأخذوا في الفرار خشية انتقام الجزائريين، وكثيرا ما كنا نرى بيوت البعض منهم وأبوابها لا تزال مفتوحة، وسيارات آخرين تعرض في الطرق للبيع بأبخس الأثمان، وكانت هناك بالطبع بعض عمليات نهب وسلب لم يكن هناك منها بد.. ولكن كثيرين من المستوطنين كانوا قد غادروا من قبل بعد أن هرَّبوا أموالهم إلى فرنسا؛ اعتقادا منهم أن ذلك سيضرب الاقتصاد الجزائري في مقتل..

عندما دخل بن بلة العاصمة مع بعض وحدات الجيش قابله الناس بتكبير وهتاف لم ينقطع ساعات، وتوقف موكبه عدة مرات، وعجزت الشرطة عن إيقاف اندفاع الجماهير، واستمر نفير السيارات يصدح بنغمة: «بن بلة، بن بلة» التي لا تزال ترن في أذني حتى الآن.. وقد ذكرني هذا المشهد باستقبال بن بلة ورفاقه في مصر بعد خروجهم من السجن، وكان ذلك قبل نحو ثلاثة أشهر، عندما استقبلهم جمال عبد الناصر في مطار ألماظة واستقلوا معا سيارة مكشوفة انطلقت من مصر الجديدة إلى وسط القاهرة ثم عادت بهم إلى قصر القبة، وجماهير الشعب تحيط بهم من كل جانب في مظاهرة قيل في بعض وكالات الأنباء إنها واحدة من أكبر المظاهرات الشعبية حتى ذلك الحين..

صورنا الموكب بصعوبة ثم العرض العسكري الأول للجيش في عاصمة بلاده، وبقينا بعد ذلك يومين أجرينا خلالهما تسجيلات مع شخصيات مختلفة، وتجولنا بالكاميرا في أنحاء العاصمة حيث صورنا أول مشاهد يراها المصريون على شاشاتهم للبلد الذي تعلقوا بكفاحه وبشعبه..

وحتى الآن لا أزال أعتز بهذه المهمة في الجزائر شأنها شأن المهام الأخرى التي قمت فيها بتغطية الأحداث في الخارج، وأعتقد أنها أسست ـ أو أسهمت في تأسيس ـ أول صحافة تلفزيونية حقيقية في مصر، وأعجب أنها نالت من مؤرخي التلفزيون قدرا ضئيلا من الاهتمام، خاصة لو قورنت بصنوف الإنتاج التلفزيوني الأخرى، كالدراما والمنوعات وغيرها.. كذلك اهتم نقاد التلفزيون في الصحافة بعملي كمقدم برامج على نحو يفوق بمراحل اهتمامهم بما قمت به من تحقيقات وتغطيات صحفية كانت جديدة تماما على الشاشة المصرية..

* * *

زيارتي التالية إلى الجزائر تمت بعد ٢٤ عاما، وكانت في ظروف مختلفة تماما.. كنا وقتها في عام ١٩٨٦، وكنت قد استقلت من اليونسكو قبلها بأيام عندما اتصل بي محمد السنعوسي من الكويت وأبلغني أن صديقا له سيصل باريس في اليوم التالي، وأنه واحد من كبار رجال الأعمال الكويتيين، وأنه يريد أن يراني، وقال إن الصديق اسمه «جواد بوخمسين» ويلقبونه «أبو عماد»..

قابلت «أبو عماد» في فندق «برانس دي جال»، وكان الرجل بسيطا يندر أن تجد مثيلا له في صفائه.. قال: «منذ عدة شهور اتفقت مع عدد من الشركاء الكويتيين، بينهم السنعوسي، على إقامة شركة في الجزائر للإنتاج الصوتي والمرئي بالمشاركة مع الحكومة الجزائرية، وهي أول شركة هناك ذات رأسمال مختلط مع أجانب بل مع القطاع الخاص قاطبة، جزائريا كان أم أجنبيا.. وسددنا نصيبنا مليوني دولار بالإضافة إلى برامج ومواد إعلامية مختلفة، وهو ما يمثل ٤٩٪ من رأس المال، أما الحكومة الجزائرية فقد سددت ما يوازي مليوني دولار بالدينار الجزائري وقدمت إستوديو للإنتاج وقاعة عرض سينمائي كحصة عينية، إلا أن الشركة لم تتقدم خطوة واحدة حتى الآن لأن الشركاء في الجانب الكويتي الذين لهم دراية بهذا العمل لم يستطيعوا أن يوفروا لنا الوقت الكافي، كما أن هناك مشكلات لديهم في تجهيز حصتنا العينية.. وقد اقترح السنعوسي أن نعتمد عليك في وضع الأمور في نصابها، وسوف أسافر غدا إلى الجزائر لألتقي بالجانب الجزائري لأول مرة، ولعلك تذهب معي لتقدم لنا مشورتك»..

في اليوم التالي ذهبنا معا، وعلى الرغم من أن صلتي بأقطاب الجالية الجزائرية في فرنسا لم تنقطع خلال السنوات التي عشتها في باريس، فإنني فوجئت بأن الجزائر لم تعد تلك التي زرتها في الستينيات أيام بن بلة؛ فقد بدأ العقد يتناثر وزعامات الثورة تتطاحن والجيش يسيل لعابه للسلطة.. وكان الناس في تلك الأوقات بالذات (النصف الثاني من الثمانينيات) قد بدءوا يفقدون الثقة في مصداقية الحكم، وكانت عائدات البترول المتهاوية قد بدأت تختفي في جيوب المقربين من السلطة، وبدأ الشباب يكتشف ضياع الحلم ولا يجد الوظيفة ولا المسكن الذي وعدته به الثورة، والتوتر بين الجيش والإسلاميين قد بدأت أولى علاماته، وكانت تلك المشاهد تؤذن

بأن البلاد على وشك أن تنجر إلى هزات لا يمكن التنبؤ بمداها.. كان رئيس الدولة في ذلك الحين هو الشاذلي بن جديد..

لم تكن تلك هي أفضل الظروف المواتية لمستثمر أجنبي، ولكن الأصدقاء الكويتيين كانوا معروفين بالإقدام على المخاطرة، وهي ـ كما قيل لي ـ اختبار في الشطارة، وربما كان ميدان الإنتاج السمعي والبصري ميدانا خاليا من المنافسين في الجزائر التي ظلت لسنوات طويلة تخوض معركة التعريب وتحتاج في تلك المعركة إلى ذراع إعلامية قوية، وعلى هذا فقد أقاموا شركتهم «تيبازا للسمعيات والبصريات» Audiovisuel Tipaza، و«تيبازا» هو اسم بلدة لا تبعد كثيرا عن العاصمة على شاطئ البحر بها عدة آثار تعود إلى عهد الرومان..

أمضينا عدة أيام لوضع هيكل الشركة ومخطط لأنشطتها وميزانيتها، واتفقنا على أن يكون مجلس إدارتها مناصفة بين الجانبين الجزائري والكويتي على أن يرأسه الكولونيل حسين السنوسي؛ وهو ضابط جيش متقاعد كان يعمل في وزارة الثقافة رشحه الجزائريون لهذا المنصب.. وفي أول اجتماع للمجلس اختارني الجانبان لأكون عضوا منتدبا للشركة، لكنني أوضحت أنني لا أستطيع التفرغ لأني أنوي الاستقرار في القاهرة بعد أشهر معدودة، وهكذا اتفقنا على أن يقوم الكولونيل بمباشرة العمل التنفيذي على أن أتردد على الجزائر مرتين في الشهر..

وكانت قد قدمت إلى المجلس في اجتماعه عدة مقترحات من أطراف مختلفة ترتبط بكلا الجانبين إلَّا أنني لم أكن مطمئنا إلى نواياها، خاصة أنه كان قد شاع بين المحيطين بنا أن الكويتيين قادمون وأن جيوبهم منتفخة بالدولارات.. مع ذلك فقد ساندت واحدا بذاته من تلك المقترحات هو إبرام اتفاق مع وزارة التربية والتعليم لإنتاج مواد تساعدها في جهود التعريب كان قد شجعني عليه صديقي محمد الميلي الذي عين في ١٩٨٩ وزيرا للتعليم (ثم مديرا عاما للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في ١٩٩٣).. واقترحت من أجل دعم مركز الشركة المالي أن نحاول على الفور الحصول على ترخيص بتجميع أطباق استقبال الأقمار الصناعية؛ حيث كنت واثقا من اطلاعي على مجريات التطور التكنولوجي في أوروبا والتغيرات القادمة مع

عصر الفضاء الجديد أن هذه الأطباق ستقتحم الأسواق العربية سريعا، وكنت أعتقد أن هذا المشـروع إسهام مهم من جانبنا في انفتاح إعلامي جديد..

وكان هناك مشروع مربح آخر تحمست له عندما لفت نظري وأنا أتنقل بين الجزائر وباريس أن التلفزيون الفرنسي بدأ يذيع أغاني «الراي» الشعبية الذائعة الصيت في الجزائر، وأن أسهم نجم هذه الأغاني «الشاب خالد» آخذة في الصعود؛ لذلك اقترحت أن نبدأ التفاوض معه للحصول على حقوق إنتاج وتوزيع أغانيه، ولكنني سرعان ما سحبت الاقتراح عندما نبهني صديقي الدكتور محيى الدين عميمور وزير الإعلام في عهد بومدين إلى أن أغاني الراي خرجت في الأساس من بيوت الدعارة، وأن عبارة «إدي إدي» التي يتكرر ترديدها في هذه الأغاني تعبر عن تقديم المومسات إلى الزبائن..

لكن الأمور تعثرت لانقضاض بعض الدبابير على الشركة منذ مولدها؛ ولأن موقع مقر الشركة في منطقة «رياض الفتح» أغرى الجانبين أن يدخلوا في مشروعات أخرى قبل أن يتثبتوا من شراكتهم ومن الوفاء بالأهداف التي قامت من أجلها الشركة أولا.. رياض الفتح حدائق ممتدة على تلة تطل على البحر يتوسطها نصب الجندي المجهول إلى جانب بعض المنشآت الخاصة بوزارة الثقافة، وقد أغوى هذا الموقع المساهمين على إقامة فندق سياحي فاخر على مقربة من المقر، ولما كانت لجواد بو خمسين خبرة كبيرة في هذا المجال فقد دعا شركة «هوليداي إن» العالمية الكبرى التي كانت تدير عندئذ فندقه في الكويت للدخول في المشروع الجزائري..

تعثر المشروع بالرغم من الجهود الكبيرة التي بذلت فيه ومن الوقت والمال الضائعيْن، ولكن تعثر «تيبازا» ذاتها كان يرجع في الأساس إلى القيود المختلفة التي فرضتها السلطات الجزائرية والتعقيدات في النظم الإدارية في البلاد التي كان يبدو في بعض الأحيان أنها متعمدة، ويرجع أيضا إلى إخفاق الجانب الكويتي في توفير حصته العينية التي كانت تتمثل في سلسلة من برامج وأغاني الأطفال وبعض البرامج التعليمية بسبب الخلافات بين الشركاء الكويتيين، وأدى هذا إلى زعزعة الثقة بين الجانبين الجزائري والكويتي.. وكان لانهيار العملة الجزائرية أيضا أثر كبير على أنشطة الشركة، وهكذا عقدنا جمعية عمومية استثنائية للشركة في عام ١٩٨٩

وافقت بالإجماع على بيع الحصة النقدية للجانب الكويتي بقيمتها نفسها إلى الجانب الجزائري، وإعادة ما توفر من الحصة العينية إليه..

ومع ذلك لم ينفذ الجانب الجزائري تعهداته، وعندها لم يعد أمامنا سوى حل واحد هو تصفية الشركة والنجاة بما تبقى في حوزتها من أموال سائلة، لكننا اكتشفنا بعد تصفية حسابات الشركة أن ما تبقى في خزائنها لا يزيد على ١٣,٥ مليون دينار، أي نحو ٥٠٠ ألف دولار فقط بسعر السوق، يفترض أن تقسم بين الجانبين وفقا لنسب مساهمتهما..

في تلك الأثناء حلت كارثة كبرى بالكويتيين؛ إذ قام صدام بغزو بلادهم وتعذرت الاتصالات في البداية بالمساهمين في الشركة، ولكنني تابعت سير القضية وتضاعف شعوري بالمسئولية في غيابهم.. وفي إحدى المرات التي ذهبت فيها إلى الجزائر، وكنت قد غادرت باريس من مطار «أورلي»، سرقت حقيبة يدي في المطار بكل مافيها من أوراق ووثائق، ولكنني كنت لحسن الحظ قد أودعت نسخا منها لدى ممثلنا القانوني في الجزائر المحامي الشهير علي هارون.. وعندما قابلته كان في منتهى الضيق، وقال إن المحاكم قد تأخذ سنوات في نظر القضية خاصة وهي أول قضية من نوعها حول شركة مختلطة بين القطاعين الحكومي والخاص، فقمنا بدورة أخرى من الاتصالات بالمسئولين ولكنها لم تسفر عن شيء يذكر..

اتفقت مع جواد بوخمسين أن أترك الأمر لهم عندما ينقشع الغزو العراقي ليعالجه المحامون بعد أن انحصر النزاع بين جدران المحاكم، وهكذا كانت آخر زياراتي للجزائر في مطلع عام ١٩٩٣ وأنا حانق أشد الحنق على الحكومة الجزائرية، ولكنني حمَّلت المساهمين الكويتيين جانبا من المسئولية.. كانت الجزائر وقتها في قمة الاضطراب؛ إذ كانت الجبهة الإسلامية للإنقاذ قد فازت في انتخابات ١٩٩١ على حزب جبهة التحرير، وأجبر الجيش الرئيس الشاذلي بن جديد على الاستقالة عندما سلَّم بهذه النتيجة، وعُين بوضياف رئيسا للبلاد ولكنه سرعان ما تم اغتياله، ودخل النظام الجزائري في حرب مع الفصائل الموالية لجبهة الإنقاذ استمرت نحو عشر سنوات عرفت باسم «العشرية السوداء» قتل فيها ألوف المدنيين، ولم تضع هذه الحرب أوزارها سوى عندما وضع

الرئيس عبد العزيز بوتفليقة قانونا للمصالحة الوطنية للعفو عن الأشخاص الذين تورطوا في العنف، وفتح التحقيقات في اختفاء المخطوفين..

* * *

كان بوتفليقة قد انتخب رئيسا للجزائر في ١٩٩٩، وكنت وقتها أقدم برنامج «رئيس التحرير» في التلفزيون المصري فطلبت تسجيل حديث معه، وعندما وصلتنا الموافقة سافرت مع المخرج عبد الرحمن حجازي لتسجيل الحديث.. كان اللقاء في «قصر المرادية» الرئاسي الذي كنت أدخله للمرة الأولى، وقد راعني جمال هندسته الإسلامية.. استقبلني بوتفليقة بترحيب واضح، وتبادلنا حديثا قصيرا حاولت فيه أن أذكِّره بأيام وجدة، وفاتني وقتها أن أسأله إذا ما كان قد ولد في تلك المدينة، أي في المغرب، أم في تلمسان الجزائرية، ولكنني كنت أعرف أنه عاش في وجدة سنواته الأولى ودرس في مدارسها، وكنت أعرف أنه انضم إلى جيش التحرير الجزائري وهو في التاسعة عشرة من عمره.. تولى بوتفليقة منصب وزير الشباب والرياضة والسياحة عند الاستقلال ولم يكن عمره قد بلغ ٢٥ سنة، ثم أصبح وزيرا للخارجية لمدة ١١ سنة، وأظن أنه لا يزال حتى الآن يحتفظ بلقب أصغر وزير خارجية في العالم، وكان قبل انتخابه قد غاب عن الساحة نحو عشرين سنة قضى ستا منها في الإمارات..

بدا بوتفليقة يقظا منتعشا، وربما كان يومها في أفضل حالاته، وكنت أنا الآخر واثقا من استعدادي للقاء بدراستي للوضع في الجزائر دراسة جيدة، والمعلومات القيمة التي أمدني بها الكاتب الصحفي نصر القفاص الذي كان مستشارا إعلاميا بسفارتنا في الجزائر.. قلقت بعض الشيء عندما اعتذر لي بوتفليقة سلفا بأنه مرتبط بالتزامات هامة ولذلك لن يستطيع أن يبقى معي وقتا طويلا، لكننا عندما بدأنا التسجيل فوجئت به يسترسل ويتألق بلغة عربية جميلة وبسيطة، وكان ذهنه صافيا وذاكرته حاضرة ومزاجه رائقا.. كنت كمن عثر على كنز، فقد أجاب بوتفليقة عن أسئلتي باستفاضة وبصراحة.. تكلم عن الفجوة بين القيادة والشعب، عن المحسوبية والرشوة والنفاق التي سادت المجتمع، عن الصحافة المملة المملوكة للحكومة، عن الأحزاب التي لاتعدو أن تكون نوادي اجتماعية، وعن بن بللا وبومدين، وعن الوضع

الأمني والمعضلة الاقتصادية، وعن السوق السوداء في الأعضاء البشرية بين العراق والجزائر، والوزراء السابقين الذين بلغ عددهم ٧٠٠ في السنوات العشر السابقة..

وعندما سألته عن مصافحته لباراك أثناء مراسم تشييع جنازة ملك المغرب الحسن الثاني أفلت بإجابة ساخرة.. قال: «الرجل اندفع تجاهي، فهل أختبئ وراء شيراك أو كلينتون؟ لو كان هذا قد حدث لاستثمر عادل إمام المشهد ونسج منه مسرحية كوميدية أو فيلما مضحكا جدا»، واستخدم بوتفليقة سلاح السخرية بمهارة أيضا عندما تناول تشكيك البعض في رقم المليون شهيد.. كان هدفه واضحا من الحديث، أن يخاطب من خلاله جمهورين؛ الجمهور الجزائري الذي حرص على أن يوصل له الرسالة أنه يعي جيدا كيف فترت علاقته بالوطن حتى أصبحت تأشيرة الهجرة هي حلمه، وأنه عازم على تحقيق الوفاق في مجتمع ممزق بين الميني جيب والجلباب الأفغاني.. أما الرسالة التي بلَّغها للجمهور المصري فقد كانت هي الأخرى مباشرة: «ليس هناك أي لبس في ذهني، كنا في الجزائر وما نزال ناصريين.. مصر تعني لنا عبد الناصر الذي قال لنا: ارفع رأسك يا عربي»..

عندها انتهى الوقت المقرر للحلقة، ساعة ونصف الساعة.. وعندما قلت لبوتفليقة إن الحديث كان شائقا وموفقا للغاية وأنني وددت لو كانت المدة المتاحة لنا أطول، فوجئت به يقول: «ولم لا.. دعنا نستأنف، لقد كنت مستمتعا بأسئلتك أنا الآخر».. وهكذا بعد أن كنا قد تركنا القاعة وخلعنا المكروفونات والسماعات عدنا لتركيبها ثانية، وعاد عبد الرحمن حجازي لتجهيز الكاميرات والأضواء، وطلب بوتفليقة فنجانين من الشاي، ولكننا لم نكد نأخذ منهما رشفات حتى قال لي: «دعنا نستأنف قبل أن يفقد كلانا الخيط»، فجلسنا مرة أخرى للتسجيل حتى بلغت مدة الحديث ثلاث ساعات كاملة.. وكان الاتفاق أن يذاع الحديث في كل من تلفزيون القاهرة وتلفزيون الجزائر في وقت واحد، وأنهم سينتظرون مني رسالة بذلك..

كنا يوم الاثنين ٢ أغسطس، وكان مقررا قبل سفري أن يذاع البرنامج يوم الأربعاء.. في تلك الفترة كان البرنامج يبث على القناة الأولى مرة كل أسبوعين بالتبادل مع برنامج «لو بطلنا نحلم».. وهكذا بعد أن انتهينا من التسجيل اتصلت برئيس قطاع

الأخبار، وأبلغته أننا عائدون الثلاثاء ظهرا إلى القاهرة عن طريق باريس، وأبلغته أيضا أن حجازي أعد التنويه الخاص بهذه الحلقة قبل السفر وطلبت منه أن يذيعه على الفور.. ولكننا عندما وصلنا وجدنا أنه لم يبث فحاولنا تدارك الموقف دون جدوى، وقال رئيس الأخبار إنه لا يستطيع أن يملي أمرا على القناة الأولى، وإن القناة كعادتها مشغولة بالأحداث الساخنة على الرغم من أنها كانت في حقيقة الأمر غارقة فيما يسمى «ليالي التلفزيون في مارينا»، وحاول أن يلقي اللوم على المخرج في تحايل بيروقراطي مقرف، أما المسئولون عن القناة الأولى فلم يتوانوا عن كيل التهم لقطاع الأخبار.. تفرق دم البرنامج بين قبائل التلفزيون..

كنت قد قررت أن أذيع الحديث على حلقتين؛ أذيعت الأولى بالفعل يوم ٤ أغسطس، ولكن وزير الإعلام صفوت الشريف منع إذاعة الحلقة الثانية.. لم أصدق عندما بلغني الخبر فاتصلت به أؤكد له أنها لا تقل في أهميتها عن الحلقة الأولى، وأنها لا تحتوي على متفجرات تزعج السلطة في مصر، ولكنه كان مصمما وهو يردد: «كتير، كتير»، وعندها انفجرت: «إيه اللي فيها كتير يا صفوت بك؟ كنت أنتظر منك أن تشكرني»، باح بما في صدره: «ده سيادة الريس عمره ما طلع على تلفزيونه يتكلم ٣ ساعات».. على الرغم من أن هذه الحجة تتمشى تماما مع طريقة تفكير أهل الحكم، فإنني لم أكن متأكدا أن هذا هو السبب الحقيقي، وكنت أرجح أن السبب ربما يكون إعجاب بوتفليقة بعبد الناصر أو تألقه في الحديث ومنطقه المرتب إذا ما قارناه بمبارك، لكنني قلت لصفوت الشريف: إن الرئيس في كل الأحوال يستطيع أن يتكلم في تلفزيونه متى شاء وكلما شاء ولأي وقت يريد..

انتهزت الفرصة فقلت للوزير أيضا: إنه لا يوجد تلفزيون في العالم لديه انفراد الحديث مع رئيس دولة ومع ذلك يذيع الحديث دون تنويه، وشكوت من عدم انتظام مواعيد بث البرنامج على القناة الأولى دائما، ولم أكتفِ بطلب نقل البرنامج إلى أي قناة أخرى، ولكنني قلت إنني سأتوقف عن تقديمه إذا أصر التلفزيون على بقائه في القناة الأولى.. واحتجبت بالفعل عن الظهور خمسة أشهر بعد أن أبلغت رئاسة الجمهورية في الجزائر أنه بإمكانهم بث الحديث من التلفزيون الجزائري كاملا في الوقت الذي يحددونه، وكان للحديث هناك دوي غير منظور، وربما كان هذا ما دفع الرئيس بوتفليقة لأن يرسل لي خطاب شكر استثنائيا..

لم يكتفِ بوتفليقة بخطاب الشكر، فقد أرسل لي صندوقا من تمور «دجلة نور» الشهيرة بمناسبة أعياد رأس السنة، أظن أن وزنه كان يزيد على عشرة كيلوجرامات وزعت منه على الأقارب والأحباب، وظل هذا الصندوق يصلني كل عام مرفقا ببطاقة معايدة حتى يومنا هذا، سواء أثناء إقامتي في القاهرة أو عندما كنت أقيم في دبي..

* * *

في عام ٢٠٠٩، حدثت الأزمة الشهيرة بين مصر والجزائر بسبب مباراة كرة القدم التي أقيمت بينهما ضمن تصفيات إفريقيا للتأهل لبطولة كأس العالم.. كان قد مضى يومان على مباراة مصر والجزائر وأحداثها المؤسفة، عندما نظم لقاء لعدد من المثقفين في مقهى «ريش» لاستقبال نسيم لكحل رئيس تحرير الموقع الإلكتروني لجريدة «الشروق» الجزائرية وتوفيق بوقاعدة المذيع بالإذاعة، وكانا قد تلقيا تهديدات على الهواء من بعض قنوات التلفزيون المصرية، فظللنا ساهرين حتى استطاعا التخفي والخروج من المطار في الفجر سالمين.. وفي اليوم التالي وقعنا على بيان باسم مائتين من المثقفين العرب، قلنا فيه إن «ما يجري بين مصر والجزائر إلهاء للناس عن مشاكلهم الأصلية»..

بعدها كتبت «رسالة إلى الرئيس بوتفليقة» نشرت في عدد ٢٣ نوفمبر من «المصري اليوم» أطلب منه فيها أن يهديني قرارا للمصالحة بين البلدين بدلا من هدايا التمور.. من بين ما قلت:

«أودى بنا الإعلام الرياضى في مصر إلى كارثة نضح عطنها فى المنافسات الأخيرة مع الجزائر، تتحمل مسئوليتها بالدرجة الأولى دكاكين بعض البرامج الرياضية التى أصبحت كيانات شبه مستقلة داخل قنواتها، تعمل وفق أجندات خاصة لتحقيق مصالح مادية ومعنوية شخصية، وتجاري من أجل ذلك مشاعر العامة، تنفخ فيها المزيد من جرعات الإثارة والتهييج، وتستدعي الأغاني الوطنية المدفونة في الأرشيف عمدا لتسهم في تأجيج نيران التعصب.. في المقابل كان الإعلام الجزائري أكثر حدة وهوسا، خاصة بنشره أكاذيب عن قتلى جزائريين في القاهرة..

«المؤسف أنه كان من السهل إخماد الفتنة في مهدها في كلا البلدين اللذين يحكمهما نظام شمولي يسيطر على مفاصل الإعلام جميعا، إلَّا أن مصر والجزائر

وغيرهما من دول العرب تفرغت لمطاردة الإعلام السياسي من خلال وثيقة مأفونة لما سمي بالتنسيق الفضائي.. وفي مصر انشغل أنس الفقي وزير الإعلام بمعارك صغيرة لاحتكار بث المباريات، وبمهرجان بزرميط للإعلام العربي، وبتعقب قناة الحياة لأنها تذيع مواد إخبارية، وبإدارة يومية مباشرة لبرنامج واحد هو البيت بيتك، وبوضع أخطر مشروع قانون لإحكام الرقابة على جميع وسائل البث بما فيها الإنترنت، في حين كان يمكنه بإشارة من طرف الإصبع أن يوقف العبث بعلاقات عزيزة على شعبين وبمصير أمة.. ولعل قرينه الجزائري كان مشغولا عن الأهداف الأسمى بمشاغل مشابهة.. لا أحد في مصر أو في الجزائر اليوم يتذكر شيئا من عبق تاريخهما الناصع.. بلد المليون شهيد أصبحت ـ بالنسبة لنا ـ بلد المليون بلطجي وجميلة بوحيرد أصبحت غانية في سوق الدعارة، وفي الجزائر أصبح المصريون صهاينة وأعلامهم ديست بالأقدام..

«وسط هذا الجو الأغبر جرت موقعة الخرطوم التي ستترك في نفوس المصريين أثرا ربما لا يمحى لسنوات عندما وجدوا أبناءهم يجرون كالفئران في شوارع أم درمان، يختبئون في بيوت مضيفيهم السودانيين هربا من مشجعي الجزائر الذين ظلوا يطاردونهم طوال الليل لإرهابهم بالسلاح الأبيض..

«لا أفهم أنا ولا غيري لماذا اختار اتحاد الكرة المصري الخرطوم لهذه المباراة التي اصطلح على تسميتها بأم المباريات، ولا لماذا سكتت الحكومة على ذلك، ولكن مصر فشلت بامتياز في إدارة أزمة هذه المباراة كما فشلت في جميع الأزمات السابقة.. هذا ما شاهدناه في أزمة الخبز، وفي أزمة البنزين والبوتاجاز، وفي أزمة السحابة السوداء، وفي أزمة الدويقة، وفي أزمة الزبالة، وفي أزمة حوادث القطارات، وفي أزمة العبَّارة التي كانت تغرق تحت الماء في حين كنا غارقين في مباراة كرة..

«وعندما أخذت الفلول المصرية في الخرطوم تحتمي بقعر الأوتوبيسات، وتتخفى في الجحور، تعدو مذعورة في الشوارع والأزقة، وتستنجد تلفوناتها المحمولة بالمسئولين في العاصمة، أظن أنه تبين للكل أن المشكلة في القاهرة ذاتها؛ القاهرة التي مرغت كرامتها في التراب لأن مكانتها الإقليمية تردت نتيجة سياستها

التابعة لأمريكا، المتخاذلة أمام إسرائيل خاصة عند عدوانها على غزة.. ربما يكون هذا هو السبب في أن مصر وجدت نفسها وحيدة في أزمتها الأخيرة مع الجزائر.. لا أحد من دول العرب جميعا تدخل، حتى من تلك الدول التي سبق لمصر السعي للتوفيق بينها.. الأغرب هو السكوت المطبق للجامعة العربية في حين يتربع على قمتها أمين عام مصري، ونائب له جزائري..

«يشيع البعض أن التدخل عسير لأن هناك جفاء بين الرئيسين المصري والجزائري يصعب تجاوزه خاصة بعد أن تفاقم في الأيام الأخيرة، وبدأ في التصاعد مع سحب السفيرين للتشاور، ولا أحد يعرف إلى ماذا سيفضي، ولكنني لا أرى منفذا للخروج من المأزق إلا بلقاء بين الرئيسين.. غير ذلك من الإجراءات مهما كانت طبيعتها فلن تفضي إلى شيء البتة، بل ربما تزيد الأمور تعقيدا، ولن يتم هذا اللقاء إن تم، إلا بمبادرة من طرف ثالث ربما يكون الزعيم الليبي الذي سبق له أن اصطحب معه الرئيس بوتفليقة مؤخرا إلى القاهرة لتسوية أمور عالقة بينه وبين الرئيس مبارك..

«يا سيادة الرئيس بوتفليقة.. أعرف أن معظم الجزائريين يعتبرون أن مصر هي التي بدأت مناصبتهم العداء بحادث الأتوبيس الشهير المؤسف، وحتى لو كان ذلك صحيحا، فقد انتقم له الجمهور الجزائري شر انتقام في القاهرة ذاتها بتحطيم المطار، عدا الانتقام الأكثر همجية في الجزائر ذاتها بترويع المصريين المقيمين والاعتداء على مكتب مصر للطيران وإحراق مقار شركات مصرية ونهبها، ويزيد من فداحة الأمر فرض السلطات الجزائرية المفاجئ لضرائب وغرامات قدرها ٦٠٠ مليون دولار على شركة «أوراسكوم»، تأباها كل أعراف التعامل الاقتصادي وقوانين حماية الاستثمار الدولية والوطنية، ويضاعف من البلوى حملة الخرطوم الممنهجة التي لم يعد لديَّ شك في أن جهة ما قد دبرتها..

«أنا عاتب ـ يا سيادة الرئيس ـ لأن محصلة الأيام الكالحة الماضية هي سجل حافل من الخسائر المادية للمصريين دون خسائر تذكر للجزائريين، دعك عن خسارة المصريين لكرامتهم في الخرطوم، وأنت تعرف فداحة الكرامة الجريحة.. لذلك أنتظر منك ـ يا سيادة الرئيس ـ أن توقف مسلسل الانتقام وأن تتخذ قرار المصالحة

الذي أعرف مدى صعوبته في مواجهة جمهور غاضب، لكنك اتخذت من قبل قرارا أصعب بالمصالحة بين الجزائريين أنفسهم.. أهدني هذا القرار بدلا من هدايا التمور التي تفضلت بها عليَّ عاما بعد آخر في مثل هذا الوقت تماما ونحن مقبلون على أعياد.. عيدنا الكبير حقا هو عودة القلوب إلى الصفاء، ولعله يوما سيأتي».

في بداية ٢٠١٠، كنت في زيارة شقيقتي في مدريد عندما زار بوتفليقة إسبانيا.. وعندما أخبره السفير الجزائري بأنني هناك، اتصل بي واحد من مساعديه يقول إن جدول مواعيد الرئيس ـ الذي لن تستمر زيارته أكثر من يومين ـ مشحون تماما ولكنه يأمل أن تتاح الفرصة للقاء سريع، ثم عاد واتصل ثانية ليعتذر، وأضاف أن الرئيس لم ينسَ رسالتك له، وأنه مهما كانت الجراح على هذا الجانب أو ذاك فسوف تندمل دون حاجة لوساطة من أطراف ثالثة..

الآن لم أعد آمل في لقاء جديد معه.. كل ما آمله أن يشفى من المرض الذي أنهكه، وأزعج المحبين له، بل وأقلق الكثيرين في الجزائر، وأشفق في الوقت ذاته عليه إذا ما كان صحيحا ما تم تداوله من أخبار أنه مرشح لفترة رئاسية رابعة..

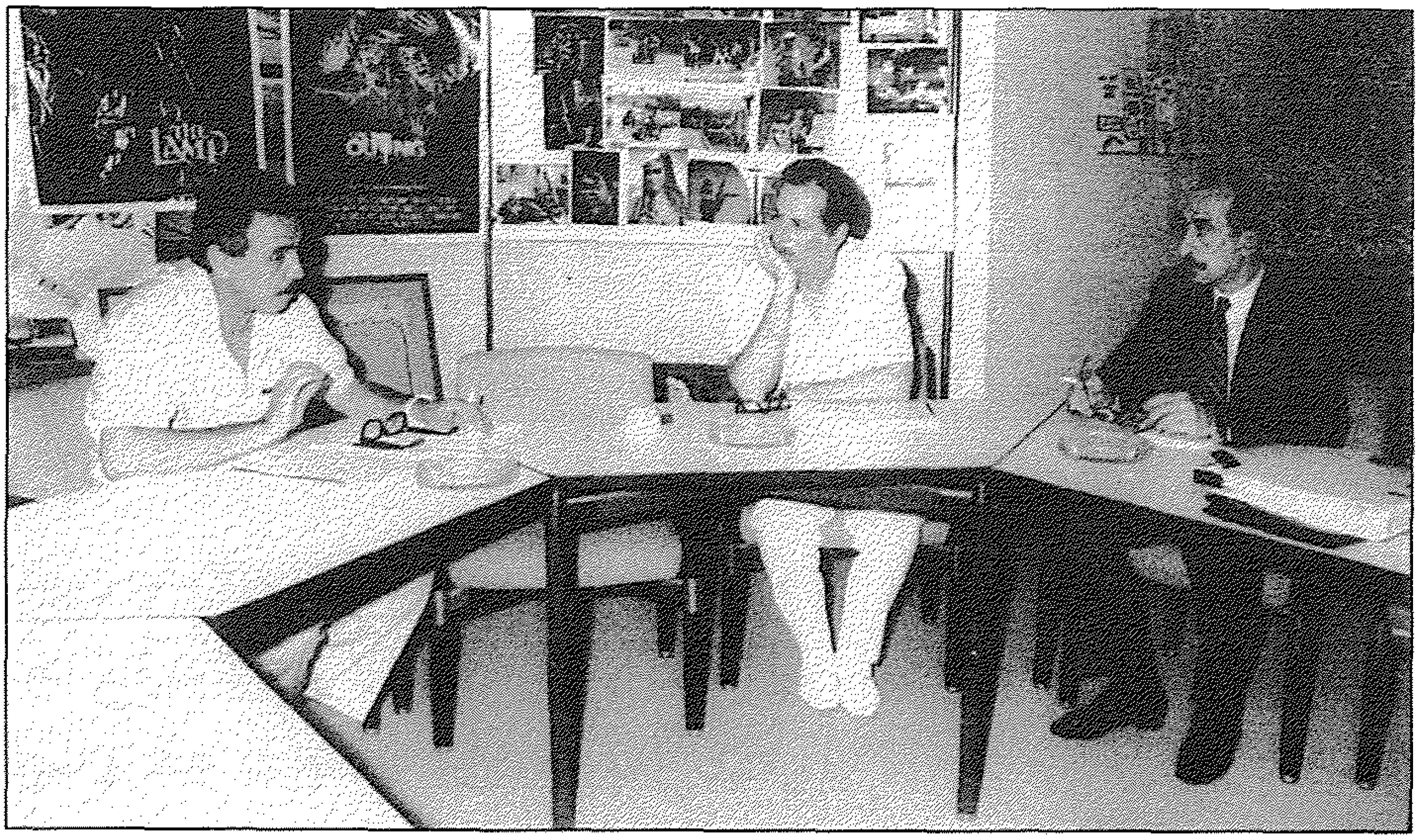

الكولونيل حسين السنوسي في الوسط، وإلى اليسار محمد السنعوسي (الجزائر: ١٩٨٧).

(٩)

حرب الريالات الفضية

١٩٦٢ - ١٩٦٣

◆ ◆ ◆

مفتاح الإذاعة في جيب الإمام

◆ ◆ ◆

خصص لي المشير السلال سيارة الإمام، ونبهني أن الحصول على البنزين لا يتم إلَّا بتوقيع منه.. وكنت أعير السيارة للسادات عند وصوله وأتسلمها بعد سفره.

في صباح يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢، أذيع نبأ قيام انقلاب في اليمن «السعيد» بقيادة الزعيم (العقيد) عبد الله السلال ومقتل الإمام محمد البدر خلال قصف قصر البشائر (قصر الحكم) في صنعاء وقيام نظام جمهوري في البلاد.. ولم يكن النبأ مفاجئا تماما؛ إذ كانت إذاعة «صوت العرب» قد هيأت الأذهان لقيام الثورة، ودعت قبل أشهر الشعب اليمني للانتفاض ضد الإمام أحمد حميد الدين.. وقبل الثورة بأسبوع واحد فقط، كان قد أعلن في اليمن عن وفاة الإمام أحمد الذي حكم البلاد لنحو ثلاثين سنة، ولم يعرف أحد على وجه الدقة كيف مات، بل إن الكثيرين شككوا في أنه مات قبل إعلان وفاته بيوم واحد كما زعم ابنه الإمام البدر، والأرجح أن ذلك كان قد حدث قبل ذلك بفترة، وأن الإمام البدر الذي كان وليا للعهد عندئذ أرجأ إذاعة الخبر حتى يتمكن من ترسيخ سلطته أولا..

وفي السنة الأخيرة من حياته، كان الإمام أحمد قد تعرض لعدة محاولات لاغتياله يقال إنها بلغت ست أو سبع محاولات، من المؤكد أن واحدة منها وقعت في مارس ١٩٦١ عندما كان يزور مستشفى الحديدة، فإذا بثلاثة من ضباط الجيش يطلقون عليه الرصاص حتى وقع على الأرض مضرجا بدمائه فظنوا أنه مات بالفعل، وأن نظام الإمامة الظلامي الآتي من العصور الوسطى قد انتهى..

طلب مني الدكتور حاتم أن أستعد للسفر في أول طائرة عسكرية ممكنة لتغطية أنباء الثورة، وفهمت منه أن مصر قررت إرسال وحدات عسكرية محدودة لمساندة الثوار، وأنه من المحتمل أن الطائرة التي ستحمل أول قوة سوف تغادر القاهرة يوم ٢٩.. وطلب الدكتور حاتم أن ألتقي قبل السفر بالمجاهد اليمني الدكتور عبد الرحمن البيضاني الذي كان يقيم عندئذ في القاهرة، ولم أكن قد التقيت بالبيضاني من قبل، وإن كنت أعرف عددا من الضباط اليمنيين الثوار مثل المقدم عبد الله جزيلان والطيار عبد الرحيم عبد الله، وكلاهما درس دراسته الثانوية في حلوان، وبعض

السياسيين الذين كانوا قد لجأوا إلى مصر مثل محسن العيني.. كان العيني قد تخرج قبلها ببضع سنوات من حقوق القاهرة، وكان يمثل اتحاد عمال اليمن الجنوبي في الاتحاد الدولي للعمال العرب، ثم عين وزيرا للخارجية عند قيام الثورة..

وكان الدكتور البيضاني يقدم بعض التعليقات المناهضة للإمام أحمد في «صوت العرب» ويكتب أيضا في «روز اليوسف»، وفي الأسبوع السابق على الثورة وجه نداءات يومية بالغة الحدة ندد فيها بالإمام والإمامة ودعا الشعب للانتفاض ضد الحكم، وكان غيره من السياسيين اليمنيين المعارضين، مثل أحمد محمد نعمان وغيره، يتحدثون إلى شعبهم من «صوت العرب» أيضا، إلا أن الدكتور «حاتم» أوحى لي ضمنا وإن لم يقل ذلك صراحة أن البيضاني هو رجل مصر في اليمن.. وكنت أعرف أنه من أب يمني وأم مصرية وأنه يحمل كلا من الجنسيتين المصرية واليمنية، أما ما راج من شائعات أن البيضاني متزوج من شقيقة السيدة جيهان حرم أنور السادات فهو بعيد عن الصحة..

ذهبت إلى الدكتور البيضاني بعد أن حدثني الدكتور حاتم بساعات، وكان يسكن في شقة بإحدى العمارات المطلة على النيل بشارع عبد العزيز آل سعود في المنيل.. كنا في المساء والصيف في أواخره، فجلسنا في الشرفة نتحدث عن كل ما يمكن أن يعن للبال عن اليمن، ولم أكن قد زرتها من قبل، ولم يكن الإمام أحمد قد سمح لصحفي بزيارتها حتى يناير ١٩٥٧ عندما دعا مجموعة من الصحفيين البريطانيين والأمريكيين، وبعدها عادت اليمن فأغلقت أبوابها مرة أخرى..

وبالرغم من أن اليمن كان عضوا في «اتحاد الدول العربية» الذي ضمها مع الجمهورية العربية المتحدة فإن قليلين في مصر، بل في العالم كله، كانوا يعلمون شيئا عن ذلك البلد.. وقد التحق اليمن بالاتحاد بعد شهر واحد من قيام الوحدة بين مصر وسوريا، أي في مارس ١٩٥٨، وكانت هذه خطوة جريئة من الإمام أحمد، إلا أنها لم تكن مثيرة للدهشة، فقد كان مناوئا للعدوين الرئيسيين لمصر في الجزيرة العربية عندئذ: الإنجليز الذين كانوا يحتلون الجنوب اليمني بما في ذلك عدن، والسعوديين الذين كانت له مشاكل معهم حول الحدود، وكان يغار من ثروتهم ويعتقد أن الغرب يحول بينه وبين استغلال ثروة اليمن البترولية حتى يظل متخلفا عنهم..

بعد انضمام اليمن إلى «اتحاد الدول العربية» فتح أبوابه على استحياء للمصريين الذين ذهبوا إلى هناك للعمل في تدريب القوات المسلحة والتدريس والصحة وغيرها.. وكان ولي العهد البدر هو الذي تزعم الاتجاه للتقارب مع مصر، ولم يصبر الإمام أحمد على ذلك كثيرا، فقد بدأ يضيق بالوجود المصري المتواضع، خاصة عندما اكتشفت عندئذ حركة من الضباط اليمنيين المعارضين للحكم، على نسق حركة الضباط الأحرار في مصر، فبدأت معارك الإذاعة بين البلدين عندما أذاع راديو صنعاء في بداية سبتمبر ١٩٦١ هجوما شديدا على عبد الناصر في قالب قصيدة شعرية من ٦٤ بيتا من تأليف الإمام نفسه، ولم تمضِ أسابيع حتى كال عبد الناصر للإمام الصاع صاعين في خطبة الاحتفال بعيد النصر، وقام بعد أيام بحل «اتحاد الدول العربية»..

وقد هزت هذه الخطبة النظام الإمامي، خاصة أن «صوت العرب» فتح نيرانه على الإمام طوال العام التالي حتى قامت الثورة.. وكان لهذه المحطة تأثير ضخم في اليمن ربما فاق تأثيرها في دول أخرى، فقد كانت تضرب على الأوتار الحساسة وتتجاوب مع المشاعر الشعبية الهائجة، وساعد على انتشارها هناك رواج أجهزة الترانزستور التي كان اليمنيون يجلبونها بأعداد هائلة من عدن؛ حيث لم تكن تفرض عليها رسوم جمركية.. وقد جعل الترانزستور من أحمد سعيد مدير صوت العرب ومعلقها الأشهر بطلا أسطوريا في عيون العديد من اليمنيين، حتى إن صورته كانت تطبع على أغلفة كراسات المدارس بعد الثورة.. وفي المقابل كانت الإذاعة اليمنية على قدر كبير من الضعف والتخلف والجمود، وكان الإمام يخشى تطويرها خوفا من أن تقع في يد الضباط المناوئين له..

كان الإمام أحمد يحتفظ بمفتاح الإذاعة في خزينته الخاصة، وكان المهندس المختص يأخذ منه مفتاحها كل يوم ليفتتح الإرسال ثم يعيد المفتاح إليه بعد ذلك، وكانت مواعيد الإرسال تعتمد على مزاج الإمام وعلى ارتباطاته ومواعيده.. وقد ظللت زمنا طويلا استخدم هذه الحكاية للتدليل على مدى قهر السلطة للإعلام، واتهمت الحكومات العربية جميعا بأنها تحتفظ بمفاتيح الإذاعة في جيوبها، إلَّا أن الإمام البدر سلم المفتاح إلى المسئولين عن الإذاعة بعد أيام من توليه الحكم، وعلى أي حال، فعندما قامت الثورة استطاع الثوار أن يستولوا على الإذاعة بسهولة، وكما

جرت العادة في انقلابات دول الجنوب فقد تم ذلك في وقت واحد مع الاستيلاء على قصر الحكم والمطار وإدارة البرق والهاتف..

كان عبد الله جزيلان مدير الكلية الحربية ومدرسة الأسلحة هو الذي خطط للهجوم على قصر البشائر، وزود بعض الفصائل التي شاركت في الثورة في صنعاء بالسلاح.. وكان المتوقع من الإمام البدر أن يسلم إذا ما حاصرت القوات القصر، لكنه أمر الحرس بإطلاق النار على المهاجمين، وأوفد قائد الحرس الزعيم عبد الله السلال للتفاوض مع الثوار، فأعلن انضمامه لهم ونصَّبوه قائدا عاما للقوات المسلحة باعتباره صاحب أكبر رتبة عسكرية (هكذا يمكن اعتباره نجيب الثورة اليمنية إذا ما قارنا الوضع بالثورة في مصر).. وفي حين أعلنت الإذاعة مقتل البدر في الهجوم، كان قد تسلل عبر سرداب تحت القصر في ملابس أحد الحراس، وهرب في اتجاه السعودية..

استولت «حركة الضباط الشبان» على حامية قصر البشائر وعلى صنعاء على الفور، ولم تستخدم في ذلك سوى ١٣ دبابة و٦ مدرعات وبضعة مدافع منها اثنان مضادان للطائرات، وكذلك سيطرت في الوقت نفسه على حامية كل من تعز والحديدة، واستقبلت الثورة بحماس بالغ من جمهور اليمنيين في هذه المناطق، وساندها كثير من شيوخ القبائل من أول لحظة، إلَّا أن رجال الثورة كانوا يخشون من تدخل بريطانيا من الجنوب والسعودية من الشمال فاستنجدوا بعبد الناصر، الذي كان يفضل وقتها انتظار موت الإمام أحمد ليحاول فتح صفحة جديدة مع ابنه الإمام البدر.. وكانت كل من السفارة المصرية والبعثة العسكرية المصرية في اليمن على صلة وثيقة بالضباط الشبان، وعلى دراية بالتحضير للثورة ثم بتوقيت إعلانها، ومع ذلك فعندما قامت الثورة أرسل السلال إلى القاهرة برقية نصها: «تسلم فورا إلى قائد العروبة سيادة الرئيس جمال عبد الناصر.. نبلغكم بقيام الجيش بإعلان الثورة والإطاحة بحكم آل حميد الدين»، نشرت في «الأهرام» يوم ٢٨ سبتمبر..

كنت لا أزال في القاهرة عندئذ، ولم أستطع اللحاق بالطائرة الأولى التي طارت إلى اليمن يوم ٢٩، وكان عليها البيضاني الذي كان قد أعلن تعيينه نائبا لرئيس الوزراء، كما كان عليها أيضا العميد علي عبد الخبير مدير مكتب المشير عامر والنقيب محمد

عبد السلام محجوب (المحافظ والوزير فيما بعد) الذي كلف بمسئولية الشفرة في رئاسة الجمهورية، بالإضافة إلى عدد آخر من ضباط المظلات والصاعقة وبعض الأسلحة.. كان التصور وقتها أن المهمة في اليمن لن تحتاج سوى لقوات رمزية تنتهي من عملها في فترة قصيرة.. وكان فريق التصوير المسافر معي لا يزال تحت التجهيز، وقد تشكل في النهاية من المصور محمد رجب الذي يعمل على آلة تصوير سينمائي ١٦ ملم خفيفة «بل آند هاول»؛ وهي آلة تصوير دون صوت تستخدم عادة لتغطية الأخبار القصيرة، ولم يكن التصوير بالفيديو قد استخدم بعد، وكان هناك أيضا فريق تصوير «الأوريكون» التي تصور بالصوت والصورة بأفراده الثلاثة: المصور فاروق صالح ومسجل الصوت محمد البلتاجي وعامل معاون.. كان فريقا رائعا..

سافرنا بطائرة أول أكتوبر.. كنا مع عدد من كبار ضباط الجيش الذين ذهبوا في البداية لتقدير الموقف، ورسم الخطط اللازمة قبل أن تبدأ قوات الصاعقة وغيرها سفرها في اليوم التالي إلى كل من صنعاء وتعز.. كانت طائرتنا متجهة إلى صنعاء، وكان مهبط الطائرات في المطار مجرد طريق ممهد بالكاد، ولا أعتقد أنه كان مرصوفا بالأسفلت، وكان يجاوره كشك صغير لا بد أنه برج المراقبة..

اتجهنا من المطار مباشرة إلى دار الضيافة فوصلنا إليها بعد الغروب مع بدء حظر التجول.. لم أشاهد شيئا في الطريق، لكنني أحسست ألما في أذني لم أعرف سببه إلّا عندما أخبرنا المرافق اليمني أن صنعاء قائمة على جبل ارتفاعه أكثر من ألفي متر.. دار الضيافة مبنى متواضع يتكون من طابقين، في داخله حوش تطل عليه الغرف من جوانبه الأربعة، وكان يضاء ساعات قليلة غير محددة كل يوم، أما في بقية الوقت فعلينا أن نستخدم الشموع.. وكانت هناك أيضا بئر في حوش الدار أنقذتنا عدة مرات عندما انقطعت المياه.. وكان في المبنى عدد غير قليل من المصريين يعمل معظمهم مدرسين في المدارس اليمنية، وقد استقبلونا استقبالا بالغ الحفاوة، وبقينا في صحبتهم طوال الأشهر الثلاثة التي قضيناها في اليمن..

أقام معنا في المبنى أيضا مهندسان سوريان وخبير زراعة عراقي، ثم جاءت مصورة إنجليزية كانت هي السيدة الوحيدة في المكان.. وبعد أسابيع جاء ثلاثة من الوافدين

الجدد أقاموا في غرفة واحدة.. ثلاثتهم كانوا صحفيين؛ اثنان من يوغوسلافيا والثالث روسي.. لم نعجب من الشجار الذي كان يدب بينهم كل مساء، حتى اختفى ثلاثتهم في اليوم الرابع.. فهمنا وقتها أن السلال أمر بالفصل بينهم، ونقلهم إلى بيت ضيافة آخر، أما البيت المجاور لنا فكان يقيم فيه عدد من الأطباء الإيطاليين، ظلوا مقيمين فيه فترة طويلة..

كان تدبير أمور معيشتنا وترتيبات عملنا أمرا صعبا وخاصة ما يتعلق بوسائل النقل، ولم يكن بمستطاع السفارة أو الجيش أن يعاونونا في ذلك، وقد نصحني محمد عبد الواحد؛ المسئول الوحيد في السفارة في ذلك الوقت، أن أتوجه إلى «الزعيم» السلال شخصيا، ولم تكن هناك صعوبة في تحديد لقاء معه في اليوم التالي.. وعندما ذهبت وجدت في غرفة مدير مكتبه دبلوماسيا سوفيتيا شابا كان يتكلم العربية في انتظار لقاء السلال، ليحصل على إذن بتخصيص أحد بيوت عائلة حميد الدين مقرا للسفارة السوفيتية التي كان عليها أن تنتقل، شأنها شأن السفارات الأخرى، من تعز إلى صنعاء، وقد حصلوا بالفعل على دار سيف الإسلام القاسم شقيق الإمام أحمد..

دخلت على السلال فوجدته جالسا إلى جوار المكتب وهو يضع رجلا فوق أخرى وعلى ركبته أوراق عديدة يقوم بتوقيعها، وقد لاحظت يومها أن سرواله اتسخ بحبر القلم الذي كان يوقع به، وأنه يضع رشاشا من طراز «تومي» على مائدة صغيرة مقابل كرسيه.. وبينما ذهبت إليه أنا وفي نيتي أن أطلب منه تخصيص سيارة حكومية للتنقل، بادرني هو فطلب مني أن أعمل إلى جانبه في القصر ساعات محدودة كل يوم لأعاون في صياغة البيانات والخطب الرسمية.. اندهشت لهذا الطلب إذ لم نكن قد التقينا من قبل، وقدرت أنه ربما يكون قد علم أنني كنت أحرر نشرات الأخبار في التلفزيون المصري من قبل، ولكنني اعتذرت عن القيام بعمل منتظم، واتفقنا في النهاية على أنني سألبي طلبه كلما دعت الحاجة.. ولحسن حظي فإن الحاجة لم تدعُ إلى ذلك سوى مرة واحدة، عندما طلب مني كتابة برقية إلى والي تعز بعد زيارة لها في ٢ نوفمبر استقبل خلالها استقبالا حارا وهو يطوف بموكبه في سيارة «جيب»، والجماهير تتدافع إليه من كل جانب، والنساء يطلقن الزغاريد من النوافذ..

قال السلال إنه للأسف لا توجد سيارة يمكن الاستغناء عنها لدى الحكومة، وإن أسرع حل أمامه أن يخصص لي سيارة الإمام البدر.. عندما لاحظ ترددي قال: «هذا هو الحل الوحيد لديَّ الآن»، وهكذا لم يكن أمامي سوى القبول شاكرا.. وقد نبهني يومها إلى أنه لا يمكننا الحصول على بنزين للسيارة إلا بتوقيعه شخصيا، لكن تلك لم تكن أسوأ مفاجأة.. المفاجأة الأسوأ كانت عندما تسلمت السيارة، وكانت سيارة أمريكية فارهة من أحدث طراز في شركة «شفروليه» على ما أذكر، وكانت لافتة للنظر إلى حد بعيد؛ لذلك كنت أحاول تفادي ركوبها كلما استطعت.. عندما حضر أنور السادات إلى اليمن لتوقيع اتفاقية التعاون العسكري بين البلدين، سلمت السيارة لمكتبه؛ إذ لا يليق أن يتحرك مسئول مصري في مكانته بسيارة متواضعة في حين أركب أنا الشفروليه، واستلمتها عند سفره..

حضرت إحدى جلسات السادات خلال هذه الزيارة، وكان يجلس مع بعض شيوخ القبائل اليمنية، ويبدو أن الحديث كان يدور قبل دخولي عن تدخل الإنجليز في حرب اليمن وعن ذكريات السادات عندما كان يشارك في المقاومة ضد القوات البريطانية في القناة أثناء احتلالها لمصر.. أذكر أنه قال: «أنا بإيدي خلصت على أذنابهم في مصر، وكمان دوختهم في معسكراتهم في القناة.. كل يوم آجي لهم من حتة.. دوخيني يا لمونة كده» (ربما كان يقصد اتهامه بالاشتراك في مقتل الوزير الوفدي أمين باشا عثمان رئيس جمعية الصداقة المصرية البريطانية في عام ١٩٤٦).. وكان يستخدم يده كما لو كان يعصر بها شيئا.. التفت إلى الشيوخ فلمحت في عيونهم نظرة دهشة؛ ربما لأنهم لم يستوعبوا تماما ذلك التعبير الغريب على آذانهم، ويبدو أن السادات انتبه إلى ذلك فاعتدل في كرسيه، وقال: «يعني إنجليز دخلوا الحرب، الجن الأزرق دخل الحرب، أنا باقول لكم، أنا مش سايب كرسيّه ده إلا لو طلعوا الإنجليز من عدن.. يعني مابنخافشي من الإنجليز، ولا إنتو حتخافوا من الإنجليز ولا من الجن الأزرق».. عندئذ هلل واحد من الشيوخ، ورفع رشاشه بيده، فأخذ السادات يكرر: «يعني اطمنوا.. اطمنوا تمام»، ووقف يسلم عليهم، ثم سألني عما إذا كانت أموري على مايرام، وسألته عن برنامجه في اليوم التالي بخلاف المؤتمر الشعبي الذي سيلقي فيه خطابا في «ساحة ثكنات الجيش»، لكنه قطب جبينه، ووضع ساقا على ساق، ثم

قال بلهجته الخطابية: «يا حمدي أنت عين العالم الوحيدة على ما يحدث في اليمن.. الدنيا كلها تشاهد الأحداث هنا من خلال عدسة التلفزيون المصري، فاحرصوا جيدا على أن يعرف العالم أن كل قوى الرجعية والاستعمار تكاتفت ضدنا».. كنت معجبا إلى حد كبير بالسادات، بشخصيته وبنضاله الوطني قبل الثورة..

صاحبت القوات المصرية في مواقعها المختلفة، وسجلت أحاديث سريعة مع الضباط والجنود لتذاع من التلفزيون في رسالة يومية، كانت الوسيلة السريعة لطمأنة العائلات في مصر على أبنائها الذين يقاتلون في اليمن، وكنا ننقل رسائلنا إلى القاهرة بالطائرة، ولم تكن الخطوط المدنية للنقل متيسرة إلَّا في أحيان نادرة؛ لذلك كان اعتمادنا على طائرات النقل العسكرية التي لم تكن منتظمة بطبيعتها، لكن الطيارين كانوا كثيرا ما يساعدوننا ويتصلون بأنفسهم عند وصولهم إلى القاهرة بمسئول مختص في التلفزيون بهذه المهمة، بل ويحملون الرسالة بأنفسهم في بعض الأحيان إلى ماسبيرو..

وعلى الرغم من أنني سجلت في اليمن أكثر من مائة رسالة تلفزيونية أثناء إقامتي هناك، ومنها تسجيل للمؤتمر الشعبي الذي حضره السادات وكذلك السلال والبيضاني، فإنني عندما احتجت إحداها لأبثها من خلال برنامجي «رئيس التحرير» في عام ١٩٩٩ (أي بعد نحو ٣٥ سنة) لم أجد أيا من هذه الرسائل في أرشيف التلفزيون، وهو أمر ليس بغريب؛ إذ إن معظم تراث تلفزيون الستينيات إما أنه تم بيعه خلسة لقنوات أخرى، وإما أنه فقد أو تلف بسبب الإهمال المعتاد..

بعد عدة أيام من وصولي إلى صنعاء، قمت بأول جولة لي في المدينة.. كنت أريد شراء راديو ترانزستور أتتبع به الأخبار، فذهبت إلى «سوق الملح»، وهو عبارة عن أسواق متداخلة ترددت فيها على عدة محال، ففهمت أنهم يسمون الترانزستور «راديو صوت العرب».. سألت أحدهم: «هل يمكن للراديو التقاط BBC أيضا؟» فقال: «هذه محطة دعاية».. اشتريت الراديو على كل حال، وكان يلتقط BBC ، وقمت بجولة في المدينة القديمة التي يرجع تاريخها إلى أكثر من ألف سنة، وكان ما أدهشني هو تلك البيوت التقليدية متعددة الطوابق ذات الألوان الزاهية والنوافذ المزركشة..

بعد أن سجلت رسائلي الأولى مع وحدات الصاعقة، بدأت أجري أيضا أحاديثَ مع شخصيات يمنية، لعل أطرفها كان الحديث مع «محمد حلمي» العراف الخاص بالإمام الذي كان يلقب بالفلكي، وكان الإمام لا يقدم على قرار أو يتحرك إلى مكان قبل أن يدله ماذا تقول النجوم في ذلك.. يومها قال لي إن حسابات الفلك كانت قد أكدت له أن ثورة ستقوم في اليمن، ولكنه خشي أن يبلغ الإمام أحمد حتى لا يأمر بحبسه أو إيذائه.. وقد صدر حكم بإعدام حلمي بعد الثورة بتهمة الفساد، وسجن في تعز انتظارا لتنفيذ الحكم، وأفرج عنه قبل تنفيذه..

تغطية أخبار القتال كانت أكثر إرهاقا بالطبع، وكانت هذه أول مرة يوفد فيها التلفزيون «مراسلا عسكريا» إلى منطقة قتال، ولم أكن قد التحقت بأي دورة تدريبية تؤهلني لهذا العمل داخل مصر أو خارجها، بل ولم تكن لديَّ أي دراية بالجيش وأسلحته، وهكذا كان اعتمادي على خلفيتي الصحفية وحدها.. وعندما تحركت مع الوحدات المقاتلة خارج صنعاء كان القتال لا يزال حاميا بين الملكيين والجمهوريين، وتوسعت ساحة المعركة في أنحاء متفرقة في اليمن، وكان السعوديون لا يكفون عن التدخل بالمال والسلاح، ولكن البعض أخذ على القيادة العسكرية المصرية والسفارة المصرية هناك أنهما أيضا قاما بتوزيع أموال على رجال القبائل لشراء ولائهم.. يقول الدكتور البيضاني في كتابه «أزمة الأمة العربية وثورة اليمن» إن «بعض شيوخ القبائل كانوا يدفعون أصحابهم إلى التمرد ثم يستنزفون الأموال المصرية باسم إعادة المتمردين إلى حظيرة الجمهوريين، وكان آخرون يوزعون الأدوار فيما بينهم، بعضهم يحلب بقرة المصريين والبعض الآخر يحلب بقرة السعوديين، ثم يقتسمون ما يحلبون بالعدل والقسطاس..

«وكثيرا ما شاع بين الناس أن القائد المصري كلما أراد أن يسترجع موقعا فإنه يعطي شيخ الجمهوريين عددا من الملايين فيذهب إلى شيخ المتمردين ويقتسمها معه فينسحب برجاله المسلحين، وعندما يغضب الممول السعودي ويعطي شيخ المتمردين مزيدا من الملايين فإنه يذهب إلى شيخ الجمهوريين ويقتسمها معه فينسحب برجاله المقاتلين المنتفعين».. وأظن أن الرئيس السادات كان يشير إلى ذلك عندما تحدث عن حرب اليمن في كتابه «البحث عن الذات»، وقال إنها «انقلبت إلى تجارة ومنفعة»..

بسبب لا أدريه، لم أسترح للدكتور البيضاني منذ التقيته في القاهرة، ربما كان ذلك لإحساسي أنه مراوغ وإن كان هذا هو شأن السياسيين المحنكين، وربما لتاريخه السابق في خدمة حكم الإمامة؛ فقد كان مستشارا اقتصاديا للإمام أحمد وكذلك مستشارا لولي عهده في الوقت ذاته، وكنت أعلم أن هذا ليس مبررا للشكوك؛ إذ إن العديدين من الثوار، بمن في ذلك الضباط أنفسهم، كانوا بطبيعة الأمور يعملون تحت إمرة الإمام، ولكن شكوكي ازدادت عندما ذهبت إلى اليمن وتابعت تحركاته، وأظن أنه بادلني المشاعر نفسها خاصة أنني كنت أقرب إلى السلال الذي يؤمن بالخط الناصري، في حين كان هو من دعاة الانفتاح على الغرب.. وعلى الرغم من أن البيضاني كان قد عين نائبا لرئيس مجلس الثورة منذ البدايات فإن الرجلين تبادلا التآمر كل منهما على الآخر حتى تخلص السلال منه بعد عدة أشهر، وطلب من عبد الناصر استبقاءه في القاهرة عندما ذهب في مهمة إليها..

وقد أدت النزاعات بين أعضاء القيادة اليمنية بعضهم وبعض وكذلك بينهم وبين قيادات الجيش المصري إلى تدهور الأمور في أحيان عديدة، خاصة لو أضفنا إلى ذلك مؤامرات القبائل المتمردة التي كانت تغذيها السعودية من الشمال، من قواعدها في مدينة نجران وميناء جيزان، وكذلك الإنجليز من الجنوب.. ولحسن الحظ كانت القبائل في مثلث صنعاء ـ تعز ـ الحديدة مساندة للثورة، أما المناطق الأخرى فقد شهدت هجمات متكررة على القوات المصرية، وذهب رجال عديدون من قواتنا ضحايا لهذه الهجمات حزنت عليهم وخاصة على أولئك الذين عرفتهم شخصيا، مثل الرائد عبد المنعم سند الذي ذاع اسمه بعد عدد من العمليات الفدائية المبهرة، لكنه حوصر مع جنوده فوق قمة جبل يعرف باسم «رأس الوتدة»، وفصل رأسه عن جسده..

وقد بدا لي من جلساتي مع القادة والضباط بل وبعض الجنود أيضا أن الكل كان حائرا في التعامل مع اليمنيين، خاصة في بدايات الثورة؛ إذ لم تكن هناك معلومات كافية متوافرة عن اليمن لدى القوات المسلحة بالذات.. كانت اليمن مجاهل لم يكتشفها المصريون من قبل، ولم تكن هناك خرائط طوبوغرافية يمكن الاستعانة بها في العمليات العسكرية، وكانت طبيعة الأرض الجبلية مختلفة تماما عما ألفه المصريون، وقد أنهك ذلك القوات الجوية كما أجهد القوات البرية وواجه الضباط

والجنود متاعب عديدة في التعامل مع اليمنيين الذين لا يعرفون طبائعهم وعاداتهم، وكذلك في التأقلم مع المناخ، خاصة عندما تتباين درجات الحرارة بين النهار والليل أو بين مناطق الجبال والوديان.. وعندما عاد العميد علي عبد الخبير إلى القاهرة بعد مهمته الأولى القصيرة، قال لي الدبلوماسي المصري محمد عبد الواحد إن الأيام القليلة القادمة لابد أن تحسم ما إذا كانت مصر ستدخل بثقلها العسكري إلى المعركة، أو أنها ستكتفي ببعض وحدات من الصاعقة وتستعين بمتطوعين عرب، وقال إن ذلك قد يتوقف على تقدير مدى التدخل السعودي..

حدثت مفاجأة كبرى في أوائل أكتوبر؛ إذ أرسلت السعودية طائرة تحمل عتادا عسكريا إلى القوات الملكية في اليمن، ولكن قائد هذه الطائرة توجه بها إلى مطار أسوان.. وجهت الخارجية السعودية عندئذ خطابا إلى مصر تطلب إعادة الطيارين والفني الذي كان يصاحبهما إلى الرياض باعتبار أنهم فارون من الخدمة العسكرية، لكن مصر تجاهلت الخطاب وأعادت شحن العتاد إلى قوات الثورة في اليمن.. وكانت القاهرة قد رصدت في ذلك الحين وجود جنود من الحرس الوطني السعودي ضمن قوات الملكيين، وكذلك عناصر إيرانية (أثناء حكم الشاه عندئذ) وبعض المرتزقة الفرنسيين الذين حاربوا في الجزائر، والإنجليز الذين حاربوا في عدن وروديسيا، والبلجيكيين أيضا.. وكان يقال وقتها إن هناك ضباطا إسرائيليين همهم الأول هو مراقبة القوات المصرية عن قرب ليتعرفوا على مدى كفاءتها ومواطن ضعفها.. أما الدعم البريطاني فكان مكشوفا ومتوقعا؛ ذلك أن بريطانيا كانت تخشى أن تتسلل الثورة إلى محميتها في عدن، كما أنها كانت تود الانتقام من جمال عبد الناصر الذي كان يهاجم حلف بغداد..

في الأسبوع الأول للثورة لم يكن هناك في اليمن سوى بضع عشرات من العسكريين المصريين، كان عملهم الأساسي هو تقييم الموقف والتفاهم مع قيادة الثورة اليمنية على الخطوات التالية.. كان التقدير وقتها أن عملية اليمن، التي سميت (العملية ٩٠٠٠) لن تحتاج سوى لكتيبة صاعقة تساند الثوار في صنعاء، وإلى جناح من المقاتلات يشن غارات مكثفة على مواقع الملكيين ويؤمِّن الطرق الرئيسية.. وهكذا وصلت قوة الصاعقة في ٥ أكتوبر بالباخرة «السودان» إلى ميناء الحديدة،

فذهبنا يومها إلى هناك بالسيارات لانتظارها، وكانت الرحلة ممتعة ليس فقط بسبب المناظر الخلابة على الجانبين، ولكن لأن الطريق كان ناعما كالحرير بعد أن قام الصينيون بشقه.. وكان الصينيون أيضا هم الذين جهزوا الميناء، حيث كانت الألوف قد احتشدت لاستقبال القوة التي وصلت على ظهر الباخرة المصرية بأسلحتها، ولم يكن عددها يزيد على مائة جندي وبعض الضباط..

في نهاية أكتوبر كانت قوة الجيش المصري في اليمن بكاملها تكاد لا تزيد على ألفي جندي، وكان عبد الناصر معارضا في البداية للتوسع في التدخل العسكري، على الرغم من أنه كان يود أن يستعيد مكانته بعد انفصال سوريا عن دولة الوحدة، وأن يساند الثوار في اليمن الجنوبي، ويهز أركان حكم الملك سعود، ويؤكد زعامته للأمة العربية.. وكانت هناك أفكار بالاعتماد على متطوعين، ليس من مصر فقط وإنما من دول عربية أخرى.. لكن المشير «عامر» كان يضغط، كما فهمت، لدخول مصر بثقلها حتى تستطيع أن تسيطر على منافذ البحر الأحمر من باب المندب في الجنوب حتى قناة السويس شمالا، وتغلبت وجهة نظره في النهاية، وأجمع المجلس الرئاسي في القاهرة على الحملة العسكرية، فبدأت ألوف أخرى في التدفق..

وعندما تحسن الموقف العسكري في نهاية إبريل ١٩٦٣، نصح اللواء أنور القاضي قائد القوات المصرية في اليمن بعودة الجانب الأكبر من قواته إلى مصر خاصة أن الجيش اليمني كان قد بدأ بناؤه، كما أن عددا من الجبهات كان قد هدأ.. وبدأت القوات تعود إلى مصر بالفعل وتقام الاحتفالات لاستقبالها، إلا أن الموقف سرعان ما تبدل فتورطت القوات المصرية في وحل اليمن مرة أخرى حتى إن المراقبين الأجانب سموها «فيتنام مصر»، ويقال إن عدد القوات وصل إلى ذروته في منتصف عام ١٩٦٥ عندما بلغ ٧٠ ألفا، بقى جانب منهم هناك حتى ما بعد انتهاء نكسة ١٩٦٧..

أما أنا فكنت قد عدت إلى القاهرة مع بداية ١٩٦٣.. وبالرغم من أن خمسين عاما مضت الآن على هذا اليوم فإن عددا من المشاهد ظل عالقا في ذهني.. من هذه المشاهد رؤوس الذين نفذت فيهم أحكام الإعدام من أقطاب نظام الإمامة معلقة بقسوة بالغة على «باب اليمن» في قلب صنعاء.. وبعض حواري صنعاء المضاءة بالشموع التي كنا

نتوه فيها بحثا عن مقصدنا.. والسيارة الشفروليه.. والشاهي العدني.. ووجوه بعض الذين استشهدوا ممن أجرينا معهم أحاديثَ في رسائلنا.. والسرير «السفري» الذي كنت أنام عليه.. وريالات «ماريا تيريزا»، العملة النمسوية التي كانت سائدة في اليمن، وكانت تزن نحو ٣٠ جراما من الفضة الخاصة.. والسلاح الذي كان في كل يد.. والقات الذي لم أستطع تذوقه لأتأكد إن كان مخدرا أم منشطا.. و«الزامل»، إنشاد رجال القبائل أثناء المعارك.. ومشهد وليمة دعيت إليها بمناسبة زواج شقيقة أحد الضباط الثوار وحضرها عدد من أعضاء مجلس الثورة فإذا بهم يتشاتمون، ويصيح أحدهم، وأظن أنه كان عبد الرحيم عبد الله: «وقعنا في المحظور.. اعتقدنا أننا أنجزنا مهمتنا يوم قمنا بالثورة»..

الآن أتذكر أن هذا هو بالضبط ما فعلناه نحن بعد إسقاط مبارك في ٢٠١١..

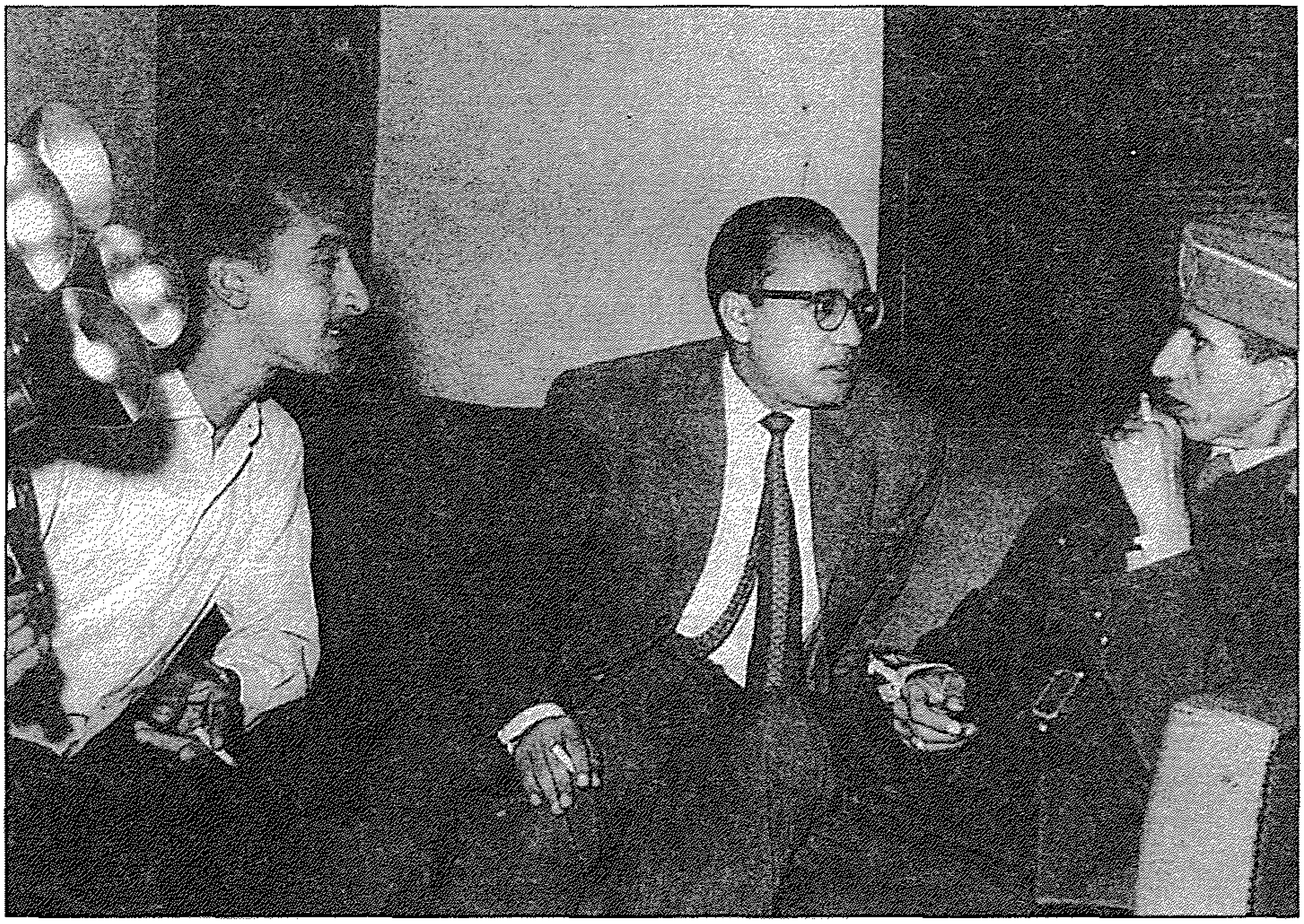

مع اللواء حسين العمري عضو مجلس قيادة الثورة ووزير المواصلات اليمني، وبيننا أحد الصحفيين المصريين. صنعاء (١٩٦٢).

(١٠)

عندما يذهب زمن العلوج

١٩٦٣ - ٢٠٠٥

◆ ◆ ◆

ما كان بمستطاع الصَحَّاف أن يفعل خيرا مما فعل، ومهما كان في تصريحاته من تهويل، فلقد كانت أكثر صدقا من بيانات الجنرال تومي فرانكس التي كانت تسمى «منصة الحقيقة».

◆ ◆ ◆

بعد أن قضينا السهرة في الملهى، دفعت الراقصة الحساب، ثم همست في أذني: «حامر عليك في الأوتيل الليلة دي بعد ما أخلص».

في ٨ فبراير ١٩٦٣ دق جرس الهاتف في بيتي وكان المتحدث الدكتور حاتم.. قال: «تعلم أن انقلابا تم في العراق.. اليوم تذهب إلى السيد سامي شرف، وتنفذ مايقوله لك».. ذهبت إلى سامي شرف فقال إن وفدا إعلاميا مصريا سيسافر في اليوم التالي إلى بغداد وإنني سأكون ضمن هذا الوفد مع مصور أختاره، ولكن وجود المصور معي سيكون للتعمية حتى نوحي بأن المهمة هي تغطية الأخبار.. «مهمتك الأولى هناك هي إقناع المسئولين بإذاعة إنتاج التلفزيون المصري على شاشة بغداد.. طبعا لن تقول ذلك صراحة.. اعمل ما تراه مناسبا، وإذا احتجت إلى مساعدة اتصل بفخري عثمان السكرتير الثالث بالسفارة»، وأردف أن الدكتور «حاتم» سيتابع تنفيذ المهمة، وأن الطريقة الوحيدة للاتصال به هي إملاء الرسائل في مكتب الملحق العسكري حيث ترسل بالشفرة من هناك.. في اليوم التالي تجمَّع في حديقة مكتب معلومات الرئاسة في منشية البكري وفد الصحفيين المصريين، وأعطاني سامي شرف مظروفا صغيرا به رسالة توصية موجهة منه إلى فخري عثمان السكرتير الثالث في السفارة..

عندما وصلنا بغداد يوم ١٠ فبراير كان إطلاق النار لا يزال مسموعا بوضوح في بعض شوارع العاصمة العراقية التي كانت تعج بالدبابات والمصفحات المجهزة بمدافع الماكينة، وخاصة في منطقة ميدان «باب المعظم» حيث توجد وزارة الدفاع التي كانت معقل عبد الكريم قاسم، وكان قاسم قد أعدم مع ابن خالته رئيس محكمة الثورة العقيد عباس المهداوي في إستوديو التلفزيون الذي نقلا إليه تحت الحراسة في اليوم السابق لوصولنا.. وضعنا حقائبنا في غرفتنا بالفندق، وانطلقت مع زميلي المصور رشاد القوصي إلى وزارة الدفاع.. كانت بقايا المعارك لاتزال تدور هناك، وكانت هناك سيارة «جيب» تربط خلفها ضابطا من الموالين لقاسم وتسحله على الأرض.. وعندما اقتربنا من وزارة الدفاع دخلنا مرمى النيران المتبادلة التي كادت أن تفتك بنا، وكانت النيران لاتزال مشتعلة في جانب من الوزارة بدا كما لو كان قد حطم تماما، وأمامه مظاهرة محدودة لمجموعة من البعثيين تهتف بسقوط الشيوعية..

قدرت أن المسئولين عن التلفزيون سيكونون مشغولين عن أي موضوع آخر وسط الأحداث التي كانت لا تزال تتعاقب، وأنه حتى تهدأ الأحوال قليلا فربما أنتهز الفرصة وأبحث عن سبق صحفي بتسجيل حديث مع الرجل الذي حاول اغتيال عبد الكريم قاسم في ١٩٥٩، وهكذا ذهبت إلى فخري عثمان في السفارة.. كان شابا في مثل عمري وربما يكبرني بعامين أو ثلاثة، وكان مفعما بالحماس والإخلاص، وكان الوحيد من طاقم السفارة الذي بقي في بغداد بعد أن طرد قاسم باقي الدبلوماسيين أو أجبرهم على الرحيل، وهكذا كان الحمل على كتفيه ثقيلا وحساسا؛ إذ إن الحكم عند وصولي لم يكن قد استقر بعد لعبد السلام عارف الذي عين رئيسا للجمهورية في اليوم التالي لمقتل قاسم، وكان بعض أجهزة قاسم الأمنية وبعض المجموعات الشيوعية يثيران القلاقل في أكثر من مكان، وكان تسجيل مثل هذا الحديث مخاطرة كبيرة حينئذ..

قال فخري عثمان إنه يعرف جيدا الشاب البعثي إياد سعيد ثابت، قائد «زمرة التنفيذ» التي دبرت محاولة اغتيال قاسم.. كان ذلك في شهر أكتوبر عندما كان قاسم يمر بسيارته في شارع الرشيد في طريقه من وزارة الدفاع إلى حفل استقبال في البعثة الدبلوماسية لألمانيا الديموقراطية، فأطلقت النيران عليه، وأصيب في كتفه اليسرى إصابة بالغة في حين قتل سائقه.. وكانت زمرة التنفيذ تتكون من تسعة أشخاص بينهم صدام حسين الذي أصيب في العملية واستطاع الهرب إلى سوريا، وبينهم أيضا سمير النجم الذي كان سفيرا للعراق في القاهرة في عهد صدام (حكم عليه بالسجن مدى الحياة بعد غزو العراق).. قدم الجميع إلى المحاكمة في عام ١٩٦٠ فصدرت ضدهم أحكام بالإعدام أو السجن، ولكن «قاسم» أعلن ليلة تنفيذ حكم الإعدام نداءه «عفا الله عما سلف»..

كان فخري يريد بصدق أن يعاونني على تأدية مهمتي، ولكنه كان يخشى أن يصاب إياد ثابت بمكروه بواسطة بعض أنصار قاسم الذين كانوا لا يزالون منتشرين في عدد من المناطق.. قال لي: «سأبذل كل ما في جهدي، ولكنني حريص على أن تتم المهمة في سرية كاملة حتى لا أورط السفارة، أي أورط مصر، في تهمة التآمر أو التواطؤ في محاولة اغتيال رئيس دولة حتى ولو كان قد قتل وانهار نظامه»..

هكذا تحمل فخري عثمان المسئولية بمفرده، وقرر أن يتم التسجيل في بيته بمنطقة العلوية، وأن ينقل في سيارته إياد ثابت إلى البيت، وأن تنقل معداتنا إلى هناك على مراحل حتى لا يثير ذلك كله انتباه رجال الأمن الذين كانوا يراقبونه ليل نهار لصالح جهات أمن مختلفة.. تمت كل الخطوات بنجاح، بل إن غرفة الصالون في الشقة أعدت كما لو كنا في إستوديو، خاصة بعد أن غطيت نوافذها بستائر سميكة لتحول دون رؤية الأضواء من خارج المبنى..

قلت لفخري إنني شديد الامتنان له، وعزمت على ألا أزعجه بعد ذلك، فانطلقت وحدي أبحث عن سبق آخر، استطعت أن أنجزه بعد ثلاثة أيام عندما أجريت حوارا مع المقدم طيار منذر الونداوي، وهو الذي انطلق صباح يوم الانقلاب، ٨ فبراير، بطائرته الهوكر هنتر من قاعدة الحبانية الجوية فقصف مقر وزارة الدفاع مع طيارين آخرين من قاعدته وكذلك من القاعدة الجوية في كركوك.. وأدى هذا القصف إلى أضرار كبيرة في المبنى، وإلى الإسراع بتقويض حكم قاسم..

كانت الأوضاع حينئذ قد بدأت تستتب، وبدأت القيادات الجديدة البعثية والقومية تتولى إدارة مؤسسات الدولة.. كانت الإذاعة والتلفزيون من نصيب عبد الستار الدوري، وهو قيادي بارز في فرع حزب البعث في بغداد، وعندما تولى مسئوليته الجديدة لم يكن قد دخل التلفزيون من قبل.. عندما ذهبت إليه استرحت له ويبدو أنه استراح لي كذلك، وتوطدت العلاقة بيننا بسرعة حتى إنني خاطرت وصارحته في اللقاء الثالث بيننا بمهمتي، فقال بحماس ظاهر: «عز المنى.. أنا في الانتظار»..

هكذا ذهبت إلى مكتب الملحق العسكري لأبلغ الدكتور «حاتم» بالنبأ وأطلب منه إرسال ما يريد من برامج.. كان الملحق العسكري المصري في بغداد في ذلك الحين هو العقيد عبد المجيد فريد الذي أصبح فيما بعد سكرتيرا عاما لرئاسة الجمهورية في القاهرة، أما مساعده فكان المقدم السوري طلعت صدقي الذي كنت قد التقيته قبل سنوات في دمشق، ولكن كليهما كان قد طرد من العراق.. كانت العلاقات المصرية العراقية قد توترت أيام حكم قاسم الشيوعي إلى حد بعيد، وكانت سفارتنا في بغداد مقصدا معتادا للمظاهرات المعادية، وهكذا فعندما تولى عبد السلام عارف الرئاسة

تنفست القاهرة الصعداء على الرغم من أن حزب البعث العربي الاشتراكي هو الذي كان له الدور الأبرز في الانقلاب.. ولم تكن أيام عارف كلها مريحة بالنسبة إلى مصر؛ إذ نجح البعثيون في السيطرة عليه وزحزحته عن القوى القومية الأخرى حتى مقتله في ١٩٦٦، إثر سقوط طائرته الهليوكوبتر في حادث غامض..

في اليوم التالي اتصل بي مكتب الملحق العسكري لإبلاغي أن رد الدكتور حاتم وصل، ولما اطلعت عليه كدت أقفز من السعادة لأن المواد ستصل بعد ٢٤ ساعة من القاهرة في طائرة مصر للطيران.. أبلغت الدوري الذي لم يكن أقل ابتهاجا، وأصدر أوامره بإعداد قاعة عرض خاصة حتى أعود من المطار لنشاهد معا ما أرسلته القاهرة، وعندما عدت بالصندوق الذي يحتوي على الشرائط أطفئت أنوار القاعة، وجلست إلى جانب الدوري وحدنا.. كانت المفاجأة عندما بدأ العرض.. كان أول ما شاهدناه أغنية «ناصر كلنا بنحبك».. ياللغباء، دعاية سافرة على هذا النحو، هكذا قلت لنفسي، ولكن المصائب تتالت بعد أن شاهدنا ثلاثة شرائط أخرى كانت كلها أفلاما تسجيلية عن عبد الناصر وثورته.. اعتذرت للدوري.. قلت إن خطأ ما لا بد أنه حدث، وإنني سأبلغ القاهرة على الفور، وكنت واثقا من أن الأمر سوف يتم تصحيحه على نحو السرعة..

هكذا عدت ثانية إلى مكتب الملحق العسكري حيث كتبت رسالة سريعة إلى الدكتور حاتم بأسلوب تلغرافي: «وصل الطرد.. الشرائط التي شاهدتها مع مدير الإذاعة والتلفزيون كلها تتحدث عن سيادة الرئيس وعن الثورة بشكل مباشر وربما مستفز للمسئولين البعثيين هنا.. أرجو تفضلكم بإرسال مواد أخرى تحمل الرسالة الإعلامية التي نريد إبلاغها تدريجيا.. احترامي».. لم يأخذ الدكتور حاتم وقتا طويلا في الرد على رسالتي؛ إذ جاءت لي منه رسالة في المساء، وعندما استدعاني مكتب الملحق العسكري لاستلامها وجدتها مختصرة تماما وواضحة جدا: «يحضر حمدي قنديل إلى القاهرة، ويحل محله ممدوح زاهر (كبير مندوبي الأخبار)، ولا ينتظر حمدي وصول ممدوح»، وهكذا عدت إلى مصر في اليوم التالي..

في مطار القاهرة انتظرتني مفاجأة أخرى، أنني لم أحقن بلقاح ما كان عليَّ أن أتناوله قبل سفري من بغداد، أو هكذا أبلغني الرجل الذي قادني إلى الحجر الصحي.. اتصلت بمكتب الدكتور حاتم لأحيطهم بالمشكلة لكن أحدا لم يتحرك.. حاولت

الاتصال بالدكتور النبوي المهندس الذي كان وزيرا للصحة، ولكن منزله أبلغني أنه يحضر حفل أم كلثوم، وكان اليوم بالفعل يوم خميس؛ فاضطررت إلى الاستسلام للحجر الصحي حتى انتهى بعد أيام، وعندما ذهبت إلى الدكتور حاتم في مكتبه انتظرت ساعات وساعات يوما بعد آخر دون أن يأذن بالمقابلة على غير ما اعتدت..

بعد نحو أسبوع استقبلني الوزير، وما إن دخلت مكتبه حتى قال: «يعني تفضحنا كده عند الرئاسة».. سألت: «فضيحة إيه يافندم.. رئاسة إيه يا فندم؟».. قال: «ألا تعرف أن البرقيات من مكتب أي ملحق عسكري تمر بالرئاسة أولا، وهي التي توزعها بعد ذلك على أصحابها؟».. قلت إنني لم أعرف ذلك من قبل، وتعليمات السيد سامي شرف تقضي بأن أوجه رسائلي من مكتب الملحق.. «طيب اتفضل دلوقتي».. عاد الدكتور حاتم بعد أيام فأبلغ إدارة الأخبار بالسماح لي بقراءة النشرات بعد أن عوقبت على فضح الإعلام لدى الرئاسة.. كانت هذه حكاية زيارتي الأولى إلى العراق..

* * *

بعدها زرت بغداد في عام ١٩٧٠.. كنت مدعوا إلى دورة تدريبية في «معهد التدريب الإذاعي والتلفزيوني»، وكان مدير المعهد هو صديقي الأعز سعد لبيب، وكان سعد قد ذهب إلى بغداد بعد مطاردة السادات له ولغيره من الإذاعيين الناصريين لكي يقيم المعهد الذي تولى إدارته بدعوة من مدير عام الإذاعة والتلفزيون محمد سعيد الصحاف (وزير الإعلام الشهير أثناء غزو العراق فيما بعد)..

أراد سعد أن يرحب بي ترحيبا خاصا فدعاني على غير عادته في المساء إلى أحد الملاهي الليلية.. كان برنامج السهرة مسليا، وأذكر أننا طربنا حتى دمعت عيوننا من بعض الموشحات، ولكننا فجأة أفقنا على صوت يقدم لنا راقصة كانت قد اشتهرت في مصر قبلها بسنوات باسم «الراقصة السويسرية».. ولما كانت مائدتنا في الصف الأول، فقد لمحتنا لحظة دخولها.. تقدمت ناحيتنا وسلمت، وقالت إن الملهى كله يرحب بنا.. استعطفناها ألا يذاع هذا الترحيب بالمكروفون، وبعد أن قضينا سهرتنا طلبنا الحساب، فإذا بها تجيء وتقول: «الحساب عندي»، ولا تكتفي بذلك بل تهمس في أذني: «حامر عليك في الأوتيل الليلة بعد ما أخلص.. أكيد أنت في أوتيل بغداد».. وكنت فعلا في فندق بغداد..

عندما غادرنا أخبرت سعد بالكارثة فطمأنني أن كل هذا «كلام أونطة، شغل رقاصات»، ولكنني ظللت في سريري متوترا أحيانا؛ آملا أن تجيء أحيانا أخرى.. وعندما أوشكت الساعة أن تقترب من الرابعة فجرا إذا بالهاتف يدق في الغرفة، ومكتب استقبال الفندق يقول إن هناك ضيوفا في انتظاري في «اللوبي».. حسمت أمري ونزلت، فوجدتها مع رجل علمت من الحديث أنه الطبال، وعندها أيقنت أن ثالثنا في تلك الليلة لن يكون الشيطان، أما هي فقد تضاربت مشاعري إزاءها بين الرجاء أن ترحل قبل أن تحدث فضيحة والأمل أن تبقى وليكن ما يكون.. أنهت هي حيرتي.. قالت إنها جاءت لتسألني متى أسافر.. قلت: في الثالثة بعد الظهر.. قالت إنها جاءت لتطلب مني خدمة.. اتفضلي.. أريد أن أرسل معك طلبا لوالدتي..

قبيل الرحيل كنت جالسا في بهو الفندق مع الصديق ضياء الدين الرفاعي مدير الإذاعة الأردنية في انتظار سعد لبيب الذي كان سيأخذني بسيارته إلى المطار.. قبل أن يأتي بدقائق فوجئت بها تدخل الفندق الذي كنت أراقب بابه عن بعد، وإلى جانبها اثنان من عمال الفندق يحملان صندوقين كبيرين، فسارعت إلى الاختفاء في دورة المياه وظللت هناك حتى أزكمت أنفي الروائح وأزف موعد السفر، فاضطررت للخروج.. كان سعد واقفا إلى جوارها عندما أبديت لها دهشتي من حجم الصناديق.. قالت إنه ليس فيها إلَّا «نفتالين» لسجاجيد الوالدة التي سئمت من «نفتالين» القاهرة المغشوش، وإنها وضعت الصناديق على أي حال فوق شبكة سيارة «الباشا»، ثم سلمتني مظروفا قالت إن به بعض النقود للوالدة، وها هو العنوان..

صعدت مع سعد إلى السيارة، وعندما اقتربنا من المطار قلت له: «سوف تعتبر ذلك نذالة، ولكنني مع ذلك سأغادر سيارتك الآن بحقيبتي، وسأترك لك النفتالين، تدبر في أمره كما تشاء».. ولكن مصيبة أخرى كانت في انتظاري في القاهرة.. كنت قد أرسلت المظروف إلى العنوان المحدد، وكان خلف مكتبي في وسط البلد.. في اليوم التالي تلقيت اتصالا من فرع أحد البنوك في قصر النيل.. قال المتحدث: «سيادتك لك علاقة بالسيدة فلانة؟»، وذكر اسم والدة الراقصة.. قلت: «موش بالضبط».. قال: «يعني هل سلمتها نقدا أجنبيا؟».. لعنت ليلة بغداد والرقص الشرقي والنساء جميعا وغوايتهن.. ذهبت والدتها لتبديل الفلوس في البنك، فسألوها عن مصدرها، وهكذا أصبحت طرفا في الموضوع، وإن كان قد انتهى بسلام..

كما علمت من سعد فيما بعد، فقد اضطر أن يذهب ثانية في المساء إلى الملهى، وأظن أنه كان يود لو استطاع أن يفتك بي ليلتها وهو يحمل الصناديق فوق سيارته، وقد أعادها بحجة أن «مصر للطيران» ترفض حمل «النفتالين» على طائراتها، وكان كلانا على يقين أن الصناديق لا بد أنها كانت تحتوي على بضاعة مريبة..

* * *

كانت الزيارة الثالثة لبغداد عام ١٩٧١ عندما انعقدت الجمعية العامة الثالثة لاتحاد إذاعات الدول العربية هناك، وانتخب الصحاف خلالها رئيسا للاتحاد الذي كنت مديرا فنيا له، وكنت قد التقيت به من قبل في اجتماع للاتحاد في عمَّان.. صبيحة انتخابه أبلغني أنه ينتظرني في مكتبه في الإذاعة بعد جلسة المؤتمر، وهناك حدثني عن طموحاته للاتحاد خلال رئاسته، ثم قال: «أريد أن أقدم لك هدية عنوانا على محبتي، ولكنني أود أن أسألك أولا: ما الهدية التي تفضلها أو تحتاجها؟ نحن صديقان فأرجوك لا تخجل».. قلت: «شيء واحد أطلبه منك.. مجموعة شرائط ناظم الغزالي التي لديكم في الإذاعة».. تهلل وجه الصحاف بشرا، وفي المساء كانت هديته الثمينة قد وصلت إلى غرفتي في الفندق، وللأسف فقد تناثرت شرائط المطرب العراقي الكبير بين الأصدقاء العرب الذين كانوا يقترضونها مني في باريس عندما أقمت فيها بعد سنوات..

لم يكتفِ الصحاف بمجاملته تلك، ولكنه استبقاني في بغداد يوما بعد انتهاء المؤتمر، وأقام لي مأدبة غداء دعا إليها جمعا من مخرجي الإذاعة والتلفزيون وعددا من الأدباء والصحفيين.. لم تكن في الواقع مأدبة.. كانت دعوة بسيطة أقيمت في إحدى الحدائق دون مراسم، بل إن الكراسي لم تكن كافية لنا جميعا فجلس معظمنا على الأرض، وبالقرب منا فرقة موسيقية صغيرة لم تعزف المقطوعات الحزينة التي عرفت بها الموسيقى العراقية عموما؛ ولذلك لم أطرب لها كثيرا.. وعلى الرغم من أنني لم أكن عندئذ أميل إلى الأسماك فإن رائحة شواء سمك «المسكوف» جعلتني أحس بجوع شديد بعد أن تدافع بعض الحضور لإعداد مستلزمات الشواء وأدواته، وأعدوا الأوتاد التي سيوضع فوقها الفحم وأعواد شجر الصفصاف.. وما إن انتهينا من تناول طعامنا وقبل أن تقدم لنا كئوس الشاي، أشار الصحاف إلى واحد من الرجال

الذين قاموا بالشواء، فإذا به يندفع نحوي والموسيقى تعزف ما يشبه النشيد الوطني، ثم انقض الرجل على وجهي يمسحه بيديه التي يقطر منها زيت السمك ويلطخه من كل جانب.. هلل المدعوون جميعا، وقال الصحاف: «الآن أصبحت واحدا منا.. معلهش.. هذه عادة بغدادية قديمة».. وبالفعل أصبحت واحدا منهم، وزرتهم بضع مرات في السنوات التالية..

في التسعينيات رددت بعض الصحف المصرية الموالية للنظام التي دأبت على التهجم على معارضي مبارك أنني دائم التردد على بغداد وعلى اللقاء بصدام حسين، والواقع أنني لم ألتقِ به سوى مرة واحدة، وكانت زيارتي تلك في سنة ١٩٧١.. اقترح أمين عام اتحاد الإذاعات العربية صلاح عبد القادر، المولع بالمراسم والتقرب إلى أهل السلطة، أن نذهب إلى القصر الجمهوري لنسجل أسماءنا في سجل التشريفات، ونشكر العراق ـ كما جرت العادة ـ على ما قدمه لنا.. وعندما حددت لنا التشريفات الموعد وذهبنا إلى القصر قادونا إلى مكتب صدام الذي كان وقتها نائبا للرئيس.. وجدنا الرجل في انتظارنا واقفا مشدودا كالرمح، وبعد أن رحب بنا بصوت جهوري قال إنه عندما سمع بأننا قادمون أصر على أن يلقانا، وأثنى على جهد صلاح عبد القادر في لم الشمل العربي، ثم التفت إليَّ قائلا: «الصحاف يقول إنك لا تريد البقاء معنا».. تمتمت ببضع كلمات ودودة، وبادر هو للقول بصوت آمر: «إذا كان الاتحاد يريد منا شيئا فأبلغوني»..

كان هذا هو لقائي الوحيد بالرجل الذي كان له ما له وعليه ما عليه، وإن كان ما تبقى في ذهني من تاريخه العاصف مشهد وقوفه بكبرياء أثناء محاكمته، وكذلك كانت هذه آخرة مرة أرى فيها الصحاف في العراق قبل أن نلتقي في الإمارات في ٢٠٠٥.. كنت هناك حينئذ أعمل في تلفزيون دبي، وكان هو يعيش في «أبو ظبي» بعد أن لجأ إليها إثر الغزو الأمريكي للعراق..

* * *

المعنيون بالشأن العراقي يعرفون تاريخ الصحاف.. بدأ مدرسا للغة الإنجليزية بعد أن درس الصحافة في الجامعة، ثم انضم إلى حزب البعث في ١٩٦٣ وارتقى درجاته، وهذا ما أهله فيما بعد ليكون وزيرا للخارجية في عام ١٩٩٢ بعد غزو

الكويت، فوزيرا للإعلام في ٢٠٠١.. وهكذا تابعه العالم كله وهو يذيع البيانات العسكرية العراقية خلال الغزو الأمريكي، واعتبره عديدون البطل الذي فضح أهداف أكبر عملية سطو مسلح في التاريخ، في حين اعتبره آخرون النسخة الحديثة من وزير الدعاية النازي جوبلز.. لكن عموم الناس باختلاف آرائهم كانوا ينتظرون مؤتمراته الصحفية بشغف، ليس فقط لاهتمامهم بتطور المعارك ولكن ليتابعوا سخريته من الجيوش الغازية وقادتها السياسيين، وما نحته من مفردات جديدة على الآذان..

«العلوج» كانت أشهر هذه المفردات، وقد ظن كثيرون وخاصة من المصريين أن هذا التعبير سباب خارج عن الأدب وإن كانوا قد اعتادوا أن يتندروا به، لكن الصحاف نفسه ـ في حديث مع قناة «الجزيرة» ـ أوضح أن «العلوج» أو «الأعلاج» هم مرتزقة الروم والفرس، وأن سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هو أول من استخدم هذا التعبير عندما أعلن عن تحرير بيت المقدس من العلوج المعتدين، وقال الصحاف أيضا إن المؤرخين العرب كانوا يصفون الجيوش الغازية أثناء الحروب الصليبية بأنها «علوج الإفرنجة»، وقال أيضا إن العلوج تعني الحمير ذات الرائحة النتنة..

مهما كان الأمر، ودون تحيز شخصي للصحاف، فإنني لن أردد بالضبط ما قاله خالد السرجاني في جريدة «العربي» وقتها: «من كان منكم بلا وزير إعلام كاذب فليرم محمد سعيد الصحاف بحجر»، ولكنني أقول إنه ما كان بمستطاعه أن يفعل خيرا مما فعل، وإنه ضحية البيانات العسكرية الكاذبة التي كانت تمليها عليه القيادة، وكان حظه التعس أنه كان بشخصه في الواجهة، وأشهد أنه كان في كل الأحوال مدافعا شرسا عن وطنه وعن النظام الذي يمثله.. ومهما كان في تصريحات الصحاف من تهويل أو تهوين أو خداع، فلقد كانت أكثر صدقا في مجملها من بيانات الجنرال الأمريكي تومي فرانكس التي كانت تسمى «منصة الحقيقة»، في حين أنها كانت ماكينة أكاذيب جبارة أعلنت سقوط أم قصر ٧ مرات، والبصرة والفاو مرات أخرى عديدة..

ولا أزال أعتقد أن الحرب الإعلامية التي شنتها الولايات المتحدة وشنها الغرب على العراق تحتاج إلى دراسة أكثر عمقا في معاهد الدراسات والبحوث الإعلامية العربية، وأننا سوف نستخلص كثيرا من الدروس والعبر إذا دققنا فيما كانت تنشره وسائل الإعلام العربية خلال الحرب وفيما قبلها وبعدها..

كانت ماكينة الدعاية الأمريكية هي المصدر الرئيسي لأخبار الحرب في الغرب، وكانت تساندها في الولايات المتحدة مؤسسات إعلامية كبرى تحتكر خمس منها ٩٠٪ مما يقرأ ويسمع ويرى، تروج للحرب عن عمد، لعل نموذجها اللافت هو «فوكس نيوز» التي كانت هي وغيرها تتلاعب بالألفاظ والمعاني؛ حتى توهم الشعب الأمريكي وغيره أن جيش بلادهم يحميهم من الإرهاب، ويدفع عنهم قوى الشر، ويحرر شعبا من الطغاة..

وكانت هذه الماكينة قد ألحقت عدة مئات من المراسلين بالقوات الغازية، يعتمدون عليها في استقاء الأخبار كما في المأكل والمشرب والحماية حتى كادوا أن يكونوا ترسا في ماكينة الحرب ذاتها.. وللحق فإن كل هؤلاء لم يكونوا أبواقا لمنصة الحقيقة، فقد كان منهم من حادوا عن الخط المرسوم وعن التعليمات التي سطرت في ١٢ صفحة كاملة، لكن التهم الجاهزة كانت عندئذ تلاحقهم، فإما أنهم أصدقاء بغداد وإما أنهم على الأقل يقومون بتغطية سلبية.. هكذا طرد بيتر آرنت الصحفي من قناة NBC الأمريكية مثلا..

وقامت قيادة قوات التحالف أيضا ببث الخوف في نفوس الصحفيين، وذلك بقصف فندق فلسطين الذي كان حاشدا بهم، وأنذرتهم أن عليهم الخروج من بغداد.. «لن نضمن حياة أحد»، هكذا قيل لهم حتى لا ينقل أحد منهم مجازر المدنيين أثناء مهرجان الرعب فوق العاصمة العراقية.. وعلى جانب آخر، كانت هناك ضغوط مارسها البنتاجون والإدارة الأمريكية على الحكومات العربية وكذلك على مؤسسات الإعلام الأمريكية وحتى على الكونجرس؛ حيث تم تهديد الأعضاء بأن من يقف منهم ضد موازنة الحرب التي قدمها البيت الأبيض سيفقد المواقع النافذة في اللجان البرلمانية..

وقد أثمرت كل ألوان الضغوط هذه بالفعل؛ ففي أمريكا كانت الصورة التي عرضتها الشاشات صورة مجتزأة للحرب.. لم يظهر قصف المدنيين في العراق بشكل كافٍ، تماما كما لم يُعْطَ وزن مناسب للمظاهرات العالمية المناهضة للحرب في أنحاء العالم، واحتفت معظم محطات التلفزيون في دول التحالف ببث صور العراقيين المكرهين على رفع أيديهم إلى أعلى أو الانبطاح أرضا وفوهات البنادق

فوق رؤوسهم، وهو المشهد الذي أدانته الناطقة باسم اللجنة الدولية للصليب الأحمر.. في الخلاصة، كانت الشبكات الأمريكية الإذاعية والتلفزيونية في مجملها تروج للحرب دون سؤال أو تمحيص، وكان هذا ما صدم تيد تيرنر رئيس CNN وجريج دايك مدير عام الـ BBC حسبما قالا في كلمتيهما أمام نادي الكومنولث في سان فرانسيسكو بعد انتهاء الغزو مباشرة..

تحدثت عن دور الإعلام الأمريكي في غزو العراق بالتفصيل في كلمة لي بمنتدى الإعلام العربي في دبي عام ٢٠٠٣، وقلت إن بغداد وحدها ليست هي التي سقطت، ولكن حرية الإعلام سقطت يوم سقوطها أيضا، وطلبت من زملائنا الصحفيين في الغرب وفي الولايات المتحدة بالذات أن يكفوا عن إعطائنا الدروس في موضوعية الإعلام واستقلاله، ولكنني انتقدت أيضا وسائل الإعلام العربية التي كانت قد وقعت في حرج بالغ وقتها.. وضعت الحرب مصداقية النظام العربي ذاته في الاختبار، وانكشف أنه وقف عاجزا مستسلما كأنه راضٍ بما حدث إن لم يكن متورطا فيه..

* * *

كنت أقدم برنامجي «رئيس التحرير» في التلفزيون المصري عندما بدأ التلويح بالغزو الأمريكي، وكان موقفي واضحا ضد الغزو، وضد السياسة الخارجية المصرية الممالئة للولايات المتحدة، وكان صديقي الدكتور علي المشاط سفير العراق لدى اليونسكو (مدير «عربسات» السابق) قد رتب لي موعدا لإجراء حديث مع الصحاف، بحيث أصل بغداد يوم ٢٦ فبراير وأغادر في اليوم التالي، أي قبل الغزو بأسابيع.. وكان تقديري أن وزارة الإعلام عندنا لن تواتيها الشجاعة لإلغاء الحديث أو إيقاف البرنامج وإن كانت ستثير في وجهي كل المنغصات الممكنة.. وقد لجأ المسئولون في التلفزيون إلى ذلك بالفعل منذ بدأت التنديد بالسياسة الأمريكية، واستمر الاحتكاك والتفاوض والأخذ والرد بيني وبينهم، وكنت ألجأ إلى الوزير صفوت الشريف في كثير من الأحيان لفض النزاع وأحيانا ما كنت أنجح، لكنه كلما كان الغزو يقترب كان التوتر يزداد، وتزداد معه القيود والقص واللصق على نحو يشوه الرسالة التي كنت أود إبلاغها للناس، ثم صعَّد التلفزيون تشدده «فهلهلت» الرقابة حلقة الاثنين ١٧ فبراير

قبل إذاعتها، ومع ذلك منعت بثها في القناة الفضائية في اليوم التالي، ووضعت مكانها بعض أغاني الفيديو كليب..

اتخذت بعد هذه الأزمة قراري بأن ألغي السفر إلى بغداد، وأن أوقف البرنامج الذي كان على وشك أن يوقف في كل الأحوال، ولكنني بدلا من الغياب المفاجئ عن الشاشة أردت أن يعلم المشاهدون السبب على الرغم من أن الكثيرين منهم كانوا يدركونه وأن عديدا من الصحف كتبت عنه، وهكذا سجلت الحلقة الأخيرة يوم ١٨ مارس كالمعتاد، واختتمتها كما اختتمت سابقاتها بالكلمات المأثورة، ولكنني في هذه المرة رقمت الأقوال بالتسلسل فقلت: ١، ٢، ٣.. إلى ١١ أو ١٢ كما أذكر، وكان تقديري أن الرقيب سيحذف بعضا من هذه الأقوال، وأنه بغبائه المعتاد لن يتنبه إلى عدم تسلسل الأرقام، وهكذا فعندما تذاع الحلقة سيتأكد المشاهد أنها تعرضت لمقص السلطة.. وهذا ما حدث بالضبط.. أذيعت الحلقة بأقوالها المأثورة وأرقامها التي كانت تقفز من ١ إلى ٤ إلى ٦ إلى ٩، ومنعت إذاعتها في اليوم التالي في الفضائية المصرية، وكانت آخر حلقة على الشاشة من برنامج «رئيس التحرير»، اعتزلت بعدها العمل في التلفزيون المصري، وإن كانت لذلك ذيول أفصلها في مكان آخر من الكتاب..

قال محمد فائق وزير الإعلام الأسبق: «لا أعرف شخصا لا ينظر إلى الأمام قبل أن يتخذ قراره مثل حمدي قنديل». والواقع أنه على حق، فعندما يستحيل عليَّ التوافق مع المكان الذي أعمل به أغادره على الفور، ولا أتريث حتى أعثر على عمل آخر.. تكرر هذا مرات عدة، وفي كل مرة أتوكل على الله وأرحل، وفي كل مرة كان هناك عمل جديد ينتظرني، وكثيرا ما كان بشروط أفضل..

ذهبت بالبرنامج فيما بعد إلى قناة «دريم»، وعندما واجهت مصاعب أخرى، توجهت في ٢٠٠٤ إلى قناة دبي ببرنامج «قلم رصاص».. في الإمارات، في «أبو ظبي» بالتحديد، التقيت مرة أخرى بالصحاف بعد أكثر من ثلاثين سنة على لقائنا الأخير في بغداد.. كنت أتابعه على الشاشة بالطبع طوال الغزو الأمريكي، وبعد الغزو علمنا من الصحف أن القوات الأمريكية ألقت القبض عليه ثم أفرجت عنه ربما لأنه لم

يكن ترسا أساسيا في الحكم، بل كان البعض يعتبرونه، كشيعي، دخيلا على النخبة الحاكمة السنية (ولو أن طارق عزيز المسيحي كان واحدا من هذه النخبة)، وصرحت سلطة بريمر له ـ بعد تدخل ديبلوماسي من الإمارات كما علمت ـ بالسفر على طائرة إماراتية خاصة إلى «أبو ظبي»..

في يونيو ٢٠٠٣، كان الصحاف قد ظهر لأول مرة في حديث أجرته معه قناة «أبو ظبي»، وفاجأني يومها بجسمه الهزيل وبالشيب الذي غزا رأسه، وربما نبهني ذلك إلى أن العمر يجري بنا جميعا، وإلى أنه قد يفاجأ هو الآخر إذا ما رآني بعد كل هذه السنوات.. وعلى الرغم من ذلك فقد لاحظت أنه كان ثابتا طوال الحديث، لم يهتز للأسئلة المتعاقبة التي انهالت عليه، وإن كان قد أجاب عنها جميعا إجابات مقتضبة.. وفي اليوم التالي ظهر على قناة «العربية»، ومرة أخرى تراوحت ردوده بين أن «الصورة ليست كاملة لدى معظم الناس»، وأن «الوقت لم يجئ بعد لرواية ما حدث».. ولكنه اختتم حديثه بالقول إنه ليس نادما أبدا وبأنه اعتزل السياسة..

عندما التقيته بعدها في مجلس الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان وزير التعليم العالي كان لقاؤنا بالأحضان، وأظن أن الدموع اغرورقت في العيون، لست أدري أسى لما أصبح عليه حالنا، وكل منا طريد بلاده، أم حال أوطاننا.. وعلى الرغم من أننا جلسنا إلى بعضنا طويلا مرات عديدة فيما بعد، فإنني احترمت صمته الذي ربما يكون قد اضطر له كلاجئ سياسي، وربما يكون قد اختاره حتى تحين لحظة مواتية عندما يذهب زمن العلوج..

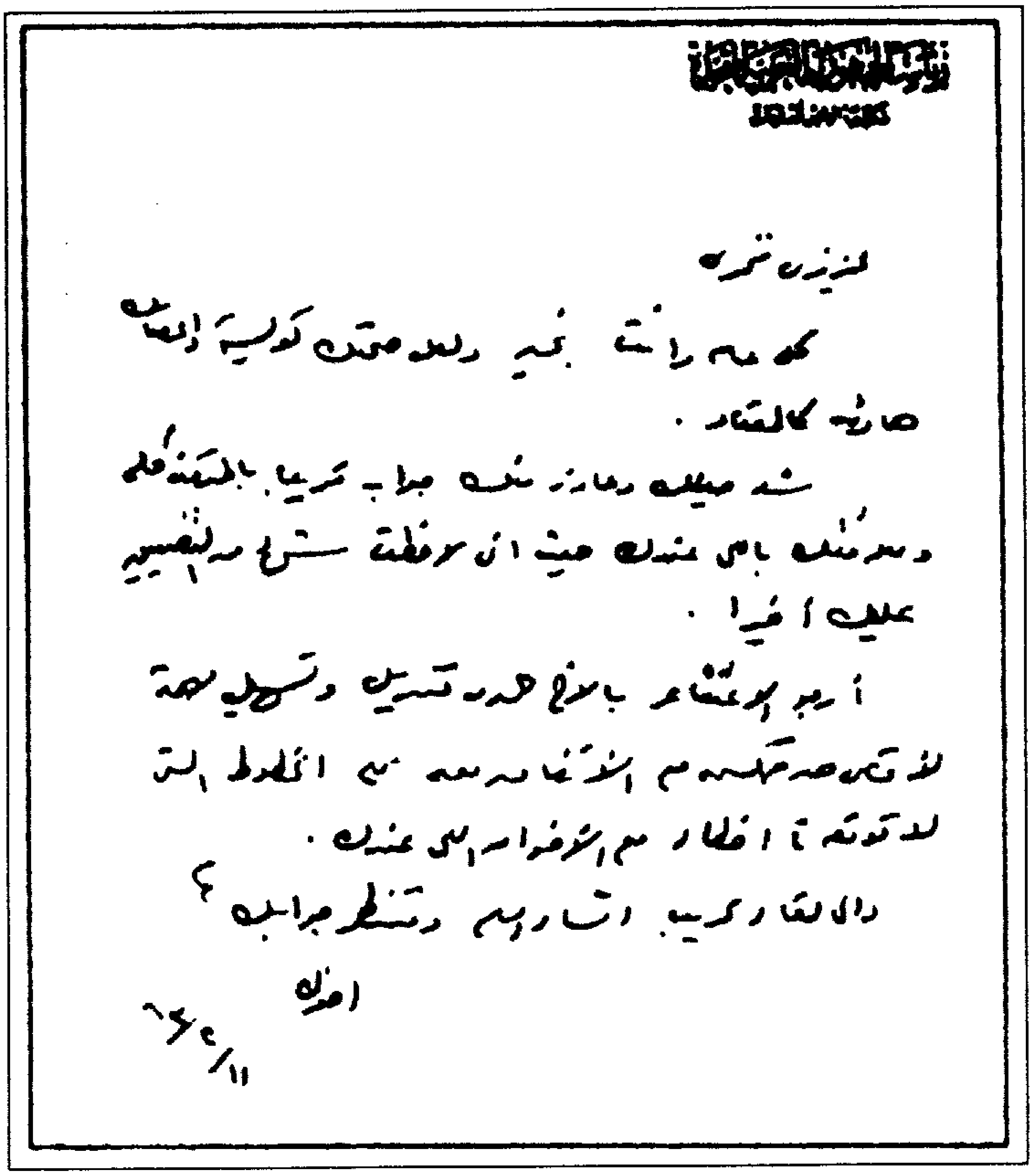

خطاب توصية من سامي شرف إلى فخري عثمان السكرتير الثالث بالسفارة المصرية في بغداد بمناسبة سفري إلى العراق (١٩٦٣).

(١١)

على جدار برلين

١٩٦٤ - ١٩٦٧

◆ ◆ ◆

ظلت مصر تغري ألمانيا الشرقية أنها في طريقها للاعتراف بهـا، وتغري ألمانيا الغربية أنها الممثل الشرعي الوحيد للألمان.. وأظن أن كل الأطراف كانت تدرك نوايا بعضها البعض، وكان كل منها يحاول اقتناص أي مغنم من الآخرين.

◆ ◆ ◆

«أحضرت لكِ يا حبيبتي زهرة الصبار من مصر.. أرجو أن تسعدك هذه الزهرة؛ فقد سرقتها في ليلة مقمرة».

اختفى محمود في المساء.. سألت عنه في الفندق الذي كنا نقيم فيه في برلين الغربية، «فندق وبنسيون بوجوتا»، فأبلغوني أنه غادر الفندق وأنه لم يترك لي رسالة، ثم تكرر اختفاء محمود في المساء لعدة أيام متتالية، وعندما كنت أسأله عن السر كان دائما ما يجيب بأنه سيبلغني فيما بعد.. ظننت في البداية أنه ربما يكون قد تعرف إلى فتاة يريد إخفاءها عني، لكنني كنت أعرف أن موظفة الاستقبال في الفندق «إنجريد شير» كانت تحيطه بالاهتمام وتغرقه بالغزل..

بعد عدة أيام قادتني قدماي وأنا أتريض في المنطقة المجاورة للفندق إلى مفاجأة لم أتوقعها قط، عندما وجدت «محمود» يتوقف أمام فيلا صغيرة ويطرق الباب الخارجي.. يا إلهي، هذه فيلا أحد الأساتذة الألمان في المعهد الذي ندرس فيه، كان قد دعانا فيها إلى حفل استقبال صغير منذ عدة أسابيع، لكننا قطعنا صلتنا به عندما تبينا أنه معادٍ للعرب.. انتظرت «محمود» في الفندق وسألته: «لماذا تذهب إلى هذا الرجل؟»..

رواية محمود كانت صاعقة.. الأستاذ الألماني كان قد دعاه إلى منزله قبل أيام، وطال الحديث بينهما، لكن الخلاصة هي أن الرجل يقول إن الصحفيين العرب متشددون وضيقو الأفق، وإنهم عادة ما ينحازون إلى الفلسطينيين دون تفكير، وإن واجب الصحفي أولا أن يبحث عن الحقيقة وأن يكون موضوعيا؛ لذلك عرض الرجل على محمود الذهاب إلى إسرائيل خلال إجازة منتصف الدورة الدراسية، وكانت مدتها أسبوعين، ليتعرف على الأحوال هناك بنفسه، وطمأنه أن أحدا لن يعرف بأمر الزيارة لأنه سيسافر بجواز سفر أرجنتيني، وأن عليه هو أن يصطنع رواية لإخفاء الأمر عني، كأن يقول مثلا إنه سيقضي الأسبوعين في رحلة إلى أماكن أخرى في أوروبا، ويترك له تدبير الباقي..

اتفقنا معا على أن يستمر محمود في مسايرة الرجل في الوقت الذي نبلغ فيه القاهرة، وننتظر ماذا ترى.. هكذا سافرت في عطلة نهاية الأسبوع إلى العاصمة «بون» لأقابل

واحدا من الرجلين اللذين أعرفهما هناك؛ اللواء محمد صادق الملحق العسكري في السفارة (وزير الدفاع فيما بعد) أو صديقي سند أبادير مدير مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط.. خشيت أن أتصل بأحدهما قبل السفر لأتأكد من وجوده في بون خوفا من أن تثير المكالمة ريبة أحد، وركبت الطائرة، ومن المطار ذهبت مباشرة إلى السفارة، وكان اللواء صادق هناك، وكان يربطني به نسب، فرويت له القصة وأبلغته أنني أود أن أستشير الدكتور «حاتم» فيما يمكن أن نفعله.. كنت ـ في حقيقة الأمر ـ أميل إلى أن يكمل محمود المشوار ويذهب إلى إسرائيل، فربما تكشَّفت لنا في هذه الأثناء أمور أخرى أهم، ولكن اللواء «صادق» لم يفصح عن رأيه.. طلب مني أن أجلس في غرفة مجاورة لأكتب رسالتي إلى الدكتور حاتم، ووعدني بإرسالها بالشفرة على الفور..

وما كدت أعود إلى فندقي في برلين في اليوم التالي حتى تلقيت مكالمة قال لي فيها المتحدث: «أخوك بيقول لك مفيش داعي تشتري البلوفر».. كانت تلك هي الشفرة التي اتفقت عليها مع اللواء صادق إذا ما رفض الدكتور حاتم الاستمرار في اللعبة.. وعندما أبلغت «محمود» بدا عليه كما لو كان قد تخلص من عبء ثقيل: «أحسن، كفاية شدة أعصاب»..

محمود هو محمود شكري العدوي، كبير المحررين في قسم الأخبار في التلفزيون عندئذ، وصديقي إلى الآن.. وكان التلفزيون قد أوفدنا إلى برلين الغربية في نوفمبر ١٩٦٤ لمدة أربعة أشهر للدراسة في «معهد برلين للإعلام في الدول النامية» بمنحة من الحكومة الألمانية، وكان المعهد تابعا لمؤسسة «آكسيل شبرنجر»، وهي واحدة من أكبر دور النشر في ألمانيا الغربية ولا تزال، وكان مبنى المعهد ملاصقا لجدار برلين الذي يفصل بين الشرق والغرب..

من كل نوافذ المعهد كنا نرى هذا الجدار، بل ونظم المعهد لنا أيضا ـ في أول عطلة لنهاية الأسبوع ـ جولة لتفقد الجدار بعرض برلين كلها.. لم يكن بناء الجدار منتظما؛ ربما لأنه أقيم على عجل، فتجد منه أقساما من الطوب وأخرى من ألواح الأسمنت أو من أعمدة الحديد المتشابكة، ولكنها جميعا معززة بالأسلاك الشائكة أو بقطع الزجاج المكسر.. وفي بعض المناطق يوجد خلف الجدار جدار آخر، وبينهما ما يسمى

«شريط الموت»؛ إشارة إلى أن المنطقة كانت منطقة مفضلة لهروب الألمان الشرقيين إلى الغرب، وفيها قتل كثيرون منهم رميا بالرصاص.. قال دليلنا السياحي إن هناك مناطق أخرى خلف الجدار إما أنها مزروعة بالألغام وإما مروية بالماء دائما بحيث تظهر فيها آثار أقدام الهاربين ويسهل التعرف عليهم، وكان واضحا لنا أن التعزيزات الأمنية محكمة، وأن نوافذ المباني الملاصقة للجدار سدت بالطوب والأسمنت.. وفي منطقة أخرى لاحظنا أن الجدار فصل بين الموتى في المدافن، ومهما كان في هذا المشهد من قسوة إلّا أنه من المؤكد أن الأحياء في الجانبين عانوا من تقسيم برلين إلى برلينين؛ مدينتين معزولتين تماما عن بعضهما البعض، ومختلفتين تماما..

كانت برلين قد قسمت في نهاية الحرب العالمية الثانية إلى أربع مناطق كل واحدة منها تحتلها إحدى القوى المنتصرة في الحرب؛ أمريكا وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي، في حين احتل السوفييت شرق ألمانيا واحتل الغربيون غربها، ثم قامت في الغرب جمهورية ألمانيا الاتحادية وفي الشرق جمهورية ألمانيا الديموقراطية..

هكذا تعزز التقسيم بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي، واشتدت الحرب الباردة بينهما خاصة بعد إعلان برلين الشرقية عاصمة للجمهورية الديموقراطية، وأصبحت برلين الغربية، بحكم موقعها الجغرافي، معزولة في الشرق محاطة بألمانيا الديموقراطية من كل جانب، وكان الحلفاء يمدونها باحتياجاتها كافة نقلا بالطائرات.. لكن الوضع ازداد في التأزم بسبب هجرة نحو ٣ ملايين من سكان الشرق طمعا في حياة الغرب المبهرة، وكان معظم المهاجرين من الطبقات العليا في المجتمع والمتعلمين والعمال المهرة، وكان معظمهم يهرب عن طريق برلين الغربية؛ لذلك بدأت ألمانيا الشرقية في بناء الجدار الفاصل في برلين، وأخذت في تحصينه مع مرور السنين، ومنعت سكان الغرب من دخول برلين الشرقية التي كانوا يتسللون إليها من قبل لشراء احتياجاتهم كافة بربع أسعارها أو أقل بعد انهيار المارك الألماني الشرقي..

كنا نقيم وقتها في فندق صغير في وسط المدينة، كنا محظوظين أنه يبعد عدة خطوات فقط عن «كورفورستندام» الذي يسمونه اختصارا «كودام»، ويعتبر بالنسبة إلى أهل برلين بمثابة «الشانزليزيه» في باريس.. لذلك كنا كثيرا ما نذهب إليه في

المساء كما يفعل سكان برلين عادة، ونمشي، أو نشتري سندويتشات الـ«فورست» Wurst (الهوت دوج الألماني)، وربما نكافئ أنفسنا بين حين وآخر بوجبة غداء في أحد المطاعم المكشوفة إذا كان الجو مشمسا.. وكانت الحركة دائبة لا تنقطع في «الكودام» صباحا أو مساء، وكان به عدد لا يحصى من المحـال التجارية التي تعرض سلعها بعناية في «فترينات» براقة وأنوار زاعقة..

يقودنا «الكودام» بعد عدة دقائق سيرا على الأقدام، إلى المعهد.. وكنا قد اعتدنا الذهاب إليه في تمام الثامنة صباحا ومغادرته في الخامسة بعد الظهر.. كان معنا نحو ٤٠ دارسا، معظمهم من الصحفيين الأفارقة، وكان المحاضرون من أبرز الصحفيين في ألمانيا الغربية والمسئولين في محطات التلفزيون وكذلك أساتذة الإعلام في الجامعات الألمانية والأمريكية أيضا.. كانت الدراسة مفيدة، وإن كانت المحاضرات محمـلة بالقيم الغربية في الأخبار وفي السياسة كما لابد أن يكون متوقعا..

وكانت إجازة منتصف الدراسة مثيرة للغاية؛ إذ قسموا الدارسين إلى مجموعات طافت كل منها بالمدن الألمانية الهامة في مواعيد مختلفة حتى لا تتكدس جميعا في مكان واحد، في وقت واحد.. ذهبنا إلى بون وكولون وهامبورج ودوسلدورف وشتوتجارت وميونيخ، وزرنا محطات التلفزيون والإذاعة ودور الصحف، وأحيانا ما حضرنا ندوات في مؤسسة لإنتاج الأفلام أو في مجلة اقتصادية، ولكن برنامجنا تضمن أيضا بعض الزيارات الدعائية مثل جولة في مصنع كمصنع «يونيليفر» أو اجتماع في مكتب الحكومة للاستعلامات، وكانت ترافقنا مترجمة من «إذاعة برلين الحرة»؛ وكر الدعاية الموجهة إلى ألمانيا الشرقية (الديموقراطية).. وعندما عدنا بالطائرة إلى مطار «تمبلهوف» في برلين، كادت أجنحة الطائرة أن تلامس المباني؛ ذلك أن المطار يقع في وسط المدينة تماما ومساحته محدودة للغاية، ولهذا عندما هبطت الطائرة بدأ تشغيل المكابح على الفور حتى لا تتعدى مدرج المطار القصير..

لم يكن قد تبقى على انتهاء الدراسة سوى ستة أسابيع رتيبة قضينا أغلب أوقاتنا خلالها في الاستذكار استعدادا للامتحان الذي حصلت فيه لحسن الحظ على المركز الأول، وألـقيت خطابا باللغة الألمانية في يوم التخرج نيابة عن الدارسين، وكنا

ندرس الألمانية طوال دراستنا بالمعهد، وقد تفوقت فيها مقارنة بغيري، وإن كنت قد استعنت في كتابة الخطاب بأحد الأساتذة الألمان.. لم أستخدم الألمانية كثيرا فيما بعد؛ ولهذا لم يعد يعلق منها بذاكرتي سوى تلك الكلمات التي تستخدم عادة في المقاهي أو سيارات التاكسي..

* * *

كنت قد قررت أن أزور برلين الشرقية قبل أن تنتهي الدراسة؛ إذ كيف آخذ الطائرة للتنقل بين مدن الغرب جميعا، في حين لا يفصلني عن برلين الشرقية سوى هذا الجدار.. وهكذا ذهبت إلى مدير المعهد، وقلت له: «أتصور أنني لست مضطرا إلى استئذانك يا سيدي، ولكنني احتراما للعلاقة التي تربط بيننا وبينك جئت لأخطرك أنني سأنتهز إجازات أعياد الميلاد لأذهب غدا إلى برلين الشرقية».. بدت على الرجل علامات غضب شديد، ولعلني سمعت أسنانه تصطك وهو يقول: «مستر قنديل، الدارسون هنا ممنوعون من زيارة برلين الشرقية».. أجبت باقتضاب: «إذن فعليكم أن تتوقفوا عن كلامكم عن الحريات، وعن حرية التنقل بالذات»، وخرجت..

اتفقت مع صديقي عبد الوهاب شعلان، وهو صيدلي مصري مقيم في غرب برلين منذ سنوات، على أن نذهب إلى برلين الشرقية في الغد حيث أبيت هناك ليلتين، ولكنه نبهني إلى أنني لو كنت ذاهبا للتسوق فلن يكون بمستطاعنا هذه المرة العودة بسهولة بالبضاعة التي سأشتريها؛ لأن الرقابة قد شددت على البوابة بعد أن ألقي القبض في شهر أكتوبر على اثنين من الدبلوماسيين العرب، هما نائب القنصل اليمني ونائب القنصل السوري، وكانا يقومان منذ فترة بتهريب مواطني ألمانيا الشرقية إلى برلين الغربية في حقائب سياراتهم مقابل ١٠ آلاف مارك للشخص الواحد.. وقد ضبطا متلبسين، واكتفت حكومة ألمانيا الديموقراطية بطلب سحبهما من منصبيهما دون أن تقدمهما إلى المحاكمة..

أوضحت لعبد الوهاب أنني لست مهتما بشراء أي شيء، وأنني ذاهب إلى الشرق لأقابل أصدقائي هناك.. وذهبنا.. عبد الوهاب يعرف الطريق جيدا، ويسلكه مرة أو أكثر كل أسبوع ليشتري حاجياته من برلين الشرقية بخمس ثمنها، فقد كان المارك

الغربي وقتها يساوي رسميا ماركا شرقيا، ولكنك إذا ذهبت إلى أي محل لتغيير العملة في برلين الغربية فستحصل على خمسة ماركات شرقية؛ لذلك كانت ألمانيا الديموقراطية تمنع دخول عملتها مع الزوار، وتجبر الأجانب على تغيير مبلغ محدد بالسعر الرسمي في بنوكها..

توجهنا إلى المعبر الوحيد للأجانب، معبر تشارلي Checkpoint Charlie، وهو مجرد كشك في وسط الطريق، وحاجز تعبره من الغرب دون أن يستوقفك أحد، أما في الناحية الأخرى فتدفع خمسة ماركات غربية، ثم تفتش السيارة تفتيشا دقيقا بالمرايا التي توضع تحتها، كذلك يوضع سلك حديدي طويل في «تانك» البنزين للتأكد من أنك لا تهرب فيه أشياء أخرى.. بعد دقائق تجد نفسك في ميدان ألكسندر؛ قلب برلين الشرقية.. في هذا الوقت القصير للغاية، وجدت نفسي قد انتقلت من عالم إلى عالم مغاير تماما.. بعد برلين الغربية، المدينة الصاخبة العامرة بالحياة التي تضج بالحركة وتزخر بمباهج الدنيا، إذا بك في مدينة ساكنة عابسة، مبانيها داكنة رتيبة، ومحالها التجارية لا تعرف إن كانت مغلقة أو مفتوحة.. الشوارع واسعة والسيارات فيها قليلة، معظمها سيارات قديمة وصغيرة، مثل «ترابانت»، السيارة الشعبية، أما السيارات الأكبر فهي إما أن تكون «فيات» مصنوعة في بولندا، وإما مستوردة من روسيا.. أخذ عبد الوهاب يحدثني عن برلين الشرقية وما فيها حتى وصلنا إلى فندق «بيرولينا»..

تركني عبد الوهاب ليتسوق ويعود إلى برلين الغربية، واتفقنا على أن يأتيني بعد يومين لنعود معا.. كان أصدقائي في تلفزيون ألمانيا الديموقراطية قد حجزوا لي غرفة في الفندق الذي كان واحدا من أفضل فنادق برلين الشرقية.. على الرغم من أن الفندق كان أنيقا ونظيفا فإن غرفه كانت ضيقة، ولكن ما عوض ذلك هو جهاز التلفزيون الذي يعرض ثلاث قنوات من برلين الغربية، بعكس أجهزة التلفزيون الألمانية المعروضة في الأسواق التي لا تجد فيها قناة غربية واحدة..

في المساء دعتني «كريستال هوندورف» مديرة العلاقات الدولية في تلفزيون ألمانيا الديموقراطية لعشاء عيد الميلاد في بيت شقيقها، وهناك أخذت زوجته تعتذر لي بشدة لأنها سرقت زهرة صبار من حديقة قصر المنتزه في الإسكندرية عندما

زارتها في العام السابق، وقد عللت ذلك بأن هناك أغنية شهيرة كانت لا تزال رائجة في بلادها عن هذه الزهرة.. كانت الأغنية تحمل اسم الزهرة باللاتينية «كاكتوس»، وكانت لواحد من أبرز المطربين هناك، «بولي بولان».. تقول الأغنية: «أحضرت لكِ يا حبيبتي زهرة الصبار من مصر.. أرجو أن تسعدك هذه الزهرة، فقد سرقتها في ليلة مقمرة»..

اشتريت الأسطوانة في اليوم التالي من محل «إلكترا» الضخم في وسط برلين، وكنت قد اتفقت مع «فريتز باير» المذيع في إذاعة برلين على أن نلتقي هناك، ونتوجه معا لتناول الغداء.. فريتز كان شابا متفتحا، وكان عمله يسمح بلقاء الأجانب دون أن يلاقي متاعب من جانب رجال الأمن الذين قيل لي إنهم منتشرون في كل مكان، وإنهم لا يعتبرون الاختلاط بالأجانب شيئا طيبا.. ذهبنا إلى مطعم لابد أنه دقَّق في اختياره، وكانت الخدمة فيه سريعة ومهذبة على عكس ما شحن به عبد الوهاب أذنيَّ من فرط انحيازه المفهوم للحياة في الغرب، ولما عرف فريتز أنني أقمت في برلين الغربية نحو شهرين كان لابد للحديث من أن يدور حول الشرق والغرب..

قال: «أعلم أنك هناك في مدينة تتلألأ بالأنوار، وتجد فيها أي سلعة تطلبها، لكنها مدينة مصطنعة، لو لم يكن الأمريكيون يغرقونها بالمال الذي يصل إلى نحو بليون دولار سنويا لما أمكنها أن تعيش، وهذا هو شأن ألمانيا الغربية كلها.. لا تنسَ أن برلين الغربية هي واجهة الغرب، ولذلك لابد لها أن تكون جذابة، أي لتجذبنا إليها أو على الأقل لنصبح ونمسي ونحن نلعن نظامنا الاشتراكي».. قلت: «ولكن برلين الشرقية هي الأخرى واجهتكم».. قال إن هذا صحيح، ولكن الناس بنوها بأيديهم لا بيد غيرهم.. اعترف فريتز بأن حرية التعبير والمعارضة السياسية ليست متاحة، ومع ذلك فضرورات الحياة كلها موفورة ولا يوجد متسول واحد في ألمانيا الديموقراطية، لكنه أقر أن المساكن ليست كافية، وأن قوائم الحجز فيها طويلة، وأن عديدا من العائلات قد لا تجد مسكنا بالسعة المناسبة لها، وأرجع ذلك أساسا إلى الدمار الذي أحدثته الحرب العالمية، وقال إن الإيجارات بالرغم من ذلك زهيدة للغاية..

حكى لي فريتز عن نفسه، وقال إنه خلال سنوات دراسته كان يتقاضى ـ شأنه شأن كل الطلبة في بلاده ـ نحو ٢٥٠ ماركا في السنة، وإنه زار عددا من الدول الاشتراكية في أوروبا فوجد أن مستوى المعيشة في بلاده ودخل مواطنيها أفضل بكثير، واستطرد يحدثني عن قوة اقتصاد بلاده الذي أصبح يضاهي اقتصاد عدد من دول الغرب.. وعندما افترقنا لم يكن النقاش قد انتهى، ولكنه نقاش سيمتد العمر كله على الرغم من أن شعب ألمانيا الديموقراطية أسقط الجدار، وسقطت معه النظم الاشتراكية في أوروبا كلها..

* * *

طوال إقامتي في برلين الغربية، وخاصة بعد أن ذهبت إلى الشرق، كان السؤال الذي يؤرقني: أي النظامين أفضل، ولماذا هو أفضل، وفي أي الجوانب بالذات؟ ولم أتوقف يوما عن المقارنة بين شرق برلين وغربها، وعن البحث عما يختفي خلف الواجهتين، وكلما أرهقني التفكير في الأمر كنت أريح نفسي بالتعلل أنني محتاج لقدر أكبر من الوقت، أو لقدر أكبر من التجوال في أنحاء البلدين، أو لقدر أكبر من التمكن من الألمانية حتى أستطيع الحديث مع الناس.. ولكنني كنت أود ألّا أعود إلى مصر قبل أن تتضح لي الإجابة، أي نظام بالضبط ذلك الذي يجب على بلادنا أن تتبعه؟ ولم تكن الإجابة واضحة.. كل ما كنت متأكدا منه أنه لابد من طريق ثالث، ولم يكن هذا أمرا جديدا، فقد فكر فيه كثيرون من قبل، بل ونادي به بعض القادة وإن كانوا قد فشلوا جميعا في تطبيقه.. الأدهى من ذلك أننا الآن في مصر، بعد ثلاث سنوات من ثورة نادت بالحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية لم نستطع بعد أن نتكشف هذا الطريق..

لكن هذا كله لم يمنعني وقتها من الاستمتاع ببرلين، دراسة ولهوا.. ما أفسد عليَّ كثيرا من الليالي كان قلقي على والدي الذي كان قد أصيب بمرض في الغدد الليمفاوية يسمى «هودجكين»؛ وهو نوع من أنواع السرطان لم يكن من السهل علاجه في ذلك الحين، وكان الأطباء قد شكّوا في ذلك قبل سفري إلى ألمانيا بأيام، وكان من الصعب عندئذ إلغاء السفر أو تأجيله، فذهبت إلى أصدقائي في قصر العيني، ونقلنا الوالد إلى غرفة خاصة هناك، وكنت واثقا أنه في أيدٍ أمينة، ومع ذلك كنت دائما

في أرق مستمر، على الرغم من أنني كنت كلما كلمتُ القاهرة بالهاتف طمأنوني أن الحالة تتحسن.. وعندما عدت في ٢٦ يناير ١٩٦٥، لم يلبث والدي أن فارق الحياة في ٦ فبراير، أي بعد عودتي بعشرة أيام، وظللت أراه في المنام بين حين وآخر حتى عهد قريب، وكأنما هو يعيش في مكان مهجور بأسمال بالية.. هي عقدة الذنب التي كانت تلاحقني لأنني لم أكن بجانبه طوال مرضه الأخير..

* * *

لم أعد من برلين مباشرة إلى القاهرة إذ كنت قد أبلغت هيئة الإذاعة البريطانية BBC قبل شهور أنني قادم إلى لندن في يناير، فرتبت لي مواعيد للقاء مَنْ طلبت لقاءهم؛ ولذلك لم أجد بُدّا من الذهاب، وإن كان قلقي، وربما حدسي، دفعاني إلى اختصار الزيارة إلى ثلاثة أيام فقط على الرغم من أنها كانت المرة الأولى التي أذهب فيها إلى إنجلترا.. ذهبت بالطائرة، ومن المطار توجهت إلى الفندق الذي حجز لي فيه الدكتور عبد الله البشير، المستشار الثقافي في السفارة.. الواقع أنه لم يكن فندقا، وإنما مجرد «بنسيون» متواضع في بناية من طابقين في شارع «ساسكس جاردنز».. كان إيجار الغرفة خمسة جنيهات إسترلينية في الأسبوع دفعتها صاغرا على الرغم من أنني لن أقضي الأسبوع كله، وكانت الغرفة بسيطة للغاية.. أذكر أنني وجدت فيها مدفأة بالغاز كنت أضع فيها «شلن» عند عودتي في المساء كي تعمل بضع ساعات لتنقذني من برد لندن القارس.. كانت المفاجأة المفجعة أنه لم يكن هناك جهاز تلفزيون حتى في القاعة الرئيسية بالبنسيون مع أنني كنت قد نبهت البشير إلى ذلك، وقلت له إن زيارتي تستهدف مشاهدة التلفزيون، وإجراء المقابلات في BBC، وكذلك شراء بعض الكتب..

في الـ BBC، كانت قد حددت لي أربعة مواعيد؛ مع «ويندهام جولدي» رئيسة مجموعة الأحاديث وبرامج الأحداث الجارية، ومع «ماجواير» رئيس تحرير أخبار التلفزيون، ومع «ألاسدير ميلني» مدير إنتاج برنامج «هذا المساء».. هناك اكتشفت أن تسميات الوظائف تختلف إلى حد بعيد عن التسميات التي نستخدمها في التلفزيون عندنا؛ فمدير الإنتاج لدينا يعنى بالشئون اللوجستية وحدها، أما هناك فهو الشخصية

الأولى التي تتحكم في قالب البرنامج ومضمونه؛ ولهذا لم يكن غريبا أن أسمع بعد ذلك بسنوات أن ميلني أصبح المدير العام لـBBC.. أما الموعد الرابع فكان مع بعض العاملين في مواقع مختلفة في البرنامج الشهير «هكذا كان الأسبوع الماضي» That Was The Week That Was، ولكني لم أفلح في لقاء مقدمه المذيع الشهير «دافيد فروست» (الذي أنعم عليه بلقب سير فيما بعد)..

كان البرنامج واحدا من أشهر البرامج الإخبارية الساخرة في تاريخ هيئة الإذاعة البريطانية، وكان من أهم أسباب شهرته أنه تصادف انطلاقه مع «فضيحة بروفيومو» التي كانت حديث بريطانيا والعالم عندما أقام وزير الحربية جون بروفيومو علاقة مع كرستين كيللر التي كانت عشيقة لجاسوس سوفيتي، وعندما استجوب مجلس العموم الوزير عن هذه العلاقة وكذب في شهادته، لم يقتصر الأمر على اضطراره للاستقالة ولكن سمعة رئيس الوزراء هارولد ماكميلان تلطخت واستقال فيما بعد.. بالطبع، كان بروفيومو صيدا غنيا لفروست تسلى بالسخرية منه أسابيع متتالية..

كان البرنامج في ذلك الوقت يجتذب ١٢ مليون مشاهد عند إذاعته ليلة السبت، ولذلك كان من الصعب على BBC أن تسيطر عليه، وحتى الآن لا تزال الكتب التي توثق تاريخ الهيئة تذكر أن أحدا لم يكن يستطيع أن يوقف البرنامج إذا ما تعدى وقته المحدد بعدة دقائق، وكان هذا ـ بخلاف الحال لدينا ـ يعتبر مصيبة كبرى في BBC.. كذلك لم يعلق أحد بكلمة عندما اختصر البرنامج حلقته عن مقتل كيندي إلى ٢٠ دقيقة؛ حيث لم يكن الحدث يستدعي كثيرا من الكلام أو شيئا من السخرية (في ٢٠٠٢ عندما اختصرت برنامج «رئيس التحرير» إلى ١٤ دقيقة لجسامة الأحداث في فلسطين وفشل مؤتمر القمة، قامت الدنيا ولم تقعد).. لكن الهيئة كانت تترصد للبرنامج، خاصة عندما احتجت عدة جهات وبعض دول على عدد من حلقاته، فانتهزت فرصة إجراء الانتخابات العامة في بريطانيا وأوقفته بحجة أن «هذا عام انتخابات سوف تؤثر فيه إذاعة المواد السياسية على حياد BBC» (الأمر الذي يذكرنا بما جرى لبرنامج الدكتور باسم يوسف مؤخرا)..

اكتملت الزيارة إلى لندن ببعض التسوق، على الرغم من أنني كنت قد اشتريت معظم ما أريد من برلين الغربية، واشتريت أيضا آلة تصوير «لايكا» رائعة من برلين

الشرقية.. أذكر أنني عدت بكثير من الهدايا للأهل والأصدقاء؛ إذ بلغ بدل سفري عن الأشهر الأربعة ٩٠٠ مارك صرفتها بموافقة «الإدارة العامة للنقد» كما كانت تقتضي التعليمات عندئذ.. وكنت قد سألت أبي عما يريد، فطلب قماش بدلة صيفيا في البداية، لكنه عاد وقال إنه وصله قماش رائع من صديق له في السعودية، واكتفى بطلب خمس ربطات عنق ليهديها لأطبائه.. وعندما وصلت إلى القاهرة أبلغني أنه ابتدع قصة قماش السعودية حتى لا يرهقني، فزادت هذه الواقعة، مع وقائع أخرى بغير حصر، من وجعي عندما مات.. وكرهت وقتها السفر، وقررت الامتناع عنه لأي سبب لمدة طالت نحو عامين..

* * *

تزوجت في شتاء ١٩٦٦، فقررت تلبية دعوة مؤجلة من ألمانيا الديموقراطية على أن أقضي وزوجتي بضعة أيام عسل في قبرص ونحن في طريقنا إلى برلين.. وعلى الرغم من أنه كان من المفترض ألا تكون الزيارة إلى قبرص زيارة عمل، فإنني كنت شديد الرغبة في الاطلاع على أحوال التلفزيون في العالم؛ ولهذا طلبت من مضيفي محمود رفعت سكرتير أول السفارة، وكان جارا لي في مصر الجديدة، أن يرتب لي زيارة للتلفزيون القبرصي.. اصطحبني في الزيارة «حاجي جوزيف» نائب المدير العام للتلفزيون، وكانت المحطة متواضعة للغاية ورثها القبارصة عن الإنجليز بعد الاستقلال في ١٩٦٠ ولكنهم لم يستطيعوا تطويرها، وكانت تبث خمسة أيام كل أسبوع لمدة ٣ ساعات، ولم تكن تنتج أكثر من ٣ برامج حية في الأسبوع، ولم يكن الإنتاج المحلي يزيد على ١٠٪ من ساعات الإرسال التي احتشدت بالأفلام المستوردة، البريطانية غالبا.. كان هذا هو حال المحطات الصغيرة في العالم كله، لكن قبرص مع ذلك كانت تتباهى أن لديها تلفزيونا في حين لم يكن يوجد وقتها تلفزيون في اليونان ذاتها، التي يعتبرها القبارصة اليونانيون الوطن الأم.. قال لي حاجي جوزيف: «مهمتنا الأولى هذا العام هي تركيب أجهزة تكييف في الإستوديو الوحيد عندنا»، وأظن أنه كان محقا في ذلك إذ إن المذيعين كانوا يحتجبون عن الظهور على الشاشة في الصيف حتى لا يتصبب العرق على وجوههم..

الدرس المهم الذي استفدته من زيارتي للتلفزيون لم يكن له شأن بالأخبار ولا بالبرامج.. كان متعلقا بالإعلانات.. ففي معرض حديثنا قال جوزيف إنه يرفض أن يترك للمعلنين حرية التصرف في البرامج والتأثير على مضمونها، ليس فقط للحد من نفوذهم وإنما أيضا بسبب الذوق العام، واستطرد يفسر: «لا يمكن أن أسمح بتكرار ما حدث في أمريكا عندما ذهب إليها رئيسنا الأسقف مكاريوس في عام ١٩٦٢ وأجروا معه هناك حديثا في إحدى محطات التلفزيون، بدأه المذيع بالقول: مساء الخير، وما إن رد الرئيس التحية حتى قطع البرنامج لإذاعة إعلان عن حمالة صدر للسيدات، ثم استؤنف مرة أخرى»، وأخذ جوزيف يكرر: «هذا مهين لقبرص.. هذا مهين».. كان درسا بليغا عن الذوق العام الذي لا نزال نفتقده في كثير من قنواتنا..

مكاريوس كان أول رئيس لقبرص بعد الاستقلال وكانت علاقته وثيقة بعبد الناصر وبالعرب، وكانت وثيقة كذلك بسفيرنا اللامع هناك مصطفى لطفي الضابط السابق، وكان يستشيره في عديد من الأمور ويثق في مشورته إلى حد أنه طلب من القاهرة مد فترة خدمته حتى إنها بلغت ٦ سنوات في الوقت الذي كنت فيه هناك، وكنت وقتها أظن أنه السفير الوحيد في الخارجية الذي مكث في عاصمة أجنبية كل هذا الوقت، حتى التقيت فيما بعد بسفيرنا في المغرب حسن فهمي عبد المجيد، الذي أعتقد أنه صاحب الرقم القياسي حتى الآن، وكانت حكايته قد بدأت في عام ١٩٥٩ عندما زار الحسن الثاني مصر في إبريل، وكان وليا للعهد في ذلك الوقت، فتم تعيين حسن فهمي عبد المجيد، وكان مقدما في القوات المسلحة، مرافقا له، وربما كان السبب في ذلك هيئته «الملكية» وقامته الفارهة وشاربه المميز.. وعند انتهاء الزيارة طلب ولي العهد أن يرافقه عبد المجيد إلى المغرب فعينته مصر ملحقا عسكريا لها، وما إن انتهت مدته حتى طلب الحسن الثاني، وكان قد أصبح ملكا على المغرب، مد المدة، وكان هذا ممنوعا طبقا للوائح القوات المسلحة، فعين ملحقا عسكريا في إسبانيا بالإضافة إلى عمله في المغرب على أن يكون مقره في الرباط، وانتهت المدة، وتجدد الطلب، فلم يكن هناك بد من تعيينه سفيرا في المغرب وتجديد مدته كسفير بعد ذلك..

كان عموم الدبلوماسيين في قبرص معتادين على الذهاب إلى الحي التركي في نيقوسيا حيث يتميز الطعام بنهكته الشرقية وسعره الزهيد، وقد ذهبت إلى هناك مرة قاصدا

مطعما اسمه «بكنيك» مع بعض أعضاء سفارتنا الذين كان مسموحا لهم كغيرهم من الدبلوماسيين بالتنقل بسهولة بين شطري المدينة التي وقعت فريسة للنزاع بين القبارصة ذوي الأصول اليونانية وذوي الأصول التركية، وكانت صنوف اللحم المشوى تقدم لنا واحدة بعد أخرى كل عدة دقائق.. وذهبنا إلى هناك وعدنا كذلك ضمن قوافل كانت الأمم المتحدة تنظم توقيتها، وتُحْرَسُ كل قافلة منها بثلاث سيارات مدرعة؛ واحدة في الأمام وأخرى في الوسط والثالثة في المؤخرة.. وكان هناك ما يسمى بـ«الخط الأخضر» بين الجانبيْن زرعت فيه الأسلاك الشائكة، ومنطقة حرام، وكذلك نقطة تفتيش على كل من الجانبين.. وقد لاحظنا آثار المعارك في كل مكان، ولم يكن هناك زجاج في أي مبنى في نيقوسيا يخلو من طلقات الرصاص، ولم تكن الحرب قد أعلنت بعدُ بين الجانبين؛ من ناحية لأن كلا من تركيا واليونان كان عضوا في حلف «الناتو»؛ ومن ناحية أخرى لأن أمريكا كانت مشغولة بحربها في فيتنام..

ومع أن التوتر كان يسود المدينة، إلَّا أن حاجي يوسف دعاني وبعض الدبلوماسيين في السفارة إلى ملهى ليلي اسمه «أركادي»، وفي اليوم التالي ذهبنا في جولة سياحية إلى الجبل حيث شاهدت الفيلا التي كان يملكها الملك فاروق هناك، وقيل إنه كان يلتقي «كاميليا» فيها.. كانت الزيارة إلى قبرص ممتعة، وكادت أن تكون رائعة، لولا أن مركبا مصريا كان يحمل حديدا من بيروت غرق عندما واجهته عاصفة بالقرب من ميناء «ليماسول».. علمت بالخبر وأنا في طريقي إلى المطار متوجها إلى ألمانيا الديموقراطية..

* * *

كنت قد اخترت قبل عامين عضوا في لجنة التحكيم لـ «مهرجان لايبزج للأفلام التسجيلية»، واعتذرت من عدم الحضور لأشارك في وفد مصري، مع ليلى رستم والمخرجة مديحة كمال والمصور رشاد القوصي، ذهب إلى باريس تلبية لدعوة من التلفزيون الفرنسي.. لذلك عزمت على المشاركة في مهرجان ١٩٦٦، وأخذت الطائرة من نيقوسيا إلى مطار «شونفيلد» في برلين الشرقية حيث وصلناه في المساء، وانتقلنا في الليلة نفسها إلى لايبزج بالسيارة، وبالرغم من أن المسافة كانت تبلغ نحو

١٧٠ كيلومترا فإن السفر لم يكن مرهقا.. لعل ذلك كان بسبب طريق «الأوتوستراد» المرصوف بدقة، ولعله أيضا لأن صحبة مرافقنا محمد الحسن لم تكن ثقيلة.. كان سوريّا ذهب منذ سنوات إلى هناك ليدرس الدكتوراه في التربية الرياضية في جامعة لايبـزج، وتزوج فتاة ألمانية، وظل مقيما في ألمانيا..

كان المعهد معروفا في أوروبا كلها، وكانت الحكاية التي دائما ما تحكى عنه أن فيه ١٥٠ طبيبا مقابل ٣ آلاف طالب، وهي نسبة لا توجد في معهد آخر في العالم.. هذا ما قاله لي مدرب الكرة عادل الجزار الذي كان قد حصل للتو على درجة الامتياز في دراسته، مثله مثل عدد آخر من المدربين اعتادت مصر إرسالهم إلى هناك، لكنه قال إن الفريق القومي لكرة القدم في برلين قد أفسد عليه فرحته قبلها بأيام عندما هزم ٦ ـ صفر لصالح الألمان، وأقسم الجزار إنه لولا الاعتبارات السياسية لكانت هزيمتنا أنكى.. وربما يكون ما قاله صحيحا، فقد كانت ألمانيا الديموقراطية حريصة حرصا خاصا على علاقاتها مع مصر؛ إذ بالإضافة إلى مكانتها البارزة في عهد عبد الناصر فقد كانت أول دولة من خارج المعسكر الاشتراكي تفتح قنصلية لها في برلين الشرقية، وتلتها بعد ذلك سوريا والعراق واليمن..

نزلنا في فندق «أستوريا»، وهو فندق فخم في وسط المدينة نزل به المدعوون إلى المهرجان الذين بلغ عددهم نحو ٤٠٠ شخص من أكثر من ٤٠ دولة.. وفي الصباح ذهبنا إلى مقر المهرجان في سينما «كابيتول» التي تبعد عشر دقائق سيرا على الأقدام من الفندق، وهناك التقينا بمدير المهرجان «فولفجانج هاركنتال».. وعندما رآني توسل لي أن أتصل بالقاهرة ليتأكد إذا ما كانت مصر ستشارك في المهرجان هذا العام بأفلام، وقال إنه معتاد على تأخر مصر في الرد على المراسلات دائما (أمر معتاد منذ الستينيات)، وإنها لم تخطره بمشاركة وفد في المهرجان سوى في اليوم السابق فقط، أما بالنسبة إلى الأفلام فقد أرسلت فيلما عنوانه «أربعة أيام خالدة» ولكن الفيلم كان قد أرسل للمهرجان منذ سنتين، بل وفاز بجائزة أيضا.. كان هذا هو اليوم الوحيد الذي مشيت فيه في شوارع لايبزج، أما باقي الأسبوع فقد قضيته متنقلا بين قاعات السينما واحدة بعد أخرى لأشاهد الأفلام التي بلغ عددها نحو ثلاثمائة..

هذا ما أذكره عن لايبزج، أفلام أفلام أفلام، كان بعضها مقززا في دعايته المباشرة للفكر الشيوعي، وإن كان البعض الآخر غاية في الإبهار.. أما فيلم «سيجفريد موللر» فقد روعني حقا، على الرغم من أنه كان أقرب إلى الحوار التلفزيوني.. كان الحديث مع المجرم الدولي موللر؛ وهو ماجور سابق في الجيش الألماني النازي ثم واحد من الضباط المرتزقة في جيش الكونغو أيام تشومبي، وقد اشتهر بأنه كان يستخدم جماجم قتلاه السود طفايات للسجائر.. وكان الفيلم من إنتاج شركة في ألمانيا الشرقية أوفدت طاقمها الذي زعم أنه قادم من دولة غربية ليسجل «بطولات» موللر.. وعلى مدى ساعة كاملة أخذ الرجل يحكي بوقاحة واستخفاف كيف كان يقتل مائة كونغولي بالنهار ويهجع إلى موسيقى موزار بالليل، وأحيانا ما كان يقرأ قداسات على جثث ضحاياه، ويكشف ما بين كأس خمر وأخرى حقائق مذهلة عن تجنيد المرتزقة في ألمانيا الغربية، وربما كان فضح هذه الأسرار السبب الأول في فوزه بجائزة المهرجان الأولى..

ولكن ما علق بذاكرتي بالإضافة إلى الأفلام كان الطعام الذي لا يمكن وصفه بأسلوب مهذب سوى بأنه يفتقر كثيرا إلى الخيال؛ إذ كان يقتصر في معظم الأحوال على البطاطس والـ«فورست».. بالطبع ستجد طبقا كهذا في مطاعم ألمانيا الغربية، وسوف تقدمه اليوم وغدا وبعد غد، ولكنها ستغريك بتقديمه في قالب مختلف كل مرة..

* * *

على الرغم من «الفورست»، عدت إلى ألمانيا الديموقراطية مرة أخرى في العام التالي ١٩٦٧.. كان أول ما يعنيني في هذه الزيارة أن ألتقي «كارل إداورد فون شنتزلر» أشهر المعلقين في تلفزيون برلين، وكان يقدم برنامجا باسم «القناة السوداء»، يتصيد فيه مقاطع منتقاة من برامج محطات التلفزيون في ألمانيا الغربية ليستغلها في الهجوم على الغرب وعلى الرأسمالية، و«كشف أعداء الاشتراكية» كما قال لي عندما التقينا في مكتبه في التلفزيون.. كنت قد شاهدت برنامجه في الليلة السابقة، الاثنين، الذي يذيع فيه برنامجه كل أسبوع في توقيت الذروة.. كانت مدة البرنامج ٢٠ دقيقة، لم أفهم ما قاله فيها بالضبط وإن كنت قد فهمت مقصده من كثرة ما ردد كلمتي «اشتراكية» و«إمبريالية» ومن صياحه وانفعاله الزائدين وتكرار خبط مكتبه بقبضته،

وكان انطباعي الأول عنه أنه ربما يكون خطيبا مفوها، ولكن تقديم برامج التلفزيون يحتاج مهارة مختلفة..

منذ أن بدأ فون شنتزلر يقدم هذا البرنامج في ١٩٦١، انقسم المشاهدون حوله ما بين أولئك الذين كانوا يرون أنه لا يقدم إلّا بروباجندا، والآخرين الذين يرون فيه النموذج للمواطن الاشتراكي الصالح، أما هو فقال لي إنه الصوت الحقيقي للشعب الألماني شرقا وغربا.. في منتصف الستينيات عندما زرته كان يمكنه أن يقول ذلك، لكنه عندما تصاعد الغضب على الحكم فيما بعد، علمت أنه كان الهدف الأول للغاضبين.. مع ذلك فقد ظل يهاجم ألمانيا الغربية بضراوة طوال الحلقات التي قدمها من البرنامج.. وفي الحلقة الأخيرة التي أذيعت قبل سقوط جدار برلين بأيام في ١٩٨٩ قال: «أنا لم أخطئ، وسترون في أيامكم المقبلة أنني لم أخطئ».. وكان محقا، في عيون الملايين من الألمان الشرقيين الذين وجدوا أنفسهم يعاملون معاملة مواطنين من الدرجة الثانية في ألمانيا الموحدة..

على الرغم من أن لقائي مع فون شنتزلر كان همي الأول فإنه لم يكن مدرجا في برنامج دعوتي.. كان «أداميك» رئيس التلفزيون هو الذي دعاني هذه المرة، ولم يكن هذا معتادا من رجل في مكانته عضوٍ في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وكان يسبق بمنصبه هذا وزير الثقافة «جونتر كلاين» الذي كانت صداقتي به قد توطدت هو وزوجته «إنجريد» المخرجة في التلفزيون.. عندما قابلت كلاين أبلغني أنه ليس متأكدا من السبب وراء الدعوة التي وجهت لي، ولكنه يعلم أن هناك مشكلة بين الألمان والمصريين وقعت في مهرجان التلفزيون الدولي في الإسكندرية، وأنه يفضل ألا يحدثني عنها قبل أن يتطرق إليها «أداميك» بنفسه..

انتظرني «أداميك» على العشاء الذي دعاني إليه في فندق «أونتر دين لندن» (أي تحت الشجر)، ولكنه لم ينتظر كثيرا حتى يفاتحني في الأمر.. شاركت ألمانيا الديموقراطية في مهرجان الإسكندرية بفيلم عنوانه «الرجل الضاحك»، ولسبب لا أتذكره أثار الفيلم حفيظة الوفود الغربية، خاصة الوفدين الأمريكي والبريطاني، فأخرجته إدارة المهرجان من المسابقة بحجة أنه وصل متأخرا، وربما يكون قد وصل

متأخرا فعلا، إلَّا أن رئيس الوفد الألماني في المهرجان احتج بشدة، وأثار ضجة لا يرى «أداميك» أن هناك مبررا لها.. قال الرجل: «إننا أخطأنا بالفعل في إدخال هذا الفيلم إلى المسابقة فوضعنا بلدكم في موقف محرج، وأرجو أن تبلغ الدكتور «حاتم» أننا لا نريد أن تشوب العلاقات بيننا وبينكم أي شائبة، وأن الرئيس أولبرشت دائما ما يقول لنا: إياكم أن تورطوا أصدقاءنا العرب في مشاكلنا، وهذا ما أبداه للرئيس عبد الناصر شخصيا عند زيارته الأخيرة للقاهرة»..

لم تكن أزمة «الرجل الضاحك» هي الأزمة الوحيدة بين برلين والقاهرة في الشهر نفسه، بل شهد نوفمبر حادثا آخر كان الأول من نوعه عندما قام مراسل التلفزيون الألماني في القاهرة «جونتر نيرليش» بسبب أحد المحافظين؛ فقامت الحكومة المصرية بترحيله على الفور.. وكان «أداميك» في غاية الاستياء من المراسل، وقال إن نقله من القاهرة لن يكون العقاب الوحيد الذي يستحقه، وقد بالغ في الاعتذار عن هذا الحادث ربما لأنه كان هو نفسه قد غاب عن المهرجان في ذلك العام، وكان يخشى أن يفسر غيابه بتفسير سياسي..

كانت ألمانيا الديموقراطية بالغة الحرص على علاقاتها مع مصر، وكانت مصر تبادلها الحرص نفسه، وكان عبد الناصر ينادي بالاعتراف بألمانيا الديموقراطية منذ أن اعترفت ألمانيا الغربية بإسرائيل، إلَّا أن الدول العربية لم توافقه على ذلك ولم يشأ هو أن يشق الصف العربي وحده.. في كل الأحوال ظلت مصر لفترة ليست قصيرة تضع كلا من قدميها في جانب؛ فهي تغري الشرق بأنها في طريقها للاعتراف به، وتغري الغرب الذي كان يؤجل بعض ديونها ويقدم لها قروضا جديدة بأنه بالنسبة إليها هو الممثل الشرعي الوحيد، وأظن أن كل الأطراف كانت تدرك نوايا بعضها البعض، وكان كل منها يحاول اقتناص أي مغنم من الآخرين.. ولم أكن أدري أن هذا الأمر سيثار معي عندما زرت براغ..

* * *

توجهت من برلين إلى براغ وأنا في طريق العودة إلى القاهرة، وكان الدكتور حاتم قد طلب مني الذهاب إلى هناك لتسوية مشكلة تتعلق بوكالة أنباء الشرق الأوسط

(أ.ش.أ).. كانت الرحلة بالقطار مرهقة استغرقت الليل كله بسبب حادث عارض عطَّل كل القطارات في منطقة الحدود بين البلدين، وهكذا وصلت في السابعة صباحا متأخرا عن موعدي بأكثر من ساعتين، ولم أجد ممثل وزارة الخارجية الذي كان من المفترض أن يكون في انتظاري فاضطررت لأبحث بنفسي عن فندق آوي إليه..

كانت هذه أول مرة أزور فيها تشيكوسلوفاكيا.. لم أفاجأ تماما بالطوابير الطويلة خارج المحطة في انتظار سيارة تاكسي.. تذكرت على الفور ما قاله لي أحد الأصدقاء من أن المواطن التشيكي إذا ما وجد في طريقه طابورا فهو يلتحق به على الفور، وعندما يصل إلى نهايته يكتشف ساعتها فقط السلعة التي يتقاطر الناس للحصول عليها.. كنت أظنها نكتة حتى وجدت نفسي في هذا الطابور في جو أقسى في برودته من جو ألمانيا.. انتظرت أكثر من نصف الساعة حتى جاء دوري، وعندها طلبت من السائق أن يذهب بي إلى فندق قريب، وكان اسمه «يالتا»، فلم أجد فيه مكانا، وهكذا بدأت رحلة مضنية حاملا حقيبتي الثقيلة سيرا على الأقدام.. دخلت إلى فندق آخر اسمه «أوروبا»، وهناك أخذت إفطاري، ولكنني واجهت موقفا غريبا، فبعد أن طلبت طعام الإفطار بدقائق، إذا برجل مهندم يجلس إلى مائدتي دون استئذان مكتفيا بتحيتي تحية مقتضبة.. لم يتفوه بكلمة حتى تململت من تأخر الطعام، وعندها قال: «لعلك رجل أعمال»، ولما سألته لماذا يظنني كذلك، قال: «لأنه يبدو أن لديك جدول مواعيد؛ ولذلك فأنت تتعجل طعامك».. قلت له إنني صحفي، وسألته عن مهنته فعلمت أنه مهندس بريطاني في مصنع توربينات في مدينة برنو، وأنه عائد إلى لندن، ونصحني بأن أتناول عشائي في المطعم نفسه«لأن مطاعم الفنادق هي أفضل المطاعم في براغ»..

وهكذا عندما استرسلنا في الحديث لم أجد غضاضة في سؤاله لماذا اقتحم عليَّ مائدتي.. قال إن موظفة الاستقبال هي التي طلبت منه ذلك؛ لأنهم يفضلون أن يجمعوا الأجانب على موائد واحدة.. سألت إن كان ذلك لإحكام الرقابة فلم يرد سوى بابتسامة.. انتهينا من الإفطار وكانت الساعة قد أوشكت على التاسعة فطلبت وزارة الخارجية في الرقم الذي كان قد أبلغ لي، ورد «هافليك» الموظف في قسم الصحافة الذي بالغ في الاعتذار وقال إنه سيجيئني بعد نصف ساعة.. جاء، وأخذني

إلى فندق «بارك»، ثالث فندق أدخله يومها، وهو الفندق الذي حجزت لي الوزارة فيه، ومن هناك توجهنا إلى وزارة الخارجية لأقابل السفير «كاريل دوفيك» رئيس قسم الصحافة في الوزارة دون أن يتاح لي أن أغتسل أو حتى أن أحلق ذقني..

كنت في مزاج سيئ بالطبع، وكان وجه الرجل ينطق بالصلافة، وبعد ترحيب قصير بارد بادر بفتح الموضوع: «يبدو أنكم مصرون على موقفكم في مصر.. أنا لا أعرف لماذا لا يكون لكم مراسل خاص في عاصمتنا».. قلت: «نحن في مرحلة أولية الآن، وبالقطع فإن الوكالة ستعين لها مراسلا هنا في وقت قريب، ولكن كل ما نطلبه الآن بصفة مؤقتة ـ يا سيادة السفير ـ أن تعتمدوا مراسلنا في برلين مراسلا لديكم في الوقت ذاته، ومن المؤكد أنه سيقضي هنا وقتا لا يقل عن الوقت الذي يقضيه في العاصمة الألمانية».. أصر الرجل على موقفه وأبدى عجبه من أنه في حين ينتشر المراسلون التشيك في الدول العربية، فإنه لا يوجد مراسل صحفي عربي واحد في براغ.. حاولت إغراءه بأنه إذا وافق على اعتماد مراسلنا في برلين فربما يفتح هذا الباب أمام مراسلين آخرين من الدول العربية، وعندما لم يفلح الإغراء لجأت إلى بعض الخشونة فقلت إن المعروف أنكم لا تقدمون تسهيلات كبيرة للصحافة في حين أن مراسلنا في برلين يتمتع بامتيازات عديدة هناك، ولكن الرجل لم يلن: «الألمان في حاجة إليكم؛ لأنكم لم تعترفوا ببلادهم حتى الآن»..

انتهت المقابلة بالفشل الذريع فعدت إلى الفندق؛ حيث نمت بضع ساعات حتى يحين موعد الغداء مع السفير المصري هناك.. كان السفير مجدي حسانين الذي ارتبط اسمه طويلا بمديرية التحرير، وقد ظل يحدثني عنها طوال الوقت، كيف أنها أول تجربة اشتراكية نموذجية في مصر، وكيف أنها تفوق مثيلاتها في إسرائيل، وكيف حاربها مصطفى أمين والأمريكان، وكيف اتهم بأنه شيوعي، ولم ينسَ أن يذكِّرني بأنه واحد من أول أربعة ضباط أحرار، وأنه غير راضٍ عن الخلافات القائمة فيما بينهم؛ ولذلك آثر البعد والعمل في السلك الدبلوماسي.. بصرف النظر عن دقة ما قاله، كان ما أدهشني أنه لم يبدِ اهتماما كافيا بالمهمة التي جئت من أجلها..

في المساء التقيت الأستاذ أحمد بهاء الدين الذي كان يشارك عندئذ في اجتماع لرئاسة مجلس اتحاد الصحافة العالمي، وحكيت له عن مقابلتي مع السفير فقص لي هو الآخر حكايته مع سفير مصر في إسبانيا عندئذ، وقال إنه بالرغم من أنه ضابط هو الآخر فإنه لا يود أن أستنتج من ذلك أن كل الضباط الذين عملوا بالسلك الدبلوماسي على هذه الشاكلة، وأخذ يعدِّد أسماء بعض اللامعين منهم، وفي مقدمتهم بالطبع محمود رياض..

كان بهاء مع الكاتب الكبير لطفي الخولي يحضران مؤتمرا بالمغرب حين طلب إليهما مغادرة البلاد على الفور، وتم ترحيلهما إلى مدريد حيث استقبلتهما السفارة ودعاهما السفير إلى العشاء مع رجال السفارة وزوجاتهم، وما إن بدأ الجميع في تناول الطعام حتى تشاجر السفير مع زوجته فتركت المائدة، وخرجت وراءها سيدات السفارة لاسترضائها، وانفض الجمع بعد أن اكتفوا بتناول السلطات.. وكانت فضيحة أخرى للسفير نفسه لا تزال تدوي في الآذان وقتئذ بعد أن احتجز مستشار السفارة في الطابق الأول من دار السفير، ورفض الإفراج عنه شهرا كاملا بالرغم من تعليمات وزارة الخارجية المتكررة له، ولم يخرج المستشار من محبس السفير سوى بعد وصول مندوب رسمي من القاهرة!

اكتفيت من براغ بالمقابلتين مع السفير التشيكي والسفير المصري، خاصة أن الأستاذ بهاء كان على وشك المغادرة إلى مقر اجتماعه الذي أقيم في قلعة تبعد عن العاصمة ٦٠ كيلومترا.. كانت براغ قد شهدت قبل أيام اضطرابات هائلة غريبة عليها، فقد قام طلبة الجامعة بمظاهرة كبرى بسبب انقطاع المياه الساخنة في المدينة الجامعية، وتوجهت المظاهرة إلى القصر الرئاسي حيث اصطدمت بالشرطة.. فوجئت السلطات بالحدث، وحاول المسئولون في الجامعة وصف الطلاب بأنهم عناصر معادية للاشتراكية ولكنهم استمروا في مظاهراتهم، ووقعت الحكومة في اختيار صعب، هل تحل مشكلة المياه على الفور وبذلك تشجع اللجوء إلى التظاهر، أم تعاند فتستمر الاضطرابات؟ وأخيرا قررت إقصاء المسئولين عن بيوت الطلبة وعودة المياه الساخنة.. كانت هذه بداية مبكرة لـ«ربيع براغ»..

مع ليلى رستم والمخرجة مديحة كمال والمصور رشاد القوصي (باريس ١٩٦٣).

في الخلف: إلى يساري محمود شكري العدوي مع الدارسين في «معهد برلين للإعلام في الدول النامية» (١٩٦٤).

(١٢)

أوصيكم..

١٩٦٨ - ٢٠١١

◆ ◆ ◆

وصيتي لشباب الإعلاميين في الأردن؛ البلد الذي أوقف ولي عهده برنامجي في التلفزيون.

◆ ◆ ◆

كشف لي ليث شبيلات قطب المعارضة الأردنية الأشهر سر سقوط طائرة مصر للطيران قبالة السواحل الشرقية الأمريكية في ١٩٩٩.

محمد كمال واحد من ألمع الشخصيات في عالم التلفزيون العربي في الستينيات وما بعدها.. لم يكن نجما على الشاشة.. كان مؤسس التلفزيون الأردني وأول مدير له عند افتتاحه في إبريل ١٩٦٨، وظل في هذا الموقع الحساس الذي يخضع دائما لأهواء السلطة نحو ٢٠ عاما، وهي فترة يندر أن يقضيها أحد على قمة مؤسسة التلفزيون في البلدان العربية جميعا.. محمد بك، كما كان الكل يناديه، كان شعلة متوهجة من الذكاء والحيوية، وكانت في جعبته دائما حكايات طريفة قديمة وجديدة من بلاد الله جميعا.. كان طويلا مهابا، وكان يكبرني بنحوِ عشرين عاما، وكان يشبه أبي كما لو كان شقيقه التوأم، وربما هذا ما جذبني إليه أول ما رأيته..

لم تكن قد مضت شهور على افتتاح تلفزيون الأردن عندما زارني في بيتي مع صديق العمر ريمون إسكندر ممثل شركات التلفزيون الدولية في الشرق الأوسط، وكان ريمون يتعاقد له عندئذ على شراء بعض من الإنتاج السينمائي والتلفزيوني المصري بصفته مستشارا للتلفزيون الأردني.. ليلتها ذهبنا معا إلى محمد دسوقي ابن شقيقة أم كلثوم، وكان مهندسا في التلفزيون، للتعاقد على حقوق بث أغانيها في الأردن، وكانت هي التي تملك هذه الحقوق..

عاد محمد كمال إلى عمان سعيدا بالكنز الذي حصل عليه، وفي اليوم التالي اتصل بي ليعرض عليَّ العمل مستشارا في المؤسسة لمدة ستة أشهر، وقبلت.. لم يمضِ أسبوع حتى كنت قد حصلت على موافقة التلفزيون وأنهيت كل إجراءات السفر.. أذكر أنه كانت معي خمس حقائب عندما طرت إلى عمان مع زوجتي، وهناك نزلنا في فندق «جراناداا»، وهو فندق معقول لم يكن بعيدا عن «الدوار الأول»، في مواجهة بيت رئيس الوزراء بهجت التلهوني مباشرة..

كنت قد زرت عمان مرات من قبل، وكنت أحب المدينة لأنها كانت مختلفة تماما عن القاهرة؛ فقد كانت أصغر بكثير، ولم يكن سكانها عندئذ يبلغون نصف

المليون، وكانت تنتشر على سبعة جبال، وكانت نظيفة تماما.. وكنت أعجب على وجه الخصوص بتخطيط المدينة ومعمارها، وبيوتها التي قُدَّتْ حجارتها البيضاء من صخر الجبل، والتي لم يكن يزيد ارتفاعها على ثلاثة طوابق في معظم الأحوال.. ولم يكن لي في عمان أصدقاء أردنيون، ولكن وجود صلاح عويس مراسل الإذاعة المصرية في عمان طمأنني كثيرا، خاصة أن زوجته الإذاعية سهير الحارثي كانت تقيم معه هناك؛ الأمر الذي يمكن أن يخفف تقلب ظروف الحياة على زوجتي..

مرت بضعة أسابيع دون أن أتبين تماما حدود عملي، وكنت قد بدأت بالطبع بالاهتمام بإدارة الأخبار، ولكنني لاحظت أن المسئولين فيها لم يكونوا سعداء كثيرا بوجودي، وكان رئيس التحرير يوسف أبو الليل معتدا بنفسه كثيرا، وربما كان على حق لأن العمل كان يسير بانتظام في مؤسسة محدودة الحجم يمكن تسيير العمل فيها بانتظام، وكان في عدد من جوانبه أفضل مما كان عليه الحال لدينا في تلفزيون القاهرة.. لذلك راعيت أن أخطو بحذر، وألَّا أتبرع بالمشورة إلا إذا طلبت مني، ومع ذلك لم أتمكن من كسر الحواجز أمامي..

أظن أن محمد كمال لاحظ ذلك، وأظن أيضا أنه وجد من الأفضل لهم ولي أن أتجه في طريق مختلف تماما.. طلبني في مكتبه واقترح عليَّ أن أقدم برنامجا أسبوعيا حول الصحافة على نمط البرنامج اليومي «أقوال الصحف» الذي كنت أقدمه عندئذ في التلفزيون المصري.. وقعت في حيرة شديدة؛ إذ إن تقديم البرنامج سيخلصني من الاحتكاك المزعج مع إدارة الأخبار وربما مع غيرها من الإدارات أيضا، لكن تقديم برنامج مثل «أقوال الصحف» في بلد غريب عليَّ ليس حلا مريحا أيضا.. في ذلك الحين لم يكن مألوفا أن يقوم واحد ممن ليسوا من أبناء البلد بالتطرق لمناقشة مشكلاته أو حتى لعرض صحفه على شاشة التلفزيون.. أبديت تحفظي لمحمد كمال؛ إذ كنت أخشى أن أسلوب البرنامج اللاذع سوف يزعج السلطة، وكنت أخشى أيضا أن أخفف من هذا الأسلوب وعندئذ «يقع» البرنامج، لكن ذلك كله ذهب سدى أمام إصراره..

وأخيرا وقعت الواقعة، وذهبت إلى الإستوديو، وكنت حريصا على أن أتحدث بالفصحى طوال الوقت حتى لا أثير حساسية إذا ما جاءت عبارة بالعامية المصرية

هنا أو هناك، كذلك كنت أكثر حرصا على ألّا أمس - في الحلقة الأولى على الأقل - المشكلات المحلية التي قد تزعج المسئولين أو المشاهدين بشكل مباشر، ومع ذلك فلم تكن النتيجة مرضية لي في مجملها، وإن كان البرنامج جديدا على الشاشة الأردنية تماما.. مرت أيام دون أن أسمع من أي ممن حولي أي صدى، وعندما أقلقني هذا الصمت ذهبت إلى محمد كمال أسأله عن السر، فإذا به يسارع ليطمأنني.. المسألة لن تستغرق سوى أيام نتمكن بعدها من تسوية الأمر لدى دولة الرئيس «أبو عدنان» (بهجت التلهوني).. «أمر إيه ومسألة إيه يا محمد بك؟»، سألت، لكنه قال: «اسمح لي يا أستاذ حمدي، فلن يفيد الآن الحديث في تفاصيل، المهم أن ننهي الموضوع، وأنا أعلم من دولة الرئيس شخصيا أنه على وشك أن ينتهي»..

عدت إلى الفندق، وفكرت لوهلة أن أعبر الطريق وأقتحم على دولة الرئيس بيته لأسأله عما جرى، ولكن مكالمة تلفونية أنقذتني من هذه الحماقة.. كان المتحدث هو إبراهيم عز الدين الذي عرفني بنفسه: المستشار الإعلامي للديوان الملكي.. قال إنه قادم الآن لزيارتي.. وعندما أتى وجدته شابا في مثل عمري، وكان مهذبا للغاية، رجلا يليق بالفعل للعمل لدى الملوك.. اقترح أن نخرج إلى الشارع حتى «نتحدث على راحتنا» فزادني قلقا.. ونحن في الطريق قال: «أنا مكلف أن أنقل لك أنه بعد تشاور على مستوى عالٍ، تقرر تعيينك مستشارا لدائرة المطبوعات».. سألت عن السبب في تحويل عملي من التلفزيون إلى المطبوعات فاعتذر أنه لا يملك الإجابة.. سألت: «ولماذا لا يفاتحني محمد كمال نفسه في ذلك؟»، ولم أجد إجابة أيضا..

عدت إلى الفندق حيث أبلغت صاحبه نبيل النشاشيبي الذي كان فائق النبل في ضيافته لنا أنني سأغادر الأردن، واتصلت بمصر للطيران، وحجزت مكانين للعودة إلى القاهرة في اليوم التالي لي ولزوجتي، وحزمنا أمتعتنا، وقبل أن أرحل اتصلت بصلاح عويس أبلغه بما حدث، واتجهنا إلى المطار في السابعة صباحا.. وعندما عدت إلى القاهرة توجهت في المساء إلى مكتب الوزير، محمد فائق، عندئذ.. فوجئ بي عندما دخلت: «إنت مش في عمّان؟».. قلت: «كنت»، ورويت له ما حدث.. خبط كفا على كف وهو يقول لي إن الملك «حسين» كان يجلس في الليلة السابقة في الكرسي الذي كنت أجلس عليه.. كان الملك يسجل حوارا في مبنى التلفزيون، وبعد

انتهاء الحوار صعد مع الوزير إلى مكتبه، وأثناء الحديث بينهما ذكر الوزير للملك أنني أعمل لديهم في عمَّان مستشارا للتلفزيون الأردني، فوعد الملك باستدعائي عند عودته وقال إنني سأحظى برعايته..

لم يجد الوزير تفسيرا لما حدث، وقال إنه سيتقصى على الفور حقيقة الأمر، إلَّا أن ريمون إسكندر عندما علم بوصولي أجرى عدة مكالمات مع عمَّان جاءني بعدها ليكشف عما دار خلف الكواليس.. عندما قدمت البرنامج أثناء وجود الملك حسين في القاهرة كان ولي العهد الأمير الحسن نائبا للملك عندئذ، وشاء حظي التعس أن يشاهد البرنامج أو جانبا منه.. تعجب الأمير أن يقدم مذيع غريب عن البلد برنامجا يتناول سياسة الأردن داخلية وخارجية، فأشاح بوجهه أو أشار بيده أو قال شيئا ما لواحد من مساعديه، انتهى بضرورة أن يبحث لي مجلس الوزراء عن عمل آخر بعيدا عن التلفزيون، أغلب الظن أنه شرفي، القصد منه المراضاة أو العزاء أو الاثنان معا..

إلى يومنا هذا لم تكن في حلقي غصة من هذه التجربة، بل ربما كنت أجد العذر لأولئك الذين اندهشوا عندما شاهدوا على الشاشة الوطنية وجها غريبا عن أهلها.. كنا في زمن ما قبل الفضائيات، وعندما جاء هذا الزمن فيما بعد كانت الأردن في مقدمة الدول العربية التي سارعت إلى اقتحامه، بل وكانت الدولة التي استضافت في عام ١٩٧٢ أول مؤتمر عربي للفضاء ينظمه اتحاد إذاعات الدول العربية.. كانت هذه مناسبة للسلطات الأردنية كي تبدي اهتماما خاصا بي ربما لتمحو أي ذكرى مرة قد تكون عالقة بذاكرتي.. كانت زوجتي معي أيضا عندما ذهبت لتنظيم المؤتمر، وفي طريقنا للمطار عائدين إلى القاهرة انتبهنا إلى أننا تركنا وراءنا في خزينة الغرفة بعضا من مصاغها، وعندما أبلغت زملاءنا الأردنيين تدخلوا هنا وهناك حتى أتوا لنا بما نسيناه وأخروا إقلاع الطائرة أكثر من نصف الساعة..

عندما أقامت الأردن محطة أرضية لأقمار «إنتلسات» الدولية بعد بضع سنوات، كنت وقتها أدرِّس دورة حول اتصالات الفضاء لطلاب الدراسات العليا في الجامعة الأمريكية في القاهرة، وكانت الدورة تتضمن السفر إلى إحدى الدول العربية المتصلة بالأقمار، ولم تكن هناك عندئذ سوى ثلاث دول، هي المغرب والكويت والأردن، فاخترنا أقربها، وذهبنا إلى عمَّان، وكان السفر اختياريا على نفقة الطلبة، فلم ينضم

إلى المجموعة سوى سبع طالبات، وكان مستوى جمالهن وأناقتهن عاليا، وسبَّب لي ذلك من المتاعب ما لا طاقة لي به، وحمدت الله أن المهمة لم تستغرق أكثر من ثلاث ليالٍ عادت الطالبات بعدها منتشيات بما أحاطهن من إعجاب وترحاب..

أظن أن الأردن هي البلد الذي زرته فيما بعد أكثر مما زرت أي بلد عربي آخر، وخاصة خلال السنوات الخمس التي عملت فيها باتحاد الإذاعات العربية.. خلال تلك الفترة تعرفت إلى أصدقاء عديدين هناك.. وبالطبع فإن أقدم أصدقائي هو إبراهيم عز الدين الذي كان قد عين وكيلا لوزارة الإعلام في مطلع السبعينيات، وكان كلما أتى إلى القاهرة لحضور مؤتمرات الإعلام قضينا الليالي معا ساهرين في مكان أو آخر على ضفاف النيل عادة، ثم تولى وزارة الإعلام فيما بعد، وكان أول وزير يطالب بإلغاء الوزارة.. وبعد أن عين سفيرا في بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة تولى رئاسة المجلس الأعلى للإعلام، وأذكر أنه أعلن وقتها أنه إذا لم تنفذ التوجيهات التي قام على أساسها المجلس خلال سنة فسوف يستقيل، وبالفعل استقال..

في سنة ٢٠٠٠، بدأ نادي دبي للصحافة في تنظيم منتداه السنوي، وشكل عندئذ مجلسا للتحكيم لجائزة الصحافة العربية المرئية برياسة عز الدين، واخترت لعضوية اللجنة مع الكاتب الكبير الدكتور علي فخرو وجورج سمعان رئيس تحرير صحيفة «الحياة» السابق ومحمد السنعوسي والدكتورة حصة لوتاه أستاذ الإعلام في الإمارات، ولم يمهلنا الزمن أكثر من دورتين ألغيت بعدهما الجائزة، ولكن علاقتنا استمرت وطيدة حتى اليوم.. إبراهيم عز الدين واحد من الرجال القلائل الذين أعتبر نفسي محظيا بصداقتهم، ولحسن حظي أيضا فإن أقرب أصدقائه، المهندس راضي ألخص، هو أقرب أصدقائي في عمَّان.. وهو واحد من ألمع مهندسي الإذاعة في الوطن العربي، اختاره الاتحاد الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية وكذلك اليونسكو في أكثر من مهمة، وكان مديرا للإذاعة والتلفزيون لفترة، ثم عمل عضوا منتدبا لراديو وتلفزيون العرب ART للشئون الهندسية في الوقت الذي عملت فيه في الشبكة، ولا يزال حتى الآن الساعد الأيمن للشيخ صالح كامل في مشروعاته الإعلامية..

أتاح لي العمل في ART أن أذهب أيضا إلى عمَّان أكثر من مرة، خاصة عندما كنت أقدم برنامجي «مع حمدي قنديل».. وقتها سجلت عدة أحاديث بينها حديث مع خالد

مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس بعد أن حاول الإسرائيليون اغتياله في سنة ١٩٩٧.. وعندما قدمت «رئيس التحرير» في التلفزيون المصري سجلت في عمَّان أيضا حديثا مع المهندس ليث شبيلات المعارض الأردني الشهير ونقيب المهندسين الأردنيين السابق بعد الحادث الغامض الذي سقطت فيه طائرة مصر للطيران قبالة السواحل الشرقية الأمريكية في أكتوبر عام ١٩٩٩.. وكان المهندس شبيلات قد أدلى لي بسر خطير يومها؛ إذ كان قد نما إلى علمه أن طائرة أردنية تابعة لشركة «عالية» كانت تطير على مسار الطائرة المصرية نفسه متجهة من نيويورك إلى أمستردام، وأن كلا من الطيار ومساعده لاحظ كتلة كبيرة من اللهب ـ يحتمل أن تكون صاروخا ـ تمر إلى جانب طائرتهما الأيمن، وأنهما يرجحان أنها كانت السبب في إصابة الطائرة المصرية..

قال المهندس شبيلات إنه بذل جهودا لإقناع المسئولين في الشركة الأردنية لإصدار تقرير عن الواقعة وتسليمه إلى المسئولين في مصر للطيران وجهات التحقيق الأمريكية، وأضاف أن مسئولا في الشركة ذكر أن الأمر يعرضه للحرج ثم وعده بإصدار التقرير بعد فترة، وقال إن التقرير صدر بعد ذلك بالفعل، وإن ضغوطا سياسية ربما كانت السبب في تأخيره وعدم تسليمه إلى المسئولين المصريين.. وقد استندت إلى أقوال شبيلات، وحاولت أثناء وجودي في عمَّان إقناع المسئولين في شركة «عالية» بالحصول على صورة من التقرير ولكني فشلت.. رويت القصة كلها في «رئيس التحرير» عندما عدت، فاحتجت الخارجية الأردنية، ولم يكن هذا هو احتجاجها الأخير على البرنامج؛ إذ احتجت مرة أخرى بشأن تعليق حول العلاقات الأردنية مع إسرائيل، وأظن أنها احتجت مرة ثالثة في عام ٢٠٠٢ عندما تناولت إرسال القوات الأردنية لمساندة الجيش الأمريكي في أفغانستان..

على الرغم من هذه الاحتجاجات استمرت علاقتي بالأردن طوال ما مضى من سنوات، واستمرت صداقتي مع قطب المعارضة الشرس ليث شبيلات حتى بعد تغريداته الأخيرة في «تويتر» التي انتقد فيها موقفي من الإخوان المسلمين، واتسعت دائرة صداقاتي.. أظن أنني لا أستطيع أن أحصرها هنا، ولكني لا بد أن أذكر طاهر المصري رئيس الوزراء الأسبق، وعدنان أبو عودة رئيس الديوان الملكي الأسبق، وصلاح أبو زيد أول وزير للإعلام في الأردن الذي اعتدت لقاءه في «أبو ظبي» في

السنوات الأخيرة بعد أن عين مستشارا لرئاسة الدولة هناك، وهاني الخصاونة وزير الشباب والإعلام الأسبق (والد سفير الأردن اللامع في القاهرة الآن)، والشاعر الكبير حيدر محمود وزير الثقافة الأسبق، وحسين مجلي نقيب المحامين الأسبق، هذا بخلاف الأصدقاء من أهل المهنة.. وبالطبع فلا تزال لديَّ قائمة من الصديقات العزيزات، بينهن الدكتورة ليلى شرف أول وزيرة للإعلام في عام ١٩٨٤، والدكتورة مها الخطيب ابنة صديقي وزير الإعلام الأسبق محمد الخطيب التي عينت وزيرة للسياحة في ٢٠٠٧، ووفاء القسوس مديرة «المهرجان الأردني لأغنية الطفل العربي» الذي استضافني في دورتين من دوراته..

لم أتعمد هنا أن أحشو السطور بأسماء وزراء ووزيرات لأوحي بأنني أصاحب كبار القوم؛ ذلك أن الأردنيين أنفسهم يسخرون من عدد الوزراء السابقين بينهم بعد أن شكلت في بلادهم أكثر من ٩٠ حكومة منذ كانت بلادهم تسمى «إمارة شرق الأردن».. والواقع أنه يمكنني أن أضيف إلى القائمة آخرين، بل لابد أن أضيف إليها بالذات وزير الطاقة والثروة المعدنية الأسبق ثابت الطاهر، وكان واحدا من أهم الشخصيات الأردنية في نهايات القرن الماضي لا لأنه تولى هذه الوزارة؛ ولكن لأنه كان بعد أن تولاها مديرا لشركة الفوسفات المسئولة عن أهم ثروات الأردن، ثم مديرا لشركة البترول الوطنية..

في يناير ٢٠٠٤، دعاني الطاهر لإلقاء محاضرة عن الفضاء والاتصال؛ بصفته مديرا لمؤسسة عبد الحميد شومان، وهي مؤسسة للتنمية الثقافية أقامتها عائلة شومان المالكة للبنك العربي.. وكان الذي قدم الندوة هو الدكتور نبيل الشريف، وهو - أيضا - وزير دولة سابق للإعلام والاتصال وابن صديقي محمود الشريف أحد أوائل وزراء الإعلام في الأردن.. أذكر أنني بعد أن تحدثت يومها عن الإعلام أثناء الحرب على العراق قلت: «الآن، بعد غزو العراق، وبعد ١١ سبتمبر، التاريخ الذي فرضته الولايات المتحدة لقيام عالم جديد من صنعها، لن تنتظر فيه إذنا من أحد لاقتحام أراضيه كما أعلن الرئيس الأمريكي بل تعهد.. الآن اختلفت الموازين.. الضغوط الأمريكية تعلمونها وأعلمها، وهي تطال أكبر الرؤوس بعرض وطننا العربي إن كانت هناك رؤوس كبيرة.. والجَزَر قد نفد.. لم تعد هناك غير العصيّ.. والعصيّ مشرعة

في وجوهنا، وليس بمقدور أنظمتنا سوى الطاعة.. ومحور الشر الأكبر، الشيطان الأكبر، يتربص للخطاب السياسي والخطاب الديني والخطاب الإعلامي.. وعلينا اليوم مرغمين أن نسارع إلى تغييره.. أن نبادر ـ على حد قول الرئيس اليمني ـ بأن نحلق رؤوسنا قبل أن يحلقها لنا الآخرون..

«هذا ما نحن مقدمون عليه.. هذا ما أقدمت عليه حكوماتنا بالفعل، وسط عزف ممجوج، تقوده جوقة تريد أن تقنعنا وتقنع الآخرين أنها كفلت حرية الإعلام وسعت إليها منذ زمن.. إلَّا أنني أزعم أن الحرية في الإعلام الفضائي بالذات قعقعة فارغة.. نعم، هناك ولا شك زعيق بأعلى الأصوات، لكن الحرية في إعلام الفضاء فرضتها التكنولوجيا بداية ولم يكن ذلك بقرار سياسي أو سيادي.. تكنولوجيا الفضاء وفرت القنوات، والقنوات كان لابد لها أن تتنافس لتحصل على أكبر قدر من المشاهدين، وأوفر قدر من الإعلانات.. تكنولوجيا الفضاء أتاحت لكثير من النظم أن تتجمل وتزهو على العالمين بمساحيق الحرية التي تستخدمها، وأتاحت للبعض أن ينفشوا ريشا عريضا زاهيا على أجسام نحيلة أو متهالكة، وأن يداروا سوءات بل جرائم في حق الأمة، تستوي في ذلك قنوات الحكومات والقنوات الخاصة التي يسميها البعض قنوات مستقلة»..

لم تكن هذه هي محاضرتي الأولى في الأردن حول الموضوع نفسه، ففي يناير ٢٠٠٢ كان الدكتور محمود السمرة رئيس جامعة البتراء قد دعاني مع صديقي علي شمو وزير الإعلام السوداني الأسبق إلى إحدى دورات «حوار البتراء» التي ناقشت أيضا موضوع الفضاء والإعلام.. وأستطيع أن أقول بضمير مرتاح إن الندوتين في كل من مؤسسة شومان وجامعة البتراء كانتا ناجحتين إلى حد كبير، على غير ما كان انطباعي عن آخر محاضرة لي في عمَّان.. محاضرتي الأخيرة كان قد دعاني إليها في عام ٢٠١١ الكاتب الصحفي محمد حسن التل رئيس تحرير صحيفة «الدستور».. وكانت المحاضرة عن ثورة ٢٥ يناير.. والحق أنه رتب للمناسبة جيدا، وحرص هو وكتاب الجريدة على الترحيب بي كتابة وشفاهة، ودعا إلى الندوة ـ المفتوحة عادة للجمهور ـ صفوة النخبة في عمَّان، إلا أنه في حين كنت أنا شديد الحماس للثورة فيبدو

أن حديثي لم يكن مقنعا تماما؛ إذ إن معظم الذين عقبوا على المحاضرة كانوا متوجسين مما رأوا أنه دور للغرب في الربيع العربي، ومن مآلات هذا الربيع فيما بعد..

إلَّا أن ما سرَّى عني في اليوم التالي كان لقاءً مع عدد من المصريين جاءوني إلى الفندق الذي أقيم فيه ليطمئنوا على ما يجري في بلادهم، وكان معظمهم من الجامعيين الذين يعملون في شركات أردنية أو في فروع شركات دولية، أي إنهم ليسوا شريحة ممثلة للجالية المصرية في الأردن.. المصريون هناك يزيد عددهم الآن على نصف المليون، بينهم أكثر من ٣٥٠ ألفا يعملون بالزراعة، حتى إنه يقال إنه لو لا المصريون لما كانت هناك زراعة في الأردن، أما معظم الباقين فهم حرفيون يعملون في مجالات البناء المختلفة.. ويقال إن مهنة البوابين في الأردن يحتكرها المصريون، وقد لاحظت بالفعل أن أكثر من نصف أصدقائي لديهم حراس من مصر، والبعض منهم جلب حارسه منذ أكثر من عشرين عاما، وهم يقولون دائما إن الحارس القادم من مصر لا يباريه أحد في الإخلاص والأمانة.. وفي زيارة لي إلى المهندس راضي ألخص جمع لي حارسه المصري عددا من زملائه فجلسنا نستعيد أحداث ٢٥ يناير وما بعدها، وكان ما أدهشني يومها متابعتهم لتفاصيل التفاصيل مما يحدث في مصر وكأنهم يعيشون معنا ساعة بساعة..

وكما جلست مع البوابين في عمَّان في تلك المرة، فقد جلست مع الملوك في مرات أخرى.. كانت أولى هذه المرات في عام ١٩٦٨، عندما أجريت وهمت مصطفى وأحمد سعيد أمين مراقب عام أخبار التلفزيون حديثا مع الملك حسين في عمَّان، والغريب أنني لا أتذكر اليوم من هذا الحديث شيئا غير صوت الملك الأجش كما لو كان قادما من أعماق البطن، وإجابته عن أسئلتنا بأسلوب خطابي ولغة سليمة على غير عادة رؤساء الدول، وكان هناك في ذلك الوقت تقارب بين الأردن ومصر بدأ مع توقيع البلدين لاتفاقية دفاع مشترك قبل أيام من نكسة ١٩٦٧.. أما المرة الأخيرة فكانت في سبتمبر ٢٠٠٣ عندما دعتني الدكتورة رويدا المعايطة وزير التنمية الاجتماعية لاجتماع مع الملكة رانيا، وكانت وقتها رئيسة قمة المرأة العربية الثانية؛ بهدف مناقشة «تفعيل دور المرأة العربية في القضايا المجتمعية على الصعيد الإعلامي».. وأظن أن الاجتماع جاء في إطار المنافسة المعروفة في العقد الماضي

بين رئيسات قمم المرأة، السيدات الأوليات في البلدان العربية، وقد حرصت الملكة رانيا على أن تجمع له حشدا من أشهر الإعلاميين نادرا ما وجدته في مكان آخر.. كانت سوزان مبارك خارج المنافسة عندئذ بالرغم مما كان تحت سلطانها من إمكانات، وبدأ ظهور جيل جديد كان أبرز نجومه رانيا العبد الله وأسماء الأسد..

لكن أحب لقاء لي في عمّان حتى اليوم كان مع شباب الصحفيين.. وكان الفضل فيه للصحفي الأردني الشاب هيثم يوسف، وهو رئيس منظمة عربية مهنية ناشئة تسمى «ملتقى الإعلاميين الشباب العربي»، وكان الملتقى قد قرر أن يقدم لي جائزة «أبرز شخصية إعلامية عربية رائدة لعام ٢٠٠٩».. ارتقيت إذن إلى خانة الرواد، التي تليها مباشرة مرتبة المتقاعدين.. كان هذا شعوري عندما تلقيت الدعوة.. ولم يكن الشعور جديدا عليَّ، فبعد السنوات التي كنت أقدم فيها برامجي التلفزيونية والتي كان المحبون يطوقون فيها عنقي بإطراء أكبر مما أستحق، كنت قد لاحظت في السنوات العشر الأخيرة عبارات أخرى تكررت على ألسنة الكثيرين ممن أقابلهم مضمونها «ربنا يديك الصحة»، ثم إذا بي لا أسمع مؤخرا سوى الدعاء «ربنا يديك طولة العمر».. كان هذا إيذانا بأن ضمان الصلاحية اقترب من النفاد أو أنه نفد فعلا..

وعلى الرغم من أن هذا كان كفيلا بالشعور بكثير من الغم، لكن ما احتواني عندما ذهبت إلى عمان كان شعورا طاغيا بالغبطة لم أصادفه في تكريم من قبل سوى ذلك الذي كنت قد لقيته من «المرصد العربي للإعلام» في لندن الذي منحني «جائزة التميز الإعلامي لعام ٢٠٠٦»، وهي الجائزة التي يمنحها المرصد لشخصية إعلامية واحدة، عربية أو بريطانية، كل سنة، وقد توافقت مع عيد ميلادي السبعين.. المرصد هذا رابطة من صحفيين وشخصيات عربية وبريطانية معنية بالشأن العربي، ترصد ما ينشر ويذاع في وسائل الإعلام العربية والبريطانية وتحلله وتعقب عليه، وهي مؤسسة لا تستهدف الربح، ولا تتلقى معونات من خارج أعضائها.. ولأسفي الشديد لم أستطع أن أتلقى بنفسي جائزة المرصد؛ إذ عندما ذهبت إلى المطار متوجها إلى لندن، وكنت وقتها أقدم برنامجي «قلم رصاص» في دبي، اكتشفت أن تأشيرة الدخول إلى بريطانيا قد انتهت مدتها، ففوضت واحدا من أصدقاء العمر ـ وكان أردنيا ـ هو يسار

درة مستشار هيئة الإذاعة البريطانية BBC، لتلقي الجائزة نيابة عني، وكنا قد عملنا معا في السبعينيات في إقامة جهاز عربي لتبادل الأخبار التلفزيونية..

كنت حريصا إذن على الذهاب إلى عمَّان، خاصة أن سعادتي بجائزة الملتقى كانت غامرة كسعادتي بجائزة المرصد، وربما فاقتها لأنها أولا من شباب يتطلع إلى رمز، ثم إنها منحت عن عام ٢٠٠٩ الذي لم يظهر فيه من «قلم رصاص» سوى خمس حلقات فقط على قناة «الليبية» ثم أممت بسببه؛ مما يشي بأن الجائزة منحت احتجاجا على الغياب وليس حفاوة بالحضور.. إلا أن السبب المشترك الآخر، وربما الأول، لسعادتي بالجائزتين هو أنهما جائزتان مخلصتان نقيتان لا تشوب أيا منهما اعتبارات مجاملة أو مصلحة كتلك التى نسفت سمعة كثير من الجوائز العربية..

كانت جلسة افتتاح المؤتمر الثاني لملتقى الإعلاميين الشباب العربي بالنسبة لى مفاجئة.. أدهشني الحشد الحاضر.. كانوا أكثر من ألف من شباب الإعلاميين الأردنيين والعرب وطلبة الجامعات الأردنية الثلاث التى تـدرِّس الإعلام، إضافة إلى وزراء وسفراء ونخبة من الكتاب والمثقفين دل حضورهم على اهتمام الدولة بالجيل الجديد من الإعلاميين.. لم يكتفِ المنظمون بورقة عمل قدمتها حول أوضاع الإعلام في المنطقة، لكنهم دعوني إلى إلقاء كلمة في حفل الختام، ارتجلتها (ونقحتها فيما بعد) معتمدا على ورقة سجلت فيها رؤوس الموضوعات التي سأتناولها، والتي كانت في الواقع موضوعا واحدا، وجدت أنه الأنسب كي تبلغ رسالته هذا الجمع: ما الذي يمكن لواحد مثلي طحنته سنوات العمل الطوال أن ينصح به جيل الإعلاميين الشباب أو أولئك الطلبة المقبلين على إنهاء دراستهم الجامعية في الإعلام، وخوض حياة عملية تحفها التحديات والمخاطر؟ أعرف أن النصح عادة ثقيل على السمع، لكني حدثتهم من القلب، وأظن أن حديثي قد يكون صالحا لأجيال تالية..

- أوصيكم بألا تعملوا بالإعلام إلا إذا كنتم تحبونه، فإن لم تكونوا كذلك فحاولوا أن تحبوه، فإذا أعيتكم الحيلة فابحثوا عن مهنة أخرى.

- أوصيكم بالقراءة والقراءة والقراءة.

□ أوصيكم بحكمة كنت أقرؤها دائما على غلاف كراسات المدارس في الماضي، وإن كنت أعلم أن كراسات مدارسكم الآن تحمل على أغلفتها صور نجوم الفن ولاعبي الكرة.. تقول الحكمة التي تكاد تفقد معناها من رتابة تكرارها: «من جد وجد».. ربما تظنون أن مفتاح النجاح هو بطاقة توصية أو مكالمة من رجل مهم.. هذا قد يفتح نافذة مغلقة، لكنه لا يفتح طريقا ممتدا للمستقبل.

□ أوصيكم بإتقان اللغة العربية وحمايتها، وإتقان لغة ثانية وأكثر.

□ أوصيكم بالتعرف على الآخر وفهمه.. منذ كنت طالبا في الجامعة كنت أحاول السفر إلى الخارج كل صيف بمبلغ يكاد يكفي الكفاف لأعرف الدنيا، وعندما عشت عشر سنوات عند عملي باليونسكو في باريس عشت حياة أهلها، ولم أتقوقع في شرنقة المصريين والعرب.

□ أوصيكم قبل التواصل مع الآخر، أن تعرفوا ناسكم وتتمرغوا في تراب أرضكم.

□ أوصيكم إذا خالفتم أحدا الرأي أن تتفهموا دوافعه، وإن خاصمتم فخاصموا بنزاهة، وإن انتقدتم فانتقدوا بعفة.

□ أوصيكم بالاستيقاظ المبكر.. اليوم عندئذ يصبح مبروكا ممتدا إلى ما لا نهاية، والعمل يحتاج إلى اتصالات لا يمكن أن تتم في أنصاص الليالي.. تعرفون من تاريخ بعض بلداننا أن الضابط الذي يصحو قبل الآخر هو الذي ينجح في انقلابه، لكنني سأحدثكم عن مثل آخر أكثر لياقة.. في اليابان جرت إحدى الانتخابات البرلمانية، فلما سئل زعيم الحزب الفائز عن سبب تفوقه قال إنه يبدأ يومه قبل غريمه بساعة.

□ أوصيكم بالتحريض الشريف والشغب البناء لا التحريض والشغب بمصطلح مباحث أمن الدولة؛ ذلك أن الرسالة الأولى لأي مبدع، في أي مجال من مجالات الإبداع، هي التحريض على التغيير والإصلاح والتحديث والنهضة، ومشاغبة الداعين إلى التحنيط والتقديس والاستقرار الذي يغتال التقدم والحركة.

□ أوصيكم مادام المجتمع قد نصَّبكم قادة فكر ورأي أن تصدقوا الناس في قولكم، ولكي تصدقوهم اصدقوا أنفسكم.. كونوا أنتم.. المشاهد بعد خمسين سنة من متابعة التلفزيون يكشف الغث من السمين، والقارئ يستطيع بيسر أن يميز..

□ أوصيكم ألا تخادعوا أو تداهنوا، وأن تقولوا كلمة الحق عند السلطان الجائر.. منذ آمنت بذلك لم تلن لي قناة، ودفعت الثمن راضيا.. حق من حقوقنا الإنسانية أن نعبر عن رأينا، وربما يعتقد أصحاب السلطان والصولجان أن من حقهم حجره.. سيفعلون ذلك ولكن إلى حين.. انقشاع الظلمة ليس ببعيد..

□ أوصيكم ببذل كل ما تستطيعون من جهد لتثبيت استقلال الإعلام وحريته وحقه في الحصول على المعلومات، ومحاربة الفساد، ومقاومة القمع والتسلط.

□ أوصيكم بعدم الانضمام إلى الأحزاب والجماعات السياسية حتى تحافظوا على استقلالكم الشخصي، ومكانتكم المتجردة عن الانحيازات والمصالح.

□ أوصيكم بألا يكون المال هدفكم.. المال بالطبع مهم، لكنه ليس الأهم، وهو بالتأكيد في يوم سيأتي نتيجة الجهد المخلص.. بدأت عملي في التلفزيون بتغطية حدث محاولة حاكم العراق عبدالكريم قاسم الاستيلاء على الكويت.. في الكويت قدم مسئول لي مظروفا به مبلغ مغرٍ من المال اعتذرت من عدم قبوله في حضور الراحل الأستاذ موسى صبري رئيس تحرير صحيفة الأخبار عندئذ، فروى للدكتور عبدالقادر حاتم وزير الإعلام ما رأى؛ عندها فتحت لي فرص بغير حساب، كل فرصة منها تقود إلى أخرى.

□ أوصيكم بألا تخلطوا في عملكم بين الإعلام والإعلان.. إما أن تعملوا في مهنة وإما في الأخرى.. المهنتان محترمتان، كل على حدة، لكننا نحقر مهنة الإعلام إذا ما عمل الصحفي كمندوب إعلانات، وإذا ما تقاضى مالا ليدس إعلانا بين ثنايا ما يكتب، وإذا ما حصل على منفعة من شخص أو من جهة للترويج لمصلحة أو للتصدي لخصم.

- □ أوصيكم إن أخطأتم بأن تعتذروا، وأن تصححوا الخطأ بتبيان الحقيقة؛ ذلك ما تنص عليه القوانين ومواثيق الشرف، وما يجب أن تمليه عليكم قبل ذلك ضمائركم.
- □ أوصيكم بالتعرف على كل إمكانات الإعلام الإلكتروني البديل، واستغلالها للمصلحة العامة.. لن تزيح أي وسيلة إعلامية حديثة وسيلة سابقة إلا بمقدار، بل ستفتح أمامكم بابا واسعا للتأثير، وفرص عمل لا تعد.
- □ أوصيكم بالسعى الدؤوب نحو التجديد والاختلاف.. الإنتاج اللافت هو الإنتاج المختلف.. طوال حياتي لم أدَّعِ أنني أقدم برنامجا متميزا.. قلت دائما إنني أقدم برنامجا مختلفا عن السائد.
- □ أوصيكم إذا عين أحدكم مندوبا لتغطية أنشطة وزارة ما أن يكون مندوبا للصحيفة أو القناة في الوزارة، لا مندوبا للوزارة في مؤسسته الإعلامية.
- □ أوصيكم بتشكيل نقابات وروابط تدافع عن حقوقكم، وتنمي مهنتكم، وتدعم استقلالكم، وتحميكم وقت الشدة.
- □ أوصيكم أن تتواضعوا دون مذلة، وأن تثقوا بأنفسكم دون غرور.. لم أقل يوما إنني لا أنطق سوى بالحق، ولكني قلت دائما ما أعتقد أنه الحق..
- □ وأوصيكم بأن تحافظوا على مبادئ الأديان، وعلى الأخلاق العامة، وعلى الانتماء الوطني والهوية القومية، وعلى إشاعة الثقافة، وعلى نشر العلم، وأن تنبذوا إعلام الإثارة والدجل والجنس والفضائح.

في النهاية قلت: «أعرف أنكم من الذكاء بحيث إنكم لن تأخذوا بهذا النصح كله.. ستأخذون منه بمقدار وإلا أصبح حالكم كحالي؛ أتجول على المنتديات، وأقحم نفسي على المؤتمرات لأسدي للناس النصائح»..

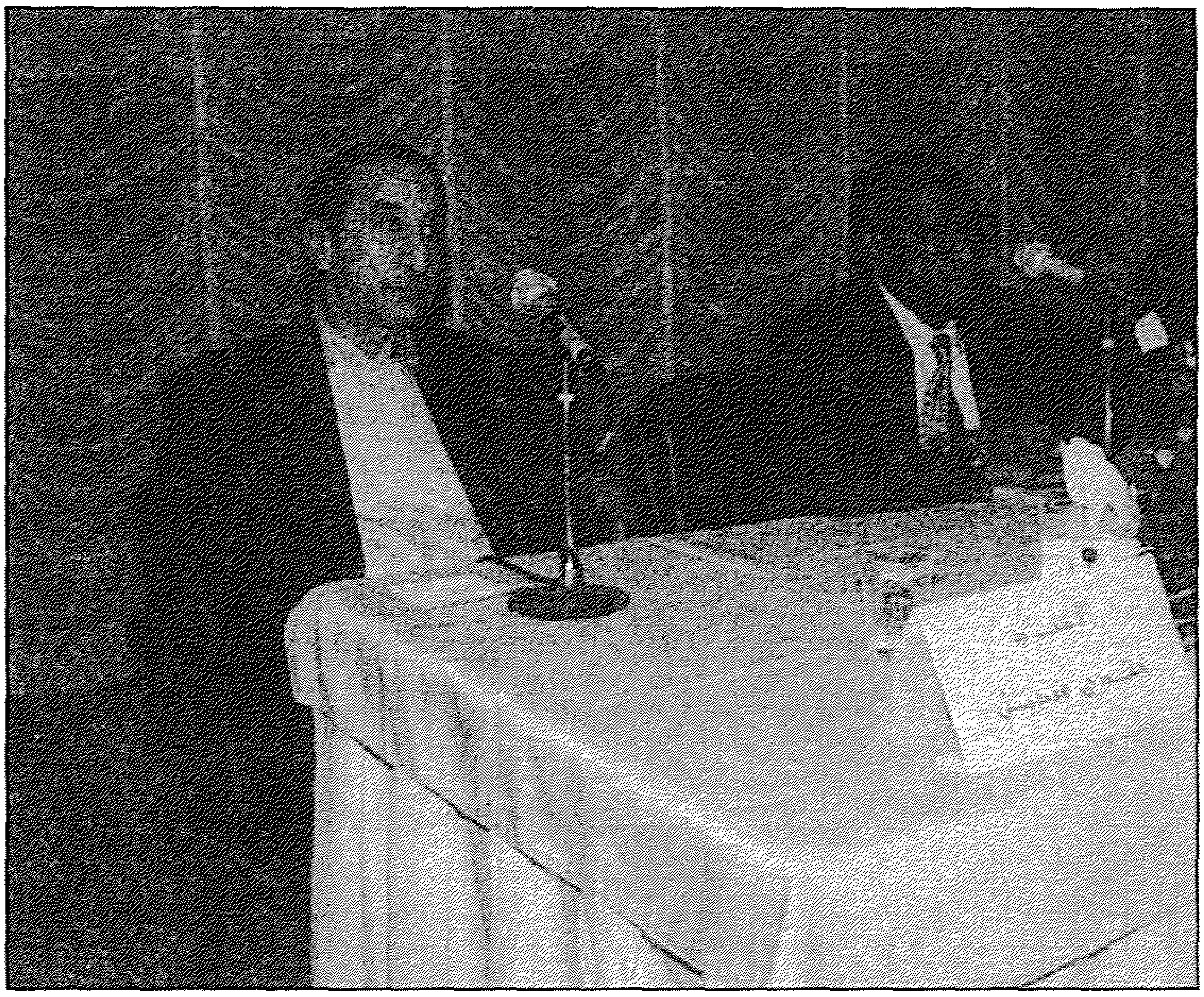

مع علي شمو وزير الإعلام السوداني الأسبق أثناء المحاضرة في جامعة «البتراء» الأردنية (عمان: ٢٠٠٢).

مع الدكتور نبيل الشريف وزير الإعلام الأردني الأسبق أثناء المحاضرة في «مؤسسة عبد الحميد شومان» (عمان: ٢٠٠٤).

١٣

الصلاة طبقا لتوقيت إنتلسات

١٩٦٩ - ١٩٨٥

◆ ◆ ◆

اشترينا القمر الصناعي العربي.. اشترينا تصميمه واشترينا تصنيعه واشترينا إطلاقه، حتى قال البعض إنه لا يحمل من العروبة شيئا إلا اسمه.

◆ ◆ ◆

«كنا نجلس في أي بقعة في العالم العربي ونرى نشاطات تزلج الجليد في سويسرا وحريقا في تكساس ورجلا سقط من نافذة فندق في فرنسا، ولكننا لا نعلم الكثير عن إخواننا وجيراننا، وكان هذا يقوي من إحساسنا بالعزلة واليأس؛ لأن ما يقال لنا من أننا ننتمي إلى وطن واحد لا يبدو تماما في أجهزة إعلامنا».

الطيب صالح

قبل أن أتزوج في عام ١٩٦٦، ذهبت إلى محافظة القاهرة أطلب شقة للإيجار، فخصصت لي المحافظة بعد عدة أشهر شقة بالقرب من شارع مصر والسودان في حدائق القبة مكونة من غرفتين.. ذهبت للمحافظ سعد زايد أحتج، لماذا لا تعطون لي شقة أكبر، ولماذا يقتصر توزيع شقق الأحياء الراقية على كبار المسئولين وحدهم؟ أجابني المحافظ إجابة بسيطة للغاية: «لأنهم مسئولون كبار»، ودعا الله أن أصبح واحدا منهم، ووعدني أن يخصص لي حينئذ أفخر شقة في الزمالك.. لم أجد في النقاش جدوى فذهبت.. وعندما تزوجت وجدت شقة في بيت بمدينة الصحفيين تملكه الصحفية سكينة السادات الشقيقة الصغرى لأنور السادات رئيس مجلس الأمة عندئذ.. وعلى الرغم من أن الإيجار كان ١٨ جنيها، فإن ما شجعني هو أن البيت كانت به أربع شقق فقط، وكان يقع على طريق عام هو شارع السودان، وكانت صاحبته سيدة ودودة وزميلة مهنة أيضا؛ لذلك دفعت المقدم الذي كان يبلغ تسعة أشهر كاملة.. وفي أثناء ذلك صدر قانون بتشكيل لجان في كل محافظة تعيد تقدير الإيجارات القائمة بهدف تخفيف العبء على المستأجرين، وهكذا اتفق السكان على تقديم شكوى للجنة المختصة، إلا أننا فوجئنا بأن اللجنة رفعت الإيجار إلى ٢١ جنيها بدلا من تخفيضه..

اغتظت للقرار وعزمت على مغادرة الشقة عندما يستنفد المقدم الذي سددته، وبدأت أبحث عن شقة أخرى.. فجأة، إذا بمكالمة من مصور سوري كان يعمل معنا في جريدة «الجماهير» بدمشق ثم في التلفزيون السوري فيما بعد، وكان قد لجأ إلى القاهرة بعد الانفصال مع مجموعة من القوميين على الرغم من أنه أرمني الأصل.. قال سركيس بالجيان إن هناك شقة جاهزة الآن، وهي لا تبعد عن مبنى التلفزيون في ماسبيرو بأكثر من ثلاثة مبانٍ، وإن المطلوب فيها خلو لا يزيد على ألف جنيه.. لم أصدق، ومع ذلك جهزت الجنيهات الألف، وذهبت إلى سركيس في اليوم التالي في فندق سميراميس حيث كان جالسا ومعه وكيل العقار، وكان فلسطينيا.. سددت المقدم

ووقعت العقد مقابل إيجار ٨ جنيهات و٢١٤ قرشا شهريا، وأخذت مفتاح الشقة وأنا لا أزال أشك أن في الأمر خدعة، لكن الله سلم.. كان المفتاح مفتاح الشقة فعلا..

كانت الشقة مريحة تماما وكانت مساحتها مناسبة، وكان من أفضل مزاياها أنها مجاورة لعملي فهيئ لي عندئذ أن حياتي استقرت لسنوات طويلة قادمة في السكن والعمل، لكنه ما إن مرت عدة أشهر حتى جاءتني مكالمة من يحيى أبو بكر، وهو إذاعي مصري قديم، كان مديرا للإذاعة ثم مديرا لمصلحة الاستعلامات قبل أن يتولى إدارة الإعلام في جامعة الدول العربية في منتصف الستينيات، وكان رجلا دمث الأخلاق فائق التواضع، وكان يكلفني بين وقت وآخر بتحضير بعض الدراسات وإعداد الأفلام الوثائقية للجامعة.. قال أبو بكر في مكالمته إنه رشحني للعمل في «اتحاد إذاعات الدول العربية»..

يقضي ميثاق الجامعة العربية بألا تنشأ منظمة إلَّا إذا صدقت سبع دول على اتفاقيتها.. وعلى الرغم من أن مجلس الجامعة كان قد أقر اتفاقية الاتحاد في عام ١٩٥٥ فإنه لم تصدِّق عليها بعد مرور ١٤ سنة سوى ست دول فقط بينها مصر، وعندما علم الصديق علي شمو بذلك، وكان مديرا للتلفزيون السوداني في ذلك الحين (ووزيرا للإعلام فيما بعد)، سعى لدى الحكومة السودانية حتى تصدِّق على الاتفاقية ونجح في هذا بسرعة مذهلة، حتى إن الحكومة تبنت الدعوة إلى اجتماع تأسيسي للمنظمة الوليدة في الخرطوم في ١٩٦٩، وعقد الاجتماع هناك في فبراير، وتحمست لحضوره أقطار عربية لم تكن قد نالت استقلالها بعد مثل إمارة «أبو ظبي» وإمارة قطر..

كان على الاجتماع أن يختار أمينا عاما للاتحاد، وكان هناك مرشح واحد، وكان مصريا، هو صلاح عبد القادر مدير الإدارة القانونية في اتحاد الإذاعة والتلفزيون.. يقول علي شمو في مذكراته «تجربتي مع الإذاعة» إن صلاح عبد القادر «لم يكن عضوا في الوفد المصري كما أبلغنا بذلك عبد الحميد الحديدي رئيس الوفد، ولكنه جاء ليرشح نفسه أمينا عاما للاتحاد دون أن يحظى بموافقة وتأييد بلده كمرشح رسمي لها ودون أن تكون لديه المقومات المهنية التي تؤهله لذلك، فقد كانت تجربته

الإعلامية منحصرة في الجانب القانوني للإذاعة؛ لذلك وقف الوفد المصري معارضا لترشيحه، ولكننا تدخلنا لإزالة التوتر بين الطرفين وضغطنا على إخوتنا في الوفد المصري وطلبنا منهم ألَّا يعترضوا على الترشيح، وأبلغناهم أننا كسودانيين سنؤيد ذلك، وانتهت الأزمة عند هذا الحد»..

ولد الاتحاد في حفل كبير حضره الرئيس السوداني، وكان إسماعيل الأزهري في ذلك الوقت.. لم أكن حاضرا هناك، بل ولم أعلم عن الاجتماع إلَّا من يحيى أبو بكر بعد ذلك، عندما أبلغني أن هناك حاجة لشخص مهني يساند الأمين العام وأنه رشحني لهذا العمل، فإذا وجدت ذلك مناسبا فإن صلاح عبد القادر في انتظاري في أي وقت.. لم أكن على صلة بالرجل من قبل، بل ربما لم أكن قد رأيته على الرغم من وجودنا في المبنى نفسه تسع سنوات، لكنه استقبلني بلطف، وأخذ يعدِّد مزايا المنصب الذي يعرضه، سواء فيما يتعلق بالراتب أو بإمكان الجمع بينه وبين عملي في التلفزيون المصري..

على الرغم من أن المرتب كان ١٨٠ جنيها مصريا، أي أكثر من ثلاثة أضعاف ما كنت أتقاضاه من التلفزيون عندئذ (٥٥ جنيها)، فإنه لم يكن السبب، أو السبب الأول، في إغرائي للعمل في الاتحاد؛ إذ كانت الحياة تسير على مايرام بمكافأتي من التلفزيون وبعض أعمال إضافية ونشر مقالات هنا أو هناك.. وكانت زوجتي تعمل في الإذاعة، وكان لدى كل منا سيارة.. كانت القفزة الحقيقية في حياتي هي الانفتاح على العمل العربي المشترك والانطلاق إلى الآفاق الدولية الواسعة..

لكن أول انطلاقة لنا في العالم خيبت أملي؛ إذ إنه بعد التحاقي بالعمل بعدة أسابيع تلقى صلاح عبد القادر دعوة من «هيئة الإذاعة اليابانية» NHK لزيارتها، فاصطحبني معه، وكانت هذه أول مهمة نقوم بها معا، والواقع أنها لم تفدني بكثير أو قليل لا على المستوى المهني ولا على المستوى الشخصي؛ إذ كانت معظم الزيارات والاجتماعات التي نظمها مضيفونا تتركز على المعدات الإذاعية الحديثة التي لم نكن نعرف عنها سوى معلومات أولية..

وفي إحدى الأمسيات دعونا إلى عشاء في أحد المطاعم، وهناك رأيت لأول مرة فتيات الجيشا اللائي طالما سمعت عنهن، وكان معظم ما سمعت يربطهن على نحو

أو آخر بتقديم المتعة الجنسية بالأجر، إلَّا أنني فوجئت بأن كل ما سمعته هراء؛ إذ إنهن يعملن كمضيفات يسهرن على راحة الضيف بطرق تبدو لزائر مثلي فريدة تماما.. قد يقتضي الأمر أن تخلع لك فتاة الجيشا حذاءك، أو تغني لك أو ترقص، وربما تدلك لك جبهتك إذا ما كنت تحس بصداع، أو تجلس ملاصقة لك تناولك طعاما في فمك، ومن المؤكد أن ذلك قد يوحي لك بما هو أكثر، ولكن فتاة الجيشا المدربة (أي الفنانة باللغة اليابانية) لا تتعدى الخط الفاصل بين هذا وذاك..

لا أذكر الكثير عن هذه الزيارة لليابان بخلاف ما يلاحظه الزائر المرهق المتعجل من ملاحظات يعرفها أي زائر.. الأدب المفرط، والعمل الدؤوب الدقيق، والصناعة التي تواكب العالم وتسبقه في بلد كانت قد دمرته قنبلتان ذريتان قبل ربع قرن لا أكثر.. تحققت من ذلك بعينيَّ الاثنتين وحواسي جميعا على الرغم من قصر الزيارة التي لم تستغرق أكثر من ثلاثة أيام عدنا بعدها إلى القاهرة..

عندها استأجرنا مكانا لمكاتبنا في ٤٧ شارع قصر النيل في عمارة حديثة كنا محظوظين عندما وجدنا بها فيلا مستقلة في الطابقين الأخيرين، شغل صلاح عبد القادر الطابق العلوي منها، أما الطابق السفلي فكنت أجلس فيه مع اثنين من السكرتارية.. وشرعت على الفور في إصدار مجلة شهرية متواضعة التكاليف لأخبار الإذاعة والتلفزيون في الدول العربية وفي العالم، ثم بدأت في نشر سلسلة من الكتب الدراسية حول كل ماهو جديد في دنيا الإذاعة والتلفزيون..

بعد أسابيع قليلة استطعت أنا وصلاح عبد القادر أن نتقاسم المسئوليات بوضوح، سوف يترك لي الجوانب الفنية وسيتفرغ هو للاتصالات بالدول العربية.. وأشهد أنه نجح في ذلك إلى حد بعيد إذ كان مجاملا للغاية، وكان خفيف الظل، وكان يحب تقديم الهدايا وتلقيها، وكان سريعا في بناء العلاقات وخبيرا في توطيدها، حتى إنه كان يعرف في أحيان كثيرة اللون الذي يفضله الشخص المستهدف لبدلته أو قميصه أو مقاس حذاء ابنته.. وكانت مهمته الأولى في ذلك الوقت استكمال عضوية الاتحاد بِحَثِّ الدول التي لم تكن قد تبنت اتفاقيته على الانضمام، وعلى الرغم من أن بعض الدول قد تمنعت في البداية فإنه لم يمضِ عامان حتى كانت معظم الدول العربية قد انضوت في الاتحاد، بما في ذلك دول الخليج التي حصلت على استقلالها في عام ١٩٧١..

وفي اعتقادي أنني قمت أنا الآخر بواجبي.. يقول علي شمو في كتابه: «برهنت الظروف والأيام على أن تعيين حمدي كان موفقا، وأنه لولا وجوده في الاتحاد لما خطا تلك الخطوات التاريخية ولما تمكن من خلق علاقات دولية ممتازة، فله يرجع الفضل في كل تلك الإنجازات»، وكان آخرون قد رددوا مثل هذه الشهادة في مناسبات مختلفة، فازددت ثقة وحماسا.. وهكذا ما إن وصلنا إلى اجتماعات الدورة الثانية للجمعية العامة للاتحاد في العاصمة الأردنية عمان في ١٩٧٠ حتى كانت بعض ثمار جهدنا قد أصبحت محل استحسان واضح من الأعضاء، وعندما بدأت مناقشة الميزانية اقترح محمد سعيد الصحاف مدير مؤسسة الإذاعة والتلفزيون العراقية عندئذ زيادة راتبي إلى مائتي جنيه، فانتفض عبد العزيز جعفر وكيل وزارة الإعلام الكويتية المساعد واعترض بصوت جهوري على «التبذير دون داعٍ»..

لم يسكت الصحاف يومها لعبد العزيز جعفر، وتبادل الاثنان نقاشا حاميا استفز الصحاف لأن يقول لجعفر إن الفارق المقترح في راتبي لايزيد على تكلفة دعوة عشاء من دعواته، وإنه مستعد لتسديد هذا الفارق من جيبه، وهنا اقترح أحد الأعضاء إغلاق باب النقاش، والموافقة على العلاوة.. على الرغم من أن عبد العزيز جعفر، ووفد الكويت عموما، كان كثيرا مايدقق في الأمور المالية في تلك الدورة وما تلاها، فإنني لا أزال أرجح حتى الآن أن حرارة التراشق بين الرجلين لم تكن بسبب المبلغ أو بسبب موقف ما إزائي، ولكنها كانت بسبب ما وراء الستار من توتر كويتي عراقي سياسي لا ينقطع..

ترأس علي شمو هذا المؤتمر الثاني للاتحاد.. والحق أن رئاسته أعطت عملنا دفعة كبيرة؛ فهو إذاعي محترف، بدأ عمله في إذاعة «ركن السودان» في القاهرة سنة ١٩٥٥، وانتقل بعدها إلى إذاعة السودان ثم درس في أمريكا وعاد ليتدرج في المناصب حتى أصبح وزير إعلام بلاده.. كانت مهمتنا الأولى وقتها هي دفع مشروع القمر الصناعي، أما المهمة التي لم تكن أقل أولوية فكانت مد شبكة الاتصالات والتعاون لتصل إلى كل أنحاء العالم..

كان طموحنا كبيرا، ولكننا بذلنا من أجله كل جهد ممكن بالإخلاص الواجب، وقد ساعدنا على ذلك ثلاثة رجال؛ أولهم سير «تشارلز موزيس» وهو إذاعي أسترالي

كان أمينا عاما لاتحاد الإذاعات الآسيوية ABU، وكان يبلغ من العمر نحو الثمانين عاما.. كان موزيس «سير» اسما وهيئة وحضورا وسلوكا، وكان بالغ الكرم في تعاونه معنا وتقديمنا لكل من يعرف، وبقيت على صلة به سنوات طوالا كان دائما ما يقول خلالها إنني أذكِّره بشبابه.. وكان مجاملا مع من يحب.. أذكر أنه كان يأتي كلما حضر مؤتمرا ومعه ثلاث أو أربع زجاجات من عصير اللارنج المعتق الذي كان يزرعه في حديقته ليهديها إلى أصدقائه، وكان مشروبه الخاص هذا حديث المؤتمرات في جلسات المساء وزادها المفضل..

الثاني كان «إدوارد بلومان» وكان مدير العلاقات الخارجية بالإذاعة والتلفزيون السويدي، وباحثا له قدره في هذا المجال.. كان محبا للعرب وصديقا لعديد من الإذاعيين منهم، وكان يحضر بين حين وآخر مؤتمراتنا واجتماعاتنا، ولابد أن يذكره الكثيرون منا إن لم يكن بنشاطه المتقد فعلى الأقل بجاكتته الفاقعة التي غالبا ما تكون حمراء أو صفراء.. وقد ترأس «بلومان» أول بعثة لليونسكو في معاونتنا لدراسة مشروع القمر الصناعي، وعندما عين مديرا لـ«معهد الاتصال الدولي» ICI كان هو الذي رشحني ومن بعدي سعد لبيب ثم علي شمو لعضوية مجلس أمناء المعهد.. وقد تقاعد بعد المعهد وأقام في باريس في الوقت الذي كنت أعيش فيه هناك..

أما الشخصية الثالثة فكانت «بيير لانتناك» الفرنسي الذي كان خبيرا في مقر «اليوروفيزيون»، أي الشبكة الأوروبية للتلفزيون التي كانت تربط بين محطات التلفزيون الأوروبي، وكانت هي الحلم الذي نطمح إلى إقامة مثيل له في العالم العربي.. وقد عاوننا كثيرا في مشروعات تبادل الأخبار بين محطات الدول العربية، وكنت أقدره كثيرا ليس فقط لجهده الدؤوب معنا، ولكن لخلقه الرفيع وإنسانيته؛ فقد تبنى في ذلك الوقت فتاتين فيتناميتين، تبعهما ثلاثة آخرون من الصبية والبنات في سنوات لاحقة، وكانوا فيتناميين جميعا..

من خلال هؤلاء الرجال الثلاثة، الذين أصبحوا من أقرب أصدقائي بعد فترة وجيزة، استطعنا أن نوثق علاقتنا مع معظم المنظمات الإذاعية الإقليمية، ولعل مشاهدي التلفزيون قد أحسوا بهذا الجهد الذي تجلى في نقل مباريات كرة القدم الأوليمبية نتيجة للاتفاقيات التي عقدها المركز الهندسي للاتحاد في الخرطوم لبث

هذه المباريات حية في الدول العربية.. ومن ناحية أخرى اتجهنا إلى المنظمات الدولية مثل اليونسكو والاتحاد الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية الذي استطعنا الحصول منه على مدار خاص وعلى الترددات اللازمة للقمر العربي في زمن قياسي، وبدأنا في بناء علاقات مع هيئات الإذاعة في أنحاء العالم وخاصة في الدول الغربية، وكانت هذه الدول تتصارع فيما بينها لتوطيد علاقاتها معنا في إطار سياساتها الإستراتيجية..

في ذلك الوقت كانت هناك معركة تلفزيونية محتدمة بعرض العالم كله بين الفرنسيين والألمان، كل منهما يروج لنظام التلفزيون الملون الخاص به، فرنسا تروج لنظام «سيكام» وألمانيا تروج لنظام «بال»، وكنا نحاول أن تتفق الدول العربية على اختيار نظام منهما يطبق فيها جميعا، وهكذا رتبنا زيارة لكل من ألمانيا وفرنسا لوفد من مهندسي التلفزيون في الدول العربية، التحقت به مع علي شمو.. توجهنا أولا إلى البروفسور بروخ في معمله في ميونيخ، الذي خرج منه النظام الألماني ثم طبق في معظم الدول الأوروبية ابتداء من عام ١٩٦٧، وكانت المرة الأولى التي أحضر فيها محاضرة بهذا العمق في شئون الهندسة، ولا أتذكر أنني شاركت كثيرا في النقاش وسط هذا الحشد من المتخصصين، أو فهمت مما قيل قدرا كبيرا..

وفي باريس تكرر المشهد نفسه مع المهندس «هنري دي فرانسيس» الذي اخترع نظام «سيكام» خلال عمله مع شركة «طومسون»، وقد بدا على معظم المهندسين يومها أنهم أصبحوا أكثر اقتناعا بالنظام الفرنسي، وكنت أنا وعلي نشاركهم القناعة نفسها ولكن من منطلق تعاطفنا السياسي مع فرنسا.. ومع ذلك فقد كان التوصل إلى اتفاق جماعي بين الدول العربية على نظام واحد أمرا أقرب إلى المستحيل، فمثل هذه المعارك لا تحسم بسهولة خاصة عندما يختلط الشأن الفني بالسياسي بالمالي، وتتدخل السلطات العليا في عمل الخبراء، وتُشرع الشركات الأجنبية كل أسلحتها الشيطانية.. وللأسف فقد كانت هذه هي النهاية التي كنا نعمل من أجل تلافيها، فقد اختارت كل دولة النظام الذي يروق لها..

كانت هذه هي السنة الثانية من عملي في الاتحاد، وأظن أنها كانت أكثر سنواتي نجاحا فيه، وكان من أهم أسباب ذلك علاقتي مع علي شمو التي نادرا ما تتوافر بين

زميلين في عمل واحد.. وقد نمت هذه العلاقة حتى أصبحت صداقة وطيدة امتدت إلى يومنا هذا، فقد كان طموحنا واحدا بل وكان مزاجنا واحدا أيضا إلى حد أننا كنا نشترك في هوايات مثل الولع بشراء الأحذية..

لكن العام التالي لم يكن أقل من سابقه نجاحا، فقد انعقدت جمعيتنا العامة الثالثة في بغداد سنة ١٩٧١، وكان محمد سعيد الصحاف لا يزال مديرا عاما للإذاعة والتلفزيون فانتخب رئيسا للاتحاد.. كانت جمعية بغداد العامة هي الموعد المحدد أيضا لانتخابات الأمين العام، إما بإعادة انتخاب صلاح عبد القادر الذي كان قد قضى في منصبه سنتين، وإما انتخاب المرشح المنافس، وكان الصديق عبد الله شقرون مدير الشئون الدولية في تلفزيون المغرب، الخبير القانوني البارز في الشئون الإذاعية، والكاتب المسرحي أيضا..

ذهبت في الصباح إلى عبد القادر في غرفته أتشاور معه في بعض الشئون، فوجدته جالسا بملابسه الداخلية وعلى الطاولة أمامه صنوف عديدة من الأدوية كنت أعلم أن غالبيتها مقويات وفيتامينات اعتاد أن يشتري منها كميات كلما سافر إلى الخارج.. أوحى لي المشهد بمقلب جديد من تلك المقالب التي اعتدتها معه، والحق أنه كان دائما ما يستقبلها بمرح مهما كانت سخافتها.. سارعت إلى مطعم الفندق حيث كانت الوفود تتناول الإفطار، وصحت فيهم: «صلاح بيه بينتحر، صلاح بيه بينتحر.. الله يخرب بيت الانتخابات على اليوم اللي عملنا فيه انتخابات.. الراجل حيروح مننا علشان الكرسي».. هرول كثيرون معي إلى غرفة الرجل، وطرق بعضهم الباب في حين انقض آخرون عليه ففتحوه عنوة.. بوغت عبد القادر بكل هؤلاء القادمين، البعض منهم يواسيه والبعض يتحسس نبض القلب في صدره وذراعه، في حين أخذ آخرون في الاتصال بطبيب أو فحص الأدوية التي على الطاولة للتأكد من مدى خطورتها.. وعندما انكشف المقلب انفجر الجميع في الضحك في حين أخذ هو بروحه المتسامحة يتمتم: «الله يجازيك يا حمدي، الله يجازيك يا حمدي»..

* * *

فاز صلاح عبد القادر في الانتخابات التي جرت في جو من التآلف زاده مودة مقلب الصباح، وبدأنا سنة جديدة كانت سنة أخبار التلفزيون بامتياز.. كان الحلم

الأول للعاملين في محطات التلفزيون العربية عندئذ أن يتبادلوا فيما بينهم الأخبار المصورة، ولم تكن هذه الأخبار تشكل سوى جانب محدود من النشرات التي كانت غالبا ما تقرأ بواسطة مذيع يتربع على الشاشة معظم الوقت، ذلك أن الاعتقاد السائد في ذلك الوقت كان يعتبر التلفزيون مجرد امتداد للراديو، كما أن معظم محطات التلفزيون في الوطن العربي قامت على أكتاف العاملين في الإذاعة، ولكن فقر الأفلام الإخبارية كان يرجع أيضا إلى ضآلة الميزانيات والضعف في المعدات وندرة وسائل الاتصالات الحديثة والحاجة إلى خبرات مدربة..

كانت الأفلام المصورة حول الأحداث الخارجية تأتي عادة من وكالات الأنباء الفيلمية الدولية، وخاصة وكالة «فيزنيوز» VISNEWS ووكالة UPITN، وكانت كلتاهما بريطانية.. وكانت أخبارهما المصورة تبث بعد وقوع الحدث بيومين أو ثلاثة في معظم الأحوال.. أجرينا دراسة في اتحاد الإذاعات عندئذ فتبين منها أن أقصى معدل لبث الأفلام التي تغطي الأحداث العربية في نشرات الأخبار في كل بلد عربي هو خمسة أفلام كل أسبوع، أما الأحداث الدولية فقد كانت أوفر حظا في التغطية بالأفلام التي كانت تمدنا بها الوكالات الأجنبية، وهكذا أغرقت شاشات التلفزيون العربية بمواد إخبارية غربية في حين كادت تخلو من مواد مثيلة حول أحداث الوطن العربي ذاته.. أذكر أن الكاتب الكبير الطيب صالح (الذي زاملنا العمل باليونسكو في سنوات عمره الأخيرة) كان قد كتب عندئذ يقول إننا «كنا نجلس في أي بقعة من العالم العربي ونرى نشاطات تزلج الجليد في سويسرا وحريقا في تكساس ورجلا سقط من نافذة فندق في فرنسا، ولكننا لا نعلم الكثير عن إخواننا وجيراننا، وكان هذا يقوي من إحساسنا بالعزلة واليأس لأن ما يقال لنا من أننا ننتمي إلى وطن واحد لا يبدو تماما في أجهزة إعلامنا»..

في المقابل فإن الأخبار العربية، شأنها شأن أخبار دول العالم الثالث، لم تكن تعرض سوى نادرا في محطات التلفزيون في العالم المتقدم.. وفي بحث أجرته جامعة ليستر البريطانية في عام ١٩٧٢ لم تشكل الأخبار المرئية عن إفريقيا السوداء سوى ١ ـ ٢٪ من مجمل الأخبار المرئية في نشرات الأخبار بمحطات التلفزيون الأوروبية الغربية، كما أن أخبار كل من أمريكا الجنوبية وآسيا شكلت قدرا مساويا،

أما الأخبار عن الولايات المتحدة فكانت توازي أو تفوق في عددها الأخبار الواردة من القارات الثلاث جميعا..

وقد تعرضت الوكالات الأجنبية لانتقاد شديد من المسئولين في محطات التلفزيون العربية، فقد اتهموها بالانحياز في معالجة الأخبار السياسية المتعلقة بالمنطقة، وخاصة تلك المتعلقة بالمشكلة الفلسطينية، كذلك اتهموها بأنها ترسل أفلامها متأخرة، كما اتهموها بالتقصير في تقديم تغطية كافية للأخبار العربية عامة، وبأنها تهتم بأخبار الدول المتقدمة صناعيا على حساب الدول النامية، وبأنها تسعى إلى الربح أحيانا على حساب الكفاءة.. وهكذا اتخذ اتحاد الإذاعات قرارا في جمعيته العامة في بغداد في فبراير ١٩٧١ بإقامة وكالة أنباء عربية مصورة، وكلفنا في الأمانة العامة بتقديم مشروع متكامل للوكالة في الدورة التالية.. كان إقامة وكالة مركزية تصور الأخبار وتوزعها هو الحل التقليدي المألوف عندئذ، ولكنني لم أكتشف الطريق الأكثر صوابا إلا عندما اطلعت على ما يفعله الآخرون في اتحادات الإذاعات الدولية..

وعندما عقدت مجموعة الأخبار في اتحاد الإذاعات في أوروبا الغربية EBU اجتماعها في كوبنهاجن في سبتمبر ١٩٧١ ودعينا إلى هذا الاجتماع اكتشفت أننا كنا نـغرد وحدنا، ففي حين كنا ندعو في المنطقة العربية إلى إقامة «وكالة» للأخبار المصورة كان الآخرون يتحدثون عن «نظام» لتبادل الأخبار، كل في منطقته، بحيث تنتج المحطات هذه الأخبار وتتبادلها فيما بينها دون حاجة إلى وسيط.. لهذا آمنت في نهاية الاجتماع بأن الجهاز الذي سنقيمه في المنطقة العربية لابد له أن يعمل، بل لا يمكن له أن يعمل، سوى في إطار عالمي وتحت مظلة الاتحادات الإذاعية الإقليمية.. وهكذا حضرت اجتماع مجموعة الأخبار التالي في EBU الذي انعقد في دبلن في سبتمبر ١٩٧٢ ثم مؤتمر «المعهد الإذاعي الدولي» IBI السنوي في أمستردام؛ حيث اتفقت مع مدير المعهد صديقي «إدوارد بلومان» ومع صديق آخر هو «راينهارد كوينه» ممثل مؤسسة «فريدريش إيبرت» الألمانية على تكوين مجموعة مشتركة من الخبراء لوضع الدراسة الخاصة بالمشروع العربي، واخترنا الخبراء الثلاثة الذين سيقومون بالدراسة..

لم نكن نهدف إلى نظام معقد للتبادل في ذلك الحين إذ رأينا أن نناقش أولا مسائل تبدو اليوم مجرد بديهيات.. كنا نناشد محطاتنا أن تسعى قدر الإمكان إلى تصوير أخبارها، ونقول إنه كلما كانت الأخبار مصورة وجدت طريقها إلى الشاشة، وأن الأحداث التي تتم تغطيتها بلقطات جاذبة للانتباه سوف تلقى فرصة للبث من المحطات الأخرى، وكنا نحث أيضا على استخدام الصوت المسجل على الصورة، وعلى الإيجاز والسرعة، وعلى التقليل قدر الإمكان من الأخبار البروتوكولية..

كنا نقول وقتها ونعيد ونؤكد أن الأخبار السياسية ليست هي كل الأخبار، ونطالب ببث المزيد من الأخبار الثقافية والرياضية المعروضة للتبادل.. دعونا إلى أن تتضمن أخبار التبادل فقرات قصيرة عن المهرجانات الفنية أو عن ظهور عمل أدبي أو فني جديد، وأن تتعرض لكل ما يلفت النظر في حياتنا اليومية ويمس لقمة عيشنا أو يثير إلهامنا أو يروِّح عن أذهاننا المكدودة.. نصحنا أن تتعدى الأخبار الرياضية ولعنا المريض بكرة القدم لتكشف لنا عن الأبطال والبطولات العربية في رياضات أخرى.. أكدنا أيضا على ضرورة أن تكون المواد السياسية والإنمائية جذابة في الوقت نفسه الذي هي فيه جادة، وقلنا إن الجاذبية لا تقتصر على المضمون فقط، وإنما تشمل القالب أيضا..

كنا نؤكد أن التبادل ليس فيه مكان لصورة واحدة، وإنما لصور عديدة متنوعة، وليس فيه مكان لنجم واحد وإنما لنجوم كثيرين من كل قطر وفي كل ميدان، وأن أبطال السياسة ليسوا هم النجوم بالضرورة، فهناك غيرهم كثيرون في مجالات الفكر والفن والصناعة.. وكنا نعرف أن من الصعب أن نقدم السياسيين بتجرد وأن نتعرض لشئون السياسة دون انحياز، ولذلك كنا نقول إن التبادل لن ينجح إلَّا إذا حرصنا على الحرية الكاملة في عرض وجهات النظر بالنسبة إلى الحدث الإخباري، وإبراز الآراء المؤيدة والمعارضة، وتفسير الأخبار دون إبداء الرأي فيها، ذلك أن المشاهد يتوقع أن يعرف ويشاهد الحقيقة كاملة ودونما انحياز منا إلى رأي أو طرف معين..

وكنا نناشد الإذاعيين بألا يدسوا شحنات سياسية متفجرة في المواد التي تعرض للتبادل، وعلى تنحية الخلافات السياسية جانبا قدر إمكانهم، ونقول إنه سوف يحدث

توتر في العلاقات فيما بين دول عربية وأخرى في وقت أو آخر، تماما كما يحدث في أي منطقة أخرى من العالم، لكن إسبانيا لا تقاطع برامج التلفزيون البريطانية لأنها مختلفة مع المملكة المتحدة بشأن جبل طارق، وفرنسا تبث على شاشاتها برامج التلفزيون الإيطالية حتى إذا وقعت حرب نبيذ بين البلدين، ولم يقاطع أي بلد أوروبي يحكمه المحافظون البرامج الفرنسية عندما تولى الاشتراكيون الحكم في باريس، كما أن النرويج (عضو حلف الأطلنطي) والسويد (الأقرب إلى الحياد دوليا) وفنلندا (الأوثق علاقة مع الاتحاد السوفيتي) تتبادل الأخبار فيما بينها بانتظام..

وقد نجحت جهودنا في كثير من الأحيان لإرساء قواعد جهاز تبادل الأخبار العربي على أسس مهنية صرفة.. أذكر أن العلاقات الدبلوماسية كانت مقطوعة والحدود والأجواء مغلقة بين سوريا والأردن في عام ١٩٧٣، ولكن أول طائرة اجتازت الحدود كانت طائرة تدريب بمحرك واحد يقودها الصحفي التلفزيوني الأردني إبراهيم شاه زادة الذي طار إلى دمشق لتغطية زيارة فالدهايم أمين عام الأمم المتحدة وقتئذ، وعاد في المساء وحقن الفيلم بالأقمار الصناعية في شبكة اليوروفيزيون..

في كل الأحوال، فقد نجحنا في الدعوة لمشروع التبادل العربي بعد أن انتهى الاتحاد من دراسته.. وفي ذلك الوقت لم تكن هناك سوى ثلاث محطات أرضية للاتصال بالأقمار الصناعية الدولية، في الأردن وفي المغرب وفي الكويت، أما القمر الصناعي العربي فكان لا يزال مشروعا قيد الدراسة؛ ولذلك كان النقل بالطائرات هو الوسيلة الأساسية لتداول الأخبار العربية المصورة..

ونتيجة لهذا الوضع فقد أمضت بعثة الخبراء التي استدعاها اتحاد إذاعات الدول العربية معظم وقتها في دراسة جداول حركة الطيران بين العواصم المختلفة كي تقترح مواعيد الرحلات المناسبة لنقل الأخبار من بلد إلى آخر؛ حتى يمكن تجميعها في الرباط أو عمان أو الكويت، وتبادلها فيما بعد بالأقمار بين المحطات الثلاث، ثم توزيعها بالطيران مرة أخرى.. وكان كثير من البلدان العربية لا تربطه ببلدان أخرى إلّا رحلة طيران واحدة أو رحلتان كل أسبوع، وحتى القاهرة، التي كانت مركزا من المراكز الرئيسية لحركة الطيران في الوطن العربي، لم يكن بمقدورها أن تبث كثيرا

من أخبارها في اليوم نفسه إلى غيرها من البلدان.. وفي بعض أيام الأسبوع، كان الأمر يقتضي إرسال الأخبار من القاهرة إلى بيروت بالطائرة، ومنها بالسيارة إلى عمَّان؛ حيث تنقل إلى الكويت والرباط بالأقمار الصناعية، ومن هناك توزع بالطائرات أو السيارات على الأقطار المجاورة، بل إن بعثة الخبراء أوصت باستخدام الدراجات البخارية لنقل الأفلام الإخبارية بين دمشق وعمَّان، وكان هذا أمرا عمليا تماما؛ إذ كان بمستطاع مثل هذه الدراجات أن تقطع المسافة في نحو أربع أو خمس ساعات..

ولهذا قام الجهاز العربي لتبادل الأخبار التلفزيونية في خريف ١٩٧٢ على أساس تقسيم الوطن العربي إلى ثلاث مناطق، يتم التداول في داخل كل منها بواسطة وسائل الاتصالات التقليدية، في حين يتم التبادل بينها بالأقمار الصناعية، ولكن العزائم سرعان ما ثبطت وخفت الحماس لمتابعة التبادل الذي بدأ يتضاءل بدرجة كبيرة..

وفي العام نفسه، ١٩٧٢، عقدنا الجمعية العامة للاتحاد في دمشق؛ حيث أقيم مركز التدريب التابع للاتحاد هناك، وقد توفرت لهذا المركز كل التجهيزات المطلوبة والمعدات الحديثة اللازمة خاصة بعد أن تلقينا منحة إضافية لدعمه في أولى سنواته من دولة الإمارات العربية المتحدة بمبلغ ٣٠٠ ألف دولار.. كانت الإمارات في مقدمة الدول التي تساند نشاطاتنا، ولعل الفضل في ذلك لا يرجع فقط إلى سياستها لدعم المشروعات العربية ورغبتها في التواجد في المنظمات العربية خاصة بعد الاستقلال، وإنما أيضا لوجود علي شمو وقتها في «أبو ظبي» كمستشار لوزارة الإعلام..

وفي العام التالي، ١٩٧٣، عقدنا الجمعية العامة للاتحاد في الإمارات.. وقد وفر إخواننا هناك للمؤتمر كل أسباب النجاح على الرغم من أن أجهزة الدولة كانت لا تزال في طور الإنشاء، واستضافونا في مدينة «العين» منشأ الشيخ زايد وموطنه المحبب.. أذكر أنه لم يقلقنا شيء خلال هذه المهمة سوى السفر من مطار «أبو ظبي» إلى العين، وكنت أقطع هذا الطريق في المساء والغزلان تتقافز فجأة بين حين وآخر قادمة من جانب الطريق إلى الجانب الآخر، والسائق لا يملك من أمره شيئا.. لكن الاستضافة كانت بالغة الكرم، كالعادة في دول الخليج حينئذ، حتى إن أيا من الضيوف لم يدفع درهما واحدا مقابل مأكله ومشربه واتصالاته التلفونية الدولية، وكنا نقيم في

فندق «إنتركونتيننتال» الفاخر الذي كان قد افتتح حديثا.. وبعد أن انتهى المؤتمر، عدت إلى «أبو ظبي» لألتقي بالشيخ راشد عبد الله وكيل الوزارة (الذي أصبح بعد ذلك وزيرا للخارجية لسنوات طويلة) لنبحث خطة تنفيذ توصيات المؤتمر، وهناك قال إنه لا يفشي سرا إذا ما أبلغني أنه سيهدي ساعات يد إلى الأعضاء جميعا، ثم فتح درج مكتبه وقال: «اختر الساعة التي تفضلها من الآن».. كنا سعداء للغاية أن المؤتمر انتهى بنجاح، وأننا استطعنا خلاله أن ندفع إلى الأمام مشروع القمر الصناعي العربي؛ مشروع الاتحاد الأول في ذلك الحين..

* * *

كانت الجامعة العربية قد عينت في أواخر الستينيات مستشارا للمواصلات هو المهندس صلاح عامر عميد المهندسين الإذاعيين المصريين الذي بدأ على الفور في إجراء دراسة شاملة عن تطور الاتصالات الفضائية في العالم، ثم خلص بعد ذلك إلى ضرورة إطلاق قمر عربي.. وقد تأثرت بأفكار صلاح عامر الذي كانت تربطني به صلة وثيقة..

قررت منذ بداية عملي في الاتحاد أن أقوم بدراسة جادة عن الاتصالات الفضائية بهدف تنفيذ خطة عاجلة هي استخدام هذه الاتصالات في تبادل أخبار التلفزيون بين الدول العربية، وخطة آجلة هي مشروع إطلاق قمر صناعي خاص بالعرب، وكان هذا المشروع أكثر تعقيدا، لذلك بدأنا أولا بإثارة الاهتمام حوله.. دعونا إلى تشكيل لجان وطنية للفضاء في الدول العربية، وقامت هذه اللجان بالفعل في عدد من الدول، وكان من مهامها الأولى دراسة الاحتياجات الإذاعية من الشبكات الفضائية، ثم وجهنا طلبا إلى منظمة اليونسكو لإيفاد بعثة إلى المنطقة لدراسة مشروع إطلاق قمر صناعي عربي فاستجابت للدعوة في أسابيع معدودة.. وانتهت هذه البعثة إلى أنه «من المستحيل على البلدان العربية أن تصل إلى أهداف التنمية التي تنشدها دون اللجوء إلى استخدام وسائل فنية جديدة كتكنولوجيا الفضاء التي تقدمت إلى الحد الذي يجعلها بديلا قابلا للاستخدام من جانب الدول النامية».. وإثر صدور التقرير اتخذت الجمعية العامة للاتحاد في عام ١٩٧١ قرارا بأن «تتبنى الدول العربية

مشروع الربط التلفزيوني عن طريق قمر صناعي لاستخدامه في الأغراض التثقيفية والإعلامية» على أن تتقدم بطلب المساعدة من المنظمات الدولية لإجراء دراسة جدوى مفصلة للمشروع..

وفي عام ١٩٧٢ وصل الاتحاد إلى أوج نشاطه في الاهتمام بشئون الفضاء بعقد «المؤتمر العربي الأول لاتصالات الفضاء» في عمَّان، وبدأنا في إصدار البحوث والدراسات، ووسعنا من اتصالاتنا بالمنظمات الدولية المعنية التي أرسلت لنا بعثات خبراء أخرى، وعقدنا اجتماعات منفردة مع معظم أصحاب القرار في ميادين الإعلام والاتصالات في الدول العربية كافة حتى تلك التي لم تكن عضوا في الاتحاد عندئذ مثل السعودية (انضمت في عام ١٩٧٤) للتعرف على أفكارهم وخططهم..

كنا في ذلك الوقت متأثرين إلى حد كبير بالتجربة الكندية في مجال اتصالات الفضاء، وكانت كندا ثالث بلد ـ بعد الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ـ يطلق قمرا صناعيا خاصا به هو Anik A1 في عام ١٩٧٢، وقد أثارت النزعة الاستقلالية في كندا حماستنا خاصة أن معظمنا كان يود التملص من القوتين الكبيرتين.. وكانت كندا قد برزت أيضا في تصميم وتصنيع المحطات الأرضية بالإضافة إلى الأقمار الصناعية، وهكذا داعبت أحلامنا في القدرة على التصميم والتصنيع، كما أنها كانت تتماثل مع الأقطار العربية من حيث إن الحكومة ـ وليس الشركات الخاصة ـ هي التي تقف وراء كل المشروعات في قطاع الاتصالات..

لكن ما أوحى به إلينا المشروع الكندي على نحو خاص هو أن يتضمن القمر الصناعي العربي المقترح قناة ذات قوة بث كبيرة بحيث يمكن استقبالها بهوائيات صغيرة (الدش)، وكانت هذه القناة تسمى «القناة غزيرة الإشعاع»، وكنا نهدف إلى استخدام هذه القناة في برامج موحدة تبث إلى أنحاء الوطن العربي كافة مباشرة دون أن تثير حساسيات سياسية أو نعرات طائفية، مثل البرامج التعليمية والتثقيفية.. وفي تلك الأثناء كانت هناك حمى تجتاح الدول النامية تحت عنوان استخدام التلفزيون للأغراض التعليمية والتربوية، فقمنا في السنة نفسها بدراسة حول إنتاج برامج مشتركة لمحو الأمية بالإضافة إلى برامج لتدريب معلمي فصول

محو الأمية، واقترحنا استخدام القمر الصناعي في التدريب المهني والتثقيف العمالي عن طريق التلفزيون..

في كل الأحوال، كانت الأجواء السياسية مواتية إلى حد كبير نتيجة للتكاتف العربي الذي نشأ بعد حرب يونيو ١٩٦٧.. إلَّا أن الصورة لم تكن وردية تماما، فقد استمرت الخلافات بين اتحاد الإذاعات واتحاد المواصلات حول جدوى مشروع القمر، كما أننا لم نتمكن من عزل السياسة عن خطط تبادل البرامج، كذلك تقاطرت على المشروع أسراب هاموش وانقضت عليه بعض الحيتان تحاول أن تنهش منه ما تستطيع.. أنا لا أضع «زياد مانجو» تحت هذا الفصيل أو ذاك، ولكنه يظل وحده فصيلا قائما بذاته.. مانجو رجل أعمال أردني أغلب الظن أن حجم أعماله متوسط، وعلى الرغم من ذلك كان يحيط نفسه بهالة براقة مصطنعة يعتقد أنها تكسبه احتراما وتأثيرا، لكنها على العكس نفرتني إلى حد كبير.. كان أول لقاء لنا في باريس حيث دعاني إلى فندق «كريون» في ساحة الكونكورد الشهيرة، وهو فندق فاخر اعتاد وزراء مبارك أن ينزلوا فيه عند زيارتهم لباريس..

كان يريد إقامة شركة لإطلاق قمر صناعي للدول العربية؛ لأنه يعتقد أن القطاع الخاص هو القادر على إطلاق المشروع وليس الحكومات التي عادة ما تغرق في الخلافات السياسية، فنبهته إلى أن الحكومات لن تفرط في مشروع كهذا تعتبره مرتبطا بأمنها القومي، وأنه يمكنه أن يعدل خطته بحيث يعرض مشاركته في المشروع، وأن من المحتمل أن تأتي اللحظة المناسبة لذلك في مرحلة قادمة إذا ما أقر مبدأ مشاركة القطاع الخاص الذي كان النقاش قد دار حوله بالفعل من قبل واختلف الفرقاء عليه، أو إذا ما عجزت الحكومات لسبب أو آخر عن توفير التمويل اللازم.. ولا أستطيع أن أجزم حتى الآن إذا ما كان مانجو في الحقيقة جادا في مسعاه، ولا تزال الشكوك تساورني أنه كان يمثل طرفا آخر وراء الستار..

بعد الموعد الأول بأسابيع دعاني للقائه ثانية في لندن مع صديقي ريمون إسكندر موزع برامج التلفزيون الدولية.. وكما هو متوقع، وجدنا في انتظارنا في المطار سيارة فارهة يقودها سائق أشبه بسفير ذاهب إلى تقديم أوراق اعتماده، وأخذنا

السيارة إلى بيته في الريف الذي كان يسمى The Silk House (أي بيت الحرير)، وهو يبعد عن المدينة نحو ٣٠ كيلومترا، وكان قصرا منيفا ظننت أنه لابد قد اشتراه من ملوك، وقبل أن نجلس للحديث أخذنا إلى حظيرة الخيل، ثم طاف المزرعة بالسيارة حتى نطلع على مساحتها الشاسعة.. يومها أراد مانجو استشارتنا في الفكرة الجديدة التي استقر عليها، وهي استئجار نصف قنوات القمر ودفع الإيجار لمدة خمس سنوات مقدما حتى يحصل عليها بثمن مخفض، وقد استحسنت الفكرة وقلت إنها قد تكون قابلة للموافقة خاصة لو خفض العدد المطلوب من القنوات ولو دفع عربونا مجزيا يثبت جديته، وحين غادرته كانت الشكوك تساورني في أنه استأجر القصر بخدمه من أصحابه لساعات، وإن كان ضميري قد أنبني لهذه الوساوس الشريرة..

في النهاية بلور مانجو مشروعه فأقام شركة سماها «التلفزيون الفضائي العربي» سجلها في جزيرة «آيل أوف مان» في البداية، ثم أعاد تسجيلها في تونس حتى تأخذ صبغة عربية وتجتاز بذلك الشروط التي وضعتها عربسات لتأجير قنواتها.. وتقدمت الشركة بمشروعها في صيغته النهائية، وتتمثل في استئجار ست قنوات من عربسات لمدة خمس سنوات، تبث خلالها برامج عربية وأجنبية موجهة إلى محطات التلفزيون العربية لتبثها هذه المحطات في الوقت الذي تراه، وتحصل المحطات على البرامج مجانا في حين يحصل مانجو على عائد الإعلانات التي قدرت بعشر دقائق كل ساعة، ولكنه عندما طرح المشروع على «عربسات» اعترضت عليه معظم الدول الأعضاء لأسباب متباينة، من بينها انعدام الثقة في قدرة مانجو على سداد الإيجار الذي عرضه، وقدره ٤٠ مليون دولار..

كان مانجو شعلة من الذكاء، لكنني كنت في بعض الأحيان أجده طيبا بل ساذجا للغاية، وأعرف أنه ابن ناس طيبين؛ لذلك ظللت حائرا في أمره طويلا كلما التقيته بعد ذلك، وكنت ألاقيه من وقت لآخر في كواليس الاجتماعات المتصلة بعربسات، وكان يحمل دائما حقيبة يد منتفخة بالأوراق، ويقدم في كل مرة اقتراحا جديدا، ولكنه أغلق في النهاية شركته وقام بتصفية أعماله في عمَّان وخرج منها في ظروف غامضة.. لم ينجز شيئا حتى مات ومعه كل أسراره..

كان مشروع عربسات يتقدم وقتها ولكن ببطء، وكانت أهم المصاعب التي واجهناها هي الوساوس السياسية.. قال لي المسئولون في التلفزيون السوري أكثر من مرة إنهم يخشون من أن يبثوا على الهواء مباشرة المباريات الرياضية، وربما يحتاج الأمر تسجيلها ومراجعتها قبل البث؛ إذ لاحظوا أن المعلقين الرياضيين في بعض الدول كثيرا ما يخرجون عن التعليق الرياضي ويطبعونه بطابع سياسي، كأن يمجدوا دون داعٍ وبشكل مبالغ فيه حاكم الدولة المعنية.. كذلك قال المنصف بن محمود الذي كان مديرا عاما للإذاعة والتلفزة التونسية إن تجربة محطته مع البرامج التي تصلها من دول أخرى لم تكن مشجعة دائما، وإن «الدعاية المباشرة في بعض هذه البرامج كانت تحرجنا»..

وكان رئيس وزراء تونس عندئذ الهادي نويرة أكثر بلاغة في التعبير عن وجهة نظر المترددين، ولكن مسئولين عربا آخرين لم يكونوا أقل براعة في الدفاع عن القمر العربي، وكان بين هؤلاء وزير الإعلام السعودي عندئذ الدكتور محمد عبده يماني، وكان كثيرا مايردد حجته الشهيرة في ضرورة الاعتماد على قمر خاص بنا بدلا من اللجوء إلى الأقمار الأجنبية مثل أقمار الإنتلسات، فيروي أنه حدث في إحدى السنوات أن المسئولين في التلفزيون السعودي أرادوا بث صلاة العيد لتنقل بالأقمار الصناعية إلى العالم، فقيل لهم إن ذلك غير ممكن إلا بعد ثلاث ساعات، ويضحك يماني ملء شدقيه وهو يقول: «كأننا ـ أستغفر الله ـ سنحدد الصلاة طبقا لتوقيت إنتلسات»..

كان رواد مشروع القمر الصناعي العربي الأوائل يرون أن «عربسات» وحده هو الذي يمكنه أن يوفر لهم القنوات المفتوحة على الدوام لتبادل المواد التلفزيونية بين أقطارهم في كل وقت، وكانوا يرون أن التبادل الإعلامي هو المهمة الأساسية التي يمكن أن تقوم بها الشبكة الفضائية العربية، وكان كثيرون يعتقدون أن هذا ليس عملا مهنيا فقط ولكنه رسالة تتعلق بدعم الوحدة العربية والثقافة العربية.. كانوا يثقون بأن غالبية الإذاعيين العرب لديهم هذا التوجه منذ زمن، ويقولون إن الأغنية العربية لا تعرف حدودا وطنية، ومنتج الفيلم السينمائي يضع في باله السوق العربية كلها، والمسلسلات تباع وتبث في الوقت ذاته في أكثر من بلد، وبرنامج الراديو يكتب

ويخرج ويذاع في أحيان كثيرة على أساس أنه موجه إلى ملايين المستمعين في بلدان عربية مختلفة.. وكان كثيرون منهم يؤكدون أيضا أن لا سبيل للتخلص من المواد التلفزيونية المستوردة إلَّا من خلال التبادل العربي..

أصدرنا في اتحاد الإذاعات العربية في عام ١٩٧٠ دراسة حول مشروع القمر العربي، قلنا خلالها إنه «عندما يحس المواطنون في الكويت وفي المغرب وفي السودان أنهم يشاهدون مع بقية شعوب المنطقة العربية في اللحظة نفسها عرضا رياضيا يجري في القاهرة، وأن الجميع يشاهدون في اللحظة نفسها بعد ذلك مهرجانا للفنون الشعبية في الجزائر.. هذا وذاك، ومع تكراره اليومي، سيلغي في نفوس المواطنين في البلدان العربية كلها أي إحساس بالبعد المكاني، وسيؤكد في نفوسهم حقيقة انتمائهم إلى أرض عربية واحدة وإلى حضارة مشتركة، وهو هدف لا يختلف عليه اثنان من سكان الأرض العربية»..

وفي الوقت الذي استمر فيه اتحاد الإذاعات في الدراسات، بدأ اتحاد المواصلات يعدل من موقفه المتحفظ السابق، ويساند المشروع هو الآخر، بل إنه بدأ في اتخاذ خطوات لإقامة المؤسسة التي ستقوم بإدارة الشبكة الفضائية العربية.. وكلما تقدمت هذه الخطوات، فقد الإذاعيون صدارتهم في الميدان.. وعندما وافق المؤتمر الثالث لوزراء الإعلام العرب في ١٩٧٦ على إقامة المؤسسة، انتقل المشروع برمته إلى أيدي رجال المواصلات.. ولما بلغني الخبر حمدت الله أنني كنت قد تركت الاتحاد قبل ذلك إلى العمل في اليونسكو، ولكنني كنت أعزي نفسي بأن المشروع سيرى النور يوما ما دامت قد اتخذت هذه الخطوة الحاسمة لقيامه..

واصلت الاهتمام بالمشروع لسنوات طويلة بعد ذلك، بل إن اتصالات الفضاء أصبحت تخصصي الأول، وأصدرت في ١٩٨٥ كتاب «اتصالات الفضاء» الذي قرر اتحاد الجامعات العربية تدريسه في كل الكليات المعنية.. وبناء على طلب من الصديق عبد الله شقرون الذي كان قد أصبح أمينا عاما لاتحاد الإذاعات العربية، حملت له ٥٠ نسخة وأنا ذاهب إلى تونس حيث نقل مقر الاتحاد إلى هناك بعد توقيع الرئيس السادات على معاهدة السلام مع إسرائيل.. وعندما رفعت حقيبة الكتب من

سير الحقائب في المطار أصبت بانزلاق غضروفي لا أزال أعاني منه حتى الآن، لكن المفارقة هي أنني عندما التقيت شقرون كان راقدا في سريره بعد أن كان قد أصيب بانزلاق هو الآخر..

أصدرت فيما بعد كتابا عن «عربسات» في ١٩٨٩، ودراسة عنوانها «نحو شبكة فضائية خليجية» في عام ١٩٩٠، وفي بداية الثمانينيات أيضا انتخبت عضوا في المجلس الاستشاري الدولي لـ«رابطة العاملين في مجال الفضاء» في واشنطون وكذلك عضوا في المكتب الاستشاري لـ«مجلس مؤسسات الاتصالات الفضائية الأمريكية» في واشنطون أيضا لعدة سنوات، وأجريت دراسات عديدة وحضرت مؤتمرات متنوعة في المنطقة العربية وخارجها حول اتصالات الفضاء..

اختيرت الرياض مقرا لمؤسسة «عربسات»، وبدأت عملها بالفعل في ١٩٧٩.. ولكنه قبل أن يطلق القمر تملكتني الشكوك والمخاوف حين تلبد الجو السياسي العربي بالغيوم إثر تعليق عضوية مصر في المنظمات العربية نتيجة توقيعها على معاهدة السلام مع إسرائيل وكذلك بسبب المصاعب المالية الجمة التي واجهت مؤسسة عربسات، فتحدثت عن مخاوفي في منتديات عديدة، وكتبت مقالات في بعض الصحف منها مقال نشر في مجلة «العربي» الكويتية بعنوان زاعق بعض الشيء «لا تطلقوا القمر الصناعي العربي».. كنت وقتها أرى أن الاستعدادات لإطلاق القمر متخلفة إلى حد كبير بالرغم من جهود المنظمات العربية، فحتى ذلك الحين لم نكن قد نجحنا في إقامة نظام تبادل الأخبار بين الدول العربية باستخدام الشبكات الأرضية أو الأقمار الدولية، وكان ما يحبطني بشكل خاص أن الدول العربية لم تهيئ نفسها على الإطلاق لاستخدام «عربسات» في التربية أو التنمية..

كانت أزمة «عربسات» في نظري أزمة سياسية (politics) وأزمة سياسات (policies) في آن واحد، وكنت كثيرا ما أردد أنها تكمن في أزمة قضية العروبة والوحدة.. كنا قد اعتدنا التقلبات السياسية العربية، ولكن ما كان يدهشني هو كيف تكون هناك شبكة فضائية عربية والمسئولون في كل قطاع حائرون معها مترددون بشأنها إن لم يكونوا متبرئين منها أو مناوئين لها على نحو ما رأينا على الساحة العربية؟ كان هذا هو حال

المسئولين عن المواصلات وكان أيضا حال المسئولين عن الإذاعة والتلفزيون، وحال المسئولين عن التربية والتنمية بصفة عامة..

كان القمر الصناعي العربي على وشك أن يطلق في عام ١٩٨٥، بعد سنوات من قيام مؤسسة «عربسات» واجهت فيها العديد من العثرات المالية والإدارية.. كتبت وقتها أقول إن القمر ـ بالرغم من أنه يمثل تقدما تكنولوجيا باهرا ـ لن يكون سوى الصدى لما على الأرض، وفي واقع الأمر فإنه سوف يظل في الفضاء معلقا بما نفعله على الأرض، ومشكلاته لن تحل سوى على الأرض، ونجاحه أو فشله سوف يتوقف على ما يجري على الأرض..

كتبت ما كتبت في منتصف الثمانينيات، أي منذ نحو ثلاثين عاما، وأظن أنه يتحتم عليَّ الآن أن أعترف أن لدينا مؤسسة عربية خيبت كل ظنوني فأصبحت أكثر المؤسسات العربية ثباتا، وهي المشروع العملي المشترك الوحيد الذي حققته الأمة العربية في مجال المواصلات على ما أعرف، كما أنها الوحيدة التي تدر ربحا، لكن ما آخذه على المشروع هو أنه كان باستطاعتنا أن ننجز من خلاله أو بالتوازي معه ما هو أكثر كثيرا مما أنجزناه، فقد اشترينا القمر العربي.. اشترينا تصميمه واشترينا تصنيعه واشترينا إطلاقه، حتى قال البعض إنه لا يحمل من العروبة شيئا إلَّا اسمه، وفي الوقت نفسه لم نستطع البدء في إقامة صناعة فضاء عربية.. إن ماحدث هو تماما ماتحدث عنه باحث الفضاء الهندي الشهير «ياش بال» من أن مانراه ليس نقلا للتقنية، فهو لا يعدو أن يكون صفقات ومعاملات تجارية ليس لنا فيها فضل أكثر من قيامنا بسداد المال مقابل حصولنا على السلعة..

بح صوتي وأنا أنادي منذ زمن طويل بأن واحدا من أفضل المكاسب التي يمكن تحقيقها من وراء مشروع القمر الصناعي العربي هو قيام صناعة فضاء عربية، وأدرج هذا ضمن أهداف المؤسسة بالفعل، إلَّا أنه لم يتم اتخاذ خطوة واحدة على هذا الطريق ولا يبدو أن هناك نية لذلك بعدما مرت كل هذه السنين.. من الإنصاف أن نعترف أن الأمر هنا لا يقتصر على ميدان الفضاء وحده، ولكن ذلك لا يخفف من الأسى لفشلنا في التعاون معا في إنتاج أي معدات أو مواد من تلك التي تستخدم في

قطاعي الاتصال والاتصالات، بل فيما يسمى بالصناعات الثقافية بشكل عام، مثل صناعة الورق أو الأفلام الخام أو الشرائط الصوتية والمرئية أو المواد المستخدمة في المعامل والمطابع كالأحبار وغيرها.. ولدينا المثل المؤسف في صناعة أجهزة الاستقبال التلفزيونية؛ إذ إنه بعد نحو نصف قرن من دخول التلفزيون إلى المنطقة، وبالرغم من وجود سوق واسعة، فإن الأمر اقتصر في معظمه على تجميع الأجهزة لا تصنيعها.. وكل مافعلناه، كما حدث في ليبيا على سبيل المثال، هو أننا استوردنا مكونات الأجهزة من شركة «فيليبس» ثم جمَّعناها وأطلقنا عليها اسما عربيا هو «قاريونس».. ولكن ليبيا ليست مثالا وحيدا في هذا الخصوص..

لكن ميدان البرامج شهد نتائج مختلفة؛ إذ إن القمر العربي، ومن قبله أقمار «إنتلسات»، ومن بعده قمر «نايل سات» وغيرها من الأقمار، أحدثت نقلة كبرى في عالم التلفزيون، ربما كان أبرز مشاهدها هو زيادة عدد القنوات مما أتاح فرصة اختيار أكبر بكثير للمشاهدين.. وقد يقول قائل إن الأقمار أتاحت فرصا أكبر للدول المتقدمة أن تخترق المجال التلفزيوني الفضائي العربي، وبالتالي اختراق الثقافة العربية، وهذا صحيح في مجمله، لكننا يجب أن نلاحظ أيضا أن هذه القنوات ليست شرا بكاملها.. إن أخطر ما في الاختراق الغربي في رأيي ليس انتشار برامج بعينها بقدر ما هو شيوع القوالب الأمريكية للبرامج التي عرف العالم منها أدناها، وعلى رأسها برامج المسابقات المثيرة التي لا تستهدف سوى الربح الإعلاني والتي سادت الشاشات المحلية العربية مؤخرا.. ولكن المؤكد أن «عربسات» و«نايل سات» على وجه الخصوص أتاحا للمنطقة أن تتلقى عديدا من القنوات من مصادر عربية، وأن تتيح لبرامج التلفزيون العربي عبور كثير من الحواجز، وأن تسهم إسهاما ملحوظا في تعريف الشعوب العربية بعضها ببعض والتقارب فيما بينها وإبراز المشترك فيها، فأصبحنا من المحيط إلى الخليج نطرب لأغنية واحدة ونضحك لمشهد ساخر واحد أو نكتة واحدة ونجزع لما يصيب أينا من ملمات..

وقد رفع تعدد القنوات من سقف الحرية وقضى على مقص الرقيب في معظم الأحيان، وإن كان العاملون في مجالات الصحافة والإذاعة لا يزالون يواجهون القمع في معظم الدول العربية بوسائل متباينة.. ومن المؤكد أن الفضاء أنهى عصر احتكار

الدولة للإعلام على الرغم من أن صيغة امتلاك رأس المال لمحطات التلفزيون لا تزال تكمن فيها مخاطر أخرى..

ونتيجة لتعدد القنوات أيضا نشأت منافسة، أحيانا ما تكون شرسة، بين المنتجين للبرامج، وقد أدت هذه المنافسة إلى مزيد من الإتقان في الإنتاج في معظم الأحيان، لكننا لا نستطيع أن نجزم بأنها أدت إلى مزيد من الارتقاء بهذا الإنتاج؛ إذ يلاحظ أن المنافسة ـ خاصة بعد أن دخل فيها العنصر التجاري بواسطة الإعلان وغيره ـ قد أدت في أحيان أخرى إلى شيوع قيم الإثارة وبرامج الجنس والدجل وغيرها، وأن التلفزيون بالرغم من مرور كل هذا الزمن على نشأته لا زال بعيدا عن النهوض بمسئوليته في التثقيف والتعليم والتنمية بشكل عام..

وليست بي حاجة لأن أقول في النهاية إن من أهم ما قامت به الأقمار الصناعية هو النقل الفوري للأحداث أينما وقعت، وعلى الرغم من أننا لم نكن مستعدين لذلك تماما قبل إطلاق «عربسات»، بل على الرغم من أننا فشلنا في إقامة نظام تبادل إخباري عربي راسخ، فإن إطلاق القمر هو الذي غيَّر المشهد.. هنا نأتي إلى حقيقة هامة، أو الحقيقة الهامة، وهي أن التكنولوجيا فرضت علينا ما يسمى بـ«صدمة التجديد» التي لا يملك المستهلكون لها إلا الإذعان وفقا لشروطها ماداموا لم يضعوا هم شروطهم، وهكذا لم تكن لنا اليد الطولى فيما حدث منذ إطلاق «عربسات» من تقدم أو تقهقر.. هذا هو في كثير من الأحيان حالنا، لا نملك تحديد مصائرنا..

* * *

لم أنعم طويلا بجني ثمار عملي في الاتحاد خمس سنوات بين ١٩٦٩ و ١٩٧٤؛ إذ بينما كنا نعد لانعقاد الجمعية العامة في الجزائر عام ١٩٧٤، حدثت مفاجأة في اجتماع المجلس الإداري للاتحاد الذي يسبق انعقاد الجمعية عادة.. ترأس محمود الشريف هذا الاجتماع بعد أن تولى رئاسة الاتحاد في مطلع عام ١٩٧٤.. وكان محمود الشريف صديقا عزيزا وهو إعلامي أردني بارز عمل سنوات مديرا للإعلام في قطر ثم عاد إلى عمَّان حيث أصدر جريدة «الدستور» اليومية في ١٩٦٧ وتولى

بعد ذلك وزارة الإعلام مرتين.. وهو مصري الأصل وواحد من شيوخ الصحافة الأردنية الأوائل..

كان هذا الاجتماع الذي عقد في الإسكندرية حاسما في مسار حياتي؛ فقد تقدم صلاح عبد القادر بمذكرة إلى المجلس لتعيين نجله طارق في وظيفة دبلوماسية في الأمانة العامة، وكان طارق خريجا جديدا ليست لديه خبرة تؤهله، من وجهة نظري، للعمل.. وكان صلاح عبد القادر قد حدثني من قبل في الأمر، وعلى الرغم من إعزازي له فقد قلت رأيي صراحة، وأضفت أنه حتى لو كان ابنه يملك أعلى الشهادات وأفضل الخبرات فليس من اللائق أن يعمل الاثنان معا في مكان لا يعمل به سوى أربعة أشخاص، وعلى الرغم من أنه وعدني أنه سيعاود التفكير في الأمر فإنه فاجأني بتقديم المذكرة.. كنت في مهمة خارج مصر أثناء انعقاد المجلس، ومع ذلك فقد أبلغت محمود الشريف بموقفي وفهمت منه أنه يشاركني الرأي نفسه، وحدثت باقي الأعضاء في الأمر صراحة، إلَّا أنني فوجئت أن المجلس قرر في النهاية تعيين طارق عبد القادر، الذي لا يزال يعمل في إدارة الإعلام بالجامعة العربية على ما أظن، وقد التقينا عدة مرات قابلني فيها بمودة على الرغم من أنه لا بد علم من والده تفاصيل ما حدث.. وقد سمعت أنه كفء في عمله، ومع ذلك فهذا لا يمنعني من أن أقول إن الأيام أثبتت للأسف أن الوساطة هي الطريق السريع لمناصب جامعة الدول العربية في كل عهودها، وقد فَجَرَت مصر في هذا المسلك، ولكنه ظل تقليدا عربيا شائعا..

كنت حانقا على الأمين العام وعلى المجلس معا، وأيقنت أن من المحال العمل معهما في المستقبل، وهكذا لم يكن أمامي بعد أن اتخذ قرار التعيين إلَّا أن أفعل ما أفعله عادة في مثل هذه الظروف، أن أرحل.. طويت بذلك صفحة كان لها أثر عميق في حياتي..

إلَّا أن ذلك العام شهد طي صفحة أخرى هي صفحة زواجي من علية الذي لم يدم أكثر من سبع سنوات لم نختلف فيها يوما.. كان زواجنا مثلا يحكي عنه كل من يعرفوننا، ولكنهم في الوقت ذاته كانوا يرثون لحالنا لأننا لم ننجب.. لم تكن هذه مشكلة بالنسبة لنا، أو هكذا كنا نظن.. كنت كلما حدثت علية في الأمر وضعت يدها

على فمي وتقول: «يكفيني أننا سعيدان».. تكرر هذا عدة مرات، وفي كل مرة لم أتمكن من مناقشة الأمر جديا، إلى أن جاءت الأشهر الأخيرة.. كنا ليلتها في البيت نشاهد فيلما في التلفزيون، وعندما جاء المشهد الذي تحتضن فيه البطلة طفلها الرضيع، وجدت الدموع تسيل من عينيها.. فاتحتها لأول مرة في الانفصال.. قلت: «أنا لا أستطيع أن أتحمل دموعك.. جنيت عليك بحرمانك من طفل كهذا الذي رأيناه».. أخذنا نتحدث في الأمر عدة أيام حتى رضخت في النهاية..

كان هذا واحدا من أتعس أيام حياتي.. وعندما علمت فيما بعد أنها تزوجت وأنجبت بنتين أحسست كما لو كانت البنتان من ضلعي، لكنني لا أنكر أنني تمنيت يومها لو كنت أستطيع الإنجاب، وهو شعور لم يساورني منذ ذلك الحين..

مع إدوارد بلومان مدير «المعهد الإذاعي الدولي» في مؤتمر المعهد في واشنطون (١٩٧٧).

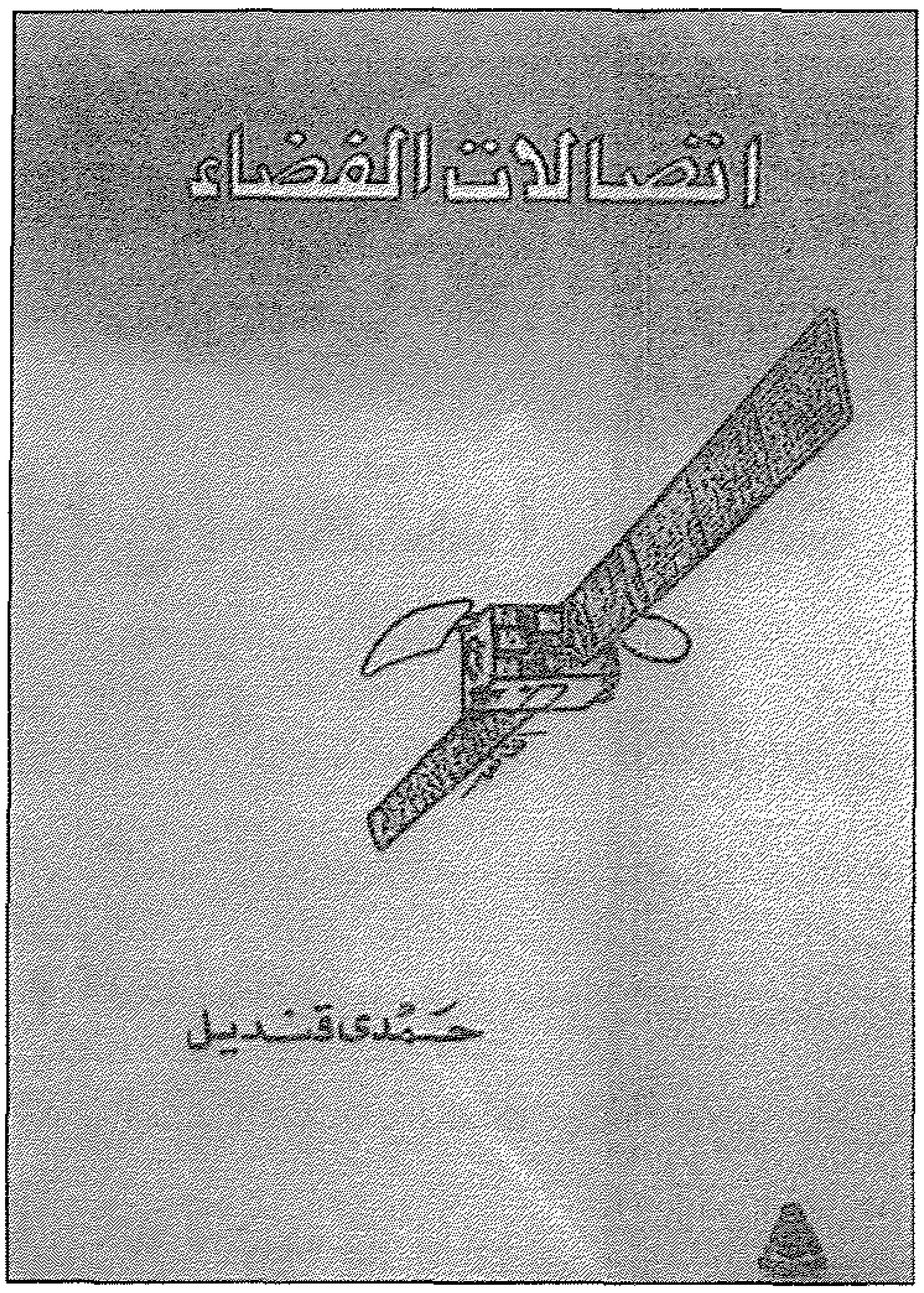

كتابي «اتصالات الفضاء» الصادر عن هيئة الكتاب في ١٩٨٥ الذي قرر «اتحاد الجامعات العربية» تدريسه في جامعات الدول العربية (كان سعره حينئذ ٤٦٠ قرشا).

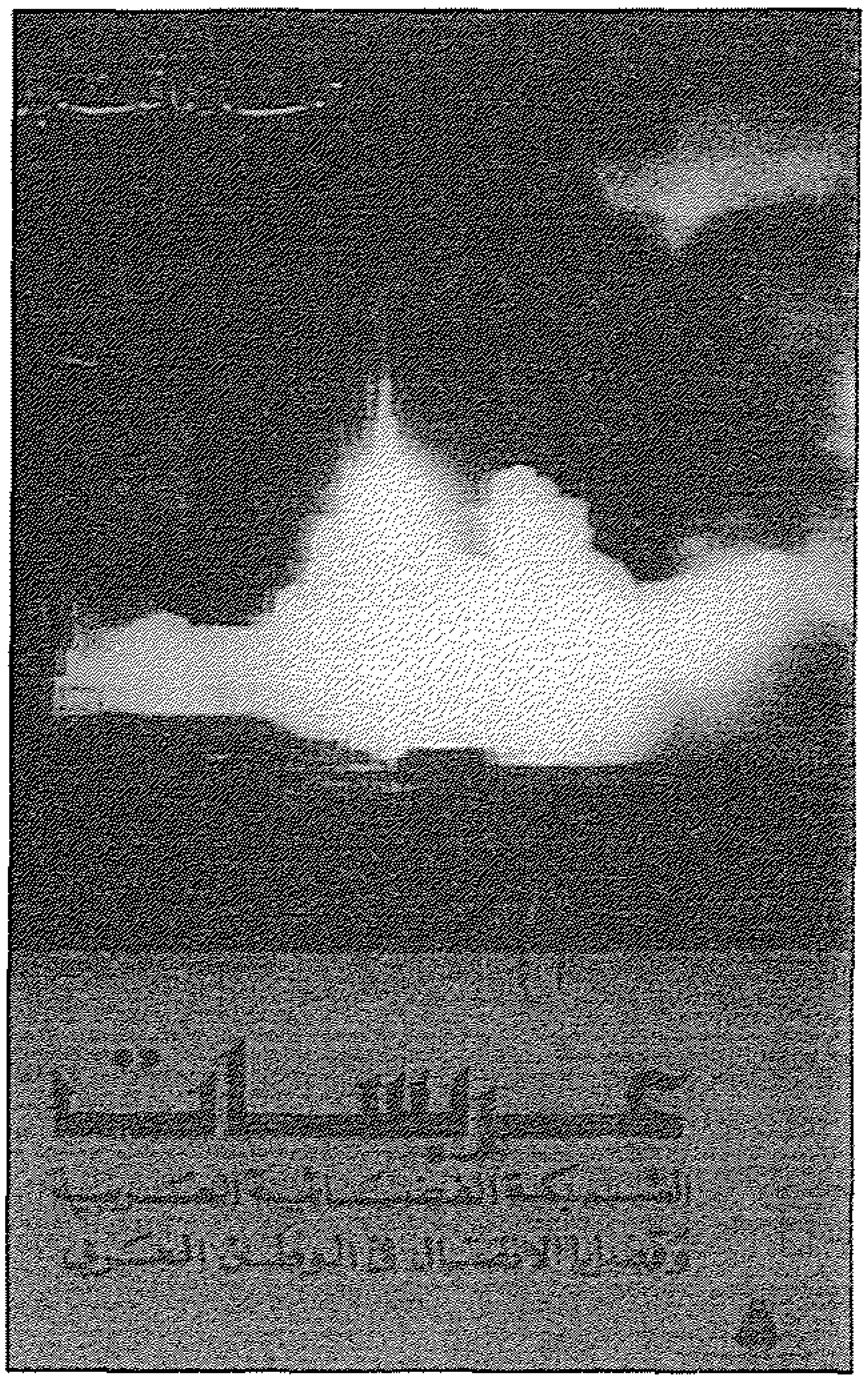

كتابي «عربسات» الصادر عن هيئة الكتاب في ١٩٨٩ (كان سعره ٧٧٥ قرشا).

(١٤)

عصر استعمار المعلومات الجديد

١٩٧٤ - ١٩٨٦

◆ ◆ ◆

كنت شديد الإعجاب بأحمد إمبو مدير اليونسكو، أقدر صموده في النضال من أجل القضايا التي يؤمن بها، بل كنت أعتبره امتدادا لعبد الناصر.

◆ ◆ ◆

على الرغم من أنني لم أشهد سوى القليل من الولائم الملكية، فإنني أستطيع أن أقطع بأن ما قدم من طعام وشراب على مائدة كيم إيل سونج كان أكثر ندرة مما في هذه الولائم جميعا.

كان قدور ولد علي خبير الإعلام في سكرتارية اليونسكو في باريس هو المسئول عن ملف الدول العربية في بداية السبعينيات، وكنت خلال عملي في اتحاد الإذاعات قد التقيته مرة أو اثنتين في مكتبه، وحضر هو إلى القاهرة عدة مرات وذهب مرات أخرى إلى عدد من الدول العربية ليتابع نشاطنا، وكان يعاوننا دائما بحماس، ولا شك أنه كان له فضل لا ينكر في استجابة اليونسكو لعدد من طلباتنا.. بعد أن استقلت من الاتحاد بأيام قليلة، أي في عام ١٩٧٤، تلقيت خطابا من اليونسكو بتوقيعه يدعوني فيه إلى التقدم لوظيفة جديدة استحدثتها المنظمة هي «الخبير الإقليمي للإذاعة والتلفزيون في الدول العربية»، ولم يكن هذا أمرا معتادا في الأمم المتحدة ومنظماتها أن توجه الدعوة إلى شخص محدد ليتقدم للترشح إلى إحدى الوظائف، وأعتقد أنه نادر الحدوث حتى الآن..

في اليوم الذي وصلني فيه الخطاب أعلن عن الوظيفة في مقر المنظمة، ثم أبلغت بها الشعب القومية لليونسكو في كل البلدان الأعضاء لتنشر الإعلان عنها في بلدانها حتى يتقدم المرشحون من خلالها بطلبات الالتحاق.. اتبعت الإجراءات اللازمة، وتقدمت بطلبي، ولم تعترض شعبة اليونسكو عليه، ولكني علمت أن هناك آخرين تقدموا للوظيفة نفسها، وأن أبرزهم هي تماضر توفيق رئيسة التلفزيون عندئذ..

لم تكن هذه مفاجأة سارة بالنسبة لي، ليس لأن تماضر قامة كبيرة تفوقني خبرة في مجال العمل الإذاعي، ولكن لما سيسببه الوضع من حرج، وكنت مطمئنا إلى أنني سأحصل على المنصب في النهاية لأنه يتطلب دراية بالمشهد الإذاعي والتلفزيوني في الدول العربية جميعا وعلاقات بهذه الدول وأنشطة سابقة لها طبيعة دولية، وهكذا قدرت أن من الأفضل أن أبلغ تماضر بترشيحي وبخلفيته أيضا.. تقبلت تماضر الأمر وأعفتني من الاستطراد، وكانت على الرغم من خشونتها المعروفة غاية في الرقة.. قالت إن كل ما في الأمر أنها سئمت العمل في ماسبيرو، وإنها تود أن تجرب بعد هذا

العمر في الإذاعة العمل في مجال آخر، وإنها ستكون سعيدة لو حصل أي منا على المنصب بدلا من أن يحصل عليه واحد من الغرباء عن الأسرة الإذاعية، وأحسب أنها كانت صادقة..

كما توقعت، تم تعييني في اليونسكو، وجاءني الإخطار بذلك بعد أسابيع قليلة على الرغم من أن منظمات الأمم المتحدة تستغرق في مثل هذه الإجراءات وقتا طويلا.. وبدأت أمارس عملي الجديد من مقر مكتب اليونسكو الإقليمي للعلوم في الدول العربية في جاردن سيتي، ولم أجد في العمل جديدا؛ إذ كان يكاد يتطابق مع عملي السابق في اتحاد الإذاعات، لكنه كان كثيرا ما يتطلب مني أن أذهب هنا وهناك لتمثيل اليونسكو في مؤتمر أو آخر، وأن أكتب تقارير عديدة إلى مقر المنظمة، أحيانا بلا داعٍ مفهوم..

لكن الأمور سارت على مايرام، وحرصت اليونسكو على دعوتي مرتين إلى مقرها في باريس لأكون أكثر دراية بعملها ونظمها، بل تعاملت معي بمرونة كبيرة عندما سمحت لي بالانتداب شهرا للتدريس بقسم الإعلام في جامعة الرياض.. ولم يمضِ عام واحد حتى رقيت إلى منصب جديد هو «المستشار الإقليمي للاتصال في الدول العربية»، وربما كانت الصدفة قد حتمت هذا؛ إذ قررت اليونسكو في ذلك العام توحيد مسمى الوظيفة في كل مناطق العالم ليشمل العمل وسائل الإعلام جميعا.. وكالعادة، بذلت كل جهدي في عملي الجديد حتى لفت أنظار المسئولين في المنظمة، خاصة أولئك منهم الذين زاروا القاهرة عندئذ.. كان من بين هؤلاء المفكر المغربي المهدي المنجرة الذي كان مساعدا للمدير العام، وقد أدهشني المنجرة بمدى عشقه لأم كلثوم إلى حد أنه كان يعرف مثلا كم مرة قالت «ياليل» في سهرة ما وكم قالتها في سهرة أخرى، وكان ماحيرني هو ما إذا كانت لديه ذاكرة خارقة أم إنه يعتمد على الكمبيوتر الذي لم يكن قد شاع استعماله بعد.. وقد طلب مني في هذه الزيارة شريطا قديما لإحدى أغاني أم كلثوم فحصلت على نسخة منه من الإذاعة، وعندما قدمتها له قال إن هذه أجمل هدية تلقاها في حياته..

كان الدكتور جمال العطيفي وكيل مجلس الشعب عندئذ واحدا من المسئولين الذين التقاهم المهدي المنجرة، ولما كانت تربطني بالعطيفي صداقة عائلية امتدت

سنوات فقد ذهبنا له معا.. ومضى بعدها شهران أو أكثر لم ألتقِ خلالها الدكتور العطيفي على غير عادتنا، وإذا به يتصل بي ويقول إنه يريد أن يراني لأمر عاجل.. كنت في منزله في التاسعة مساء.. قال إن الرئيس السادات أخبره بأنه سيكلف ممدوح سالم بإعادة تشكيل حكومته، وأنه سيتولى وزارة الثقافة والإعلام، وعلى الرغم من أنه ينتظر اتصال ممدوح سالم فإنه يفكر من الآن في تعيين سعد لبيب رئيسا لاتحاد الإذاعة والتلفزيون، «وطبعا مع حبيبك حتستريح لما تكون انت رئيس التلفزيون».. أمام الصدمة المفاجئة وجدت نفسي أردد: «عظيم، عظيم»، وعندما أفقت قليلا قلت: «أقصد عظيم إن سعد يكون رئيس الاتحاد، أما أنا فزي ما انت عارف مستريح في اليونسكو».. قال: «بلا يونسكو بلا بتاع.. خدمة البلد أولى»، فلم أستطع الرد..

كلفني الدكتور العطيفي باستطلاع رأي سعد لبيب، ثم قال إنه يعرف حساسية تعيينه بعد أن كان قد أحيل إلى المعاش في عهد السادات نفسه، وحساسية تعييني أيضا، ولكنه سيحدث الرئيس في الأمر ويرجو أن يوفق.. عندما أبلغت سعد لبيب، استبعد تماما أن يوافق السادات، ولم تمر عدة أيام حتى أبلغني الدكتور العطيفي أنه عندما عرض على السادات اقتراحه قال له: «لما تروح الوزارة الأول وتشوف الأحوال نبقى نتكلم»، ثم أضاف العطيفي: «يبدو أن سعد على حق»..

كانت الأقدار تخبئ لي مسارا آخر، فقد جاء إلى القاهرة مدير عام اليونسكو المفكر السنغالي أحمد مختار إمبو، وكانت لمصر مكانة مميزة في المنظمة عندئذ ليس فقط بسبب دورها الإقليمي؛ وإنما لأن اليونسكو كانت قد أنقذت آثار النوبة من الغرق عند بناء السد العالي بالنداء الدولي الذي أصدرته في تلك الفترة، واعتبرت هذه العملية أضخم عملية لإنقاذ الآثار في التاريخ وكانت محل فخر لليونسكو، ومنذ ذلك الوقت تشعبت علاقات مصر مع المنظمة.. هكذا كان على إمبو أن يلتقي بمسئولين مصريين عديدين في مختلف المواقع، وكان معظمهم على مستوى الوزراء، وكلفت وقتها بمرافقته..

عند عودتنا من زيارة إلى بورسعيد استوقف المرور سيارة إمبو وكذلك سيارة الحراسة التي كانت ترافقه، ولاحظت عن بعد وأنا في السيارة الثالثة أن أفراد الحراسة هبطوا من سيارتهم وعلت أصواتهم وهم يتناقشون مع ضباط المرور، لكني لم أفهم

ما حدث بالضبط، وتحرك الموكب ثم توقفنا بعد قليل في استراحة في الطريق لتناول الشاي.. جلست إلى طاولة إمبو وسألته عما جرى، فقال: «شيء عجيب.. الفندق الذي نزلنا به أبلغ المرور أن واحدا من مفاتيح غرفنا لم يسلم إلى الاستقبال عند المغادرة، وأن أحدنا ربما يكون قد أخذ مفتاحه معه، فإذا كان الأمر كذلك فعلينا أن نترك المفتاح عند نقطة المرور ليتسلمها الفندق من هناك بعد ذلك، ولكن أفراد الحرس أبلغوا ضباط النقطة أن هذه سخافة، وأنه لا توجد معنا مفاتيح»..

كان المفتاح في جيبي، ولم أعرف ما إذا كان عليَّ أن أنكر أم أعترف، ولكني وجدت نفسي أقول بلا تدبر: «مسيو إمبو، هذا شيء سخيف فعلا، والأسخف أن المفتاح في جيبي، وربما كان الأكثر سخفا هو ما سأعترف لك به الآن.. أنا عندي هواية قديمة عمرها لا يقل عن عشر سنوات هي الاحتفاظ بمفاتيح غرف الفنادق.. أسميها الاحتفاظ وغيري قد يسمونها بغير ذلك.. وقد جمعت حتى الآن نحو مائة مفتاح أو أكثر، وقد وجدت مفتاح فندقنا جذابا للغاية فاحتفظت به، وليس أمامي الآن إلَّا أن أعتذر لك عن هذه الحماقة التي كانت السبب في تعطيلك».. سكت إمبو قليلا، ثم ضحك، ثم عاد وقطب جبينه وقال: «على أي حال ما حصل حصل، وكل ما أطلبه منك الآن أن تعيد المفتاح إلى الفندق بأي وسيلة عندما نعود إلى القاهرة»..

عندما عدت في المساء كدرت نفسي كثيرا لأني نسفت بهذا النزق كل مابذلته لأنجز مهمة إمبو في مصر بنجاح، لكن مفاجأة كانت تنتظرني في اليوم التالي.. كان هذا موعد مغادرة إمبو، فذهبت معه إلى المطار، وسارت الأمور لحسن الحظ على ما يرام، ولكنه عندما وصل إلى سلم الطائرة التفت لي وقال: «قنديل، أريدك معي في باريس.. أريدك لعام واحد تشغل فيه منصبا شاغرا لدينا في إدارة الإعلام حتى نجد من يتولاه بصفة دائمة»، وقبل أن أعلق بكلمة استطرد: «أنا أعرف أنك مستريح هنا في القاهرة، وقد لاحظت أن المسئولين هنا يقدرونك وأن كثيرا من أفراد الشعب يعرفونك أيضا، لكن منصب باريس مهم عندي حقا».. قلت لإمبو إنني شاكر على الثقة وإنني أستأذنه في تأجيل ردي حتى الغد على الأقل، فرد بأنه يعرف أنه لابد من أن نستشير عائلاتنا في مثل هذه الأمور، وذكر لي أن المنصب هو المدير بالنيابة لإدارة «التداول الحر للمعلومات وسياسات الاتصال»..

وأنا عائد من المطار لم أكن أفكر كثيرا في طبيعة العمل، ولا كانت الإقامة في باريس تستهويني.. كنت مستمتعا بالإقامة في القاهرة بين أهلي وأصدقائي وكذلك بالمزايا شبه الدبلوماسية التي يتيحها عملي.. ومع ذلك كانت تستفزني سياسة السادات التي بدا لي كما لو كان المقصود منها محو خط عبد الناصر «بأستيكة» كما كان يقال، وخاصة شروعه في سياسة الانفتاح الاقتصادي بما صاحبه من فساد ورشوة.. وكان السادات قد أعلن أيضا قبل عدة أشهر تشكيل منابر تحت مظلة الاتحاد الاشتراكي تهدف إلى السير في طريق التعددية السياسية، وعلى الرغم من ذلك فقد دفع بمعظم وزراء حكومته في قائمة منبر الوسط في الانتخابات البرلمانية التي كانت على وشك أن تجرى حينئذ، والتي بدا أنها ستسفر عن برلمان لا يختلف عن سابقه كثيرا..

وقعت في حيرة بالغة، ولكنني عندما وصلت إلى البيت كنت قد توصلت إلى قراري أن سفري أو بقائي يكادان يستويان، وأن لكل منهما مزاياه، وأنني سأضع القرار بين يدي زوجتي بهيجة عصمت التي كانت تعمل في اليونسكو هي الأخرى، وكنا قد تزوجنا قبل ذلك بشهور، وكنت أرجح أنها ستقرر البقاء لأن لديها ابنتين من زواج سابق تقيمان مع والدهما في القاهرة.. فاجأتني بإجابتها عندما أبلغتها بالحكاية.. قالت على الفور: «نسافر.. أنا لم أعد قادرة على البقاء هنا والبنتان على بعد عشر دقائق مني في حين أنني لا أستطيع رؤيتهما إلا مرة كل عدة شهور بعد كل ما نلجأ إليه من وساطات».. هكذا سافرنا للإقامة في باريس في أغسطس ١٩٧٦..

كان معي في مكتب اليونسكو في القاهرة خبير في الزراعة هو الدكتور مينا صاروفيم (أصبح فيما بعد واحدا من مشاهير الرسامين)، وكنا صديقيْن، وكان قد نقل في الوقت نفسه إلى باريس، وهناك التقينا حين كنت أبحث عن سكن مؤقت حتى أجد سكنا مناسبا للإيجار، ولكنه قال لي إن من ينقلون للعمل في مقر المنظمة ولو لعام واحد يستمرون في العمل سنوات في العادة، وإن الأفضل لكل منا أن يشتري بيتا في باريس بالتقسيط بدلا من إهدار المال في الإيجارات.. رفضت الفكرة تماما وبدأت البحث لاستئجار شقة مؤقتة لمدة شهر، حتى إذا انتهى أغسطس أكون قد وفقت إلى السكن المناسب مع بدء العمل بعد الإجازات، وبالفعل وجدت شقة تطل على نهر السين في الحي السادس عشر، انتقلت بعدها للإقامة الدائمة في «أفنيو دي لابوردونيه» في الحي السابع على مقربة دقائق من مقر اليونسكو..

تتوزع أنشطة الإعلام في المقر بين إدارتين؛ إحداهما معنية بتنمية وسائل الإعلام في الدول الأعضاء، والثانية هي التي أتولاها والتي كانت معنية في المجمل بالبحوث، وكان في الإدارة وقتها نحو ١٧ خبيرا من بلدان مختلفة بينها الهند وبريطانيا ويوغوسلافيا وتركيا وألمانيا وبنجلاديش والدنمرك.. ولا شك أن أول ما أرَّقني عندما بدأت العمل هو كيف أستطيع قيادة مجموعة كهذه بخلفياتها المتباينة، ولكنني مع الوقت حققت نجاحا لا أتوقعه بحرصي على العلاقات الإنسانية فيما بيننا ومع سكرتيراتنا أيضا، وكنت قد اكتشفت مبكرا أن السكرتيرات، ومعظمهن كن أوروبيات، يستطعن عرقلة كثير من الأمور إذا أردن، فأشركتهن في اجتماعاتنا وفي لقاءاتنا الاجتماعية أحيانا.. أذكر أنني أوقفت ترقية واحد من الزملاء، هو «ألفريدو سانشيز» من إكوادور، ولكنني مع ذلك دعوته للعشاء في منزلي مع زملاء آخرين فجاء بجيتاره وعزف لنا طوال المساء، وكانت اللجنة المكلفة ببحث الأمر طبقا لتقاليد المنظمة تتابع عندئذ جلساتها المتعاقبة التي نتناظر أمامها في حضور ممثل عن نقابة العاملين.. وعلى الرغم من أن هذا كان سلوكا ديموقراطيا نموذجيا فإنه كان أكثر ما أبغضه في اليونسكو؛ ربما لأن ثقافتنا تعتبر أن مواجهة آخرين بالتهم أو الانتقاد عيب؛ أو لأننا اعتدنا أن يكون ذلك بالدس لا في العلن..

مشكلتي الثانية كانت هي اللغة الفرنسية، فعندما وصلت كنت أستطيع أن أقول إنني أتحدث الفرنسية على نحو معقول ولكنني لم أكن قادرا على كتابة خطاب بها، دعك عن كتابة بحث أو تقرير، وكانت سكرتيرتي التي اكتسبت اسمها العائلي من زواج سابق بلبناني، «باربارا حلو»، بريطانية؛ ولذلك كانت تفضل التعامل بالإنجليزية.. كانت الفرنسية والإنجليزية لغتي العمل في اليونسكو كغيرها من المنظمات الدولية، بمعنى أنه من حق الموظفين أن يتراسلوا داخل المنظمة أو يكتبوا تقاريرهم بأي من اللغتين، ولكن وجود المنظمة في باريس كان يحتم دراية أكبر بلغة الدولة المضيفة، كما أن وجود إمبو الذي يفضل الفرنسية على رأس المنظمة كان قد زاد من نفوذ الفرانكوفونية، ومع ذلك فقد كانت هناك إدارات أنجلوفونية قليلة مثل إدارتي؛ ربما لأن علم الاتصال نشأ في الولايات المتحدة ولأن معظم كتبه منشورة بالإنجليزية.. وكان هذا من العقبات التي حالت بيني وبين إتقان الفرنسية بسرعة، لكنه مع بعض

الاستعداد وبعض الإصرار تحسنت لغتي كثيـرا، واستطعت بعد شهور أن أكتب مذكرات قصيرة بالفرنسية دون الاستعانة بأحد..

أما المشكلة التي استعصت على الحل شهورا فكانت القيلولة؛ إذ كنت قد اعتدت في السنوات السابقة على النوم ساعة وأكثر بعد الظهر، وهأنذا أواجه لأول مرة في حياتي بنظام عمل صارم من التاسعة صباحا حتى السادسة مساء مع استراحة لمدة ساعة تبدأ عادة في الواحدة بعد الظهر، وعلى الرغم من أن معظم الموظفين كانوا قد اعتادوا مد الاستراحة إلى ساعتين فإنني لم أجد من اللائق كمدير إدارة أن أتغيب لهذا الوقت كله، وعلى أي حال فهو لن يتيح لي أن أنام.. وهكذا كنت أبدأ من منتصف النهار في تناول أكواب القهوة، وفي بعض الأحيان لم يكن هناك بد من العودة إلى البيت والاستلقاء في السرير بكامل ملابسي تقريبا ولو لنصف ساعة.. لكنه مع مرور الوقت اعتدت على نظام الحياة الجديد..

كان رئيسي المباشر في العمل هو المدير العام المساعد للاتصال والثقافة، وكان إندونيسيا اسمه «ماكامينان ماكاجيانسار»، ولما كان اسمه معقدا للغاية فقد اعتاد المقربون منه أن يلقبوه «ماكس».. وكنت واحدا من هؤلاء بعد فترة قصيرة، وكنا كثيرا ما نتناول الغداء معا، وكان لا يأكل إلَّا في المطاعم التي تقدم مأكولات آسيوية، وكثيرا ما اضطررت لتناول هذه المأكولات، لكنني سرعان ما أصبحت أكثر خبرة بما أستطيع أن أختاره منها.. بعد عدة أسابيع سافرنا معا إلى نيويورك لحضور اجتماع للأمم المتحدة، وصبيحة وصولنا قال لي إننا لن نتناول الإفطار في الفندق، وإنه أعد لي مفاجأة في مطعم إندونيسي مجاور.. وافقته على مضض، وعندما جلسنا جاءوا لكل منا بسلطانية يتصاعد منها بخار كثيف على الرغم من أنها كانت مغطاة.. لما فتحت الغطاء كدت أتقيأ؛ إذ كانت الشوربة مليئة بحشرات غريبة، فوضعت الغطاء وقررت أن أثور: «يا مستر ماكاجيانسار، لقد جاريتك طوال الأسابيع الماضية ليس فقط لأنك رجل لطيف ولكن لأنك أولا رئيسي؛ ولذلك قبلت الذهاب معك إلى كل المطاعم التي أخذتني إليها على الرغم من أنني لا أطيق المطبخ الآسيوي.. أما بعد طبق الشوربة هذا فإنني أعلن العصيان، وعليك من الآن أن تبحث عن مطاعم أخرى

لو كنت تود الحفاظ على صداقتي».. انفجر ماكس في الضحك، وقضينا ما بقي لنا من سنوات في اليونسكو متلازمين..

كنت قد قررت منذ وصولي إلى باريس ألا أتقوقع في دائرة مغلقة من الصداقات مع المصريين والعرب تحول بيني وبين المجتمع الجديد الذي انتقلت للحياة فيه، ومع ذلك فقد كانت لي علاقات عائلية وطيدة باثنين من العرب هما بشير البكري أول سفير للسودان في فرنسا وكان قد عاش في مصر طويلا، وحمد الكواري سفير قطر في باريس (الذي أصبح الآن وزيرا للثقافة)، أما علاقتي بالمصريين فاقتصرت على أربعة: المفكر الكبير أنور عبد الملك، ومحفوظ الأنصاري مراسل وكالة الأنباء القطرية (الذي أصبح رئيسا لمجلس إدارة وكالة أنباء الشرق الأوسط)، وشريف الشوباشي (مدير مكتب الأهرام ووكيل وزارة الثقافة فيما بعد)، والدكتور ممدوح البلتاجي..

ممدوح البلتاجي كان أوثقهم بي صلة، وكان قد أنهى دراسته العليا في القانون في فرنسا، وبعد أن عمل بالقضاء في مصر عين وزيرا مفوضا للإعلام بالسفارة المصرية في باريس قبل وصولي إليها بعامين، ثم عين رئيسا لهيئة الاستعلامات في عام ١٩٨٢، وبعد أن نشر خبر التعيين في الصحف وأبلغ به عدل مبارك عن القرار.. ليلتها جاء إلى منزلي وقال إنه سيستقيل من عمله في الحكومة المصرية وإنه يطلب مني أن أبحث عن فرصة له للالتحاق باليونسكو، فأبلغت ماكس بالأمر فإذا به يتصل بي بعد أيام ويبلغني أنه بالإمكان التعاقد مع ممدوح لمهمة استشارية مطلوبة لعدة شهور، وبعدها نرى.. عندما جاءني ممدوح في اليوم التالي قال لي إن المدة قصيرة واعتذر، واستمر الحديث بيننا حتى منتصف الليل، وعندما وضع يده في يدي وهو يغادر قال: «يا حمدي، هم يريدون إقصائي، لكنني لن أترك العمل، وسأحصل على منصب رئيس الاستعلامات في النهاية، بل إنني أقول لك من الآن إنني سأصبح وزيرا في الحكومة المصرية».. وهذا ما حدث؛ إذ تولى رئاسة هيئة الاستعلامات عدة سنوات، ثم وزارة السياحة فالإعلام فالشباب..

لم يمضِ عام بعد انتقال البلتاجي إلى الاستعلامات حتى رد لي الجميل، أظن أن هذا كان دافعه، فقد اتصل بي من القاهرة في ١٩٨٣ وعرض عليَّ منصب

المستشار الإعلامي في سفارتنا في واشنطون.. قلت إنني سعيد بحالي في باريس، ولكنني قد أفكر في الأمر إذا كانت الوظيفة في الوفد الدائم لدى الأمم المتحدة في نيويورك؛ لسبب بسيط أنني أعرف الأمم المتحدة في حين أجهل العمل المتصل بالعلاقات الثنائية تماما، ثم إنني لا أنكر أيضا أني أحب نيويورك لأنها مدينة حية صاخبة، وأما واشنطون فهي بالنسبة إلى أمثالنا الذين عاشوا في باريس مدينة بلا روح على الرغم من أنها تمسك بأرواح البشر في العالم كله.. ضحك، وحاول مرة أخرى قائلا إن المنصب الذي يعرضه في واشنطون أهم من منصب سفير لدى أي بلد آخر، إلا أنني اعتذرت..

كنت قد توافقت تماما مع الحياة في باريس.. صحيح أن عملي بما يقتضيه من سفر كان يبتلع معظم وقتي، إلا أنني كنت أحب المدينة، وإن لم أحب ناسها كثيرا.. كانوا بخلاف سكان الريف في فرنسا، يميلون للعجرفة ويأنفون من الاختلاط بالأجانب، خاصة من بلدان شمال إفريقيا التي استعمروها سابقا.. مع ذلك فلا أتذكر أنني نفرت منهم كثيرا.. قبلتهم على علّاتهم وحاولت أن أفهمهم.. أما المدينة فأكاد أقول إني جلتها شبرا شبرا، حتى إنني زرت العديد من المتاحف على الرغم من أنها تثير مللي عادة، وذهبت إلى حديقة الحيوان في «بوا دي فانسين»، واستأجرت مرة دراجة لمدة شهر طفت بها بعض الضواحي، وأقمت مع صديق هولندي في عوامة في نهر السين عدة أيام.. ذهبت إلى مسارح عديدة أيضا، وكنت زبونا دائما في مكتبة «برنتانوس» لأطلع على الكتب الحديثة الصادرة بالإنجليزية، كما اشتركت في مكتبة مدينة باريس لأستعير منها «ديسكات» للوثائق صوتية ومرئية..

كان الشانزليزيه مقصدا دائما حتى للباريسيين أنفسهم، ولكنه كان يختلف كثيرا عن شانزليزيه اليوم المكتظ بالسائحين والنشالين، وكنت أفضل عليه كثيرا التجول في الحي اللاتيني، والجلوس على مقاهي سان جيرمان الشهيرة مثل «لافلور» و«ديماجو» و«ليب» أو تلك المتناثرة في الشوارع الصغيرة.. وكنت أعرف دهاليز كل أسواق الأثاث القديم، من «المارشيه أو بوس» (سوق البراغيث أو سوق الكانتو) إلى «فيلاج سويس».. أثاث بيتي كله اشتريته من هذه الأسواق قطعة قطعة.. ولما زارني سعد لبيب عندما اكتمل رونق البيت بعد أربع سنوات صدمني عندما قال: «إيه كل

الروبابيكيا دي؟».. ولكنني كنت أحب الروبابيكيا، بل أظن أنه كان لابد لي أن أولد وأعيش في قرن سابق..

طوال السنوات العشر التي عشتها في باريس ظللت أحلم بأن أجيئها ثانية لأقيم ولو لأشهر قليلة بعد التقاعد كسائح، أنهل من رحيقها بعيدا عن هموم العمل.. كان العمل هو همي الأول وأخشى أن أقول الأخير.. كانت اليونسكو وقتها في بؤرة اهتمام العالم بعد أن أثارت قضية «النظام الإعلامي العالمي الجديد»، وكانت الإدارة التي أتولاها هي المسئولة عن القضية، وأصبحت كما لو أنها المكتب السياسي للمنظمة.. وقد بدأ انشغالنا بالنظام الإعلامي الجديد في العام نفسه الذي وصلت فيه إلى باريس، ١٩٧٦، فقد انعقد عندئذ المؤتمر العام التاسع عشر لليونسكو في نيروبي وتبنى برنامجا لتقليص الفارق بين الدول الصناعية والدول النامية في مجال الإعلام، وتحقيق حرية وتوازن أكبر في هذا المجال، وأقر إنشاء لجنة دولية لمعالجة قضايا الاتصال.. وفي المؤتمر العام العشرين الذي انعقد في عام ١٩٧٨ أقرت لائحة لإرساء النظام العالمي الجديد، ودعا المؤتمر المدير العام لمواصلة الجهد من أجل تحقيق هذا النظام..

والحق أن هذه الدعوة لم تنشأ بمبادرة من اليونسكو ذاتها، ولكنها كانت استجابة للنداءات التي دوت في الأمم المتحدة مطالبة بنظام اقتصادي عالمي جديد، وكانت في الوقت ذاته تلبية لمطالب دول عدم الانحياز التي كانت قد أثارت الأمر في قمة الجزائر في عام ١٩٧٣، ثم عقدت هذه الدول ملتقى خبراء في تونس في العام نفسه قرر أن «من واجب بلدان عدم الانحياز تغيير الوضع المنحاز وتحرير الإعلام ووضع تصور لنظام إعلامي عالمي جديد»..

كان دينامو هذا الملتقى هو الدكتور مصطفى المصمودي، الذي أصبح وزيرا للإعلام في تونس ثم مندوبا دائما لدى اليونسكو بين عامي ١٩٧٨ و ١٩٨٢، وكان لعدة سنوات رئيس مجلس التنسيق بين وزراء الإعلام في الدول غير المنحازة، ولو كان من اللائق أن ننسب قضية النظام الجديد لشخص لكانت قد ارتبطت على التو باسمه، فقد كرس لهذه القضية سنوات عمره في السبعينيات والثمانينيات خاصة، ومضى يدافع عنها بإخلاص في كثير من المحافل الدولية.. وكنت وثيق الصلة به

طوال سنواتي في باريس وما بعدها، وترافقنا معا في عديد من المؤتمرات في بلدان مختلفة ندعو إلى النظام الجديد، وأذكر أننا اكتشفنا ذات يوم أن الأرقام الأربعة السرية التي يستخدمها كل منا لحقائبه هي ذاتها بالترتيب نفسه، فإذا أضفنا إلى ذلك أننا من مواليد برج واحد (الجوزاء) تحتم عليَّ أن أراجع استخفافي بتأثير الأبراج على شخصية مواليدها وسلوكهم..

لكننا إذا كنا نتحدث عن دور الأشخاص في قضية كبرى مثل النظام الإعلامي العالمي الجديد لكان من الضروروي أن نذكر المفكر الفرنسي «جان دارسي» الذي كان أول من طالب بـ«الحق في الاتصال»، أي في التعبير عن الرأي والحصول على المعلومات واتصال البشر فيما بين بعضهم البعض، وقد أقرته الأمم المتحدة كحق من حقوق الإنسان.. وكان دارسي صديقا عزيزا طالما قضينا معا أوقاتا طويلة في العديد من محافل باريس ومقاهيها، أما زوجته «مانويلا» فلا يمكن أن أنكر فضلها في تقديمي إلى المتنفذين في الإعلام الفرنسي وإلى مجتمع باريس بصفة عامة.. لكنني لا أنسى ونحن نتحدث عن النظام الإعلامي الجديد دور خبير إعلامي شهير من فنلندا هو «كارل نوردنسترنج» الأستاذ في جامعة هلسنكي، وهو صديق قديم ظل يتردد على مصر حتى وقت قريب، وقد تعاقدت معه اليونسكو في عام ١٩٧٣ على إجراء دراسة حول تدفق المواد الإعلامية بين مناطق العالم المختلفة، فقام بهذه الدراسة مع أستاذ آخر في جامعة «تامبيري» الفنلندية، هو «تابيو فاريس»، وصدرت الدراسة في عام ١٩٧٤ تحت عنوان «تدفق التلفزيون ـ شارع في اتجاه واحد»..

كشفت هذه الدراسة الشهيرة ـ بالمعلومات الدقيقة والأرقام ـ أن الدول الكبرى، وخاصة الغربية منها وفي مقدمتها الولايات المتحدة، تفرض سيطرتها الثقافية على العالم كله بحكم قدرتها على إنتاج المواد الإعلامية، وأنها تغرق بإنتاجها التلفزيوني الدول النامية التي تقف عاجزة عن إبلاغ صوتها إلى الخارج، وهكذا فإن المعلومات تتدفق في اتجاه واحد دون غيره.. وأكدت الدراسة أن الدول النامية تعتمد إلى حد كبير على استيراد المواد التلفزيونية من الغرب، وخاصة الولايات المتحدة..

وفي الدول العربية، تم جمع البيانات من ست دول، وتبين منها أنه باستثناء تلفزيون شركة أرامكو للبترول في السعودية الذي كان يستورد مائة في المائة من برامجه من

الخارج فإن أكبر نسبة للبرامج المستوردة كانت في اليمن الديموقراطية (٥٧ في المائة)، ثم الكويت (٥٦ في المائة)، ثم العراق (٥٢ في المائة)، ثم مصر (٤١ في المائة)، ثم محطة تلفزيون «لبنان والمشرق» (٤٠ في المائة)، وأخيرا التلفزيون السعودي (٣١ في المائة).. كنت أتحدث عن هذا الأمر في زيارة للرياض مع مسئول في التلفزيون هناك، فقال إن هذه النسبة سترتفع بعد أن صدرت تعليمات بتخفيف التضييق الشديد على الإنتاج الأمريكي على نحو أو آخر، ويبدو أن التعليمات كان قد بدأ تنفيذها بالفعل فقد زاد عدد المسلسلات الأمريكية على نحو ملحوظ.. وفي زيارة تالية للرياض تصادف أنني شاهدت إحداها.. في أحد المشاهد كان البطل يصب كأسا من زجاجة الويسكي للبطلة ويضع لها قطعة من الثلج في الكأس، ولكن الترجمة المطبوعة كانت مرنة للغاية، إذ كانت تقول: «هل لك يا عزيزتي في قدح من الشاي؟».. مع ذلك كنت أدرك مأزق المسئولين في التلفزيون السعودي، فهم شأنهم شأن غيرهم في العديد من المحطات العربية، مضطرون لملء ساعات الإرسال بالإنتاج الأمريكي لكنهم يودون لو تمكنوا من كبح الصدام بين محتواه وبين ثقافاتهم..

فجرت دراسة اليونسكو هذه مناقشات في الأوساط الإعلامية، وكذلك السياسية، في أنحاء العالم، وكان المدافعون عن النظام الإعلامي الجديد يشهرونها دائما في وجه المعارضين له، وأصبحت اليونسكو هي الساحة الرئيسية لهذه المعركة خاصة بعد أن شكلت «اللجنة الدولية لبحث مشكلات الاتصال» بناء على توصية مؤتمر نيروبي، وهي اللجنة التي اشتهرت باسم رئيسها «شون ماكبرايد» السياسي الأيرلندي البارز الذي كان قد حصل على جائزة نوبل للسلام في ١٩٧٤.. وقد أصدرت اللجنة تقريرها في عام ١٩٨٠ تحت عنوان «أصوات متعددة، عالم واحد»، وكانت اللجنة تضم ١٥ عضوا بينهم اثنان من الأعضاء العرب هما الدكتور جمال العطيفي ومصطفى المصمودي، وكانت مستقلة عن اليونسكو التي كانت مسئولة ـ من خلال الإدارة التي أرأسها ـ عن ترتيباتها اللوجستية وعن تقديم البحوث اللازمة لها ونشرها..

كانت فرحتي بانتهاء التقرير لا تقل عن فرحة أب بوليده البكر، ولكنني لم أكد أسعد بها حتى داهمني خبر مقتل السادات.. يومها كانت بهيجة تتناول الغداء مع زوجات بعض السفراء لدى اليونسكو عندما فوجئت باتصال منها يقول إن السادات

قتل، وإن الكل تركوا مائدة الغداء ليشاهدوا نشرات الأخبار في التلفزيون الذي أذاع مشهد المنصة عدة مرات.. تركت مكتبي إلى البيت لأتابع الأحداث، ولا أنكر أنني كنت مرتاحا لانتهاء عصر السادات، لكنني كنت غاضبا أشد الغضب أن يلقى حتفه على هذا النحو الدموي..

هرولت إلى البيت، وسجلت مشهد المنصة وأخذت أعيده مرات ومرات فربما استطعت التوصل إلى شيء جديد عما كانت تبثه محطات التلفزيون الغربية، ولكن المشهد كان قصيرا جدا، ومؤسفا للغاية.. هم إذن الجهاديون الإسلاميون الذين احتضنهم «الرئيس المؤمن»، تحت رعاية مستشاره عثمان إسماعيل محافظ أسيوط، ليساندوه ضد الشيوعيين والناصريين، فإذا بهم يفتكون به وهو في عرينه، بين جيشه.. أحسست أنني طعنت طعنة غائرة في ظهري على الرغم من أن اختلافي مع السادات كان قد تصاعد قبلها بأسابيع قليلة، عندما قرر اعتقال أكثر من ١٥٠٠ شخصية من اتجاهات سياسية مختلفة، وانتابني هاجس أن البلاد ستقع في دوامة من العنف المسلح والفوضى، فلم أنم ليلتها.. لكنني اضطررت بالطبع أن أجلس في مكتبي صباح اليوم التالي..

كنا قد مهدنا لعمل لجنة ماكبرايد بعقد اجتماعات عديدة في مختلف أنحاء العالم وكذلك في باريس في الشهور التالية، واستعنا بخبراء عديدين، وكان من بين المصريين الذين شاركوا فيها الأستاذ هيكل والكاتب الكبير لطفي الخولي، وكنت فخورا بمشاركة هيكل، وأقمت له وزوجته في منزلي استقبالا التقى فيه أقطاب الصحافة والتلفزيون الفرنسي ومسئولين كبارا في الحكومة الفرنسية، وجاءنا يومها أيضا سفيرنا اللامع في باريس عبد المنعم النجار على الرغم من أنني كنت أقاطع كل احتفالات السفارة - عدا احتفال ٢٣ يوليو - منذ توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل..

أحدث تقرير ماكبرايد دويا هائلا، وانتقل هذا الدوي إلى الأمم المتحدة، وهكذا كان ماكس يحضر اجتماعاتها في بعض الأحيان وكنت أحضرها في أحيان أخرى، وكثيرا ما سافرنا معا للاجتماعات الهامة، وذهبنا أيضا إلى أنحاء مختلفة من العالم نحضر ندوات ونمثل اليونسكو في مؤتمرات عديدة.. والحق أنني لم أكن أمارس عملي هذا بانضباط كامل يليق بموظف في الأمم المتحدة، فقد كنت شديد الحماس

والإخلاص لقضية النظام الإعلامي الجديد، وكنت كثيرا ما أدلي بأحاديث في الصحف والإذاعات الدولية، وأبحث عن مناسبات أتحدى فيها علانية المعادين لهذا النظام..

ولا أزال أذكر باعتزاز لا أنكره المرة التي ذهبت فيها إلى ستوكهولم في يناير ١٩٨١ حيث ارتجلت خطابا في اجتماع للاتحاد الدولي للصحفيين، ربما يكون الخطاب الوحيد لممثل عن الأمم المتحدة يقابل بالتصفيق من الصحفيين الغربيين.. وفي مرة أخرى، في مارس ١٩٨٣، قبلت التحدي لإلقاء خطاب في نادي الصحافة بلندن في حضور أساطين الصحافة البريطانية، ومر هو الآخر بسلام.. ولا أنسى حتى الآن المناظرة التي خضتها مع السياسي البريطاني الشهير «توني بين» في مواجهة اثنين من أقطاب الصحافة البريطانية خلال برنامج في «هيئة الإذاعة البريطانية» BBC (النص في ملحق رقم ١)..

إن كان الحديث عن حقيبة ذكرياتي عن تلك الفترة فلديَّ فيها الكثير من الحكايات والطرائف عن البلاد التي طفت بها والشخصيات التي قابلتها.. ولا أزال أتذكر زيارة إلى غيانا، إحدى دول الكاريبي، في مايو ١٩٨١ شاركت فيها في ندوة عن النظام الإعلامي الجديد، وكان مضيفنا هو وزير الصناعة والمعدات «كريستوفر ناسيمينتو»، وكانت له قبعات سياسية مختلفة، وكان يمثل بلاده أحيانا في اجتماعات الأمم المتحدة واليونسكو خاصة تلك المتعلقة بالإعلام.. وعندما انتهى المؤتمر دعاني إلى بيته الريفي في مجاهل غيانا الاستوائية، وذهبنا إلى هناك بزورقه البخاري الخاص الذي قاده بنفسه.. استغرقت الرحلة نحو ثلاث ساعات في نهر الأمازون، وفي بعض المناطق كان عرض النهر يقترب من ٣٠ كيلومترا وكانت أمواجه تشتد أحيانا كموج البحر، لكن الرحلة كانت ممتعة، وكان بيته القائم على جذوع الشجر بسيطا ودافئا.. وقد أعد لنا هناك أرانب برية مشوية للغداء، وتجولنا قليلا في غابات الأمازون الفائقة الجمال بتنوعها الهائل في الأشجار والطيور..

عدنا بعد ذلك إلى جورج تاون، ولكن محركات الزورق تعطلت ونحن في منتصف الطريق، وعصف الموج بنا حتى كاد أن يلقي بنا في النهر أكثر من مرة، فاستولى عليَّ

رعب لم أعرفه في حياتي خاصة بعد أن ادلهم الظلام وتعطل جهاز اللاسلكي، لكنني كنت أحاول أن أطمئن نفسي أن الرجل مسئول في بلاده عن المعدات ولابد أنه سوف يستطيع إصلاح محركاته، وهو وزير أيضا ولا شك أن الدولة ترصد خط سيره، لكن شيئا من هذا لم يحدث، وظللنا على هذا النحو ساعات ننزح الماء من القارب حتى لا يغرق.. وأخيرا جاءتنا طائرة هليوكوبتر عسكرية لإنقاذنا، وبعدها قاطعت ركوب البحار والأنهار سنوات طويلة..

وكانت أول وآخر زيارة لي إلى بيونج يانج عاصمة كوريا الشمالية في مايو ١٩٨٢ فريدة من نوعها.. حضرت هناك اجتماعا للجنة تنسيق وكالات الأنباء في دول عدم الانحياز، وكنت قد أبلغت الخارجية الكورية أنني سأصطحب زوجتي، ولكنها اعتذرت في اليوم السابق على السفر، ومع ذلك فعندما وصلت إلى المطار وجدت على سلم الطائرة مرافقا ومرافقة يحمل كل منهما باقة من الزهور، وكانت في انتظارنا سيارتان فهمت أن إحداهما خصصت لزوجتي، وعلى الرغم من أن الزيارة استغرقت ثلاثة أيام فإن المرافقين والسيارتين ظلوا في صحبتي حتى سافرت..

ذهبت إلى مطعم الفندق الذي أقمت به في الصباح لتناول الإفطار فوجدت عددا من الأصدقاء جلست معهم إلَّا أن النادل أبلغني أن رقم مائدتي هو ٤٧ طوال إقامتي، وأنني ما لم ألتزم بالمكان فلن أحصل على خدمة.. انصعت للأوامر، وتوجهنا بعد ذلك إلى قاعة المؤتمر حيث قضيت عدة ساعات ثم طلبت من مرافقي أن نقوم بجولة قصيرة في وسط المدينة، ولكنه اندهش كيف أترك المؤتمر قبل أن تنتهي الجلسة، وذهب ثم عاد يسألني إذا ما كنت مصمما على الجولة، فلما أجبت بالإيجاب اختفى ثانية وعاد يحمل لي الموافقة التي لا بد أنه حصل عليها من سلطة أعلى.. أخذني مرافقي إلى وسط المدينة الذي كان يبدو خاليا بالكاد من العربات والمارة، ودخل بي إلى محل تجاري كبير، وهناك طلب مني أن أنتظره لدقائق عاد بعدها ومعه موظف بالمتجر تقدم إلى السلم الكهربي بمفتاح، وما إن أولج مفتاحه في السلم حتى تحرك، وعندما أخذ السلم يصعد بنا إذا برواد المتجر يتجمعون حولنا مصفقين؛ إذ يبدو أن السلم لا يستخدم إلَّا نادرا عند زيارة شخصيات رسمية..

في المساء استقبلنا الرئيس كيم إيل سونج في قصر الرئاسة بمراسم دقيقة، فعزف السلام الوطني في البداية، ثم قمنا بالسلام عليه فردا فردا وكنا نحو ستين عضوا في اللجنة، ثم انتقلنا إلى قاعة أخرى التقطت لنا فيها صورة تذكارية ونحن نجلس أو نقف حوله في أماكن محددة سلفا، وانتقلنا فيما بعد إلى قاعة ثالثة للعشاء، وعلى الرغم من أنني لم أشهد سوى القليل من الولائم الملكية فإنني أستطيع أن أقطع بأن ما قدم من طعام وشراب كان أكثر ندرة مما في هذه الولائم جميعا.. وكان الرجل جامد الملامح طوال الوقت، ولا أعتقد أنه قال جملة واحدة بصوت مسموع للترحيب بنا..

على العكس من ذلك تماما كان استقبال كاسترو لنا ونحن نحضر مؤتمرا لوزراء إعلام دول عدم الانحياز في إبريل ١٩٧٨، وكنا قد فوجئنا بوجوده أثناء حفل استقبال أقامه الوزير الكوبي للوفود، وعندما أخذ الوزير يقدم له أعضاء المؤتمر واحدا بعد آخر كان يحدق في وجه من يقدم إليه وكأنما يريد أن يستوعب اسمه ومنصبه والبلد الذي جاء منه، وعندما جاء دوري قال وكأنه يقرأ المستقبل إنه يأمل أن تصمد اليونسكو لأن معركة الإعلام ستطول، ثم قال: «أنت تأتي من بلاد عزيزة على نفسي»، وأخذ يتنقل بين الحاضرين فيما بعد وهو يتحدث بصوت عالٍ وضحكة مميزة.. كان حضوره طاغيا لا ينسى..

أما شقيقه راؤول، الرجل الثاني في كوبا عندئذ ورئيسها الحالي، فلم يثر حضوره المفاجئ انتباهنا، ولم نكن قد علمنا من قبل بمشاركته في الحفل، وكما قيل لنا فإن الشقيقين لا يظهران معا سوى في مناسبات نادرة.. سألني: «هل هذه أول زيارة لك إلى بلد اشتراكي؟»، وعندما قلت إن أول مرة كانت قبل أكثر من عشرين عاما لحضور مؤتمر لاتحاد الطلبة العالمي في براغ كاد أن يحتضنني.. قال إنه كان يعمل في ذلك الوقت بالأمانة العامة للاتحاد ويقيم في براغ..

وفي اليوم التالي حرص على أن يحضر عشاء أقيم للوفود في أحد المطاعم، وعلى دعوتي إلى مائدته.. وكانت ليلة صاخبة بالغناء المرح ورقص «السالسا».. لاحظنا ليلتها أن وفودنا ليس بينها امرأة واحدة، فاكتفينا بالفرجة والتصفيق الأبله وتناول الطعام الذي كان محدودا للغاية.. بهرني الشعب الكوبي خلال هذه الزيارة ببساطته

وحبه للحياة على الرغم من أننا لم نستطع مخالطة السكان بسبب القيود التي تفرض على الأجانب عادة، حتى إن السياح كانوا يعزلون في شواطئ بعيدة عن الأنظار.. كانت مظاهر التقشف الذي فرضه الحصار الأمريكي على كوبا بادية، وعندما تحدث راؤول عن الحصار كان في نبرته كثير من التحدي: «بلادنا غنية بموارد مختلفة، ونزرع ما يكفي لطعامنا.. لدينا على الأقل رؤوس ماشية تساوي في عددها عدد السكان»، لكني علمت بعدها بسنوات قليلة أن الحكومة اضطرت إلى توزيع المواد الغذائية ببطاقات التموين..

زرت صوفيا أيضا عندما انعقد المؤتمر العام لليونسكو في بلغاريا عام ١٩٨٥، وكان ياسر عرفات هو ضيف شرف المؤتمر عندئذ، وكانت التعليمات التي عممت على العاملين بالمنظمة تقضي بألّا نقف عند دخوله القاعة وألا يستقبل كرئيس دولة، ولكنه ما إن دخل حتى ضجت القاعة بالتصفيق وكذلك الهتاف من البعض، وأخذنا الحماس أنا وماكس فوقفنا.. وفي المساء ذهبت لتحية «أبو عمار» في دار الضيافة، وعندها تأكدت أنه صاحب قدرة خارقة على الملاحظة، فوسط كل الضجيج الذي أحاطه عند دخوله استطاع في القاعة الكبرى الحاشدة بالوفود أن يرانا وحدنا على المنصة واقفين، واستطاع أن يميز سحنة ماكس.. التفت لي وقال: «أنت واحد منا، لكنني أريدك أن تشكر الرجل الآسيوي الذي كان يقف إلى جانبك».. سألني من هو، ثم أهداني نسختين من كتاب عن الفنون الفلسطينية طلب مني تقديم إحداهما إلى «الرجل الآسيوي»، ولا أزال أحتفظ بهذه النسخة بإهدائه حتى الآن..

وأذكر أن أجمل الفنادق التي أقمت بها في نظري كان في بلدة «إجلز» Igls الجبلية بالقرب من «إنسبروك» في النمسا حيث عقدنا ندوة دراسية في سبتمبر ١٩٨٣، وكان الفندق صغيرا ولكنه كان فائق الأناقة، ولم تكن غرفه تزيد على العشرين غرفة.. أول ما لاحظته في الفندق كان مفاتيح الغرف المنقوشة بدقة بالغة، ولكني تحرجت عند السفر أن أستولي على مفتاح غرفتي إذ كنا قد قضينا في الفندق أسبوعا كاملا وصادقنا صاحبه، وكان رجلا لطيفا للغاية.. حكيت له حكايتي مع المفاتيح فإذا به يرسل في اليوم التالي ابنته الفاتنة لتقدم لي علبة فاخرة من الجلد، ولما فتحتها وجدت نسخة

من مفتاح غرفتي مطليا بالذهب، وكانت لفتة لم أنسها، وبسببها ـ أو بسبب الفتاة لا أدري ـ عدت في إجازة إلى الفندق نفسه في شتاء ١٩٨٩..

لكنني عندما حضرت في مرة أخرى ندوة عن الإعلام في إيطاليا في بلدة كومو بالقرب من البحيرة المعروفة بالاسم نفسه لم تكن الإقامة في فندق، فقد فوجئت أننا سنبيت في دير في غرف للرهبان لا تضاء إلا بالشموع.. ولم يكن في الغرف تكييف ولا «ميني بار» ولا «برنس» ولا حتى تلفون ومع ذلك فلم أحس أن شيئا ينقصني.. وقد منحني السكون مع جمال الطبيعة ونفحة الدير الروحية راحة نفسية غمرتني عدة أسابيع..

كنت وقتها في حاجة ماسة إلى هذه الراحة، فقد كان التوتر يتصاعد في المنظمة يوما بعد آخر مع احتدام الصدام حول النظام الإعلامي العالمي الجديد، بين الولايات المتحدة ودول الغرب من جانب وبين الدول النامية التي ساندها الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية من جانب آخر.. ومع دخول السوفييت على الخط استطاع الغرب بمهارة أن يحول القضية في أنظار الجماهير المتابعة، ويصورها على أنها قضية حرية الصحافة في المقام الأول، وأن الدول الغربية تجاهد لحماية هذه الحرية في حين أن الشيوعية العالمية والحكام المستبدين لا يحاولون قمعها فقط وإنما يسبغون شرعية على هذا القمع.. وطبقا لهذا الزعم راحوا يدعون لضمان حرية تدفق المعلومات والمنتجات الإعلامية باعتبار أن الحديث عن أي خلل في هذا التدفق يهدف إلى النيل من الحريات الصحفية في النهاية..

وكانت الدول النامية تتخذ مواقفها طبقا لولاءاتها السياسية بين الشرق والغرب، إلا أن غالبيتها كانت منضوية تحت لواء مجموعة عدم الانحياز، وكان موقف المجموعة واضحا تماما، فهي ترى أنها تخضع لأوضاع إعلامية جائرة، وأن هناك خللا فادحا بين الشمال والجنوب، وتضرب أمثلة عديدة لذلك، ففي حين لا توجد وكالات أنباء وطنية في ٣٥ دولة من دول الجنوب مثلا، فإن ٩٩٪ من الأخبار المتداولة في العالم تحتكرها خمس وكالات كبرى هي: «يونايتدبرس» و«أسوشيتدبرس» الأمريكيتان و«رويترز»البريطانية و AFP الفرنسية، و«تاس» السوفيتية.. كان رقم ٩٩ هذا رقما سحريا؛ إذ كانت دول الشمال أيضا قد حجزت لنفسها ٩٩٪ من المواقع المخصصة

لإطلاق الأقمار الصناعية في الفضاء الخارجي، وكذلك كانت تحتكر ٩٩٪ من الترددات الإذاعية في العالم..

أكدت هذه الأوضاع أن الدول النامية لم تكن تستطيع أن تعبر عن نفسها، وأن صورتها في العالم الخارجي كثيرا ما تشوه وأن ثقافتها الوطنية قابلة للاختراق بسهولة، واعتبرت هذه الدول أن الأوضاع الإعلامية المجحفة تكرس الهيمنة، وتعرقل تقدمها على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وتهدد بذلك السلم العالمي.. وكانت محقة في ذلك، فلقد كان العالم يشهد فصلا آخر من فصول التاريخ الاستعماري، تحاول فيه الدول الكبرى مرة أخرى السيطرة على الدول الصغرى باستخدام وسائل جديدة.. عندما قامت الثورة الصناعية في أوروبا لم يكن بمستطاعها أن تستمر سوى بوجود السكك الحديدية والبواخر، فقد كانت وسائل النقل هذه هي التي تنقل المواد الخام، مثل القطن والفحم من الدول التي كانت راضخة للاستعمار إلى المراكز الصناعية حتى يمكن لعمالها أن يعملوا ولمصانعها أن تنتج، كما كانت تلك الوسائل أيضا هي التي تنقل المنتوجات الصناعية إلى الأسواق في المستعمرات، وبذلك أحكمت إمبراطوريات المجتمع الصناعي قبضتها على الدول التي استعمرتها باستنزاف مواردها من ناحية، وتحويلها إلى أسواق للبضائع الأوروبية من ناحية أخرى.. كانت وسائل النقل في ذلك الحين، هي الشرايين التي بدونها يستحيل للاقتصاد الاستعماري أن يزدهر..

تكرر الأمر مرة أخرى مع دخولنا في عصر المعلومات، وإن كان قد حدث تغير كبير، فبدلا من المصانع التي كانت أهم أركان المجتمع الصناعي، نجد أن بنوك البيانات وأجهزة الكمبيوتر هي أهم أركان العصر الجديد، وبدلا من السكك الحديدية والبواخر، نجد أن الأقمار الصناعية هي وسائل المواصلات الحديثة ووسائل جمع البيانات والمعلومات وتوزيعها أيضا.. كان ذلك يتم بسرعة خارقة وعلى نطاق واسع لم يكن يحلم به أحد عند قيام الثورة الصناعية، وهكذا فقد عزز علاقات التبعية التي كانت قائمة من قبل، فهناك قلة تنتج وكثرة تستهلك، صفوة ترسل وجمهرة تتلقى، جماعة تزداد غنى وتقدما وجماعات تزداد فقرا وتخلفا..

لكن الشكوى من هيمنة الدول الكبرى لم تكن تقتصر على الدول النامية وحدها، وإنما كانت مثار تخوف كبير لدى الدول الصناعية الأقل غنى في الوقت ذاته، فكندا ـ على سبيل المثال ـ تتخوف من أقمار الولايات المتحدة، ودول أوروبا الأصغر تتخوف هي الأخرى من دولها الأكبر، بل إن الأمر يزداد تعقيدا عندما نجد أن دولا أوروبية كبرى مثل فرنسا وألمانيا الغربية تخشى من إمارة تكاد تظهر على الخرائط هي إمارة لوكسمبورج؛ لأنها كانت على وشك أن تبث برامج تلفزيونية مصحوبة بإعلانات تجارية قد تهدد بإثارتها وبريقها نظم التلفزيون العام..

أخذت الدول النامية في مناسبة بعد أخرى تحرز مكاسب جديدة في التصويت على قرارات اليونسكو المتعلقة بالإعلام، وكذلك قرارات الأمم المتحدة، وازداد حصارها للولايات المتحدة التي بدت كما لو كانت منعزلة خاصة في مواجهة الاتحاد السوفيتي.. وهكذا وجه وزير الخارجية الأمريكي جورج شولتز خطابا إلى إمبو مدير عام اليونسكو في نهاية ١٩٨٣ ينذره بأن الولايات المتحدة سوف تنسحب من المنظمة ما لم يتخذ إجراءات إصلاحية كافية خلال ١٢ شهرا، وكانت الولايات المتحدة تكرر الإشارة إلى هذه الإصلاحات خلال اجتماعات اليونسكو واحدا بعد آخر، وكانت في معظمها تتركز حول تضخم عدد الموظفين، خاصة أولئك القادمين من الدول النامية، والزيادة غير المبررة في النفقات، والتسيب الإداري، ولكن الشكوى الأساسية كانت تتمثل في تسييس أنشطة المنظمة..

وعلى الرغم من أن إمبو كان يدرك مدى زيف هذه الاتهامات فإنه كان حساسا بشدة من الانتقادات المتعلقة بالفساد المالي، فكلف مكتبا لمراجعة الحسابات تابعا للكونجرس الأمريكي للتفتيش على حسابات المنظمة، ولكن المكتب لم يجد دليلا واحدا على الفساد فيها، ومن ناحية أخرى بدأ إمبو اتخاذ إجراءات لربط الأحزمة استعدادا لليوم الذي يمكن أن تنفذ فيه الولايات المتحدة تهديداتها.. وكان في مقدمة هذه الإجراءات التخفيف من عدد من الموظفين في مختلف الإدارات، وأذكر وقتها أن إدارتي سجلت واحدا من أعلى النسب في تقليص العمالة فيها من ١٧ إلى ١١ خبيرا، ولم يكن هذا أمرا سهلا بحال..

كانت اليونسكو قد أقامت كذلك «البرنامج الدولي لتطوير الإعلام» IPDC في عام ١٩٨٠، وهو بمثابة صندوق لدعم وسائل الإعلام في الدول النامية.. وكانت الولايات المتحدة تلح في إقامة هذا الصندوق شريطة أن يخضع لإدارة لجنة دولية، وأن تكون المساهمة فيه طوعية حتى لا تجبر على سداد نصيبها، ومع ذلك ظلت تنادي أن أوضاع الإعلام لا تصحح بالبيانات السياسية ولكن بالإجراءات العملية..

على الرغم من هذه الإجراءات جميعا، انسحبت الولايات المتحدة في نهاية ديسمبر ١٩٨٤، واستطاعت أن تضغط على بريطانيا وسنغافورة للانسحاب في ١٩٨٥، وهكذا حرمت اليونسكو من ثلث ميزانيتها.. واتضح لكثير من المراقبين أن هذا الموقف المتعسف لا يتناسب حتى مع السلبيات التي كان يراها البعض في سلوك اليونسكو.. حقيقة الأمر كانت أن الأوضاع القديمة حلت محلها توازنات جديدة، وأن الولايات المتحدة لم تستطع أن تقنع العالم الجديد بسياساتها، وأن خسارتها للأغلبية الأوتوماتيكية التي كانت تصوت إلى جانبها في سنوات سابقة وإحساسها بالعزلة كانا السبب الحقيقي الذي دفعها إلى الانسحاب..

ازدادت حدة الصدام في اجتماعات اليونسكو، وتفاقم الاصطفاف العقائدي، وكنا نسهر في كثير من الاجتماعات حتى منتصف الليل، ونقضي ساعات في خلاف حول كلمة أو حول وضع فقرة في قرار قبل أخرى.. وكان عزيز الحاج مندوب العراق الدائم لدى اليونسكو واحدا من نجوم ما خلف الكواليس.. ولم يكن لمصر بمكانتها التاريخية في اليونسكو حضور ملحوظ في ذلك الحين؛ بسبب تجميد عضويتها في الجامعة العربية في عام ١٩٧٩ بعد توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل، وكانت الجزائر هي التي تتصدر الصفوف العربية خاصة بقدرتها على التنسيق مع المجموعة الإفريقية، وكثيرا ما كان «أنتون بروهاسكا» مندوب النمسا الدائم (وسفيرها فيما بعد في السعودية) يلعب دورا توفيقيا أنقذ بعض الاجتماعات من الفشل في اللحظات الأخيرة، وكنا نجيد توزيع الأدوار فيما بيننا..

في ذلك الوقت حضر عبد العزيز الرواس وكيل وزارة الإعلام العمانية في زيارة إلى باريس، وكنا صديقيْن قديميْن، ولكننا لم نجد وسط التوتر القائم وقتا طويلا لنلتقي.. يومها قال لي: «أنت لا بد أن تغير الجو قليلا وإلَّا فسوف تفقد صحتك.. أنا

لن أقول لك: خفف من العمل لأنني أعرف أن ذلك مستحيل، ولكن غير في حياتك شيئا على الأقل، غير شقتك مثلا».. وعندما عين وزيرا للإعلام بعد ذلك بأشهر اتصل بي ليقول إنه يحتاجني في مسقط ثلاث مرات في السنة مدة كل منها أسبوعان للعمل مستشارا للوزارة، وقال إنه لا يعدني بالراحة لأن العبء قد يكون ثقيلا، ولكنه ذكرني بأن تغيير المكان قد ينقذني من حرق الأعصاب الذي رآه بنفسه في باريس.. وافق مدير اليونسكو على الإعارة، وذهبت مع زوجتي، وعلى الرغم من أن أول مهمة لي كانت تقديم مذكرة لتحديد موقف السلطنة من اليونسكو والاستفادة من أنشطتها فإن الإحساس بأني خنت قضيتي في باريس ظل يطاردني صباح مساء.. استأذنت الوزير في نسيان العقد بيننا، وكان كريما معي فقبل دون تأفف..

عندما عدت إلى باريس وجدت أن الموقف ازداد سوءا مع احتشاد عدد من المنظمات الغربية، خاصة تلك المختصة بالإعلام، خلف الموقف الرسمي الأمريكي، ومع هجوم متصاعد في الصحافة وفي مقدمتها الصحف الواقعة تحت النفوذ الصهيوني استهدف شخص إمبو وتناول بطريقة فاجرة ذمته المالية، وبدأ الهجوم يكشف عن حملة شخصية للنيل من الرجل نفسه، فهو إما معادٍ للغرب وإما فاسد وإما مغرور..

ودفع هذا الدول النامية إلى مزيد من التشدد، فاتهمت الغرب بالتعصب ضد الإسلام وضد السود بل وضد العالم الثالث كله، واشتد دفاعها عن سياسة اليونسكو.. بين ما ساقته الدول النامية وقتها من أسانيد، أن المنظمة لا يمكنها أن تفلت من الخضوع للمؤثرات السياسية لأنها منظمة فيما بين الحكومات وليست ناديا ولا نقابة للمثقفين، وأنها لم تخترع قضية النظام الإعلامي الجديد إذ إنها خرجت من رحم المناقشات حول النظام الاقتصادي الجديد التي سادت الأمم المتحدة عندئذ، وأن الولايات المتحدة ذاتها سيست المنظمة أكثر من مرة كتلك التي اعترضت فيها على عضوية الصين أو ساندت إسرائيل، كما أنها انتهجت سياسة أكثر تشددا في المحافل الدولية مع تزايد سطوة المنظمات الانعزالية لديها وفوز ريجان بالرئاسة الأمريكية في ١٩٨٠، وساندتها في ذلك حكومة تاتشر في لندن.. ودافعت الدول النامية عن تعيين اليونسكو لموظفين من العالم الثالث بأنه تصحيح لخطأ تاريخي، وعن التضخم في

الموظفين أو المصروفات بأنه لا يختلف عن غيره في منظمات الأمم المتحدة جميعا، وأنه يتماشى مع النمو في عضوية المنظمة..

وهكذا أصبح التصادم السافر وشيكا، وكان مسرح الصدام هو انتخابات المدير العام المقررة في عام ١٩٨٧.. كان إمبو قد انتخب مديرا عاما لليونسكو في ١٩٧٤ وتجدد انتخابه في ١٩٨٠، وها هو يقرر الترشح لمدة ثالثة.. كنت قريبا من إمبو منذ نقلت إلى باريس، وازداد قربي منه مع احتدام المعركة ومع اعتماد إمبو على الإدارة التي كنت أرأسها، وكنت شديد الإعجاب بالرجل مقدرا لصموده في النضال من أجل القضايا التي يؤمن بها، بل كنت أعتبره امتدادا لعبد الناصر.. في كتابه «خواطر الترحال» يقول الأديب الكبير الطيب صالح الذي عمل باليونسكو في سنوات إمبو الأخيرة واعتمر وحج معه: «كان إمبو في حقيقة الأمر زعيما من سلالة منقرضة من الزعماء، أكبر من وظيفته ومخالفا لزمانه، رجلا له فلسفة ويريد أن يحدث ثورة، ولم يعد الزمان يطلب فلسفة أو ثورة؛ لذلك كان حتما أن يخسر»..

كنت أرى ما يراه الطيب صالح تماما، وكنت قد اعتدت أن أذهب إلى مكتب إمبو في السابعة والنصف صباحا إذا أردت أن أقترح شيئا يعينه على اجتياز اللحظات الصعبة.. كان كعادته في مثل هذا الوقت صافيا هادئا وهو يجلس وحده إلى مكتبه دون سكرتارية.. ذهبت مرة في مايو ١٩٨٤ لأنصح بتعيين نائب له على أن يكون شخصية مستقلة مقبولة لدى الغرب، ورشحت له «جيرار بولا» وهو سويسري كان مديرا عاما مساعدا للإعلام والثقافة، وحرصت على أن أقول إن وجوده في هذا المنصب لن يحل مشاكل كثيرة، ولكنه سوف يساعد نفسيا على تخفيف الهجوم على المدير العام.. وبالفعل عينه إمبو في المنصب الجديد بعد أيام..

في مرة أخرى، في يناير ١٩٨٦، ذهبت إليه بعد أن علمت أنه ينوي الترشح لمنصب المدير العام لدورة ثالثة، وكانت مقابلة حاسمة.. قلت: «يحزنني أن أقول لك اليوم ما أنا عازم على قوله الآن.. العالم من حولنا بدأ يتغير ياسيدي.. لقد كانت الموازين لصالحنا حتى انسحبت الولايات المتحدة، ومنذ ذلك الحين استطاع الغرب أن يسجل بعض النقاط، كذلك فهناك دول نامية عديدة تناصر سياستك في اليونسكو لكنها لا تريد لعلاقتها مع أمريكا أن تسوء، بل إن بعضها يتزلف لها في الكواليس..

وعلى الرغم من أنك حاولت قدر استطاعتك فإننا لا بد أن نعترف أن كثيرين لن يؤيدوا ترشيح مدير عام لفترة ثالثة، بعد أن يكون قد قضى ١٣ سنة في منصبه.. مسيو إمبو، لم يعد لدينا من الأنصار ما كان لنا في سنوات ماضية، وأنت تعلم أنني لا أريد أن أراك وأنت تخسر المعركة؛ لذلك أرجوك ألّا تدخل هذه الانتخابات.. اخرج من هنا بكرامة يا مسيو إمبو، أما أنا فلن أبقى في اليونسكو إذا أعلنت ترشيحك.. سأترك المنظمة قبل أن تهزم أمام عينيَّ»..

أعلن إمبو ترشيحه، وفي الوقت نفسه أصدر قرارا بتعييني مديرا لـ«مكتب إعلام الجمهور»، أي المتحدث باسم المنظمة وبالتالي باسم المدير العام المرشح، فقدمت استقالتي، وطبقا للأعراف طلبت تنفيذها بعد ثلاثة أشهر حتى تعثر المنظمة على رئيس آخر للمكتب، وأرسلت رسالة لإمبو أرشح فيها مدير الإعلام في منظمة الصليب الأحمر الدولي فوافق على الترشيح، ولكنه عين بشكل غير رسمي زميلنا السنغالي «دودو ديين» مسئولا عن حملته الانتخابية.. وعلى الرغم من أنه كان رجلا فائق الحيوية شديد الذكاء فإنني كنت أرى أن من الخطأ تكليف إفريقي، بل سنغالي من جلدته نفسها، داعية له في حملته.. ومع الوقت زاد توتر إمبو على غير العادة، وكثيرا ما كان يفقد أعصابه، وبدأ يدلي بتصريحات متناقضة حول ترشيحه أربكت الأفارقة والعرب، وفوتت عليهم الفرصة لتشكيل جبهة من دول عدم الانحياز لانتقاء مرشح آخر والوقوف إلى جـانبه.. الحق أنه خذلني في ولعه بالمنصب إلى هذا الحد..

لم يصدق إمبو أنني جاد في الاستقالة فعلا، وربما ظن أن احتكاكا قد حدث بيني وبين «ديين» فوجد أن الحل في فصل القوات ولو مؤقتا، وهكذا أوفد إليَّ رسولين ليقدما لي عرضا جديدا.. جاء إلى بيتي الدكتور محمد فتح الله الخطيب سفير مصر لدى اليونسكو وصديقي الدكتور بشير البكري وكان واحدا من أقرب أصدقاء إمبو، وعرضا عليَّ منصب «مدير مكتب اليونسكو الإقليمي للعلوم في الدول العربية» فاعتذرت، على الرغم من إصرارهما على تذكيري بأن هذا المنصب شغله من قبل رجل بمكانة الدكتور مصطفى كمال حلمي حتى عين وزيرا للتعليم (ثم رئيسا لمجلس الشورى)..

أذكر أنني كنت في القاهرة في ذلك الحين، وعندما ذهبت إليه في مكتبه على كورنيش النيل كان قد تلقى لتوه خبر التعيين في الوزارة، ولم يكن سعيدا به كثيرا، كذلك رفضته

عائلته تماما.. ترددت على الدكتور حلمي أكثر من مرة في الأيام التالية حتى كان يوم حلف اليمين، فجاء يومها أحد أبنائه (أظن أنه أستاذ جامعي الآن) يحاول إثناءه عن قراره، وعندما اختلى بي جانبا قال إنه سيفعل كل ما يستطيع لمنعه من أداء اليمين، حتى إنه فكر يومها في أن يتلف إطار سيارته، ولكن المحظور وقع في النهاية..

لا أنكر أن العودة إلى مصر في منصب مدير المكتب الإقليمي قد أغرتني لوهلة، ولكنني كنت أعرف أنني في كل الأحوال عائد عائد، بل إنني لم أبتعد عن مصر طوال سنوات باريس العشر، فقد ذهبت إليها ٢٤ مرة خلال هذه الفترة في مهام عمل أو في إجازات (تليها تونس ١٢ مرة، فنيويورك ١٠ مرات، ثم الرياض ٩ مرات)..

أتذكر الآن أنني قابلت الرئيس السابق «مبارك» في ثلاث من هذه الزيارات؛ أولاها كانت في أواخر السبعينيات عندما ذهبت إليه مع إمبو واستغرق اجتماعنا حول المشروعات المشتركة بين مصر واليونسكو ساعة ونصف الساعة، وكان مبارك عندئذ نائبا للرئيس.. كان اللقاء في بيته، وقد استأذن إمبو في أن يستبقيني معه دقائق بعد أن يغادر، ووقف معي في حديقة البيت نحو عشر دقائق يطمئن فيها على أحوالي الشخصية.. وفي النهاية قال: «لا تنسَ أننا نساندك في موقعك المهم في المنظمة، ولا تتردد في أن تلجأ لي في أي أمر حتى ولو كان شخصيا».. قالها بصدق..

أما المرة الثانية فكانت في منتصف الثمانينيات، وكنت أمثل اليونسكو في مؤتمر لاتحاد الصحفيين الأفارقة عقد في القاهرة، عندما حدد موعد لأعضاء المؤتمر ليستقبلهم الرئيس في قصر القبة.. يومها عقد معنا اجتماعا هناك، وفي بداية الاجتماع سأل عن اللغة التي يفضل الصحفيون أن يجري بها الحديث فأجمعوا على الفرنسية.. عندها جاءني الدكتور مصطفى الفقي، الذي كان حاضرا بصفته سكرتير الرئيس للمعلومات، وهمس في أذني أن أقوم بالترجمة فاعتذرت.. قال: «دي فرصة ليك ما تتعوضشي في حضور الريس»، لكنني قلت إن هذا لا يصح في وجود الدكتور ممدوح البلتاجي رئيس هيئة الاستعلامات، الذي كان يجلس خلفي، وهو الأجدر بالقيام بالترجمة.. هكذا كان لقائي بالرئيس عارضا، اقتصر على التحية والتقاط الصور، وكذلك كان اللقاء الثالث عندما انعقد مؤتمر وزراء الإعلام في القاهرة في

نوفمبر ١٩٨٥، وإن كان قد اختصني ببضع دقائق سألني فيها عن أحوال اليونسكو بعد انسحاب الولايات المتحدة..

تركت اليونسكو في أكتوبر ١٩٨٦. ويقضي النظام في هذه الحالة بأن يخير الموظف المستقيل بين تقاضي معاش مدى الحياة يتناسب مع مرتبه وسنه، أو الحصول على مكافأة نهاية الخدمة نقدا، ففضلت المكافأة، وكان لي حساب وقتها مع «ميريل لينش» للاستثمار فحولت المكافأة بكاملها في هذا الحساب، وما إن مرت عدة شهور حتى اتصل بي مؤنس بزي المسئول عن الحساب يسوق لي مفاجأة: «للأسف خسرت اليوم نحو ٦٠٪ من رصيدك».. كان اليوم هو ١٩ أكتوبر ١٩٨٧، الاثنين الأسود، الذي انهارت فيه البورصات العالمية..

مر أسبوعان بعدها، ثم بدأ المؤتمر العام لليونسكو في مراسم انتخابات المدير العام وانتخب منافس إمبو الإسباني «فيديريكو مايور» الذي عمل سنوات من قبل نائبا للمدير العام، وكان عمره ٥٣ سنة في حين كان عمر إمبو ٦٦ سنة.. وقتها كتبت مقالا حول الانتخابات وكواليسها نشر في جريدة الأهرام في ٨ نوفمبر ١٩٨٧، اختتمته بالقول: «إن إمبو كان رجل الستينيات والسبعينيات بما لها وما عليها، لكنه من المستحيل له أو لغيره أن يكون رجل كل العصور»..

لم يكن هذا خافيا على إمبو، وكان يعلم كم كنت وفيا له وصادقا مع نفسي.. واستمرت مودتنا صافية، وإن كان قد مر زمن على آخر اتصال بيننا، وكان ذلك في انتخابات اليونسكو الأخيرة التي رشحت مصر فيها فاروق حسني مديرا عاما.. ولم يشأ يومها أن يخوض في الأمر؛ ربما حرجا من التعليق..

عادت بريطانيا إلى اليونسكو في عام ١٩٩٧، أما الولايات المتحدة فعادت في سبتمبر ٢٠٠٢.. عندها شككت صحف في نواياها.. قالت إنها عادت إلى اليونسكو لأنها لم تكتفِ بالسيطرة على العالم بالسلاح فأرادت أن تسيطر عليه بالثقافة أيضا، في حين رحبت صحف أخرى بالقرار الذي كان يعني بالنسبة إليها عودة إلى «الحظيرة الدولية».. لم أفهم كيف تعود الولايات المتحدة إلى الحظيرة الدولية في الوقت الذي كان يصرح فيه جورج بوش بأنه سيضرب العراق بقرار من مجلس الأمن أو بدونه.. لكنني فهمت على الأقل لماذا كانوا يسمونها «الحظيرة»!

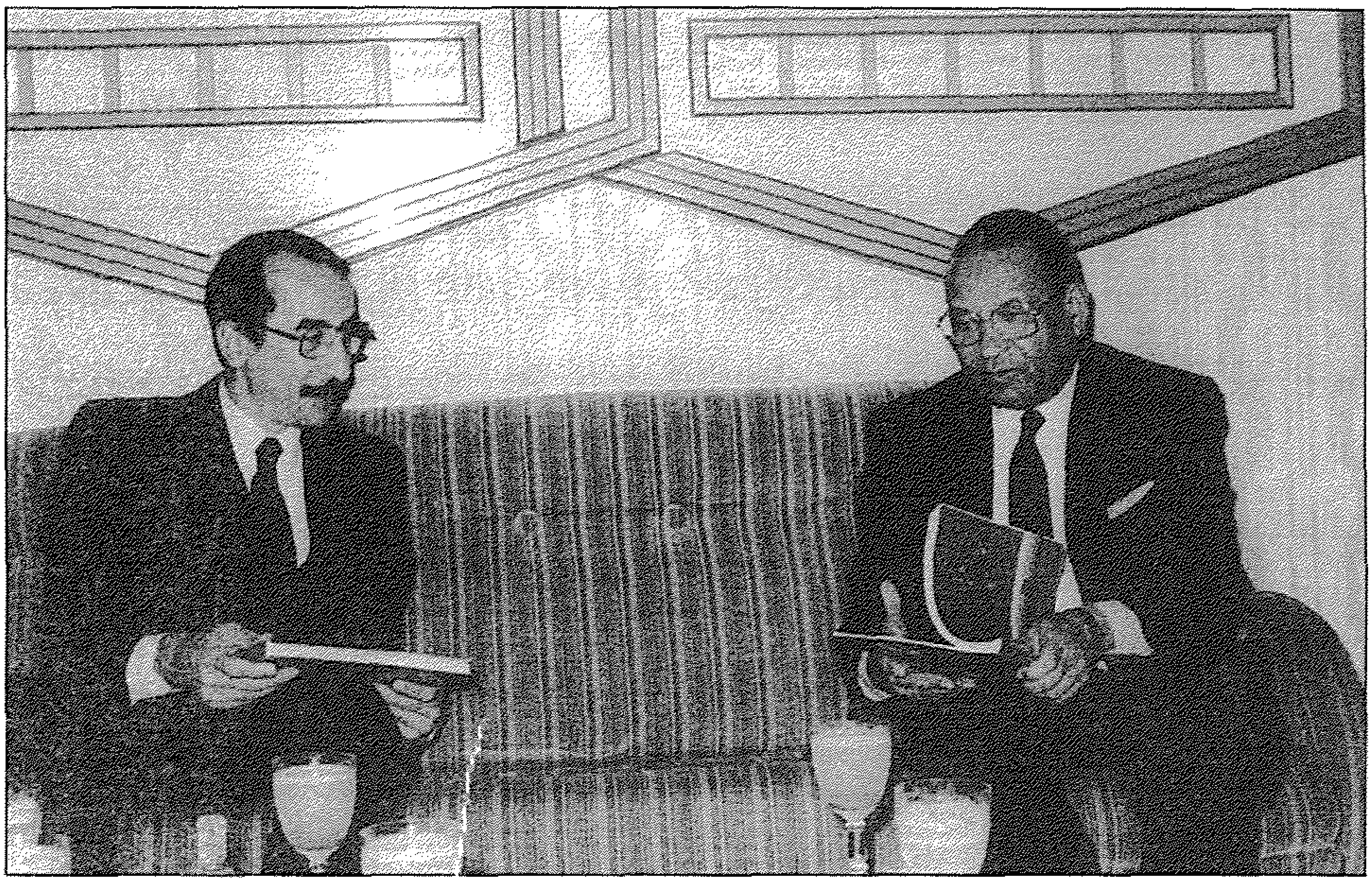

مع أحمد مختار إمبو مدير عام اليونسكو، القاهرة (١٩٧٤).

مع ماكاجيانسار مدير عام اليونسكو المساعد للاتصال والثقافة في مؤتمر للأمم المتحدة، نيويورك (١٩٧٩).

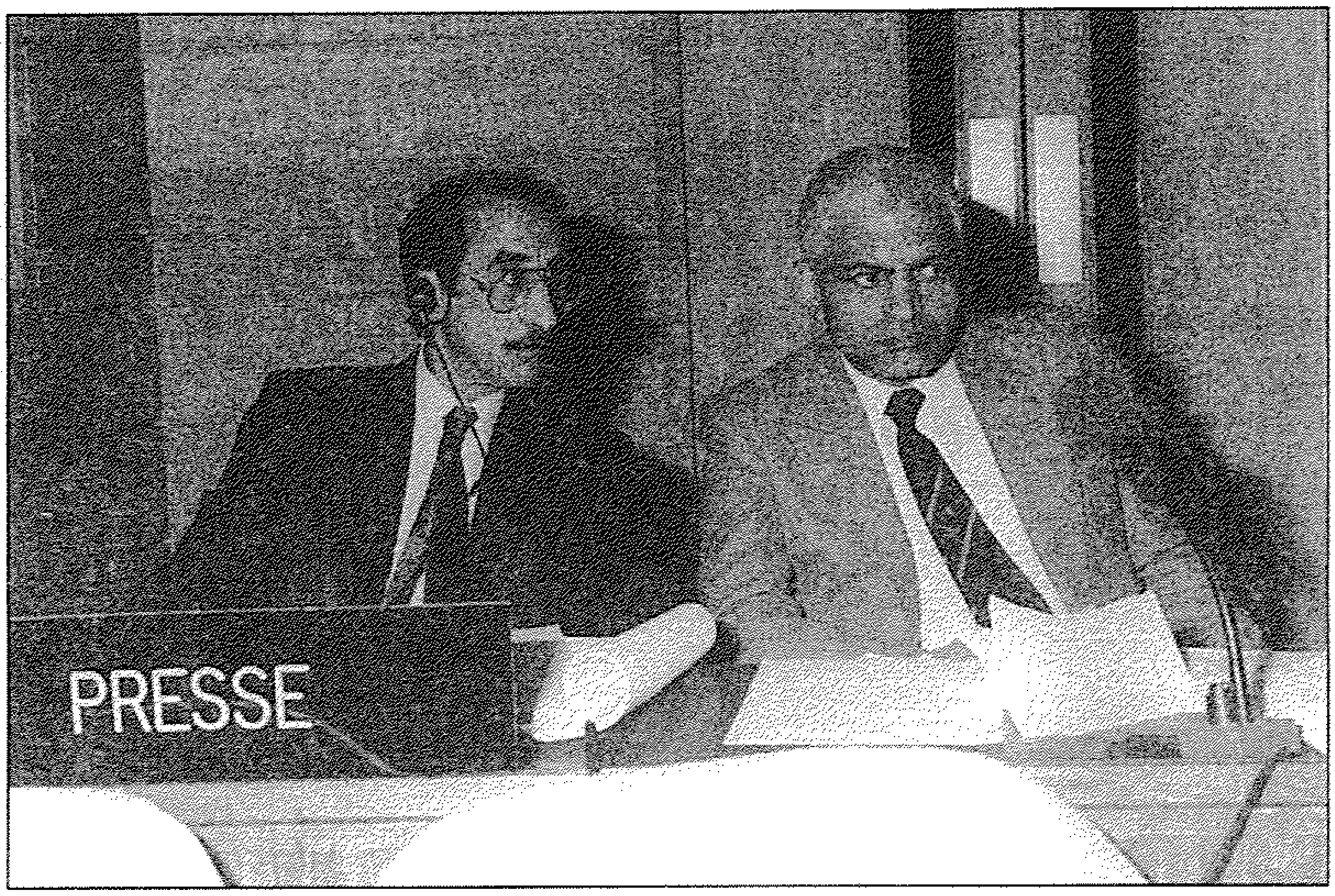

مع ممدوح البلتاجي الوزير المفوض الإعلامي بسفارتنا في باريس (١٩٨١).

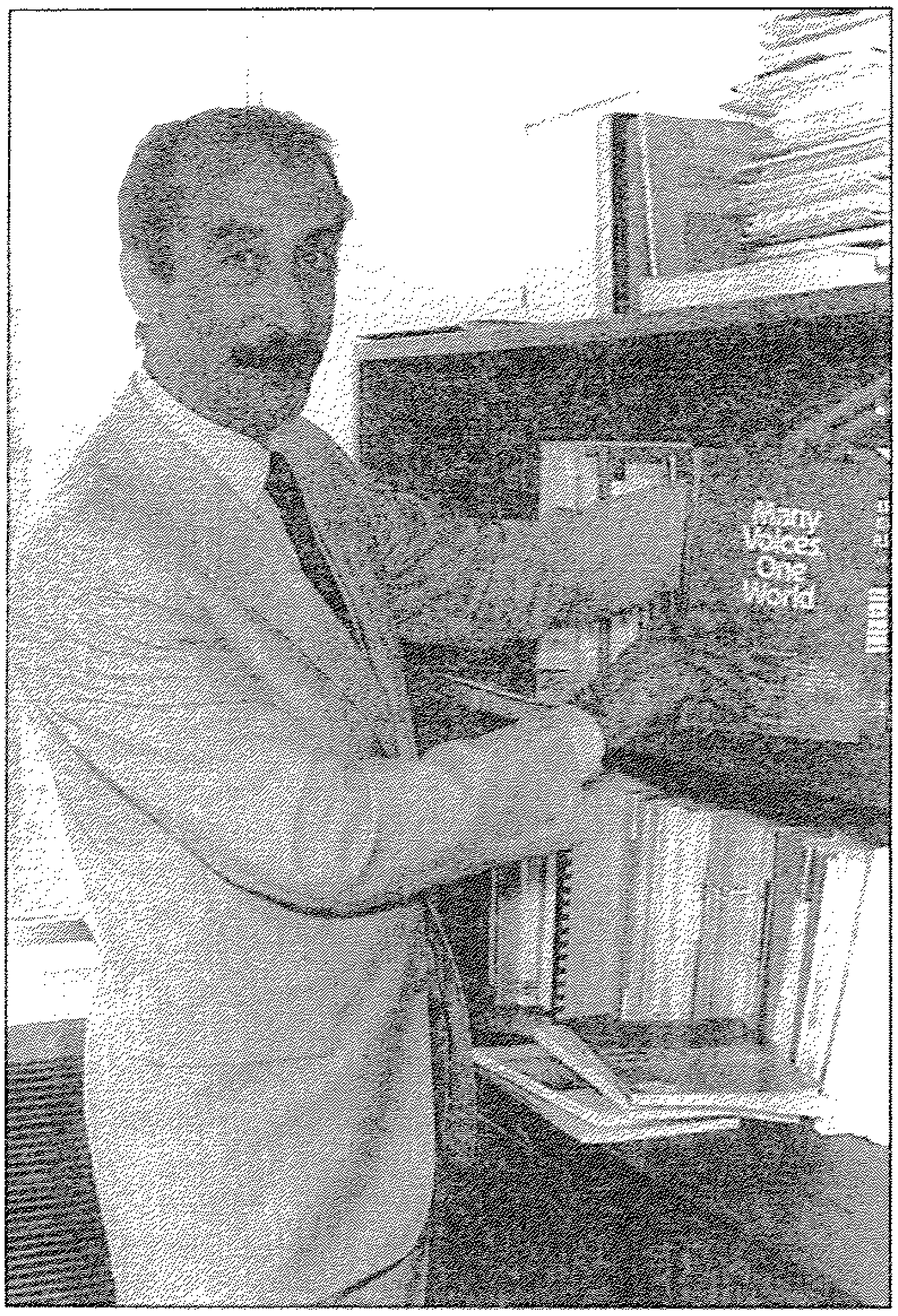

عند صدور تقرير اليونسكو الشهير «أصوات متعددة، عالم واحد» (١٩٨٠).

مع الرئيس مبارك، وإلى يمينه د. بطرس غالي وإلى يساره صفوت الشريف القاهرة (١٩٨٣).

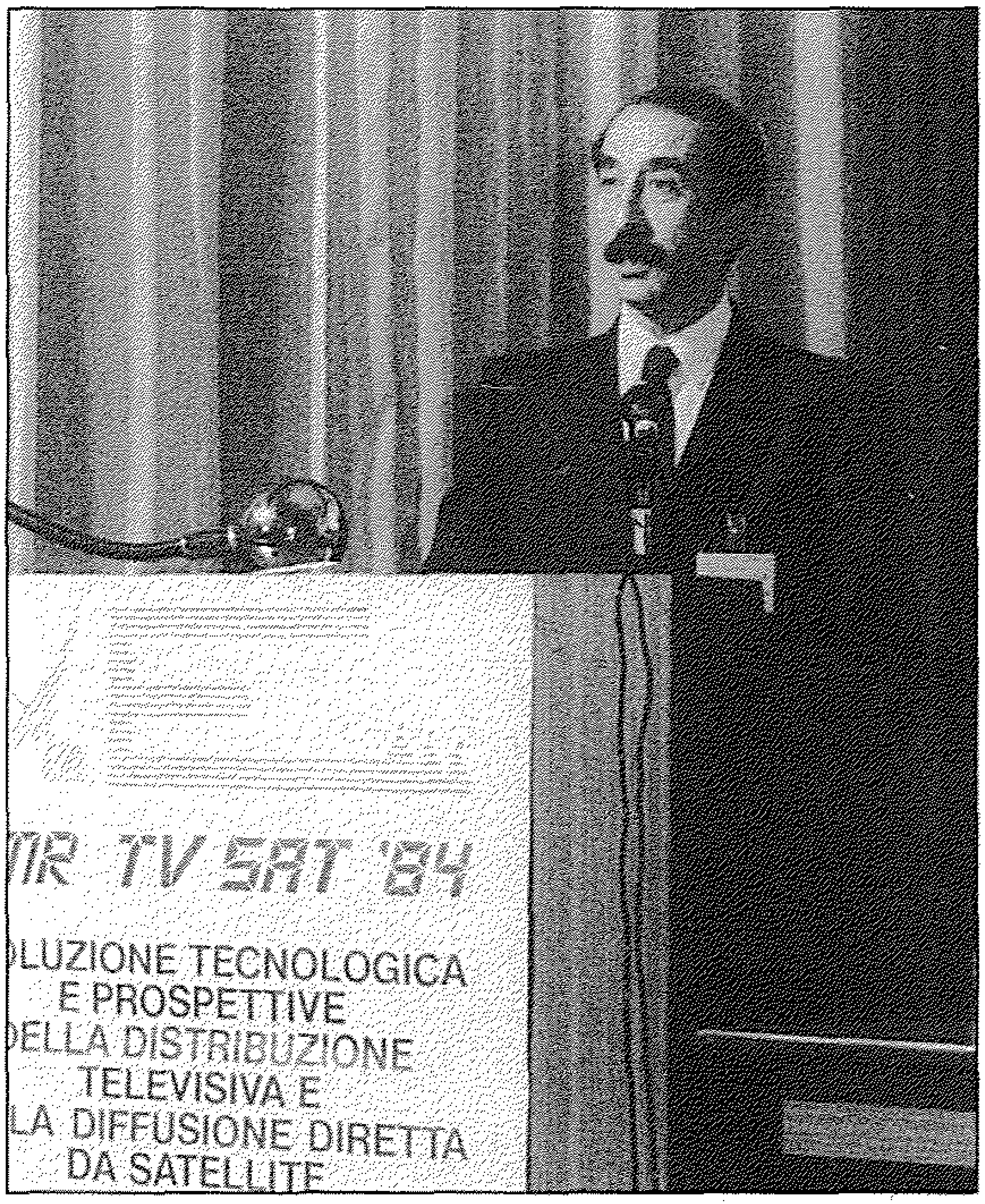

ألقى خطابا في مؤتمر «البث التلفزيوني المباشر بالأقمار الصناعية» في سان مارينو (١٩٨٤).

(١٥)

الفلوس تتكلم..

١٩٨٦ - ١٩٨٨

◆ ◆ ◆

عندما قرأت الفاتحة مع الشيخ صالح كامل في الشانزليزيه، وأقسم لي الشيخ وليد البراهيم بالله ثلاثا في لندن.

◆ ◆ ◆

اعترض الملك فهد على وجودي؛ لأنني كنت قد هاجمت الملك فيصل في التلفزيون في الستينيات.

أوحت إليَّ سنوات إقامتي في باريس بمشروع ظل يراودني التفكير فيه طوال العامين الأخيرين من عملي في اليونسكو، ١٩٨٥ و١٩٨٦.. كانت خبرتي بالاتصالات الفضائية واطلاعي على أحوال الجاليات العربية في فرنسا بالذات، وفي غيرها من البلدان الأوروبية التي زرتها، هي الدافع لأن أحلم بإقامة شبكة تلفزيونية عربية في أوروبا تلبي احتياجات العرب المقيمين فيها.. كنت أعلم جيدا مدى حاجة هؤلاء إلى توثيق صلاتهم ببلدانهم الأم، وحاجتهم إلى تعليم اللغة العربية لأطفالهم، وحاجاتهم الثقافية والدينية بصفة عامة.. وعلى الرغم من أنه كان يصدر في أوروبا عدد كبير من الصحف والمجلات العربية، وكان هناك أيضا بعض محطات إذاعية عربية، فإن الجاليات العربية كانت تعاني من فراغ إعلامي وثقافي ملحوظ..

أثار انتباهي أيضا أثناء زيارة إلى مارسيليا ـ حيث تقيم جالية عربية كبيرة ـ أن معظم السكان الفرنسيين في المَدينة إما أنهم يعملون مع العرب، وإما يسكنون إلى جوارهم، وإما يتخذونهم أصدقاء (أو أعداء)، كما أنهم يترددون على مقاهيهم، ويبتاعون من حوانيتهم، ويتذوقون موسيقاهم، ويأكلون «الكسكس» طعامهم المفضل، وهكذا فعندما التقيت بأحد المسئولين عن مشروع لإقامة محطة للتلفزيون يوزع بالكابل هناك لم يكن غريبا أن يقول لي إنه يفكر في إنتاج برنامج عربي لا يوجه للعرب وحدهم، وإنما يساعد الفرنسيين أيضا على تفهم العرب على نحو أفضل..

في اليوم التالي مباشرة لمغادرتي اليونسكو، وكنا في نهاية أكتوبر ١٩٨٦، اتخذت قراري بإقامة شركة تعمل على تنفيذ المشروع باسم «الشرق لاتصالات الفضاء» ORIENSAT، أشرك فيها معي عددا من الأصدقاء القدامى الذين يعملون في مجالات الإعلام.. كنت قد تحدثت عدة مرات من قبل عن المشروع مع الدكتور علي السمان الذي كان يقيم في باريس منذ زمن، وكان مسئولا لسنوات في اتحاد الإذاعة والتلفزيون عن غرب أوروبا وكذلك مستشارا للإعلام الخارجي في رئاسة الجمهورية، ثم شق

طريقه بسرعة في مجال الأعمال.. وعندما عاودت الاتصال به لأبلغه بقراري قال: «مكتبي جاهز لك من الغد.. اذهب إليه في الصباح لتبدأ اتصالاتك.. فستجد غرفة خاصة وسكرتيرة أيضا»..

ذهبت في الصباح، وفي نهاية اليوم التالي كانت قائمة مؤسسي الشركة قد اكتملت: سعد لبيب وعلي شمو ومحمد السنعوسي ومحمود الشريف وريمون إسكندر، والدكتور محمد مدكور خبير المعلومات، وجيرار بولا نائب مدير عام اليونسكو السابق، وكان الدكتور السمان قد اتصل أيضا بجان دي ليبكوفسكي وزير الدولة السابق للشئون الخارجية في فرنسا، وكذلك وولفجانج سيليج الرئيس السابق لاتحاد الصناعات الإلكترونية في ألمانيا.. كل منا سيدفع ١٥ ألف دولار لنسدد المصروفات المبدئية للتأسيس وتشغيل الشركة؛ حتى نعقد أول اجتماع لنا في بداية الشهر التالي..

قام علي السمان بتسجيل الشركة في زيوريخ حيث استأجرنا المقر الرئيسي، أما أنا فشرعت على الفور في وضع خطة الدراسات اللازمة.. كان علينا أن نعرف حجم جمهورنا المستفيد بالخدمة، ونحدد شبكات تلفزيون الكابل والأقمار الصناعية التي ستنقل البرامج، ونضع خطة لإنتاج البرامج أو الحصول عليها، ونبحث إمكانات التمويل وجوانب الإنفاق المختلفة، ونتحرى عن المنافسين وعن العقبات السياسية والفنية والإدارية المحتملة.. وعندما عقدنا اجتماعنا الأول ناقشنا خطة العمل، وانتخب علي شمو رئيسا للشركة، وعلي السمان رئيسا للجنة التنفيذية، وانتخبت مديرا عاما..

أبسط المهام التي كانت تنتظرني هي أن نعرف كم عدد العرب في أوروبا، وقد ثبت لي فيما بعد أنها مهمة معقدة؛ إذ لم تكن هناك إحصاءات حديثة من جهات معتمدة يمكن الاستناد إليها سوى في النادر؛ لذلك كلفنا عددا من مراكز البحوث العربية في أوروبا بإعداد دراسات عن الجاليات وخصائصها الديموغرافية والاجتماعية، واعتمدنا على دراسات منشورة لباحثين وكتاب مرموقين مثل الدكتور نادر فرجاني وغيره، وخلصنا في النهاية إلى أن أقرب النتائج إلى الدقة تشير إلى أن عدد العرب في أوروبا عندئذ كان أربعة ملايين، موزعين بين فرنسا (مليونيْن و٦٥٠ ألفا) وبريطانيا (٤٠٠ ألف) وألمانيا (٢٠٠ ألف) وبلجيكا (١٩٠ ألفا) وهولندا (١٨٠ ألفا) وإيطاليا

(١٤٠ ألفا) واليونان (١١٠ آلاف) وإسبانيا (٧٠ ألفا) و٩٠ ألفا في دول أخرى.. وانتهزنا الفرصة فوسعنا البحث ليشمل أمريكا الشمالية أيضا حيث توجد جالية عربية في الولايات المتحدة قدرنا عددها بمليونين و٣٠٠ ألف (بمن فيها الذين حصلوا على جنسية البلد المضيف)، أما تلك التي في كندا فعددها ١٦٠ ألفا..

تبين من البحث أيضا أن هناك فئتيْن من العرب في الغرب: المقيمين في أمريكا الشمالية وبريطانيا، المقيمين في باقي أنحاء أوروبا.. العرب في بريطانيا وأمريكا الشمالية أرفع تعليما وأكثر اندماجا في مجتمعات البلدان المضيفة، وهجرتهم إلى هذه البلدان عادة ما تكون نهائية، أما العرب المقيمون في باقي أنحاء أوروبا فهم يشكلون جماعة تختلف كثيرا؛ إذ إن معظمهم عمال، وهجرتهم ذات طابع مؤقت، وعلاقتهم ببلدانهم الأم أشد متانة وأكثر انتظاما واستقرارا.. وجدنا أيضا أنه باستثناء بريطانيا، فإن ٦١,٤٪ من العرب المقيمين في أوروبا ينتمون إلى فئة العمال في الصناعة والأشغال العامة والبناء، أما الباقون فهم من المهنيين والموظفين..

أفادت استنتاجاتنا أيضا أن متوسط الدخل الشهري لغالبية العرب العاملين في أوروبا يتراوح بين ٩٠٠ و ١٢٥٠ دولارا، أما دخل العرب في بريطانيا والولايات المتحدة وكندا فهو يفوق متوسط دخلهم في أوروبا بنحو ٥٥٪.. وغطت دراساتنا أيضا أعمار المهاجرين العرب، والخدمات التعليمية التي توفرها الجاليات لأبنائها، والروابط الثقافية والاجتماعية التي تم إنشاؤها، بل وأعداد المساجد والكنائس الخاصة بهم أيضا.. ووجدنا مثلا أن هناك ما يزيد على ألف مسجد في فرنسا وحدها، وأن ١٨ مسجدا أقيمت في خمس سنوات فقط في إحدى ضواحي بروكسل، كما لاحظنا ازدياد عدد كنائس الجاليات العربية، ولاسيما الجاليات المصرية واللبنانية والأردنية والفلسطينية، في كندا والولايات المتحدة بالذات..

أما وسائل بث البرامج التلفزيونية إلى هذه الجاليات فكانت محدودة على نحو ملحوظ.. في ذلك الوقت كانت الاتصالات الفضائية لا تزال في بداياتها، وكانت بعض المحطات التلفزيونية الغربية، الحكومية والخاصة، تخصص وقتا قصيرا للغاية من إرسالها للجاليات الكبيرة العدد دون غيرها، ولم يكن هذا الوقت بالنسبة إلى

الجالية العربية يزيد على نصف ساعة كل أسبوع في المتوسط؛ وبذلك كانت الوسيلة الوحيدة المتاحة لنا هي إذاعة برامجنا من خلال المحطات التلفزيونية التي تبث برامجها عبر الكابل (أي من خلال شبكات اتصالات أرضية) إلى المشتركين، وكان عدد هذه المحطات لا يزال محدودا..

في الولايات المتحدة كانت ٤٧٪ من المنازل مشتركة في تلفزيون الكابل، وفي كندا كانت هناك ٥٧٠ شبكة لتلفزيون الكابل تخدم ٩,٥٪ مليون مشترك يمثلون ٦٥٪ من أصحاب المنازل المزودة بأجهزة التلفزيون.. وفي أوروبا كان قد تم مد الشبكة الأرضية إلى ١١,٥٪ مليون منزل يشترك نصفهم تقريبا في تلفزيون الكابل، وبالطبع فإن النسب تختلف من مدينة إلى أخرى.. وقد أجرينا دراسات تفصيلية شملت الوضع القائم في هذه المدن في العام الذي أجريت فيه الدراسة، ١٩٨٦، وتوقعات المستقبل..

في باريس مثلا، كان الكابل قد امتد وقتها إلى ثلاثة فقط من أحياء المدينة لا يقطنها إلا عدد قليل من العرب، ووصل إلى ١٤٠ ألف شقة، وكان من المقرر أن يزداد هذا العدد بمقدار ٢٠٠ ألف شقة سنويا حتى عام ١٩٩٢ حين تنتهي تغطية باريس تماما بشبكة الكابل (حوالي مليون ونصف المليون شقة)، وكانت سعة الشبكة ١٥ قناة.. وقد أتاحت لنا صلاتنا الواسعة في باريس أن نتفق على تخصيص ساعة يوميا لبرامجنا على القناة ٨ ابتداء من عام ١٩٨٧، وتخصيص قناة بكاملها ابتداء من عام ١٩٨٨..

تبلورت الخطة على أساس أن نقوم بتجميع برامجنا في باريس، وبثها من هناك بالأقمار الصناعية إلى باقي البلدان لتذاع من محطات الكابل مع مراعاة أن هذه البرامج قد تختلف من بلد إلى آخر، وكان من المفترض أن يبدأ البث بالبرامج الموجهة إلى الجاليات العربية، إلَّا أننا رأينا أن نقوم في السنة الثانية بتوجيه برامج إلى الجاليات التركية أيضا، وخاصة في ألمانيا الغربية، وفي كل الأحوال كان من الضروري في مرحلة لاحقة توفير ترجمة إلكترونية للبرامج باللغات الرئيسية في أوروبا لاستقطاب المشاهدين الأوروبيين المهتمين بالشئون العربية..

لم تكن ميزانيتنا تسمح بإنتاج برامج خاصة؛ لذلك قررنا في البداية الاعتماد على الإنتاج المتوفر لدى محطات التلفزيون العربية، وخاصة البرامج الدينية وتعليم اللغة العربية والأفلام الوثائقية والمباريات الرياضية وبرامج المنوعات والأخبار والندوات الثقافية.. وكنا نتوقع الحصول على البرامج من هذه المحطات مقابل تقاسم إيراد الإعلانات.. وكان لمؤسسي شركتنا اتصالات وثيقة بهذه المحطات كافة، إلَّا أن الواقع لم يتطابق مع خططنا؛ إذ إن العديد من هذه المحطات اشترطت بيع برامجها بمبالغ باهظة، متوهمة أننا سنجني من وراء المشروع أرباحا طائلة..

كانت تقديراتنا المالية تؤكد العكس تماما، وأن الخسارة ستستمر لمدة ثلاث إلى خمس سنوات، وأنها يمكن أن تبلغ ٧ ملايين دولار.. وترجع الخسارة المتوقعة أساسا إلى أن حجم الجمهور المتلقي محدود، كما أن عدد محطات الكابل وسعتها ومدى انتشارها، وبالتالي الإيراد المتوقع منها، لم يكن كبيرا.. وكانت مصادر الإيراد تتمثل في اشتراكات المشاهدين (التي يذهب جانب منها إلى شبكة الكابل)، وكذلك الإعلانات ورعاية البرامج التي تتناسب صعودا وهبوطا مع حجم الجمهور ومتوسط دخله، وكانت المصروفات المتوقعة باهظة بالنسبة إلى الإيرادات.. وعندما اتصلنا ببعض هيئات التلفزيون العربية لنستكشف استعدادها حتى لسداد رسوم محطات الأقمار الأرضية في بلدانها تخفيفا للنفقات، لم نجد أي تجاوب..

كنا نحاول أن نجمع ١٠ ملايين دولار لتمويل المشروع، ولكن ذلك لم يكن سهلا منذ البداية؛ إذ إن رجال الأعمال العرب كانوا قد اعتادوا الاستثمار في مجالات تقليدية في حين كان الاستثمار في مجالات الفضاء والتلفزيون لا يزال غريبا عليهم، وكنا قد اعتدنا من الكثيرين منهم أن يقابلونا بحماس مفتعل في المرة الأولى ثم يختفوا بعد ذلك، ولم أجد استثناء لذلك إلا مع جواد بوخمسين الذي كان مساعدوه في الكويت قد درسوا الملف جيدا، وطرحوا أسئلة محددة، كما أن الفنان الكبير محمد نوح أبدى حماسا شديدا للمشروع والمشاركة فيه، وقدم إستوديو «النهار» في القاهرة لتستخدمه شركتنا مجانا.. اتصلنا أيضا بشخصيات بارزة لها نفوذها مثل الأمير الحسن بن طلال ولي عهد الأردن بصفته راعيا لمنتدى الفكر العربي الذي كنت عضوا فيه، ومع مؤسسات يفترض أن تكون معنية بمشروع كمشروعنا مثل

معهد العالم العربي في باريس، وكذلك مع مؤسسات مالية كبرى وبنوك عربية، فلم يتجاوب من بينها سوى بنك مصر إيران للتنمية والبنك المصري الخليجي، لكن نَفَسَيْهما لم يكونا طويليْن بما فيه الكفاية..

خاطبت وقتها معظم المسئولين عن محطات التلفزيون العربية ووزراء الإعلام العرب، والتقيت غالبيتهم وتهرب مني آخرون.. أذكر أنني سافرت من باريس إلى «أبو ظبي» للقاء حدد موعده سلفا مع عبد الله النويس مدير تلفزيون «أبو ظبي»، وكان مقررا أن أغادر في اليوم التالي، إلَّا أنني عندما وصلت لم أجده وحاول أعوانه البحث عنه فلم يعثروا عليه، فاضطررت للعودة آسفا على تردي تقاليد الالتزام وقواعد اللياقة.. لكن رد معظم المسئولين كان إيجابيا، على الأقل في الظاهر، أما أولئك الذين كانوا يعنون ما يقولون فكانوا في أغلب الأحوال يطمعون في السيطرة على المشروع، وكان في مقدمة هؤلاء المسئولون في سوريا وفي ليبيا.. وكنت أتفهم مواقفهم، وأقول لهم إن من حقكم أن تسعوا لتحقيق مصالح بلدانكم، ولكن مصالحها لا تتحقق سوى من خلال مشروع مستقل مشترك.. وكان عبد العزيز الرواس وزير إعلام سلطنة عمان أكثر هؤلاء المسئولين وضوحا واستقامة، فقد قدم لنا عرضا صريحا.. قال: «إننا مستعدون لاستضافة المشروع بكامله في مسقط بحيث يبث من إستوديوهاتنا، فإذا ما قبلتم فنحن مستعدون لتحمل نفقاته بالكامل»، ولكنني اعتذرت شاكرا؛ من ناحية لأن الموقع غير عملي بسبب بعده عن الجمهور المستهدف، ومن ناحية أخرى لأنه سيوحي بأننا بعيدون عن الحياد، وسيفقدنا دعما ماديا ومعنويا من أطراف أخرى..

بالرغم مما واجهناه من مصاعب فقد ظل إيماننا بالمشروع لا يتزعزع، وكنا نعتقد أنه يتفرد بمزايا عديدة:

ـ أن المشروع ليس مشروعا حكوميا دعائيا؛ ولذلك فإن إيجابياته تفوق بكثير أي مشروع مماثل تابع لدولة ما أو مجموعة من الدول، أو واقع تحت تأثيرها..

ـ أن المشروع يأتي في وقت يتحرر فيه التلفزيون الغربي نفسه من القيود الحكومية، ويتجه إلى المنافسة بين الشركات الخاصة..

ـ أنه يتسق مع تطور الإعلام الدولي؛ حيث بدأت شبكات الكابل في نقل برامج تلفزيونية كاملة من دول أجنبية..

ـ أن برنامجنا يمثل إنتاج مجموع الدول العربية وليس جانبا محدودا منها فقط..

ـ أنه يلبي احتياجات مشروعة لجاليات كبيرة لا يمكن إنكار خصائصها المميزة وحقوقها الثقافية، ولا يمكن تجاهلها كسوق من الناحية التجارية..

ـ أنه يخاطب العرب والأجانب في وقت واحد؛ الأمر الذي يرغِّب فيه الشركات التي تقوم بتشغيل شبكات التلفزيون بالكابل..

ولكننا كنا في وادٍ وغيرنا في وادٍ آخر، ومع ذلك لم نيأس، بل إنه عندما قررنا أن يغطي المشروع الولايات المتحدة وكندا أيضا، نجحنا في إعداد الدراسات اللازمة على وجه السرعة بمعاونة يحيى أبو بكر مدير «المكتب الدولي لاستشارات المعلومات والإعلام» في نيوجرسي وكذلك «سبنسر مور» رئيس رابطة الإذاعات السابق في أمريكا الشمالية، وقد توصلوا إلى صيغة اتفاق مع شركات الكابل في البلدين لنقل برنامجنا.. وكنا على دراية تامة بالمصاعب التي ستواجهنا هناك والمقاومة الطبيعية للمشروع، خاصة من جانب المحال التجارية والنوادي التي تؤجر أشرطة الفيديو (بإيجار متوسطه دولار للفيلم في الليلة)، وكذلك من جانب أصحاب البرامج التلفزيونية المتواضعة التي كانت تبث وقتها عن طريق الكابل بالفعل (في مونتريال، مثلا، كانت هناك خمسة برامج عربية مدة كل منها ساعة تبث مرتين كل أسبوع من خلال القناة المخصصة لبرامج الطوائف العرقية).. ومع ذلك كنا على ثقة من نجاح مشروعنا إذا تم تنفيذه على النحو الذي اقترحناه..

في أواخر عام ١٩٨٧، كان سعد لبيب قد انتهى من وضع خريطة للبرامج بعد أن ناقش عددا من ممثلي الجاليات العربية ليتأكد من أنها ستلبي اهتماماتها، وكنا قد انتهينا من اتصالاتنا بشبكات الكابل وكذلك بمؤسسات الأقمار الصناعية وحددنا الأقمار التي تناسبنا وتفاوضنا للاتفاق على الإيجار المناسب لاستخدامها، ولكن توفير المال اللازم ظل متعذرا، فاتجهنا إلى طريق آخر للبحث عن موارد مالية.. ظننا وقتها أن خبرتنا بمجال اتصالات الفضاء تسمح لنا بالدخول في مجال تصنيع

أطباق الاستقبال الفضائية (الدش).. وبعد أن قام سيليج الشريك معنا بإعداد الدراسة المطلوبة، تأكد لنا أننا نملك الخبرة الكافية بالتعاون مع المؤسسات الصناعية الألمانية ومع شركة أمريكية في فلوريدا، وأننا يمكن أن نحقق من وراء ذلك أرباحا كافية لانطلاقة مشروعنا إلى حين أن نستكمل مساعينا لتمويل مراحله التالية..

هكذا توجهت إلى القاهرة؛ حيث كنا نتوقع أن تكون السوق المصرية هي أكبر سوق لهذه الأطباق، وأن تكون الحكومة المصرية في مقدمة الحكومات العربية التي ستسمح باستخدامها، واجتمعت بالدكتور محيي الدين الغريب، وكان وقتها رئيسا لهيئة الاستثمار، وطلبت منه التصريح لنا بإقامة مصنع لتصنيع (وليس تجميع) الأطباق الفضائية.. وقد تحمس الدكتور الغريب بصدق للمشروع، ولكنه كان يتطلب استئذان جهات سيادية وأمنية متعددة أدهشتني نزعتها الشديدة للانغلاق.. وكما هو معتاد في مصر فإن معظم هذه الجهات لجأت إلى الصمت، ولم ترد على أي من المكاتبات التي وجهت لها..

كان يأسي قد بلغ مداه عندما عدت إلى باريس بعد المقابلات التي أجريتها في القاهرة.. كنا في ديسمبر ١٩٨٧، أي إننا كنا قد قضينا أكثر من عام منذ أسسنا «أورينسات»، وكنا قد أنفقنا كل ما لدينا من مال، بل واقترضنا أيضا من علي السمان مبلغا آخر، وبدأ بعضنا في التململ، وطلب مني بولا سحب مساهمته، وكتب لي محمود الشريف خطابا رقيقا وإن كان قد أزعجني كثيرا؛ إذ كان يبحث عن مشترٍ لأسهمه.. وضاعف من يأسي أن المشروع الآخر الذي كنت مسئولا عنه، شركة تيبازا في الجزائر، لم يكن أفضل حالا.. لا، لم أندم أنني استقلت من اليونسكو، ولكنني أخذت أسأل نفسي إذا ما كنت قد سلكت الطريق الصحيح، ولم يخفف من أساي إلَّا يقيني أنني كنت أسبق عصري بسنوات، ومع ذلك فإن كان هذا يرضي كبريائي إلَّا أنه يعني في الوقت ذاته أنني لا أدرك تماما مدى عمق الدوامة التي أدور فيها..

في غمرة هذه الحيرة جاءتني مكالمة هاتفية من الدكتور محمد عبده يماني وزير الإعلام السعودي السابق، وكنت قد تعرفت إليه قبل ثماني سنوات عندما كنت أعمل في اليونسكو، والتقينا بعد ذلك أكثر من مرة في محافل إعلامية مختلفة وكذلك في مكتبه في الرياض.. كان الدكتور يماني مثالا لدماثة الخلق والسماحة، وكان دوره

مؤثرا في الإعلام السعودي.. قال الدكتور يماني إنه يود أن يراني، ويقترح أن يكون معنا في اللقاء الشيخ صالح كامل رجل الأعمال السعودي المعروف، وقال إنه هو والشيخ صالح الآن في لندن، وسألني إذا ما كنت أستطيع اللحاق بهما هناك في أول فرصة..

ذهبت إلى لندن في اليوم التالي، ولم أكن وقتها أعرف عن الشيخ صالح شيئا سوى أنه شقيق زوجة الدكتور يماني، وأنه مستثمر كبير في مجالات مختلفة، وأن لديه شركات إنتاج تلفزيوني مقر إحداها يوجد في القاهرة.. اصطحبني الدكتور يماني من فندق إنتركونتننتال حيث كنت أقيم إلى فندق هيلتون الذي كان يقيم فيه الشيخ صالح.. كان الرجل يعرف ما يريد تماما.. قال إنه مهموم بإطلاق قناة فضائية عربية في أوروبا، وإنه علم بمشروعنا وبأننا أعددنا له دراسة علمية شاملة، واقترح دمج المشروعين.. قلت إنني لا أملك اتخاذ مثل هذا القرار الهام، وإنني لا بد أن أستشير مجلس إدارة «أورينسات»، لكن عليَّ أولا أن أطلع على تصوركم لتنفيذ ذلك وشروطكم.. اتضح في النهاية أن الشيخ «صالح» يهدف إلى شيئين محددين؛ أن يشتري دراستنا مقابل ثلاثمائة ألف دولار تسدد أسهما في الشركة التي ينوي إقامتها لتنفيذ المشروع، وأن أقبل التعيين مديرا للشركة..

وضعت في موقف حرج بهذا العرض كما أنني وجدته مجحفا للغاية، فقلت إنه يحسن بي الانسحاب وترك الأمر للتفاوض بين الشيخ صالح وعلي شمو رئيس أورينسات، واستأذنت في الذهاب، لكن الدكتور يماني حاول أن يخفف عني فاقترح أن يتناول ثلاثتنا الغداء معا في مطعم مجاور.. كان الشيخ صالح أرق كثيرا مما توقعت، ثم زاد من تودده فطلب مني أن أصحبه لشراء بعض ملابس للعائلة بدعوى «إنك أكيد تعرف أحسن مني في الحاجات دي»، وبعدها اصطحبنا زوجته لزيارة صديق في لندن، وافترقنا على وعد باللقاء في باريس..

تبادل الدكتور يماني بعد ذلك المكالمات التلفونية مع علي شمو عدة مرات فلم تسفر سوى عن تحسين بسيط في العرض، هو دفع ١٠٠ ألف دولار لنا نقدا وما يعادل مائتي ألف أسهما في الشركة الجديدة، واتفقنا على أن يعقد اجتماع بين الجانبين في عمَّان في ٢ ديسمبر يحضره من جانبنا محمود الشريف ومحمد السنعوسي.. حضرت الاجتماع وحضر الشيخ صالح، وانتهينا إلى اتفاق أفضل قليلا برفع المبلغ

النقدي إلى مائتي ألف دولار.. ياللعار.. هذا ما أحسسته وأنا أغادر الاجتماع إلى فندقي في عمَّان.. كل هذه القامات في دنيا الإعلام تفشل في توفير المال اللازم لمشروع من المؤكد أنه هو الذي أوحى لكبار المستثمرين بالدخول في مجالات اتصالات الفضاء، ثم تنجح جهة أخرى في التهام كل هذا الجهد في لحظة لمجرد أنها تمتلك المال؟! لكنني أدركت بعد أن تضاءلت المرارات الشخصية مع مرور الزمن أن مشروعات الإعلام، خاصة بعد أن بدأ عصر اتصالات الفضاء، أصبحت تكلف مبالغ مالية هائلة لا يقدر على تحملها إلَّا المؤسسات المالية الكبرى أو الحكومات.. ومنذ تلك الليلة بدأت أعزي نفسي بأننا لم نكن نهدف من مشروعنا الربح، وإنما كنا نحاول الوفاء برسالة وأننا أدينا واجبنا وأسهمنا بما نستطيع، وعلى أي حال فإننا لم نخرج من الساحة تماما، وربما ننجح في أن يكون لنا دور ما في المستقبل..

هكذا تقبلت قرار اجتماع عمَّان عندما صرحت لي «أورينسات» بالعمل في شركة الشيخ صالح الجديدة، وفي اليوم التالي أبلغني الشيخ صالح أن الاجتماع التأسيسي للشركة سيعقد في الدار البيضاء في ١٧ ديسمبر..

وأنا في طريق العودة من عمَّان إلى الدار البيضاء قمت بالمرور على القاهرة، وهناك التقيت بسعد لبيب وريمون إسكندر لأطلعهما على مستجدات الأمور.. كان لقاؤنا في شيراتون الجزيرة (سوفيتيل حاليا)، وبينما نحن هناك جاءني رجل قدم لي نفسه «طوني نوفل»، من لبنان، وقال إنه يعمل مستشارا لشئون الاتصالات الفضائية لرجل الأعمال السعودي المعروف الشيخ وليد البراهيم (شقيق زوجة الملك فهد).. سألته إذا ما كان الشيخ وليد هو الآخر لديه أعمال في الاتصالات الفضائية، فانطلق سعد لبيب يسخر ضاحكا بصوت عالٍ على الرغم من وقاره المعروف وهو يقول: «كل القوم أصبحوا يعملون باتصالات الفضاء إلَّا نحن».. ظل وجه طوني جامدا كقناع من الجبس، واستطرد يقول لي إن الشيخ «وليد» يريد أن يجتمع بي، واقترح أن نجتمع في الثانية بعد منتصف الليل.. عاد سعد يقهقه مرة أخرى ويقول إن هذه أول مرة في حياته يسمع باجتماعات عمل في أنصاص الليالي، ولكنني وقعت في ورطة عندما فشلت في زحزحة الموعد حتى أستطيع النوم قليلا واللحاق بطائرتي في الثامنة صباحا لأتوجه إلى الدار البيضاء..

ذهبت إلى الفندق في الموعد حيث اجتمعت مع الشيخ وليد وشقيقه خالد في جناح خاص.. بدا على الشيخ وليد أنه يعرف الكثير عن مشروعنا في «أورينسات»، ولم يكن هذا غريبا بعد أن حدثنا كثيرين بشأنه ونحن نبحث عن التمويل، ثم قال: «سأسألك سؤالا مباشرا وأرجو أن تجيبني عنه بصدق: هل الشيخ صالح كامل مشارك معكم في مشروعكم؟».. قلت: «حتى الآن لا»، ولم أكن كاذبا في ذلك.. قال: «وهل لديكم اجتماع قريبا لشركتكم؟».. أجبت بالإيجاب، فاستطرد وهو يضيق عليَّ الخناق: «وهل هو مدعو للحضور؟».. قلت إننا لم ندعُ أحدا للحضور ولكننا أبلغنا عديدا من الأطراف التي كانت قد أبدت اهتمامها بمشروعنا أننا سنجتمع في وقت محدد ومكان محدد ليعلن من يريد المشاركة موقفه بصفة نهائية ويحدد مساهمته؛ ولذلك فأنا لا أملك إجابة.. قال: «إذن فلنواصل اجتماعنا في الغد»، فوعدته بأني سأحاول أن أجد طائرة أخرى تغادر القاهرة في المساء، وسوف أتصل به في كل الأحوال..

على الرغم من أن أسئلة الرجل كانت تنهال كما لو كان وكيلا للنيابة فإنه كان مجاملا للغاية وكانت أفكاره مرتبة وذكاؤه متقدا، ولذلك أرسلت له تلكس من المطار استخدمت فيه أرق العبارات لأعتذر عن عدم استطاعتي اللقاء به ثانية، وتوجهت إلى باريس ومنها إلى الدار البيضاء، وعندما أبلغت الشيخ صالح بما جرى قال: «إذن فالرجل لا بد أن لديه مشروعا هو الآخر»، وظل مهموما لوقت طويل.. كانت هذه أول مرة يسمع فيها بنوايا منافسه القوى صهر الأسرة المالكة..

بدأ الحاضرون في الاجتماع يتوافدون.. الدكتور يماني، ومحامٍ بريطاني يعمل مستشارا للشيخ صالح اسمه «بيتر ستيجلز»، وشخصان آخران (عبد الخالق عبيد الكاظم وهو عراقي والمصري محمد توفيق) كانت لديهما شركة اسمها «كاتاب» أعدا دراسة للمشروع فعين الشيخ صالح واحدا منهما مديرا لإدارة الهندسة والآخر مديرا لإدارة البرامج.. وفي الاجتماع عرضت علينا الخطة التي اقترحتها «كاتاب»، وكانت تتلخص في بث برنامج يومي لمدة ساعتين بعد الظهر (أي في وقت الإرسال الميت) على تردد في أحد أقمار إنتلسات يغطي بريطانيا وجزءا من الدول الإسكندنافية فقط.. لذلك اعترضت على الخطة، ووافق المجتمعون على اقتراحي بأن نمد ساعات الإرسال وأن نمد التغطية أيضا إلى فرنسا حيث توجد أكبر جالية

عربية في أوروبا وأن نمدها إلى دول المغرب العربي كذلك، ووافقوا بالتالي على استئجار قناة في قمر صناعي آخر..

وقبل نهاية الاجتماع قال الشيخ صالح إن الاجتماع القادم للمجلس سيحضره عضو آخر هو مستشاره حسين عنان، فسألت مندهشا: «حسين عنان رئيس اتحاد الإذاعة والتلفزيون في مصر؟» قال: «بالضبط».. فاجأني الخبر، وأخذت أتساءل بيني وبين نفسي: أين آداب الوظيفة الحكومية ولوائحها، وكيف يقبل رئيس أكبر مؤسسة إعلامية رسمية في مصر أن يعمل لدى مؤسسة إعلامية أجنبية لها تعاملات مع مؤسسته؟ ولم أفق من المفاجأة إلّا عندما دخل علينا المحامي البريطاني يعلن بصوت جهوري أنه انتهى خلال الاجتماع من تسجيل الشركة التي ستنفذ المشروع باسم LIMITED ENTERPRISE في جزر Isle of Man (واحدة من الجزر التي تمنح إعفاءات ضريبية هائلة) برأسمال قدره ٢٥ مليون دولار، وأن الشركة ستباشر عملها من لندن في منتصف الشهر.. وفي هذا الاجتماع تقرر تسمية المشروع باسم «مركز تلفزيون الشرق الأوسط» MBC..

عدت إلى القاهرة مع الشيخ صالح في طائرته الخاصة، وهناك قررنا إقامة مكتب للشركة في مصر، وقمنا بتعيين سعد لبيب مستشارا للبرامج وسيد عبد الرءوف الكاتب في جريدة الجمهورية مساعدا له وريمون إسكندر مسئولا عن التعاقد على البرامج..

لكن أمرا آخر كان ينتظرني في القاهرة، على قدر أكبر من الأهمية، هو مناقشة زوجتي في مسار حياتنا الجديد، والانتقال إلى لندن.. عندما استقلت من اليونسكو استقالت بهيجة هي الأخرى، وعدنا معا إلى القاهرة، وكنت أقدر وقتها أنني سأظل أتنقل بين القاهرة وباريس لمدة عام حتى أنجز مشروع «أورينسات» وأطلق قناته الفضائية، إلّا أن الأمور انتهت إلى ما انتهت إليه بالإقامة في لندن لأدير قناة MBC.. قابلت بهيجة قراري برفض مطلق، وكنت أتفهم موقفها تماما بعد أن غابت عن طفلتيها نحو عشر سنوات في باريس.. حاولت إقناعها بأن حياتنا في لندن سوف تسير كما سارت في فرنسا، وأن البنتين ستجيئان لنا هناك شهرا كل سنة وسنذهب نحن إليهما في القاهرة شهرا آخر، وقلت إنها في كل الأحوال لن تستطيع العيش في

القاهرة مع البنتين تحت سقف واحد طالما أن أباهما مصمم على إقامتهما معه، لكنها كانت قد بدأت حياة جديدة في مصر محورها الطفلتان..

ظللنا نناقش الأمر أياما انتهت باتفاقنا على الانفصال بعد زواج دام أكثر من ١٢ سنة.. إلى الآن لا يفارقني شعور بأنني كنت الجاني عندما حنثت باتفاقنا أن نعيش معا في القاهرة، ولكنني كنت أذكِّرها بأنني كثيرا ما قلت إن عملي له المرتبة الأولى في حياتي قبل أي شيء آخر.. إنه مصدر سعادتي وبالتالي سعادتنا، ومصدر المال الذي سيكفي حاجاتنا.. لم يخفف هذا من وزري، وعندما وقعت وثيقة الطلاق بكيت كما لم أبكِ في حياتي من قبل، وأخفيت عن أمي الخبر شهورا كما فعلت عندما انتهى زواجي السابق..

عندما غادرت القاهرة إلى باريس في اليوم التالي لم تكن باريس هي باريس التي أعرفها؛ إذ كيف يمكن أن أعيش فيها وهي في مكان آخر؟ لكن الحياة مضت كما هو مقدر لها.. ذهبت إلى هناك في الطريق إلى لندن كي أرتب شئوني الخاصة، وكان في مقدمتها إخطار مالك شقتي بأني سأنهي عقد الإيجار خلال الأشهر الثلاثة التي ينص عليها العقد كفترة إنذار.. وهناك اجتمعت أيضا مع الأطراف كافة التي كنت قد اتصلت بها من قبل لأبلغهم بوجهتنا الجديدة..

ما كدت أمكث في باريس عدة أيام حتى اتصل بي مكتب الشيخ صالح في جدة لإبلاغي أنه يود لقائي في القاهرة بصفة عاجلة.. عدت إلى القاهرة حيث اجتمعنا في مساء ١٣ يناير، ولم يتحرج حسين عنان في أن يعقد الاجتماع في مكتبه في ماسبيرو وبحضوره.. أطلق الشيخ قنبلة لم أكن أتوقعها بحال.. قال إن رئيس الديوان الملكي اتصل به من الرياض، وأبلغه أن الملك «فهد» يطلب منه ألَّا يستقل بمشروعه، وأنه لما كانت مجموعة البراهيم تدرس هي الأخرى البدء في مشروع مماثل في أوروبا فلابد أن يتفق الطرفان على إقامة شركة واحدة بينهما، وأن تكون هذه الشركة سعودية صرفة.. واستطرد يقول إنه يأسف كثيرا أن رئيس الديوان أبلغه أيضا تحفظه على وجودي في الشركة لأنني كنت قد هاجمت الملك فيصل في التلفزيون، ولأنه سبق لي أيضا أن عملت في ليبيا.. يا لسخرية الأقدار.. لو كنت يا شيخ صالح قلتها قبل أيام معدودة فقط لكانت حياتي العائلية قد أخذت مجراها..

صمت الشيخ قليلا فقلت: «إذن لننهِ كل شيء، وما عليكم إلَّا أن تسددوا التزاماتكم تجاه «أورينسات» بموجب العقود التي وضعناها وإن لم نكن قد وقعنا عليها حتى الآن.. لكنني قبل أن أتركك الآن أريد أن أوضح لك شيئا، لمعلوماتك الشخصية ليس أكثر، أنني لم أعمل في ليبيا من قبل، وأنك سوف تستبدلني على الأرجح بمدير للشركة من التلفزيون المصري، وأن هذا المدير لا بد أن يكون قد هاجم الملك فيصل أيام أن كانت مصر كلها تهاجمه في الستينيات».. حافظ الشيخ صالح على هدوئه، وأخذ يؤكد أنه يريد أن أستمر في العمل معه، وطلب مني أن أذهب إلى الشيخ وليد، الذي كان لا يزال في القاهرة؛ لأعيد ما قلت على مسامعه عله يتقبل الأمر ويسعى لدى الملك فهد لرفع تحفظه.. قلت: «يا شيخ صالح أنت تطلب المستحيل»، وذهبت..

اتصل الشيخ صالح بي بعد أيام ليسأل إذا ما كان ممكنا أن نلتقي في باريس يوم ٢ فبراير للاتفاق على تصفية الأمور، فذهبت وعقدنا الاجتماع بحضور علي السمان، ووعد الشيخ بسداد ما عليه، ولكنه طلب أن نقدم له تعديلا على الخطة التي أوردناها في دراستنا بحيث تأخذ في الاعتبار نتائج اجتماع الدار البيضاء.. وعدناه بأن نفعل، واتفقنا على سداد مستحقاتنا على الفور، وبدا الرجل كما لو كان حريصا على الإبقاء على الصلة فقال إنه مستعد للدخول مساهما معنا في «أورينسات»..

يبدو أن كل هذه المفاجآت لم تكن كافية، فقد أخرج الشيخ صالح من جعبته مفاجأة أكبر عندما التقينا وحدنا في اليوم التالي في مقهى «الفوكيه» في الشانزليزيه.. قبل أن يتفوه بكلمة قال: «دعنا أولا نقرأ الفاتحة أن ما سنتحدث فيه اليوم سنبقيه سرا بيننا».. قرأنا الفاتحة، وبدأ الرجل يفصح عن نواياه.. قال إنه سيطأطئ رأسه الآن للعاصفة وسيلتزم بدمج مشروعه مع مشروع آل البراهيم إلى حين، ولكنه يريدني أن أقوم معه الآن وفي سرية كاملة بتنفيذ مشروع آخر لتلفزيون عربي في أمريكا الشمالية، فإذا كنت مستعدا للعمل في المشروع الجديد فالأفضل عندئذ أن نبدأ بأقصى سرعة ممكنة، ونصحني بالسفر إلى الولايات المتحدة والبقاء فيها وفي كندا عدة أسابيع لأنهي الدراسة اللازمة، واقترح أن أبدأ بالسفر إلى لوس أنجلوس حيث سيكون في انتظاري هناك مدير مكتب شركة «البركة» في لوس أنجلوس، وهي شركة دولية

يملكها الشيخ صالح.. قلت إنني مستعد للسفر خلال يومين ولكنني سأبقى هناك لمدة أسبوع لإجراء الاتصالات الأولية، ثم أعود بعدها مرة أخرى للبقاء هناك حتى إنجاز الدراسة، وطلبت منه تحويل المبلغ اللازم لذلك..

ذهبت على نفقتي إلى لوس أنجلوس فدعتني مجموعة «البركة» إلى عشاء فاخر مع رجال أفاضل لكنهم لم يفيدوني كثيرا في مهمتي، ففضلت السفر على الفور إلى نيويورك ومنها إلى العاصمة الكندية «أوتوا» لأضع مع سبنسر ميرور خطة الدراسة وتكلفتها، لكن الأحوال تبدلت عندما عدت إلى باريس، فقد انقطعت الاتصالات بيني وبين الشيخ صالح تماما، وتصدر المحامي البريطاني المشهد، وبدأ في مراوغة طويلة انتهت بعرض ٣٠ ألف دولار كمكافأة لي، أما عن «أورينسات» فأبلغني أنها لا تستحق شيئا لأن الدراسة التي قدمناها ـ وكانت قد أنقذت الشيخ «صالح» من مشروعه الأصلي الذي ركز على بريطانيا ـ لا قيمة لها! رفضت العرض على الفور، لكنني لم أصدق أذنيَّ، واعتقدت لوهلة أن المحامي يمارس شطارة زائدة يتقرب بها من ولي النعم الذي لا يمكن أن يكون على علم بشيء من هذا كله.. حاولت الاتصال بالشيخ صالح، ولكن بلا جدوى، وهكذا لم يكن هناك بد من اللجوء إلى القضاء..

استشرت صديقتي الدكتورة سامية راشد أستاذة القانون بجامعة القاهرة فنصحتني بالاتفاق مع مكتب محاماة في لندن هو Frere Cholmeley، ونبهتني إلى أن ذلك قد يكلف كثيرا من الوقت وكثيرا من المال أيضا، ولكنني لم أتبين ذلك إلَّا عندما ترجمنا الدراسة بملاحقها إلى اللغة الإنجليزية، فتكلف ذلك وحده أكثر من ٢٠ ألف جنيه إسترليني.. كانت أول عقبة واجهها المحامون هي إخطار الشيخ صالح بضرورة سداد التزاماته أولا وإلَّا فسوف نحيل الأمر إلى القضاء.. حاول المحامون إرسال الإخطار على عنوان شركته الظاهر في العقد معنا، لكنهم لم يجدوا شركة بهذا الاسم في العنوان المحدد.. أخطرتهم باسم شركة أخرى تابعة للشيخ في لندن، كنا قد عقدنا في مقرها أكثر من اجتماع، لكن اسم الشركة لم يكن مطابقا لعنوانها.. أثناء ذلك كانت الإذاعية القديرة سامية صادق تتناول العشاء في بيتي في القاهرة، وعندما علمت منها أن ابنها يعمل في فندق يملكه الشيخ صالح في جدة طلبت منها أن تتصل به لنعرف أين نستطيع أن نجد الشيخ الآن.. بسلامة نية اتصلت سامية بابنها، ولم تمضِ ساعة حتى

أبلغنا بأنه يجري فحوصا طبية في مستشفى «لندن كلينك».. اتصلت بالمحامين في لندن، وفي الحادية عشرة مساء فوجئ الشيخ صالح بالإخطار يصله في المستشفى، وظل بعدها شهورا يشكو لكل من يلتقيه من معارفنا أنني لم احترم حرمة مرضه..

طالت فترة التقاضي بعدها، و«العداد يحسب»؛ إذ كان أجر المحامين يحسب بالساعة، وبدا واضحا أن التكاليف سترهقنا كثيرا في الوقت الذي لم يعد فيه فرنك واحد في حسابنا في البنك، فاتفقنا على أن يتطوع منا من يريد للإنفاق على القضية، فإذا كسبناها يعود الكسب على من أنفق وإذا خسرناها يتحمل هو الخسارة.. تصديت أنا وعلي السمان لهذه المهمة، وكانت سامية راشد قد حذرتني أن الأفراد العاديين لا يستطيعون الصمود عادة في ساحات القضاء أمام الشركات الكبرى؛ لأن هذه الشركات قادرة دائما على تجنيد أشهر المحامين، كما أن لديها إدارات قانونية تسهم هي الأخرى بما تستطيع.. وهذا ما كان؛ إذ اضطررنا إلى التسليم بالتفاوض خارج المحاكم على نحو ما اقترح حسين عنان، وتنازلنا عن القضية مقابل مائة ألف دولار، كانت في الواقع أقل كثيرا مما أنفقناه.. وضاع الحلم ، ومعه عامان من العمر.. ومع ذلك فلم تكن هذه آخر صلة لي بالشيخ صالح كامل..

أما الشيخ وليد البراهيم فقد دعاني وزوجتي في سبتمبر ١٩٩٦ لحضور الاحتفال بالذكرى الخامسة لمولد MBC في لندن، وكان الحفل الساهر قد أقيم في حديقة على نهر التيمز.. كانت هذه لفتة لم أتوقعها.. وفي اليوم التالي دعيت مع مجموعة محدودة من الأصدقاء لتناول الغداء في منزله في وسط لندن، ولكنه اصطحبني من يدي قبل أن ندخل إلى قاعة الطعام وأخذني إلى جوار حمام السباحة المغطى، وعندما جلسنا إلى جانبه قال: «يا أخ حمدي أنا عادة لا أحلف يمينا، لكنني سأحلف الآن»، ثم أقسم بالله العظيم ثلاثا واستطرد: «عندما أقمت مع الشيخ صالح MBC علمت منه بالطبع باتفاقه معك الذي ينص على الـ ٣٠٠ ألف دولار، ووافقت يومها على سداد المبلغ، ولم أكتفِ بذلك بل سددت المبلغ من حسابي الشخصي، وأرجو أن يكون قد وصلك في حينه».. قلت: «يا شيخ وليد أنا لم أعد أندهش لشيء، ولكن الإجابة عن سؤالك باختصار هي: لا، للأسف».. لكنني لم أكن متأكدا تماما على ماذا أسفت، على المال أم على صدق الرجال.. كانت صدمتي عصية على الوصف..

(١٦)

زهرة تتفتح

١٩٨٩ - ١٩٩٢

◆ ◆ ◆

قرر الوزير تشكيل لجنة رسمية لتحديد موعد
«الويك إند».. هل «الويك إند» هو الخميس والجمعة،
أم الجمعة والسبت، أم السبت والأحد؟

◆ ◆ ◆

طلبتني نجلاء في التلفون وقالت:
«أنا حاتجوزك النهاردة الساعة خمسة».

كانت ساحة التلفزيون العربي في أوروبا هادئة تماما حتى ظهر الشيخ صالح كامل والشيخ وليد البراهيم، وافتتحا مشروعهما «مركز تلفزيون الشرق الأوسط» MBC في عام ١٩٩١.. لم يكن هناك في أوروبا سوى القناة الفضائية المصرية التي بدأت إرسالها في ديسمبر ١٩٩٠، ومحطة عربية أخرى هي تلفزيون دبي الذي كان يبث من لندن من خلال شبكة بالكابل.. وفي حين كان المستثمران السعوديان ينطلقان بمشروعهما من لندن أيضا، ويدرسان إذا ما كانا سيهتمان ببريطانيا وحدها أم إن إرسال قناتهما سيغطي غرب أوروبا أو بلدانا محدودة فيها، دخل إلى الساحة مستثمر جديد لديه خطة أخرى.. القادم الجديد كان فؤاد الفيلالي رئيس مؤسسة «أونا» ONA، أكبر الكيانات الاقتصادية في المغرب، والأهم أنه زوج ابنة ملك المغرب الكبرى لالا مريم وابن عبد اللطيف الفيلالي رئيس وزراء المغرب ثلاث مرات ووزير خارجيته خمس مرات.. وكان فؤاد الفيلالي قد حصل من الحكومة المغربية على ترخيص لقناة تلفزيونية ثانية (بعد الأولى الحكومية) سماها 2 M، تبث برامج عربية وفرنسية، ويأتي دخلها من الإعلانات واشتراكات المشاهدين..

أقيمت لهذا الغرض شركة باسم شركة البحوث والتنفيذ السمعي والمرئي «سورياد» SOREAD يملك الفيلالي وبعض صغار المساهمين المغاربة ٥١٪ من أسهمها، في حين ساهمت مجموعة شركات فرنسية بباقي الأسهم.. قررت «سورياد» أن يكون إرسالها بالقمر الصناعي، وأن يغطي المغرب وكذلك بقية دول شمال إفريقيا، وأن يبث بشبكات تلفزيون الكابل في فرنسا.. وعندما بدأت الشركة إرسالها في مارس ١٩٨٩، تعثر تقدمها في فرنسا لفترة طويلة، ثم اشترتها الحكومة المغربية فيما بعد وأضافت إلى برامجها برامج باللغة الأمازيغية، وقررت إلغاء الاشتراكات وقدمت خدمتها التلفزيونية مجانا..

بعد بدء الإرسال اتصلت بي ياسمين، شقيقة فؤاد التي كانت مديرة تنفيذية للمشروع في بدايته، وهي شابة متألقة في أواخر العشرينيات من عمرها، ودعتني

لزيارة تعارف إلى الدار البيضاء حيث مقر الشركة الذي سألتقي فيه بشقيقها فؤاد.. التقينا في الصباح، وفي المساء دعيت إلى منزل والده، السياسي العتيد صاحب الباع الطويل في شئون المغرب العربي، وشاركتنا الجلسة زوجته ذات الأصول الإيطالية.. وقبل عودتي إلى القاهرة وقعت مع الشركة عقدا لأكون مستشارا لها في الشرق الأوسط على أن يكون مقري في القاهرة..

قضيت عدة سنوات أقوم بهذا العمل، أختار لهم أفضل ما تنتجه محطات وشركات التلفزيون في المشرق العربي، وأنوب عنهم في توقيع الاتفاقيات، وأشاركهم بالمشورة والاتصال بجهات عربية ودولية مختلفة.. وعلى الرغم من أن ذلك كان يستدعي الكثير من التنقل، فإنه لم يكن يشغل إلّا جانبا محدودا من وقتي.. لذلك قبلت الدعوة لحضور مؤتمرات عديدة بعضها لم يكن مفيدا، ولا حتى مسليا..

كنت أخشى في النهاية أن أدمن حضور المؤتمرات بداعٍ وبغير داعٍ مثل البعض ممن أعرفهم.. أحدهم كان يقضي وقته في المؤتمر بسماع الموسيقى من جهاز يضعه في جيبه في حين يضع سماعات على أذنيه كأنها سماعات الترجمة الفورية.. وآخر كان يقضيه في كتابة الخطابات (إلى زوجته كما لابد أن يتبادر إلى الذهن) وكأنه يسجل كل كلمة تقال في الجلسات.. أعرف أيضا واحدا، وهو مهندس اتصالات دولية بارز، كان يضع على عينيه نظارة سوداء لينام معظم الوقت من خلفها، وثانٍ كان يختار في قاعة المؤتمر أقرب كرسي إلى بابها حتى يتسلل إلى خارجها عندما يشاء دون أن يلحظه أحد.. وهناك أيضا من كانوا يبغون من وراء المؤتمرات أغراضا أخرى، كأن يسوِّقوا كتبهم، أو ينشروا صورهم في الصحف والأوراق في أيديهم، أو ينفسوا عن كبتهم إذا كانوا محاصرين في بلدانهم، أو أنهم يحضرون مؤتمرا ما ليرتبوا الحضور في مؤتمر آخر..

كنت أذكِّر نفسي عند السفر بهؤلاء جميعا حتى لا أصبح واحدا منهم.. ومع ذلك فقد أضعت كثيرا من الوقت في الطائرات.. وعندما أرجع اليوم، مثلا، إلى أجندة عام ١٩٨٩، أجد أنني سافرت خلالها خمس مرات إلى الكويت وأربعا إلى الجزائر وثلاثا إلى باريس ومرتين إلى لندن، ومثلهما إلى المغرب، وكذلك مرة إلى الإمارات

وأخرى إلى الأردن.. منذ أن بدأت حياتي العملية كانت معظم الأعمال التي توليتها تتطلب مني التنقل من بلد إلى آخر.. كان السفر ولا يزال بالنسبة لي متعة حتى وأنا مقبل على أثقل المهام ظلا، بالرغم من تأخير الطائرات أو ضياع الحقائب أو إجراءات التفتيش التي زادت عن الحد بعد ١١ سبتمبر.. يكفي أن أدخل الطائرة حتى تزول الهموم، وعندما أخرج منها إلى بلد جديد أحس بالانتعاش..

لا أتذكر تماما الآن لأي سبب كانت كل هذه الأسفار في عام ١٩٨٩.. الذي أعرفه أن العديد منها أسفر عن فشل ذريع، منها مثلا زيارتي للشيخ حميد بن راشد النعيمي حاكم إمارة عجمان للتشاور بشأن إقامة محطة تلفزيون خاصة لم يقدر لها أن ترى النور، ومنها زيارة إلى الكويت مع صديقي الدكتور محمد مذكور حيث كنا ننوي الدخول في عطاء لإقامة شبكة معلومات في إحدى الوزارات، لكن الوزارة صرفت النظر عن المشروع.. وكانت شركة «تيبازا» الجزائرية التي كنت عضوها المنتدب تتعثر هي الأخرى في ذلك الحين..

في القاهرة، كانت لديَّ شركة خاصة باسم «المكتب العربي للاتصال» منذ السبعينيات لم أقم من خلالها بنشاط يذكر من قبل، فقررت تفعيلها لعلني أستطيع أن أحقق شيئا من ورائها، وكان لطفي الخولي أول من كلف هذه الشركة بعمل، وإن كان متواضعا للغاية.. كانت علاقتي بلطفي فريدة من نوعها، إذ بينما كنت أنتمي إلى التيار القومي المتشدد خاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، كان هو قطبا بارزا في جماعة «كوبنهاجن» التي روجت لحل الصراع العربي الفلسطيني بكثير من الاعتدال الذي يتناسب مع اتفاقيات السلام الموقعة بين مصر وإسرائيل، وكان على علاقة وثيقة بمبارك في حين لم أكن أنا من أنصاره.. كنا نختلف كثيرا، ولكنني كنت أحترم تاريخه النضالي وأقدر كتاباته، وكنت أعجب بقوة شخصيته وقدرته على التراجع في آن..

كان لطفي الخولي وقتها يشرف على صفحة «الحوار القومي» في جريدة الأهرام ويكتب فيها عمودا بعنوان «اجتهادات»، وكان يشغل أيضا منصب الأمين العام لاتحاد كتاب آسيا وإفريقيا الذي كان قد تضاءل دوره كثيرا في تلك السنوات.. حاول الخولي بث النشاط في الاتحاد، وكان من بين ما قام به عندئذ تنظيم مؤتمر باسم «المؤتمر

الدولي للفكر والإبداع».. وبعد أشهر قليلة سعينا معا حتى نقيم بنكا للفقراء، وهو المشروع الذي كان يرعاه الأمير طلال بن عبد العزيز.. لكن سوزان مبارك كانت حانقة على الأمير منذ أقام «المجلس العربي للطفولة والتنمية» في القاهرة، وتعدى بذلك على سلطانها في مملكة الأطفال.. وهكذا فعندما علمت بمشروع البنك أعلنت الحرب عليه، إذ «كيف لأمير سعودي أن يعايرنا بفقرائنا؟».. وعلى الرغم من أننا كنا قد قطعنا شوطا طويلا في المشروع، وأوضحنا لها ولغيرها أن اسم البنك لن يكون «بنك الفقراء» وإنما «بنك الأمل»، فقد كان كافيا للمسئولين هنا وهناك أن يصلهم من طرف أو آخر أن «الهانم» ليست راضية عن البنك.. وهكذا وئد المشروع، بعد حمل مرهق، قبل أن يولد..

شغلني لطفي الخولي معه أيضا بمشروع إقامة قرية الكتَّاب، عندما حصل باسم اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا على أرض صحراوية خلف مزارع دينا على طريق الإسكندرية الصحراوي لتقام فيها هذه القرية التي كان يحلم أن تكون مجتمعا قائما بذاته، يتملك فيها كل فرد عشرة أفدنة، يستصلحها للزراعة ويقيم وسطها فيلا صغيرة.. ولم تمضِ سنوات قليلة حتى تم بناء الفيلات جميعا، ولكنني كنت قد فقدت الحماس للمشروع، وقلت للطفي الخولي إننا كلما تقدمنا في السن فلا بد أن نكون قريبين من الأطباء في القاهرة، وأعدت الأرض والفيلا للقرية مقابل ما سددته..

منذ زمن طويل لم أكن ميالا للتملك، ولم يبهرني أي من المشروعات في الساحل الشمالي أو في غيره على الرغم من إلحاح الإعلانات البراقة، وكنت دائما ما أرى أن بيتا إضافيا لا يعني إلا متاعب زائدة لمباشرة الحراسة والصيانة وما إليها، والواقع أنني كنت قد اعتدت التنقل الدائم بين عواصم العالم خلال عملي في اتحاد الإذاعات ثم في اليونسكو واستسغت الإقامة في الفنادق، وبالإضافة إلى ذلك فلم يكن لديَّ أولاد لأورثهم عقارا هنا أو هناك.. هكذا اكتفيت بالشقة التي اشتريتها في الزمالك عندما تركت باريس وعدت للإقامة في القاهرة، وكنت قد أقمت نحو عشرة أشهر في فندق أيضا حتى يتم تجهيز الشقة..

نصحني سعد لبيب عندما بعت نصيبي في قرية الكتَّاب أن أضع فلوسي وديعة في البنك، وكان يرى أن هذه هي أفضل وسيلة للاستثمار وتجنب وجع الدماغ، ولكنني

التقيت في اليوم التالي صديقي القديم زميل كلية الطب الدكتور محمود طلعت، وكان قد أصبح أستاذا للطب منذ زمن، وتملك جانبا معتبرا من أسهم مستشفى مصر الدولي، ولعب بالمال هنا وهناك.. كنت قد ذهبت إلى المستشفى لفحص على الكلى فوجدته هناك.. يومها حكيت له عن بيع فيلا قرية الكتَّاب فهنأني على ذلك، وقال إن لديه «لقطة».. هناك عمارة فاخرة بنيت حديثا إلى جوار فندق شيراتون في الجيزة، بها شقة خالية إذا ما اشتريناها اليوم فسوف يمكننا بيعها بضعف سعرها في عام واحد، وهي شقة في الطابق السادس مجاورة لشقة الوزير فاروق حسني، وفوقها وتحتها شقق أخرى اشتراها فنانون ومسئولون نافذون.. اشترينا الشقة مناصفة، ولم نكتفِ بذلك بل أسسنا أيضا شركة بالمناصفة دون أن نعلم تماما ما الذي سنفعله بها، وما إن مرت بضعة أشهر حتى أقدم ابن محمود على الزواج وبدأ البحث عن سكن، فانتهزت الفرصة واقترحت أن يأخذ شقة الجيزة، ويعطيني ما دفعته.. هكذا أزحت عبئا عن كاهلي، وانزاح من بعده عبء الشركة أيضا، ولم نكن قد قمنا فيها بمشروع واحد..

كنت قد أيقنت وقتها، خاصة بعد تجربة «أورينسات»، أنه ليس لي في دنيا المال والأعمال ناقة ولا جمل، وهكذا بدأت أهتم بالكتابة لصحف مختلفة بينها الأهرام والعالم اليوم والأخبار وأخبار اليوم.. ودعاني مفيد فوزي عندما كان رئيسا لتحرير مجلة «صباح الخير»، لكتابة عمود أسبوعي باسم «نافذة حمدي قنديل»، ولكنني أوقفت كتابته عندما تعرض مفيد لغضب أصحاب السلطان، وتعرض العمود للقص واللصق.. مفيد وأنا من جيل واحد في الصحافة، وكنا قد ترافقنا في العمل في ماسبيرو منذ أوائل الستينيات عندما بدأ هو بالعمل معدا لبرامج ليلي رستم، وظللنا على صلة حتى أصبح هو «المحاور الأول»، وكانت علاقتنا طيبة، وإن كنا لم نلتقِ سوى مرات معدودة.. وكنت دائما ما أقول إن «مفيد» يقدم صحافة تلفزيونية متميزة في برنامجه «حديث المدينة» ويعالج فيه قضايا تهم الناس، وأعتقد أنه كان حريصا على أن يقدر العمل الذي أقوم به، لكنه كان سريعا ما يستفز بواسطة الصحفيين الذين يجرون معه الأحاديث، وعندئذ ينزلق في التعليق، فمرة يقول إن برامجي برامج صالونات موجهة للصفوة وحدهم في حين أن عمله موجه للبسطاء، ومرات أخرى يتعدي تقييم العمل ليخوض فيما لا داعي للخوض فيه..

ولكنني أشهد أنه يملك أحيانا شجاعة الاعتذار، فقد انتقد في «أخبار اليوم» منذ سنوات هجومي على مؤتمرات مبارك في شرم الشيخ عندما كنت أقدم برنامج «قلم رصاص» من دبي، ولكنه عاد واعتذر عن ذلك بعد الثورة في مقال في «العالم اليوم».. وقد أسفت أنني لم أقرأ مقاله الأخير في حينه حتى أشكره..

عندما توقف نشر مقالاتي في «صباح الخير»، قررت أن أطرق مجالا آخر للكتابة، بعد أن عدت في إحدى ليالي الفراغ إلى أشيائي ودفاتري القديمة، ووجدت الكيس الذي احتفظت فيه بمفاتيح الفنادق التي أقمت فيها.. بدأت أعد المفاتيح فوجدتها ١٦٣ مفتاحا من بلدان مختلفة.. سارعت أطلب نجارا أعرفه ليعد لي لوحة خشبية يكسوها بجوخ أخضر مثل لوحات المفاتيح خلف مكاتب الاستقبال في الفنادق القديمة؛ لأضع هذه اللوحة على جدار ما في البيت.. لكن فكرة أخرى راودتني، لماذا لا أحاول كتابة مسلسل بطله شاب يلتقط هذه المفاتيح من الفنادق التي يرتادها، ثم يعود كهلا بعد عشرين عاما مثلا فيذهب إلى الفندق نفسه ويستخدم المفتاح نفسه ليفتح الغرفة نفسها (على الرغم من أن مفتاحها أصبح إلكترونيا)، وعندما يفتح الباب تبدأ قصة تختلف من حلقة إلى أخرى.. استغرقت في الكتابة عدة أسابيع، ولكنني لم أستطع الانتهاء من الحلقة الأولى، فمزقت الأوراق جميعا..

اجتذبني مجال الإعلان أيضا لعدة أشهر.. كانت القناة الفضائية المصرية قد أُطلقت في عام ١٩٩٠ فتقدمت بشركتي لاعتمادها بين الشركات التي تجلب الإعلانات للقناة، وشجعني على هذا الصديق أحمد ناصر المعلق الرياضي، وكانت لديه وكالة إعلانات باسم «شامبيون».. واستطعت جمع كثير من الإعلانات في فترة قصيرة، ولكنني وجدت أن دنيا الإعلان حاشدة بالتربيطات والدهاليز التي لم يكن لي قِبَلٌ بها، ولم أسترح للتعامل مع بيروقراطية ماسبيرو على الرغم من أن المسئولين عن القطاع المختص كانوا يعاملونني معاملة خاصة باعتباري زميلا قديما.. لفت نظري حينئذ أنه على الرغم من أنني كنت أتردد على المبنى بين حين وآخر فإن أحدا من المسئولين عن التلفزيون لم يعرض عليَّ أن أعود لتقديم برنامج ما، وإن كانت الإذاعة قد طلبت مني تقديم برنامج أسبوعي في إحدى دوراتها البرامجية..

فجأة جاءتني مكالمة من مكتب صفوت الشريف.. الوزير يريد أن يراني.. ذهبت في اليوم التالي فاستقبلني صفوت الشريف مهللا، ولم أكن قد قابلته منذ كان وكيلا لهيئة الاستعلامات في أواخر السبعينيات.. قادني إلى صالون استقبال خاص مجاور لمكتبه حرص على أن يقول لي إنه مخصص لمقابلاته الهامة عندما يريد أن يتجنب الاتصالات التلفونية، ثم قال إنه لم يطلب مقابلتي ليبحث موضوعا محددا.. كل مايريده أن يطمئن إلى ما فعله بي الزمان في السنوات السابقة.. أيقنت أنه سيسعد برواياتي عن صالح كامل الذي كنت أعلم أنه لا يكن له كثيرا أو قليلا من الود، ولكنني اختصرت الرواية قدر ما أستطيع.. وبعد أن شربنا كوبين من عصير الليمون المثلج ضحك ضحكة عريضة وهو يقول لي: «على فكرة.. أنت مدين لي بأني أنقذتك منذ أيام من ورطة كبرى».. خير يا صفوت بك.. استطرد: «كنا ندرس الترشيحات لرئاسة التلفزيون، وكان اسمك بينها».. صمت قليلا حتى يتبين وقع الخبر، ولكنه لم يكن جديدا بالنسبة لي؛ إذ كان ابن خالي اللواء محمد حلاوة، الذي كان يعمل وكيلا للرقابة الإدارية عندئذ، قد أبلغني به من قبل، وقال إن اسمي كان على رأس قائمة المرشحين الثلاثة التي خرجت من الرقابة..

قلت: «ياه.. يبدو أن حياتي في القاهرة يا صفوت بك ستكون ملأى بالمفاجآت».. سارع إلى القول: «ولكنني قمت باستبعادك على الفور.. قلت للجالسين معي إن حمدي لن يقبل رواتبكم بعد أن اعتاد على العملة الصعبة».. كظمت غيظي قدر ما أستطيع وقلت: «أنا مدين لك فعلا يا صفوت بك أنك أنقذتني من متاعب لا حد لها إذا ما كنت قد قبلت هذا المنصب، لكنني لا أشك في أنك تعلم تماما أن الرواتب بالعملة الصعبة لا تقارن بالموارد المنظورة وغير المنظورة التي تنهال من كل جانب على أصحاب المناصب في هذا المبنى.. يا صفوت بك الحمد لله أنني لا أطمع في رئاسة التلفزيون، وأفضل الحياة حرا ولو لحين بعد ١٥ سنة من عناء العمل في المؤسسات الدولية».. قاطعني وهو يؤكد: «أعرف، أعرف تماما».. ولكنني لم أفوت الفرصة لأؤكد له أن هناك كثيرين من المصريين في الخارج يودون لو خدموا بلدهم بصرف النظر عن الأجر.. وعندما قال إنه على استعداد لمعاونتي في أي مشروع لي في المستقبل كدت أن أصدقه..

سرعان ما أتت الفرصة لاختبار ذلك عندما اتصل بي المهندس صلاح دياب (مؤسس المصري اليوم فيما بعد) ليعرض عليَّ واحدا من مشروعاته الجديدة.. صلاح كان وقتها رجل أعمال بارزا، وكنا قد تصادقنا منذ عدت من باريس وتزاورنا مرات نحن وعائلتانا.. أذكر أنه كان وزوجته في بيتي يوما عندما التفت لي ولزوجتي وقال: «تعرفان ما أمنيتي في الحياة؟ أن أصبح نجما مثلكما».. وفي مرة أخرى، وكان ذلك منذ أكثر من عشرين سنة، قال: «لن يكون اليوم بعيدا عندما أصدر جريدة يومية تتصدر الصحف في مصر» (بعدها بنحو عشر سنوات أصدر «المصري اليوم» في عام ٢٠٠٤).. كنت دائما معجبا بتصميمه وإرادته وكذلك بتعامله مع الحياة بخفة، في حين ينوء ظهره بأعمال في مجالات لا رابط بينها..

في كل الأحوال كنت سعيدا عندما أخبرني بمشروعه لأني سأعمل معه عن قرب.. كان يومها يتحدث بصفته عضوا منتدبا للشركة «المصرية للاستثمارات المتعددة»، وهي شركة استثمارية مشتركة بين داري «الأهرام» و«أخبار اليوم» كانت قد أسست حديثا، وكانت تهدف إلى استثمار أموال المؤسستين في مجالات مختلفة بهدف زيادة مواردهما، وبالتالي الحفاظ على حرية الصحافة من الضغوط المالية، وكان من الطبيعي أن يكون في مقدمة المجالات التي تهتم بها الشركة مجال الإعلام، لذلك قال صلاح دياب إن الأهرام وأخبار اليوم يريدان إطلاق قناة تلفزيونية ترتكز إلى الطاقات الكبيرة المتوافرة لديهما، وأنه يريد مني أن أعد له دراسة جدوى..

في ذلك الوقت كانت هناك بعض العوامل المشجعة على البدء في المشروع؛ إذ كانت هناك بشائر تنبئ بالتوسع في الحريات الإعلامية، وكان القطاع الخاص ينمو ويدخل مجالات جديدة، وفيما يتعلق بمؤسستي الأهرام وأخبار اليوم ذاتهما فقد كانت لديهما كفاءات صحفية وفكرية وإدارية متميزة، كما أن كلا منهما كانت لديه وكالة إعلان لها مكانتها الراسخة في مجال التلفزيون، ومن ناحية أخرى فإن من مزايا المشروع أيضا أنه يمكن استغلاله للترويج لصحف ومجلات المؤسستين..

جمعت فريقا من الخبراء على رأسهم سعد لبيب وهمت مصطفى وريمون إسكندر والمهندس الإذاعي البارز فاروق إبراهيم لإجراء الدراسة.. ولم تكن في مصر شركات

تلفزيونية خاصة في ذلك الحين سوى «الشركة المصرية للأخبار» CNE، وكانت قد أنشئت في عام ١٩٩٠ برأسمال قدره مليون و٦٠٨ آلاف جنيه، وكانت محطة تلفزيون CNN الأمريكية تشارك فيها بنسبة ٣٥٪، أما المشاركة المصرية فكان معظمها يأتي من اتحاد الإذاعة والتلفزيون (٦٠٪).. كانت الشركة تبث قناة CNN وقناة MTV الموسيقية إلى القاهرة الكبرى، وكان المشاهدون يتلقون برامجها مقابل اشتراكات، وكان عددهم لا يزيد عندئذ على ٢٩٠٠ مشترك..

انتهت دراستنا المبدئية إلى تقديم اقتراح واقعي الهدف منه تحقيق المشروع في أقرب فرصة ممكنة، هو إقامة محطة إرسال فائقة القدرة تغطي القاهرة الكبرى، باعتبار أن هذه المنطقة تمثل ربع سكان البلاد، وتستهلك أكثر من ٦٠٪ من السلع، وأكثر من ٥٠٪ من توزيع الصحف.. اقترحنا أن تقدم المحطة مزيجا من البرامج يعطيها شخصيتها المميزة، يعتمد في المنتج المحلي على برامج الصحافة التلفزيونية وبرامج المنوعات والأفلام، وفي المنتج الأجنبي على البرامج الموسيقية والغنائية وعلى مسلسلات وأفلام منتقاة وعلى برامج من القنوات الدولية في مقدمتها نشرة أخبار BBC بمدتها نفسها وفي ذات وقت إرسالها.. ورأينا كذلك أن تكون مدة الإرسال سبع ساعات يوميا عدا الجمعة الذي يمتد فيه الإرسال إلى عشر ساعات، واقترحنا فترة إرسال صباحية يومي الجمعة والسبت.. وبعد أن اقترحنا أن يكون الإرسال مفتوحا (بلا اشتراكات) وقدرنا التكاليف الاستثمارية ونفقات التشغيل وكذلك الإيرادات المحتملة، انتهينا إلى أن القناة يمكن أن تحقق ربحا من عامها الأول إذا توفرت لها ٣٠ دقيقة إعلان يوميا..

لقيت الدراسة قبولا من الأهرام وأخبار اليوم، وهكذا بدأت مع رئيسي المؤسستين؛ إبراهيم نافع وإبراهيم سعدة ومع صلاح دياب، اتصالاتنا بالجهات المسئولة، وكان في مقدمتها بالطبع وزارة الإعلام، لكننا فوجئنا بعقبات متعددة أوقفت المشروع تماما.. ذهبنا نشكو إلى صفوت الشريف، فإذا به يعترف بالعقبات ويرجع بعضها إلى جهات سيادية وبعضها الآخر إلى حداثة عهد مصر بالتلفزيون الخاص، وبعد أخذ ورد تطوع بمقترح جديد تماما.. لماذا لا تستأجرون منا في مواعيد محددة إحدى قنواتنا لتبثوا عليها برامجكم؟ رحبنا على الفور، فبدأ يتحدث في التفاصيل: أن يكون

مقر المشروع في المقطم حيث توجد إستوديوهات للتلفزيون لا تستخدم منذ فترة ـ أن تكون البرامج مختلفة في الشكل والمضمون عما يذاع في القنوات الوطنية ـ لن يفرض على المشروع أي من العاملين في التلفزيون المصري ـ يتمتع المشروع بقدر من الحرية موازٍ لما تتمتع به الصحف القومية ـ يشارك التلفزيون في رأسمال المشروع بمساهمة عينية (إستوديوهات ومعدات).. وهكذا انتهى الاجتماع إلى تشكيل لجنة تضم الجانبين لبحث التفاصيل..

جلست طويلا في هذه اللجنة إلى حسن عبد الفتاح رئيس قطاع الشئون المالية والاقتصادية في اتحاد الإذاعة والتلفزيون الذي فوضه صفوت الشريف للتفاوض، وأخذنا نبحث بدائل عديدة من بينها أن نحصل على إحدى القنوات في غير وقت إرسالها، أي قبل بداية البث أو بعد انتهائه، ولم يكن هذا هو الحل الأفضل لكنه الحل الوحيد المتاح.. في ذلك الوقت، كانت القنوات القائمة محددة بالقناتين الرئيسيتيْن الأولى والثانية بالإضافة إلى ثلاث قنوات محلية هي القناة الثالثة التي تغطي منطقة القاهرة الكبرى، والرابعة الخاصة بالقناة وشرق الدلتا، والخامسة التي تبث إلى الإسكندرية وغرب الدلتا.. وكانت القناتان الرئيسيتان تبدآن إرسالهما في العاشرة صباحا ولا تنتهيان منه قبل الثانية صباحا تقريبا، أما القنوات المحلية فكانت تبدأ في الإرسال حوالي منتصف الظهر وتختتمه في منتصف الليل..

لكن المفاجآت لم تنقطع، فقد أتى عبد الفتاح ذات يوم وقد انبسطت أساريره ليسوق لنا حلا آخر.. سيادة الوزير يقول إنه لا مانع لديه من الحل الذي اقترحته مع الأستاذ إبراهيم نافع والأستاذ إبراهيم سعدة في الشهر السابق: أن تأخذوا إحدى قنواتنا في عطلة نهاية الأسبوع.. بدأنا سلسلة أخرى من الاجتماعات، حددنا فيها رأسمال الشركة التي سنقيمها معا، والنفقات والإيرادات المتوقعة، ونوعية البرامج بل وخريطة البرامج أيضا، لكن الأمر تعثر في النهاية بسبب عدم استطاعتنا تحديد موعد العطلة، وهكذا ما كان من الوزير إلّا أن شكل لجنة فرعية لتحديد موعد «الويك إند»، وهل «الويك إند» هو الخميس والجمعة، أم الجمعة والسبت، أم إنه السبت والأحد؟ ولم تنعقد اللجنة، ووضع المشروع على الرف إلى يومنا هذا..

ربما كان هذا هو أهم عمل قمت به في السنوات الثلاث بين ١٩٨٩ و ١٩٩٢، وعلى الرغم من ذلك فقد انتهى إلى لا شيء؛ لذلك أنظر دائما إلى هذه الفترة من حياتي باعتبارها سنوات ضائعة، لم أنجز فيها مشروعا واحدا ناجحا، وتاهت مني بوصلة المستقبل، وراح وقت ليس بالقليل منها في محاولات فاشلة، وأسفار وإجازات، وزيارات لأصدقاء قدامى وتلبية دعوات من المعارف.. واحدة من تلك الدعوات كانت من أحد رجال الأعمال الكبار الذي كان يحتفل بعيد ميلاده، وكان قد أقام الحفل في مزرعته في أطراف القاهرة ودعا إليه ما يسمى بصفوة المجتمع.. راعني يومها البذخ ومظاهر السفه حتى إن قطع «السومون فيميه» كانت مدلاة من أغصان الشجر، والطعام المستورد مكدس على الموائد والشراب بلا حساب.. وفي طريقي للعودة صدمتني المفارقة وأنا أمر ببيوت القرية المجاورة وحواريها العطنة وناسها الذين ينضح لباسهم بالبؤس والعوز.. ترى فيمَ يفكرون وهم يرون قصر جارهم وحديقته تتلألأ بكل تلك الأنوار، تصدح منها الموسيقى الغربية، ويتوافد عليها كل هؤلاء الغرباء بسياراتهم الفارهة وملبسهم الذي لا تراه سوى في الأفلام؟

في ذلك الوقت، سنة ١٩٩٠، لم تكن الأوضاع في مصر قد تردت إلى الحد الذي يوحي بأن الغضب قادم، ولم أكن قد أعلنت معارضتي للنظام بعد.. كنت متوجسا من بدايات سياسة الخصخصة وبعض موجات الاعتقالات، ولكنني كنت أترقب.. ويدهشني الآن كيف كانت اهتماماتي بعيدة عن النشاط السياسي إلى هذا الحد..

كنت في كثير من الأحيان أشغل وقتي بأعمال جلها تطوعي، مثل رئاسة جمعية «محبي الفنان صباح فخري» في القاهرة، أو عضوية اللجنة العليا للقناة الفضائية المصرية، أو إلقاء محاضرة هنا أو هناك، أو الإشراف على إدارة الإعلام في دورة من دورات مهرجان القاهرة السينمائي الدولي.. كان كاتبنا الكبير سعد الدين وهبة عندئذ هو رئيس اتحاد الفنانين العرب، وكان أيضا رئيسا لمهرجان القاهرة.. كان يعتقد أن خبرتي في اليونسكو يمكن أن تفيد المهرجان، فطلب مني أن أكون عضوا باللجنة العليا له، ومن بعد بالمسئولية عن إعلامه في دورة ١٩٩١.. وكانت هذه مسئولية شرفية؛ إذ إن درايتي بالسينما كانت مؤسفة، وكان العمل الحقيقي موكلا للمخرجة شرويت شافعي، زميلتنا في التلفزيون وهو في بداياته..

لكن وصف تلك السنوات الثلاث بأنها سنوات ضائعة أمر فيه كثير من الإجحاف، بل أيضا من عدم اللياقة، إذ يكفي أنني وجدت أثناءها رفيقتي في الحياة منذ ذلك الحين، نجلاء فتحي.. كان التلفزيون المغربي 2 M قد أوفد فريق تصوير لتغطية أخبار المهرجان وإجراء مقابلات مع عدد من الفنانين، كانت نجلاء بينهم.. ولما لم تكن مشاركة في المهرجان فقد طلب مني المخرج أن أسعى لترتيب موعد معها.. حصلت على رقم تلفون المنزل، واتصلت بها عدة مرات حتى وجدتها، وعندما حدثتها عن المقابلة وافقت ولكنها اعتذرت عن عدم إجرائها في المنزل لأنها كانت تعدل في ديكوراته، فاقترحت أن يجرى الحديث في حديقة الفندق الذي يقام به المهرجان، ولكنها خرجت باقتراح آخر: «ولماذا لا يكون ذلك في بيت شقيقتي في الدقي، وهو قريب منكم؟»..

في المساء جاءني اتصال تلفوني من اللواء محمد السكري وكيل اتحاد التنس، وكنت قد قابلته منذ سنوات في نادي اليخت.. قال: «ألا تعرف أن نجلاء فتحي شقيقة زوجتي؟».. قلت إنها أول مرة أعرف فيها ذلك، فقال إنها أبلغته بمكالمتي، وإنه يدعوني لزيارته مع فريق التصوير في الغد لنتناول فنجان شاي قبل أن أعود للمغرب، وكان يظن أنني مقيم هناك.. اعتذرت لارتباطات أخرى، فدعاني للعشاء في الأسبوع التالي..

منذ تركت العمل في التلفزيون عام ١٩٧٠ وأنا بعيد عن أهل الفن، وحتى في تلك السنوات كانت صلتي بهم محدودة، ثم أتى غيابي أكثر من عشر سنوات في باريس فعزلني تماما عنهم.. لم أحضر طوال تلك الفترة عرضا مسرحيا واحدا ولا شاهدت أيا من الأفلام الجديدة، ولم أكن أعرف من أفلام نجلاء سوى «دمي ودموعي وابتسامتي».. لذلك حاولت البحث عن أي من أفلامها الأخيرة، وبعد أن حصلت عليه تذكرت أنه ليس لديَّ جهاز فيديو في البيت..

ذهبت إلى العشاء وأنا في غاية القلق خشية ألَّا أجد موضوعا مناسبا أحدثها فيه عندما نلتقي، لكننا عندما التقينا ذهب كل هذا القلق تماما.. أول ما لاحظته بعد أن جلست أن الكل يناديها بـ«زهرة»، وعندما سألت قالت إن اسمها الحقيقي هو فاطمة

الزهراء.. دهشت أنها بسيطة للغاية في ملبسها وتلقائية في حديثها، وعندما علمت منها أنها تعرف باريس جيدا انطلقنا نتحدث عن ذكرياتنا فيها كما لو كنا قد زرنا كل شبر فيها معا.. لم يأتِ ذكر السينما إلَّا عندما كنا نتناول القهوة بعد العشاء.. قالت إنها أنتجت فيلما اسمه «سوبر ماركت» قبل عامين، وإنها سعيدة بهذه التجربة على الرغم من أنها لم تربح من ورائها شيئا، ثم تداركت: «لكن ما خسرتش.. أنا شاطرة برضه».. ما فاجأني حقا هو أنها لا تمت بصلة للصورة النمطية للنجمة السينمائية التي كانت في ذهني..

وعندما أوشكت أن أغادر وعدتها أن أتصل بها حتى «أحدثها عن انطباعي عن الفيلم بعد أن أشاهده»، ولكنني كنت قد قررت أن ألقاها مرة ثانية.. وذهبت وأنا على يقين أنها ليست شاطرة فقط، ولكنها ذكية ومرحة وذات شخصية قوية، وأنها ستضفي على حياتي بهجة لم أعرفها منذ وصلت إلى القاهرة.. وهكذا تكرر اللقاء عدة مرات حتى جاء الصيف فذهبت مع ابنتها الوحيدة ياسمين لتقضي أسبوعين في العجمي، وعندما علمت أنها صديقة لزوجة صديقي رجل الأعمال ممدوح مرسي الذي يقضي شهور الصيف في فيلته هناك، حجزت أنا الآخر غرفة في فندق بالإسكندرية، وواظبنا على اللقاء كل يوم.. اكتشفت وقتها أن بيننا الكثير مما يجمعنا.. كانت تصحو مبكرا، وكانت تحب السفر وتجيد لعب الطاولة، كما أنها كانت تنفر من حفلات وسهرات المجتمع، وكانت تتابع جيدا الشأن العام وتميل إلى نهج اليسار على الرغم من أن عبد الناصر أمَّم أرض والدها حسين بك فتحي الذي كان من أعيان الفيوم.. كانت المرأة التي تطلعت للارتباط بها.. وعندما عدنا إلى القاهرة في سيارتي كانت معنا ياسمين، وكانت في نحو الرابعة عشرة من عمرها، ولم أجد صعوبة في التفاهم معها، بل إنها راحت تداعبني ونحن في الطريق..

كان قد مضى على عودتنا من الإسكندرية نحو أسبوعين عندما كلمتني في التلفون في الصباح.. كنت قد اعتدت على هذه المكالمة منها بعد أن تصحب ياسمين بنفسها إلى المدرسة.. سألت: «عملتي كام لفة في النادي النهاردة؟».. قالت: «كتير، أكتر من اللازم»، فلما سألت عن السبب قالت: «لأني كنت بافكر في موضوع مهم».. خير؟ فاجأتني: «أنا حاتجوزك النهاردة!».. أخذت أردد دون أن أدري: «عظيم عظيم»، فباغتتني بسؤال عملي: «إنت مش معاك بطاقة؟»، قلت إنني لم أستخرج بطاقة

شخصية بعد، فطلبت مني أن أذهب إلى منزلها في الخامسة بعد الظهر ومعي جواز السفر.. «موافق ولَّا حنرجع في كلامنا؟».. قلت: «موافق أكيد، ولكننا لابد أن نلتقي أولا لنبحث الترتيبات»..

وأنا في الطريق إليها أخذت أقلب في الأمر، لا في أمر الزواج ولكن في أسلوب عرضه، وزاد إعجابي بها أنها على هذا القدر من الصراحة.. إذا كان المألوف هو أن يبادر الرجل بطلب الزواج، فلماذا لا يكون هذا من حق المرأة أيضا؟ ولكنها عندما فتحت لي الباب، كان سؤالي الأول: «ولكن افترضي أنني ماطلت عندما عرضتِ عليَّ الزواج.. ألم تفكري ماذا سيكون عليه حالك عندئذ؟».. قالت: «فكرت جيدا.. أنت تعلم أننا لسنا في قصة غرام مشتعل.. نحن بالغان ولنا تجارب زواج من قبل، وما بيننا هو إعجاب شديد، ولن أحزن كثيرا عليك إذا تنصلت لأنك لن تستأهل ثقتي في رجاحة عقلك ولن تكون الزوج المناسب لي»..

طلبت منها التلفون فساقتني إلى غرفة داخلية، وهناك طلبت من شقيقي عاصم أن يأتي مع مأذون في الساعة الخامسة.. عندما عدت إليها سألتني إذا ما كنت قد اختليت بالتلفون لأبلغ أشقائي وشقيقاتي بالخبر.. قلت: «تقريبا»، فقالت: «أنا كلمت إخواتي».. وهكذا فعندما عقد قراننا في المساء كانت كل الترتيبات محكمة تماما ومرحة للغاية، بل إننا لم ننسَ صديقي العجمي، ليلى وممدوح مرسي، فجاءا من الإسكندرية بالقطار.. وكان عاصم قد استدعى مأذونين خشية أن يتخلف أحدهما، فجاء الاثنان.. ذهبت إليهما وشرحت لهما ما حدث، وطلبت منهما أن يتفقا مَنْ منهما سيقوم بمهمة المأذون ومن سيكون أول ضيف علينا بعد زواجنا..

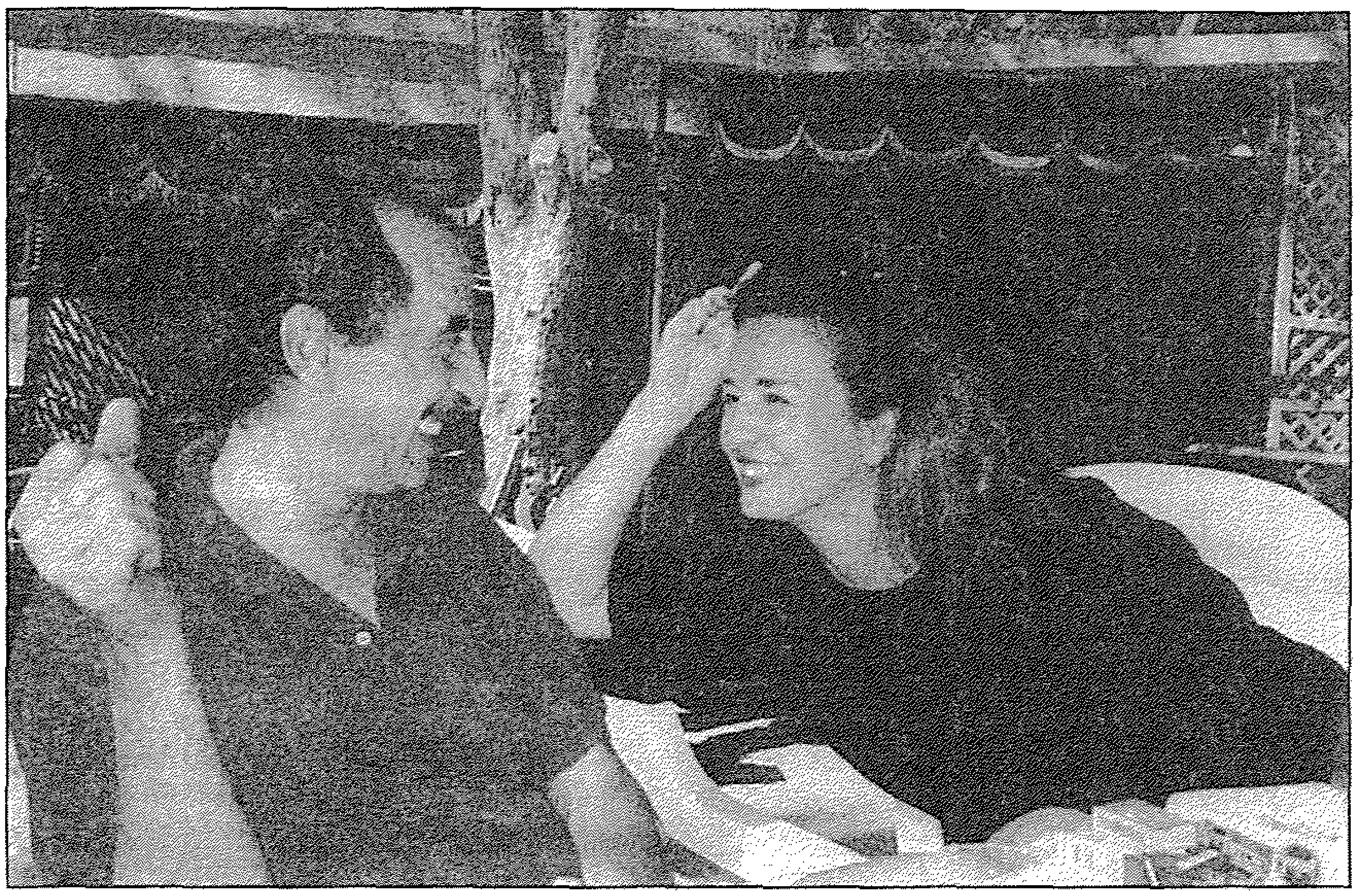

مع نجلاء على شاطئ المنتزه بالإسكندرية (١٩٩٣).

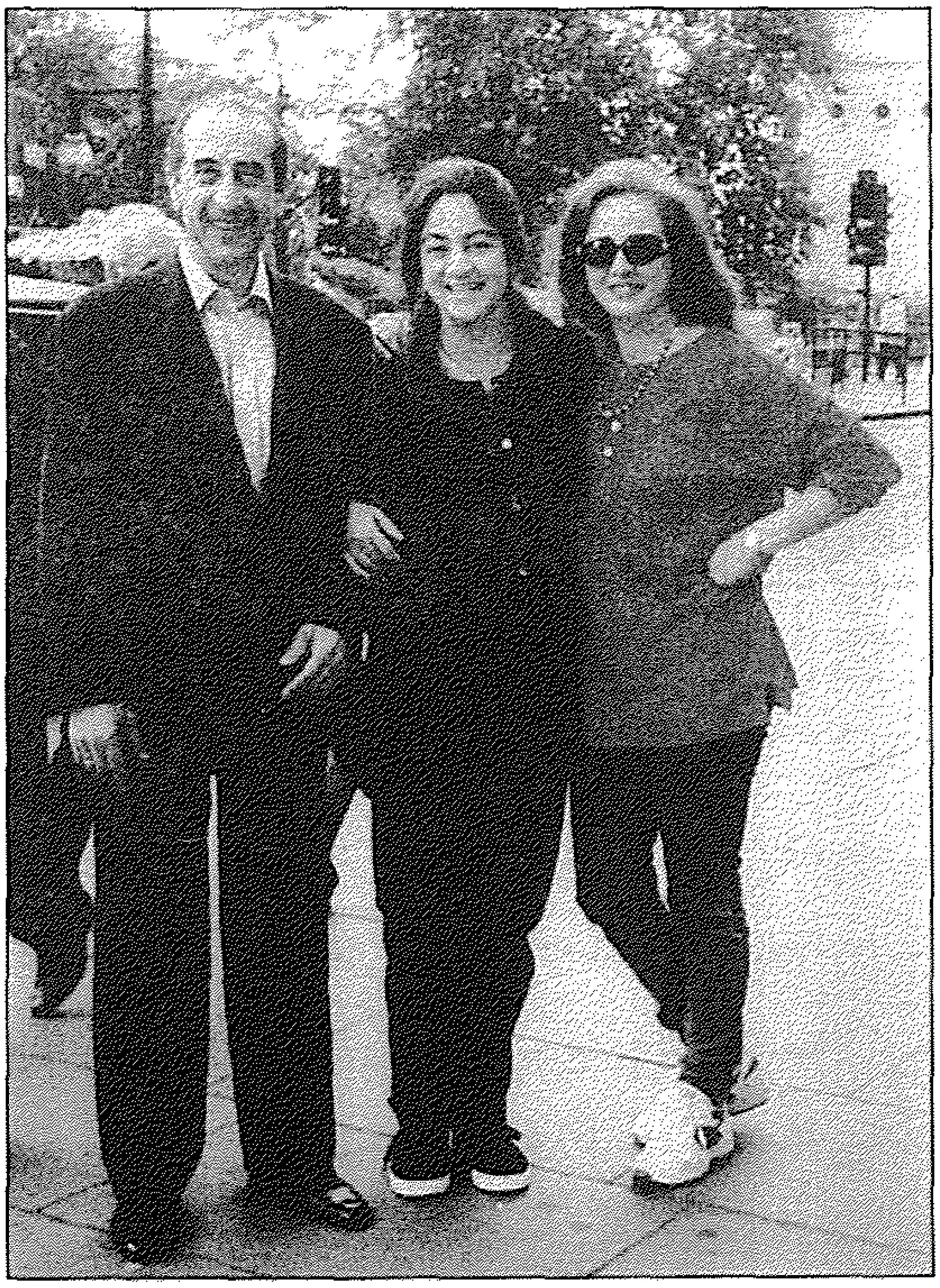

مع نجلاء وياسمين (١٩٩٤).

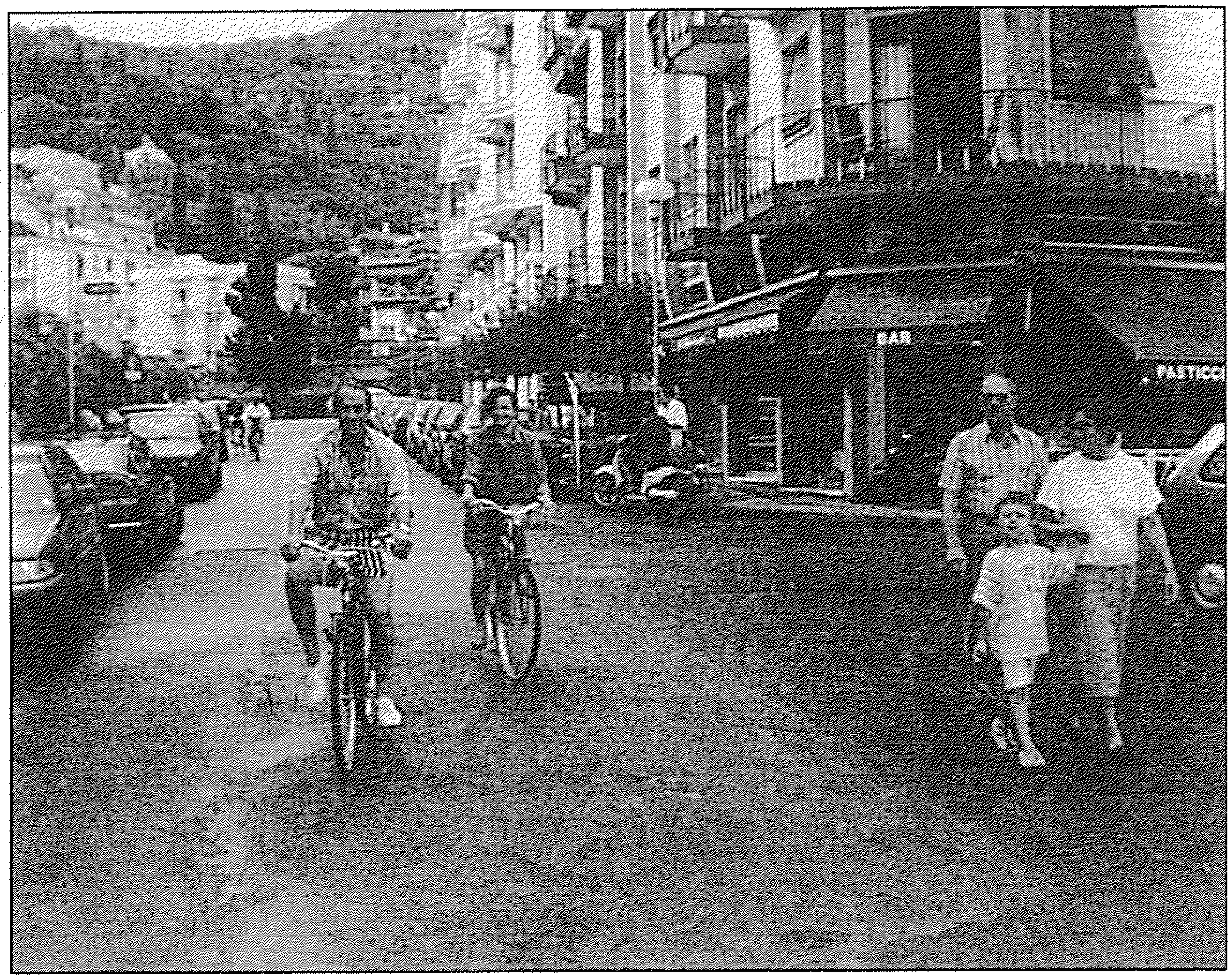

مع نجلاء في إيطاليا (١٩٩٤).

مع نجلاء في القاهرة (١٩٩٦).

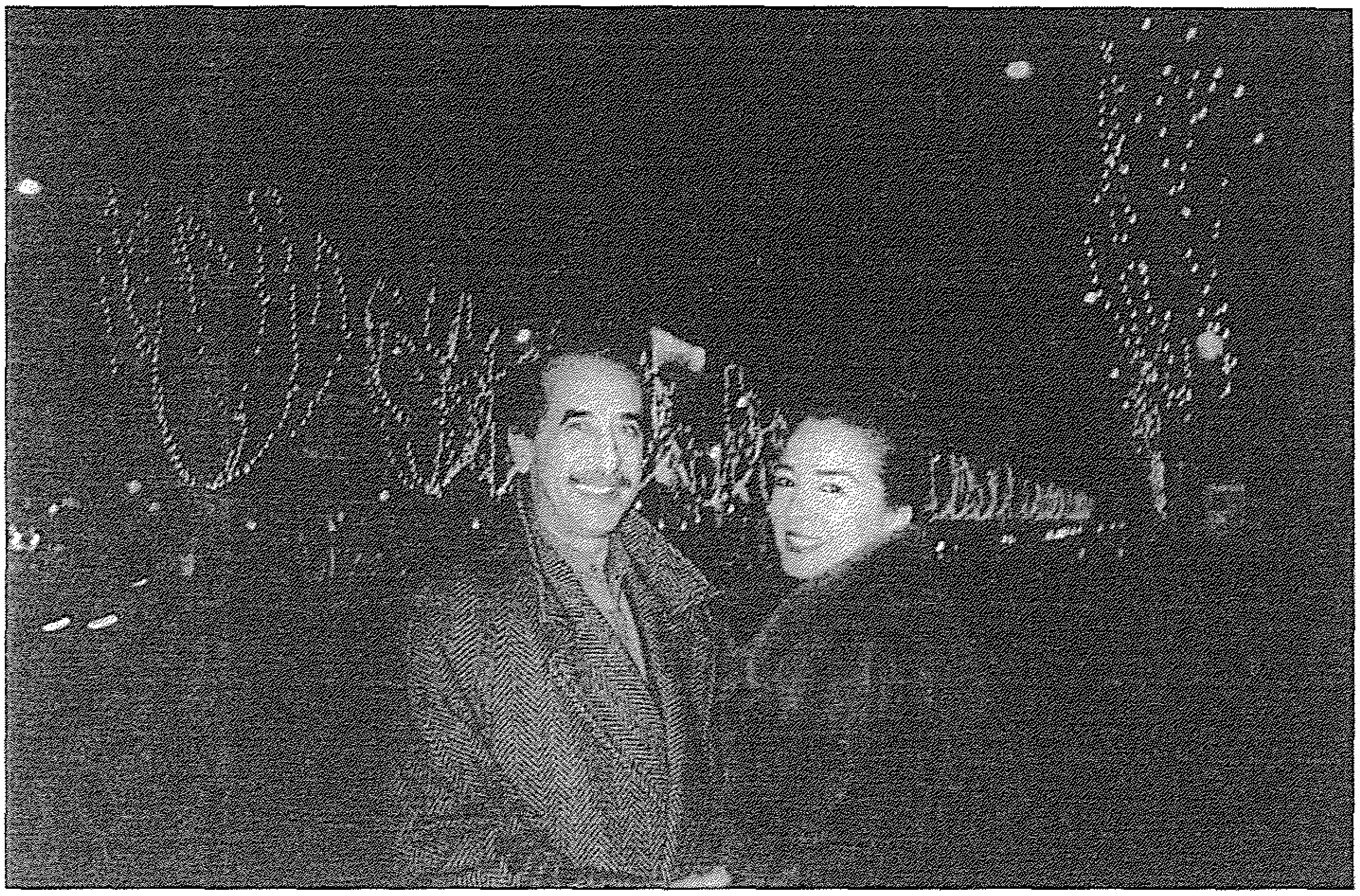

مع نجلاء في باريس (٢٠٠٤).

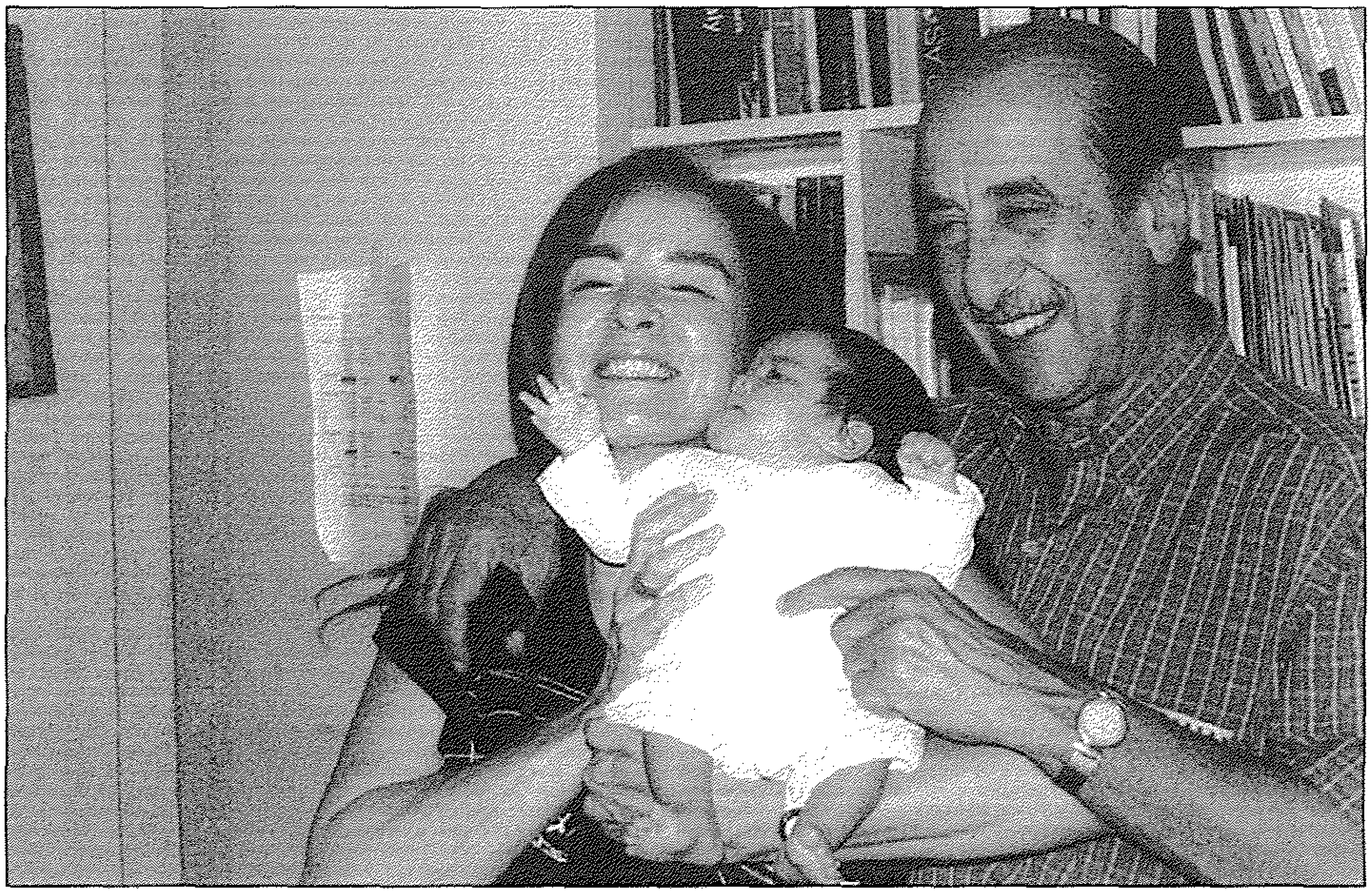

مع نجلاء وحفيدتنا زين ابنة ياسمين في دبي (٢٠٠٦).

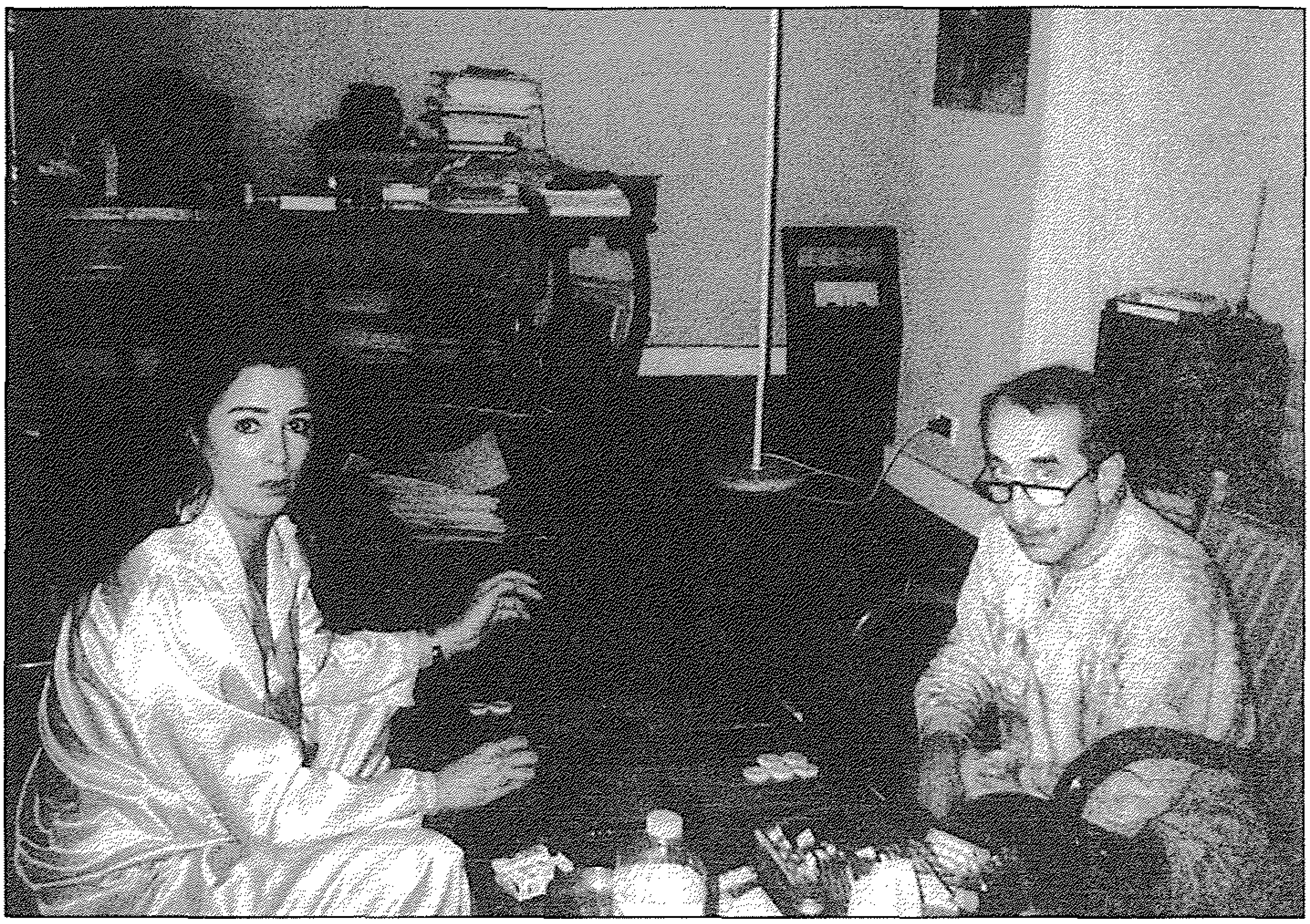

مع نجلاء نلعب الطاولة (٢٠٠٧).

١٧

الجهاد لمنع الدش

١٩٩٣ - ١٩٩٧

◆ ◆ ◆

كان البعض يعتبر أن ART وغيرها من الفضائيات الخاصة المشفرة تستهدف جيب المشاهد وتخترق الثقافة الوطنية، في حين اعتبرها آخرون نوافذ مضيئة وبعبع الأنظمة الشمولية.

◆ ◆ ◆

عدت إلى شاشة التلفزيون بعد ٢٥ سنة.. يومها كسرت بلا سبب واحدة من أسناني الأمامية، وتكرر ذلك معي عدة مرات؛ إذ كانت تكسر إحدى الأسنان الأمامية كلما قدمت برنامجا جديدا.

بعد خمس سنوات من تجربتي المرة مع الشيخ صالح كامل، اتصل بي في يونيو ١٩٩٣، وطلب أن نلتقي في كافيتريا الهيلتون.. قلت: «يا ترى إيه الجديد عندك يا شيخ صالح؟».. قال: «أرجوك أن تنسى ما حصل أولا، ودعنا نعوض ما فات».. كانت الإجابة غامضة.. ذهبت على أمل أن الرجل يريد فتح باب التفاوض بيننا مرة أخرى، وأخذنا نتبادل العتاب، وكررت له أكثر من مرة أنه لا يزال مدينا لي وشركائي في «أورينسات».. قال: «كل هذا سنجيء إليه فيما بعد، لكني جئت إليك اليوم لأخبرك أنني قمت بفض شراكتي مع الشيخ وليد البراهيم كما كنت أنوي منذ سنوات، وسوف أقوم الآن بتأسيس مشروع جديد مستقل، ولن أبدأ هذا المشروع بدونك ».. قلت: «تجربتي يا شيخ صالح مريرة معك».. قال: «دع هذا للزمن، لنتفق اليوم على أن نخطو خطواتنا الأولى معا، وبعدها قرر ما ترى»..

عقدنا أول جلسة في المساء، وكانت مرة ثانية في كافيتريا الهيلتون، التي واظبنا على الجلوس فيها عدة أيام نستقبل المرشحين للعمل معنا في «راديو وتلفزيون العرب» ART.. أبلغني الشيخ صالح أنه أقام بالفعل شركة في جزر الكايمان باسم «الشركة الإعلامية العربية القابضة» برأسمال قدره ٢٠٠ مليون دولار، وأن عدة شركات سوف تتفرع من هذه الشركة، إحداها هي «الشركة الإعلامية العربية مصر» التي ستتولى إدارة شبكة ART، واتفقنا على أن أكون ممثلا إقليميا للشركة القابضة في الدول العربية، وبعد جدل طويل وافقت أيضا على أن أكون «العضو المنتدب للشئون المالية والإدارية» للشركة الإعلامية العربية مصر..

كنت أعرف عن الشيخ صالح كامل شيئين لا أجادل فيهما؛ أولهما أنه دائما ما يسبق عصره، أما الأمر الثاني فهو براعته في إقامة الشركات وتلبيس بعضها ببعض وتوليدها من رحم شركات أخرى على نحو ربما يستعصي فهمه على غيره في النهاية، وأشهد أنني على الأقل كنت واحدا ممن لم يستطيعوا إدراك تعقيدات هذه

الشبكة على الرغم من أنني كنت في قلبها طوال تلك الفترة، وربما يرجع هذا إلى أنه لم تكن لي سوى خبرة هامشية في إدارة الشركات الخاصة أو دراية بالشئون المالية.. لذلك اعترضت كثيرا عندما عرض عليَّ الشيخ صالح مسئولية المال والإدارة، ولم أرضخ في النهاية إلَّا بعد أن تأكدت أنه سيعين مديري إدارات أكفاء يعاونونني في العمل، وأنه سيشركني في اختيارهم، وبعد أن قال إنه يأتمنني على ماله.. ولكن الأمر الذي كان يحيرني دائما معه هو الشخصيات المثيرة للشكوك التي كان يقربها منه وكذلك بعض المحتالين الذين كان يختارهم شركاء له في شركاته الجديدة، ولم أجد تفسيرا لذلك سوى أن المحتالين عادة ما يكونون أذكياء وأنهم كثيرا ما يكونون خفيفي الظل أيضا، وربما يكون الشيخ صالح من المؤمنين بقاعدة «إدي العيش لخبازه ولو ياكل نصه»..

بدأنا في العمل.. بعد عدة أسابيع تبلورت الخطوط العامة للمشروع.. سيكون مركز إنتاجنا الرئيسي في القاهرة، وستبتدع ART نهجا جديدا، هو إدخال القنوات المتخصصة إلى دنيا التلفزيون، وهكذا فإن الشبكة ستضم أربع قنوات؛ تختص واحدة منها بالرياضة، والثانية ببرامج الأطفال، وتختص القناة الثالثة بالأفلام العربية والأجنبية في حين تكون القناة الرابعة قناة عامة، وذلك بالإضافة إلى عدد من قنوات الراديو.. وارتأينا أن تكون القنوات الأربع مشفرة في معظم الوقت بحيث يستقبلها المشاهدون في الدول العربية مقابل اشتراكات، إلَّا أنه ـ كما جرت العادة ـ فسوف يبدأ الارسال دون تشفير للترويج للمشروع، ويستمر كذلك لعدة أشهر.. وقررنا أيضا أن يبدأ البث التجريبي على القنوات الأربع بالتتالي ابتداء من شهر سبتمبر، وأن يقتصر في البداية على ثماني ساعات، ثم تتصاعد ساعات الإرسال حتى تصل إلى ٢٤ ساعة على كل قناة..

كنا نعرف أن مصر لن تسمح بسهولة بأن يكون بث المحطات من القاهرة لأسباب سياسية في المقام الأول، ولكن أيضا لسبب شخصي هو أن كلا من صفوت الشريف وصالح كامل لا يطيق أيهما الآخر، ولذلك قررنا منذ اللحظة الأولى أن يكون البث من خارج مصر، واخترنا بلدة «فوشينو» الإيطالية، وهي بلدة اشتهرت بكثافة إستوديوهات البث ومحطات الأقمار الصناعية لا تبعد كثيرا عن روما.. ومع ذلك

فقد تفاوضنا مع الهيئة القومية المصرية للاتصالات، وتوصلنا في يوليو إلى مذكرة تفاهم بشأن إمكان البث من القاهرة عند الحصول على الموافقات السياسية..

كان المهندس محمود الصوري رئيس الهيئة رجلا واسع الأفق فائق الأمانة في الحفاظ على توازن دقيق بين مصالح الهيئة التي يمثلها ومصالح المستثمرين الذين يتعاملون معها؛ ولذلك لم أجد صعوبة كبيرة أنا والمهندس فاروق إبراهيم (أول مدير للهندسة في ART) في الوصول معه إلى اتفاق.. كان الاتفاق ينص على أن الهيئة مستعدة لتوفير الخدمات لاستقبال أي بث فضائي من مراكز الإنتاج التي سنقيمها في الدول العربية، وعلى استعداد أيضا لبث قناة فضائية واحدة من القاهرة.. وأتاح لنا الاتفاق أن نستورد محطة أرضية متنقلة يمكننا بها بث قناة ثانية، وكذلك توفير محطة أرضية لبث القناتين الثالثة والرابعة خلال بضعة أشهر تالية.. وأبدت الهيئة استعدادها كذلك لتوفير مكان في مبانيها بمجمع المحطات الأرضية في المعادي لإقامة إستوديو صغير للتنفيذ، وتوفير قطعة أرض صغيرة لإقامة مبنى إداري، وأوضحت الهيئة أنها على استعداد لتأجير المعدات أو السماح لنا بشرائها..

لكن بث القنوات من مصر لم يكن يعتمد على توافر المعدات وحدها، ولكنه كان يتطلب موافقة سياسية من وزارة الإعلام أولا، وهكذا توجهنا إلى وزير الإعلام الذي أدخلنا في متاهات لا حدود لها.. كان صفوت الشريف يرى أن التلفزيون هو مملكته الخاصة، وأن من يضع قدمه على أرضه إنما يهدف إلى زحزحته عنها، وعلى الرغم من أنه كان يدرك تماما حتمية تقدم التكنولوجيا التي ستكتسح كثيرا من الحواجز فإنه كان يريد لذلك أن يتم وفقا للضوابط التي يضعها هو، وكان حريصا أن يبدو أمام رؤسائه ومرؤوسيه كما لو كان هو الذي يمسك بالزمام، وأن يطرح القضية كما لو كانت قضية وطن يواجه مخاطر الانتقاص من سيادته وتحدي إرادته..

كنت أتفهم ذلك، خاصة أنني في البداية والنهاية ابن المؤسسة الوطنية للتلفزيون، وكنت حريصا دائما على ألّا نصطدم مع مؤسسات الدولة وأن نصل إلى حلول وسط لا تحرجها، وأشهد أن الشيخ «صالح» لم تكن لديه نية مسبقة لإغضابها.. ولكنني مع ذلك كنت ـ بحكم احتكاكي لسنوات بمجالات الاتصال الدولية وما شهدته من تطور ـ أعرف تماما أن زمن احتكار الدولة للإعلام قد انتهى، وأننا مقبلون على عصر

جديد نضع له نحن ضوابط جديدة، وأن لب المعركة القائمة يتمثل في أن هناك مواجهة بين أنظمة الاستبداد التي تريد احتكار الحقيقة، وبين مسيرة الانفتاح والتعدد الحتمية..

استغل صفوت الشريف السلطات التي في يده وفي يد الدولة ليضع العراقيل أو يدفع آخرين لوضعها أمام المشروع، بعد أن نسف الاتفاق مع الهيئة القومية للاتصالات.. كانت أول حرب أعلنها هي حرب الدش.. في ذلك الوقت كان التقاط بث ART الفضائي يتم من خلال طبق استقبال (دش) قطره متران ونصف المتر، وكان يباع عندئذ بأسعار تصل أحيانا إلى ما يزيد على خمسة آلاف جنيه، ولكن حجم الدش وثمنه أخذا في التضاؤل مع ازدياد عدد القنوات الفضائية وعدد مصنعي ومستوردي الأطباق، وتنامي مبيعاته إلى حد كبير.. وفي مايو ١٩٩٤ قدرت الصحف عدد الأطباق في مصر بما بين ٧٥ و ٣٥٠ ألف دش، وفي إحصائية للجنة الاقتصادية بجامعة الدول العربية جاءت مصر في المرتبة الثانية لعدد الأطباق بعد السعودية، على الرغم من أن السعودية كانت قد حظرت امتلاك الأطباق..

أما مصر فحاولت منع الأطباق قدر إمكانها وإن لم تعلن عن ذلك صراحة؛ وذلك بأن منعت تركيبها في النوادي والمقاهي، أما بالنسبة إلى الأفراد فتركت القرار في يد المحافظين الذين بادر بعضهم بمنع الأطباق نهائيا ووضع آخرون عراقيل متنوعة، ودفعت الدولة ببعض محامين مغمورين ليرفعوا قضايا في المحاكم لمنعها أيضا.. وعندما أفتى مجلس الدولة بأن امتلاك الأطباق يندرج في إطار الحرية الشخصية، لجأت الدولة إلى حجة أخرى لمحاربتها، فأعلن صفوت الشريف أن «الأطباق تتعارض مع المواثيق الدولية التي تحمي حقوق المؤلفين والفنانين»، وأعلن أيضا أنه ليس من حق بعض الأفراد غير المسئولين عرض أفلام ممتلئة بالعنف والجنس.. وهكذا انطلق الجهاد لمنع الأطباق، ولكن الجمهور العام قاوم، وأقبل على شرائها، وشاع استخدامها بشكل جماعي في المباني السكنية الكبيرة، وصدرت مجلات تنشر برامج القنوات الفضائية بالتفصيل.. هكذا كان «الدش» هو شعار المعركة التي دارت على صفحات الصحف عندئذ بين دعاة الانفتاح والانغلاق، واستخدمت هذه المعركة للضغط على القنوات الفضائية الجديدة وتهديدها..

إلّا أن ذلك لم يكن السلاح الوحيد، فقد حاولت وزارة الإعلام حصار هذه القنوات بتحذير تكرر نشره في الصحف أن أجهزة فك الشفرة التي توزع في الأسواق

غير قانونية، وأنه من الضروري للحصول عليها أخذ موافقة مسبقة من سلطات الاتصالات وموافقة من اتحاد الإذاعة والتلفزيون، واستصدرت بذلك قرارا من مجلس الوزراء.. ولم تكتفِ الوزارة بذلك فأخرجت من جعبتها قرارات أخرى؛ إذ أصدر رئيس التلفزيون قرارا بالتنبيه على العاملين بعدم التعامل نهائيا مع القنوات غير المصرية وإلّا فالإحالة إلى التحقيق والفصل من العمل، ووصفت صحف هذا القرار بأنه «قرار وطني»..

وشنت صحف أخرى حملة على القنوات الخليجية بالذات (ومنها ART باعتبار أنها مملوكة لمستثمر خليجي)؛ لأنها «تحتكر الأصوات الغنائية»، وتغمط حقوق الفنانين، وتفرض عليهم نصوصا هابطة، وتحجب انتشار المطربين المصريين لمصلحة أقرانهم الخليجيين، لكن ذلك يبدو أنه لم يكن كافيا، فخرجت أصوات أخرى تتهم القنوات الفضائية بأنها أغرت رموز المجتمع المصري ونجومه بالظهور على شاشاتها بالمقابل المادي الكبير الذي تدفعه؛ ولهذا امتنع هؤلاء عن الظهور في التلفزيون المصري أو زادوا في دلالهم وفي طلباتهم.. وكنا قد قررنا بالفعل منح مكافآت لضيوف برامجنا، وهو أمر متعارف عليه في محطات التلفزيون الدولية إلّا أن معظم المحطات العربية الرسمية كانت تتغاضى عادة عن دفع هذه المكافآت، فالتلفزيون المصري مثلا ـ بغروره المعروف ـ يعتقد أن الذي يظهر على شاشته سيجني من وراء ذلك مكاسب معنوية ومادية أهم كثيرا من الأجر الذي يمكن أن يتقاضاه، أما نحن فكنا نرى أننا ما دمنا قد اخترنا ضيفا ما لبرامجنا فهذا يعني أنه شخص مهم في مجاله، وأنه يقدم خلاصة فكره وتجربة عمره للناس، ويقتطع جانبا من وقته، وكل هذا لابد أن يكون له مقابل مادي..

وخرج آخرون يتهمون القنوات الخليجية بأنها قضت على صناعة السينما في مصر لأنها «تشتري الأفلام الجيدة وبذلك تساعد على إغلاق دور السينما وتؤثر على موزعي الفيديو»، وانبرى البعض يهاجمها لأنها تسارع إلى عرض الأفلام المتميزة قبل أن يعرضها التلفزيون المصري.. وتوافقت معظم الصحف على عدم الإشارة إلى ART صراحة عندما تنشر عنها شيئا، وكانت عادة ما تشير إليها بكونها «إحدى القنوات الفضائية»، وكان هذا أكثر ما يثير الشيخ صالح كامل في الصحافة المصرية..

وانطلقت في بعض الصحف حملة تنتقد قدامى الإذاعيين في مصر باعتبار أنهم لا ولاء لهم ولا وفاء؛ لأنهم يتعاملون مع قنوات التلفزيون العربية الجديدة.. وأذكر أنني كتبت وقتها في جريدة «الأخبار» أتعجب أن هذا الانتقاد لا يحدث ـ للغرابة ـ إلّا في مجال التلفزيون وحده، فلم نسمع من قبل أن كل هؤلاء المصريين الذين هاجروا إلى أنحاء الدنيا طولا وعرضا يبحثون عن عمل خونة، ولم نسمع أن مستثمرا عربيا أقام مصنعا في مصر فاتهم المصريون العاملون فيه بالتخابر مع جهة أجنبية، ولم نسمع أن خبيرا في الاقتصاد طلبت مشورته في بنك كويتي مثلا فأدخلوه الحبس بتهمة التجسس..

«ثم إذا كانت مهنة أحدنا هي التلفزيون، وإذا لم يكن يعمل لسبب أو آخر في تلفزيون بلدنا الأوحد، فماذا يعمل بالله إذن؟ يبيع فجلا وطعمية؟ وإذا أقيم مشروع محطة تلفزيون دولية في مصر، فهل يستورد له صاحبه إذاعيين من بنجلاديش، أم نحمد الله أن المشروع أقيم لدينا ولم ينشأ لدى غيرنا، ونحمد الله مرة أخرى أن الذين يتولون قيادته من لحمنا ودمنا، ثم نحمده ونحمده أنه في غمرة انطلاق التلفزيون الفضائي ما تزال الخبرة المصرية تُطلب كما طلبت في الستينيات وما بعدها، أم إننا ندعي العروبة باللسان وحده، وننادي بالتكامل باللسان وحده، ونزهو بالقيادة والريادة باللسان وحده؟»..

في مناسبة أخرى انتقدتني إحدى الصحف نقدا لاذعا أنا وهمت مصطفى لأننا نحتفظ بعضويتنا في اللجنة العليا للقناة الفضائية المصرية في حين نعمل في الوقت نفسه في ART، واعتبرت ـ بحق ـ أن ذلك يعتبر تضاربا في المصالح.. وعلى الرغم من أنني أرسلت للصحيفة صورة من خطاب استقالتي من اللجنة منذ أن توليت عملي الجديد تفاديا لهذه الشبهة، فإن الهجوم استمر دون سبب مفهوم..

لم يتوقف الضغط من جانب المسئولين، واتصل بي نبيل عثمان رئيس هيئة الاستعلامات ذات مرة يطلبني لمقابلته، وعندما التقينا أبلغني أننا أذعنا برنامجا في قناة الأفلام باسم «حكاية مكان»، وأن البرنامج تم تصويره على أسطح أحد المباني على نحو يسيء لمصر، وأن «جهة عليا» استاءت كثيرا من المشاهد التي عرضت، وقال إنه تقديرا للصلة الشخصية التي بيننا فإنه لن يلجأ هذه المرة إلى توجيه لوم كتابي إلى ART، ولكنه يلفت نظرنا إلى ضرورة الحصول على إذن من مكتب الصحفيين

الأجانب التابع لهيئة الاستعلامات عند تصوير أي برامج بخلاف الدراما والمنوعات، والحصول على الإذن أيضا عند الاتصال بالوزراء وكبار المسئولين..

كنا نعمل في بيئة غير مواتية إن لم تكن بيئة معادية، وكان قد تم شيطنة القنوات الفضائية الخاصة في معظم وسائل الإعلام، واتخذت وزارة الإعلام من ذلك غطاء لعرقلة عملها، إلَّا أننا مضينا نسبح ضد التيار مستندين إلى سنة التاريخ في التقدم، وإلى إقبال الجمهور على القنوات الجديدة، وإلى تأييد كتاب كبار دافعوا بشراسة عن حرية الإعلام، ودعوا إلى الحوار مع قنوات الفضاء بدلا من المصادرة.. كما أننا استندنا كذلك إلى الانقسام الذي حدث في الصحف مابين تلك التي تعتبر أن «الفضائيات العربية تستهدف جيب المشاهد» وأنها «تخترق الثقافة الوطنية»، وتلك التي تعتبرها «النوافذ المضيئة» أو«بعبع الأنظمة الشمولية»..

ولم تكن معركتنا مقصورة فقط على أجهزة الدولة أو على بعض الصحف، فقد كانت هناك معركة أخرى لا تقل ضراوة هي تلك التي كانت مع المنافسين، وفي مقدمتها القنوات الخاصة التي كانت تبث بالأقمار الصناعية وتوزع مقابل اشتراكات، مثل «أوربيت» التي كانت شبكتها تضم ٢٠ قناة عربية وأجنبية.. كذلك كنا نتنافس مع قنوات فضائية خاصة مفتوحة مثل MBC، وأخرى رسمية مثل دبي وأبو ظبي والكويت والقنوات الأخرى التي جاءت بعدها.. وقد اتفقنا عندئذ مع شركة معروفة لبحوث المشاهدين للتعرف على وضعنا بين قائمة المنافسين، وكانت التجربة مؤسفة؛ إذ أثبت الزمن أن تقديراتها كانت بعيدة تماما عن الواقع.. ومع ما صادفته من تجارب فيما بعد مع عدد من هذه الشركات زادت شكوكي..

هكذا سارعنا إلى الاتفاق مع عدد من كبار الإذاعيين ليتحملوا المسئولية في الصرح الكبير الذي ننوي إقامته، مثل سامية صادق التي عينت عضوا منتدبا للشركة الإعلامية لشئون الإنتاج، وهمت مصطفى التي رأست فرع الشركة في إيطاليا لفترة، ومنى جبر التي رأست قناة الأطفال، وسناء منصور التي تولت قناة السينما، والمعلق الرياضي السعودي الشهير علي داود الذي أشرف على قناة الرياضة، والمخرج ميلاد بسادة الذي استدعيناه من كندا ليخرج لنا بعض البرامج، ثم عاد ليرأس مكتبنا في أمريكا الشمالية، واتفقنا مع المذيعة المخضرمة زينب الحكيم على تدريب المذيعين الجدد..

وأخذنا نبحث عن نجوم الشاشة الكبار فاتفـقنا مع أحمد فراج على تقديم برامج دينية، ومع ليلى رستم لتقديم برنامج بعنوان «البعد الثالث»، ومع الإذاعي الشهير علي فائق زغلول الذي قدم برنامج «مسرح المنوعات»، وكذلك مع نجوم عرب كان أشهرهم مقدم البرنامج الأردني اللامع الدكتور عمر الخطيب الذي قدم برنامجا ذاعت شهرته بسرعة هو «بنك المعلومات» بجوائزه المغرية.. وتعاقدنا أيضا مع النجمة الفلسطينية لينا صوان واللبنانية بولا يعقوبيان، وغيرهما.. أذكر أيضا أننا اكتشفنا وقتها عديدا من النجوم الجديدة التي تألقت في سماء العمل التلفزيوني فيما بعد مثل منى الشاذلي التي قدمت على مدى ٩ سنوات عدة برامج كان أكثرها نجاحا «لا تذهب هذا المساء»، ووفاء الكيلاني التي اشتهرت فيما بعد ببرنامجها «بدون رقابة» في LBC، واتفقنا أيضا مع عمرو أديب ـ وكان لا يزال يعمل بالصحافة ويقيم في دبي ـ ليراسلنا من هناك ببعض البرامج الرياضية والاقتصادية.. وفي يناير ١٩٩٦ انتبهت إلى أن قناة BBC العربية أغلقت، فذهبت إلى لندن على التو للتعاقد مع المذيعات والمذيعين الذين كانوا يعملون بهـا، وبدأت بالاجتماع مع خديجة بن قنة، إلَّا أن قناة «الجزيرة» التي كانت تتهيأ لبدء إرسالها في نوفمبر ١٩٩٦ استطاعت أن تحسم الأمر لصالحها بتقديم عروض أكثر إغراء لمعظم مذيعي قناة BBC ومذيعاتها، وفشلت فيما بعد في استقطاب مذيع كويتي كنت أقدره كثيرا هو يوسف الجاسم..

وفي الوقت نفسه كان وضع خطة لإنتاج البرامج في مقدمة أولوياتنا بالطبع.. من بين أفضل ما أنتجناه فيلم تسجيلي بعنوان «الفرعون الذهبي» عن توت عنخ آمون، كان محل إعجاب كبير لدى هيئة الآثار حتى إنها كنت توزعه في منافذها.. وكنا قد أذعنا أيضا في أول رمضان لنا بعد بدء الإرسال فوازير «دولا وأمشير» التي خصصنا لها مكافأة أولى قدرها ٥٠ ألف دولار، إلَّا أننا خفضنا المكافأة إلى النصف بعد الإعلان عنها، وكانت سقطة كبيرة أفقدتنا كثيرا من المصداقية لدى المشاهدين.. وقد دفعنا هذا إلى وضع ضوابط محددة للترويج لبرامجنا بعد أن كنا قد حددنا من قبل الضوابط الحاكمة للإنتاج، خاصة أنه كان يتم بواسطة شركات متعددة في بلدان مختلفة.. وكان من أبرز مايميز برامجنا هو أنها كانت متنوعة المصادر من الدول العربية كافة، وخاصة الدول الأقل نموا التي لا تتمتع بنصيب عادل في الإعلام عادة..

كان الشيخ صالح يراجع نصوص البرامج والمسلسلات بنفسه.. وعندما لاحظت ذلك لأول مرة انزعجت كثيرا؛ فهاهم ملاك وسائل الإعلام يتدخلون في مضمونه على النحو الذي كنا نعترض عليه دائما كإعلاميين، لكنني كنت أدرك أيضا أن الشيخ «صالح» على الرغم من أنه واحد من حيتان الإعلام البارزين فإنه الوحيد ممن أعرفه منهم الذي له خبرة في هذا المجال، فقد خبر المهنة لمدة ثلاثين عاما؛ إذ كان يعمل في بداية حياته العملية بوزارة المالية مختصا بالرقابة على مؤسسة التلفزيون، ثم استقال من عمله الحكومي عندئذ وبدأ نشاطه بتوزيع البرامج الإذاعية ثم التلفزيونية، وأسس بعد ذلك شركة كبيرة للإنتاج التلفزيوني تنتج بالألوان في الوقت الذي كانت لا تزال فيه كل المحطات العربية تبث بالأبيض والأسود، وقد أنتجت هذه الشركة عديدا من المسلسلات، معظمها في القاهرة..

سبحان الله.. الرجل الذي كان عدوي الأول منذ سنوات قليلة اختلطت مشاعري نحوه، بل أصبحت معجبا به.. أكثر ما كان يثير إعجابي أنه لم يكن يكف عن العمل على الرغم من أنه كان يعاني كثيرا من داء السكر.. ولكنني لم أكن أفهم لماذا كان يضع بين أسنانه «دبوس إبرة» عندما كان يعمل، وبالذات عندما كان يقابل ضيوفه، حتى أفصح لي عن السر، أنه يفعل ذلك ليشتت انتباه الضيف إذا ما كان يتفاوض معه على أمر هام.. وكان هذا هو شعوري دائما عندما أجلس إليه؛ إذ كنت أوشك أن أنبهه دائما: «إوعى تبلع الدبوس»..

كنا حينئذ في سباق مع الكل وسباق مع الزمن.. أذكر أنني كنت أحاول أن أقضي إجازة لا تزيد عن يوم وليلة كل أسبوع، وكنت أفضل قضاءها صيفا في الإسكندرية، ولكنني في كثير من الأحيان ما كنت أكاد أصل إليها حتى تلاحقني مكالمة تلفونية تطلب عودتي.. وفي الأشهر الأولى كنت أقضي أكثر من ١٦ ساعة في اليوم بين المكتب والاجتماعات خارجه، ومع ذلك فقد كان العمل مثيرا لأننا كنا نكتشف آفاقا جديدة دائما، وكان ممتعا لأسباب مختلفة بينها أنه كان مع فريق متعدد الجنسيات.. وكنت حريصا على أن أسجل في أجندتي الخاصة إنجازا واحدا على الأقل كل يوم لأرضي نفسي قبل أن أرضي غيري.. اليوم اشتركنا في وكالة الأنباء المصورة UPITN.. اليوم وجدنا كوافيرا ومونتيرا للعمل في الإستوديو في إيطاليا.. اليوم تعاقدنا مع الأوبرا لتنظيم برنامج مسابقات للمواهب.. اليوم استأجرنا جاراجا

لسيارات الشركة في المهندسين.. اليوم انتهينا من توصيف الوظائف.. اليوم وضعنا قنواتنا الأربع في شبكة الكابل في البحرين.. اليوم ركبنا أطباقا هوائية هدية لاستقبال بثنا في ٢٠ فندقا (أهدينا أطباقا أيضا إلى عدد من كبار المسئولين، وكان فاروق حسني وزير الثقافة هو المسئول الوحيد الذي اعتذر عن عدم قبول الطبق، وطلب توجيهه إلى دار الأوبرا).. اليوم اشترينا «يوميات ونيس» من محمد صبحي.. وهكذا..

ولم يتخلَ عني أصدقائي شركائي القدامى في «أورينسات»، وكنت أظن أن بعضهم قد لا يقترب من مشروع الشيخ صالح كامل الذي اختلفنا معه من قبل، إلَّا أن الشيخ «صالح» أصر على وجودهم معنا، وحتى يزيد في إرضائي طلب مني أن تتخذ الشركة الإعلامية العربية مقرها في الأشهر الأولى في مكتبي الخاص.. هكذا كلفنا سعد لبيب بوضع الهيكل التنظيمي للشبكة، وقام الدكتور محمد مدكور بتصميم نظام للمعالجة الإلكترونية لبيانات الأفلام والفيديو وأشرف على تنفيذ وتشغيل هذا النظام، واستورد لنا ريمون إسكندر البرامج الدولية وعقد صفقات هامة من بينها شراء مكتبة شركة «فور ستارز» 4 STARS الأمريكية، وكانت الشركة على وشك الإفلاس وقتها، وكانت تعرض مكتبتها على ART بمليون دولار، إلَّا أن ريمون حصل لنا على حقوق البث في العالم كله مقابل ٦٠٠ ألف دولار، وحصل أيضا على تسجيلات أم كلثوم من محطات السودان والكويت والأردن بعد تنازل من الورثة.. أما يحيى أبو بكر الذي كان قد أعد لـ «أورينسات» الدراسات الخاصة بشمال أمريكا فقد أنجز لنا الاتصالات الخاصة باستقبال ART هناك بالكابل والأقمار الصناعية..

واستخدمت اتصالاتي السابقة بهيئات التلفزيون العربية فعقدنا اتفاقيات مع معظمها للحصول على برامج منها أو لإنتاج برامج مشتركة، والتقيت والشيخ صالح عددا من وزراء الإعلام في المنطقة للحصول على التسهيلات الممكنة، وعاودت الاتصال مع الشركات الدولية التي أعرفها، فتعاقدنا مع شركة «ترانستل» TRANSTEL للحصول على كل مكتبة Telematch الحافلة بأهم الأحداث الرياضية في العالم.. وأذكر أننا اشترينا وقتها دليلا فريدا من نوعه، هو «الدليل الصوتي الدولي لإرشاد المذيعين إلى نطق الأسماء الأجنبية باللغة العربية بطريقة صحيحة»، ويشمل ٤٥ أسطوانة مرنة تعرِّف بكيفية نطق أسماء الأماكن والمؤسسات الدولية والمصطلحات السياسية والعلمية والفنية.. وكنت سعيدا للغاية بهذا الدليل الذي

عجبت لماذا لا يشتريه التلفزيون المصري ليصحح به أخطاء المذيعين التي تجرح الأذن عندما ينطقون الأسماء الأجنبية بطريقة ركيكة، على الرغم من أن ثمنه لا يزيد على خمسة آلاف دولار.. وكانت الشركة المنتجة للدليل تنتج ملحقا إضافيا له كل عام يشمل الأسماء الجديدة التي يتم تداولها في الأخبار..

اكتشفت وقتها أن قيام شركة للقنوات الفضائية ليس بالأمر السهل، وأنه يتطلب ميزانيات هائلة لا تقوى عليها سوى رؤوس أموال كبيرة، خاصة إذا كان الهدف أن نقوم بكل أنشطتنا بأنفسنا دون الاعتماد على جهات خارجية.. وهذا ما فعلناه في ART؛ إذ أقمنا شركة خاصة للإعلانات هي «الشركة العربية للإعلان»، وكذلك «الشركة الإعلامية العربية للطباعة والنشر» التي صدرت من خلالها مجلة «سيداتي وسادتي»، وكانت ترأس تحريرها هالة سرحان التي تولت أيضا المركز الإعلامي لشبكة ART، كما أقمنا شركة للتوزيع، وشركات مشتركة عديدة مع أطراف أخرى مثل «النهار للإنتاج والتوزيع الفني» مع الفنان الكبير محمد نوح، و«صني لاند فيلم» مع المنتج اللبناني محمد ياسين في قبرص، وشركات للبث في الخارج مثل «يوروبلاس» EUROPLUS و«يوروتيل» EUROTEL، كذلك أقمنا شركة تتولى أعمالنا في المغرب العربي هي «الشركة الإعلامية المغاربية» التي اتخذت مقرها في تونس..

وقبل ذلك كله ذهبت مع الشيخ صالح إلى بلدة «فوشينو» الإيطالية كي نستقر على مكان الإستوديوهات التي سنستأجرها هناك، وكذلك لاستئجار الشقق السكنية التي سيقيم فيها العاملون في الشركة، وفي مناسبة أخرى ذهبنا إلى باريس لاختيار مكاتب لنا هناك بين المكاتب التي رشحت لنا.. في الوقت نفسه تعاقدنا في القاهرة على استئجار عدد من الإستوديوهات؛ لننتج فيها برامجنا الجديدة، واستخدمنا لذلك في بعض الأحيان بعض المسارح مثل مسرح سينما ريفولي، ومسرح «يوسف السباعي» الذي كان تابعا للكلية الحربية في مصر الجديدة، وإستوديو مصر وإستوديو نحاس وإستوديو الجابري، إلَّا أن الشيخ «صالح» كانت له طموحات كبيرة، فقد كان يريد إقامة مدينة للإنتاج الإعلامي تشمل عددا من الإستوديوهات تكفي قنواته من ناحية وتعرض للإيجار من ناحية أخرى، واشترى لهذا الغرض أراضي في مدينة ٦ أكتوبر مساحتها ٦٠ ألف متر مربع.. وعندما وصلت أخبار المشروع إلى وزارة الإعلام بدأ وضع العراقيل بالطبع، وبدأت الوزارة تعمل على مشروع مماثل تماما في المنطقة نفسها..

واظبت على هذا العمل المضني ثلاث سنوات حتى اكتملت خطوات التأسيس بكل مافيها من إثارة، وبدأ من بعدها العمل الروتيني اليومي الذي لم أستسغه بالمرة، فاستأذنت الشيخ «صالح» في إعفائي منه، واتفقنا على أن يتولى المهندس أسامة الشيخ منصب مدير عام الشركة، وكان هذا من أكبر مكاسبنا.. كان أسامة الشيخ يعمل مديرا للإدارة الهندسية للشركة منذ أول يناير ١٩٩٥ لما أغريناه على ترك عمله في شركة طومسون التي كانت تتولى صيانة محطات التلفزيون بالسعودية، واستطاع في زمن قياسي أن يضبط سير الأمور في الإدارة، ولكن الأهم من ذلك أنه كانت لديه رؤية صائبة في مضمون البرامج وقالبها.. كان بحق واحدا من المثقفين المصريين المبدعين.. (فيما بعد فاق كل مهندسي التلفزيون المصريين شهرة بقنوات التلفزيون الخاصة التي ولدت على يديه، وعندما تولى رئاسة اتحاد الإذاعة والتلفزيون قبيل ثورة يناير كان أتعسهم حظا؛ إذ حكم عليه بالسجن ثم صدر حكم ببراءته)..

حصلت عندئذ على إجازة لعدة أسابيع، توليت بعدها الإشراف على القناة التي كنا نود إضافتها باسم «ART أوروبا» في نهاية عام ١٩٩٦.. وفي أسابيع قليلة استطعنا أن نستقر على اختيار الأماكن التي سنقيم بها مكاتبنا في باريس ولندن وروما ودوسلدورف، وترشيح مديري هذه المكاتب، ووضع أهداف البرامج التي ستنتج هناك، بل وتحديد مضمونها وأسمائها، وكذلك حجم الإنتاج على مدى سنتين، وتكاليفه وفقا للمعدات والتسهيلات المتاحة.. وبدأ العمل يتقدم على نحو أو آخر ولكنه لم يكن يشغل وقتي كله، خاصة أننا كنا سنبدأ إرسال القناة بساعة واحدة تتدرج صعودا فيما بعد، وكانت مسئولية هذه الساعة تقع على عاتق مكاتب أوروبا، أما نحن في القاهرة فكان علينا أن نهتم ببرنامج واحد لهذه القناة، هو برنامج تعليم اللغة العربية للمغتربين..

في ذلك الحين، كان عدد القنوات العربية التي تبث بالأقمار الصناعية قد زاد قليلا، لكن الأقمار جلبت للمشاهد قنوات أجنبية لا حصر لها؛ ولذلك كان همنا الأكبر عندئذ هو إنتاج برامج تجتذب المشاهد إلى قنواتنا، وهكذا عدنا للبحث عن نجوم جدد.. وكانت قناة «أوربيت» عندئذ قد قدمت الأستاذ عماد الدين أديب في برنامج حواري أثار الانتباه، وكان لمعتز الدمرداش برنامج إخباري آخر متميز في قناة MBC.. كان عماد يتردد في ذلك الوقت على الشيخ صالح لحل الخلافات بينه وبين

زوجته (السابقة) هالة سرحان، وعندها لمعت في رأس الشيخ صالح فكرة، لماذا يقتصر عمل هالة على مجلة «سيداتي وسادتي»، ولماذا لا تقدم هي الأخرى برنامجا لدينا؟ وعندما طلعت هالة على الشاشة لأول مرة في برنامجها «يا هلا» أدركنا أن هناك نجمة جديدة ستلمع في الأفق..

ولم يكتفِ الشيخ صالح بذلك، فقد بدأ يلمح إلى ظهوري على الشاشة دون أن يطلب ذلك صراحة، ولم يكن ذلك يدور ببالي على الإطلاق بعد أن تركت إستوديوهات التلفزيون لمدة تزيد على ٢٥ سنة، إلَّا أننا عندما تحدثنا عن الأمر بجدية وعدت بأن أفكر فيه جيدا، فاعتبر الشيخ صالح هذا الوعد موافقة مبدئية، وهكذا لم تمضِ عدة أيام حتى ترجم ذلك إلى ساعة محددة مطبوعة في خريطة البرامج.. عندها حاولت التملص بكل ما تفتق عنه ذهني من حيل خائبة، ومع ذلك استمرت الساعة المحددة لي تطبع في خريطة البرامج أسبوعا بعد أسبوع، وكلما رأيتها تخيلت نفسي في قميص أحمر كالمحكوم عليهم بالإعدام وهم في انتظار لقاء عشماوي.. وفي لحظة من تلك اللحظات التي يأخذ فيها الواحد منا قرارا دون أن يدري عواقبه تماما، وما أكثرها، أخذت القرار بالعودة مرة أخرى إلى الشاشة..

عندما عدت إلى البيت قِلت لنجلاء إنني أخذت القرار.. أدهشتها المفاجأة بعد أن كنت قد أكدت لها مرات من قبل أنني لن أقع في الفخ، وبدا عليها القلق، فحاولت أن أطمئنها أن هناك أفكارا جديدة طافت ببالي في الساعات السابقة، وأنه بالرغم من أنني لم أستقر على صياغة مضمون البرنامج لكنني واثق أنه سيكون مختلفا عن البرامج السائدة، وأخذت أكرر كلمة «مختلف» عدة مرات كما لو كنت أطمئن نفسي قبل أن أطمئنها.. قالت: «هذا عن المضمون، فماذا عن الشكل؟».. لم أفهم عن أي شكل تتحدث.. «يعني شكلك إنت.. شكلك هو الآخر لابد أن يكون مختلفا قليلا، على الأقل علشان السن»، وضحكت.. وفي اليوم التالي استوقفتني قبل أن أخرج من البيت لأسجل الحلقة الأولى من البرنامج، وقالت: «دقيقة واحدة من فضلك»، وخلعت ربطة عنقي، ثم أسرعت إلى الداخل وعادت بمنديل وضعته في جيبي، وكانت هذه أول مرة يظهر فيها على الشاشة مقدم برامج إخبارية دون ربطة عنق..

وقفت أمام الكاميرا يوم ١٨ يونيو ١٩٩٦، اليوم الذي صادف عيد ميلادي الستين تماما، وكانت مغامرة أن أقحم نفسي في طريق جديد وأنا في هذا العمر، وأقامر بتاريخي في التلفزيون بتعريضه لامتحان جديد.. ولم يكن شهر يونيو مواتيا بأي حال لبث البرنامج؛ إذ ليس من المعتاد في محطات التلفزيون أن تقدم برامجها الجديدة في فصل الصيف، كما أن الموعد جاء وسط بث مباريات كأس أوروبا في كرة القدم التي يقبل عليها المشاهدون العرب عادة.. وبالإضافة إلى ذلك فقد حددت الساعة الحادية عشرة مساء في السعودية (أي ١٠ مساء في مصر) موعدا لبث البرنامج، وكنت أرى أن هذا الموعد متأخر للغاية، لكن الإدارة كانت قد سنت سنة قميئة انتشرت فيما بعد في القنوات التلفزيونية هي بث البرامج الهامة في مثل هذه المواعيد المتأخرة، وكانت حجتها أن معظم الناس في بلداننا يفتحون عيونهم للسهر والتسالي قبيل منتصف الليل عادة..

لم يمر اليوم في هدوء، إذ كسرت فجأة واحدة من أسناني الأمامية دون سبب، فهرولت إلى الدكتور مجيد أمين أستاذ طب الأسنان المعروف وزميل الدراسة في قصر العيني، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يؤكد اليوم ظاهرة غريبة تكررت معي منذ ذلك الوقت؛ إذ كانت تكسر إحدى أسناني الأمامية عندما أقدم برنامجا جديدا.. حدث لي هذا فيما بعد عندما قدمت «رئيس التحرير» في التلفزيون المصري، وعندما قدمته أيضا في «دريم»، ولم يستطع الدكتور مجيد أو الدكتور رمسيس غبريال ـ الذي يصون أسناني منذ عشرين عاما ـ أن يفسرا لي السر في ذلك..

سمي برنامجي في ART «مع حمدي قنديل».. ولست متأكدا حتى الآن من الذي خرج بهذه التسمية، والأرجح أنه كان ميلاد بسادة الذي كلف بإخراج البرنامج في البداية، ولكنني لم أعترض على الاسم على الرغم من أنني لاحظت أنه يحمل شيئا من النرجسية، وكانت «الموضة» في تلك الأيام أن تسمى القنوات الخاصة برامجها باسم مقدميها اقتداء بمقدم البرامج في CNN لاري كينج.. وكان قالب البرنامج هو الأقرب إلى مانراه الآن من برامج «التوك شو»، فكان يتضمن استعراضا للأحداث مدعما بالفيديو والصور الثابتة وتحليلا لها وتعليقا عليها، كما يتضمن أحاديثَ وندوات قصيرة مع شخصيات بارزة، ولكن مدته لم تكن تزيد على ساعة واحدة.. أما مضمون البرنامج فكنت حريصا على أن يحتوي على أكبر قدر من المعلومات،

تقدم من خلال رؤية شاملة، ولكن بأسلوب بسيط لاذع وساخر في الوقت نفسه.. وفي حلقاته الأولى خصصت فقرة ثابتة للكاريكاتير كنت أستضيف فيها عادة الرسام الكبير مصطفى حسين، ثم استضفت من بعده شيخ الرسامين أحمد طوغان..

أذكر من بين الندوات التي قدمتها في البرنامج تلك المواجهة الساخنة بين المؤيدين والمعارضين للتطبيع مع إسرائيل، وكان فريق منهم بين الذين شاركوا في إعلان كوبنهاجن (لطفي الخولي وعبد المنعم سعيد ومحمد رضا محرم)، وفريق آخر من طلائع المعارضين للإعلان (سعد الدين وهبة وعبد العظيم أنيس وصلاح الدين حافظ ومحمد سيد أحمد)، وكانت هذه أول مواجهة مباشرة بين الفريقين، وقد أثارت وقتها اهتمام الأوساط السياسية، ونشرت نصها الكامل جريدة «الأهالي»، وتحدث عنها الكاتب الشهير توماس فريدمان في صحيفة «نيويورك تايمز».. وعندما استضفت الدكتور نصر حامد أبو زيد وزوجته، نشرت بعض الصحف نص الحديث كاملا أيضا.. وفي إحدى الندوات شارك أربعة من أساطين الفكر في الوطن العربي هم الدكاترة: محمد عابد الجابري وكلوفيس مقصود وعزمي بشارة وبرهان غليون، وكانت ندوة ساخنة بحق، يندر أن تجتمع لها مثل هذه القامات الشامخة..

كان البرنامج برنامجا عربيا بامتياز على نحو لم يكن مألوفا عندئذ (لم تكن «الجزيرة» قد ظهرت بعد).. وفيه ظهر معظم السياسيين العرب مثل ياسر عرفات والصادق المهدي وحسن نصر الله والرئيس اليمني علي عبد الله صالح والدكتور بطرس غالي وخالد مشعل وغيرهم، كما أجريت حديثا في أسمرة مع إسياسي أفورقي رئيس إريتريا، كل منهم على مدى ساعة كاملة، وفيه كذلك نوقشت معظم الأحداث العربية.. ولا أزال أعتز بأنني ناقشت في إحدى الحلقات ملف اغتيال المعارض الليبي منصور الكيخيا الذي اختطف في القاهرة في أواخر عام ١٩٩٣ ولم يعثر له على أثر بعدها.. وكنت قد ذهبت إلى زوجته السيدة بها الكيخيا التي كانت تقيم في فرجينيا في الولايات المتحدة في ذلك الوقت، فاتهمت المخابرات الأمريكية ورجلها «هنري شولر» الذي كان يعمل قنصلا في ليبيا من قبل بارتكاب الجريمة، ولكن الأخطر هو ما تداولناه في الحديث من إشارات واضحة إلى المخابرات المصرية ودورها في التآمر على الكيخيا مع نظام القذافي.. وكانت هذه أول مرة يناقش فيها هذا الدور علنا..

كثير من الموضوعات نوقشت في البرنامج للمرة الأولى؛ لسبب بسيط أنه لم تكن هناك مرة أولى من قبل في مصر.. لم يكن هناك في الفضاء التلفزيوني سوى القنوات الرسمية التي التزمت على الدوام بسقف ما تريد السلطة للناس أن تعرفه وما تريد إخفاءه عنهم.. لذلك قال عدد من الدارسين والنقاد إن البرنامج ـ وليس «أقوال الصحف» ـ هو الذي اخترق حقل الألغام، ومهد الطريق أمام ما نراه اليوم من برامج إخبارية على القنوات التلفزيونية المختلفة، وعقدت الصحف أكثر من مرة مقارنات بين البرنامج وبين البرامج الإخبارية التي يذيعها التلفزيون المصري، وطالب كتاب كبار مثل الأستاذ أحمد رجب بعودتي إليه؛ الأمر الذي أثار حساسيات مع المسئولين في وزارة الإعلام..

قوبل البرنامج منذ بدايته بترحيب كبير من الصحافة المصرية والعربية بوجه عام، وقال أحد النقاد إن البرنامج «استغل كل الفضاء تحت السقف الرقابي بمهارة كاملة» وإنه «حرض المشاهد العربي على أن يخرج من استرخائه ليناقش قضاياه الحقيقية»، وقال آخر إن البرنامج كان «شجاعا وهو يقترب من أمور لها حساسيتها، وحريصا على الإعلان عن رأيه بوضوح مع دراية كاملة بقواعد اللعبة التلفزيونية»، ووصف بعض الصحفيين البرنامج بأنه «مقال تلفزيوني مركز وجاد لكنه جذاب أيضا»، وقال آخرون إنه «ينقل حيوية الصحافة ومشاغباتها ومعاركها إلى الشاشة الصغيرة»..

لكن الجديد في البرنامج لم يكن ما يناقشه من موضوعات فحسب، فقد كان مختلفا في قالبه أيضا؛ إذ كان الديكور الذي صممه مهندس إيطالي يختلف عن الديكورات المألوفة في الشاشات العربية، وخاصة الركن الذي أعد لعرض المجلات الأجنبية، التي قدمتها منى الشرقاوي قبل أن تلمع فيما بعد في التلفزيون المصري، وكانت تعمل سكرتيرة لي منذ بدأت العمل في ART.. وعاونتني السيدة نها فوزي في ترجمة بعض النصوص باقتدار..

استمر تقديم البرنامج نحو عام ونصف العام، وكان يذاع مشفرا مساء الخميس، ثم على القناة المفتوحة مساء الجمعة، وتناوب على إخراجه سامر الجمل وطارق عبد الباري ثم وائل إحسان الذي اختطفته السينما فيما بعد، وكان هاني يشار هو مدير الإنتاج.. ولم نواجه بأي مشكلات سياسية تذكر طوال تلك الفترة حتى كانت أول أزمة حقيقية عندما أجريت الحديث مع القذافي في سبتمبر ١٩٩٧، وهو الحديث

الذي أثار زعل الجماعة في الرياض (التفصيلات في الفصل ٢١)، وبعد أن تجاوزنا الأزمة جاءت الأزمة التالية في ديسمبر من العام نفسه عندما حاورت طارق عزيز نائب رئيس وزراء العراق، وكان الحوار قد أجري في باريس واستغرق ساعة ونصف الساعة، وكان أول حديث له في محطات التلفزيون العربية.. واهتمت الشبكة بالإعلان مرات عديدة عن موعد إذاعته في القناة المشفرة ثم مواعيد إعادته في البث المفتوح كالعادة، وأذيع بالفعل في القناة المشفرة ولكن تعليمات صدرت بمنع إعادة بثه بعد ذلك لأن جماعة الرياض ظلوا زعلانين كما استنتجت، وكان في مقدمة الجماعة الأمير سلطان بن عبد العزيز..

كان هذا يعني بالنسبة لي أن البرنامج في النهاية يدار من الرياض، وأنه لا مجال لرفع سقف الحريات كما كنت آمل، وأن هناك حدا لما يمكن أن أحققه من سبق صحفي.. وعلى الرغم من أنني ذكَّرت الشيخ «صالح» بالإعلانات التي نشرناها في الصحف عندما بدأنا البرنامج ووصفناه في هذه الإعلانات بأنه «برنامج الشبكة الجريء»، وقلت إننا كنا نعرف مسبقا أن الجرأة ستجلب لنا المتاعب، إلَّا أنني كنت متفهما للضغوط التي يتعرض لها الشيخ صالح، ومدركا أنه لا يستطيع مقاومتها، خاصة أن تمويل ART لم يكن من أمواله الخاصة بل كان معظمه من مصادر عديدة لم أكن متأكدا من هويتها تماما.. ولم يكن بمستطاعي أن أعدِّل في منهجي، وهكذا تركت دون أن أنظر ورائي..

مرت عدة سنوات لم أقابل فيها الشيخ «صالح»، وعندما التقيته بالصدفة في مسبح فندق «الريفييرا» في بيروت تعانقنا، وعادت العلاقة إلى مجاريها.. وعندما استضفته بعد سنوات أخرى في برنامجي «قلم رصاص» في دبي أغرقني وبرنامجي بسيل من الإطراء..

على الرغم من كل الأزمات التي رافقت خروجي من معظم الجهات التي تعاملت معها، فإنني كنت أتفهم مصاعب الطرف الآخر، بل وأبرر له بيني وبين نفسي في بعض الأحيان مواقفه، وكنت أنجح في كثير من الأحيان في الفصل بين ماهو إنساني وبين ما يتعلق بمقتضيات العمل، ولم يكن الشيخ صالح كامل هو الوحيد الذي انتهت علاقتي به كما بدأت.. سرعان ما نسيت لصفوت الشريف أنني خرجت من التلفزيون المصري في عهده، سواء كان العقل المدبر لخروجي أو اللسان الذي نطق

بالأوامر العليا.. بعد أن انتهى «رئيس التحرير» بشهور، وجاء شهر رمضان دعوته إلى بيتي فلم يتردد، وجلسنا جلسة أصدقاء، وكان معنا جمال بدوي ومحمد جوهر رئيس شركة «فيديو كايرو».. وقبل ذلك كنت قد استضفت في برنامجي «أقوال الصحف» محمد عبد السلام شتا، أول من صادرني بعد أن كتبت مقالا في جريدة «الإخلاص» عندما كنت طالبا في الثانوية العامة.. وظللت على تواصل لم ينقطع مع الدكتور ناصح أمين الذي صودرت مجلتنا في كلية الطب عندما كان مشرفا عليها.. وفيما بعد تكرر الأمر نفسه مع محمد كمال مدير تلفزيون الأردن على الرغم من إيقاف برنامجي هناك في عام ١٩٦٨ بعد أن أذيعت منه حلقة واحدة.. وتكرر أيضا مع الدكتور أحمد بهجت عندما تركت «دريم» على نحو ما سيجيء في فصل تالٍ، وكذلك مع تلفزيون دبي..

لكنني لا أعزو ذلك إلى فضل مني؛ إذ إن العلاقات الإنسانية لا تكتمل سوى بخطوة من الطرف الآخر أيضا.. ظل الدكتور أحمد بهجت يعرض عليَّ العمل في دريم كلما واجهت أزمة هنا أو هناك.. وفي عام ١٩٩٨ كرمني الأستاذ ناصر جودة (وزير خارجية الأردن الحالي) عندما كان مديرا عاما للتلفزيون الأردني، وكان ذلك بمناسبة العيد الثلاثين للتلفزيون.. أما دبي التي أوقفت برنامجي «قلم رصاص»، فقد دعاني الأستاذ أحمد الشيخ لزيارتها لبضعة أيام في شتاء ٢٠١٢ قبل أيام من تركه منصبه كعضو منتدب لمؤسسة دبي للإعلام.. وفي العام التالي منحني نادي دبي للصحافة جائزة «شخصية العام الإعلامية» لعام ٢٠١٣، وسلمها لي الشيخ محمد بن راشد..

أجمل منحة أعطاها الله للإنسان أن يتذكر اللحظات الحلوة وأن ينسى مراراته..

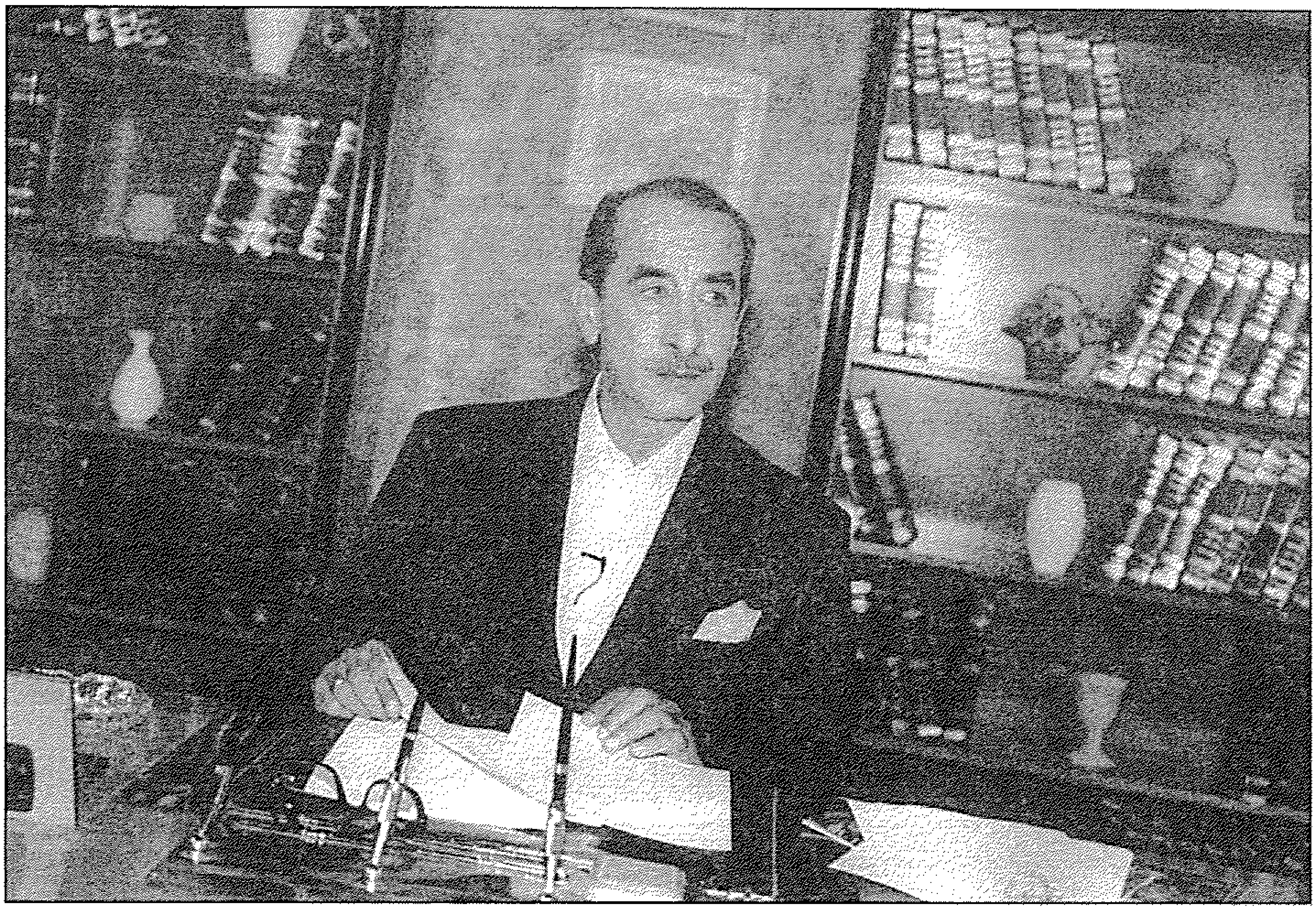

برنامج «مع حمدي قنديل» في ART (١٩٩٦).

مع ياسر عرفات في حلقة من البرنامج (١٩٩٦).

باقة من أشهر الإذاعيين العرب .. على يميني سعد لبيب، رياض نعسان أغا، محمد السنعوسي، عماد أديب، ضيوف على البرنامج (١٩٩٧).

Arab Journalism Awards جائزة الصحافة العربية

الدورة الثانية عشرة

يسر الأمانة العامة لجائزة الصحافة العربية منح هذه الشهادة إلى

حمدي قنديل

الفائز بجائزة شخصية العام الإعلامية
تقديراً لجهوده في رفد مسيرة الإعلام العربي. متمنين له كل التوفيق والنجاح.

خلفان الرومي
رئيس المجلس
جائزة الصحافة العربية

منى المري
الأمين العام
جائزة الصحافة العربية

Dubai Press Club | Dubai Press Club

جائزة الصحافة العربية «شخصية العام الإعلامية» من دبي (٢٠١٣).

(١٨)

رئيس التحرير

١٩٩٨ - ٢٠٠٣

• • •

الخلطة السرية للجدية والسخرية..

• • •

سألت صفوت الشريف: «يعني سيادتك مثلا وأنت تتكلم في البيت مع الهانم عن الرئيس، هل تقول: الريس أم تقول سيادة الريس؟».. ضحك الوزير ضحكة مجلجلة وقال: «طبعا باقول: سيادة الريس.. دي عايزة كلام».

كنا في فبراير ١٩٩٨ عندما قال لي جمال بدوي إن صفوت الشريف طلب منه أن يسألني إذا ما كنت على استعداد لأقدم برنامجا في التلفزيون المصري، وعندما وافقت رتب جمال الموعد وذهبت إلى الوزير في مكتبه.. حدثني عن الكتيبة الإعلامية، وعن الريادة التي يجب أن تحتفظ بها مصر، وعن إيمان النظام بحرية الإعلام، وعن أن انطلاق هذه الحريات يعتمد على أن توضع في أيدٍ حكيمة.. قال: «إحنا مش حنلاقي حد زيك فاهم الأمور كويس».. توقفت قليلا عند هذه العبارة، لكنني مع ذلك شكرته وقلت إن أساس العلاقة يجب أن يكون الوضوح، وإن لي متطلبات بدونها من الصعب أن أعمل.. أنا لا أضع شروطا، ولكني أرى أن نجاح البرنامج يعتمد على ثلاث ركائز؛ أولها توافر سقف حرية عالٍ، وثانيها المرونة الإدارية بحيث لا أقع في حبائل روتين ماسبيرو، أما الثالثة فهي قبول الإعلانات في البرنامج..

قال صفوت الشريف: «الأولى والثانية فهمناها، بل وقبلناها أيضا، لكني أود أن أعرف لماذا الإعلان؟».. قلت: «أولا لأن هذا هو المستقبل.. في المستقبل لن تُستثنى البرامج الإخبارية من الإعلانات، وسوف تنافس الأخبار برامج المنوعات، وما أفكر فيه أيضا هو أن تخصص نسبة من الإعلانات للإنفاق على البرنامج نفسه خاصة من أجل استضافة متحدثين من الخارج أو من أجل سفري لتغطية بعض الأحداث».. قال: «سوف نرصد للبرنامج الميزانية المناسبة بإعلان أو بدونه، لكنني لا أمانع في قبول الإعلانات على أي حال».. أضفت: «ولكن اسمح لي يا صفوت بك أن تكون لي كلمة في الموافقة على هذه الإعلانات.. نحن لن نسمح مثلا بقبول إعلانات عن ملابس داخلية أو عن فيديو كليب جديد وسط حديث عن القضايا الجادة، ولعلنا نبدأ بالبحث عن رعاة بين شركات الموبايل مثلا»..

انساب الحديث في مودة بادية، وبدأنا ندخل في التفاصيل، فسألني عن الاسم الذي أقترحه للبرنامج.. قلت إن لديَّ ثلاثة اقتراحات، ولكني أفضل بينها اسم

«رئيس التحرير».. بصراحة، أفضله لأن معناه أنني أنا المسئول عما أقول، أي إنني ـ بعد إذنك ـ لا أتقبل تعليمات من أحد.. ضحك صفوت الشريف وقال: «مفيش مانع أبدا»، ثم سألني متى أكون على استعداد لتقديم الحلقة الأولى، قلت: «فور انتهاء الترتيبات اللوجستية.. الديكور وما شابه».. قال: «ربنا يوفقك، دعنا إذن نبدأ بحلقة كل شهر»، فقلت إن المرة في الشهر ليست وصفة للنجاح ولكنني لا أمانع، فلنجعلها فترة جس نبض يتعرف فيها كل جانب إلى الآخر ويطمئن له، وبعدها يجب أن يكون البرنامج أسبوعيا..

قال الوزير: «إذن فلا يتبقى لنا الآن إلّا الحديث عن الأجر، وأنت تعلم طبعا أن أجورنا لا تتوازى مع ما تدفعه القنوات الخاصة، لكني أعدك بأنك ستتقاضى أعلى أجر بمقدورنا أن نقدمه لك، وعلى أي حال فسوف أترك هذه التفصيلات لعبد الرحمن حافظ (رئيس اتحاد الإذاعة والتلفزيون) ليبحثها معك».. قلت إن ذلك لا يمثل مشكلة، وعلى الرغم من أنني لا أعرف لائحة الأجور هنا ولا ما الذي سأتقاضاه فإنه مهما كان الأجر فسيظل رمزيا، وما أطلبه أن تخصص لي نسبة ١٠٪ مما ستدفعه الجهات الراعية للبرنامج.. قال صفوت الشريف إن هذه أمور بسيطة، وطلب عبد الرحمن حافظ رئيس اتحاد الإذاعة والتلفزيون بالتلفون يسوق له نتيجة مقابلتنا، كما طلب من سمير التوني رئيس الأخبار أن يبدأ في اتخاذ الترتيبات اللازمة.. خرجت من المقابلة ولديَّ إحساس مؤكد أن الرجل يعرف جيدا أن عصرا جديدا للإعلام قد بدأ، وأن مصر تأخرت عن الركب، وأنها تواجه منافسة شرسة من قنوات عريقة وناشئة، وأنه ربما لهذا كله سيتقبل مني بعض ما تعتبره الحكومة «تجاوزات» أو ترى أنه خروج عن المألوف في شاشتها..

طلبت من التوني أن يكون الطاقم الفني الذي يعمل معي من جيل الشباب، فوعد أنه سيختار لي أفضلهم، واقترح محمد بكر للإخراج وقال إنه المخرج المسئول عن كل المناسبات المتعلقة بالرئيس وكان اقتراحا موفقا للغاية، واختار لي مهندسة ديكور موهوبة هي راوية بياض لتصميم ديكور البرنامج، ثم سألني عن المعدين الذين أحتاجهم.. اندهش عندما قلت: «ولا واحد.. أنت تعلم أننا، أنا وأنت، نقرأ الصحف نفسها ولكننا نخرج من ذلك باستنتاجات مختلفة.. والبرنامج الذي أقدمه

هو قراءاتي الشخصية للصحف، ولذلك فليس بي حاجة إلى من يساعدني في قراءتها.. كما أنني لا أحتاج أيضا لمن يبحث لي عن ضيوف للبرنامج ويتصل بهم، فأنا في معظم الأحوال أعرف الضيوف المناسبين للتعليق على كل حدث، وأفضِّل أن أتصل بهم بنفسي لأنني أعتبرهم كما لو كانوا ضيوفا عليَّ في بيتي».. اتفقنا بعد ذلك بصفة مبدئية أن يذاع البرنامج في القناة الأولى يوم الأربعاء الأخير من كل شهر، وأن تبث أول حلقة يوم ٤ مارس، وأن تكون مدتها ساعة ونصف الساعة..

لم يتبقَ بعد ذلك سوى اجتماعين.. الأول كان مع طاقم الإخراج، محمد بكر ومساعد المخرج النابه عبد الرحمن حجازي، أما الثاني فكان مع المهندسة راوية بياض حيث اتفقنا على الخطوط العريضة لتصميم الديكور، ومن بعدها أخذت أبحث بنفسي في محال الأثاث عن القطع المناسبة، كما كنت أفعل عادة عندما أقدم برنامجا جديدا.. بعدها بأيام انتشرت أخبار البرنامج الجديد في الصحف ومعها سيل من الشائعات عن أنني أتقاضى عشرة آلاف جنيه عن الحلقة الواحدة، بل إن إحدى الصحف وصلت بأجري إلى ٣٥ ألف جنيه عن الحلقة، وأبدت صحف أخرى عجبها أن الديكور تكلف ٩٠ ألف جنيه..

أخذت أوضح للزملاء الصحفيين أن تكاليف الديكور تربو على ذلك، ويمكن أن تصل إلى ١٢٠ ألف جنيه بل إن برنامجا مثل «دائرة الحوار» تكلف ديكوره ٢٥٠ ألف جنيه.. ومثل هذه الأرقام ليست مفزعة في دنيا التلفزيون على نحو ما تبدو، ولو أذعنا من «رئيس التحرير» ١٢٠ حلقة مثلا فمعنى ذلك أن تكلفة الديكور في الحلقة الواحدة لن تزيد على ألف جنيه فقط، ثم إن الأثاث لا يبلى إلَّا بعد مرور سنين طويلة حتى على الرغم من التعامل الخشن معه في مخازن التلفزيون، ويمكن أيضا استخدامه في برامج أخرى فيما بعد، وأظن أن معظم الصحف تفهمت الأمر وإن ظل موضوع عشرة الآلاف جنيه يظهر على السطح كلما انزعج أحدهم من البرنامج.. وبدأ تنفيذ الديكور في الموقع الذي خصص لنا، وكنت قد طلبت أن يكون خارج ماسبيرو حتى لا نتعرض نحن وضيوفنا للتعقيدات الأمنية التي تصاحب الدخول إلى المبنى، وبالفعل استقر الاختيار على مسرح «يوسف السباعي»، وهو المسرح الذي يجاور الكلية الحربية ولا يبعد عن بيتي أكثر من دقائق بالسيارة..

عندما فرغنا من ذلك كله، بدأت في إعداد البرنامج.. كنت قد قررت أن يكون «رئيس التحرير» عرضا بسيطا وعميقا، ساخنا وساخرا لقضايا البلد، واخترت للحلقة الأولى موضوعا حساسا لأختبر بذلك قيود الرقابة هو حرب الخليج، واستضفت للمناقشة المشير عبد الغني الجمسي والدكتور مراد غالب وزير الخارجية الأسبق والمفكر المصري اليساري محمد سيد أحمد، كما استضفت أيضا المفكر الكويتي الدكتور أحمد الربعي لأتبين مدى كفاءة التلفزيون في إجراء ترتيبات سفره وفي دفع المكافأة المناسبة، وتم ذلك كله على خير وجه.. وعندما أذيعت الحلقة انهال الثناء على صفوت الشريف لهذه «الخطوة التي تطمئننا أننا قادرون على منافسة قناة الجزيرة»، وصالحتني الصحافة بمقالات وتعليقات فيها الكثير من الإشارات إلى «سقف الحرية المدهش» و«الأسلوب السهل الممتنع» و«احترام عقلية المشاهد» و«الخلطة السرية للجدية والسخرية» و«بساطة الشكل وبساطة اللغة».. ولم يصدق البعض أن يخرج مثل هذا الكلام من التلفزيون الرسمي، فأخذوا يعزون ذلك إلى أن قائله مسنود، أو لأن هناك اتفاقا تحت الطاولة بيني وبين أهل الحكم، أو لأن وزارة الإعلام كانت تبحث عن واجهة توحي بأن الدولة تبنت سياسة منفتحة تؤمن بالديموقراطية.. مهما كان الأمر فقد كانت خلاصة انطباعات المشاهدين إيجابية إلى حد مدهش، فقد قال كثيرون إن «رئيس التحرير» أعاد لهم الثقة في تلفزيون الدولة..

لما اقترب موعد الحلقة الثانية من «رئيس التحرير» كنت أكثر ثقة بنفسي وبفريق البرنامج وبظروف العمل المحيطة بنا، وعندما بدأنا التحضير دعوت المفكر الفلسطيني الدكتور عزمي بشارة للحضور، في حين توجهت أنا إلى بيروت لتسجيل أول حديث في التلفزيون المصري مع أمين عام حزب الله حسن نصر الله للحلقة ذاتها.. وكنت أنوي تخصيص الفقرة الثالثة في الحلقة لمناقشة قضية الصحافة الصفراء، ودعوت للمشاركة فيها الدكتور مصطفى كمال حلمي رئيس مجلس الشورى ومكرم محمد أحمد نقيب الصحفيين وكذلك صفوت الشريف، لكنه اعتذر بدعوى أنه سيظهر في برنامج تلفزيوني آخر.. مع ذلك استمر التجهيز للحلقة، وسارت الأمور دون متاعب تذكر، وفي اليوم المقرر للتسجيل ـ وهو يوم البث نفسه ـ فوجئت بالمخرج يتصل بي ليقول إنه ذهب إلى المسرح في الصباح فوجده محجوزا لتسجيل برنامج «لو بطلنا

نحلم»، كما أن إحدى المدارس الخاصة استأجرته لتقيم فيه حفلا.. حاولت فض الاشتباك بكل ما أمكنني من اتصالات إلَّا أن ذلك كان مستحيلا.. لم أنجح سوى في ترتيب تسجيل عزمي بشارة في الفندق الذي كان يقيم فيه..

الطريف أنني عندما ذهبت إلى الفندق وجدت آلتي التصوير وإلى جانبهما ١١ من موظفي التلفزيون.. قلت: «يا إخواننا، أي محطة خاصة تجري مثل هذا التسجيل يكفيها ثلاثة أشخاص على الأكثر»، وبدأت أسأل كلا منهم عن عمله.. مصور، مهندس صوت، فني كهربا، عامل لنقل المعدات، وهكذا إلى أن وصلت إلى الاثنين الأخيرين.. قال أولهما إنه جاء من الشئون المالية ليسدد مكافأة الضيف، أما الأخير فالتفت لي قائلا: «أصل الضيف حياخد مكافأته بالعملة الصعبة».. فهمت يومها لماذا كان يوجد ٣٥ ألف موظف في ماسبيرو عندئذ..

فات موعد البرنامج دون أن يذاع فلم أجد بدا - كي أحفظ ماء وجه التلفزيون - من الاتصال بعزمي بشارة وكذلك بمسئول الإعلام في حزب الله للاعتذار عن عدم بث الحلقة، متعللا بأن عواصف الخماسين دكت مخزن الديكور وأن النار اشتعلت في جانب من الإستوديو، وذهبت إلى رئيس الاتحاد ثائرا أحاول أن أبين له أن ما حدث يعتبر فضيحة للتلفزيون، وأطلب وضع قواعد واضحة حتى لا يتكرر ذلك مرة أخرى، وأسأل عن الموعد الجديد المحدد للحلقة، فوعدني بحسم ذلك كله على الفور وإبلاغي بالنتيجة، لكنني ظللت أكثر من شهر في الانتظار.. وكما هو متوقع انهالت الصحف هجوما على التلفزيون لأنه لم يعلن للمشاهدين أن البرنامج سيغيب، ولم يوضح سبب غيابه..

وعندما جاء الاحتفال بعيد تحرير سيناء (٢٥ إبريل) كان قد مضى على بث الحلقة الأولى ٥٠ يوما، وكانت القوات المسلحة تحتفل بالعيد في مسرح الجلاء، وكنت قد دعيت إلى الاحتفال.. في قاعة كبار الزوار فوجئت بصفوت الشريف أمامي يقف إلى جانب فاروق حسني وزكريا عزمي وعدد آخر من الوزراء.. بادرني: «إنت زعلان ليه يا أستاذ حمدي؟»، فقلت: «سعادتك بتسألني بعد شهرين إنت زعلان ليه؟».. قال: «أعمل إيه يعني إذا كنت طالب ١٠ آلاف جنيه في الحلقة؟»، فوجدتها فرصة لأتبرأ من

هذه الشائعة أمام كبار القوم جميعا: «هذا غير صحيح بالمرة، وأنا لم أطلب هذا المبلغ ولم أحدد أي مبلغ على الإطلاق».. قال: «أصلهم قالوا لي كده».. سألت: «من هم سيادة الوزير؟»، وطلبت الاستشهاد برئيس اتحاد الإذاعة والتلفزيون الذي كان موجودا في الحفل.. قال الوزير: «بعدين»، ولكني صممت على استدعائه، فجاء عبد الرحمن حافظ وحاول إمساك العصا من المنتصف، لا هو قادر على إغضاب الوزير ولا على إنكار الحقيقة.. قلت: «يكفيني هذا يا سيادة الوزير.. أستأذن».. ومضيت.. ونشرت صحيفة الوفد نص المناقشة التي دارت في الاحتفال بعدها بأيام..

على الرغم من تدخل الوزير لم تبث الحلقة الثانية سوى في يوم ٢٧ مايو، ومع أنها غابت أسابيعَ إلا أنها أذيعت فجأة ودون تنويه مسبق.. استضفت وزير المالية يوسف بطرس غالي في حوار ساخن حول اتجاه الحكومة لخصخصة البنوك، وكان عليَّ أن أقدم تفسيرا مقنعا لغياب البرنامج فلم أفوت الفرصة لأتحدى التلفزيون على شاشته فأعلنت أنني لم أكن المسئول عن توقف البرنامج.. لم تمضِ أيام حتى فوجئت بإلغاء التلفزيون للحوافز التي يتقاضاها بعض العاملين معي وتخفيض حوافز البعض الآخر؛ مما أدى بعدد منهم إلى التوقف عن العمل.. في الوقت نفسه خفضت ميزانية البرنامج دون غيره من البرامج في حين أن ميزانية بعض تلك البرامج كانت تفوق ميزانية «رئيس التحرير»، وكانت مخصصات البحوث والإعداد وما إلى ذلك تزيد في أحدها على أربعة آلاف جنيه في الحلقة الواحدة في حين تبلغ في «رئيس التحرير» خمسمائة جنيه فقط.. قمت بطرق كل الأبواب لتعود الحوافز كما كانت ولكنني لم أفلح..

بعد ذلك بأيام جاء احتفال عيد الإعلاميين الذي يقام سنويا في مدينة الإنتاج الإعلامي بمناسبة ذكرى مولد الإذاعة الحكومية المصرية عام ١٩٣٤، ويحضره الرئيس مبارك في العادة.. كانت هذه أول مرة ألقاه فيها منذ أكثر من عشر سنوات.. أخذ مبارك يتجول بيننا ونحن نتناول المرطبات، وعندما رآني اقترب مني وأمسك بيدي وهو يصطحبني تجاه البحيرة الصناعية التي أقيم بجوارها الحفل، وعندما وصلنا إلى هناك توقف والتفت لي يسأل: «هو صفوت الشريف عامل فيك إيه بالظبط؟».. قلت: «مفيش حاجة ياريس، ده مجرد سوء تفاهم»..

كنت أعلم غرام مبارك بالمقالب، وخاصة مع مساعديه، والضحك على الجميع في النهاية، وكانت تساليه المفضلة عندما يوقع بين صفوت الشريف وفاروق حسني معروفة لي بتفاصيلها، وهكذا كنت حذرا ألَّا أقع في الفخ، ومع ذلك فقد استدرجني لأروي له حكاية الاحتفال بعيد سيناء التي كان قد سمع بها، كما قال، عندما كان يشهد الاحتفال.. استمع باهتمام ومودة، ثم قال: «لو فيه مشاكل تاني كلمني»، ولكنني لم أفعل..

مع اقتراب نهاية عام ١٩٩٨، كنت قد قدمت من البرنامج سبع حلقات، ومع ذلك فإن مشكلة حوافز العاملين في البرنامج لم تحل على الرغم من أن الوزير كان قد أبلغني أنه أصدر أوامره بحلها؛ لذلك كتبت له خطابا في ١٣ ديسمبر أبلغه أن تعليماته لم تنفذ.. وتناولت في الخطاب مشكلات البرنامج الأخرى التي كان في مقدمتها عدم انتظام بثه في القناة الفضائية، وقلت أيضا إن شركة «تهامة» للإعلانات التي كانت تحتكر الإعلان على القناة الفضائية لم تخطر بموعد بث أي من الحلقات السبع حتى تجلب المعلنين الراغبين في الارتباط بالبرنامج؛ مما يعني إهدار الموارد من جهة، وعدم إتاحة الفرصة للبرنامج للانتشار من جهة أخرى..

قلت للوزير في الخطاب أيضا: «أبلغت سيادتكم في مكالمتي التلفونية أنني غير مستعد لتقديم البرنامج مرة في الشهر حيث تبين أن المشاهدين لا يستطيعون متابعته، كما أن ذلك لا يخدم التلفزيون المصري في المنافسة مع المحطات الأخرى، ولا يمكِّنني شخصيا من منافسة غيري من مقدمي البرامج في هذه المحطات.. وبالرغم من أنني أعربت عن استعدادي منذ البداية لتقديمه أسبوعيا، فإنني أبلغت بأنه لا توجد مساحة زمنية على القناة الأولى، في الوقت الذي يوجد فيه فائض من الوقت لمعظم البرامج الإخبارية الأخرى، يسمح بإذاعة كل منها مرتين وربما أكثر كل شهر، كما يوجد فائض من الوقت أيضا لمقدمين تابعين لقطاع الأخبار ليقدموا برامج جديدة بخلاف تلك التي يقدمونها.. وقد وعدتم بالنظر في الأمر إلَّا أن أحدا لم يبلغني بجديد».. واختتمت خطابي بالقول: «آسف في النهاية أن التجربة كانت مرة بالنسبة لي، وأنا لم أتعود العمل قط في أي موقع سابق وفي حلقي مرارة»..

طيّب الوزير خاطري، وخلال ساعات تلقيت مذكرة من رئيس قطاع الأخبار بتعديل ميزانية البرنامج، ومضاعفة عدد الحلقات بحيث تذاع منها اثنتان كل شهر تمهيدا لأن يكون أسبوعيا فيما بعد، وصدرت أوامر من الوزير بأن تكون الأستاذة نوال مختار مدير عام البرامج الإخبارية مسئولة عن «متابعة البرنامج وتذليل أي عقبات» تواجهه، فقررت الاستمرار مستندا في المقام الأول إلى علامة مشجعة، هي أن الرقابة لم تكن قد تدخلت في عملي حتى ذلك الحين.. كان البرنامج يخضع لأربع مراحل من الرقابة، فقد كان الرقيب ـ وكان اسمه الحركي «المنسق» وأحيانا «المسئول الإداري» ـ يطّلع أولا على النص المكتوب للبرنامج، وفي المرحلة الثانية يحضر التسجيل في الإستوديو، وكانت المرحلة الثالثة تتم أثناء المونتاج، وبعدها يبث البرنامج، ولكن المرحلة الرابعة تأتي بعد البث، وفيها يقرر الرقيب إذا ما كان البرنامج يذاع كاملا على القناة الفضائية أم يحذف منه «ما لا يليق بسمعة مصر في الخارج»!

بعد أن عاد البرنامج للبث، اتصل بي الدكتور فتحي سرور رئيس مجلس الشعب مهنئا، وطلب أن يراني فذهبت إليه في مكتبه حيث اقترح عليَّ أن أكون «مستشار المجلس للإعلام»، ورتب لي زيارة لإدارات المجلس استفدت منها كثيرا، ولكني آثرت الاعتذار عن عدم قبول المنصب توخيا للمحافظة على استقلالية البرنامج ودرءا لأي شبهة تتعلق بتضارب المصالح، وإن كنت قد تعللت في خطاب اعتذاري (في ٢٥ نوفمبر ١٩٩٨) بأنه «ليس بمستطاعي إلَّا أن أكون أمينا معكم، وأعترف بكل إخلاص أن تكليفكم يتطلب من الوقت والجهد ما ليس بمستطاعي الوفاء به».. كنت في موقف صعب، إذ تعرفت على الدكتور سرور أواخر السبعينيات وكنت كثيرا ما ألتقيه عندما كان مندوبا دائما للمنظمة العربية للتربية والثقافة (ألكسو) لدى اليونسكو.. وتجددت هذه الصلة عندما عدنا إلى القاهرة وعين وزيرا للتعليم في عام ١٩٨٦، وكان وقتها يفكر في الترشح لمنصب مدير عام اليونسكو وطلب مني أن أدير حملته للترشح، إلَّا أنني لم أكن متحمسا لذلك وأنا أشرح له الأوضاع التي استجدت في المنظمة والتي لم تكن مواتية لترشحه، وأظن أن لقاءنا كان السبب، أو من الأسباب، في عدوله سريعا عن فكرته.. لذلك كنت في غاية الحرج وأنا أعتذر للمرة الثانية عن عرض قدمه لي لأكون إلى جانبه، ولكنه تقبل اعتذاري بتفهم..

استمر البرنامج مع بدايات سنة ١٩٩٩ يتعايش مع منغصات ماسبيرو المألوفة، ومع ذلك استمرت نبرته التي لم تعرف اللين، لكن ما أسعدني في ذلك الوقت أن المشاهدين كانوا يتذوقون الحبكة المهنية في إعداد البرنامج، التي وصفها الكاتب المسرحي الكبير يسري الجندي بأنها «أقرب إلى العمل الفني الممتع، ذي النكهة والمذاق والطابع الفني»، وكنت أعتقد أن أهم ما فيها هو سيناريو البرنامج الذي كان يتنقل بين موضوع وآخر بحيث يولف المادة الإعلامية بصورة متماسكة في ضفيرة واحدة.. أما شباب الصحفيين فأظن أنهم كانوا أكثر الناس سعادة بالبرنامج، فقد كنت حريصا دائما على أن أذكر الأخبار التي تنشر مقرونة بأسمائهم، حتى إن إحدى الصحف كتبت أن «رئيس التحرير» هو «هدية السماء للصحفيين المطحونين في الأرض»..

عالج البرنامج معظم القضايا التي كانت تشغل الأذهان من إسرائيل إلى المرأة الحديدية هدى عبد المنعم ومن أمريكا إلى الأميرة ديانا، وركزنا في العديد من الحلقات على قضايا الفساد وإهدار أموال الدولة وشركات توظيف الأموال ونواب القروض.. ولم نسكت على مأساة كوسوفا الإنسانية كما لم نسكت على فضائح الأمير ترك بن عبد العزيز في فنادق القاهرة.. أذكر أنه بعد أن هاجمت الأمير هجوما حادا عدة مرات؛ بسبب اضطهاده للعاملين لديه وتهربه من دفع فواتير إقامته في الفنادق، أن اتصل بي صفوت الشريف ونبهني إلى أن السعودية عندما أرادت التخلص من الأمير طرده الملك إلى القاهرة واتصل بمبارك قائلا له إن تركي «في عهدتك»، وأن الأمير يعتبر منذ ذلك اليوم ضيفا شخصيا على الرئيس، إلا أنني لم أخفف من هجومي عليه..

هنا أشهد أن الوزير كان يتقن اللعبة التي قبلت بها؛ الأخذ والعطاء، الشد والجذب، وبعضا من التنازلات، مرة من طرف ومرة من الآخر.. كنت دائما على استعداد للمواءمات في القضايا الصغيرة، أما في القضايا الكبرى فلم يكن لديَّ استعداد للتنازل.. وكان صفوت الشريف يتشدد في أغلب الأحوال عندما تحتد لهجتي في أمر من الأمور التي تمس السياسة الخارجية، إلَّا أنه كثيرا ما كان مرنا فيما يتعلق بالشئون الداخلية مادامت بعيدة عن الرئيس.. أذكر مثلا أنه لم يحادثني قط بشأن انتقادي المتكرر للحزب الوطني على الرغم من موقعه الهام في الحزب، وكنت قد قلت أكثر من مرة إن «الحزب الوطني شيء هلامي لا يوجد إلَّا في أذهان القائمين

عليه».. الذي تصدى لي كان الكاتب الكبير ثروت عكاشة، وفي إحدى مقالاته قال إن «الحزب الوطني يحصل دوما على أغلبية ساحقة، وإنه قائم سواء أكان الفضل في ذلك يعود للرئيس مبارك أم للحزب نفسه، فما الأشياء التي يأخذها الناصري حمدي قنديل على الحزب؟».. وقال إن كلامي يعتبر سبا وقذفا، لكنه لم يقدم بلاغا بذلك..

لم يزعجني شيء محدد في ١٩٩٩ سوى عدم انتظام مواعيد بث البرنامج سواء في القناة الأولى أو في القناة الفضائية، ولم يكن هذا شيئا بسيطا في نظري؛ إذ إن موعد البرنامج هو أول بند في التعاقد الضمني بين التلفزيون والمشاهد.. وكانت القناة الأولى هي التي تذاع فيها الأحداث العامة، وهكذا فإذا ما وقع حدث ما يستدعي البث على الهواء مباشرة أو إذا عقد مؤتمر صحفي هام تكون له الأسبقية على البرنامج، وهذا أمر طبيعي.. الأمر الذي لم يكن طبيعيا أن أحدا لا يبلغ المشاهدين متى يذاع البرنامج عندما يتعدل موعده.. وفي الصيف تتفاقم المشكلة إذ تبدأ حمى مارينا، وتجتاح حفلاتها الساهرة كل البرامج في طريقها.. أما القناة الفضائية، وكانت ترأسها عندئذ الدكتورة درية شرف الدين (وزيرة الإعلام فيما بعد)، فكانت مثالا لفوضى المواعيد، وكانت إدارتها نموذجا للترهل، مما دعا إحدى الصحف العربية لأن تقول إن برنامج رئيس التحرير «لا يظهر شهريا وإنما يظهر عشوائيا»..

شهد عام ١٩٩٩ التوقف الثاني للبرنامج، ففي أغسطس أجريت الحديث مع الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة الذي أدى إلى غياب البرنامج عن الشاشة ٢٢ أسبوعا (وقد ذكرت تفاصيل ذلك في الفصل الثامن).. وكانت بعض الصحف عندئذ قد نشرت أنني مرشح لوزارة الإعلام عندما بدأ د. عاطف عبيد يشكل حكومته في شهر أكتوبر، واستغل أحد الصحفيين الخبثاء الخبر فقال إنه السبب في انزعاج صفوت الشريف مني، إلَّا أنني لم ألحظ ذلك، ولم آخذ الترشيح بجد ولم يتصل بي عاطف عبيد.. ظل «رئيس التحرير» وحده هو محور حياتي.. وكنت أعلم إن إيقاف البرنامج سينتهي على نحو أو آخر، لكن المشكلة التي كانت الأكثر تعقيدا هي نقل البرنامج من القناة الأولى إلى قناة أخرى.. وكان الاعتقاد السائد لدى أهل التلفزيون عندئذ أن البرنامج الهام هو الذي يذاع على القناة الأولى، وفيما عدا ذلك تعتبر البرامج الأخرى برامج «ترسو»، إلَّا أنني لم أكن معترفا بذلك، وكنت أقول إن

المشاهد يبحث عن البرنامج الذي يريد في أي قناة كان، وأن سر أهمية أي برنامج لا يكمن في القناة التي يبث منها وإنما في البرنامج ذاته.. قدمت طلبا مكتوبا إلى رئيس الاتحاد في ١٨ أغسطس لنقل البرنامج من القناة الأولى، لكن ذلك لم يتم سوى في عام ٢٠٠١..

أتاح لي توقف البرنامج أن أصحب شقيقي ماجد إلى لندن ليجري هناك عملية قلب مفتوح، وبقيت معه حتى خرج من المستشفى.. في شارع العرب «إدجوار رود» التقيت بعامل مصري يعمل في مطعم هناك.. قال: «يا أستاذ لو سمحت اسمع نصيحتي.. علشان يبطلوا يوقفوا لك البرنامج، ابقى قول لهم في كل حلقة كلمتين من بتوعهم، واحنا فاهمين.. بعدها خد راحتك زي ما انت عايز».. لم تكن النصيحة هي التي لفتت نظري يومها، بقدر ما انتبهت إلى «بتوعهم»، إلى «هم» و«نحن».. أيقنت أن السلطة في جانب والناس في جانب آخر..

ذهبت بعد لندن إلى نيويورك عندما دعتني الأمم المتحدة إلى «المنتدى الدولي للتلفزيون» الذي تعقده المنظمة كل عام بالتوازي مع اجتماعات الجمعية العامة، وكان الموضوع الذي كلفت بإلقاء كلمة حوله هو «الإعلام التلفزيوني: نقل الصورة أم تغيير الواقع».. وعلى الرغم من أن ٨٠٠ صحفي من جميع أنحاء العالم شاركوا في المنتدى فإن التمثيل العربي كان ضعيفا؛ إذ لم يشارك من العرب سوى الكاتب الكبير صلاح الدين حافظ ومدير عام الإذاعة والتلفزيون الأردني إحسان رمزي ورئيس هيئة التلفزيون الفلسطيني رضوان عياش.. وكان سفيرنا لدى الأمم المتحدة عندئذ هو أحمد أبو الغيط (وزير الخارجية فيما بعد)، وكان صلاح دائما ما يقول لي إنه سفير متميز، وإن أفضل ما يميزه أنه إنسان قبل أن يكون سفيرا، وقال إنه دائما ما يطمئن عليه كلما ذهب إلى نيويورك للعلاج (وكان صلاح يقضي هناك عدة أسابيع كل ستة أشهر)، ولكن أبو الغيط ترك لديَّ انطباعا باهتا عندما قابلته..

عندما جاء دوري في الحديث قمت بشن هجوم عنيف على التحيز الأمريكي في تغطية الأحداث المتعلقة بالعالم الثالث، وكان حادث الطائرة المصرية التي سقطت قرب الساحل الأمريكي الشرقي وعلى ظهرها ٣٣ من ضباط الجيش لا يزال قائما

في الأذهان، فضربت مثلا بالحادث، وقلت إن سيناريو انتحار مساعد الطيار الذي روجت له شبكات التلفزيون الأمريكية بقوة مقصود به إما التغطية على أخطاء محتملة للصناعة الأمريكية للطائرات وإما أنه تحويل للانتباه عن مؤامرة نفذها طرف آخر، وربما يمثل انحيازا ضد شعوب وديانة بعينها.. وقلت إن رجال الإعلام الأمريكيين الذين دائما ما يزعمون أنهم يراعون حساسيات الشعوب الأخرى ويفهمونها، أثبتوا أنهم أكثر جهلا بثقافات الآخرين من كثير من رجال الإعلام في العالم، وأنهم لو كانوا يعرفون شيئا عن الإسلام والمسلمين لما اندفعوا بكل هذا الجهل لإلصاق تهمة الانتحار بالطيار البطوطي لمجرد أنه تلا آية من القرآن في كابينة القيادة قبل سقوط الطائرة.. وقلت أيضا إنني شخصيا أسافر بالطائرة مرة أو اثنتين كل شهر، وفي كل مرة أتلو القرآن أثناء إقلاع الطائرة وهبوطها، والمسلم الذي يتلو القرآن شخص يؤمن بالله تعالي ويؤمن بالتالي بأنه جلت قدرته يحرِّم الانتحار وينهى المسلمين عنه..

أضفت أن تهافت شبكات التلفزيون الأمريكية على إلصاق تهمة الانتحار بالبطوطي يكشف عن خلل معروف في الطريقة التي تتبعها هذه الشبكات في تناول الأخبار عادة، فما إن تبدأ إحدى هذه الشبكات في إذاعة خبر ما حتى تندفع أخرى على الفور لتكراره وتضيف إليه، وثالثة لتقدم تفسيرات وتحليلات له، ثم تدعو رابعة وخامسة خبيرا بعد آخر من خبراء الإستوديوهات الذين نعرف جميعا قوائمهم ونعرف أنهم مستعدون للظهور على الشاشة في أي وقت للحديث عن أي شيء، وبذلك تكبر كرة الثلج التي يمكن أن يثبت فيما بعد أنها قائمة على مجرد أوهام وخيالات.. وقلت إن الحقيقة هي التي تدفع ثمن هذا التسابق المحموم بين شبكات التلفزيون التجارية التي تستهدف الإثارة أساسا؛ وذلك بغية الحصول على عدد أكبر من الإعلانات أي جانب أكبر من الربح، واتهمت الصحفيين الأمريكيين بأنهم لا يتوقفون لالتقاط أنفاسهم في هذا السباق والتفكير قليلا فيما إذا كانت سيناريوهاتهم قائمة على أساس منطقي..

عندما عدت إلى القاهرة كنت أظن أن الأشهر الثلاثة التي مضت منذ إيقاف البرنامج كفيلة بوضع الأمور في نصابها، لكن الرد على خطابي إلى رئيس اتحاد الإذاعة والتلفزيون جاءني بعد شهرين آخرين، عندما اجتمعت لجنة السياسات الإعلامية برياسة صفوت الشريف في يناير ٢٠٠٠ وقررت أن ينقل البرنامج إلى القناة

الثانية.. لم يكن ذلك «لوجه الله» أو لصالح المشاهد أو التلفزيون ذاته، إذ كانت أبو ظبي قد قررت إطلاق قناتها الفضائية الجديدة، وكانت القناة قد تفاوضت معي أثناء توقفي عن العمل لأقدم برنامجا فيها، واتفقنا، وكُلفت شركة «فيديو كايروسات» التي يرأسها محمد جوهر بإنتاج البرنامج في القاهرة، وبدأ جوهر في اتخاذ الترتيبات اللازمة (من بينها ترشيح عبد الله كمال الصحفي بروز اليوسف ليعاون في الإعداد)، واتفقنا على أن يسمى البرنامج «بالعربي» (وهو الاسم الذي استأذنتني الزميلة العزيزة جيزيل خوري في استخدامه لبرنامجها الجديد في قناة العربية فيما بعد)، وأرسلت القناة العقد لي في القاهرة..

علم صفوت الشريف بالعرض فسألني إذا ما كان ذلك صحيحا، ولما أجبت بالإيجاب سأل: «وهل ستقبل أن تترك التلفزيون المصري؟».. قلت باختصار: «لم تتركوا لي خيارا آخر يا صفوت بك»، وعندها وعد بأن كل المشاكل ستحل، وعقد اجتماع لجنة السياسات وحرص على أن يبلغني بقرارها، ولكني صممت على موقفي، وكانت جريدة الأهرام قد خرجت وفي صفحتها الأولى إعلان عن البرنامج الذي كان قد تحدد لإذاعته الأربعاء من كل أسبوع في العاشرة مساء بتوقيت الإمارات..

اتصل بي الوزير وقال إنني وضعته أمام الأمر الواقع، وإنه لا يريد أن يغضب الشيخ عبد الله بن زايد وزير إعلام الإمارات؛ ولذلك فهو يقترح عليَّ أن أذيع البرنامج بالتبادل بين «القاهرة» و«أبو ظبي»، حلقة من «رئيس التحرير» في تلفزيون مصر وحلقة من «بالعربي» في قناة أبو ظبي الفضائية.. قلت إن الموضوع خرج من يدي، وعليك أنت أن تتصل بالشيخ عبد الله وتقترح عليه ذلك.. بعد نحو ساعة اتصل بي ثانية وقال إن الشيخ عبد الله وافق، فقلت: «معلهش يا سيادة الوزير، أنا أنتظر منهم أن يبلغوني هم بموافقتهم».. قال: «طبيعي».. وعلى الرغم من أنني كنت قد تلقيت مكالمة في الصباح من «أبو ظبي»، فإنها كانت آخر مكالمة.. انقطعت الاتصالات تماما.. من المؤكد أن صفوت الشريف لعب لعبته واستطاع إفساد الاتفاق، ولم أحسن أنا التصرف.. الواقع أنني لم أعلم سوى بعد سنتين بما جرى خلف الكواليس.. أبلغ الوزير الشيخ عبد الله بن زايد يومها أنه لم يكن يتوقع طعنة كهذه من دولة شقيقة

ولا من الشيخ عبد الله شخصيا، وأن حمدي قنديل تفهم الوضع ولن يقدم برامج خارج التلفزيون المصري..

بعد يومين، أمعن صفوت الشريف في تدليلي، وربما في إغاظة «أبو ظبي» أيضا؛ ففي الاحتفال الذي أقامته إذاعة الشرق الأوسط لتوزيع جوائز «أوسكار المبدعين» قدمت لي جائزة أفضل برنامج تلفزيوني.. ولم أشك لحظة أنه هو الذي أوحى بمنح هذه الجائزة..

لم يكن أمامي سوى أن أرضخ وأواصل العمل.. أظن أن سنة ٢٠٠٠ كانت واحدة من أكثر سنوات البرنامج تألقا، فقد أضفت «الأقوال المأثورة» خلالها إلى البرنامج، ولاقت قبولا واسعا، وكان نجمها الدائم الكاتب الراحل جلال عامر.. وفي ذلك العام أيضا ناقشنا مشكلات لا تحصى، بينها ضياع المليارات في مشروع «أبو طرطور»، والمعونة الأمريكية، وبيع أرشيف السينما المصرية للأجانب، وقضية فساد المستشار ماهر الجندي محافظ الجيزة، وأزمات البوتاجاز والسحابة السوداء، وإهانة المواطنين في أقسام الشرطة، وغيرها.. ولأول مرة تجد جماعة الإخوان المسلمين من يدافع عنها في التلفزيون المصري عندما استضفت المفكر الإسلامي الدكتور محمد عمارة والأستاذ السيد ياسين للحديث عن فوز الجماعة بـ ١٧ مقعدا في انتخابات مجلس الشعب، وهو ما يفوق ما حصدته أحزاب المعارضة الأخرى مجتمعة.. يومها دافع الدكتور عمارة بضراوة عن حق الجماعة في تشكيل حزب سياسي، ووصفت صحيفة «القدس العربي» ذلك بأنه «فتح إعلامي»..

من القضايا التي تابعها «رئيس التحرير» في عدة حلقات قضية الطيار علي مراد الذي رفض تفتيش إسرائيل لطائرة مصر للطيران عندما وصل بها إلى غزة، وأوقف عن العمل واتخذت إزاءه عدة إجراءات حكم القضاء ببطلانها فيما بعد، وقد تعاطف الجمهور مع الطيار إلى حد استفز السلطة فحجب الرقيب إذاعة حديث له كنت قد سجلته في حلقة أخرى في شهر سبتمبر.. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها الرقيب، ففي عديد من الحلقات حذفت فقرات وألغي الصوت في كلمة أو جملة أو أكثر.. بدا لي عندئذ أن التلفزيون توصل إلى أن أفضل سياسة يتبعها معي هي أن

يتركوني أقول ما أريد ثم يحذفوا هم ما شاءوا، وأن يصبح البرنامج مجرد زهرة في عروة جاكتة التلفزيون..

أذكر أنه عندما وقع حادث قطار كفر الدوار المفجع في عام ١٩٩٨ ذهب فريق التصوير ليسجل آراء الناس في السكة الحديد، فتحدث أحدهم عن عدم وجود أبواب للقطارات وآخر عن عدم انتظام المواعيد وثالث عن افتقاد النظافة، لكن واحدا من المواطنين قال إن قطار شطانوف يتأخر، فإذا بي أفاجأ أن الرقيب يريد أن يحذف كلمة «شطانوف»، ولما سألته عن السبب قال إن شطانوف تابعة للمنوفية محافظة الرئيس لذلك لا يجب أن يقال عنها ما قيل.. قلت: «لكن الرئيس لم يطلب منكم أن تظهروا المنوفية محافظة بلا مشاكل وكأنها المدينة الفاضلة».. صمت الرقيب وتمسك بالحذف، وتمسكت أنا بالرفض، وحاولت الاتصال بالوزير ولكني لم أفلح، وهكذا انتهى الأمر بعدم بث الفقرة كاملة..

كنت في كثير من الأحيان ألجأ إلى صفوت الشريف ليحكم بيني وبين الرقيب أو بيني وبين رئيس قطاع الأخبار، وأشهد أنه كثيرا ما سمح ببث ما كان الرقيب يعترض عليه، وفي أحيان أخرى كان يبدو كما لو كان رقيبا بدرجة وزير، وكنت أتفهم ذلك لأن البرنامج كان قد احتد لسانه في انتقاد النظام وسياساته، داخلية وخارجية، وكتب الروائي محمد جلال وقتها يقول: «إن لدينا الآن في التلفزيون رئيس تحرير جريدة معارضة»، لكنني أخذت أردد في الأحاديث الصحفية التي أجريت معي أنني جزء من النظام، وإن كنت أقف إلى يساره، وربما أقصى اليسار..

وكانت لهجة السخرية تخفف في بعض الأحيان من وقع حدة البرنامج، ولكنها كانت في أحيان أخرى تضيف إلى اللهيب.. وعلى الرغم من أن كثيرا من الأقلام أشادت بمزيج «العمق والسخرية» في «رئيس التحرير» وبما فيه من «فواتح شهية» بل إن روائيا قديرا مثل محمد جلال ذهب في مبالغته إلى وصفه بأنه «برنامج القرن»، فإنه لابد من الاعتراف بأنني في بعض الأحيان تجاوزت الحد الذي يقبله الذوق العام، مثلما فعلت في حلقة من البرنامج أذيعت في شهر مايو، عندما نشرت إحدى الصحف عن قيام إحدى السيدات بضرب ضابط شرطة بالحذاء فتهكمت عليها بقسوة، وفي

ختام الحلقة جئت بحذاء حريمي ووضعته على المكتب باعتباره شعار المرحلة.. وكان الأستاذ محمد رفعت محقا عندما كتب في مجلة «أكتوبر» يقول إنه «حبا في البرنامج واحتراما له فهو يعترض على سب مواطنة بناء على خبر منشور لم يتأكد بعد، ويعتبر أن وضع حذاء في وجه المشاهدين أمر يخالف كل الأعراف التلفزيونية وآداب السلوك العامة»..

كانت سنة ٢٠٠٠ حاشدة بالأحداث العربية، ففيها توفي الرئيس حافظ الأسد، وعقدت حينها مائدة مستديرة حول وراثة أبناء الرؤساء للحكم، ولكنها مرت دون متاعب حيث لم تكن وراثة جمال مبارك قد طرحت علنا بعد، وناقشت في حلقة أخرى برنامج النفط مقابل الغذاء في العراق، وفي حلقة ثالثة العلاقات المصرية الإيرانية (تكرر قطع الصوت أثناء إذاعتها).. ولكن الحدث العربي الهام عندئذ كان انسحاب إسرائيل من الجنوب اللبناني في ٢٥ مايو، فذهبت إلى لبنان أصور الوقائع وأجري الحوارات، وكان من أفضلها على ما أظن ذلك الحوار الذي أجريته مع المناضلة سها بشارة التي حاولت وهي في العشرين من عمرها قتل الجنرال أنطون لحد قائد جيش لبنان الجنوبي المتعاون مع إسرائيل، أما أشهر تلك الحوارات على الإطلاق فكان ذلك الذي أجريته على طرف الحدود بين لبنان وإسرائيل مع القائد العسكري للجبهة الجنوبية للمقاومة اللبنانية..

على أن الانتفاضة الفلسطينية الثانية في سبتمبر ٢٠٠٠ كانت الحدث الأبرز الذي واصل البرنامج الاهتمام به عبر حلقات عديدة.. وقتها وضعت الحطة (الكوفية) الفلسطينية على كرسي مكتبي، ولم أكتفِ بالرمز، ولكني كررت في أكثر من مرة أن الحطة الفلسطينية تعني أننا مع فلسطين، أننا نريد أن نفعل شيئا من أجلها.. أذكر وقتها أن زوجتي توشحت بالحطة صيفا وشتاء، وأن ارتداءها شاع بين النساء في مصر وفي غيرها من دول العرب.. وظلت الحطة في مكانها زمنا حتى إنها كانت الشعار المميز للبرنامج وللموقف الذي اتخذه، والذي انتهى إلى الدعوة لمقاطعة السلع الأمريكية والإسرائيلية.. شغلت هذه الدعوة جانبا من البرنامج لفترة طويلة، ولقيت تجاوبا واسعا، وأظن أن المشهد الذي ألقيت فيه علبة سجائر المارلبورو الأمريكية على أرض الإستوديو ودستها بقدمي ظل عالقا في أذهان كثير من المشاهدين لزمن..

الأهم من ذلك أن حمى المقاطعة اجتاحت الشارع المصري، وتجاوب معها الناس وتبناها العديد من الجهات، بعضها رفع شعار «علبة سجاير أمريكاني تقابل رصاصة في صدر فلسطيني».. لكن المقاطعة لم تقتصر على السجائر وحدها، بل امتدت لتشمل البضائع الأمريكية كافة، وأعلن البرنامج عن الجهات التي ترشد عن هذه السلع وعناوينها وتلفوناتها.. كانت «مطاعم الوجبات السريعة ومقاهي أعداء الأمة العربية» في مقدمة الأهداف.. واندفعت الحملة لتطال مجالات عديدة أخرى إذ طالب الفنانون بمقاطعة الأفلام الأمريكية، وهدد الطيارون بإيقاف الرحلات إلى الولايات المتحدة، ونادت النقابات المهنية وكذلك اتحادات الطلاب كافة بالمقاطعة، وكان في مقدمتهم كالعادة طلاب الجامعة الأمريكية الذين ذهبت إلى مؤتمرهم السنوي لأحييهم على دورهم، وأحيي جيل كامب ديفيد كله الذي قاد المقاطعة، ودعوت لاستخدام سلاح الإنترنت سواء لمقاطعة إسرائيل أو للدعوة لقضيتنا..

وصلت حملة المقاطعة إلى مجلس الشعب، وتصاعدت المطالبات من جهات عدة بإيقاف تصدير الغاز إلى إسرائيل، وانتفض عمال ميناء الإسكندرية فأضربوا عن شحن وتفريغ السفن الإسرائيلية، وانعقدت الغرف التجارية جميعا لتبحث دورها في المقاطعة تحت شعار «عار أن إسرائيل تحتل المرتبة الخامسة لأسواق الصادرات المصرية»، ورفض كبار الأدباء المصريين (د. جابر عصفور وبهاء طاهر وصنع الله إبراهيم وإدوارد الخراط) المشاركة في مؤتمر للرواية عقد في واشنطون، وتنازل مكتب جرانة عن كل التوكيلات الصادرة له من الشركات الأمريكية.. وكلما كانت الحملة تهدأ قليلا، كانت تعود للاشتعال بسبب الاعتداءات الإسرائيلية التي بلغت ذروتها في مارس ٢٠٠٢ في عملية «الجدار الواقي» العسكرية وبسبب السياسة الأمريكية المساندة لإسرائيل بوقاحة، حتى إن السيدات الأمريكيات اللائي كن يقمن في مصر عندئذ نظمن مظاهرة إلى السفارة الأمريكية في القاهرة وهن يرتدين الملابس السوداء احتجاجا على صمت البشرية على العدوان..

كثيرا ما رددت وقتها في «رئيس التحرير» قصائد الحماسة للشعراء الكبار مثل صلاح عبد الصبور، ومثل فاروق جويدة خاصة في قصيدته «إلى آخر شهداء الانتفاضة»، أو أمل دنقل في ندائه الأشهر «لا تصالح».. لكنني كنت أتذكر بين حين

وآخر عبارة مأثورة راقت لي كثيرا للكاتب الصحفي حمدي عبد الرحيم في جريدة العربي، قال فيها: «إن الله لا يقبل صلاة بغير وضوء، وفلسطين لا تقبل مظاهرة من غير مقاطعة».. ولم أكن بحاجة إلى تهييج أو تسخين، فقد تكفل معظم كتاب الصحافة المصريين والعرب بنقل مشاعر الجماهير الغاضبة والدعوة إلى مزيد من الغضب الذي انصب في المقاطعة.. كانت الحملة قد انتشرت في أرجاء الوطن العربي حتى إنها وصلت إلى السعودية، ورأيت بنفسي عددا من مظاهرها عندما دعيت إلى مؤتمرات للمقاطعة انعقدت في لبنان والأردن.. وعندما ذهبت إلى الشارقة لإلقاء محاضرة في الإعلام في الجامعة الأمريكية مررت في طريقي بعدة أنشطة قام بها الطلاب الداعون للمقاطعة..

لكنني كنت طوال الشهور التي تحدث فيها البرنامج عن المقاطعة أؤكد على أمرين؛ الأمر الأول هو أن نحرص على سلمية المظاهرات.. «مش حنخرب حاجة واحنا في المظاهرات.. مش حنحدف طوبة على مطعم هامبورجر.. حنعرف نوجع المطاعم دي صحيح لما ما ناخدشي منها صباع بطاطس».. وعندما نشر في الصحف خبر أن شرطة الإسكندرية ستقوم بحماية المطاعم الأمريكية قلت: «إحنا اللي حنحمي المطاعم مش الشرطة.. حنحاوط إحنا المطاعم، وبالمرة نفكر اللي داخل إنه عيب عليه يدخل».. وفي أكثر من مرة كنت أذكِّر المشاهدين: «هوه احنا يعني من إمتى بناكل هامبورجر، ما طول عمرنا بناكل فول وطعمية وبناكل كشري»..

أما الأمر الثاني الذي كنت أشدد عليه فهو أن تكون المقاطعة إيجابية، بمعنى أن تترافق مع الدعوة للإقبال على المنتج الوطني.. والحق أن هيئات عديدة، بالإضافة إلى بعض الصحف، ساهمت في ذلك بنشر قوائم تحت عنوان «دليلك لبدائل السلع الأمريكية».. وكنت أدعو ـ بدلا من شرب الكولا ـ إلى شرب الخروب والكركديه والتمر هندي والعرقسوس.. وعندما قلت: «ماله العرقسوس؟» صارت مثلا حتى إن كثيرين ممن كنت ألقاهم كانوا، قبل أن يسألوني عن الحال، يسألون: «ماله العرقسوس؟»..

كنت أذكِّر الناس أيضا بقصة فخري بك عبد النور، وكان أحد أقطاب حزب الوفد أيام ثورة ١٩١٩.. ولما زادت سطوة الاحتلال الإنجليزي لمصر، وبعد أن نفى

الإنجليز سعد زغلول إلى جزيرة سيشيل، وجه سعد نداء إلى الأمة لمقاطعة البضائع الإنجليزية.. عندها أحرق فخري بك كل الملابس التي اشتراها من إنجلترا، ورمى كل المنتجات الإنجليزية التي كانت في بيته من الشباك، وبدأ يبحث هنا وهناك عن كولونيا مصرية تناسبه.. ودله أولاد الحلال على كولونيا شعبية كانت رائجة في هذا الحين اسمها «ريحة القسيس»، وكانت كالسبرتو الأحمر تحرق الجلد، وكلما كان يضعها بعد الحلاقة كان يصيح: «منك لله يا سعد باشا، لكن برضه حاشتري ريحة القسيس»..

وحاولت أن أضرب المثل، فأغلقت أنا ونجلاء حسابينا في البنك المصري الأمريكي، كما أعدت بطاقة ائتمان «أميركان إكسبريس» إلى الشركة بعدما تعاملت بها ٢٥ سنة، ومن ناحية أخرى اتفقت مع شركة مصرية هي «فستيا للملابس الجاهزة» على تفصيل بدلات لي بسعر معقول داومت على الظهور بها في البرنامج، واقترحت الشركة أن تقدمها لمن يريد من المذيعين بسعر رمزي مقابل ذكر اسمها في عناوين البرامج، واستأذنت المسئولين في التلفزيون في ذلك فوافقوا، وبدأ تطبيق الاتفاق في حلقة أول إبريل ٢٠٠٢..

كنت أعتبر أن حملة «اشترِ المصري» ركن هام من حملة المقاطعة التي ظللت وفيا لها.. اعتبرتني الصحف الإسرائيلية وقتها واحدا من الأعداء الأُوَلِ لإسرائيل ولأمريكا أيضا، وأجريت معي أحاديث في صحف أجنبية، كان أكثرها تفصيلا ذلك الذي أجراه الصحفي أنتوني شديد في صحيفة «بوسطون جلوب» الأمريكية، وتحدث فيه شديد عن أنني «غارق حتى أكمامي في مبادئي حتى إنني لا أرتدي ملابس أمريكية وإنني أدخن سجائر ألمانية وأركب سيارة إنجليزية» (النص في ملحق رقم ٢)، ومن بعده نشر تقرير لوكالة «أسوشيتد برس» قالت فيه إن «شقتي مفروشة بأثاث من إيطاليا وفرنسا».. ومع ذلك خرج كاتب مصري ليزوِّر الحقائق بوقاحة يحسد عليها في جريدة «الشرق الأوسط» تحت عنوان «جماعة لن نسمح»، فيقول إن هناك أيضا «نمط المذيع الذي يضع الكوفية خلفه ثم إذا ما زارت الأسوشيتد برس بيته لم تجد منتجا واحدا غير أمريكي»..

لكن الدكتور عبد المنعم سعيد كان أكثر دهاء في ترصده للبرنامج؛ إذ إنه لم يكن يشير إلى وقائع محددة أو حلقة بعينها، لكنه في يوم ١٩ نوفمبر ٢٠٠١ كتب مقالا في «الأهرام» اعتبره القراء يومها بلاغا إلى السلطة ضدي، ولم يكن ذلك غريبا؛ إذ إن عبد المنعم سعيد كان حانقا على «رئيس التحرير» ربما لأن برنامجه «وراء الأحداث» كان دائما الأخير في أي استفتاء يقوم به التلفزيون أو تقوم به الصحف، في حين أن «رئيس التحرير» كان دائما في القمة، لكن الأهم من ذلك أنه كان واحدا من أقطاب جماعة كوبنهاجن البارزين الذين كانوا يدعون إلى مسالمة إسرائيل، ولم يكتفِ بهذا بل استضاف نائب وزير الدفاع الإسرائيلي إبراهام سنيه في حلقة برنامجه «وراء الأحداث» التي أذيعت في اليوم نفسه الذي نشر فيه المقال.. وقد اعتبر الأستاذ محمد مهاود ذلك في مقال له في جريدة الوفد «فضيحة كبرى»، ووصف ما حدث بأنه «سابقة في التاريخ، أن يستضاف إسرائيلي على شاشة التلفزيون المصري، ومصيبة أن يطل علينا هذا السفاح من نفس النافذة التي يطل علينا منها حمدي قنديل»..

أما الدكتور عبد الحليم قنديل فقال إن «لوبي التطبيع والفساد» انقض على البرنامج، فيما سمته بعض الصحف «موسم التحريض ضد رئيس التحرير».. وكان البعض قد كتب «رئيس تحرير أم رئيس تحريض؟»، وهاجموا «النبرة العالية في البرنامج».. ومرة أخرى كتب عبد المنعم سعيد (٣٠/ ١١/ ٢٠٠٢) يشير إلى حديث لي عن الشهداء المصريين في الانتفاضة الفلسطينية، ويسأل: «ما المطلوب على وجه التحديد؟ هل نريد أن نستعيد تاريخا كانت فيه القضية الفلسطينية مرة بعد المرة تؤدي إلى استدراج مصر إلى صراع مسلح يستنزف قدراتها وأرصدتها لسنوات طويلة قادمة؟»..

ولكن مجلة «روز اليوسف» كانت ركيزة الهجوم على البرنامج، وكانت علاقتي طيبة للغاية برئيس تحريرها محمد عبد المنعم، بل إننا وعائلاتنا كنا نتزاور، لكنه توقف عن الاتصال بي عندما أوقفت قناة ANN برنامجه فيها، وطلبت مني في وقت مقارب أن أقدم لها برنامجا أسبوعيا (اعتذرت عن عدم تقديمه)، ثم عرض عليَّ أصحابها، وهم أبناء نائب الرئيس السوري السابق رفعت الأسد عم الرئيس بشار، أن أتولى إدارة المحطة، ودعوني إلى لندن لبحث العرض، وسعى صديقي الصحفي

المخضرم عرفان نظام الدين بين الجانبين لإبرام العقد وأنا هناك، إلَّا أنني اعتذرت لاختلافي مع سياسة القناة..

وفي «روز اليوسف» أيضا كتب رؤساء تحرير وكتاب آخرون.. ولم يكن يزعجني انتقاد البرنامج في المجلة أو في غيرها من الصحف، فقد كان هذا من طبيعة الأمور في العمل العام، وكان هناك كُتَّاب كبار لهم ملاحظاتهم التي كنت أوليها ما تستحقه من اعتبار.. وعلى أي حال فقد كان الذين ينوبون عني في الرد كثرا، ولعل أقصر رد على «روز اليوسف» كان عنوان مقال نشرته جريدة «العربي» للأستاذ سليمان الحكيم، وكان عنوانه «رذل يوسف»!

كانت المشكلة التي واجهتني مع ماسبيرو في عام ٢٠٠٠ تافهة للغاية، ومع ذلك لم يستطع المسئولون حلها طوال العام، فعندما نقل البرنامج إلى القناة الثانية تحدد موعده في الوقت نفسه الذي يبث فيه على القناة الأولى برنامج أحمد فراج «نور على نور»، وقد أثار هذا الكثيرين من المشاهدين، وكان نموذجا بائسا لسوء التخطيط أو سوء النية، وكتبت معظم الصحف تناشد التلفزيون الفصل بين البرنامجين، وطالبنا أنا وأحمد فراج بذلك كتابة وشفاهة عدة مرات..

لم يكن بمقدور المسئولين في التلفزيون في شهر ديسمبر أن يتجاهلوا مشكلة البرنامجين المتقابلين عندما ظهر الدكتور محمد عمارة في برنامجي وفي «نور على نور» في وقت واحد، فذهبت مع أحمد إلى رئيس الاتحاد، واعترافا مني بقدر الصديق، الزميل الأقدم في المهنة، قدمت مذكرة أسجل فيها استعدادي لنقل برنامجي إلى أي موعد آخر أو قناة أخرى شريطة أن يعلن عن ذلك بكثافة، وأرسلت صورة من المذكرة إلى الوزير فأنهى المشكلة بتوقيع منه، وأصدر كذلك في اليوم نفسه قرارا بأن يذاع «رئيس التحرير» أسبوعيا، وأن تكون مدته ساعة وربع الساعة.. كنا عندئذ في أوائل عام ٢٠٠١..

شهدت تلك الفترة انتعاشا كبيرا في البرامج الإخبارية، عرضت كلها في القناة الثانية المغضوب عليها فأصبحت قناة سياسية بامتياز.. قدم حسن حامد برنامجا وقورا «هنا القاهرة»، وقدمت سناء منصور، وكانت وقتها قد تولت رئاسة القناة

الفضائية، برنامجا بائسا باسم «الظل الأحمر».. كتبت صحف تشيد بـ «عودة الكبار»، ورأت صحف أخرى أن ما يحدث هو «انفجار بركان البرامج الإخبارية»، فقد كانت هناك برامج أخرى مثل برنامج «وجها لوجه» الذي كان يقدمه نصر نصار، وبرنامجيْن لافتيْن هما «مطلوب للتعقيب» لفريدة الشوباشي و«أخبار الناس» لرولا خرسا التي خطفت انتباه المشاهدين، وكان هناك أيضا برنامجان آخران لم يستحوذا سوى على نسبة مشاهدة ضئيلة في الاستبيانات التي كان يقوم بها اتحاد الإذاعة والتلفزيون، هما البرنامجان اللذان كان يقدمهما طه عبد العليم وعبد المنعم سعيد.. وبعد عدة أشهر قدم عمرو الليثي برنامجا كان يبذل فيه جهدا ملحوظا هو «اختراق»، ثم أتي برنامج عبد اللطيف المناوي الرصين «البعد الثالث» فيما بعد، وفسرت بعض الصحف هذه الظاهرة بأن «رئيس التحرير» سبب رواجا للبرامج الإخبارية التي أصبحت تنافس برامج الترفيه، واستشهدت إحداها بتقييم التلفزيون لبرامجه في رمضان التي تصدرها «رئيس التحرير» ومسلسل «الحاج متولي» معا.. أما أنا فكنت أعتقد أن دوري الأهم لم يكن فتح الباب أمام البرامج الجديدة بقدر ما كان رفع سقف الحرية والاعتراض على الأوضاع السائدة..

قالت لي سيدة ريفية بسيطة قابلتها في الطريق: «إنت أول واحد يطلع في التلفزيون ويقول اللي ناس كاتماه في قلبها».. وعلى الرغم من أنني كنت أحمد ربي دائما أنه أجرى على لساني ما يريده الناس، فإنني كنت كثيرا ما أستعيد في أذني عبارة السيدة الريفية وأسائل نفسي بين حين وآخر إذا ما كانت لا تزال عند رأيها.. أضفت في ذلك العام فقرة إلى البرنامج خصصتها لشكاوى المشاهدين، ولم أكتفِ بعرض الشكاوى في البرنامج، ولكنني طلبت من مساعدي ماجدي عبد الحميد أن يتفرغ لفرزها ومتابعتها، وكنت أرفق كل شكوى نتعرض لها بخطاب أوجهه إلى الوزير المسئول.. وبالطبع، واصلت استضافة المسئولين الكبار لأواجههم بما يواجه الناس من مشكلات..

كان عمرو موسى وزير الخارجية عندئذ واحدا من أفضل من واجهتهم، وكان ذلك في نوفمبر عام ٢٠٠٠، وبسبب الصداقة التي تربطنا فقد حرصت على أن تكون المواجهة ساخنة، أما هو فكان صريحا وواثقا وبليغا أيضا، حتى إن الروائي الكبير خيري شلبي اعتبر الحوار أفضل حوار في تاريخ التلفزيون في مصر.. لكن

أفضل إنجاز حققته فيما يتعلق بالحوارات كان اقتناع كبار الشخصيات بالحضور إلى برنامج تلفزيوني لا لساعة كاملة كما فعلت مع عمرو موسى، ولكن لدقائق معدودة.. قبل «رئيس التحرير» كانت الشخصيات البارزة تسأل عندما تستدعى للحديث في التلفزيون كم مدة الحديث، وكان معظمهم يرفض إذا ما كانت المدة تقل عن نصف الساعة، لكن «رئيس التحرير» أكد أن المهم ليس المدة وإنما ما يقوله الضيف، خاصة إذا ما قاله في برنامج يشاهده الناس.. وكنت أردد دائما أن ضيفي الدكتور أحمد الربعي جاء من الكويت خصيصا للبرنامج، ولم يتحدث فيه أكثر من تسع دقائق..

كان كثير من المسئولين يعتذرون عن عدم المشاركة في البرنامج لسبب مختلف تماما، هو أن البرنامج لا يساوم بل يمضي في الشوط إلى آخره، وبالفعل أجهز البرنامج على عدد من المسئولين أظن أن أولهم كان حسين الجمال أمين عام الصندوق الاجتماعي الذي واجهته بعدد من قضايا الفساد في الصندوق فلم يستطع إقناع أحد برده.. ولم يأخذ سامح الترجمان رئيس البورصة عبرة مما حدث عندما قبل دعوتي ليواجه النائب المستقل كمال أحمد الذي كان قد قدم ضده استجوابا في مجلس الشعب.. كان كمال أحمد متألقا، وكان مستعدا بسيل من الوثائق درسها جيدا.. وقتها نشرت صحيفة «الوفد» مقالا للأستاذ عبد الرحمن فهمي قال فيه: «بعد البرنامج لا حاجة لنا إلى إرسال موضوع البورصة إلى النيابة العامة.. الآن في مقدورنا أن نحوله إلى محكمة أمن الدولة»، أما الأستاذ محسن حسنين فقال في مجلة أكتوبر: «إن الترجمان ذبح، لكنه هو الذي أعطى السكين لجزاره».. واستقال الترجمان بعد ذلك بالفعل.. لكنه في أحيان أخرى لم يكن في «الفورمة»، كما حدث عندما استضفت وزير الإسكان محمد إبراهيم سليمان..

حديث آخر في البرنامج أثار ضجة كبيرة هو ذلك الذي أجريته مع المطرب الشعبي شعبان عبد الرحيم، وكان ذلك بعد أغنيته الشهيرة «باحب عمرو موسى وباكره إسرائيل» التي وصلت أصداؤها إلى قناة CNN.. وقد ترددت قليلا في استضافته، ولكنني عندما علمت أن شرائطه وزعت ٦ ملايين نسخة، وهو رقم غير مسبوق في توزيع الشرائط الصوتية، اتصلت به على الفور.. كنت أريد أن أعرف، ويعرف الناس، ما الذي يملكه هذا الرجل من مواهب ولماذا يقبل عليه الجمهور وينفض عن غيره..

وعندما جاءنا إلى الإستوديو كنت حريصا على أن يظهر في أفضل صورة ممكنة حتى لا يظن أحد أننا أتينا به لنسخر منه ومن ملابسه.. وكان ظهوره مفاجأة في برنامج سياسي جاد على الرغم من أن الحديث دار حول إسرائيل وعمرو موسى وCNN وما شابه، وكانت أول مرة يتعرف فيها الرأي العام على شخصية شغلت المصريين كثيرا في الشهور التالية.. انقسم المشاهدون، وكذلك الصحف، في استقطاب حاد بين فريقين؛ أحدهما رحب بظهوره على الشاشة باعتبار أنه يمثل لونا من التراث الشعبي بل ويمثل نبض الشارع؛ وفريق آخر اتهمني بأنني أشهِّر بالثقافة المصرية..

ولا أزال أعتقد أن استضافة شعبان عبد الرحيم في «رئيس التحرير» كان قرارا صائبا، فقد كان ظهور أغنيته مهما اختلفت الآراء حولها حدثا لا يمكن تجاهله.. الذي آسف عليه أن ذلك فتح الباب أمام شلال من البرامج دعته للظهور على شاشتها لمجرد الرغبة في السخرية، وبلغ عدد هذه البرامج ستة في أقل من أسبوع حتى إن الأمر نوقش في لجنة الثقافة والإعلام والسياحة في مجلس الشورى التي انتقدت التلفزيون بشدة.. وقال الكاتب الصحفي صلاح منتصر عضو المجلس: «الأخطر أن شعبان عبد الرحيم استضيف في برنامج رئيس التحرير، وحصل على شهادة من البرنامج بأنه الفنان الشعبي الحقيقي مع أن ما يقدمه يهبط بالذوق العام»، وقال آخرون إن أغنية شعبان تهبط بصراعنا مع إسرائيل إلى منحدر لا يليق..

كانت إسرائيل هدفا دائما لطلقات البرنامج، ولم يكن هذا مريحا بحال للرقيب، وكثيرا ما اصطدمنا بشأن ما أقول، ولا أزال أحتفظ حتى الآن بالنصوص المكتوبة لحلقات «رئيس التحرير» كافة بإشارات الرقباء وتوقيعاتهم على الفقرات والجمل والكلمات المحذوفة، شاهدا على القمع الرسمي، الغبي في أحيان كثيرة.. ولا أزال أتعجب أن أحدا من الدارسين للإعلام لم يلجأ لي ليجري دراسة لا بد أنها ستكون فريدة ومثيرة في تسجيلها لهذا القمع.. في إحدى المرات كنت قد وصفت شيمون بيريز بالنازي، وصمم الرقيب على حذف العبارة، وعندما وصل الأمر إلى محمد الوكيل رئيس قطاع الأخبار حذف الفقرة كاملة.. وعلى الرغم من أنني كنت أجادله في كثير من الأحيان، فإنني كنت أعرف سلفا أنني لو شكوت لصفوت الشريف في هذه الحالة بالذات فلن أحصل منه على شيء؛ ذلك لأنه كان قد نبهني من قبل أن

«مبارك» منزعج للغاية لأني وصفت الإسرائيليين بالسفلة، وكنت قد خففت من تكرار هذا الوصف لكنني لم أتوقف عنه على الرغم من ذلك..

في مرة أخرى نقل لي الوزير استياء مبارك من انتقادي للوزير سيد مشعل بسبب بقائه عضوا في مجلس الشعب على الرغم من أحكام القضاء (في النهاية صدر حكم بصحة انتخابه)، فقلت له: «يا صفوت بك: ألم تلاحظ أن سيادة الريس دائما ما يكون مستاء من برنامجي؟ أليس في البرنامج شيء يعجبه، وإذا ما أعجبه شيء فلماذا لا يطلب منك إبلاغي بذلك؟».. بعدها بعدة أيام اتصل بي صفوت الشريف، وكنت في مهمة في عمَّان، وقال: «آهوه يا سيدي سيادة الريس مبسوط النهاردة».. لا أذكر تماما لماذا كان «الريس مبسوط» يومها، والأرجح أنه كان بسبب حديثي عن ضرورة وضع ضوابط لأداء العمرة، لكنني لم أكن متأكدا تماما من ذلك، وكنت أرجح أن المكالمة من وحي أفكار الوزير..

إذا طلبت مني اليوم شهادة في صفوت الشريف فشهادتي هي أنه «معلم» يعرف تماما التوازنات ويجيد التصرف في الأزمات لحساب النظام، كما أنه الوزير الوحيد من غير أهل الإعلام الذي يعرف عن الإعلام أكثر مما يعرفه عديد من الإعلاميين أنفسهم، ولا يمكن لأحد أن ينكر أنه هو الذي أطلق أكبر مشروعين إعلاميين في العقود الأخيرة؛ أقمار «نايلسات» ومدينة الإنتاج الإعلامي، لكنه في النهاية شريك مؤسس في عصر مبارك الفاسد، وراعٍ لفساد مؤسسة الإذاعة والتلفزيون.. مع ذلك فقد كان بالنسبة لي رجلا أستطيع أنْ أتفاهم معه لسبب لاجدال فيه، أنه على قدر كبير من الذكاء والدهاء أيضا.. بقدر ما عانيت من ألاعيبه بقدر ما كنت أستمتع بهذه الألاعيب خاصة إذا ما كنت أكشف مقاصدها، ولكنه في أحيان أخرى كان يحدثني بصراحة دون لف أو دوران..

في إحدى المرات صمم رقباء قطاع الأخبار ألا أذكر شيئا عن قضية يوسف عبد الرحمن وكيل أول وزارة الزراعة المتهم الأول في قضية المبيدات المسرطنة (الذي كان قد صدر ضده حكم بالسجن عشر سنوات فيما بعد)، وعندما لجأت إلى صفوت الشريف قال: «يا حمدي أنا الذي أصدرت هذه التعليمات»، ولما سألت

عن السبب، أجابني: «بصراحة، السبب أن الدكتور مصطفى أبو زيد فهمي أول من تولى منصب المدعي العام الاشتراكي هو محاميه، وقد رجاني الدكتور مصطفى ألّا نشهِّر بالرجل».. قلت: «ولكننا لا نشهر به.. ثم، كيف نسكت عنه في حين نتحدث عن عبد الله طايل رئيس بنك مصر إكستريور؟» (الذي حكم عليه بالسجن عشر سنوات هو الآخر).. رد بحسم: «قلت لك كل ما عندي»، فعاودت أقول: «ليس أمامي يا صفوت بك إلّا أن أتحدث عن القضيتين أو أصمت عن كليهما».. قال: «هذا قرارك».. ولم أجد بدا من أن أسكت عن القضيتين على مضض.. وتكررت مثل هذه المواقف عدة مرات، فعندما كان يكشف عن مقاصده كنا كثيرا ما ننهي سريعا نقاشنا الحاد، وعلى الرغم من أنه كان يود أحيانا أن يفتك بي فإنه كان كثيرا ما يداعبني..

في مرة أخرى نبهني صفوت الشريف إلى أنني الوحيد على شاشة التلفزيون الذي يسمي مبارك «الريس»، هكذا «حاف» بدلا من «سيادة الريس».. قلت لأن برنامجي قائم على أنني أتحدث مع المشاهدين كما لو كنت جالسا معهم في بيوتهم، والناس في بيوتهم عندما يتحدثون إلى بعضهم البعض ويأتون على ذكر الرئيس فهم يلقبونه بالريس وليس سيادة الريس.. قال الوزير: «أنت تجادل والسلام»، فقلت: «لا يا صفوت بك.. يعني سيادتك مثلا وأنت تتكلم في البيت مع الهانم عن الرئيس، هل تقول الريس أم تقول سيادة الريس؟».. ضحك الوزير ضحكة مجلجلة وقال: «طبعا باقول سيادة الريس.. دي عايزة كلام»..

أزمتي الحقيقية مع مبارك كانت عندما التقى مع كبار الصحفيين والكتاب في الاجتماع الذي يعقده سنويا بمناسبة المعرض الدولي للكتاب، وكنت قد حضرت الاجتماع مرة واحدة، وانتظرنا ساعات حتى جاء مبارك، فأقلعت عن الحضور بعد ذلك.. قبل الاجتماع بأيام كنت قد نقلت في البرنامج خبرا نشر في الصحف أن الدولة أنفقت ٧ ملايين جنيه على طبع أجندات العام الجديد، وأطلت في تسفيه هذا التبذير، واختتمت الفقرة بالقول: «بلد أجندات صحيح».. عندما تحدث الرئيس في الاجتماع بدأ حديثه بأنه شاهد التلفزيون قبل أيام فإذا به يجد «واحد طالع لي بيقول: بلد أجندات»، وطلب من رئيس الوزراء عاطف عبيد أن يشرح للحضور كيف أن طبع الأجندات يشغِّل المطابع الأميرية، ويدر على الدولة أرباحا محققة من

وراء هذا التشغيل، وهو أمر لا علاقة له بالموضوع الأصلي، ولكن عاطف عبيد نفذ التعليمات بهمة، وبعدها أخذ الرئيس يسخِّف في أولئك الذين ينتقدون الحكومة بسبب وبلا سبب..

اتصل بي صفوت الشريف بعد انتهاء الخطاب بنحو ساعة وكنت قد علمت بما جاء به.. قال إنه أحب أن يبادر بإبلاغي بما حصل قبل أن يتطوع أحدهم فينقل الصورة على نحو مغلوط ويضخم فيما قاله الرئيس.. قلت: «يا صفوت بك، في كل الأحوال أنا أبلغك من الآن أنني سأقوم بالرد على الرئيس في الحلقة القادمة».. قال: «مستحيل»، فكان ردي: «المستحيل هو بقائي في التلفزيون دون أن أرد».. وفي الحلقة التالية قلت ما خلاصته إنني لا أفهم لماذا يزعل الرئيس، خاصة وإن الخبر صحيح، وإنه ليس من عادتي أن أروِّج أخبارا كاذبة، وحتى إذا ما كان الخبر كاذبا، فلماذا لا يكلف الوزراء أنفسهم عناء التصحيح؟ وفي حدود ما أعلم كانت جريدة «القبس الكويتية» هي الصحيفة الوحيدة التي علقت على ردي، فوصفته بأنه كان «مهذبا وقاطعا»..

كان «رئيس التحرير» واحدا من المواد المفضلة لدى الصحف العربية إذا ما تطرقت إلى شئون التلفزيون، وفي ٢٠٠١ قالت مجلة «الإيكونوميست» إن «رئيس التحرير» هو أوسع البرامج انتشارا على الشاشة المصرية، وكان هذا أيضا ما أشارت إليه صحيفة «لوموند» الفرنسية في تعليقها على البرنامج الذي قالت إن الرأي العام يرى أنه أقوى من كل برامج قناة «الجزيرة»، أما مراسل وكالة «رويترز» في القاهرة «أندرو هاموند» فقال إن «قنديل أشرس انتقادا من الآخرين، وإنه يستخدم قدرا كبيرا من التهكم، ويكون أحيانا في منتهى القسوة، ويحظى بجمهور كبير».. وبالطبع، فقد سعدت بما نشر في هذه الصحف والوكالات، إيجابا وسلبا، لكنني - أعترف - أنه لم يمس مشاعري مقال حتى اليوم بمثل ما مسها مقال الأديب الكبير خيري شلبي، الذي نشره تحت عنوان «النفَّاذ» بمجلة الإذاعة والتلفزيون، ولذلك أستأذن القارئ في نشر بعض سطوره، لا لأنه أسبغ عليَّ فيها من الصفات ما أود أن أرتقي إليها؛ ولكن لأنه تناول في المقال بعض جوانب العملية الإعلامية بتحليل ثاقب (النص في ملحق رقم ٣)..

وصل رواج البرنامج إلى الذروة عندما بدأ بثه أسبوعيا في ٢٠٠١، وقد بدا ذلك جليا في حجم الإعلانات التي بلغت نحو ٢٠ دقيقة في الحلقة، وارتفع سعرها ١٥٠٪.. ومع تصاعد أسهم البرنامج كان قلقي يزداد.. كنت أعرف تماما أن المسئولين قد يكونون سعداء بأن «رئيس التحرير» اجتذب المشاهدين للالتفاف حول تلفزيون الدولة، لكنه من المؤكد أنهم أحسوا بأنهم تورطوا في البرنامج وتمنوا لو حانت فرصة لاغتياله، أو لاستفزازي حتى أرحل بنفسي، ومع ذلك فقد واصلت الدعوة لكل ما أعتقد أنه الحق.. كنت دائما ما أستدعي قولا لمصطفى أمين إنه «عندما يكتب مقاله اليومي يكتبه كما لو كان آخر مقال له»، وكنت أنا الآخر، على المنوال نفسه، عندما أقدم حلقة من «رئيس التحرير» أقدمها كما لو كانت الحلقة الأخيرة..

لكنه على الرغم من كل الثقة بالنفس التي كانت تبدو واضحة وأنا أقدم البرنامج، فإنها كانت تخفي قلقا بالغا، خاصة في الساعات السابقة على التسجيل عندما أكون قد انتهيت من اختيار موضوعات النقاش واتصلت بالضيوف وكتبت النص، وكانت الشكوك عادة ما تساورني فيما إذا كانت اختياراتي صحيحة، وما إذا كانت جملة ما هي الأدق في التعبير عن موقف معين أو أن ضيفا دون غيره هو الأنسب لمناقشة الموضوع المطروح، لكنني كنت أنسى هذا كله عندما أدخل الإستوديو.. عندئذ أكون في أفضل حالاتي وأنا أرى عيون الناس الذين أخاطبهم في عدسات الكاميرا.. وبعد أن أنتهي تبدأ دورة أخرى من القلق والأرق حتى يذاع البرنامج وأنا أقلب في ذهني كل ما قلت وما قاله ضيوفي، وما سيحدثه هذا وذاك من صدى طيب أو بائس هنا أو هناك.. لم تتغير هذه الدورة قط منذ أول يوم ظهرت فيه على الشاشة حتى آخر حلقة من حلقات برامجي.. وعندما يذاع البرنامج أجلس أمام التلفزيون لأشاهد البرنامج وكأنني أشاهد شخصا آخر غريبا عني، وأحاول أن أستخلص من ذلك ما يفيد، ثم أقلب الصفحة، لكني لا أغلقها تماما إلّا إذا تلقيت المكالمة المعتادة من صديقي الدكتور عدلي الشربيني، أستاذ التخدير في قصر العيني، الذي يعطيني التقييم الصادق لما شاهده سلبا وإيجابا..

كانت حلقة أول إبريل ٢٠٠٢ هي الحلقة التي أصابتني بأكبر قدر من القلق والتوتر.. كان ياسر عرفات محاصرا وقتها في المقاطعة؛ لذلك لم يستطع حضور

مؤتمر القمة في بيروت خشية أن يمنعه الإسرائيليون من العودة، فشارك في نقاشات المؤتمر من خلال دائرة فيديو مغلقة، وكان هذا أمرا مهينا للغاية، للرؤساء والملوك لا لعرفات نفسه، وإثر انعقاد القمة قامت إسرائيل بعملية الاجتياح الكبرى للأراضي الفلسطينية.. استفزت هذه الأحداث الجماهير العربية، فوجدت أن الموقف لا يحتمل الكلام، وقررت اختصار البرنامج قدر الإمكان وإلغاء ندوته المعتادة، وحذف الشكاوى وكذلك الأقوال المأثورة، واختصار التعليق فيما يشبه رسالة موجهة إلى القادة العرب وإلى الجماهير في آن واحد.. وعندما سجلت الرسالة بلغ طولها نحو ١٤ دقيقة، فأبلغت صفوت الشريف بذلك سلفا وطلبت منه أن يذاع البرنامج على هذا النحو، لكنه قال إنه لا يفضل ذلك، وأرجأ اتخاذ القرار إلى أن يطَّلع محمد الوكيل رئيس قطاع الأخبار على التسجيل..

لا أدري ما الذي حدث بعد ذلك، ولكنه عندما أذيع البرنامج لم يستغرق أكثر من ثماني دقائق، وكان المونتاج الذي أجري فيه غشيما إلى حد بالغ، وكانت الحلقة مثل جمر متقد، وخاصة عندما رددت أكثر من مرة عبارة: «رفعت الأقلام وطويت الصحف».. ظن بعض المشاهدين ليلتها أن البرنامج رفع من خريطة التلفزيون إلى غير رجعة، واعتقد البعض أن خللا فنيا قد وقع، وخرجت الصحف في اليوم التالي تتساءل: لماذا تم القطع على الهواء؟ ونشرت عناوين تقول: «توقف مفاجئ لرئيس التحرير»، أو «اغتيال الحلقة الأخيرة من رئيس التحرير»، أو «الرقابة تذبح رئيس التحرير لصالح إسرائيل»، ونشرت بعض الصحف فيما بعد النص الكامل للبرنامج قبل الحذف، ومنعت إذاعة الحلقة في اليوم التالي في القناة الفضائية..

تكهرب الموقف عندئذ، وكنت على يقين أن الحلقة ستتخذ ذريعة لحصار البرنامج وفرض مزيد من القيود عليه.. مرة أخرى كتب عليَّ أن أخوض معركة جديدة.. لا أنكر أنني أحسست يومها بإرهاق شديد، أو ربما كان هو الملل من صراع بدا كما لو لم تكن له نهاية.. كانت هذه هي المرة الأولى التي تطوف فيها ببالي فكرة التقاعد من هذه المهنة التي لم توصف جزافا بأنها «مهنة البحث عن المتاعب».. تذكرت وقتها عرض فاروق حسني وزير الثقافة الذي قدمه قبل ذلك بعام تقريبا لأتولى إدارة مهرجان القاهرة السينمائي الدولي، بعد أن استقال الفنان الكبير حسين فهمي من هذا المنصب.. قلت للوزير عندها إنه ليس لديَّ وقت لأي عمل إضافي فأغرقني بفيض من الكلام الحلو،

وكان يعرف أنني أقدره، ولا أزال أعتبر أنه أفضل من تولى الوزارة بعد ثروت عكاشة على الرغم من أن العديد من المثقفين، خاصة اليساريين منهم، لا يشاركونني هذا الرأي.. وعندما حدثني ثانية في الأمر قلت: «إوعى يا فاروق بك تكون فاكر إني بافهم في السينما.. علاقتي الوحيدة بالسينما أتت بالنَّسَب منذ تزوجت نجلاء»..

عندما عدت إلى البيت صارحتها بفكرة التقاعد التي ساورتني، فقالت: «أنا أكيد قدامي دلوقتي واحد تاني خالص غير اللي باعرفه».. بعد عدة ساعات كنت قد استجمعت قواي مرة أخرى وبدأت في استنهاض عزيمتي، وأخذت أذكِّر نفسي أنني لا أقبل الهزيمة بسهولة، وأن المبادرة والاقتحام هما لب شخصيتي.. هكذا قررت في النهاية أن أبادر بالتصعيد على أساس أن «الهجوم أفضل وسيلة للدفاع»، واتصلت بصفوت الشريف أطلب منه عقد اجتماع يفرِّغ له من وقته ساعة على الأقل لأبحث معه المسائل كافة المتعلقة بالبرنامج، واستعرت من الكاتبة الصحفية كريمة كمال عبارة كانت قد كتبتها في مجلة «صباح الخير» قالت فيها إن «الظروف غير العادية لا يمكن التعبير عنها بشكل عادي»..

في الصباح عقدنا الاجتماع.. كنت أعلم تماما أنني ـ من وجهة نظر الدولة على الأقل ـ تجاوزت الخطوط الحمراء، لكنني كنت أعلم أيضا أن مساندة الناس لي والتفافهم حول «رئيس التحرير» هما سندي الأول والأخير بعد الله سبحانه، وكنت أعرف أن البرنامج هو ورقة التلفزيون الرابحة، وأن الرابح الحقيقي هو صفوت الشريف، وأنه يدرك قيمة المنافسة وهو أذكى من أن يوقف البرنامج.. وعندما دخلت إلى مكتبه بادرني بصوت عالٍ: «كل ده علشان ماسمعتش كلامي وخدت الحبوب»، (كان قد نصحني قبل عدة أشهر أن أتناول حبة مهدئة قبل أن أدخل الإستوديو).. واستمر الحديث طويلا، ثم استدعى رئيس الاتحاد حسن حامد، ولم نكن قد أصبحنا صديقيْن حتى ذلك الحين وإن كنت أقدره تقديرا خاصا منذ أن أشرف على قناة المعلومات منذ بداية التسعينيات وبذل فيها جهدا مميزا.. انضم أيضا إلى الاجتماع رئيس قطاع الأخبار، وانتهت الجلسة ببعض عبارات الترضية لكل الجوانب، وبأن «كل حاجة إن شاء الله حتمشي حسب الأصول».. استبقاني الوزير في مكتبه دقائق قال لي فيها إنه بعد أن شنت الصحف حملة على التلفزيون ظنا منها أننا قررنا إيقاف

البرنامج، اتصل بي الرئيس وقال: «اتركوا البرنامج في حاله».. ولست أدري إذا ما كان الرجل صادقا أم إنه اخترع الحكاية لتلميع الرئيس أم لاستمالتي.. الذي أتذكره أنه في الحلقة التالية من البرنامج مباشرة ثارت المشكلات مرة أخرى مع الرقابة عندما انتقدت النائب الصايع ونواب التأشيرات ونواب البلطجة ونواب التسقيع انتقادا لاذعا، ولكننا استطعنا أن نتخطى هذه العقدة..

أظن أن ٢٠٠٣ لم يشهد أحداثا ذات بال بخلاف التمهيد لغزو العراق؛ وهو ما أدى إلى توقف البرنامج نهائيا في شهر مارس قبل عدة أيام من الغزو على نحو ما ذكرت في فصل سابق.. وخرج ثروت مكي رئيس قطاع الأخبار يقول يوم الغزو إن التلفزيون «منع ظهور أصحاب النبرات العالية في البرامج الإخبارية»، وأخذت معظم البرامج تردد نغمة «صدام هو المسئول»، وامتنع الكل عن ذكر كلمة «الغزو» أو «العدوان»، وطالت تعليمات الحظر ضيوف البرامج أيضا فاستبعد التلفزيون منهم هؤلاء الذين يعارضون الغزو الأمريكي، وازداد اعتماد التلفزيون على مصادر الأخبار الغربية، واستخدمت نشرات الأخبار تعبير «قوات التحالف» للإشارة إلى القوات الغازية الخاضعة للقيادة الأمريكية والتي كانت قوات أمريكية في معظمها..

أما التعليق الرسمي على غياب «رئيس التحرير» فقد تراوح بين أن السبب هو اعتذار مقدم البرنامج عن تقديمه بسبب سخونة الأحداث (!)، وبين أن ذلك يأتي «احتراما لشخصية الإعلامي الكبير الذي لا يجب قطع برامجه، خاصة مع اضطرار التلفزيون لقطع المواد المعروضة أكثر من مرة لعرض الأنباء أولا بأول» (!).. لكن هذا كله لم يخدع الرأي العام، وكتب العديد من الكتاب عن الضغوط على البرنامج التي تزايدت مع اقتراب الغزو، وحذف الرقابة المتكرر للكثير مما ورد فيه، وأشار البعض إلى حلقة الدقائق الـ ١٤ التي مزقها المسئولون في قطاع الأخبار، وتساءل الكاتب الكبير فاروق جويدة: «هل كانت فرصة العدوان على العراق هي بداية العدوان على رئيس التحرير؟»، وهاجم الأستاذ سليم عزوز التلفزيون هجوما مرا بسبب ما وصفه بـ «سياسة التطفيش»..

وعندما اشتد القصف الإعلامي على التلفزيون قرر أن يقوم بمناورة بعد أن انتهى الغزو وبعد أن مرت نحو خمسة أسابيع على توقف البرنامج، فطلب ثروت مكي من مخرج البرنامج الاتصال بي لاستكشاف مدى استعدادي للعودة إلى الشاشة، وعندما

أبديت موافقتي أدلى مكي بأكثر من تصريح يعلن فيها عن استئنافي للعمل في القريب العاجل، لكنني لم أكن على ثقة من أن نوايا المسئولين قد تبدلت، بل كنت أكاد أكون متأكدا من أنهم ينوون العودة إلى سيرتهم الأولى.. وهكذا قررت أن أضعهم تحت الاختبار، فذهبت إلى لبنان بمناسبة مرور ثلاث سنوات على تحرير الجنوب اللبناني عازما مرة أخرى على إجراء حديث مع حسن نصر الله أمين عام حزب الله، وعندما تحدد موعد إجراء الحديث أبلغت مكي ذلك بالفاكس، وعدت إلى القاهرة حيث كانت الترتيبات قد بدأت لأول حلقة بعد التوقف، كان مقررا تسجيلها وإذاعتها يوم الاثنين ١٩ مايو، وأعلن عن ذلك بالفعل في عدة تنويهات على شاشة التلفزيون..

وفي يوم السبت السابق على الموعد كنت على اتفاق مع الأمير طلال بن عبد العزيز أن أجري معه حديثا حول التفجيرات التي قام بها تنظيم القاعدة في الرياض يوم ١٢ مايو، ووافق مكي على إرسال آلات التصوير إلى فندق هيلتون الذي كان الأمير يقيم به، وتم حجز الإستوديو يوم الاثنين كالعادة.. وفي ظهر السبت فوجئت بالمخرج المنفذ للبرنامج عبد الرحمن حجازي يبلغني رسالة من ثروت مكي مفادها أن البرنامج توقف شهرين؛ لذلك فإن عودته تتطلب موافقة الوزير، لكنه لم يحصل على هذه الموافقة..

وجهت رسالة بخط اليد لصفوت الشريف أخطره بأمر الاستئذان، ولكنه لم يرد.. وكنت قد علمت عندئذ أن عددا آخر من البرامج الإخبارية توقف أثناء غزو العراق، ولكنها عادت جميعا دون موافقات جديدة.. هكذا استبان لي أن وقت إسدال الستار قد حان.. كنت أعرف أن لا جدوى من الاتصال بالوزير مباشرة.. الأمر أكبر من التلفزيون ومن وزير الإعلام.. الضغط الأمريكي على مصر وغيرها من الدول العربية وصل حده الأقصى بعد غزو العراق، وأصبح مطلوبا من هذه الدول أن تبدل من خطابها الإعلامي وخطابها الديني وكذلك مناهج التعليم.. المطلوب الآن أن نأخذ مما حدث في العراق الدرس والعبرة، وما كان مسموحا به قبل الحرب لن يصبح متاحا بعدها، والمؤكد أن مساحة الحرية سوف تتضاءل، ليس في تلفزيوننا وحده وإنما في محطات التلفزيون العربية كافة..

وقد اتفق في هذا الرأي عدد من الكتاب، بينهم الإذاعي القدير السيد الغضبان الذي كتب عدة مرات في عموده بجريدة «العربي» عن الإعلام العربي والغزو

الأمريكي، وكذلك الأستاذ سيد علي في عموده «ببساطة»، أما الكاتب الكبير سلامة أحمد سلامة فقد ربط مشكلة «رئيس التحرير» بمشكلة الإعلام الحكومي «الذي لم نبرأ منه حتى الآن والذي لم يستطع أن يتحرر من كثير من القيود التي تكبله».. تم على كل حال استئصال «رئيس التحرير»..

بعدها بأيام فوجئت بالأستاذ الدكتور حسن شاكر يخبرني بعد أن قام بفحصي بأنه من الضروري استئصال مرارتي أيضا، وعندما أجرى الجراحة انفجر يضحك ساخرا: «خلاص استأصلنا مرارتك، لكن من ذا الذي يستطيع أن يستأصل من حياتنا المرار الطافح؟».. قلت: «الغريب أنه على الرغم من كل هذا المرار، فقد اكتشفت هذا الأسبوع أيضا أنني مريض بالسكر.. لا أدري من أين يجيء السكر على الرغم من أن كل شيء من حولنا مر».. قال حسن شاكر: «لا أظن أن إجابة هذا السؤال عند الأطباء».. لم تنتهِ جولتي مع الأطباء عند هذا الحد، فقد أصيبت زوجتي بأزمة قلبية ونقلت إلى مستشفى الحياة، ثم إلى فرنسا فيما بعد لتجري جراحة في تولوز.. وعندما نشر الخبر في الصحف، كلمني لواء من ديوان الرئاسة يبلغ نجلاء تمنيات الرئيس بالشفاء، ويعرض أن تنفق الدولة على العلاج، فطلبت منه إبلاغ الرئيس امتناننا وقلت إننا قادرون بفضل الله على سداد المطلوب، وكان في النهاية أكثر هونا مما كنا نظن؛ إذ اكتفى الأطباء بإجراء قسطرة في شرايين القلب..

حمدنا الله.. وعندما عدنا إلى القاهرة أخبرني صديقي أستاذ القانون الدكتور صلاح صادق أنه اتصل بوزارة الإعلام وديا يطلب إعادة البرنامج، ولما أعرض المسئولون في الوزارة عن طلبه أرسل إنذارين على يد محضر لمكتب وزير الإعلام، ومكتب رئيس اتحاد الإذاعة والتلفزيون، يطالب فيهما بإعادة إذاعة البرنامج خلال مدة ثلاثة أيام، ولما لم تتم الاستجابة للطلب أقام دعوى في مجلس الدولة بدأت الدائرة الأولى بمحكمة القضاء الإداري في نظرها في يوليو ٢٠٠٣، لكن المحكمة رفضت الدعوى في مايو ٢٠٠٥ لأننا لم نقدم ما ينفي الرد الرسمي لوزارة الإعلام من أنني أنا الذي أوقفت البرنامج، ولم أكن متحمسا للمضي في القضية من البداية؛ لذلك توقفنا عند هذا الحد..

وكان النائب عادل عيد قد تقدم هو الآخر بطلب إحاطة عاجل في مجلس الشعب بشأن منع عرض البرنامج، وكان ذلك في شهر مايو ٢٠٠٣، فرد الوزير في شهر نوفمبر بمذكرة تصدرتها ديباجة عن إيمان الوزارة بحرية الرأي والرأي الآخر «في إطار الالتزام بقيم وأهداف المجتمع»، ثم أشارت المذكرة إلى أن اتحاد الإذاعة والتلفزيون أفاد بأن «السيد مقدم برنامج رئيس التحرير توقف عن تقديمه دون اعتذار، وظلت التنويهات لمدة ثلاثة أسابيع، ولم يتقدم سيادته بمشروع أو نص كما هو مطبق ومتبع.. وبعد ثلاثة عشر أسبوعا من التوقف لم يتقدم بخطة عمل حتى يمكن إعادة البرنامج على الخريطة كما تقضي نظم العمل» (أي إنني مطالب بوضع خطة جاهزة سلفا لبرنامج يقوم على الأخبار!).. وجاء في ختام المذكرة أنه «ترتب على عدم اعتذار السيد مقدم البرنامج أن تحمَّل قطاع الشئون المالية والاقتصادية بالاتحاد الخسائر المادية الناجمة عن الإعلانات التي كان من المفترض أن تتخلل الحلقات»!

كان الاتحاد كريما للغاية؛ إذ لم يطلب مني سداد تلك الخسائر!

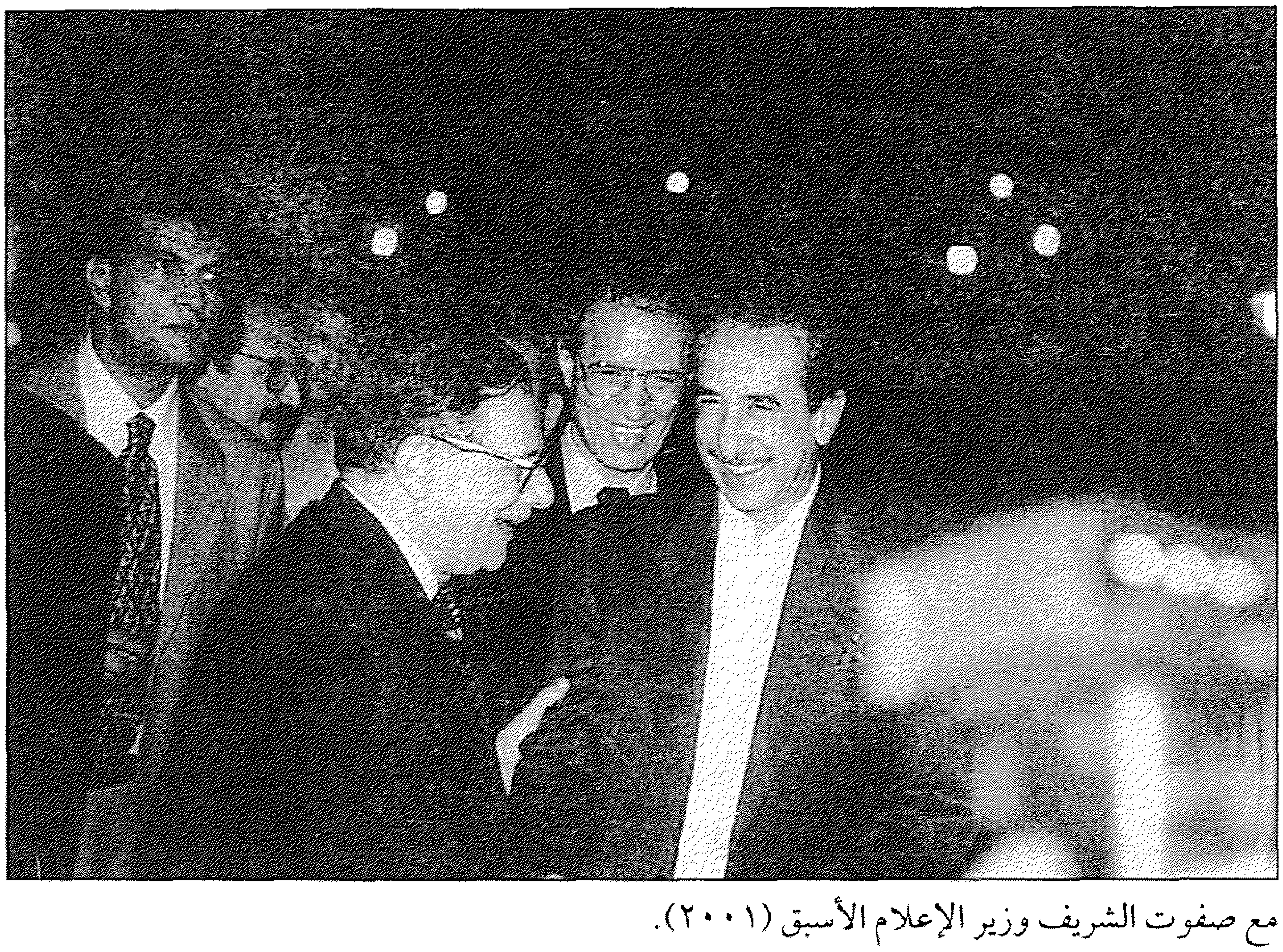

مع صفوت الشريف وزير الإعلام الأسبق (٢٠٠١).

١٩

دريم، الحلم الذي انتهى بكابوس

١٩٩١ - ٢٠٠٩

• • •

الخط الأحمر خط متغير من محطة إلى أخرى ومن وقت لآخر، ينخفض ويرتفع طبقا لتفاوت الأنظمة أو وفقا لترمومتر الأحداث، وربما يتذبذب باختلاف المسئولين والرقباء وتباين أمزجتهم، وقد يختلف موقعه طبقا لمقدم البرنامج.

• • •

عندما علم الأستاذ هيكل بمنع بث محاضرته قال: «هذا أفضل بكثير من إذاعتها.. الآن تأكدت أن الرسالة وصلت».

في عام ١٩٩١ اتصل بي رجل الأعمال المعروف الدكتور أحمد بهجت قائلا إنه يود استشارتي في أمر ما.. التقينا، وكان يرغب في إطلاق قناة فضائية، ولكنه كان يود سماع رأيي في الفكرة.. قلت: «يا دكتور أحمد، أظن أن لديك من المشكلات ما يتناسب مع حجم مشروعاتك الكبيرة، ولا أدري إذا ما كنت مستعدا لصداع إضافي.. التلفزيون عالم معقد سوف يستهلك كثيرا من وقتك، وسوف يجبرك على أن تنزلق إلى عالم السياسة.. أعرف أن هذا قد يحلق بك في السماء، ولكنه قد يخسف بك الأرض».. قلت أيضا إن الاستثمار في مجال التلفزيون أصبح مكلفا للغاية، وإن أنجح مشروعاته يظل يخسر ثلاث سنوات على الأقل.. «هذا كل ما أستطيع أن أقوله، فالقرار لا يمكن أن يتخذه أحد غيرك.. كل جوانبه تتصل بشخصيتك وبأحوالك، مادية كانت أو نفسية»..

بدا من الحديث أنه ميال لتنفيذ مشروعه، وعندما سألته عن السبب، قال: «أصارحك.. أنا أتعرض لحملة شديدة من عدد من الصحف، وكلما قمت بالرد فإن كلامي إما أنه لا ينشر بدقة، وإما أنهم ينشرونه مبتسرا أو ببنط صغير يكاد القارئ أن يقرأه، وأريد أن تكون لي صحيفة أو قناة تلفزيونية أملكها تنشر آرائي كما أريد، وربما ردعت الذين يهاجمونني أيضا.. لكن هذا ليس السبب الأول، فأنا أنفق ملايين الجنيهات في الإعلان عن مشروعاتي، فلماذا لا أضعها في وسيلة إعلامية أملكها؟»..

قلت: «ولكن هذه الوسيلة سوف تكون محدودة الانتشار في سنواتها الأولى، وإذا ما أردت الترويج لمشروعاتك فسوف تضطر إلى الذهاب إلى قنوات وصحف الآخرين».. لم يتوقف كثيرا عند ملاحظتي، واستطرد: «لعلنا قد نسينا في حديثنا ما هو أهم من ذلك كله، أن مصر تستحق إعلاما أفضل، ويجب أن يكون فيها تلفزيون خاص مستقل بالإضافة إلى تلفزيون الحكومة.. لقد درست في أمريكا، وعرفت جيدا إعلامهم، ولا أعتقد أنه المثل الذي يحتذى، لكن التلفزيون في مصر يجب أن يكون

أكثر انفتاحا مما هو عليه الآن».. قلت: «أتفق تماما معك، ولكن المعضلة هي كيف يكون التلفزيون الخاص مستقلا، وهذا حديث يطول».. لما خرجت من عنده، كنت ميالا إلى أن أصدق ما قاله، ولكنني كنت أوقن ـ ولا أزال ـ أن واحدا من الأسباب الهامة التي تدفع كبار رجال الأعمال لإقامة مؤسسات إعلامية، هي توظيف هذه المؤسسات للتقرب من السلطة وضمان الحماية والتوسع لمشروعاتهم، على الرغم من أنهم يستخدمونها عندما تقتضي الأحوال لمناكفة السلطة بغية الحصول على مكاسب أكبر منها.. ولكن السلطة هي الأخرى تعرف جيدا أن المؤسسة الإعلامية هي نقطة ضعف رجال الأعمال، وتعرف كيف تضغط عليهم من خلالها؛ وبذلك تصبح المؤسسة ـ في صراع عض الأصابع ـ سلاحا ذا حدين؛ حد لك وحد عليك..

ظننت أن الدكتور بهجت سوف يبدأ تنفيذ مشروعه في اليوم التالي، إلَّا أن عشر سنوات مضت قبل أن تنطلق القناة رسميا في ٢٠٠١ بعرض المسلسلات والبرامج الترفيهية، وفي ٢٠٠٢ بدأ بث «دريم ٢» كقناة ثقافية سياسية، والتزم أحمد بهجت بشروط صفوت الشريف ألَّا يذيع نشرات إخبارية، ولكنه تعاقد مع اثنين من الصحفيين البارزين هما: مجدي مهنا الذي قدم برنامج «في الممنوع» وإبراهيم عيسى الذي قدم «على القهوة»، ثم خرجت دريم ببرنامج جديد يناقش الشأن العام هو «صالون دريم» الذي تناوب تقديمه عدد من كبار المثقفين، مثل الدكاترة يحيى الجمل وصبري الشبراوي وميلاد حنا والأستاذيْن فهمي هويدي وجمال الغيطاني..

كان المهندس أسامة الشيخ قد ترك شبكة ART ليؤسس قنوات دريم.. وبالرغم من أنني كنت أقدم «رئيس التحرير» في التلفزيون المصري عندئذ، فإنه كان يلح على ظهوري على شاشته في الوقت نفسه، وكنت أرى أن هذا لا يليق، إذ كيف أخرج على شاشتين متنافستين في وقت واحد؟ إلَّا أنه عندما تراكمت على برنامجي الأزمات بدأت ألين، حتى جاءت أزمة حلقة الـ ١٤ دقيقة فعزمت على قبول العرض؛ من ناحية للضغط على التلفزيون المصري حتى يخفف من تعنته؛ ومن ناحية أخرى لأضمن منفذا آخر أوصل من خلاله رسالتي إذا ما أوقف «رئيس التحرير»..

وبالفعل، بدأت في سبتمبر في تقديم برنامج في دريم بعنوان «ولكن»، وهو تعليق قصير على الأحداث بمثابة قذيفة خاطفة، لا تزيد مدته على سبع دقائق أو نحوها..

ولم تكن مثل هذه المدة مألوفة في ذلك الحين، بل إنها أصبحت الآن مستهجنة في زمن توزن فيه معظم البرامج بطول المحاضرة التي يفتتح بها كل مقدم برنامجه.. وحتى الآن ترفض قنوات التلفزيون، الخاصة والرسمية، هذه الصيغة التي لا تتواءم مع خرائط برامجها القائمة عادة على برامج مدتها نصف الساعة أو مضاعفاتها، كما أن شركات الإعلان لا تقبل عليها إذ لا تتيح لها مدة كافية لبث إعلاناتها..

مع ذلك فعلى الرغم من أن الصحف لم تقابل «ولكن» بالحماس الذي قابلت به «رئيس التحرير» من قبل، فإن البرنامج اجتذب قدرا معقولا من الإعلانات، وكانت «وكالة طارق نور للإعلان» هي الراعية له.. وكالعادة، كنت أحصل على نسبة من إيراد الإعلانات، وكان هذا قد أصبح شرطا معروفا سلفا في أي عقد أوقعه، ذلك أنه كان يعتبر بالنسبة لي الترمومتر الذي أقيس به مدى الإقبال على البرنامج، والحافز على مزيد من التحسين والإجادة، لكنني كنت حريصا دائما على ألَّا أقع في فخ الإثارة وألَّا أتنازل عما أومن به مقابل قدر أكبر من المال.. مع ذلك فلابد لي الآن من أن أحذر من أن القنوات الخاصة تنساق وراء المعلنين، بحيث يكون مقياس نجاح البرنامج لديها هو عدد الشركات الراعية للبرنامج وقدر الإعلانات التي تبث خلاله، ولم يفلت معظم مقدمي البرامج أيضا من الوقوع في براثن هذه المعادلة.. والواقع أنه لا توجد معايير دقيقة أخرى للتعرف على مدى رواج البرامج سوى معيار الإعلانات، في غياب أي مؤسسة موثوقة لقياس هذا الرواج، وأشهد اليوم ـ بعد تجربة طويلة ـ أن العديد من الشركات المتخصصة في هذا العمل تفتقر إلى كثير من الأمانة، كما أنني على يقين من أن رواج البرنامج لا يعني جودته بالضرورة..

لم يطل عمر «ولكن» أكثر من ستة أشهر قدمت خلالها ٧٥ حلقة آخرها في ٢٢ مارس ٢٠٠٣.. كان غزو العراق قد بدأ قبل ذلك بيومين اثنين.. أصبت بكمد شديد، وكان برنامجي «رئيس التحرير» قد أوقف في التلفزيون المصري.. لكن الكمد سرعان ما تحول ـ كالعادة ـ إلى العناد، فانتويت نقل «رئيس التحرير» إلى دريم، ولم أعبأ وقتها بالنقاش الذي كان يدور في التلفزيون المصري حول مقاضاتي في المحاكم لأنني اعتديت على ملكيته الفكرية لاسم البرنامج.. وكان المسئولون هناك قد ترددوا في رفع الدعوى بعد اختلاف المستشارين القانونيين حول ما إذا كان

التلفزيون هو الذي يملك حقوق الملكية، وفيما إذا كان يستطيع عمليا أن يستخدم الاسم نفسه مع مقدم برامج آخر.. وقد حسمت هذه القضية عندما تقرر تكليف اللواء أحمد عبد الحليم بتقديم برنامج يحل محل «رئيس التحرير»، وفي موعده نفسه، تحت عنوان جديد..

في ذلك الوقت، دعاني إلى «أبو ظبي» علي الأحمد مدير التلفزيون، وفي مكتبه هناك عرض عليَّ للمرة الثانية العمل معهم، وكانت المرة الأولى عندما توقف «رئيس التحرير» في التلفزيون المصري بعد أن أجريت الحديث مع الرئيس بوتفليقة.. حضر معنا الاجتماع شخص ثالث لا أذكر إن كان مستشارا أم مديرا للبرامج وكان اسمه غريبا بعض الشيء، أظن أنه كان «ذو العماد» أو شيئا من هذا القبيل.. تحدثنا في البداية عن شئون التلفزيون وشجونه، وعندما بدأ الأحمد يناقشني في بعض تفصيلات العرض ظل الرجل جالسا بل حاول المشاركة في النقاش أيضا.. لم أقل شيئا ذا بال إذ كنت أعتبر مثل هذا النقاش أمرا شخصيا إلى أبعد حد، وعندما علمت أن الرجل سوف يكون المسئول المباشر الذي سأتعامل معه، ولاحظت أنه ثقيل الظل وأنه لا يختار كلماته بحساب، عزمت وأنا خارج من المقابلة على ألّا أعود..

كانت الاتصالات مع دريم جارية عندئذ، وكانت شاشة دريم قد ازدادت سخونة في ٢٠٠٢ بعدما نقلت القناة وقائع المحاضرة المدوية التي ألقاها الأستاذ هيكل في الجامعة الأمريكية حول مستقبل نظام الحكم في مصر والتوريث، وكذلك الحوار الذي أعقبها مع طلبة الجامعة.. أعادت القناة بث المحاضرة مرة ثانية، وأعلنت عن إعادة أخرى، ولكنها ـ قبل موعد إذاعتها ـ اعتذرت متعللة بأن هناك أسبابا فنية تحول دون ذلك.. لم تكن الحقيقة على هذا النحو؛ إذ إن الدولة كانت مشغولة عند بث المحاضرة وإعادتها الأولى بافتتاح مكتبة الإسكندرية، وفي الحفل حكت الهوانم لسوزان مبارك قصة حديث هيكل واستنكاره لتوريث جمال، وعندها تنبه الكل وصدر القرار بمنع الإعادة الثانية.. عندما علم الأستاذ بذلك قال: «هذا أفضل بكثير من إذاعة الحديث.. الآن تأكدت أن الرسالة وصلت»، لكن الحملة على دريم، وعلى الدكتور أحمد بهجت شخصيا، كانت قد انطلقت، وبالطبع فقد تسللوا إليه من واحدة من أضعف جبهاته وهي علاقاته بالبنوك وقروضه منها، فضغطوا قدر طاقتهم..

لم يرضخ بهجت، فقام بالتعاقد معي على تقديم «رئيس التحرير» في دريم، وكان من حظي أن الذي أخرج البرنامج هو الدكتور محمد عبد المتعال (مدير MBC مصر فيما بعد) وتولى طاهر يحيى إدارة الإنتاج.. وبدأت تقديم البرنامج يوم ٢٨ يوليو، الاثنين، اليوم نفسه الذي اعتاد المشاهدون انتظاره في التلفزيون المصري، ولكنني سرعان ما تبينت أن الضغوط انعكست في رقابة صارمة على البرنامج، وأنها تزداد أحيانا مع الأحداث وتعليقي عليها أو مع الرغبة في مطاردة صاحب القناة، وتتراجع أحيانا أخرى، وفي عدد من المرات حذفت فقرات كاملة.. مع ذلك لم أشأ وقتها أن أثير أزمة مع الدكتور أحمد بهجت، ليس بسبب الصداقة التي كانت قد نشأت بين عائلتينا، ولكن لأنه كان عندئذ يواجه واحدا من أصعب امتحانات حياته على ما أظن..

في هذا المناخ، الذي ازداد توترا بعد حجب دريم لحديث كانت قد أجرته مع الأستاذ هيكل قدمت «رئيس التحرير»، وهكذا فبين كل قصف وآخر كنت ألتزم بهدنة.. في الحلقة الأولى من البرنامج مثلا كانت الفقرة الأبرز هي تلك الخاصة بمأساة حفيدة الرئيس الأسبق محمد نجيب؛ السيدة نبوية يوسف نجيب، في البحث عن شقة، وكنت أظن أن الموضوع لن يثير مشكلات، ولكن الدكتور حلمي القاعود اعتبر أن الحلقة متفجرة في مقاله بجريدة «القاهرة».. حكت السيدة نبوية مأساتها في الحصول على شقة في مساكن الإيواء تأوي إليها مع زوجها سائق التاكسي (كان والدها ابن محمد نجيب سائق تاكسي أيضا) الذي وصفته بأنه «أرزقي» (أي يعمل حسب الظروف)، وقالت إنه لا يملك ما يستطيع أن يسدد به رخصته.. أهاج حديثها المشاعر، وكتب فاروق جويدة في «العالم اليوم» يقول:

«لم يشفع لها أن جدها مات مسجونا، وأن والدها عمل سائق تاكسي وأباه يحمل لقب رئيس الجمهورية، وأنها باعت دبلة خطوبتها لكي تدفع جزءا من ثمن الشقة التي لم تحصل عليها حتى الآن.. سمعت قصة هذه السيدة المسكينة التي تحمل لقب أسرة محمد نجيب، الرجل الذي حمل رأسه على يديه يوما وقاد ثورة ضد الملك والإنجليز، وكان من الممكن أن يدفع حياته ثمنا لذلك، واختلف نجيب مع رفاق الثورة، ودخل السجن، وعاملوه بأسلوب لا يليق برئيس دولة لأسباب غير معروفة..

حفيدة أول رئيس لمصر الجمهورية بعد انتهاء الملكية ونجاح الثورة.. لم تطلب قصرا في مارينا ولا فيلا في مدينة الجولف بالقطامية، ولم تحلم بأن تركب طائرة حتى ولو في رحلة لأداء فريضة الحج، ولم تتصور أن يكون لها قصر في الغردقة أو فندق في شرم الشيخ، ولكن كل ما حلمت به هذه السيدة المسكينة غرفتان صغيرتان لزوجها وأولادها في مساكن الإيواء.. ولكن المسئولين في محافظة القاهرة قالوا لها إن مصر المحروسة كرمت جدها وأقامت محطة مترو تحمل اسمه وهذا يكفي.. وبعد ذلك تتحدثون عن الشرف والشفافية والانتماء»..

وجدت محافظة القاهرة نفسها في حرج بالغ، فخفضت سعر الشقة، وتبرع الأمير طلال بن عبد العزيز بتأثيثها وسداد ثمنها، وكان في مقدمة المتبرعين المهندس ممدوح حمزة والمحاسب يوسف نبيه وجامعة ٦ أكتوبر والسيد مصطفى كامل عضو مجلس إدارة البنك الوطني، كما قدمت الفنانة الكبيرة نبيلة عبيد والوزير السابق دكتور إبراهيم فوزي والسيدتان منى فتحي وماجدة رشيد تبرعات أخرى، وتبرع المهندس أشرف بدوي بسداد أقساط الشقة كاملة..

في حلقة أخرى أدمت قلوب المشاهدين واستثارت غضبهم ذهبت بالكاميرا إلى قرية الفرماوي مركز ميت غمر لألتقي بأسرة عبد الحميد شتا، بعد أن انتحر بإلقاء نفسه في النيل من كوبري أكتوبر.. عبد الحميد شتا كان طالبا نابها في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وعندما تخرج فيها بدأ في الإعداد لنيل الماجستير.. تقدم مع ٤٢ آخرين إلى اختبارات جهاز التمثيل التجاري ليحصل على وظيفة ملحق تجاري في سفاراتنا بالخارج، واجتاز اختبارات الشفهي والتحريري بنجاح، وعندما ظهرت النتيجة تبين أن كل زملائه نجحوا، وأنه هو الوحيد الذي أخفق.. كان السبب أن عبد الحميد شتا «غير لائق اجتماعيا».. أثار هذا صحف المعارضة، وألهب مواقع التواصل الإلكترونية، فكتب أحدها يقول: «خطؤك يا عبد الحميد أنك ولدت في هذا الزمن، زمن فيه ٧٠ مليون مواطن مصري غير لائقين اجتماعيا!»..

وفي حلقات أخرى عالجت أزمة الدواء، وأزمة القمح، والجامعات الخاصة، وأموال التأمينات الاجتماعية.. واستضفت الأديب الكبير صنع الله إبراهيم عندما

رفض جائزة الدولة، والدكتور حمدي السيد ليتحدث عن صحة مبارك، والفريق أحمد شفيق لأناقشه في واقعة طائرة «فلاش إيرلاينز» التي سقطت بكل ركابها في البحر الأحمر في يناير ٢٠٠٤ وكان بينهم ١٣٩ سائحا فرنسيا.. واستضفت أيضا عمرو موسى الذي تألق كعادته، وكان وقتها أمينا عاما لجامعة الدول العربية، وكانت الحلقة كما وصفها الأستاذ السيد الغضبان «نموذجا رائعا في فن الحوار»..

وكانت هناك حلقات حول الشئون العربية والدولية لا تقل سخونة، فقد هاجمت القذافي عدة مرات لأنه كان يشدد الضغوط على الفلسطينيين في حين يرضخ للولايات المتحدة فيسلمها أسلحته النووية، ويقبل بدفع تعويضات لوكيربي في الوقت الذي لم يعوض فيه الضحايا المصريين الذين راحوا بالقنابل والعبوات الناسفة التي زرعها عملاؤه في مصر عندما ساءت العلاقات بينه وبين السادات.. وتناولت في البرنامج موضوعات مثل محاكمة صدام حسين، وتقسيم مياه النيل والمعونة الأمريكية..

إلَّا أن أيا من الحلقات الـ ٢٤ التي قدمتها من «رئيس التحرير» لم ترتطم بالخط الأحمر في دريم.. الخط الأحمر خط وهمي مثل خط الاستواء تماما، لكن خط الاستواء ثابت معروف للكافة، أما الخط الأحمر فهو خط متغير من محطة إلى أخرى ومن وقت لآخر، ينخفض ويرتفع طبقا لتفاوت الأنظمة أو وفقا لترمومتر الأحداث، وربما يتذبذب باختلاف المسئولين والرقباء وتباين أمزجتهم، كما أن الخط الأحمر قد يختلف موقعه طبقا لمقدم البرنامج.. ويعاني مقدمو البرامج في العادة وهم يحاولون تبين مكان الخط بالضبط، وكثيرا مايفشلون في ذلك، إلَّا أن الخطر لا يكمن في هذا الفشل، ولكنه غالبا ما ينبع من الخوف أن تتعدى كلماتهم الخط، وعندئذ يغلبهم الحذر فينكصون عن أداء رسالتهم.. ظلت رسالة مقدم البرنامج في نظري على الدوام هي رسالة أي مبدع، الحض على التغيير نحو الأفضل، وهو ما يقتضي بعضا من المشاغبة، لذلك نادرا ما نجد مذيعا ناجحا إلَّا وهو يوصف بأنه مشاغب..

المذيع الناجح لا بد أن يلحظ المحيطون به منذ الصغر أن لديه موهبة ما تتكشف يوما بعد آخر، سواء في الحديث أو الخطابة أو الاهتمام بشيء ما أدبي أو فني كالاشتراك في فريق تمثيل أو منتدى ثقافي بالمدرسة، أو حب الاستطلاع والإلحاح بالأسئلة،

أو بالمناكفة بشكل عام.. وعندما يشتد عوده وتبدأ رجولته في الاكتمال (أو أنوثتها بالنسبة إلى مذيعة المستقبل)، سوف نلاحظ أنه قد توافرت له شروط أخرى لا يملك المرء من أمرها شيئا؛ إذ هي عطية إلهية، مثل الجاذبية الشخصية والحضور الذي يمكن أن نسميه «الطلة» أو «الكاريزما»، وهو في النهاية تلك العلاقة الحميمة التي تجعل المذيع وكأنه واحد من أهل البيت، يتحدث وكأنه جالس معك.. هناك أيضا موهبة الصوت الرخيم، أو على الأقل اللائق للإذاعة، أما التلفزيون فيتطلب بالإضافة إلى ذلك الوجه المريح.. إذا لم تتوافر هذه المتطلبات الأساسية فالأولى بالمتقدم للعمل كمذيع أن يحجم عن ذلك على الفور، أما بقية المتطلبات فيمكن اكتسابها بالتدريب.. المذيع المتميز إذن هو تركيبة معقدة من المؤهلات الفطرية والملكات الذاتية والتجارب التي اكتسبت بالاطلاع والمران..

لم تتح الفرصة لاختبار ملكاتي وتجاربي في التعامل مع الخط الأحمر أثناء الحلقات الـ ٢٤ التي قدمتها في دريم، وربما كان ذلك يرجع إلى أن مقص الرقيب هناك لم يعاملني بالحدة التي عاملني بها مقص رقيب التلفزيون المصري.. ومع ذلك فقد كنت أحتاط باختتام كل حلقة قائلا: «ربما نلتقي في الحلقة القادمة».. واستمر الأمر على هذا المنوال حتى جاءت النهاية في حلقة ٢٩ مارس.. كان هذا هو موعد انعقاد القمة العربية في تونس، وجاء انعقادها في ظل ظروف دولية وإقليمية بالغة التعقيد؛ إذ كان العالم العربي يواجه «المبادرة الأمريكية للإصلاح والديموقراطية» التي لا تتفق وأوضاعه الداخلية، وكان يواجه أيضا أزمة استمرار الاحتلال الأمريكي للعراق، وتوقف مسارات السلام في الشرق الأوسط.. وإلى جانب ذلك فإن المشهد، على حد ما قالت الـ CNN، كان «يخيم عليه سخط الرأي العام العربي الذي انصب على الملفات والقضايا كافة، بدءا من السياسة الخارجية، مرورا بتراجع الهامش الديموقراطي، وانتهاء بتدهور مؤشرات التنمية إجمالا»..

هكذا ألغى الرئيس التونسي بن علي انعقاد القمة بقرار سيادي منه قبل وصول القادة العرب بساعات دون تشاور مسبق مع الدول العربية أو الجامعة العربية، وفوجئ الحضور في اجتماع وزراء الخارجية السابق على القمة بوزير الخارجية التونسي يلقي عليهم بيانا يعلن فيه تأجيل القمة بسبب عجز المجتمعين عن الاتفاق.. اقتضى

الموقف عندئذ أن أعد حلقة على خطى حلقة الـ ١٤ دقيقة في التلفزيون المصري، أي في صورة بيان للأمة يعزيها في قادتها ويستحثها على النهوض.. وكان من المفترض أن يستغرق «البيان» نحو نصف الساعة، وأن تلغى باقي فقرات الحلقة..

صدم الرقيب من العبارات التي لم تألفها دريم مثل «القمة العاجزة والنظام العربي المتصدع والأمة المفككة والزمام الذي ليس بيد القادة العرب وإنما بيد أمريكا وإسرائيل»، وكذلك «النظام الذي يجب أن يغير نفسه، والتغيير الذي لا يمكن أن يحدث سوى بيد الشعوب»، فحذفت من النص هذه العبارات جميعا وما شابهها.. وعندما اعترضت أحيل الأمر إلى سناء منصور التي كانت حينئذ نائبا لرئيس مجلس إدارة دريم لشئون البرامج، فلم تحاول حتى أن تناقشني.. كان ذلك متوقعا، إذ كان الكل في دريم يعرفون أن سناء هي مندوبة وزارة الإعلام، وكانت قد صرحت للصحف عند توليها العمل في القناة أنها لم تقبله إلا بعد أن استأذنت صفوت الشريف باعتبارها «ابنة الوزارة».. طويت أوراقي وغادرت الإستوديو.. وكان أحد الخبثاء قد لاحظ حينها أن سناء كانت رئيس التلفزيون المصري عندما خرجت منه، وكذلك كان الحال في دريم، لكنني كنت لا أرى ذلك إلا محض مصادفة.. الأهم أنها كانت تنفذ سياسة الدولة عندما أوقف برنامجي وبرنامج الأستاذ هيكل وبرنامج إبراهيم عيسى «على القهوة» وهي في منصبها في دريم، الأمر الذي وصفه النائب عبد الحميد حسن بأنه «تجفيف للبرامج السياسية» عندما قدم طلب إحاطة في مجلس الشعب لصفوت الشريف..

في اليوم التالي عقد الدكتور أحمد بهجت اجتماعا معي ومع رئيس مجلس الإدارة الصديق أسامة عز الدين الذي حاول جاهدا إثنائي عن قرار الرحيل، لكن بهجت كان صريحا تماما.. قال: «أنت تعرف جيدا الظروف، أنا في كابوس دائم.. كلما ذُكرت في دريم كلمة لا تروق للنظام لا يفاتحني أحد في شيء، ولكن الرد دائما ما يجيء في مكالمة تلفونية في اليوم التالي لا من الإعلام ولا حتى من الداخلية ولكن من البنوك، وعادة ما يكون عنوان نقاشنا هو إعادة جدولة القروض أو ما شابه.. ولكي أصدقك القول فلا بد لي أن أقول إنك أصبت في قرارك في إيقاف البرنامج، على الرغم من أننا سنفقدك ونفقد ما كان يجلبه البرنامج من إعلانات، وما كانت تجلبه رعاية موبينيل

له أيضا.. لكن عندي حلا لذلك لأنني أريد لدريم أن تحتفظ بك».. كان الحل الذي اقترحه بهجت هو أن أحول اهتمام البرنامج تماما إلى الشئون العربية، اجتماعية كانت أم اقتصادية، وأن يخصص لي مخرجا ومصورا يصاحباني في جولة في الدول العربية لمدة شهرين لهذا الغرض، ثم نرى بعد ذلك كيف نستأنف مسيرتنا معا..

قدرت صراحة الدكتور بهجت.. كنت أعرف مدى إخلاصه في محاولة الوصول إلى إعلام مستقل عن الدولة مع الحفاظ على مصالحه، ومع ذلك أيقنت استحالة مشاركته في هذه المسيرة، فافترقنا وليس في صدر أي منا ضغينة.. ذهبت إلى تلفزيون دبي، وأوقف برنامجي هناك، ثم إلى قناة «الليبية» وتكررت الخاتمة نفسها، وعندما عدت إلى مصر كان أحمد بهجت في انتظاري، فتعاقدنا على برنامج يقتصر على أحاديث مع الشخصيات البارزة أذيعت منه حلقة واحدة مع الفريق ضاحي خلفان قائد شرطة دبي في ٢٠٠٩.. وعندما جاء موعد الحلقة الثانية التي اعتزمت استضافة الدكتور نبيل العربي فيها كانت حماستي قد فترت عندما تحققت أنني سأظل محاصرا في قالب الحوارات..

أخطأت في تقديم هذا البرنامج لأنني كنت أدري مسبقا حدود هذا القالب، وكنت أعرف أن الجمهور الذي يتابع برامجي سوف يصاب بصدمة من الفارق الشاسع بين ما أقدمه وما قدمته من قبل سواء في «رئيس التحرير» أو «قلم رصاص»، ولما سئلت في الصحافة عن ذلك قدمت عذرا أقبح من الذنب، عندما قلت إن العودة إلى الشاشة أفضل من الانتظار على الرصيف، كما لو كنت مبتدئا في الصنعة.. ولذلك لم أدهش عندما تساءلت إحدى الصحف عما إذا كانت دريم قد دجنت مقدم البرامج المشاكس.. ويبدو أن دريم لم تسلم من الضغوط حتى عندما اكتفيت من الظهور بتوجيه الأسئلة، إذ قيل لي إن الدكتور بهجت تلقى بعد الحلقة الأولى مكالمة من جهة ما تستنكر ظهوري على الشاشة في الوقت الذي كنت أهاجم فيه نظام مبارك هجوما مرا في الصحف.. لم يتصل بي أحد من دريم لترتيب تسجيل الحلقة التالية فامتنعت عن تقديمها في هدوء.. ويبدو أن دريم استراحت إلى هذه النهاية التي يمكن أن تخفف عنها بعض الضغوط، لكنها على العكس فتحت شهية السلطة لمزيد من القمع لبرامج أخرى..

هكذا نشرت مقالا في «المصري اليوم» في أكتوبر ٢٠٠٩ كان عنوانه «إعلام دريم المحترم»، قلت فيه:

«تواترت الأنباء هذا الأسبوع عن ضغوط حكومية متزايدة على قنوات «دريم» تستهدف خنق مساحة الحرية النسبية المتاحة لبرنامجين من ألمع برامجها، هما «الطبعة الأولى» و«واحد من الناس». وعلى الرغم من أن القنوات الخاصة في مصر تدور جميعا في فلك الحكم بشكل أو آخر، فإن السلطة الطامعة على الدوام في الولاء الكامل لها ترى في قنوات «دريم» نشازا يجب أن يقمع من وقت لآخر..

« وعلى النقيض من قنوات «دريم» فإن قناة «المحور» هي قناة آل البيت الحكومي، وهي الوحيدة بين القنوات الخاصة التي لديها «امتياز» نقل مؤتمرات الحزب الوطني الحاكم، لو كان هذا امتيازا حقا، أما قنوات «الحياة» فهي قنوات مأمونة الجانب؛ إذ حصرت اهتمامها الرئيسي في برامج الترفيه المنوعة، وبرامج الرياضة وما إليها.

« لكن السلطة أصبحت تضيق حتى بهامش الحريات الذي أتاحته، وعلى الرغم من أنها تعرف أن هذا الهامش مطلوب حتى تستكمل الديكور الديمقراطي، لكنها تريده دائما عند حد منضبط، ولو أنه عصيٌّ بطبعه على الانضباط التام، إذ تراه أنت يقف عند أفق معين، ويراه غيرك أو تراه السلطة عند أفق آخر، ويزداد الأمر تعقيدا إذا ما كانت هناك أكثر من سلطة تتفاوت في معيارها لمفهوم الحرية الإعلامية.. وهكذا فإن عمرو الليثي يمكنه أن ينتقد العشوائيات في محافظة البحر الأحمر، لكنه إذا اقترب من عشوائيات القاهرة فإنه يصطدم بالخط الأحمر، وأحمد المسلماني يمكنه أن يعلن حربا على وزير التنمية الإدارية مثلا، لكنه إذا اقترب من وزير كوزير الاستثمار أو وزير الثقافة، فإن الأمر يختلف، وأنت لا تعرف من هو الوزير الذي على الحجر اليوم ومن المطلوب لعنه غدا؛ لذلك فلا أحد يدري، على وجه الدقة، لماذا أوقف الدكتور بهجت برنامج «الطبعة الأولى» في الأسبوع الماضي يومين متتاليين، ولا لماذا قضم الحلقة الأخيرة من «واحد من الناس».

«يبدو لنا أن الخط الأحمر لم يعد جمال مبارك، وأن سقف الحريات هبط ليغطي وزراء ومحافظين من أهل الحظوة.. هذه انتكاسة جديدة تحيق بالحريات الإعلامية، وهي أمر لا يعني الإعلاميين وحدهم.. كل القوى الوطنية يجب

> أن تدرك أن المعركة الداخلية القادمة ليست معركة سياسية فقط، لكنها معركة إعلامية أيضا.. ولابد أن يتواكب مع مطالبتنا بالحريات السياسية مطالبة بقدر أكبر من الحرية في الإعلام.. لا يكفي أن نادي ببطلان التوريث، ولا أن ندعو إلى شفافية في الانتخابات وإلى رقابة دولية فحسب.. يجب أن يتيقظ الناس إلى حقهم في إعلام حر شفاف يطلعهم على حقائق الأمور، ويعكس آراءهم في مختلف القضايا.. وإذا ما توقف برنامج ما في قناة تلفزيونية أو تعرض آخر للحذف يجب ألا نكتفي بمصمصة الشفاه والتندر بالحكاية في المجالس، وإنما يتحتم على الكتاب وجماعات الضغط ومواقع الإنترنت ومنظمات حقوق الإنسان أن ترفع صوتها بالاحتجاج.

«الإعلام حق من حقوق الإنسان الأساسية الضائعة في مصر.. ولما لم تكن للإعلاميين نقابة تدافع عنهم حتى الآن؛ لذلك يتوجب على المشاهدين جميعا اليوم أن يتضامنوا مع أحمد المسلماني ومع عمرو الليثي ومع أحمد بهجت هو الآخر؛ لأنهم يسعون جميعا إلى قيام إعلام محترم ينتشلنا من الإعلام الحكومي البائس الذي لم يعد يجدي معه أي ترميم!»..

عندما نشر المقال رد حسن راتب ليتحدث عن «ثوابت» قناته، فقال إن «أهمها هو الحفاظ على الأمن القومي للوطن، وعدم تغذية الفتنة، وعدم هدم القيم والمحافظة على الرموز، ورأس هذه الرموز هو رأس الدولة وعائلته»، وهو ما يؤكد ما سمعته منه في أول لقاء بيننا بعد عودتي للإقامة في القاهرة في ٢٠٠٩.. كان يومها بالغ الرقة معي وهو يبادر بدعوتي لتقديم «قلم رصاص» في قناة المحور.. عندها دعاني للغداء في جناحه الخاص بمقر الشركة، ثم استقبلني لأكثر من ساعة دار الحديث فيها من طرف واحد حول مشروعات «سما» التي نجحت بفضل الله ودعاء الشيخ الشعراوي، ودعاني مرة أخرى لمشاهدة فيلم عن افتتاح سوزان مبارك لجامعته في سيناء.. وفي المرة التالية سألته عن خطوطه الحمر، قال: «الرئيس وعائلته».. قلت: «الرئيس طبعا، وقرينته معه، لكن من هي العائلة؟».. قال: «الأولاد».. كان رأيي أن علاء مبارك يمكن اعتباره من الأولاد، أما جمال فقد ارتضى أن يكون شخصية عامة، وهو بهذا يعتبر قابلا للمدح والقدح بعدما اختار

طريق السياسة.. ترك الدكتور راتب الباب مواربا وهو يقدم لي مشروع التعاقد بيننا لأبدي ملاحظاتي عليه..

بعد أيام دعيت للظهور في برنامج «٩٠ دقيقة» مع معتز الدمرداش الذي سألني سؤالا مباشرا عن جمال مبارك، فأجبت إجابة مباشرة.. بعدها قطع راتب اتصاله بي.. لم ينطق حتى بكلمة اعتذار كنت سأقبلها على الفور.. جاءت الأوامر العليا التي لا نعرف من أين تجيء..

جذور قناة «المحور» ترجع إلى منتصف التسعينيات عندما اكتشف بعض رجال الأعمال أن التلفزيون الفضائي يمكن أن يكون سلاحا للحصول على مزيد من النفوذ والوجاهة الاجتماعية، ومجالا واعدا بالاستثمار.. منذ ذلك الحين أخذ عدد منهم في الاتصال بصفوت الشريف وزير الإعلام ـ من خلال ابنه وشريكهم «إيهاب» ـ للحصول على ترخيص بالبث، ولكن الوزير فضل التريث، من ناحية حتى يتأكد من مدى جديتهم، ومن ناحية أخرى ليحتفظ للإعلام الرسمي باحتكاره للبث التلفزيوني إلى أن يأتي الوقت الذي يضطر فيه إلى إفساح المجال أمام القطاع الخاص.. ولا شك أن إطلاق قناة «الجزيرة» شكَّل ضغطا خاصا على قرار الوزير، وربما كان يرى حينئذ ـ خاصة عندما تعرضت «الجزيرة» لمصر عدة مرات ـ أن من الأفضل الرد عليها بواسطة قنوات خاصة غير محسوبة على الدولة..

وحتى لا يؤخذ على وزارة الإعلام أنها انحازت إلى واحد من رجال الأعمال دون آخر بمنحه ترخيصا للبث، فقد شجع الوزير على قيام قناة يملكها اتحاد للمساهمين، وكانت الفكرة قد تم تداولها في عدد من جمعيات رجال الأعمال ولكنها انحصرت في النهاية في جمعيتين، هما جمعية السادس من أكتوبر التي كان يرأسها الدكتور هاني سرور وجمعية شمال سيناء برئاسة الدكتور حسن راتب، فانتهى الأمر بتوقيع اتفاق بينهما وبين اتحاد الإذاعة والتلفزيون في يونيو ٢٠٠٠ يرخص لهما بإطلاق قناة تلفزيونية، وكان راتب باعتباره رئيس مجلس إدارة القناة الجديدة هو الذي وقع الاتفاق نيابة عن المستثمرين.. أما الطرف الأول في الاتفاق فكان اتحاد الإذاعة والتفزيون الذي يملك ١٥٪ من الأسهم، مسمار جحا الذي يمكن لصفوت الشريف استخدامه عند اللزوم..

شبت الخلافات بين المستثمرين حتى نجح سرور في الانقلاب على راتب، ودفع هذا الدكتور أحمد بهجت، الذي كان واحدا من الشركاء، على الخروج من المجموعة والانفراد بمشروعه.. أما سرور فقد عانى من الفوضى التي سادت العمل، خاصة أن كل مساهم كان يتعامل كما لو كان المالك الوحيد للقناة، فيعين من شاء ويتفاوض مع أي جهة يريد.. في ذلك الوقت عرض عليَّ أن أدير القناة ولكنني اعتذرت عن عدم قبول العرض لانشغالي ببرنامجي «رئيس التحرير» ولتعذر النجاح في هذا الجو المشوش.. وفي النهاية سلم الجميع باستحالة عملهم معا، وانتهوا إلى أنه من الأفضل أن يتولى مسئولية المشروع واحد منهم، وكان راتب هو هذا الرجل الذي انفرد به في النهاية..

في الوقت نفسه أيضا كان رجل الأعمال الشهير محمد أبو العينين مهتما هو الآخر بإطلاق قناة خاصة به، وعندما التقينا حينئذ حدثني عن مشروعه، وطلب مني أن أتولى إدارة القناة فاعتذرت أيضا.. عندها راح يطمئنني بأنه سيوفر كل ما يتطلبه العمل، ودس يده في جيبه وأخرج منه مفتاحا سلمه لي.. «هذا مفتاح لشقة أملكها على النيل في العجوزة، وهي شقة رحيبة مجهزة كمكاتب.. اذهب إلى هناك على الفور وابدأ العمل».. ثم أخرج دفتر شيكاته، وكتب اسمي على واحد منها، وسلمني القلم قائلا: «اكتب هنا المبلغ الذي تريد»..

حظيت بعدها بسنوات بعرض آخر، من رجل أعمال آخر، هو الدكتور السيد البدوي (الرئيس الحالي لحزب الوفد) الذي طلب الاجتماع بي عندما كنت مقيما في دبي، وعندما التقينا في القاهرة في عام ٢٠٠٦ عرض عليَّ إدارة قنوات «الحياة» التي كان يحضِّر لإطلاقها عندئذ.. يومها قلت له إنني أشكره على حسن الظن، ولكنه ليس من الضروري لمقدم برامج ناجح أن يكون مديرا ناجحا، وقلت أيضا إن السنوات الأولى لأي قناة تتطلب من مديرها لياقة بدنية أيضا إذ لابد له من العمل ٢٤ ساعة كل ٢٤ ساعة، وإنني لست في السن التي تسمح بذلك.. والحق أن الدكتور البدوي اقتنع وأخذنا نبحث عن ترشيح بعض الأسماء، وكان حافظ المرازي هو الاسم الذي اخترته..

عندما خرجت من فيلا جاردن سيتي الباهرة التي كان قد اختارها الدكتور البدوي لإدارة القناة، كان السؤال الذي يتردد في رأسي: «هل سيؤمن هؤلاء الرجال جميعا،

وهم أقطاب المال والأعمال في مصر، عندما يطلقون قنواتهم، بأن الإعلام رسالة وليس تجارة تستهدف الربح أو وسيلة للحصول على المغانم؟».. وهو سؤال آن الأوان لحسمه بتقنين عمل القنوات الخاصة، بحيث تتاح لها الحرية الكافية وتتحدد مسئوليتها بشفافية، في إطار مجلس وطني للإعلام يديره الإعلاميون أنفسهم، ويسمح بمشاركة محددة للقانونيين والرموز الثقافية ولمؤسسات المجتمع المدني لتكون عينا للشعب على الممارسات المهنية.. ولا بديل لذلك إلَّا الفوضى التي شاهدناها في الساحة الإعلامية مؤخرا، وهي فوضى أساءت إلى الوطن (خاصة بفتح الخزائن لتمويل مجهول المصدر وفتح الشاشات على مصاريعها لوجوه نظام مبارك الكالحة)، وأساءت إلى المهنة، وأضرت بالإعلام الخاص ذاته..

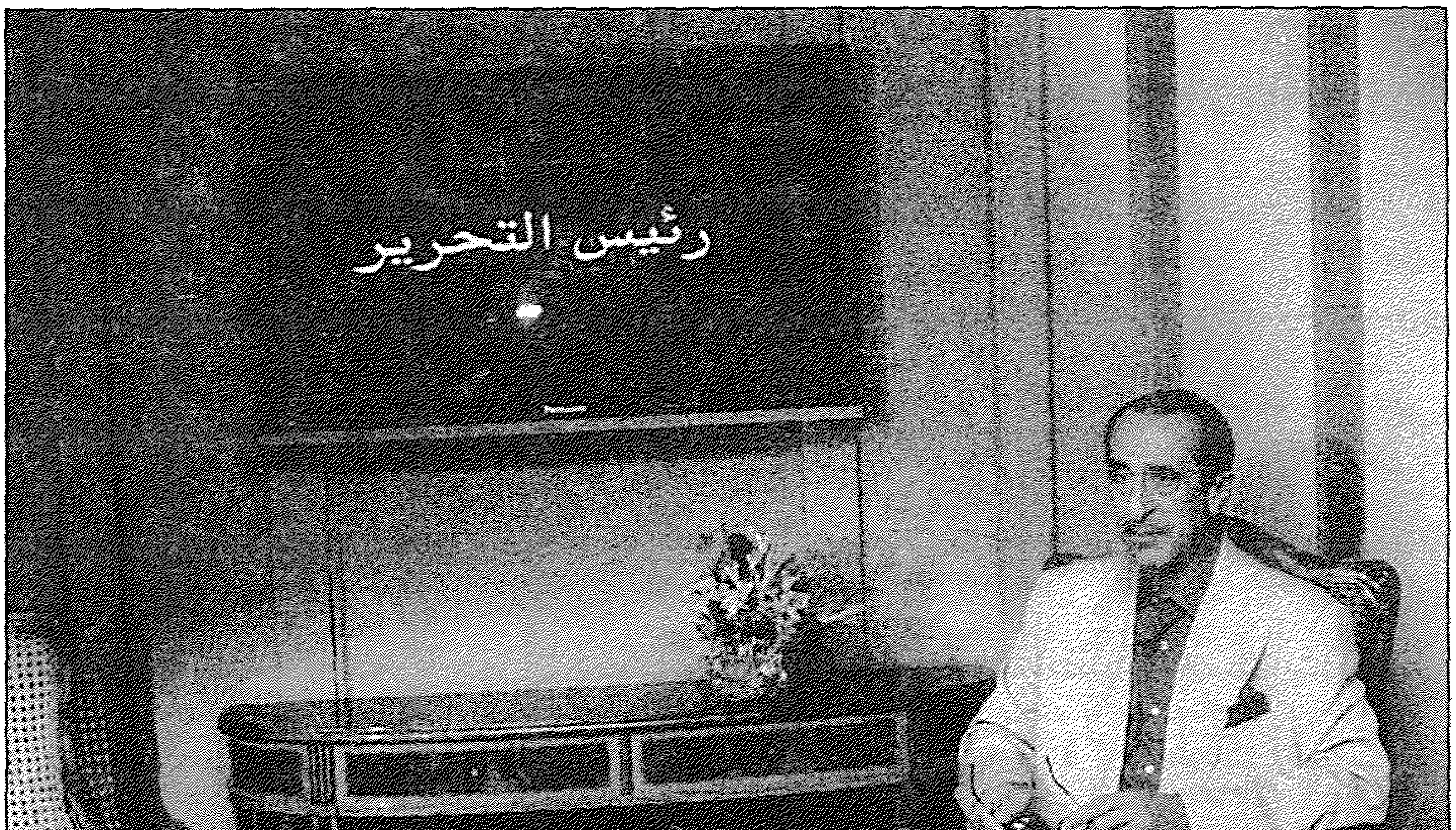

برنامج «رئيس التحرير» في دريم (٢٠٠٣).

٢٠

قلم رصاص

٢٠٠٤ – ٢٠٠٨

◆ ◆ ◆

لا أنسى منبتي، ولكن وطني ممتد من
مسقط إلى أغادير.

◆ ◆ ◆

قال المدير التنفيذي: «حلقتك هذه كلفتنا خسارة في الإعلانات بمئات الألوف من الدولارات».. بعدها دعاني الشيخ محمد بن راشد إلى قصره وقال: «الغداء اليوم على شرفك».

في اليوم التالي لخروجي من دريم تلقيت دعوة من الدكتور مصطفى كامل السيد مدير مركز دراسات وبحوث الدول النامية في جامعة القاهرة لإلقاء محاضرة في ندوة يعقدها المركز في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية حول «الفضائيات العربية بين الملكية الخاصة والملكية العامة»، وكان مقررا للندوة أن تعقد في إبريل، إلَّا أنه بعد أيام تلقيت مكالمة من الدكتور السيد يعتذر فيه بأسى عن استحالة انعقاد الندوة لأن عميد الكلية أبلغه بأن أجهزة الأمن في جامعة القاهرة وخارجها اعترضت على دعوتي.. أضاف الرجل أنه عندما سأل العميد عن السبب لم يكن لديه تفسير، فلما اتصل بأحد المسئولين عن الأمن بالجامعة كي يبلغ رؤساءه أن موضوع المحاضرة لا يمس أمن المواطن ولا أمن الوطن من قريب أو بعيد، أجابه المسئول بعد أيام قائلا إن الضغوط شديدة، وأنه يجب إلغاء الندوة والاعتذار إلى المحاضر مقدما لتفادي أي موقف محرج..

كتب الدكتور مصطفى السيد إلى الصحف يتندر على صدور قرار الأمن بإلغاء المحاضرة بعد أسبوع واحد من مؤتمر حضره في مكتبة الإسكندرية حول الإصلاح السياسي، كان قد أصدر نداء يطالب فيه الحكومات العربية باحترام حرية الرأي والتعبير، وقال: «لا أملك سوى أن أطالب المسئولين من خلال صحيفتكم، لعلهم يقتنعون بأننا ندرِّس قضايا الأمن القومي لطلابنا، ولا يمكن أن يخطر على بالنا أن نقوم في الجامعة بما يهدد هذا الأمن، لعلهم يقتنعون بأن الجامعة ليست إدارة ملحقة بأجهزة الأمن يصدرون لها الأوامر بلا مناقشة، ويتوقعون أن يطلب الأساتذة منهم تصريحا قبل أن يقوموا بنشاط مشروع يزاولونه منذ سنوات»..

نشرت بعض الصحف الرسالة، وكتب الأستاذ سلامة أحمد سلامة يعلق عليها في عمود عنوانه «قنديل خطر أمني»، وأصدر الدكتور محمد أبو الغار بيانا باسم أساتذة ٩ مارس موجها إلى رؤساء الجامعات تحت عنوان «الديموقراطية مفقودة

في الجامعات»، قال فيه إن أمن جامعة عين شمس كان قد منع في العام السابق ندوة للأديب الكبير بهاء طاهر هو الآخر، وأسهب البيان في سرد وقائع تدخل الأمن في العمل الجامعي حتى إنه ذكر أن «الأستاذ لا يستطيع وضع إعلان عن مؤتمر علمي إلّا بموافقة الأمن، وأن مجلات الحائط ممنوعة تماما إلّا بموافقة الأمن، وفوق ذلك يوجد فتوات تابعون للأمن لضرب الطلبة وتهديدهم»..

أيقنت يومها أن لا عيش لي في مصر، إذ كيف يتأتى لي أن أتكلم في التلفزيون وأنا ممنوع من الحديث في قاعة جامعة؟ كانت دبي هي أول بلد جال بخاطري.. لا، ليس تلفزيون دبي، وإنما مشروع آخر باسم تلفزيون «طيبة» كان قد قدم لي عرضا من قبل.. كان ذلك في عام ٢٠٠٢ عندما كنت أقدم «رئيس التحرير» من التلفزيون المصري وأقدم برنامج «ولكن» من دريم.. اتصل بي رجل من دبي، عرَّفني باسمه «جمال خلفان الحويرب» (أصبح فيما بعد العضو المنتدب لمؤسسة محمد بن راشد المعنية بالابتكار وتطوير رأس المال البشري)، وقال إنهم يعدون لإطلاق قناة جديدة، واقترح عليَّ في مكالمته أن أقدم فيها برنامجا مماثلا لبرنامج دريم، وأتى بعدها إلى القاهرة، وعندما تقابلنا كان العقد جاهزا في يده، وكان مغريا للغاية، ومع ذلك فقد اعتذرت إذ من المستحيل أن أنقض عهدي مع دريم، ومستحيل أيضا أن أقدم برنامجا مماثلا لبرنامجها في قناة فضائية أخرى.. قال: «لا يزال أمامنا وقت.. نحن لن نطلق القناة قبل عدة أشهر، لكننا نريد أن نتعاقد معك من الآن».. أجلنا العقد إلى وقت لاحق، وأذكر أنني اقترحت له يومها تامر أمين لقراءة نشرات الأخبار..

سألت بعض معارفي في دبي إذا كان المشروع لا يزال قائما حتى الآن، فأكدوا لي أن المشروع قد جمد.. تذكرت ساعتها الدكتور سلطان القاسمي حاكم الشارقة؛ الرجل الذي عرف بتعلقه بمصر ودرس فيها دراسته الجامعية، والذي لجأ الإذاعيون الناصريون للإقامة لديه عندما فصلهم السادات من أعمالهم.. كنت قد قابلت الدكتور سلطان لأول مرة في القاهرة عندما أتى إليها في زيارة في مايو ٢٠٠١ ليهدي إلى كلية الزراعة بجامعة القاهرة مكتبة ومركزا للمعلومات.. دعاني يومها إلى الغداء، وفي اليوم التالي أبلغني الدكتور نجيب الهلالي جوهر رئيس جامعة القاهرة باختياري عضوا في مجلس أمناء المركز ضمن مجموعة من كبار المثقفين بينهم الشاعر فاروق

جويدة وسمير غريب رئيس دار الكتب ود. سمير سرحان رئيس هيئة الكتاب ود. إسماعيل سراج الدين رئيس مكتبة الإسكندرية، وكذلك اثنان من مشاهير العلماء هما الدكتور محمد القصاص والدكتور أحمد مستجير..

وفي المساء دعيت إلى حفل أقامه فاروق حسني وزير الثقافة تكريما للدكتور سلطان في القاهرة الفاطمية، وكانا يقفان معا لاستقبال الضيوف وإلى جانبهما الدكتور مفيد شهاب وزير التعليم العالي عندئذ.. وعندما تقدمت للتحية، إذا بالدكتور سلطان يلتفت للوزيرين وهو يشد على يدي ويقول لهما: «أنتم لا تستحقون حمدي قنديل.. حمدي أبواب العرب كلها مفتوحة له».. كان يشير للأزمة التي مر بها برنامجي في التلفزيون المصري عندئذ ونشرت عنها الصحف الكثير، فلم أجد ما أقوله بعد أن رأيت وقع الملاحظة القاسية على وجهيهما سوى أن أتمتم: «إن شاء الله كل مشكلة ولها حل».. بعد شهر من زيارته جاءتني دعوة إلى الشارقة للمشاركة في برنامج في التلفزيون، وفي العام التالي دعاني الدكتور عصام زعبلاوي مدير الجامعة هناك إلى إلقاء محاضرة، وفي كل مرة كنت أذهب إلى الدكتور سلطان في مجلسه، وكان حريصا في كل مرة على أن يحدثني في شأن مصر وأحوالها بإعزاز كبير..

توقعت بعد إيقاف «قلم رصاص» في دريم أن يكلمني أحد ليدعوني للعمل في تلفزيون الشارقة، ولكن المكالمة جاءت من دبي، فقد اتصل بي المدير التنفيذي لمؤسسة دبي للإعلام حسين لوتاه يعرض عليَّ العمل في قناة دبي الجديدة التي كانت على وشك الانطلاق في أول يونيو ٢٠٠٤، ثم دعاني وزوجتي إلى هناك، وكنا قد ذهبنا مرات من قبل للمشاركة في «منتدى الإعلام العربي» الذي ينظمه «نادي دبي للصحافة».. منذ الدورة الأولى للمنتدى في عام ٢٠٠١، بدأت صلتنا بمدير النادي عندئذ منى المري (مدير المكتب الإعلامي لحكومة دبي الآن) وزوجها عبد الله القرقاوي رئيس المكتب التنفيذي للشيخ محمد بن راشد حاكم دبي (وزير شئون مجلس الوزراء الإماراتي فيما بعد)، وكنت عضوا في مجلس إدارة جائزة النادي للصحافة المرئية في البداية، ولكني لم أكن قد التقيت لوتاه حتى ذلك الحين..

ربما كان في أواخر العقد الثالث من العمر، لكنه بهرني بيقظته وتواضعه أيضا، وبعد أن التقينا عدة مرات في مكتبه وخارجه خلال أيام الزيارة الثلاثة قررت أن أوقع

العقد، وكان يقضي بأني صاحب الكلمة في صياغة البرنامج ومحتواه.. دفعني إلى حسم الأمر أن لوتاه هو الشخص الذي سوف أتعامل معه.. وثقت به، لكنني كنت واثقا أيضا من نجاح مشروع القناة الجديدة بعد أن اطلعت على الكثير من جوانبه، وزرت إستوديو الأخبار الذي كان أحدث وأكبر إستوديو من نوعه في المنطقة، كذلك التقيت بعدد من العاملين في الورشة التي كانت تعد له ليل نهار، وازدادت ثقتي عندما وجدت على رأس هذه الورشة الصديق علي جابر الذي كان مديرا لقنوات المستقبل اللبنانية على مدى عشر سنوات التقينا خلالها مرات عدة..

كنت أجد في دبي أيضا حلما تحقق، فبالرغم من أنها إمارة محدودة المساحة والموارد (عائد النفط لا يتعدى ٧٪ من دخلها) وأنها تعتمد على التجارة أساسا فإنها أقامت مؤسسات وطنية بذكاء وإدارة حكيمة.. استفادت بالخبرات الأجنبية بالطبع واجتذبت لذلك أفضل الكفاءات، لكنها سلمت قيادة هذه المؤسسات لجيل شاب تعلم في أفضل جامعات العالم، وشجعت هذه القيادات وراقبتها وحاسبتها.. وكانت دبي أيضا مدينة تعج بالحركة، ما من شخصية بارزة في الدنيا إلَّا وتلقاها هناك على مدار السنة.. أعرف أن البعض لا يطيق الحياة هناك ويعتبر دبي مدينة بلا روح، إلَّا أنها كانت تروق لي تماما..

بعد التعاقد ذهبت مرة أخرى لتسجيل حلقة تجريبية، وعندها التقيت بصديق قديم هو الصحفي السعودي البارز داود الشريان الذي علمت أنه اتفق مع القناة هو الآخر على تقديم برنامج بعنوان «المقال»، واخترنا عندئذ الإقامة في شقق في فندق «دوسيت» في قلب شارع الشيخ زايد، وشجعتنا إقامتنا معا هناك على قضاء الأيام الصعبة الأولى للقادم إلى حياة جديدة.. بعدها عدت إلى القاهرة لأصطحب زوجتي و«عزالي» لإقامة لا نعلم إلى أي حد ستمتد، وجاء بعدي مساعدي ماجدي عبد الحميد..

كان الجديد في البرنامج الذي انتويت تقديمه هو الاسم «قلم رصاص»، أما القالب فلم يختلف كثيرا عن قالب «رئيس التحرير» مع بعض الرتوش مثل حذف رسائل الجمهور، أو إضافة فقرة باسم «أرقام الأسبوع»، أو اختصار المقدمة لمدة لا تزيد على سبع دقائق.. وقد تساءل كثيرون عما أقصده بالقلم الرصاص، ولكنني لم أقل لأحد أن ما قصدته بالاسم أننا إما أن نتحاور بالقلم وبالفكر، وإما أن الحوار

سيكون بالرصاص، وكنت عادة ما أتهرب من الإجابة تاركا السائل ليستنبط المعنى الذي يريد.. الشاعر الكبير أحمد مطر كانت له رؤية أخرى في أبياته تحت عنوان «قلم»، فاخترتها للتنويه عن البرنامج.. يقول مطر:

«جس الطبيب خافقي وقال لي: هل ها هنا الألم؟

قلت له: نعم..

فشق بالمشرط جيب معطفي وأخرج القلم..

هزَّ الطبيب رأسه، ومال وابتسم..

وقال لي: ليس سوى قلم..

فقلت: لا يا سيدي، هذا يد وفم..

رصاصة ودم..

وتهمة سافرة، تمشي بلا قدم..».

لكن الكاتبة الصحفية عائشة سلطان، وكانت مديرة البرامج السياسية في القناة أيضا، كانت ترى قلما آخر، فقد ذكرتنا بفيلم «إحدى عشرة دقيقة» عن قصة الروائي البرازيلي «باولو كويلو» التي حكى فيها عن الفتاة الريفية التي تغير مجرى حياتها لأنها حلمت أن تغادر قريتها وتزور عاصمة بلادها فربما التقت فيها بفتى أحلامها الثري، لكنها بدلا من ذلك وقعت في براثن رجل سويسري جاء يبحث عن فتيات للعمل في نوادٍ ليلية يديرها، وفجأة تنتقل الفتاة من أحضان القرية الوادعة إلى حياة الليل وقاع المدينة في جنيف.. ظلت الفتاة طوال رحلة عذاباتها تتذكر اللحظة التي رفضت أن تقبل فيها هدية ذلك الصبي الذي كان يرافقها وهي طفلة في طريق الذهاب إلى المدرسة.. كان قد أبدى اهتماما حميما بها، وقدم لها قلم رصاص عربونا للمحبة ولكنها رفضته، واختفى الصبي فيما بعد.. اليوم تعلم تماما أنها فقدت حبا جميلا، وأنها دفعت ثمنا باهظا لهذا الدرس..

انتقلت عائشة سلطان بعد ذلك إلى الحديث عن الشغف الذي قابلت به الجماهير البرنامج الذي وصفته بأنه لا يعترف بالخطوط الحمراء.. وكان هذا صحيحا، فقد أوفى

المسئولون في القناة بوعدهم عندما قالوا إنهم مستعدون لتحمل كل تبعات البرنامج على الرغم من أنهم يعرفون كل ما تسبب فيه من «مصائب» من قبل، وهكذا لم يراجعه أحد لا قبل التسجيل ولا بعده، ولا بد أن المشاهدين لاحظوا أن الحرية المتاحة ليست أقل، إن لم تكن أكبر، من تلك التي كانت متاحة في مصر.. وكان خروج البرنامج من دبي في الوقت نفسه الذي ظهر فيه الأستاذ هيكل على شاشة الجزيرة لطمة على وجوه المسئولين المصريين عن الإعلام؛ لذلك لم يكن مفاجئا أن يخرج البعض في الصحف القومية ليتهموني بما هو أقرب إلى الخيانة، ويلوكوا شعارهم العفن أنني «أهاجم مصر من الخارج»، وأنني بعت بلدي من أجل دولارات دبي..

رحت أنا في المقابل أردد أن هذه مزايدات رخيصة، وأنني لا أنسى منبتي لكن وطني ممتد من مسقط إلى أغادير، واكتفيت في تعليقي على الأجر بالقول إنه بعد انتشار القنوات الفضائية الخاصة أصبحت هناك بورصة للإعلاميين تتنافس فيها هذه الفضائيات على اصطيادهم بحيث أصبح لهم سعر في السوق، لكنني لم أذهب إلى حد الإشارة إلى الملايين التي يتقاضاها نجوم التلفزيون في مصر، وكثير منهم من أجيال شابة، ومنعتني كبريائي من أن أفصح عن أجري الذي لم يكن يبلغ ربع ما كان يتقاضاه بعضهم..

أول ما كان يشغلني هو ما إذا كان سقف الحرية سيظل على ماهو عليه، وهذا ما حدث؛ إذ إنني بعد أن قدمت بضع حلقات من البرنامج أصبحت أكثر ثقة بذلك، فأخذت أصرح في الصحف أن مساحة الحرية المتاحة لي في دبي هي أكبر مساحة متاحة لبرنامج تلفزيوني في العالم العربي، ولم أتوقف عن وعد المشاهدين بأن البرنامج سيواصل هجومه على الفساد والقمع وكشف مَنْ وراءهما، وأظن أنني اعترفت أكثر من مرة أن «البرنامج متخصص في النكد لأنه مفيش حاجة تفتح النفس في الأحداث العربية عادة.. شاهدوه تجدوا ما لا يسركم»..

انهالت الإعلانات على البرنامج، واستمرت شركة «موبينيل» في رعايته كما فعلت مع «رئيس التحرير» في التلفزيون المصري وفي دريم، وواصل البرنامج طرق كل القضايا الحساسة في الوطن العربي دون كلل ودون أن يبدي مسئول في دبي

ملاحظة واحدة، فتأكدت وقتها أن إقامتي في دبي لن تكون قصيرة كما توقع كثيرون.. وقتها طلبت من حسين لوتاه شقة أكبر قليلا في فندق آخر فنقلوني بعدها بأيام إلى شقة رحيبة في فندق «المروج روتانا»، وخصصوا لي سيارة بعد أن حصلت على رخصة قيادة إثر اختبار أكثر مشقة من امتحانات الثانوية العامة، وبدأت في استكشاف طرق دبي ومسالكها، وأخذت الحياة تستقر على غير العادة..

ربما كانت زوجتي أكثر سعادة بدبي مني مع أنها لم تكن مغرمة بالتسوق، لكنها تعلمت الطهي، وأصبحت تقود السيارة وحدها وتتجول في المدينة بحرية، بل وتتمشى أحيانا في وقت متأخر من الليل إلى «السوبر ماركت» المجاور دون أن يزعجها أحد.. وكنا نقضي وقتا ممتعا في نادي «جميرة بيتش» (الذي أقيم مكانه فندق مؤخرا)، ونتريض في أماكن عدة بعد أن يبست مفاصلنا في القاهرة، ونعرف جيدا المحال والمطاعم المناسبة لنا.. أصبحنا جزءا من نسيج دبي..

كانت نجلاء تشارك في عدد من الأنشطة الاجتماعية التي تقيمها مؤسسات مثل «مركز راشد لعلاج ورعاية الطفولة» (الذي تقوده صديقتنا اللامعة مريم عثمان)، وعندما قادت دبي حملة لدعم منكوبي حرب تموز في لبنان تبرعت ببعض مصاغها للحملة.. أما أنا فأصبحت لي مجموعة من الأصدقاء معظمهم من أسرة الإعلام مثل غسان طهبوب المستشار الإعلامي لحاكم دبي وحسين لوتاه وعلي جابر وعلي الرميثي (الذي أصبح مديرا للتلفزيون)، وكان داود الشريان هو الرفيق الدائم، وعندما وصلت عائلتانا للإقامة معنا ازددنا اقترابا.. وبين الحين والآخر كنت حريصا أيضا على أن ألتقي باثنين من أقرب الصحفيين المصريين لي في دبي، وكان كلاهما يعمل في جريدة «البيان»؛ عماد الدين حسين (مدير تحرير «الشروق» في القاهرة فيما بعد) وعادل السنهوري (الذي أصبح مديرا لتحرير «اليوم السابع»)، وكذلك السفير إبراهيم حافظ قنصل مصر العام في دبي، ثم خلفه السفير مهاب نصر..

قابلتني دبي وغيرها من الإمارات بمثل ما قابلتها به وأكثر.. كنت أدعى بين اليوم والآخر لأكثر من مناسبة وأحضر العديد منها.. شاركت بأبحاث في مؤتمرات منها المؤتمر السنوي لمركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية في «أبو ظبي»،

ومنها مؤتمر مؤسسة البيان للصحافة حول الإعلام المحلي في دولة الإمارات.. ألقيت كلمات في المؤتمر الطلابي لدول مجلس التعاون في عجمان، وفي مؤسسة الخليج للصحافة في الشارقة، وفي ندوة الإعلام بكلية دبي للطالبات، وكنت ضيفا دائما على نادي الطلبة الفلسطيني في الجامعة الأمريكية أتحدث إلى أعضائه في احتفالاته السنوية بيوم الأرض.. وزعت جوائز الشيخة لطيفة بنت محمد لإبداعات الطفولة، وجوائز للنوابغ من خريجي كلية الاتصال في جامعة الشارقة.. منحتني «مؤسسة تريم عمران للأعمال الثقافية» الجائزة التقديرية للرواد في مجال الإعلام» التي سلمها لي الدكتور سلطان القاسمي حاكم الشارقة، وكرمني الشيخ فيصل بن صقر القاسمي في نادي رأس الخيمة للصحافة يوم إطلاقه، وكذلك «رواق عوشة بنت حسين الثقافي» الذي ترعاه سيدات عائلة غباش، كما كرمني أيضا الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان وزير التعليم العالي لمساهمتي في احتفال جامعة زايد بحصولها على الاعتماد الأكاديمي العالمي..

لي مع الشيخ نهيان قصة، فقد ذهبت إلى حفل جامعي بعد وصولي إلى دبي بأيام، وقبل أن تبدأ مراسم الحفل دخل رجل مهيب اندفع إليه الحاضرون يرحبون بقدومه، فإذا به يلمحني عن بعد فيقترب ويصافحني بحرارة ويصطحبني حتى دخلنا القاعة.. همست في أذن صديق بجواري أسأل: من هو؟ فقيل لي فلان.. عندما عدت إلى التلفزيون رويت لحسين لوتاه ما حدث.. قال إنك التقيت اليوم رجلا يندر أن تجد له مثيلا في بره بوالديه، وحكى لي كيف يرعى الشيخ نهيان والده المقعد، وكيف أنه على الرغم من وفرة الخدم والحشم وعلى الرغم من عبء المنصب فلا بد له من أن يقوم بنفسه بأداء كل ما يحتاجه الأب من مأكل ومشرب واغتسال وغيره.. طلبت منه رقم هاتفه حتى أذهب إليه في مكتبه لأتعرف إليه عن قرب، فاقترح لوتاه أن أزوره في مجلسه، ورتب لي سيارة في اليوم التالي ذهبت بي إلى «أبو ظبي»..

تصادف أن دخلت المجلس في الوقت الذي وصل فيه الشيخ نهيان.. كان يقود سيارته بنفسه بلا حرس شأن كثير من رجالات الإمارات الكبار، وإلى جانبه كان والده الشيخ مبارك.. نزل من السيارة وفتح الباب للرجل الذي كان يوما واحدا من أهم رجال الإمارات فاتكأ على ساعده ودخل الجميع قاعة المجلس.. كنت قد قررت منذ

وصولي إلى دبي ألّا أقترب كثيرا من أهل الحكم، الشيوخ كما يلقبون هناك، لكنني كسرت يومها القاعدة، وواظبت في السنوات التالية على حضور المجلس حيث كنت ألتقي أصدقاء قدامى مثل محمد سعيد الصحاف وزير إعلام العراق الأسبق وصلاح أبو زيد وزير إعلام الأردن الأسبق، وأحظى في كل مرة بالعديد من الأصدقاء الجدد، وأتعرف إلى كتاب ووزراء وسفراء وشخصيات بارزة من كل أنحاء الدنيا..

أكاد أقول إنه لم يكن هناك شيء يؤرقني خلال سنوات إقامتي في دبي.. توفرت لي كل الإمكانات الممكنة، وكان مخرج البرنامج مؤمن عيد مخلصا في عمله لأبعد حد، وبدأت القناة تتقلد مكانة مرموقة بين الفضائيات؛ باعتبارها، كما وصفت نفسها، «أفضل محطة للعائلة العربية»، وكان بها عدة برامج بارزة مثل برنامج الدكتورة بروين حبيب «نلتقي»، وبرنامج الدكتور عبد الخالق عبد الله «المشهد هذا الأسبوع»، وبرنامج لينا صوان «حدث ولا حرج».. كذلك كان هناك برنامج اسمه «أسرارها» كانت تقدمه ملكة جمال لبنانية سابقة هي دينا عازر أدهشتني بجديتها وجاذبيتها، وكان هناك شبان وشابات كثر من جنسيات مختلفة يتميزون بالكفاءة وحسن الخلق معا.. لكن ما أزعجني حقا منذ بدأت أستقر في دبي أنني لم أكن قد تعاملت من قبل مع الإنترنت في حين أن العمل في مؤسسة دبي للإعلام، مثلها مثل دوائر حكومة دبي وشركاتها كافة، كان قائما على التواصل الإلكتروني.. كانت دبي بلدا إلكترونيا حقا لا مكان فيه لخط اليد ولا للفاكس ولا لـ«فوت بكره» أو للساعي الذي يذهب ويعود بالأوراق..

وكان إستوديو الأخبار الذي أسجل فيه البرنامج مزودا هو الآخر بأحدث التجهيزات، بما في ذلك الاتصال المباشر بالأقمار الصناعية، ولم أكن قد جربت الاتصال بالفضاء من قبل؛ إذ لم تكن إستوديوهات ART أو التلفزيون المصري أو دريم التي سجلت فيها برامجي السابقة متصلة بالأقمار، وكنت قد اعتدت إجراء الحوارات المباشرة مع ضيوفي حتى لو قطعت آلاف الأميال للقائهم، ولا أزال أعتقد أن هذه هي الطريقة المثلى لو لم يكن هناك مبرر للتعجل.. حوارات الأقمار الصناعية، خاصة عندما تقتصر على الصوت وحده، تفقد مقدم البرنامج ميزة الإحساس بالبيئة من حول الضيف وبالتواصل الإنساني معه، كما أن الحوار المباشر يضيف أبعادا أخرى للصورة

التي تظهر على الشاشة.. لكني حاولت بصعوبة التأقلم مع التكنولوجيا الحديثة التي تحدثت عنها سنوات دون أن أتعامل معها..

ذلك ما أزعجني في بدايات العمل، أما الذي أزعجني في بداية سكني في الفندق فكان غياب القناة الفضائية المصرية، ولما كررت الطلب لمشاهدة القناة قيل لي إنه على مدى سنوات لم يطلب أحد من رواد الفندق إدخال القناة إلى غرفته، ومرة أخرى لجأت إلى حسين لوتاه، ومرة أخرى لبى مطلبي وأوصى مدير الفندق بإدخال القناة..

شعرت بالحسرة على ما أصبح عليه إعلامنا «الرائد» وأنا أقارن هذا الوضع بما كان عليه الحال في بداية التسعينيات عندما دخل الإرسال الفضائي إلى العالم العربي، وكانت الفنادق في مختلف الدول العربية تتسابق على إدخال القناة الفضائية المصرية إثباتا لمكانتها (مكانة الفنادق لا مكانة القناة).. هكذا تردت أحوال التلفزيون؛ درة تاج الإعلام المصري، لكنني كنت أعرف تماما أن سقوطه لا يرجع فقط إلى أنه تلفزيون حكومي خاضع للسلطة تديره بيروقراطية محنطة قائمة على السلم الوظيفي، ولكنه يرتبط بتردي دور مصر في محيطها العربي، وطبقا لنظرية الأواني المستطرقة فهو يعكس تراجع الأداء في مختلف المجالات؛ الصحة والتعليم والإسكان والمواصلات وغيرها..

عقب وصولي إلى دبي بأسابيع كان صديقي الدكتور ممدوح البلتاجي قد تولى وزارة الإعلام في حكومة نظيف بعد خروج صفوت الشريف من الوزارة، ولكنه لم يتمكن من أن يحدث تغييرا أبعد من إطلاق برنامج «البيت بيتك».. لذلك كانت لهجتي حادة في الأحاديث التي أدليت بها للصحف المصرية، وقلت إن حل مشكلات الإعلام، في كلمات موجزة، يبدأ بقيام بيئة ديموقراطية تسمح بحوار حر، هو وحده الذي يسمح لكل فئات المجتمع ومنظماته بأن تُرْسَى قواعد مصر الجديدة.. وتصاعد انتقادي للأوضاع في مصر كافة، فقلت إن البلاد أصبحت «سنترال وليست دولة، وباتت مهمتها الأولى توصيل الاتصالات من إسرائيل وإليها»، وقلت إن هناك ٢٠ ملكا يحكمون مصر الآن (إشارة إلى المتنفذين في البلاط الرئاسي ورجال الأعمال)، وقلت إن جمال مبارك لا يعرف مصر ومصر لاتعرفه.. وعندما ذهبت إلى القاهرة لأجري حديثا مع البلتاجي سألته يومها عن الوزراء الجدد مزدوجي

الجنسية، وعن تضارب المصالح بعد تعيين عدد من رجال الأعمال في الحكومة الجديدة، وعما إذا كانت هذه الحكومة هي حكومة جمال مبارك، ولماذا لا يظهر جمال في العلن ليساءل أمام الشعب؟ وعندما أذيعت الحلقة، قيل لي إن الجماعة في مصر زعلانين..

فتحت بعد ذلك ملفات مثل ملف بيع الأسمنت المصري لإسرائيل بواسطة مسئولين فلسطينيين أحدهم وزير سابق، واستضفت مرشد جماعة الإخوان المسلمين محمد مهدي عاكف وكذلك غريمها إبراهيم عيسى، ونددت بالفساد ما بطن منه وما ظهر في قاعات المحاكم، وفضحت كل ألوان القمع، ولاشك أن ما ضاعف من زعل الجماعة أنني انتخبت عضوا في الهيئة القيادية للتجمع الوطني للتحول الديموقراطي التي تزعمها الدكتور عزيز صدقي، وكنت قبل سفري إلى دبي بعدة أسابيع قد التحقت بحركة «كفاية»..

في إحدى الليالي كنا نتناول العشاء في منزل الوزير محمد القرقاوي فجاءتني مكالمة من القاهرة من الدكتور عبد الحليم قنديل.. قال إن «كفاية» سوف تدعو إلى انتخابات موازية لانتخابات الرئاسة (التي أجريت في ٢٠٠٥)، وأود أن أعرف إذا كنت توافق على أن نرشحك لمنصب الرئيس ونرشح معك المستشار طارق البشري نائبا.. قلت: «لو عكستم المناصب فربما كنت أفكر في الأمر، ذلك أن المستشار البشري قامة سامقة أُجِلُّها وأحبها أيضا، ولكنني في كل الأحوال أفضل أن أواصل دوري هنا، ولا أعتقد أنه أقل أهمية»..

كنت واثقا أن اتصالات الدكتور قنديل مراقبة، وأن مكالمته هذه، وإن لم أكن قد قبلت ماعرض عليَّ فيها، ستحسب عليه وعليَّ؛ لذلك لم أستبعد صحة الخبر أن مصر تضغط للتخفيف من حملة «قلم رصاص» أثناء انتخابات الرئاسة.. ولا اندهشت عندما بلغني أن مسئولا مهما في القاهرة اتصل بقرينه في دبي يحتج على مبالغتي في تناول بعض الشئون المصرية، فطلب منه الأخير بلطف أن يتفضل بكتابة خطاب يحدد فيه مبعث شكواه حتى يمكن التحقيق فيها بدقة، ولكن الخطاب لم يصل.. ولم يكن الأمر غريبا بالتالي عندما وصلت في إحدى المرات إلى مطار القاهرة، فانتحى

بي أحد الضباط الشبان جانبا وسألني: «أليس عندك بيت يا أستاذ حمدي في دبي وآخر في القاهرة؟».. لما أجبت بالإيجاب عاد يسأل: «وفي كل منهما ملابس؟».. قلت طبعا، فإذا به ينصحني أن أتفادى قدر الإمكان السفر بحقيبة خشية أن يدس لي أحد فيها قطعة مخدرات أو أيا من الممنوعات الأخرى..

ولكن حملات البرنامج لم تكن تستهدف الأحوال في مصر وحدها.. كان «قلم رصاص» هو الترمومتر لأحوال الأمة، حاولت فيه الإجابة عن أسئلة مثل «أين اختفى العلماء العراقيون؟» أو «هل وصلت تعويضات حرب لبنان إلى المتضررين؟»، وعالجنا فيه موضوعات مثل التجربة الرائدة للإنصاف والمصالحة في المغرب، وتقديم رئيس السودان البشير إلى المحكمة الجنائية الدولية، وحل مجلس الأمة المتكرر في الكويت، والعملية الديموقراطية الناشئة في موريتانيا، وتعويضات إيطاليا لليبيا، وحرب دارفور، وحركة المعارضة في البحرين، واستضفت رؤساء مثل بشار الأسد والقذافي، وحاورت سياسيين أجانب مثل النائب البريطاني جورج جالاوي، ومدونين من مصر وسوريا وتونس تحدثوا عن دورهم في مقاومة الاستبداد ومتاعبهم مع السلطة.. ولم أسكت عن خلل وجدته في الإمارات ذاتها بعكس ما كان يزعمه كلاب السلطة في مصر..

انتقدت أكثر من مرة اقتصار تعاملات بعض الجهات في دبي على اللغة الإنجليزية، وناقشت نظام الكفيل، وتناولت في إحدى الحلقات اجتياح العمالة الأجنبية للخليج وفي أخرى التركيبة السكانية للإمارات حيث تقترب نسبة الوافدين من ٩٠٪ من السكان وتشكل تهديدا حقيقيا لهوية البلاد ومستقبلها، وفي حلقة ثالثة لم يفلت مني «الذين تنتفخ أوداجهم بالثراء في بلدان الخليج في حين لا يمدون أيديهم لعون إخوانهم العرب»، واستنكرت زيارة بوش للإمارات في يناير ٢٠٠٨، دعك عن أنني كنت أنتقد سياساته نقدا مرا في كثير من الحلقات على الرغم من العلاقة المعروفة بين الإمارات والولايات المتحدة.. ولم يعدم الأمر في عدة حالات أن ينتقد بعض ضيوفي دبي ويعتبرونها مجرد ناطحات سحاب، وانطلق عنان النقد على ألسنة بعض الضيوف مع الأزمة الاقتصادية العالمية التي أصابت دبي في مقتل في ٢٠٠٨.. ولم تصلني رغم ذلك كله ملاحظة..

وعندما وقعت أزمة الرسوم الكاريكاتيرية المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم بعد نشر هذه الرسوم في جريدة «يولاندس بوستن» الدنمركية في ٢٠٠٥، وتصاعد على إثر ذلك الغضب الشعبي وعمت المظاهرات سائر أنحاء العالم الإسلامي، وأحرقت سفارات الدنمرك في عدد من الدول العربية، قمت بشن حملة على الدنمرك وغيرها من دول أوروبا التي سمحت بنشر الرسوم، وناديت بمقاطعة بضائعها.. كنت أعرف أن مثل هذه الدعوة لا تتوافق على الإطلاق مع سياسة الإمارات، وعلى وجه الخصوص دبي، التي كان اقتصادها يعتمد على التجارة الحرة، ومع ذلك استمر البرنامج في الدعوة للمقاطعة.. وفي حلقة من حلقاته وضعت على مكتبي قطعة من الزبد الدنمركي وزجاجة زيت زيتون إسباني وعلبة كريم من إنتاج سويسرا، ودعوت لمقاطعة هذه المنتجات، كما أعلنت أرقام الكود الإلكتروني المستخدم في منتجات الدول التي نشرت فيها الرسوم تمهيدا لمقاطعتها جميعا..

في المساء اتصل بي حسين لوتاه يقول: «حلقتك هذه كلفت التلفزيون خسارة في الإعلانات بمئات الألوف من الدولارات.. أنا أنقل لك المعلومة ليس أكثر؛ لذلك أرجو ألَّا تحمِّل الأمر أكثر مما يحتمل».. كان ذلك مساء يوم جمعة، موعد البرنامج المعتاد، وفي اليوم التالي سافرت إلى القاهرة في إجازة قصيرة، فإذا بلوتاه يتصل بي فور وصولي ليقول إن الشيخ محمد بن راشد أمر بإعادة الحلقة مرة اليوم وأخرى غدا في وقت الذروة! أكبرت في الرجل غيرته على دينه..

لم أكن قد رأيت الشيخ «محمد» حتى ذهبت للتعاقد مع التلفزيون، وفي أحد الأيام كنت مع غسان طهبوب ولوتاه صاعدين في المبنى الذي يوجد فيه مكتبه، وعندها صادفناه هناك فأوصاهم بي خيرا: «راعوا الشيبة» (أي كبير السن).. وكان دائما ما يقابلني بود ظاهر كلما التقينا في مناسبة من المناسبات العديدة التي تشهدها دبي، مثل اللقاء السنوي للإعلاميين في رمضان وغيره من المؤتمرات والاجتماعات التي تزخر بها المدينة.. لكنني فوجئت في فبراير ٢٠٠٦ بديوان الحاكم يتصل بي لإبلاغي بدعوة خاصة للغداء في قصر الشيخ محمد.. ذهبت، وكان القصر يعج في تلك الأيام بأفواج من المواطنين لتهنئته بعد أن عُين نائبا لرئيس الدولة ورئيسا للوزراء.. وبعد

أن جلسنا في قاعة استقبل فيها المهنئين أخذ الكثيرون منهم يلقون كلمات وقصائد بالشعر النبطي الشعبي، وكان الشيخ محمد يشكرهم هو الآخر شعرا..

منذ وقت بعيد والشيخ محمد يكتب الشعر، وفي البداية كان ينشر قصائد بأسماء مستعارة، «سليط» و«نداوي» في العادة؛ حتى يتعرف على رد الفعل الحقيقي للناس، وعندما تحقق من استقبالهم لأشعاره الوطنية والعاطفية أصبح يوقعها باسمه.. يوم أعدم صدام حسين نشرت قصيدة نبطية ملتهبة في عدد من الصحف الإماراتية تحت اسم مستعار، تردد أنها له، وعلى الرغم من أنني أعتقد أنه هو بالفعل كاتبها خاصة أنها لم تكن بعيدة في أسلوبها عن قصيدته في رثاء محمد الدرة، فإنني لا أستطيع أن أؤكد ذلك..

بعد أن انتهى استقبال المهنئين اصطحبني الشيخ محمد إلى الغداء، وقال إنه أقيم على شرفي لكنه لم يفصح عن السبب.. اكتفى بأن أجلسني إلى يمينه على الأرض كما هي العادة القديمة في بيوت أهل البلد، حيث تمد المفارش ليوضع عليها الطعام الذي تتصدره صواني الخراف المشوية والهريس والثريد واللقيمات، ويأخذ المضيف في انتقاء أفضل قطع اللحم بيده ويقدمها لضيفه.. ثم انتقلنا بعد ذلك إلى صالون مجاور لتناول القهوة مع بعض أصدقائه المقربين، وكان معنا داود الشريان هو الآخر..

كنت معجبا، ولا أزال، بالشيخ محمد الذي أعتبره مثالا للحاكم الذي كرس حياته من أجل النهوض ببلده وإسعاد شعبه، وعلى الرغم من أنني أوقن أن هذا الشعب الذي حصل على أوسع فرص للتعليم يستحق فرصا أكبر في الحرية وفي المشاركة في رسم مصيره، فإنني كنت أتفهم أن الممارسات الديموقراطية لا بد أن تأخذ وقتا حتى تترسخ في دولة لا تزال ناشئة، ومجتمع لا يزال متمسكا بالتقاليد القبلية ويرضى في معظمه بالحياة الهنية التي وفرتها له الدولة.. وعندما أصدر توجيهاته بعدم حبس الصحفيين أشدت بذلك، ولاشك أنني كنت ممتنا على نحو خاص للحرية التي نعم بها برنامجي في ظل حكمه، والتي أتاحت لي إبداء رأيي في أمور عديدة، حتى إن مقالا نشر في جريدة «الخليج» ذهب يلمح إلى أنني لو اغتلت فسوف يحار المحققون في البحث عن القاتل من كثرة الأطراف المستفيدة من غياب البرنامج..

رجوت حسين لوتاه مرة أن يطلعني على مايرده من احتجاجات، قال: «بشرط ألا يؤثر هذا على أدائك، اندفاعا أو انسحابا»، فقبلت، ولكن لوتاه كان مثالا للمدير الحكومي الملتزم فاكتفى بتنبيهي إلى مصادر الاحتجاجات.. جاء أول احتجاج في خطاب وارد من وزارة الخارجية في «أبوظبي» ينقل لسلطات دبي اعتراضا من الأمير سلطان بن عبد العزيز النائب الأول لرئيس الوزراء في السعودية على انحيازي ضد المملكة.. الغريب أنني كنت فيما سبق من أسابيع أُكبر دور السعودية في عقد مؤتمر مكة للمصالحة بين الفلسطينيين، وأشيد بموقفها في إقامة جسر بينها وبين مصر، هو الجسر الذي كانت مصر تعترض على قيامه، ولكني لم أندهش أن الاعتراض ورد من الأمير سلطان، ذلك أنه لم يكن بعيدا عن خروجي من مشروع MBC ولا من ART من قبل.. علمت أن ذلك لم يكن الاحتجاج الوحيد الذي ورد من السعودية، وعلمت أن محمود عباس (أبو مازن) رئيس السلطة الفلسطينية كان دائم الشكوى من «قلم رصاص» كلما وصل إلى «أبو ظبي»، وأعرف أيضا أن تونس احتجت عندما ذكرت في البرنامج أن الحكومة التونسية هي التي تختار المتحدثين في القنوات الفضائية العربية حتى تضمن أن يكون الاختيار للموالين لها، وأننا مضطرون للكتابة (وليس فقط الاتصال الهاتفي) إلى مدير الوكالة التونسية للاتصال الخارجي كلما أردنا ترشيح متحدث في البرنامج، كما احتجت تونس مرة أخرى عندما سخرت من تقديم اتحاد الصحفيين العرب درع حرية الصحافة للرئيس التونسي..

كانت معظم الدول العربية ـ ولا تزال ـ تضيق بالنقد حتى لو كان معتدلا، ولا تطيق حرية التعبير أو صوت الصحافة، وتنزعج إذا ما اعترض كاتب على سياستها أو حتى إذا امتدح خصومها.. كنت مدعوا إلى أحد مهرجانات «هلا فبراير» في الكويت، ولكني عندما رثيت صدام حسين ـ الأصح أنني رثيت الأمة التي قبلت صاغرة بإعدام صدام حسين على يد محكمة أقامتها الولايات المتحدة ـ انتفضت السلطات الكويتية وألغت الدعوة في اللحظات الأخيرة.. وعندما تتخذ حكومات قرارات غبية كهذه، فلن يكون غريبا أن تنظر المؤسسات بل والأفراد أيضا إلى حرية التعبير النظرة نفسها..

عند وفاة «أبو عمار» المريبة في نوفمبر ٢٠٠٤ ناديت بأن يكشف محمد رشيد، الذي كان مكلفا باستثمار أموال منظمة التحرير الفلسطينية، عن حقيقة هذه الأموال

وكيف تستثمر.. بعدها مباشرة توقفت رعاية موبينيل للبرنامج، وكنت واثقا أن السبب هو حديثي عن الرجل الغامض.. كان المهندس نجيب ساويرس قد نصحني باستضافته عندما كنت أقدم برنامج «رئيس التحرير» في التلفزيون المصري باعتباره خبيرا اقتصاديا.. وعندما ظهر في البرنامج انصبت عليَّ لعنات الأصدقاء الذين يعرفون مداخل ومخارج فلسطين وناسها، وقالوا: كيف تستضيف من لعب بأموال الفلسطينيين؟ قلت: «من لعب بها هو خالد سلام».. يومها عرفت أن الرجل يحمل ثلاثة أسماء، بينها أيضا برهان خلوي، ويحمل ثلاث جنسيات أيضا، وعرفت أن علاقته بنجيب ساويرس ترجع إلى أنه استثمر ملايين لا تعد في إحدى شركاته..

ما ساءني أن ساويرس كان دائما مايردد أمامي وأمام آخرين إذا التقينا في مناسبة اجتماعية أن بين شركاته وبرامجي زواجا كاثوليكيا لا ينفصم، ولكننا التقينا مصادفة بعد إيقاف إعلانات موبينيل أثناء مشاركتنا معا في أحد المؤتمرات في دبي، وعندما خرجنا من القاعة أمسك بيدي، وقال: «يعني كان ضروري تعمل في محمد رشيد اللي عملته؟»، وضحك.. قلت: «أتعتقد أنك فاجأتني الآن؟ كل واحد منا يبحث عن مصلحته، ومصلحتي أن أقول للناس الحقيقة»..

قرأت في الصحف المصرية في عام ٢٠٠٧ أن نائب رئيس تحرير مجلة «الأهرام العربي» إلهامي المليجي كان يجلس في فندق «فورسيزونز» بالجيزة بالقرب من حمام السباحة، فإذا برجل يوجه له الشتائم بسبب تقرير نشر في المجلة عن حدوث انقلاب في السلطة الفلسطينية ويهدده بإلقائه في الحمام وينصرف متوعدا، ثم يعود مرة أخرى بصحبة رجل حراسة «بودي جارد» اعتدى عليه بالسب والقذف والضرب أيضا.. قدم إلهامي بلاغا في الشرطة ضد الرجل، وفي البلاغ ذكر اسم الجاني.. لم يكن غير محمد برهان رشيد.. الأنكى من ذلك أن المخابرات العامة ضغطت على الصحفي حتى سحب بلاغه «من أجل المصلحة العليا للبلد» كما قيل لي..

استفزني هذا الخبر كثيرا فكتبت في «المصري اليوم» مقالا قلت فيه: «نعرف أن الحكومة المصرية تأوي عصبة من أعضاء تنظيم فتح من زمن، وتخص برعايتها بالذات أولئك الذين راجت شبهات حول صلتهم بإسرائيل وصلتهم بأمريكا مثل محمد دحلان

ومحمد رشيد وغيرهما.. حكومة فاسدة سياسيا وماليا لابد أنها ستنحاز للفاسدين سياسيا وماليا.. لذلك فمن الممكن أن يبرطع هؤلاء في مصر كما شاءوا، ولعله أمر طبيعي أن نجدهم في فنادق السبع نجوم على ضفاف حمامات السباحة في حين أن بلادهم غارقة في حمامات الدم».. وفي نهاية المقال كتبت: «يا محمد رشيد/ برهان خلوي/ خالد سلام.. حتى وإن كانت لديك حصانة في بلادنا فهي حصانة حكومة، لكن الناس لا يمنحون الحصانة هكذا مجانا ولا هبلا وغصبا.. ولن يحميك منهم رجال الأعمال الذين تستثمر أموالك معهم.. الأفضل لك وزمرتك أن تعودوا من حيث أتيتم أو تذهبوا لأي مكان اخترتم».. كان عنوان المقال «بلادنا ليست مأوى لأمثالكم»..

اختار محمد دحلان أن يقيم بعض الوقت في «أبوظبي» بالإضافة إلى بيته الفاخر في القاهرة، وكان يتحرك في حراسة سيارتين ذات دفع رباعي تحملان رجاله.. في إحدى المرات استضافه داود الشريان في برنامجه في تلفزيون دبي، وكان ينوي أن يعصره بأسئلته اللاذعة المعتادة.. جاء دحلان من «أبوظبي» متأخرا ربع ساعة فاغتاظ الشريان حتى إنه قال له وسط الإستوديو: «يا أستاذ إنت اتأخرت.. الكلام ده مايمشيش معايا»؛ فعاد من حيث أتى.. كنت أراقب ما يجري عن بعد، فرحت لداود أقول له ساخرا: «يوم ما نمشي من هنا كان ممكن نلاقي عند الرجل ده وظيفة».. كان دحلان يؤسس وقتها مؤسسة إعلامية قيل إنها غنية بالأموال، وربما كانت هي المؤسسة التي راج في القاهرة مؤخرا أنها تبحث عن شراء أسهم معتبرة في بعض الفضائيات المصرية الشهيرة..

لكن داود ترك قناة دبي بعد نحو عامين من العمل فيها ليصبح عضوا في مجلس إدارة مجموعة MBC ومديرا عاما للمجموعة في السعودية، وقدم برنامجه الساخن «واجه الصحافة» على قناة «العربية»، وهكذا توطدت علاقتي مع المجموعة ومع مؤسسها الشيخ وليد البراهيم، الذي كنت ألتقي به في دبي بين الحين والآخر.. أما أنا فجاءتني عروض جدية لإقامة قناتين تلفزيونيتين؛ أولها كان عرضا لإدارة قناة يطلقها رجل الأعمال توفيق عبد الحي الذي كان هاربا من مصر على خلفية قضية صفقة الدواجن الفاسدة الشهيرة، على الرغم من أن المحكمة حكمت ببراءته (عاد إلى مصر بعد الحياة ٣٠ سنة في الخارج)، أما العرض الثاني فكان المشاركة في تأسيس قناة مع الناشر المصري عصام إسماعيل فهمي الذي كان يصدر عندئذ «صوت

الأمة» و«الدستور»، وكان المشروع أكثر جدية خاصة بعد أن وضع المهندس أسامة الشيخ دراسة للقناة وسماها «محطة مصر» وانضم له الكاتبان الصحفيان إبراهيم عيسى ووائل الإبراشي وكذلك عدد من كبار رجال الأعمال، ثم اهتمت به حركة «كفاية» وفكرت في طرحه للاكتتاب العام.. وكان وزير الإعلام أنس الفقي يتابع سير المشروع عن كثب، وهكذا فعندما قدمنا طلبنا بتأسيس الشركة المالكة للقناة إلى هيئة الاستثمار حفظ الملف على الفور..

جاءني أيضا ممثل لشركة اتصالات إيطالية في دبي يقترح أن أسجل تعليقا يوميا بالصوت والصورة أو بالصوت وحده لا تزيد مدته على دقيقة واحدة توزعه الشركة على شركات الهواتف النقالة في العالم العربي، وقال إن الشركة أجرت استقصاءاتها فرشحتني النتائج مع الداعية عمرو خالد لتقديم التعليقات، وقال إنهم يعولون علينا لهذا «الفتح الجديد» في عالم الاتصالات العربي.. وقد شدني هذا العرض لكنني، كما قلت لممثل الشركة، رجحت ألا تقبل شركات الموبايل في بلداننا على تسجيلاتي، ذلك أن هذه الشركات إما أن تكون تحت سيطرة الحكومات وإما أنها تمالئها حرصا على أعمالها، وهذا ما تأكد لنا فيما بعد.. وعندما قدم لي بعد سنوات عرض مماثل من شركة Call Info الدولية المسجلة في المنطقة الحرة في دبي كانت إجابتي جاهزة، ولم أعرف لماذا لم تتوافر أسباب النجاح لهذا المشروع مع آخرين حتى يومنا هذا..

لم يكن عندي على أي حال وقت فائض، خاصة أنني كنت أمارس متعة افتقدتها لفترة طويلة هي الكتابة للصحف.. نشرت لفترة قصيرة مقالات في جريدة كويتية جديدة هي «النهار»، وكنت أكتب بين وقت وآخر لصحف المعارضة المصرية، مثل «الدستور» التي نشرت فيها مرة مقالا بعنوان «الحكم يجب أن يتعلم الطبيخ» حتى يطبخ التعديلات الدستورية جيدا بدلا من طبيخه المعهود الذي عهدناه على الدوام ناقص السوا فاقد المذاق، وفي مرة أخرى كتبت في «صوت الأمة» مقالا عنوانه «اسجنوني معهم»، مع عادل حمودة وإبراهيم عيسى وعبد الحليم قنديل ووائل الإبراشي، الذين حكم عليهم بالسجن بتهمة سب مبارك وابنه جمال ونشر أخبار كاذبة تسيء لرموز الحزب الحاكم.. ولم أكن أدري أنه لن يمر عام إلَّا ولديَّ الوقت كله لكتابة المقالات عندما توقف «قلم رصاص»..

في الأسابيع الأخيرة في دبي كان هناك طيف لا أستطيع وصفه بدقة يزورني بين الحين والآخر، وكأنه نذير يحذر من أن النهايات قد دنت.. قبل الحلقة الأخيرة من البرنامج بأسبوعين اثنين ذهبت إلى حسين لوتاه دون موعد ودون أن أتدبر كثيرا في الأمر، وقلت إنني أريد أن أجدد تجديدا واسعا في قالب البرنامج، ذلك أننا نرى من حولنا أن حال الأمة لا يسر، والأحداث السقيمة التي تمر بنا تكاد تتكرر كل عدة أشهر، ومواقف الأمس هي ذاتها مواقف اليوم، ومن المؤكد أننا سنراها في الغد أيضا.. وقلت إنني أخشى أن أسأم من تكرار ما أقول أو أن يمل منه المشاهدون، واقترحت على لوتاه أن أجلس معه جلسة هادئة نبحث فيها قوالب جديدة، ولو لفترة قصيرة، وبدأت أحدثه عن البدائل.. لم يتركني أكمل، أخذني من يدي وهبطنا إلى مكتب علي جابر، وهناك طلب مني لوتاه أن أعيد على مسامعه ما قلت تماما، ولكن علي كان قاطعا: «ليس بإمكانك أن تقدم شيئا غير ما تقدمه الآن، لا أنت ستطيقه ولا مشاهدوك سيتقبلونه.. آسف أن أقول لك إنه كتب عليك أن تسير في الطريق نفسه حتى تفاجأ يوما أنك اصطدمت بالحائط».. دار الحديث بيننا على هذا النحو وكأنما هو الوحيد بيننا الذي كان يرى الحائط..

أذيعت حلقة البرنامج رقم ١٧٩ يوم الجمعة ٥ ديسمبر ٢٠٠٨ قبل عيد الأضحى مباشرة، وذهبت إلى القاهرة أقضي يومي العيد الأولين فإذا بالصديق نايف كريم مدير البرامج السياسية يتصل بي: «للأسف أوقف البرنامج»، ولما سألت عن السبب قال إن رسالة قصيرة جاءته على بريده الإلكتروني تفيده بالإيقاف دون إبداء الأسباب.. طلبت منه أن يحاول تقصي الأمر، فقال إنه سيحاول مرة أخرى وإن كان يعرف الرد سلفا وسيتصل بي بعد ربع ساعة.. في الانتظار خطفت نظري كومة من الصحف إلى جانبي، تعلوها صحيفة بها عنوان ببنط كبير «حمدي قنديل، إعلامي غير قابل للمصادرة»، كال لي فيها الناقد الكبير الأستاذ طارق الشناوي المديح وهو يقول إن «اسمه الذي صنعه طوال ٥٠ عاما يضمن له أن تظل كل القنوات مفتوحة أمامه حتى ولو لم يتنازل عن حريته».. كان تاريخ المقال الذي نشر في جريدة «الدستور» ٢ ديسمبر، أي قبل الحلقة الأخيرة بأيام ثلاثة!

وعندما جاء موعد الحلقة التالية في ١٩ ديسمبر واختفى البرنامج من الشاشة، وظهر مكانه برنامج باسم «ميشو على الهوا»، انهالت الأسئلة على عبد اللطيف القرقاوي

الذي كان قد تولى قبل أشهر منصب مدير تلفزيون دبي فكانت إجابته مختصرة تماما: «مقدم البرنامج في إجازة»، وعندها بدأت التخمينات، فنشرت صحف أن السبب هو هجومي على شيخ الأزهر الدكتور سيد طنطاوي عندما صافح بيريز في مؤتمر حوار الأديان في نيويورك، لكن هذه الحلقة لم تكن الحلقة الأخيرة، وأكدت صحف أخرى أن الضربة القاصمة كانت بسبب حلقة «أمة مهند»، وأن ملك الأردن هو الذي احتج لكونه من السلالة النبوية الشريفة.. في تلك الحلقة كنت قد تحدثت عن المفارقة بين سمير جعجع القاتل بحكم محكمة وهو يتنقل ضيفا على قصور الحكام العرب بعد حرب تموز في لبنان وبين حسن نصر الله الذي قاوم عدوان إسرائيل وهو يستتر في مخبئه يلتمس الأمان من عدوانها، وقلت: «يا أمة جاحدة، يا أمة ناكرة، يا أمة ذليلة، يا أمة واهنة، يا أمة فلتانة، يا أمة عدمانة، يا أمة أونطة، يا أمة كانت أمة محمد بقت أمة مهند»، لكن هذه الحلقة هي الأخرى كانت قد بثت قبل شهر تقريبا..

راح آخرون يقولون إن البرنامج أوقف بسبب مكالمة تلفونية من الرياض، وقال غيرهم إنها مكالمة من القاهرة، واكتفى أحدهم بالقول إن البرنامج «ابن موت».. لكن أحدا لم يلتفت وقتها إلى أن هناك عاملا آخر قد يكون واحدا من الأسباب الهامة لإيقاف البرنامج، فقد داهمت دبي في الربع الأخير من ٢٠٠٨ أزمة اقتصادية طاحنة كانت نتيجة مباشرة للأزمة الاقتصادية العالمية التي بدأت بفضائح الرهون العقارية في الولايات المتحدة.. ولما كانت دبي متصلة اتصالا وثيقا بالأسواق العالمية، ومنكشفة عليها بالتالي، فقد تتالت فيها مفاجآت موجعة لم يتوقعها أحد قبل أشهر قليلة.. انهارت البورصة، وتوقف الكثير من المشروعات، ولم نعد نرى في سماء دبي تلك الروافع السامقة التي لم تكن تكف عن الحركة صباح مساء.. حدث شلل تام في سوق العقار التي كانت تمثل نحو ٣٠٪ من اقتصاد دبي، وأفلست شركات، وسُرح جانب كبير من العمالة الأجنبية، وعندما أعلنت حكومة دبي أنها عاجزة عن سداد ديونها التي كانت قد بلغت ١٣٠ مليار دولار، وقع الخبر على الكل كالصاعقة..

ربما ضخمت وسائل الإعلام الأمر أيضا حتى إن الكثيرين قالوا وقتها إن دبي مجرد فقاعة، وإن الفقاعة قد انفجرت.. وكان مشهدا مألوفا عندئذ أن تجد في ساحة انتظار السيارات في المطار سيارات مهجورة وفيها مفاتيحها، بعد أن هرول البعض

إلى المطار ناجين بأنفسهم أو هاربين من الديون والأقساط.. كان الجو العام بائسا، ومن المؤكد أنه شكل ضغطا نفسيا على السلطة في الإمارة، فهل ترى رأت السلطة أن تتخفف من الضغوط السياسية أيضا، وهل دفع البرنامج من أجل ذلك الثمن؟ ذلك سؤال لا أعرف إجابته..

الذي أعرفه أنه عندما زاد اللغط اضطر أحمد الشيخ العضو المنتدب لمؤسسة دبي للإعلام أن يعقد مؤتمرا صحفيا بعد أسبوعين من إيقاف البرنامج قيل إنه بمناسبة دورة البرامج الجديدة، وكان ينتظر السؤال المتوقع فقال دون أن يتلعثم: «ليست هناك أبعاد سياسية للقرار.. كل ما في الأمر أن هناك دورة برامجية جديدة؛ لذلك أوقفنا سبعة برامج».. أما أنا فقد التزمت الصمت أمام سيل الأسئلة من الصحافة، وعندما دعاني أحمد الشيخ لعشاء في بيته اعتذرت عن عدم الذهاب..

كنت قد قررت الرحيل على الفور على الرغم من أن إحساسا راودني لوهلة بأنني أخون دبي وهي في أزمتها، ولكن الفريق ضاحي خلفان القائد العام لشرطة دبي أبلغني أنه يريد تكريمي قبل أن أرحل، وعندما ذهبت إليه كان قد جمع حوله عددا من كبار ضباط الشرطة، وقدم لي مجسما مذهبا لقلعة نايف مقر أول مركز شرطة في دبي، ثم قدم لي شهادة عندما قرأتها لم أدرِ ماذا أقول: «تقديرا للمكانة التي يحظى بها بين الأوساط الإعلامية العربية والعالمية، ولفكره المستنير، وسعيه الجاد للارتقاء بالإعلام الهادف، وطرح المواضيع الجوهرية، ومتابعة الرأي العام، والاهتمام بالقضايا التي تلامس هموم الأمة والواقع الذي يعيشه أبناء الوطن الكبير»..

ولما علم محمد القرقاوي وزير شئون مجلس الوزراء بسفري دعاني إلى مكتبه.. أثرت ما قاله أحمد الشيخ فكان تعليقه موجزا للغاية: «يا أخ حمدي، كل معلق من لسانه، ما قاله أحمد هو وحده المسئول عنه».. أدركت أن المقابلة غرضها ليس أكثر من استكمال الأصول الواجبة، وبعدها دعاني إلى غداء مع غسان طهبوب وعلي جابر، وودعني وأنا أحاول إخفاء توتري قدر ما أستطيع..

عندما عدت إلى البيت كانت نجلاء قد حزمت بعض الحقائب فقمت بإنهاء ما تبقى.. وكنت قد طلبت الصديق وحيد حمزاوي المسئول عن الشئون المالية ليأتيني

في منتصف الليل، وعندما جاء سلمته مفتاح السيارة ومفتاح الشقة.. قال إن الرسالة التي أحملها لك تقول إن السيارة والشقة سوف تظلان باسمك راجين أن تبقى معنا وتقدم برنامجا آخر، وتستمر في علاج كليتك في المستشفى الأمريكي حتى تشفى بإذن الله».. مؤكد أنه كان يعرف ردي.. قلت: «يا أستاذ وحيد، مرة أخرى أقول لك: سأترك المفتاحين معك»..

سارت بنا سيارته إلى المطار في الفجر.. كانت المدينة موحشة، ولم ينطق أحدنا بكلمة.. وعندما حاول أن يشرخ الصمت ليذكرني بمسرحية الرحابنة الشهيرة «الليل والقنديل» وبفيروز وهي تقول: «عتم يا ليل عتم أكتر، حتى قناديلنا تضوى أكتر»، كان صوته يتهدج بالأسى.. أما أنا فقد حاولت أن أعزي نفسي بأني أديت الأمانة وأن ما خطه القلم الرصاص لن يمحى، لكن الشجن تغلب على عنادي..

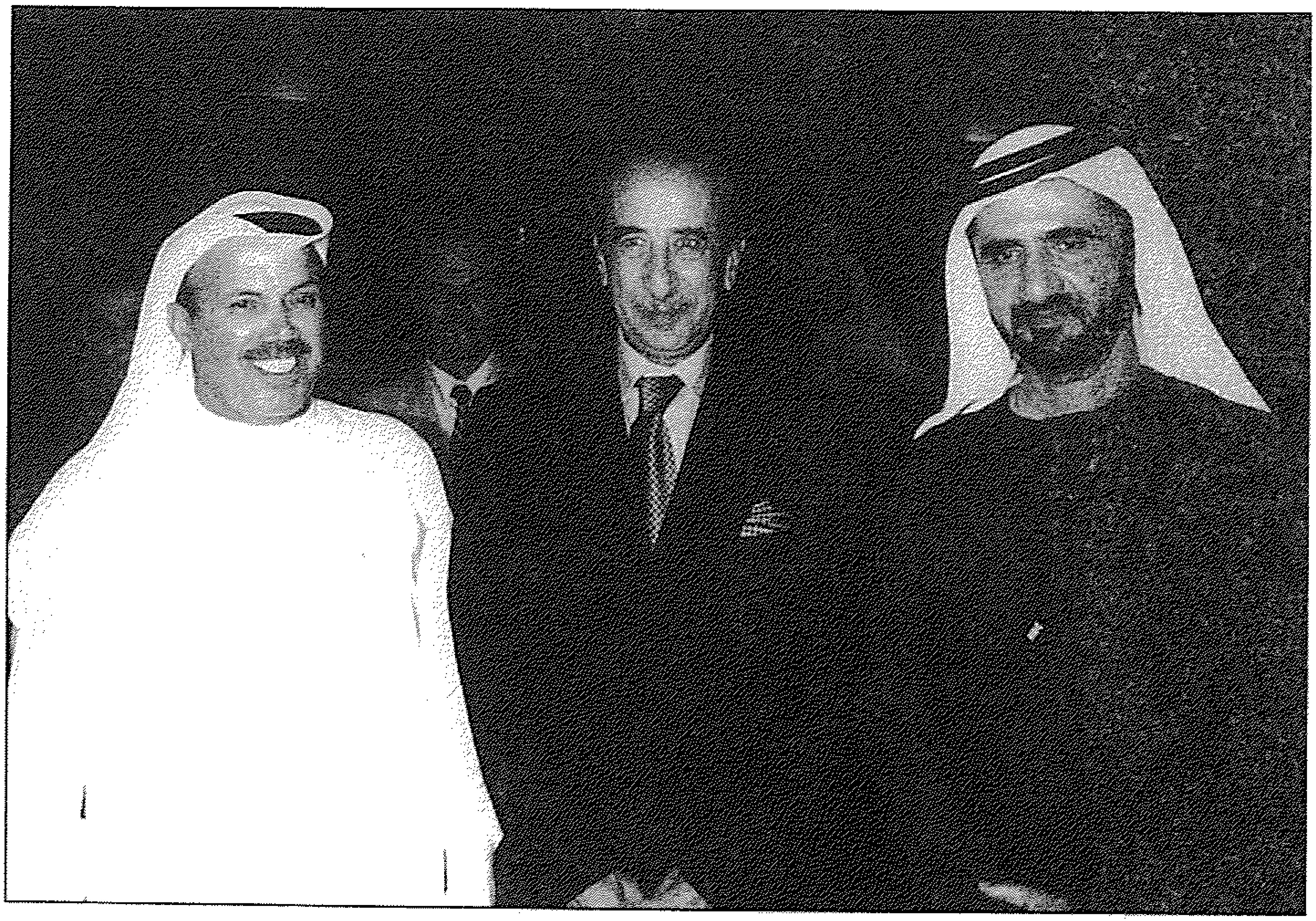

مع سمو الشيخ محمد بن راشد ومدير مكتبه اللواء مصبح الفتان (٢٠٠٤).

سمو الدكتور سلطان القاسمي يسلمني «جائزة تريم عمران الصحفية» (٢٠٠٧).

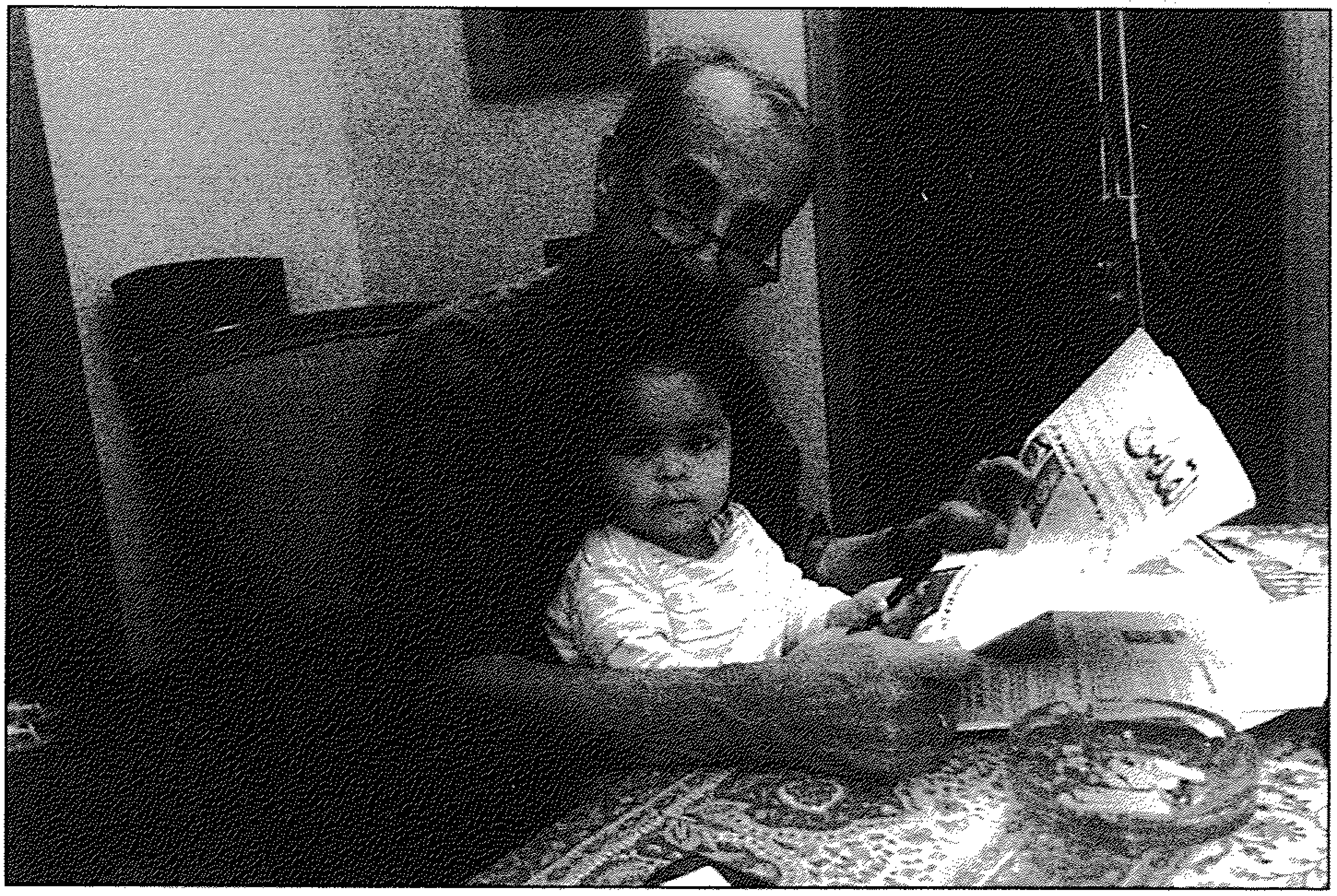

مع حفيدتنا زين أعد برنامج «قلم رصاص» في تلفزيون دبي (٢٠٠٨).

ضاحي خلفان يكرم الإعلامي حمدي قنديل

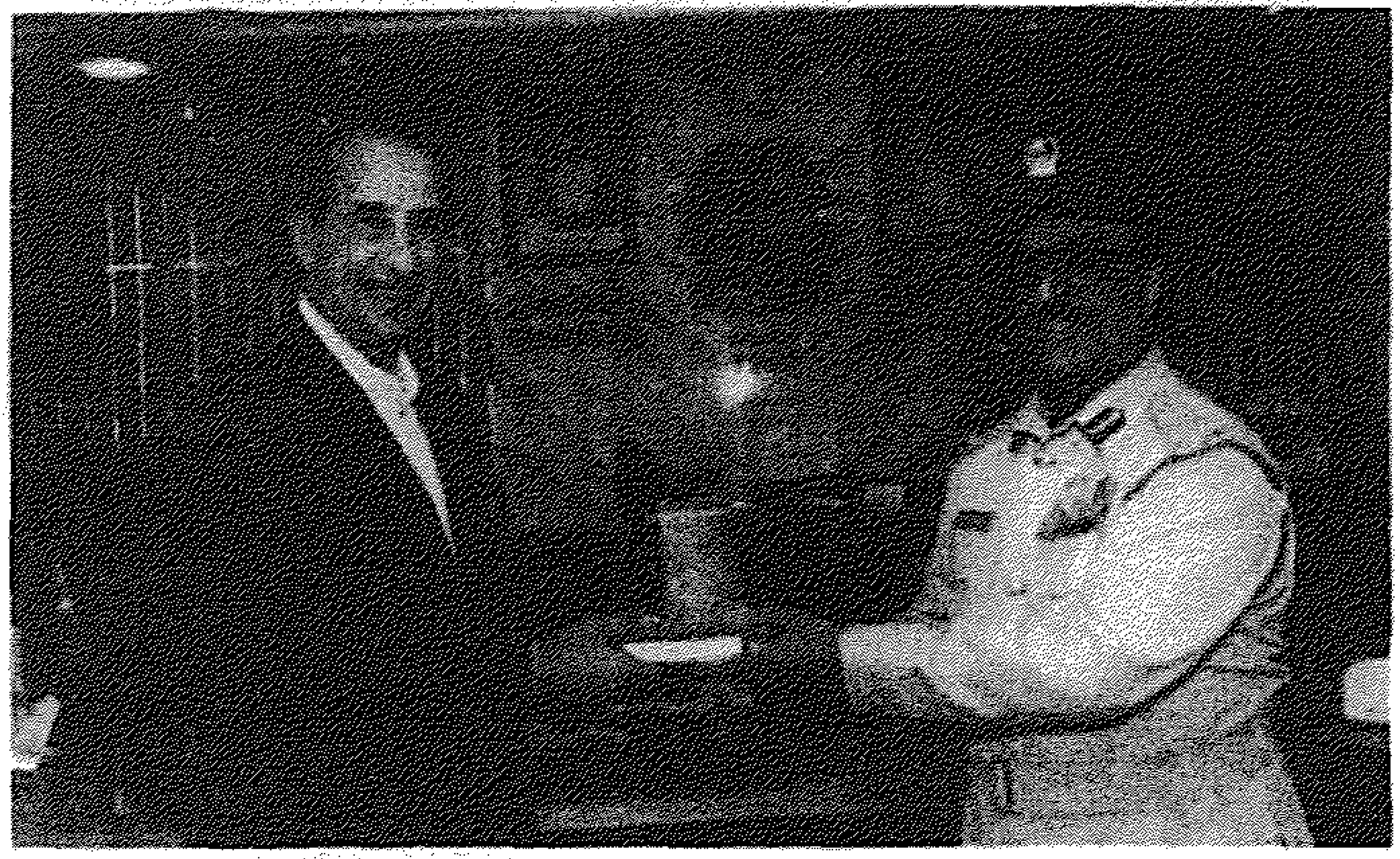

ضاحي خلفان يكرم الإعلامي حمدي قنديل

دبي - «الخليج»: كرم الفريق ضاحي خلفان تميم، القائد العام لشرطة دبي، في مكتبه صباح أمس (الخميس)، وبحضور اللواء عبد الرحمن محمد رفيع، مدير الإدارة العامة لخدمة المجتمع، الإعلامي حمدي قنديل، تقديراً لمكانته الإعلامية التي يحظى بها بين الأوساط الإعلامية العربية والعالمية.

وأشاد القائد العام لشرطة دبي بجهود قنديل في تطوير العمل الإعلامي المقروء والمرئي وتجربته الناجحة في تلفزيون دبي من خلال برنامج (قلم رصاص). وقدم الفريق ضاحي خلفان تميم، للإعلامي قنديل، إضافة لشهادة التقدير، مجسم قلعة نايف، أول مركز شرطة في دبي، تقديراً للمكانة التي يحظى بها في نفوس أبناء الوطن العربي.

تكريم من الفريق ضاحي خلفان القائد العام لشرطة دبي (٢٠٠٩).

في حفل موقع «العربية» في دبي : إلى يميني طلال سلمان رئيس تحرير «السفير»، والشيخ وليد البراهيم مؤسس مجموعة MBC، وغسان شربل رئيس تحرير «الحياة»، وداود الشريان (٢٠١٠).

(٢١)

الجماعة زعلانين

١٩٩٧ - ٢٠١١

◆ ◆ ◆

هكذا أمم القذافي القناة.

◆ ◆ ◆

في الجماهيرية الشعبية لابد أن يشارك الشعب كله في مباريات كرة القدم، ولا يقتصر دوره على الفرجة السلبية.. لابد أن ينزل الجميع إلى أرض الملعب.

كان ذلك في مايو سنة ٢٠٠٩.. كنت جالسا في سكني في لندن الذي يطل على حدائق كنسنجتون، امتداد «هايد بارك»، أتأهب لإجازة نهاية الأسبوع بعد أن أنهيت تسجيل الحلقة الخامسة من برنامجي «قلم رصاص» في قناة «الليبية»، عندما دخل عليَّ «توفيق» وهو يهذي بصوت عالٍ: «القائد القائد».. توفيق رجل ليبي طيب في المجمل، يعمل في مجال المقاولات على ما أظن، وهو صديق مقرب من عبد السلام مشري رئيس مجلس إدارة مؤسسة «الغد» المسئولة عن القناة، انتدبه ليكون مسئولا إداريا يذلل العقبات أمام برنامجي في أسابيع انطلاقته الأولى.. وقد عرفته متزنا رزينا؛ الأمر الذي أثار دهشتي لما رأيته يصيح على هذا النحو الهستيري..

«القائد» لأي ليبي لا أحد غير القذافي.. والقذافي كما كنت أعلم لا شأن له بنا أو بالقناة.. القناة تصدر عن مؤسسة مستقلة عن الدولة هي مؤسسة «الغد».. هذا ما قاله لي مشري عندما التقينا في دبي لأول مرة.. كنا في شهر يناير، وكان الرجل قد جاء ليتفاوض مع تلفزيون دبي على شراء بعض المسلسلات والبرامج من بينها برنامجي «قلم رصاص».. وعندما علم أن البرنامج أوقف اتصل بي فالتقينا وعرض عليَّ تقديم البرنامج في قناته، وشدد يومها على أن القناة ليست تابعة لإعلام الدولة، وأن «مؤسسة الغد» أطلقتها بتمويل من بعض المنظمات الأهلية مثل رابطة الأدباء والكتاب ورابطة الصحفيين ورابطة الفنانين وغيرها، وهي صيغة للملكية راقت لي لأنها ليست ملكية حكومية أو ملكية رأس مال.. لكن هذا لم يكن كافيا، فطلبت من مشري أن يمهلني حتى نلتقي في طرابلس..

كان لقاؤنا التالي هناك بعد أسبوعين.. وأنا ذاهب كنت أعلم أنه ليس في يدي إلَّا عرضان من قناتين لبنانيتين؛ «المنار» و«الجديد».. أشهد أن «المنار»، الناطقة باسم حزب الله، كانت على الدوام أول من يقدم عرضا عندما أتوقف.. فعلت ذلك عندما توقف «رئيس التحرير» في التلفزيون المصري وكذلك في دريم، وها هي تكرر

عرضها لمرة ثالثة بعد أن توقف «قلم رصاص» في دبي.. اتصل بي الصديق محمد عفيف مدير الأخبار والبرامج السياسية في القناة والمستشار المقرب من أمين عام حزب الله يجدد العرض، ولكنني أبلغته أن سبب اعتذاري المعتاد لا يزال قائما: أنني لا أفضل العمل في قنوات حزبية، ثم إن ما أدعو إليه في برامجي كثيرا ما يخدم القضايا التي يدعو إليها حزب الله بأفضل مما يكون ذلك من قناة تابعة للحزب ذاته..

أما القناة اللبنانية الثانية التي سعت للتعاقد معي فكانت «الجديد».. كان مؤسس القناة رجل الأعمال تحسين الخياط هو أول من علم بإيقاف «قلم رصاص» في دبي عندما التقينا معا في «أبو ظبي» في مجلس الشيخ نهيان بن مبارك.. وعندما غادرنا المجلس اجتمعنا في الفندق الذي كنا نقيم فيه، وعرض عليَّ تقديم البرنامج في قناته، ثم دعاني إلى بيروت وأقام لي وليمة عامرة حضرتها معنا الصديقة العزيزة مريم البسام رئيس تحرير الأخبار والأستاذ ديمتري خضر مدير القناة.. كان شرطي الوحيد أن أقيم في القاهرة وأسجل البرنامج هناك؛ من ناحية لأن الإقامة في لبنان لم تكن آمنة والبلد مقبل على انتخابات في شهر يونيو؛ ومن ناحية ثانية لأتفادى نباح كلاب مبارك المسعورة التي طالما هاجمتني بعبارتها التي صكت في أقبية النظام «دول بيشتموا مصر من الخارج».. كان ردي عليهم على الدوام: ١. أنا لا أشتم، أنا أنتقد ٢. النقد موجه للنظام وليس لمصر ٣. لم يعد هناك الآن داخل وخارج بعد أن ازدحم الفضاء بقنوات عربية بلغ عددها نحو خمسمائة..

ذهب خضر إلى القاهرة يطلب إنتاج البرنامج في مصر، وارتأى أن يدخل البيت من بابه فالتقى بوزير الإعلام أنس الفقي.. قلت له قبل اللقاء: «ظني أن أحدا لن يجيب عليك بلا أو بنعم»، ولكن ظني خاب فقد اتصل بي الرجل من المطار يقول: «للأسف مستحيل ننتج البرنامج في مصر».. وبعدها علمت أن «الجديد» تلقت إنذارا بأنها لو أذاعت لي برنامجا فسوف ترفع القناة من «نايل سات»..

من بيروت أيضا جدد الصديق العزيز الدكتور خير الدين حسيب مدير مركز دراسات الوحدة العربية مشروعه الذي كنا قد تحدثنا فيه مرات من قبل: إطلاق قناة قومية عربية بتبرعات من القوميين العرب توضع في وقف ينفق من عائده على القناة،

وهو الأسلوب نفسه الذي يمول به المركز.. وعندما عقد منتدى لتنسيق الفضائيات شاركت فيه مع صديقي المقرب المهندس أسامة الشيخ، وكان عندئذ مشرفا على القنوات المتخصصة في اتحاد الإذاعة والتلفزيون في مصر، اجتمعنا معا مع الدكتور حسيب، وعلى الرغم من أن المهندس الشيخ كان يرى أنه من الممكن إطلاق قناة متقشفة لا تزيد نفقاتها على خمسة ملايين دولار في العامين الأولين، فإنني توجست معه من القدرة على توفير هذا المبلغ.. والحق أن الدكتور حسيب كان أكثر حماسا للمشروع، لكن الأيام مضت على نحو ما تمضي دون أن نحقق شيئا..

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تطرح فيها فكرة إطلاق قناة قومية، فقد طرحت قبل عدة سنوات في إطار «المؤتمر القومي العربي» في دورته في بيروت، أيضا، وكلفت من المؤتمر بمسئولية لجنة إعلامية كانت القناة هي مشروعها الأول، إلَّا أن اتصالاتي للحصول على تمويل لم تثمر، تماما كما حدث عندما كنت أبحث عن تمويل لمشروع «أورينسات» عامي ١٩٨٧ و ١٩٨٨ (تحدثت عن تفاصيله في الفصل رقم ١٥).. وكان الصديق العزيز المفكر كمال خلف الطويل، وهو طبيب فلسطيني مقيم في الولايات المتحدة، أكثر أعضاء المؤتمر حماسا للمشروع، وكان يعتقد أن الولايات المتحدة هي أنسب مكان لانطلاقه حتى لا يتعرض للضغوط إذا ما أقيم في دولة عربية، إلَّا أنني لم أكن أميل إلى إطلاق المشروع خارج بيئته العربية، وأعترف هنا أيضا أنني لم أكن ميالا للإقامة في الولايات المتحدة..

كان الخيار أمامي عندئذ هو أن تبث القناة من بيروت أو من بلد عربي آخر يمكن أن يسمح ببث قناة فضائية خاصة من أراضيه.. في بيروت، اجتمعت خلال شهر يناير ٢٠٠٩، أي بعد إيقاف «قلم رصاص» في دبي بشهر واحد مع وزير الاتصالات اللبناني جبران باسيل، وكنا نحضر معا ملتقى «عربسات» الذي أعلن فيه باسيل قيام مدينة إنتاج إعلامي توفر إمكانات الإنتاج والبث التلفزيوني لأول مرة في لبنان، لكن المشروع تأخر قيامه.. وهكذا لم يكن أمامي إلا التوجه إلى الدوحة في الأسبوع التالي؛ ظنا مني أنه يمكنني استخراج ترخيص للبث من هناك بعد أن أعلن عن صدور قانون يسمح بذلك.. كان وزير الإعلام القطري الشيخ حمد الكواري، صديقا مقربا لي منذ كان سفيرا لقطر في باريس أثناء إقامتي فيها، فلما ذهبت إليه قال إن القانون

صدر منذ شهور لكنه لا يمكن تفعيله لأن لائحته لم تصدر بعد، ومع ذلك فقد وعد بأنه سيبذل جهده لاستخراج ترخيص لي..

في المساء تناولت العشاء مع المفكر الكبير الدكتور عزمي بشارة الذي كان قد أقام في قطر بعد استقالته من الكنيست وأصبح مستشارا لأميرها.. حدثته في الأمر فقال إنه سيطرحه على الأمير، وفي اليوم التالي أبلغني بأن الأمير ـ وكان عائدا من مؤتمر القمة العربية الاقتصادية في الكويت ـ استقبله في الصباح، وأنه عندما طرح عليه الأمر قال: «لكن قنديل دائما بيهاجمنا»، فرد بشارة: «كلنا كنا نهاجمكم يا صاحب السمو عندما فتحتم مكتبا تجاريا لإسرائيل».. وفقا للدكتور عزمي بشارة، دخلت الشيخة موزة عليهما عندئذ، ولما سألها الأمير عن رأيها قالت إنها لا تظن أن هناك مانعا، ولكن زيارتي لقطر انتهت إلى لا شيء..

كانت الدنيا من حولي وأنا ذاهب إلى ليبيا قد أظلمت، ليس فيها طاقة نور واحدة.. أخذت أحاسب نفسي حسابا عسيرا وأتدبر فيما إذا كان الخطأ خطئي أم خطأ غيري، لكن المحصلة في النهاية كانت جلية: لم تعد هناك بلاد تتحمل مشروعي، ولا هناك محطات ذات وزن يمكنها أن تطيق ما أقول.. لكنني لم أستسلم.. جلست مع مشري رئيس مؤسسة «الغد» التي تشرف على قناة «الليبية» ساعات في طرابلس نبحث مشروع العقد الذي كان قد أعده.. كان كل ما يهمني بالدرجة الأولى قدر الحرية المتاح، وانتهينا في ذلك إلى أن ينص العقد على أن البرنامج «ذو توجه حر»، وهو على ما أظن نص فريد من نوعه في مثل هذه العقود وإن كانت النصوص لا تضمن الكثير في النهاية..

طال النقاش فيما بعد حول مكان تصوير البرنامج، وفي حين كان مشري يريد أن يتم ذلك في طرابلس أكدت أنا رفضي، وعللت ذلك بصعوبة حضور ضيوف البرنامج إلى ليبيا بسبب التأشيرات والموافقات الأمنية وما إلى ذلك.. قال مشري: «في هذه الحالة الأفضل أن نبث البرنامج من دبي»، إلا أنني لم أجد من اللائق أن أخرج من إستوديو تلفزيون دبي الذي أوقف برنامجي لأدخل الإستوديو المجاور لأقدم منه البرنامج نفسه.. وانتهينا أخيرا إلى أن البرنامج سيصور في لندن؛ عاصمة الصحافة العربية المهاجرة.. أما الشروط المالية والسكن وغيره فلم تأخذ منا وقتا يذكر..

عندما أوشكت على السفر إلى لندن استضافتني منى الشاذلي في برنامجها «العاشرة مساءً» الذي كان يتصدر برامج المساء في حلقة كاملة، وفيه فجَّرتُ المفاجأة التي لم يكن أحد قد علم بها من قبل، أن قطاري ستكون محطته القادمة في «الليبية».. اندهشت منى بالطبع وأخذت تمطرني بسؤال تلو الآخر: لماذا الليبية؟ ويبدو أن إجاباتي لم تكن مقنعة تماما حتى قلت لها في النهاية إن مثل هذا الوضع السيريالي الذي أنا فيه ليس له إلَّا حل سيريالي أيضا.. وعندما بدأ البرنامج في استقبال مكالمات المشاهدين التلفونية غمرني أصحابها بحبهم، ونبهتني إحدى المتصلات إلى اختيار مسكن في لندن بلا شرفات (إشارة إلى حوادث مقتل عدد من الشخصيات المصرية البارزة من شرفات مساكنهم في لندن).. بعد ذلك سألت منى: «ولماذا لا تعود إلى بيتك؛ إلى مصر؟»، وكانت تعرف الإجابة بالطبع.. قلت: «النهاردة أنا عقد الليبية في جيبي، وفي الغد سوف أغادر إلى لندن، ومع ذلك أقول بوضوح: لو قدم لي عرض من التلفزيون المصري الآن فسوف أقبله على الفور وأنسى عقد الليبية، لكنني على يقين أن هذا لن يحدث.. لا توجد في مصر قناة تريد برنامجي.. أعمل إيه؟ أنشر إعلانا في الجرايد أقول فيه إني أبحث عن وظيفة؟».

صمتت منى كما لم تصمت في برنامجها من قبل، وسالت من عيونها دمعة غالبتها، تحدثت عنها الصحف كثيرا فيما بعد.. وعندما خرجت من باب الإستوديو، كانت تنتظرني على التلفون مكالمة من الدكتور أحمد بهجت مؤسس دريم.. قال إنه حاول أن يتصل بنا أثناء بث البرنامج لكن الخطوط كلها كانت مشغولة، وإن كل ما يستطيع قوله الآن بعد أن وقعت العقد مع ليبيا هو: «إذا حصلت أي مشاكل، فدريم في انتظارك في أي وقت»..

كانت هذه هي الليلة الأخيرة لي في القاهرة.. وفي الصباح كان الألم يعتصرني وأنا ذاهب إلى المطار، وكأنني طريد بغير رجعة.. كُتبت عليَّ الهجرة مرة أخرى، والأنكى هذه المرة أنني لم أكن أعرف إلى أي عالم أنا ذاهب، كيف هم هؤلاء القوم الذين سأتعامل معهم، وما بالضبط نظم العمل في تلك القناة التي ستأوي برنامجي؟ ما عرفته أن قناة الليبية كانت في منطقة نفوذ «مؤسسة القذافي العالمية للجمعيات الخيرية» التي شكلها القائد ليعمل تحت مظلتها الوريث سيف الإسلام، وكان قد تنامى دوره

داخل ليبيا، وعندما بدأ الحصار أصبح وجهها المفضل في الغرب، خاصة بعد أن تأهل بشهادة دكتوراه عن الديموقراطية في المجتمع المدني حصل عليها من كلية الاقتصاد في جامعة لندن بعد أن قدم مليونا ونصف مليون جنيه إسترليني منحة للجامعة..

لم ألتقِ سيف الإسلام من قبل، لا قبل عملي بـ «الليبية» ولا بعده، وعلى الرغم من أنه كان كثيرا مايتردد على لندن متنقلا على الطائرة الخاصة لمحمد رشيد الرجل الغامض المسئول عن أموال منظمة التحرير الفلسطينية، فإنه، على ما أعلم، لم يعقد اجتماعا واحدا حول الإمبراطورية الإعلامية التي كثيرا ما كان يقال إنه على وشك إطلاقها من لندن، والتي كان يفترض أن قناة «الليبية» هي فصيلها المتقدم.. كان بالغ الاهتمام بالمال وشئونه، وعلى الرغم من كل ما كان يشاع عن مهاراته وجولاته في المحافل السياسية فإنه لم يقترب من الساسة البريطانيين قدر اقترابه من ذلك الرجل الجشع المتصابي توني بلير الذي كان مستشارا لوالده، وهو أيضا الذي ساعده على نيل الدكتوراه على نحو ما نشرت الصحف البريطانية..

على أنني سمعت كثيرا عن مدى اعتزاز سيف الإسلام بالقناة، وبرغبته في أن تكون وجها مشرفا لإعلام ليبي مستقل، وشهدت بنفسي أثناء زيارة إلى طرابلس في مستهل ٢٠٠٩ بعض الخطوات التي يقال إنه كان المحرك وراءها نحو انفتاح إعلامي مبشر، مثل إصدار صحيفتين يوميتين مستقلتين في طرابلس وبنغازي وكذلك توزيع الصحف الأجنبية في ليبيا دون رقابة مسبقة.. وأشهد أن أحدا لم يتدخل في عملي طوال الفترة القصيرة التي قدمت فيها برنامجي، ويعرف المشاهدون أن الحرية في البرنامج خرقت كثيرا من الأسقف، وكانت تنويهات البرنامج التي بدأ بثها قبل إذاعته بأيام تنبئ بذلك؛ إذ كانت أبياتا من الشعر خطها قلم الشاعر المبدع فاروق جويدة وأهداها للبرنامج، يقول فيها:

لم يبقَ لي غيرُ القلم
هدأ الصهيلُ.. وسافر الفرسانُ، واستلقت على القاع القمم
جف المدادُ.. وشاخت الكلمات.. وارتحل النغم
حين استوى في الأرض صوت الله، كان العدل دستور الأمم

فإلى متى نمضي ونشكو حزننا الدامي، ونصرخ من تباريح الألم
وإلى متى سنظل نلعن كل جلاد ظلم
أطلقْ جيادك من كهوف الصمت واحلم
أجمل الأشياء فينا.. صبرُ انسان حلُم
فالأرض يحييها ربيع قادمٌ، وضمير هذا الكون يسكنُ.. في قلم

كانت الحلقة الأولى التي أذيعت يوم ٢٦ مارس ٢٠٠٩ أكثر سخونة من التنويه، وكما كان الحال في حلقة «رئيس التحرير» الأخيرة التي ألغيت في دريم، كان هناك مؤتمر قمة عربية على وشك الانعقاد خلال أيام، هذه المرة في الدوحة.. وهكذا انطلقت أصول وأجول في حديثي عن القمة وعن غيره من موضوعات الساعة، وحكيت أيضا للمشاهدين عن ظروف مصادرة برامجي السابقة.. وقلت: «بعضهم كتب لي إن أحوال الحريات في ليبيا عدمانة.. قلت ده صحيح، إنما حد يقول لنا فين في أرض العروبة ممكن الواحد يتنفس؟ الوضع سيريالي والحل لازم يكون سيريالي.. وفي كل الأحوال من أول يوم قالوا لي إخواننا في ليبيا مفيش خط أحمر.. أنا ما اشتغلتش قبل كده في محطة إلَّا واتقال لي إنه مفيش خط أحمر، وبعد كده شفت الخط الأحمر والجن الأزرق.. لكن دي أول مرة يتكتب لي في العقد إني أقدم برنامجا ذا طبيعة حرة.. وآدي إحنا، أنا وأنتم، حنشوف»..

وفي مكان آخر في الحلقة قلت: «قلم رصاص حيفضل يدافع عن الحريات، وحيفضل ملتزم بالمبادئ القومية، وحيفضل ملتزم بمواجهة قوى الهيمنة الكبرى.. حيفضل ملتزم بأن طريق السلام يجب أن تسنده المقاومة.. حيفضل ملتزم بمطاردة فساد أصحاب السلطة وأصحاب الثروة.. حيفضل ملتزم بمعارضة توريث الحكم في البلاد اللي بتسمي نفسها جمهورية ولَّا ثورية.. ما احناش حنتحرك بالريموت كونترول، ولا حنتغير بتبديل القناة.. حنتصادر، بس كل ما نتصادر حتزودنا المصادرة قوة وإيمان»..

لم أوجه هذا الخطاب للمشاهدين وحدهم، بل كنت أوجهه ـ في المقام الأول ـ إلى إدارة القناة.. هذا خطي أطرحه عليكم واضحا من البداية.. وكنت أود ـ بصفة

خاصة ـ أن أرى كيف سيكون رد فعلهم على الحديث عن التوريث في الدول «اللي بتسمي نفسها ثورية»، والتي كان جليا أنني أقصد بها ليبيا وألمح بذلك إلى سيف الإسلام القذافي، لكن رد الفعل على ذلك وعلى غيره تأخر خمسة أسابيع.. بعد أن سجلت الحلقة الخامسة دخل عليَّ توفيق البيت، كما ذكرت في بداية هذا الفصل، يهذي: «القائد، القائد»..

عندما هدأ الصياح بدأ الأمر يتجلى.. تلقى مشري مكالمة من مكتب معمر القذافي تطلب منه إيقاف بث حلقة البرنامج التي كان مقررا إذاعتها في المساء، فاعتذر عن عدم تنفيذ الأمر بأنه يتلقى تعليماته من سيف الإسلام، واتصل بسيف الإسلام يبلغه بما حدث فأمره بإذاعة الحلقة، وأذيعت الحلقة بالفعل في المساء، وعندها تتالت الأحداث.. في ساعات قليلة صدر قرار بحبس مشري داخل مكتب القذافي ذاته في باب العزيزية، ثم قرار آخر بإيقاف بث القناة، تلاه قرار ثالث بضمها إلى هيئة الإذاعة والتلفزيون الحكومية، وبعد منتصف الليل بقليل فوجئ العاملون في القناة بمعمر القذافي يدخل عليهم وبصحبته علي الكيلاني القذافي رئيس الهيئة.. كانا وحدهما دون حراسة.. وقف القذافي في ردهة مبنى القناة الأمامية وأخذ يجول فيها جيئة وذهابا لدقائق معدودة، بعدها التفت إلى الكيلاني يسأله: «خلاص وضعت يدك على كل شيء؟».. ولما أجاب بالإيجاب غادر معمر..

وفي ٢١ مايو أصدرت اللجنة الشعبية العامة، التي تماثل مجلس الوزراء، قرارا بإنشاء «المركز الوطني للخدمات الإعلامية» تؤول إليه ملكية شركة الغد بقنواتها التلفزيونية وإذاعتها وصحفها ومطبعتها.. أمم القذافي القناة إذن هي وأخواتها.. كان للخبر صدى كبير في صحف مصر المعارضة وفي الصحف العربية، وأرجع معظمها سبب تأميم القناة وإلغاء البرنامج إلى الحلقة الأخيرة التي تعرضت بالنقد لموقف مصر الرسمي من المقاومة الفلسطينية، وكذلك لتحويل عضو في حزب الله إلى النيابة بتهمة القيام بأنشطة وعمليات داخل الأراضي المصرية دون إخطار السلطات.. وفي حين قال موقع «ميدل إيست أون لاين» إن السبب هو «حساسية مصر المفرطة من سيف الإسلام القذافي»، فإن المصادر الصحفية كلها أجمعت على أن «مبارك» كان غاضبا غضبا شديدا وأنه كلم القذافي، مساوما حسب البعض

ومهددا حسب آخرين؛ مما أدى بالقذافي إلى تأميم القناة.. الخلاصة أن «القذافي طوق أزمة مع مبارك بكبح الانتقادات الإعلامية».. كان هذا هو مانشيت جريدة «القدس العربي» يوم ٢٨ إبريل ٢٠٠٩..

بدأت الصحف القومية المصرية بعدها تشن حملة على البرنامج وصاحبه على نسق المقال الذي كتبه خالد إمام رئيس تحرير جريدة «المساء» عندئذ بعنوان «آية الله قنديل»، لكنني هنا لا أنسى شهادة الدكتور عمرو الشوبكي في مقاله بجريدة «الكرامة»، الذي قال فيه إنني دعوته للمشاركة في الحلقة الأخيرة في ندوة حول قضية حزب الله، «وسجلت اللقاء من القاهرة، وكان معنا ضيف آخر هو السيد إياد أبو شقرة الصحفي في جريدة الشرق الأوسط والمقيم في لندن، وكانت أسئلة الأستاذ قنديل في غاية المهنية والاعتدال، ولم يحاول الرجل أن يقدم أي لغة تحريضية من أي نوع ضد مصر أو ضد حزب الله، بل إنه وجه لنا في نهاية الحلقة سؤالا حول فرص التصالح وطي صفحة الخلاف بينهما».. ثم قال: «على الرغم من أنني لم أشاهد الحلقة، فإن ما جرى مع قنديل ليس مجرد مشكلة مع برنامج أو حلقة، ولا قضية اختلاف مع آرائه، إنما هي مشكلة مع نمط مفترض من الإعلاميين والصحفيين يتسمون بالحضور والنزاهة والمهنية، ومطلوب أن يختفوا من الساحة الإعلامية، فهناك من أيد حزب الله بالصراخ، وكثر من دافعوا عن مصر بالشتائم، وكلاهما لا ينتمي لمدرسة قنديل»..

لم يسكت سيف الإسلام على تأميم «الليبية».. حاول استعادة مشروعه وبث القناة بكاملها من لندن تحت اسم جديد هو «المتوسط»، وهكذا وصلتني رسالة من مشري يطلب مني البقاء هناك حتى ينجلي الأمر.. انتظرت نحو شهرين دون جدوى تلقيت خلالها عرضا لتقديم برنامج أسبوعي في قناة «الحوار» التي تبث من لندن، لكنني كنت قد زهدت الإقامة في الخارج وكان الحنين يجذبني إلى الوطن لأؤدي رسالتي هناك، فحزمت حقائبي عائدا إلى القاهرة؛ حيث اتصلت بالصديق القديم محمود جبريل في طرابلس، وهو خبير دولي بارز في التخطيط، وكان يعمل وقتها أمينا لمجلس التخطيط الوطني، أي بمثابة وزير التخطيط، وعلى الرغم من ذلك فقد

حاول جاهدا أن يحافظ على قدر من التمايز عن النظام (بعد الثورة أصبح أول رئيس للمكتب التنفيذي للمجلس الوطني الانتقالي)..

طلبت من جبريل أن يتدخل لدى من يعنيهم الأمر حتى تصرف مستحقاتي المتأخرة، فوعدني أن يطلب ذلك من رئيس الوزراء البغدادي المحمودي، وبالفعل اتصل بي في القاهرة في اليوم التالي ولكن لا ليبشرني بانتهاء المشكلة وإنما لينقل لي عرض المحمودي بأن أعود للعمل في القناة نفسها تحت إدارتها الحكومية الجديدة في طرابلس.. اعتذرت شاكرا.. كنت وقتها قد تأكدت من سبب إيقاف البرنامج وما لحق ذلك من تطورات.. انزعج مبارك بداية لأن ليبيا أوت البرنامج بعد أن أوقف في دبي، وانزعج أكثر من مواصلتي لانتقاده بحدة، ويبدو أن انزعاجه بلغ حده عندما اتصل تلفونيا بالقذافي، وقال لي أحد الأصدقاء الليبيين الذين كانوا يحيطون بـ«القائد» إنه حضر المكالمة وإنها استغرقت ٢٢ دقيقة، وإنها تناولت في البداية عددا من المسائل الشائكة في العلاقات المصرية الليبية، ثم شكا مبارك من البرنامج، وعندما لم يعده معمر بإجراء محدد لوَّح مبارك في ابتزاز مكشوف بأنه قبل أيام منع إحدى الصحف القومية المصرية من فتح النار على القذافي شخصيا، وطلب منه صراحة أن يتخذ موقفا لا يقل حسما..

ولما كنت لا أشك في صدق الصديق الليبي فقد فتحت النار أنا الآخر، وأعلنت في أكثر من برنامج تلفزيوني استضافني بعد عودتي إلى القاهرة أن الرئاسة هي السبب في إيقاف «قلم رصاص»، ليس فقط في «الليبية» وإنما أيضا في قناة دبي.. بعد أيام اتصل بي المهندس أسامة الشيخ وقال إن وزير الإعلام أنس الفقي طلب منه إبلاغي أنه «يود أن ينقل لك رسالة مؤداها أن لا أحد في الرئاسة ضدك، بل إن الكل يرحب بعودتك إلى القاهرة ولا يمانع في أن تعمل بأي من المؤسسات المصرية».. ولم تمضِ أيام حتى طلبني الدكتور زكريا عزمي يبلغني بالرسالة نفسها وذات النص، حتى هيئ لي أنه إذا لم تكن مملاة من الرئيس السابق ذاته فلا بد أن أحدا ما أرسل نصها مكتوبا إلى الفقي وعزمي.. عندها قلت: «ولكن ذلك غير صحيح يا دكتور.. أنتم الذين أوقفتم البرنامج».. سألني زكريا عزمي إن كنت أملك دليلا ماديا على ذلك، فأجبت بالإيجاب على الرغم من أنه لم يكن في حوزتي بالطبع مثل هذا الدليل..

قال: «إذن نلتقي ونناقش الأمر».. أجبت بأن له أن يحدد الموعد والمكان، وكانت هذه آخر مرة أسمع فيها صوت زكريا عزمي..

ما إن مرت عدة أسابيع حتى كلمني علي ماريا القائم بأعمال مكتب المتابعة الليبي في القاهرة.. كنا في مطلع شهر أكتوبر ٢٠٠٩.. لم أعد أندهش مما تأتي به مثل تلك المكالمات من مسئولين ليبيين.. دعاني، باسم القائد، لزيارة ليبيا، وعزز هذه الدعوة في اليوم نفسه بخطاب: «كلفت بدعوة سيادتكم للمشاركة في الاحتفال الذي سيقام بمدينة سبها في الجماهيرية العظمى يوم ٥ أكتوبر بمناسبة مرور ٥٠ عاما على تأسيس حركة الوحدويين الأحرار التي أسسها الأخ القائد معمر القذافي بمدينة سبها عام ١٩٥٩.. مشاركتكم في هذا الاحتفال سيكون لها بالغ الأثر والتقدير»..

قررت أن أقبل الدعوة على الرغم من كل شيء لسبب وحيد أن أحصل على حقوقي وأغلق ملف «الليبية»، وشجعني على السفر الصديق عبد العظيم المغربي الذي كنت قد وكلته محاميا عني لو اقتضى الحال.. كنت عازما على أن أحدث «القائد» في الأمر عندما ألتقيه، وكان ذلك مقررا في اليوم التالي الذي سنذهب فيه إلى بلدة «سبها»..

وصلنا إلى هناك بعد رحلة يفترض ألَّا تصل مدتها إلى ساعة لكنها استغرقت عدة ساعات بسبب فوضى التنظيم المعتادة في المناسبات الرسمية الليبية، لكننا وصلنا في النهاية.. نحو مائتين من الضيوف كنا، بيننا ملوك قبائل إفريقية وزعماء أحزاب وأساتذة جامعات ونواب وأدباء وصحفيون عرب، جلهم قوميون عروبيون، يحشدهم في العادة الصديق عمر الحامدي الذي عينه القذافي أمينا عاما للهيئة الذي صاغها باسم «المؤتمر العربي القومي» أيام غرامه بالعروبة..

مشينا مع الحامدي من سياراتنا نحو سفح الجبل حيث أعد مسرح مفتوح كبير امتلأ بألوف من أهل «سبها»، تطل عليه منصة اصطففنا في ناحية منها ننتظر «القائد».. كان يبدو يومها أكثر وقارا وأقل اندفاعا.. لم يطرق المائدة التي أمامه بقبضته، ولا رفع يديه وصوته مهللا هاتفا كعادته، ولم يقذف بورق بين يديه كما فعل في الأمم المتحدة أثناء كلمته.. وفي المساء انتقلنا إلى ساحة أخرى لما أزف موعد الحفل الساهر الذي أحيته فرقة موسيقية مصرية يقودها المايسترو سليم سحاب جاءت بطلب من «القائد»، ومعها أيضا جاء المطرب محمد ثروت..

جلس القذافي على المنصة يحيط به ضيوف الشرف القادمون من مناحي الأرض جميعا، وجلست إلى جانبه ابنته عائشة، وأخذ منظمو الحفل يسوقون الضيوف إلى المنصة العريضة التي تعلو عن الأرض بضعة أمتار، وجاءني أحمد قذاف الدم يطلب مني الصعود إلى هناك لكنني اعتذرت.. كنت مشحونا بالغضب من تعامل «الليبية» معي، وكنت أعرف أنني لو وقفت أمام القذافي وجها لوجه فلا مناص من أن أتكلم بحدة، ولم أجد هذا لائقا في مناسبة عامة كهذه المناسبة.. في النهاية قلت لقذاف الدم إنني أفضل الجلوس في الحديقة مع أصدقائي، وكان يعرف أن لي أصدقاء كثيرين بين العشرات الذين خصصت لهم أماكن الجلوس هناك حول عدة موائد من وزراء ومحافظين وقادة جيش وأقطاب لجان شعبية.. إلى يميني كان الزوي، وهو واحد من رفاق القذافي الأربعة في أول خلية حركية للثورة.. عرفته عام ١٩٧٠، بعد قيام الثورة بعام، عندما كنت مديرا لاتحاد إذاعات الدول العربية وكان هو مديرا للإذاعة حينئذ، ثم وزيرا فيما بعد للإعلام فالعدل فسفيرا في عدة عواصم آخرها الرباط.. أبلغني الزوي بأنه يعلم تفاصيل أزمتي مع «الليبية»، بل إنها على وشك أن تحل على يد القائد نفسه، وقال إنه يرجح أن يستقبلني القذافي خلال زيارتي هذه..

أشهد أن قذاف الدم كان كريما ليلتها معي.. تفهم رغبتي في الجلوس في الحديقة دون أن يلح، ثم مر بي أكثر من مرة همس لي في إحداها بحكاية الطباخين الذين أهداهم زعيم يوغوسلافيا «تيتو» إلى «القائد»، وأخبرني بأن السفرجية الذين يقدمون لنا العشاء إيطاليون.. تبهج معمر كثيرا مثل هذه اللفتات.. سادة ليبيا في الماضي يخدمون ضيوفها اليوم، على الرغم من أنه عفا عن إيطاليا بعد أن اعتذر رئيس وزرائها برلسكوني عن حقبة الاستعمار ودفع التعويض المناسب، ولو أنه أخذ في مقابل العفو ترضيات مجزية..

طربنا في تلك الليلة كثيرا عندما بدأت الموسيقى في عزف تلك الأغنيات التي لم نعد نراها في فضائية عربية بين مئات الفضائيات السقيمة التي سممت آذاننا وهويتنا.. اهتزت جوانحنا ونحن نشدو: «والله زمان يا سلاحي»، وعندما أرعدت الفرقة بنشيد «الله أكبر فوق كيد المعتدي» طرقنا الموائد بالشوك والسكاكين طربا وحماسا.. بعدها راح محمد ثروت ينشد لنا «صورة صورة صورة، صورة للشعب العربي تحت الراية المنصورة».. الراية المنصورة؟! أطرقت الرؤوس التي كانت منتشية بالطرب،

إلى أن كانت الضربة القاضية من شاعر سوريا الكبير «عمر الفرا» الذي ألقى قصيدة عن غزة طعننا بها في القلب وهو يشير بسبابته للجمع الحاضر «قتلتم يوم أن قتلت، أكلتم يوم أن أكلت، فتهيأوا وترقبوا نفس المصير»..

ران صمت مزلزل والحفل يوشك أن ينتهي.. قلت لجاري: أتعرف؟ هذه الليلة تذكرني بليلة قضيتها في براغ منذ سنوات قليلة.. كنت في صحبة صديق لا يزال يؤمن بالماركسية حتى بعد سقوط تشيكوسلوفاكيا، أو قيامها، قل ما شئت.. دعاني مع بعض رفاقه الشيوعيين القدامى إلى نادٍ ليلي في المدينة القديمة.. يذهبون عادة إلى هناك فيعبون الفودكا حتى يكادوا أن يسقطوا إعياء.. عندها يطلبون من الفرقة الموسيقية أن تعزف لهم بعضا من أغاني الماضي، فإذا ما بدأوا يغرقون في البكاء ينفض السامر.. ها نحن نبكي مثلهم دون حاجة إلى فودكا والجمع ينفض.. جئنا إلى «سبها» ظنا منا ومنه أننا سنحتفل معه بمرور نصف قرن على إطلاقه حركة الوحدويين الأحرار التي أراد أن يحقق بها حلم الوحدة العربية فإذا بنا أمام الحقيقة الصادمة، أن الحلم قد ضاع.. كتبت بعدها مقالا في «المصري اليوم» كان عنوانه «نهنئ ليبيا أم نعزيها؟»..

كانت هذه آخر مرة أرى فيها القذافي قبل أن يلقى مصيره البشع وهو مختبئ في أحد أنابيب الصرف في سرت.. كنت أعلم أن لي مكانة خاصة عنده كما أخبرني عدد من المسئولين الليبيين أكثر من مرة، وكان أشرف مروان أول من أبلغني بذلك في يوليو ١٩٧١ بعد أن تولى منصبه سكرتيرا خاصا للرئيس السادات لشئون المعلومات، وكانت ليبيا قد انضمت إلى سوريا ومصر في اتحاد الجمهوريات العربية الذي أعلن في ١٧ إبريل من العام نفسه.. استدعاني مروان إلى مكتبه في قصر عابدين، وأبلغني بأنني مرشح لأكون مستشارا لمؤسسة المطبوعات التي قامت حديثا في طرابلس.. اعتذرت؛ حيث كنت من ناحية راضيا بعملي في اتحاد الإذاعات العربية، كما أبلغته أنني من ناحية أخرى ليست لديَّ خبرة بمثل هذا العمل الذي لم أزاوله من قبل.. راح أشرف مروان يعدد لي مزايا المنصب المادية، ثم ذكر لي في النهاية أن القذافي طلبني بالاسم، ولكن هذا لم يغير من موقفي شيئا..

كنت قد التقيت القذافي قبل أن أراه في سبها مرتين؛ أولاها كانت في سرت ذاتها أواخر عام ١٩٩٧.. كانت في شهر سبتمبر، وكنت وقتها أقدم برنامجا في «راديو

وتلفزيون العرب» ART، عندما ذهبت إلى هناك لأجري معه حديثا بمناسبة الاحتفال بذكرى ثورة الفاتح.. وكانت مرة لا تنسى.. كانت ليبيا لا تزال تحت الحظر الجوي والحصار الذي أرهقها في تسعينيات القرن الماضي، وهكذا كانت الوسيلة المثلى للسفر إلى ليبيا عن طريق جزيرة مالطة حيث قضينا الليلة، وفي اليوم التالي ذهبنا إلى الميناء لنستقل الباخرة الصغيرة التي تعمل على هذا الخط الملاحي الصاخب؛ حيث نقضي الليل ونصل إلى طرابلس في الصباح..

رافقني في هذه الرحلة طاقم التصوير والمخرج طارق عبد الباري، وكذلك مدير الإنتاج «طاهر يحيى»، وهو شاب مثقف ساخر لطيف المعشر.. لما وصلنا إلى فندق «المهاري» الفاخر، بمقاييس الفنادق هناك، وجدنا في غرفة كل واحد منا كما من المطبوعات الدعائية جهز لنا خصيصا على النحو الذي كان مألوفا في دول الكتلة الاشتراكية قبل التحول الديموقراطي.. كان كتاب القذافي الأخضر يتصدر هذه المطبوعات بالطبع.. كنت واثقا أننا سنقضي في هذا الفندق عدة أيام حتى تأتي أوامر «الأخ العقيد» ـ كما كان يلقب عندئذ ـ ليحدد موعد لقائنا على نحو ما كان يفعل عادة مع ضيوفه مهما اختلف مقامهم.. ناديت طاهر لأشاكسه قليلا حتى يمضي الوقت.. قلت له: «هل تدري بأوامر العقيد الأخيرة؟ يطلبون الآن من زوار ليبيا أن يقرأوا الكتاب الأخضر بعناية، وأن يحفظوا من فقراته قدر ما يمكنهم حتى ما إذا أرادوا المغادرة لا يسمح لهم بها إلَّا إذا اجتازوا هذا الاختبار».. وقع طاهر في الفخ، وأسرع إلى غرفته بالفعل ليطالع الكتاب الأخضر..

في المساء جاءني يدق باب غرفتي وهو ينادي: «يا أستاذ، يا أستاذ.. الراجل بيتكلم عن النايب بتاعنا في شبرا».. يتحدث الكتاب الأخضر بالفعل عن «الطريق الثالث» وسلطة الشعب، سلطة كل الناس، ويهاجم الأنظمة الديموقراطية الموروثة ويسخر من البرلمانات والأحزاب على نحو يقنع أحيانا أمثال طاهر من الشباب المثقف.. وعلى الرغم من الفشل الذريع الذي لاقاه تطبيق تلك النظريات فإن بعضها كان لا يزال يحتفظ ببريقه، مثل «البيت لساكنه» و«شركاء لا أجراء».. لذلك نبهني الشيخ صالح كامل رئيس ART قبل السفر إلى عدم الاسترسال كثيرا في حديثي مع القذافي، وأكد أن البرنامج سيذاع كالعادة حيا بالبث المشفر في البداية ثم على الإرسال

المفتوح في اليوم التالي، وكأنه ينبهني إلى أنه إن كان الحديث يحمل ألغاما عند بثه على الهواء فلن يذاع بعدها ثانية، وقال إنه في كل الأحوال ذاهب إلى باريس حيث يمكنه أن يراقب الإرسال ويتصل بي إن كان هناك داعٍ لذلك..

لدهشتي، لم نمضِ في طرابلس سوى ليلة واحدة، وفي الصباح أتت الأوامر بالذهاب إلى سرت حيث سيتم إجراء الحديث.. هناك التقيت الصديق جمعة بلخير مدير الاتصال الخارجي في وزارة الإعلام الذي أخبرني بأن اللقاء سيتم في قصر سرت للمؤتمرات حيث كانت تجرى فيه اللمسات الأخيرة تمهيدا لافتتاحه، وكان العديد من المرافقين الذين قابلتهم هناك واثقين ـ أو هكذا بدا ـ أنه سيكون المقر الجديد الذي ستنتقل إليه من نيويورك الأمم المتحدة برمتها! طلبت من بلخير أن نتفقد القصر لاختيار المكان المناسب للتصوير، لكنه أخبرني أن العقيد قرر إجراءه في قاعة الاجتماعات الرئيسية.. عندما دخلنا القاعة وجدنا أنها من الضخامة بحيث لا تلائم إجراء حديث بين شخصين اثنين، خاصة أن أحدهما سيبعد عن الآخر بنحو عشرة أمتار على الأقل إذا ما جلسا حول مائدة الاجتماعات المستديرة التي خصصت لرؤساء الدول وأعضاء وفودهم.. لكن، هكذا كانت أوامر العقيد.. رتبنا أمورنا مضطرين وتأهبنا للبث في تمام السابعة مساء.. قبلها بدقائق جاء «بلخير» يعتذر لي: «الأخ العقيد يود إجراء الحديث في الغد».. إذن فربما اكتشف اللعبة وأراد أن يفوِّت علينا محاولة حصاره في البث المغلق على المشتركين بحيث يطلع على جماهير مشاهدي الإرسال المفتوح مباشرة.. هذا ما ظننته في الرجل خارق الذكاء في مثل تلك المناورات الصغيرة..

لم يكن هناك مفر من الانصياع، وهكذا حاول المرافقون أن يخففوا عنا الوطأ بجولة في سرت أو دعوة على الغداء أو العشاء، وعرض واحد منهم عليَّ أن أختار ملابسَ من «المخزن»، وعندما سألت: ما المخزن؟ علمت أنه محل ملابس تابع للرئاسة لا يرتاده سوى المقربين والضيوف المدللين حيث يمكنهم دفع أثمان زهيدة للغاية في الملابس المستوردة حديثا من بيوت الأزياء العالمية.. اعتذرت شاكرا، ولم يكن هناك وقت متاح لذلك أو لغيره على كل حال؛ فقد أبلغت بأن الأخ العقيد سيستقبلني في المساء..

كان هذا أول لقاء لي مع القذافي.. ذهبت إليه في بيت بسيط استقبلني فيه بترحاب متحفظ، لكن التحفظ سرعان ما زال عندما دخل علينا بعد دقائق وجه أليف عرفت صاحبه على الفور على الرغم من أنني لم أكن قد التقيت به منذ أكثر من عشرين سنة، هو المؤرخ أديب اللغويات الدكتور «على خشيم» الذي كثيرا ما مثل ليبيا في مؤتمرات اليونسكو في باريس عندما كنت أعمل بالمنظمة.. وبعد دقائق أخرى جاء محمد الغول القائدي مدير الإذاعة الشاب.. فاجأني العقيد بالسؤال: «لماذا تسمون محطتكم ART؟ لماذا الأسماء الأجنبية؟».. قلت: «في هذا لا أجد إجابة، وربما أوافقكم الرأي إذ إنني كثيرا ما انتقدت في برامجي تسمية المحال والشركات وغيرها بأسماء أجنبية، ولكنه يبدو أن المشاهدين يفضلون الحروف اللاتينية المختصرة لأنها أسهل في التداول فيقولون ART و MBC وهكذا، وقد ذكرت إحدى الدراسات أن ٤٥٪ من محطات التلفزيون العربية تستخدم الحروف اللاتينية».. قال مداعبا: «أنا لم أكن أوافق على الحديث مع محطة باسم أجنبي لولا أن ذلك من أجل خاطرك».. وبلا مقدمات فاجأني أن الرجلين سيحضران معه برنامجنا في الغد إضافة إلى ضابط في الجيش، وعندما استفسرت في لهجة مستنكرة عن معنى «حضورهم» معه، أبلغني القذافي أنه سيقدم لحديثنا في اليوم التالي بمقدمة قصيرة عن تاريخ الثورة الليبية وأنه يحتاج للرجلين لتذكيره ببعض التفاصيل.. قلت إن هذا ليس مألوفا في تقاليد التلفزيون ياسيادة العقيد، فقال محاولا إغرائي: «سترى.. سأختصك غدا بأسرار تذاع لأول مرة».. وقف القذافي فجأة وعلى وجهه ابتسامة عريضة كما لو كان يختتم برنامجا تلفزيونيا مثيرا ليودعني: «نلتقي غدا»..

وقع نبأ تأجيل البرنامج على الشيخ صالح وقع الصاعقة، لكنه لم يكن أمامنا سوى الرضوخ.. حاولت في المساء محاولات يائسة لتفادي مشاركة رفاقه في الحديث ولكنني لم أفلح.. وفي اليوم التالي ذهبنا إلى القاعة قبل موعد البث بساعة فوجدنا الضابط جالسا في المكان الذي حدده هو، ولكننا تمكنا بأساليب ملتوية من إقناعه بالانصراف.. ما إن نجحنا في ذلك حتى ظهرت مشكلة أخرى، فقد جلب الإخوة الليبيون إلى الموقع مخرجا قالوا إنه المسئول عن إخراج المناسبات كافة التي يحضرها العقيد لضمان ظهوره على النحو اللائق، وإنه هو الذي سيقوم بإخراج

الحديث.. عبثا حاولنا إقناعهم أن هذا مخالف لكل تقاليد العمل التلفزيوني، ومع ذلك تمكنت في النهاية من الوصول إلى حل وسط، أن يجلس إلى جانب مخرجنا وأن يُسمح له بإبداء رأيه في أضيق الحدود الممكنة..

قبل موعد البث بنحو نصف الساعة فوجئنا بسرب من الذباب يشن هجوما ساحقا على القاعة، فأخذ عديد من المرافقين بالعدو هنا وهناك بحثا عن مبيد للحشرات لم يجدوه في أنحاء القصر كله، وهكذا انطلقت سيارة عسكرية بحثا عنه في دكاكين سرت، إلا أن القذافي فاجأنا بالحضور قبل وصول المبيد، وكان لحسن الحظ يحمل في يده منشة.. حاولنا تأجيل البث بضع دقائق، ولكن المبيد مع ذلك لم يصل، فبدأنا..

كانت هناك عدة خرائط مجهزة في القاعة على يمين القذافي ويساره، ومكتبة أقيمت من خلفه وضعت فيها بعض الكتب التي سيلجأ إليها في حديثه، وبدأ القذافي بالحديث عن تاريخ العالم والأجناس التي سكنته ومؤامرات الاستعمار التي لا تنتهي والتحضير للثورة الليبية، ومع ذلك بدا حديثه متماسكا في بعض الأحيان بل شائقا إلى حد ما في أحيان أخرى، وإن كنت لم أنجح كثيرا في إيقافه عن الاسترسال حول بعض النقاط.. لم أكن راضيا عن الحديث تماما، ولكنه القذافي على شاشتنا في النهاية، قدمناه على ماهو عليه، وهو في كل حال وجه لم يكن مألوف الظهور على الشاشات في ذلك الحين..

عندما كادت الساعة المخصصة للحديث أن تنتهي تأهبت للختام، فإذا بيد تمتد من ورائي يقدم لي صاحبها ورقة صغيرة كتب عليها «تم مد الإرسال ساعة أخرى».. لم أتبين مَن صاحب اليد، ولكن طرف كم البدلة أكد أنها بدلة عسكرية.. كانت مفاجأة، إلَّا أن ما خفف منها أنني تذكرت بسرعة أن الشيخ «صالح» في باريس يراقب، وأن بإمكانه وقتما يريد أن يزعم أن حجز القمر الصناعي انتهى، وما دام لم يفعل فلابد أن حديثنا يروق له، أو أنه على الأقل لم ينزعج منه..

في الساعة التالية واصل القذافي حديثه الرتيب أحيانا الذي لا يخلو أحيانا أخرى من بعض المتفجرات الشائقة بالنسبة إلى المشاهدين العرب، وإن كان الإخوة الليبيون قد سمعوها منه من قبل مرات ومرات.. لعل أكثر الموضوعات التي تطرق إليها

طرافة كان عندما تحدث عن الرياضة، فقد استنكر أن تقتصر مباريات كرة القدم على ١١ لاعبا فقط من كل فريق، وعندما سألته عن الحل المثالي من وجهة نظره قال إنه في الجماهيرية الشعبية لابد أن يشارك الشعب كله، ولا يقتصر دوره على الفرجة السلبية، وإنما أن ينزل الجميع إلى أرض الملعب.. ولم يكن حديثه عن الملاكمة مختلفا كثيرا؛ إذ كان يعتبرها دلالة على أن البشرية لم تتخلص بعد من سلوكها الهمجي، وكان يرى أن الملاكمين والمتفرجين هم سلالة البشر الذين لم يتحضروا بعد..

سألته أيضا لماذا يطالب بإلغاء رياض الأطفال، فقال: «أنا لست ضدها وحدها، أنا أنادي أيضا بإلغاء المدارس الابتدائية.. رياض الأطفال والمدارس الابتدائية مثل تسمين الدجاج.. لا أدري لماذا يرمي الناس أولادهم على هذا النحو.. لماذا ينجبونهم ما داموا لا يستطيعون تربيتهم؟ التعليم الابتدائي تربية، والتربية يجب أن يكون مكانها البيت، أما رياض الأطفال فيقتصر دخولها على اليتامى»..

هكذا استمر الحديث ساعة ثالثة، وقبل أن نصل إلى أواخر الساعة الرابعة كان الماراثون قد قطع نفسي وربما أنهك القذافي الذي لا ينهكه الحديث أبدا.. في اليوم التالي تأكدنا أن الرجل كان سعيدا بما جرى عندما أقيم لنا حفل غداء في أحد الفنادق الكبرى حضره أحد الوزراء تكريما لنا.. وبينما كان الوزير يلقي خطابه إذا بفريق من سفرجية المطعم يدخلون القاعة على نحو احتفالي مشابه لزفة تقديم التورتة في أعياد الميلاد، وهم يدفعون أمامهم عربة يعلوها غطاء يخفي عدة صناديق، وعندما رفع الغطاء وسط صياح السفرجية تبين أن الصناديق تحتوي على أجهزة تلفزيون من طراز «قاريونس» كانت ليبيا تفخر كثيرا بتجميعها بترخيص من شركة «فيليبس».. أهدوا لكل واحد منا جهازا يبدو أن ردة فعلنا تجاهه كانت من الوضوح بحيث إن الوزير مال علي أذني يهمس: «طمئن الإخوان.. الأجهزة ستصل إلى بيوتكم في القاهرة دون عناء»..

لم يبر الرجل بوعده، ولكن نقل الأجهزة بحرا وجوا والرسوم الجمركية التي سندفعها مقابلها لم يقلقني كثيرا.. كنت مشغولا بشيء واحد، ترى ما الذي سيقوله الشيخ صالح عندما ألتقيه في باريس، غدا كما اتفقنا؟ في اليوم التالي كنت في باريس وعندما التقيت الشيخ صالح كان وجهه ينطق بما في صدره.. بعد المجاملة الواجبة

أوجز الشيخ صالح الموقف في كلمات صارت فيما بعد مثلا يتردد في الصحف كلما مرت برامجي بالمآزق التي ألفتها فيما بعد: «الجماعة زعلانين».. أول الأمر لم أفهم تماما ماذا يقصد، فزوجته الفاضلة السيدة صفاء أبو السعود كانت تربطها بزوجتي وبي علاقة وثيقة وكانت تعمل معنا في ART حينئذ، ولكنه سرعان ما أوضح أنه تلقى مكالمة غاضبة من الرياض خلاصتها أنني كثيرا ما تركت القذافي يهذي دون أن أجادله.. كنت أعرف أن الشيخ صالح يقدرني كثيرا، ولكنني لم أكن أعرف إذا ما كان يتفق مع ما قيل له في مكالمة الرياض.. مع ذلك كنت على يقين أن الشيخ صالح في مأزق؛ ولذلك صارحته بأنني لا أريد له أن يدخل في صراع مع أهل الحكم في الرياض، وعرضت عليه أن آخذ إجازة يتدبر فيها الأمر (بقية قصة ART في الفصل ١٧)..

لم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي التقيت فيها القذافي في عمل تلفزيوني؛ إذ كانت المرة الثانية في إبريل ٢٠٠٥ عندما كنت أقدم برنامجي «قلم رصاص» من دبي.. وكان الحديث في مقره بطرابلس في «باب العزيزية».. عندما دخلت عليه مكتبه بادرني بالسؤال: «لماذا إصرارك على الهجوم على الرئيس مبارك؟».. قلت: «يا سيادة العقيد أنا لا أهاجم، أنا أنتقد».. قال: «ولكن ما اعتراضك بالذات على جمال مبارك؟».. أجبت: «ليس لي عليه أي اعتراض كشخص»، ثم أضفت: «لكن الجمهوريات لا تورث ياسيدي».. عَبَرَ القذافي إجابتي وقال: «عندما آتي إلى القاهرة في المرة القادمة سأصطحبك معي إلى الرئيس مبارك».. فضلت أن أتفادى النقاش فأجبت بأنه ليس بيني وبين الرئيس خلاف يستدعي الوساطة، وانتهى الحديث عند هذا الحد..

في اليوم التالي أجرينا الحديث التلفزيوني في مكتبه، وعلى الرغم من أنني كنت أتخوف من مفاجآته فقد مر بسلام.. والأرجح عندي أن القذافي الذي كان يعلم أن حديثه السابق أوشك أن يطيح ببرنامجي من ART كان حريصا هذه المرة على ألَّا يتسبب حديثه الثاني في كارثة، وبعث إليَّ بعدها بجمعة بلخير يدعوني للبقاء في ليبيا أياما ضيفا عليه، ولكن التزامات العمل أوجبت الرحيل.. ومرت خمس سنوات حتى رأيته في احتفال «سبها» دون أن نلتقي كما أسلفت، وبعدها سنتان أخريان حتى اندلعت الثورة في ليبيا في فبراير ٢٠١١.. بعد ذلك ببضعة أشهر جاءني في القاهرة

اتصال من أحد الليبيين يطلب مقابلتي، وعندما التقينا وجدت معه رجلا آخر قدم لي كل منهما نفسه باسم كنت على يقين أنه اسم مزور.. تظاهر الاثنان بأنهما مستقلان يقفان على المسافة نفسها من القذافي ومن الثورة، وبالطبع فقد حاولا إقناعي بأنهما لا يستهدفان سوى مصلحة ليبيا، وأنهما يزمعان القيام بحملة إعلامية لمشروعهما تنطلق من القاهرة ويودان لو توليت أنا الإشراف على هذه الحملة.. لم يكن حديثهما مقنعا لي بحال، وآثرت أن أصارحهما بذلك، وطلبت منهما أن يبلغا من أرسلهما ليتصل بي مباشرة دون لف ودوران..

تلقيت بعدها مكالمة من السفيرة سلمى راشد المندوبة الدائمة لليبيا لدى الجامعة العربية.. كانت قد تولت عملها بعد استقالة عبد المنعم الهوني من المنصب إثر قيام الثورة، ولكنها لم تحصل على اعتراف قانوني بتمثيل نظام القذافي في الجامعة، ويبدو أنها كانت تتنقل بين القاهرة وطرابلس في محاولة لحشد الدعم للقذافي.. عندما زرتها في جناحها الفاخر في فندق «فور سيزونز جاردن سيتي» كانت مباشرة في حديثها: «سوف تستأنف قناة الساعة-إرسالها من القاهرة، ونريدك أن تشرف عليها».. ولم أكن أنا أقل صراحة؛ إذ اعتذرت عن عدم قبول عرضها على الفور، وإن بررت اعتذاري بأن تجربتي للتعامل في ليبيا لم تكن سارة بحال..

لم تمضِ شهور حتى رأيت مع الدنيا كلها في ٢٠ أكتوبر ٢٠١١ مشهد الرحيل الدامي.. جفلت من المشهد الوحشي الذي مثل إساءة بالغة للثورة والثوار، ولكنني ـ شأن كثيرين كما أعتقد ـ أيقنت مرة أخرى أن عدالة السماء اقتصت لأولئك الذين أصدر عليهم القذافي أحكامه بالسجن والتعذيب والإعدام، إلَّا أنني ما كنت أود أبدا أن يتم القصاص على أيدي قوى الغرب وحلفائه في قطر، أو أن ينتهي بتسليم البلاد إلى الظلاميين الذين أغرقوا البلاد في الفوضى..

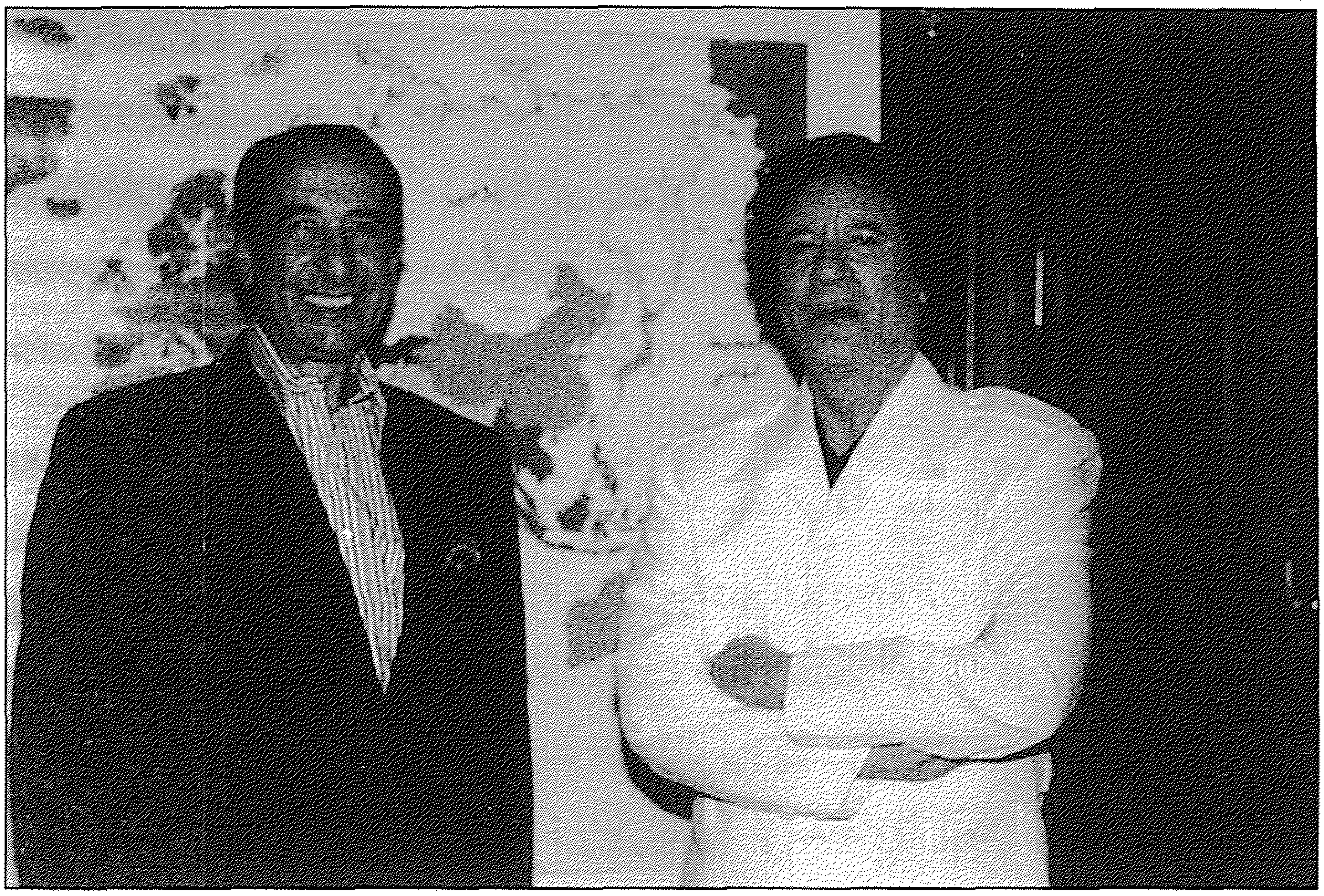

مع «القائد» معمر القذافي في سرت (٢٠٠٥).

(٢٢)

أمام ثلاث محاكم

١٩٦٧ - ٢٠١١

◆ ◆ ◆

«يا معالي وزير دفاع الكويت.. أعيدوا إلينا
داليا وسارة.. أعيدوا إلينا أسرانا».

◆ ◆ ◆

قال رئيس المحكمة: «إنتو عـاوزيـن
تجيبوا أبو الغيط علشان تشتموه؟ أنا
حاحكم في القضية دي النهاردة».

تعاقدت مع «المصري اليوم» في عام ٢٠٠٩ على نشر مقال أسبوعي، ولكنه ما إن مضت عدة أشهر حتى تكرر حذف فقرات أو جمل من المقالات.. كنت أدرك أن الجريدة تحت ضغوط فلم أمانع من أن تحذف ما ترى شريطة إبلاغي والاتفاق معي سلفا على ذلك، لكن هذا لم يحدث فتوقفت عن الكتابة..

وعندما انتقلت للكتابة في «الشروق»، كانت لي معها، بعد عدة أشهر، حكاية أخرى.. كنا في عام ٢٠١٠.. تعاطفت مصر وقتها مع ضابط سابق في مباحث أمن الدولة على نحو لم تتعاطف به من قبل مع ضابط في الشرطة.. كان الضابط يقود سيارته في مصر الجديدة حينما وقعت مشادة بينه وبين نجل أحد كبار رجال الأعمال من عائلة كريازي المعروفة (إحدى العائلات المائة التي كانت تحكم مصر)، وانفضت المشادة كالعادة بعد تبادل السباب المألوف.. غير المألوف هو ما حدث في اليوم التالي، إذ توجه كريازي الصغير بسيارته «البورش» الفارهة (تحمل رقم ١ جمرك) ومعه عدد من البلطجية إلى منزل الضابط حيث انتظروه بالقرب منه، وعندما خرج من المنزل بسيارته أوقفوه وأوسعوه ضربا، وصدموا سيارته، ودهسوه تحت عجلاتها حتى كادت عظامه أن تتحطم، ونقل إلى المستشفى للعلاج من كسور مختلفة هددت ببتر قدمه.. أما رجل الأعمال الصغير فسرعان ما هرب في طائرة خاصة إلى إسبانيا..

نشر وقتها أن إحدى الشخصيات العامة أجرت اتصالا مع أسرة الضابط المجني عليه ومع الطبيب الذي يشرف على علاجه لاحتواء الأمر، وأن جهودا مماثلة تبذل في أكثر من اتجاه لمساعدة الابن على الإفلات من العقاب.. لم يكن هذا كله ما استثارني.. الذي استفزني حقا هو ما حدث بعد يومين في الحي نفسه، مصر الجديدة؛ إذ احتشدت الألوف من قوات الشرطة في ثيابها الرسمية والسرية وعشرات من لوريات الأمن المركزي وسيارات المباحث بمناسبة حفل الإفطار الذي أقامته القوات

المسلحة بحضور مبارك، حتى إن بعض أهالي الحي تصوروا يومها أن انفجارا وقع أو أن جريمة إرهابية كبرى تم ارتكابها.. الحاصل أنه ما من أحد من ركاب السيارات يومها لحق بإفطاره في موعده..

هكذا كتبت أقول إنه لو كان عُشر الضباط والجنود الذين احتشدوا يوم إفطار الرئيس منتشرين في الحي ذاته قبلها بـ ٤٨ ساعة، فربما حالوا دون كسر عظام زميلهم ضابط أمن الدولة.. لو أن فصيلا واحدا من جحافل قواتها التي تحمي الرئيس كان قد خصص لأقسام الشرطة في الحي لعشنا في أمان.. وقلت إننا حريصون بالطبع على أمن الرئيس وحياته، ولكن واجب الشرطة الأول هو أن تحمي الشعب، ومع ذلك فالحقيقة الساطعة هي أن الشرطة ترى أن واجبها الأهم هو الأمن السياسي وتكسير عظام المعارضين.. ثم نقلت عن دراسة للخبير الاقتصادي عبد الخالق فاروق أرقاما مفزعة عن عدد العاملين في وزارة الداخلية الذين قَدَّرهم بنحو مليوني شخص في ٢٠٠٦ (بينهم أكثر من نصف مليون مرشد)، وعن ميزانية مهولة بلغت ٨ مليارات جنيه في السنة نفسها، أي بمعدل ١١٥ جنيها للمواطن مقابل ١١٤ جنيها للصحة.. اتصل بي رئيس التحرير وطلب حذف البيانات التي اعتبرها من أسرار الدولة واعتقد أن نشرها سيودي به إلى السجن، ولم أقتنع بذلك، فطلبت نشر المقال كاملا أو منعه على الإطلاق، وعندما لم أجد المقال منشورا في موعده توقفت عن النشر في الشروق، فنشرت جريدة «العربي» نص المقال تحت عنوان «دولة المخبرين»..

* * *

المشكلة الأكبر مع «الشروق» كانت في مقالي الأول الذي نشر في عام ٢٠١٠ بعنوان «هوان الوطن وهوان المواطن».. تطرقت في إحدى فقرات المقال إلى تصريح لوزير الخارجية عندئذ أحمد أبو الغيط، وقلت إن «التصريح سقط سهوا من فم الوزير الذي عادة ما تسقط من فمه الكلمات كما تتساقط النفايات من كيس زبالة مخروم»..

لم أضع في اعتباري وأنا أكتب المقال ابن شقيقتي السفير ياسر مراد الذي كان وقتها سفيرنا في مدريد، وقبلها كان مديرا لمكتب أبو الغيط، إلّا أنه لم يكن من رجاله؛ إذ كان من قبل مديرا لمكتب الوزير الراحل أحمد ماهر.. صحيح أن اعتراض

ياسر على سياسات النظام كانت معروفة لعدد من المسئولين عندئذ، ولكنني عندما أراجع نفسي الآن أجد أن المخاطرة بمستقبله لم تكن تساوي مقالا..

طلب مني أبو الغيط الاعتذار، وعندما نشر الخبر في الصحف اتصل بي خاله اللواء سعيد المسيري، وهو متزوج من ابنة خالة زوجتي وصديقي أيضا، وقال: «أنا أعرف جيدا كيف أفصل بين القضايا العامة والقضايا الشخصية»، فحررني من قيد كان يقلقني.. رفضت الاعتذار لأبو الغيط، وبدأ تدخل الوسطاء من سفراء إلى كتاب كبار أصدقاء للطرفين سعوا للتصالح بيني وبين الوزير فرفض هو الآخر، وانتهى الأمر بأن رفع قضية ضدي وضد «الشروق» بتهمة السب والقذف..

عندما استدعتني النيابة لاستجوابي ذهبت مع الدكتور صلاح صادق وشقيقي عاصم المحامي، وتجمع نحو مائة من أصدقائي ومن أعضاء الجمعية الوطنية للتغيير وحركة كفاية أمام مبنى محكمة إمبابة حيث كان يجري التحقيق، يهتفون منددين بالسلطة وبأبو الغيط وبمصادرة الحريات ومطاردة الصحفيين، وصاحبني السفير ياسر مراد في كل خطوة أمام النيابة وأمام المحكمة، يؤيد موقفي بإصرار ويحثني على مواجهة التحدي في شجاعة أكبرتها فيه.. كانت هذه أول مرة أمثل فيها أمام النيابة، ولذلك عندما خرجت من المبنى ووجدت مندوبة ON TV تسألني إذا ما كانت النيابة قد أخلت سبيلي بالضمان الشخصي، أجبت مستنكرا: «يعني إيه أخلت سبيلي؟ أنا مش مقبوض عليَّه علشان تخلي سبيلي».. ولكن هذا ما كان قد حدث بالفعل..

كان رئيس النيابة صارما في أسئلته، وإن كان قد قدم لي فنجانا من الشاي وأذن لي بالتدخين، وبعد أن انتهى التحقيق طلب المحامي العام لنيابات الجيزة المستشار هشام الدرندلي مقابلتي، وحاول تلطيف الأجواء ببعض المجاملات، ثم سألني عن انطباعي بعد أول زيارة لي إلى النيابة، فقلت: «يا هشام بك أنا ممنون لك أنك خصصت مصعدك لأصعد به وسط هذا الزحام، لكنني لا أقيس الأمور بمثل هذه المقاييس.. المقياس عندي هو العدالة، والعدالة لن تقام في نظري إلا لو مثل أبو الغيط هو الآخر أمامكم»، وأبلغته أنني أنا الآخر سأقدم بلاغا ضد الوزير بسبب ما اعتبرته سبا وقذفا في البلاغ الذي قدمه إلى النائب العام ضدي..

تضمن بلاغ أبو الغيط اتهاما لي بأنني «تجرأت على سب وقذف أمة بأسرها، وأخرجتها من شرفها في انتسابها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بقولي عنها إنها كانت أمة محمد وأصبحت أمة مهند» في برنامجي الذي كنت أقدمه في دبي، وقد اعتبرت هذا اتهاما خطيرا يضعني في خانة الإساءة إلى الإسلام والمسلمين، وازدراء المشاعر الدينية، ويحرض الرأي العام ضدي، بل ويعرضني للخطر أيضا خاصة أن بعض الصحف نشرت البلاغ..

أحالت النيابة بلاغ أبو الغيط إلى محكمة الجنايات، أي أنها قدمتني للمحاكمة.. كان هذا في أواخر نوفمبر، أي قبل ثورة يناير بشهرين، وكان السخط على النظام وقتها قد بلغ ذروته خاصة بعد تعدد الخطوات التي اتخذها لمصادرة الحريات، أما أبو الغيط نفسه فكان الكثيرون يعتبرونه واحدا من أسوأ الوزراء في تاريخ الخارجية، وقد انعكس ذلك في عدد من المقالات نشرت في الأسابيع السابقة للقضية لكتاب مثل فهمي هويدي (ليست هذه مصر الكبيرة)، ود. حسن نافعة (من يدير سياسة مصر الخارجية؟)، وفيصل زيدان (كارثة تصريحات أبو الغيط)، وأبو العلا ماضي (شريان الحياة وغباء الخارجية)، ود. رفعت سيد أحمد (حاكموا أبو الغيط)، وخالد حنفي (أبو الغيط صانع نكسات الدبلوماسية المصرية)، ود. أيمن نور (لماذا لا نضع صورة أبو الغيط على علب السجائر؟)، ود. ياسر أيوب (أبو الغيط كان وزيرا لخارجية دولة كان اسمها مصر)، ومحمد الدسوقي رشدي (حينما تصبح مصر بلا وزير خارجية)، وعلاء بيومي (مستقبل السياسة الخارجية المصرية بعد أبو الغيط).. أما وائل قنديل فنشر سلسلة من المقالات ذبح فيها وزارة الخارجية ووزيرها..

صاحب نشرَ الأخبارِ عن القضية عددٌ من وقفات الاحتجاج، وتنامت حركة شعبية واسعة لمناصرة موقفي، فأصدر عدد من أبرز مثقفي مصر بيانا للتضامن، وفي بيان آخر من «المنظمة المصرية لحقوق الانسان» اعتبرت المنظمة المحاكمة استمرارا لمسلسل تكميم الأفواه، وطالب مركز «صحفيون متحدون» أبو الغيط بالتخلي عن دعواه، ونددت «جبهة علماء الأزهر» بالإجراءات القمعية ضدي، واعتبرت «الشبكة العربية لمعلومات حقوق الانسان» أن بلاغ أبو الغيط استكمال لسلسلة من الممارسات المجحفة التي أتعرض لها نتيجة دفاعي عن حق الشعوب العربية في

الديموقراطية وفي مجتمعات خالية من الفساد، واتخذ حزب العمل موقفا مماثلا، وأصدرت «الجمعية الوطنية للتغيير» بيانا شديد اللهجة، ودعت «حملة ترشيح حمدين صباحي» أبو الغيط للإبلاغ عن كل الشرفاء ليحاكموا معي، أما حزب الوفد فقد شكل لجنة قانونية من الدكتور محمود السقا والأستاذ بهاء أبو شقة للدفاع عني، وأجمع معظم المحللين السياسيين الذين تحدثوا إلى الصحف المصرية والعربية أن القضية «محاكمة سياسية في ثوب جنائي».. ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى الأستاذ سليمان جودة الذي طلب مني الاعتذار لأبو الغيط، أما الأستاذ حمدي رزق فقد حث على التصالح في مقال بعنوان «قد يجمع الله الشتيتين»، وآخر بعنوان «وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»..

في الوقت ذاته صدرت بيانات مناهضة لأبو الغيط في عدد من الدول العربية لعل أبرزها كان بيان «المؤتمر القومي العربي»، كما امتدت الحملة ضد أبو الغيط وحكومته إلى «المعهد الدولي للصحافة» IPI الذي وصف القضية بأنها سياسية، واعتبر أنها «لا ينبغي أن تحال إلى القضاء»، واتهمت «منظمة العفو الدولية» مصر بالتشهير الجنائي، وقال د. الهادي شلوف رئيس «الجمعية الأوروبية العربية للمحامين والقانونيين» في باريس وعضو المحكمة الجنائية الدولية أن القضية مظهر «لإعلام عربي لا حرية له، ولأجهزة قضاء تعمل لخدمة التهريج للحاكم العربي وأعوانه»، وأبلغني الدكتور شلوف أنه على استعداد للحضور في الوقت الذي أراه ليترافع أمام المحكمة.. كما تشكلت لجنة باسم «اللجنة الوطنية للدفاع عن حمدي قنديل» من الدكاترة محمد غنيم ومحمد أبو الغار وصلاح فضل وعبد الجليل مصطفى وعلاء الأسواني والأساتذة بهاء طاهر وعبد الخالق فاروق وجورج إسحق ومحمد عبد القدوس..

أما لجنة الدفاع التي جمعت المحامين المترافعين في القضية، فتصدرها د. يحيى الجمل ود. صلاح صادق ود. محمود السقا ود. محمد سليم العوا والمستشار سمير حافظ والأستاذ عصام سلطان ود. محمد الغتيت والمستشار حسن عمر والأستاذ محمد الدماطي والأستاذ عاصم قنديل.. وفي ٢٠ نوفمبر بدأت أولى جلسات القضية في محكمة جنايات جنوب الجيزة في دائرة ترأسها المستشار محمد فهيم

درويش، فتقدم لها أستاذا اللغة العربية د. أحمد دراج ود. أحمد المهدي عبد الحليم بمذكرات لتحليل لغوي لمقالي وعباراته التي اعتبرها أبو الغيط سبا له، واحتشدت القاعة برموز القوى الوطنية، وتأجلت الجلسة إلى ١٩ ديسمبر.. في هذه الجلسة الثانية والأخيرة طلب المحامون حضور أبو الغيط لتوجيه أسئلتهم له، ولكن رئيس المحكمة رد قائلا: «إنتو عايزين تجيبوه علشان تشتموه؟ أنا عايز أحكم في القضية النهاردة»، فما كان من الدفاع إلَّا أن رد المحكمة، فأوقفت سير الدعوى حتى يفصل في طلب الرد، وعلى الرغم من أن كلا من الدكتور أبو الغار والمهندس يحيى حسين عبد الهادي قدم شهادة مسجلة في الشهر العقاري بما قاله رئيس الجنايات، إلَّا أن طلب الرد رفض في ٢٦ ديسمبر..

في الوقت نفسه بدأ نظر قضيتي ضد أبو الغيط في محكمة مصر الجديدة، وكان قد تقرر أن تعقد جلستها الأولى في ٢١ ديسمبر، ولكن ثورة ٢٥ يناير لم تمهل المحكمتين، فاتصل محامي أبو الغيط بالدكتور صلاح صادق يعرض عليه التصالح، وعندها وجدت أن الثورة كانت الحكم الرادع على أبو الغيط ونظامه، فتسامحت وكان التصالح..

* * *

أما أول تجربة لي مع المحاكم فترجع إلى سنوات طويلة مضت.. كنا في عام ١٩٦٢ عندما صدر تعميم وزع على مديري شئون العاملين بالمصالح الحكومية المختلفة، يطلب منهم تحديد مواقف جميع موظفي الدولة المطلوبين للتجنيد، وفصل من لم يستوفوا أوراقهم من الخدمة.. وكنت وقتها أقدم برنامجي اليومي «أقوال الصحف» في التلفزيون، ولم أكن قد طلبت للتجنيد بعدُ على الرغم من أنني بلغت السادسة والعشرين.. لكنني استشعرت حينئذ أن واجبي يحتم عليَّ أداء الخدمة العسكرية، فبادرت بالذهاب إلى إدارة التجنيد التي أحالتني إلى معسكر الحلمية..

في اليوم التالي لم يظهر البرنامج، ولفت ذلك انتباه الدكتور حاتم وزير الإعلام، وهكذا ما إن مرت ساعات الصباح الأولى حتى طلبني قائد المعسكر، وأبلغني بضرورة الانصراف على الفور والتوجه إلى مكتب الدكتور حاتم.. عنفني الوزير، وطلب مني

الاستمرار في تقديم «أقوال الصحف» في اليوم نفسه.. بين ما قاله إن عملي في التلفزيون لا يقل أهمية عن أن أكون جنديا في الجيش، وإنني مجند بالفعل في وزارة الإعلام لتغطية الأحداث الكبرى بما في ذلك الشئون العسكرية.. قلت للدكتور حاتم يومها إن عدم ذهابي للتجنيد يعني فصلي من العمل في التلفزيون، فقال إنه يمكن الاستمرار في التعامل مع التلفزيون بالقطعة بحد أقصى يساوي المرتب الذي كنت أتقاضاه مع حفظ حقي في العلاوات أيضا، وإن هذا الوضع لن يستمر طويلا لأنه سيطلب من المشير عامر إصدار أمر بإعفائي من التجنيد في القوات المسلحة..

ظل الأمر معلقا على هذا النحو سنوات، وكنت كلما ذهبت في مهمة خارج مصر قام سعيد عثمان مدير مكتب وزير الإعلام بالاتصال بسلطات المطار حتى يؤذن لي بالسفر، على الرغم من أنني لا أحمل شهادة الإعفاء من الجندية أو تأجيلها.. ومرت سنوات قمت فيها بتغطية حروب وثورات وانقلابات في بلدان عربية عدة، لم أنتبه خلالها كثيرا إلى أن المشير عامر لم يصدر قراره، حتى جاءت حرب ٦٧.. ذهبت إلى الجبهة مرات قبل نشوب الحرب، وكنت في قاعدة فايد الجوية عندما هاجمتنا إسرائيل.. وانتهت الحرب إلى الكارثة التي انتهت إليها، وانتحر المشير.. ثم إذا بكارثة أخرى تحدث لي شخصيا..

أقامت وزارة الحربية دعوى ضدي «لتهربي من التجنيد».. استعنت بصديقي صبري العسكري فوكلته محاميا عني.. كان من ضمن صحابي المهموين بالأدب، ولولا ذلك لكان قد تقدم صفوف المحامين.. مرت شهور دون أن يبلغني صبري بشيء، والأرجح أنه كان قد نسي الأمر تماما.. كل ما كنت أعرفه أن القضية منظورة في محكمة عابدين.. وهكذا فعندما ذهبت في أواخر سبتمبر ١٩٦٧ لأشتري تمرا من المركز التجاري العراقي في شارع الجمهورية، وكان المركز مواجها للمحكمة، تذكرت أنني لا أعرف شيئا عما حدث للقضية، وأنه ربما كان من الأفضل أن أذهب بنفسي للمحكمة للتحقق من سيرها.. واجهتني عندها مصادفة يندر أن تحدث في العمر مرة: القضية ستنظر في اليوم نفسه، وهي في آخر «الرول».. دخلت قاعة المحكمة حبا في الاستطلاع.. كانت هذه أول مرة تطأ فيها قدماي دور المحاكم..

كنت أنوي الجلوس في الصف الأخير بضع دقائق أهرول بعدها إلى صبري لإبلاغه بالأمر إن لم يكن يدري، وكان مكتبه مجاورا لمحكمة عابدين..

ولكنني ما إن دخلت القاعة حتى سمعت من ينادي باسمي، فأشار لي أحدهم بالتوجه إلى المنصة، وبدأ القاضي في سؤالي.. حكيت الحكاية كما وقعت، وعندما أتيت إلى ذكر اسم المشير عامر، الذي كان قد توفي قبلها بأيام، طلب مني القاضي أن أقترب من المنصة وأخفض صوتي قليلا، ولما انتهيت أعلن أن الحكم سيصدر بعد انتهاء الجلسة.. كان الحكم مفاجأة: الحبس ٣ أشهر مع إيقاف التنفيذ..

طلبت من صبري العسكري الاستئناف، فوعدني بأن يفعل، وإن كان قد قال إن «المسألة بسيطة، طالما لن ترتكب جرما في السنوات الثلاث القادمة، فسوف يسقط الحكم من تلقاء نفسه»، ونسيت الاستئناف مع تتالي الأحداث بعد النكسة.. ومرت السنون.. ولكن الأمر بدأ يقلقني بعد أن عدت من باريس.. لم أكن في حاجة إلى شهادة براءة، ولم يكن في نيتي الالتحاق بمنصب في الدولة قد يحول بيني وبينه مثل هذا الحكم، لكن ما أزعجني أن يظن بي أحد يوما أنني تهربت من خدمة العلم.. كان صبري العسكري قد ذهب إلى بارئه، فكلفت محاميا بالبحث عن مآل القضية في محكمة عابدين لكنه لم يجد لها أثرا، وعندما كشف على صحيفة الحالة الجنائية وجدها بيضاء من غير سوء.. مع ذلك ذهبت إلى الدكتور عبد القادر حاتم، وكان وقتها المشرف العام على المجالس القومية المتخصصة، لأطلب منه أن يدلي بشهادة في برنامج كان التلفزيون ينوي إعداده عن حياتي.. كنت أود أن يروي الدكتور حاتم في البرنامج جانبا من مسيرتي في التلفزيون عندما كان وزيرا للإعلام ويذكر حكاية التجنيد في معرض حديثه، إلا أنه كان يومها مشغولا بأمر آخر تماما لم يكن يهمني في شيء على الإطلاق..

سألني الدكتور حاتم إذا ما كانت الفرصة أتيحت لي أثناء إقامتي في باريس لأعرض نفسي على الأطباء حتى أستطيع الإنجاب، فلما أجبته بالنفي قال: «مالكش حق»، ثم نادى مدير مكتبه شريف منصور ليبحث له عن رقم هاتف طبيب ياباني شهير متخصص في الخصوبة، وقال إنه سيحجز لي موعدا معه لأذهب له على الفور.. ضاع الوقت في حكايات عن الطبيب وبراعته، ولم يجد شريف الرقم..

مرة أخرى تذكرت الدكتور حاتم بعد السنوات التي قضيتها في دبي، عندما بثت إحدى قنوات التلفزيون حديثا معه بدا فيه يقظا وذاكرته حاضرة على الرغم من أنه كان عندئذ قد تعدى التسعين من عمره، فكلمته لأهنئه على الحديث، وكان سعيدا بالمكالمة، وطلب أن يراني.. ذهبت إليه في تلك المرة وفي يدي ملخص لحكاية التجنيد منذ أن ذهبت إلى معسكر الحلمية حتى حكم عليَّ في القضية، مكتوب بخط يدي في صفحة واحدة.. قضينا نحو الساعتين أو أكثر نستحضر الذكريات، ولكنه توقف فجأة وقال: «يا حمدي لازم أصالحك على الرئيس مبارك»، وأخذ يعدد لي حسناته وأنه رجل طيب يعمل من أجل خير البلد.. قلت: إن شاء الله، ثم طلبت منه أن يكتب على الورقة التي قدمتها له بضع كلمات تفيد أن شهادتي هذه صحيحة، ولكنه قال: «سيبك من كل اللي فات ده، حينفع بإيه؟»، وعاود الحديث عن مبارك.. لم تفلح محاولتي هذه المرة أيضا.. وكان قد طاف ببالي عندئذ أن أسجل حديثنا على تليفوني المحمول صراحة أو خفية، لكنني استنكفت أن أفعل ذلك مع رجل كنت واحدا من المقربين إليه سنوات عديدة..

* * *

المرة الثانية التي ذهبت فيها إلى المحاكم كانت في سنة ٢٠٠١، وكنت وقتها أقدم برنامج «رئيس التحرير» في التلفزيون المصري.. كانت مجلة «روز اليوسف» قد نشرت قصة الطفلتين داليا وسارة المثيرة.. كان والدهما مصريا يعمل في الكويت وأمهما إيطالية، وعندما انفصلا اختطفتهما الأم، وأقامت معهما عدة أسابيع في السفارة الإيطالية هناك حتى تم تهريبهما من الكويت إلى إيطاليا بمساعدة النائبة الإيطالية مونيكا بالدي التي كانت على صلة وثيقة بوزير الدفاع الكويتي الشيخ سالم الصباح؛ بحكم أنها كانت ترأس لجنة إيطالية للدفاع عن الأسرى والمفقودين الكويتيين في العراق، في حين كان الشيخ سالم هو رئيس اللجنة الوطنية للأسرى في الكويت.. كانت النائبة مقبلة على انتخابات برلمانية، وأرادت أن تحقق مكسبا يزيد من فرصها بتهريب الطفلتين، فلجأت إلى الوزير الذي لبى طلبها ردا لجميلها في مناصرة الأسرى، وخرجت البنتان من المطار مع النائبة الإيطالية دون أن تسجل أسماؤهن جميعا في منفذ الجوازات..

نقلت قصة هذه الفضيحة في برنامجي «رئيس التحرير» عن مجلة «روز اليوسف»، واتصلت بوائل الإبراشي الذي كتب الموضوع أستفسر منه عن شريط الفيديو الذي ذكر أن التلفزيون الإيطالي أذاعه عن الواقعة لأبثه في الحلقة التالية من البرنامج، فوعدني خيرا.. لم تمر بضعة أيام حتى تلقيت دعوة من مكتب الإعلام في السفارة الكويتية بالقاهرة لزيارة اللجنة الوطنية للأسرى والمفقودين.. قبلت الدعوة على الفور شريطة أن يرتب لي المكتب تسجيل حديث مع وزير الدفاع، وقلت إنني لن أستطيع البقاء في الكويت أكثر من ٣٦ ساعة لأن لديَّ مهمة أخرى في لبنان، وأخطرت وزير الإعلام صفوت الشريف بتفاصيل الأمر.. في اليوم التالي اتصل مكتب الإعلام في السفارة برئيس قطاع الأخبار، وأبلغه أن موعد التسجيل قد تحدد، وأن تلفزيون الكويت سيوفر المعدات اللازمة.. وسافرت..

عند وصولي استقبلني مندوبون عن وزارة الدفاع وقدموا لي برنامج الزيارة، وكان في استقبالي أيضا المستشار الإعلامي المصري في الكويت ومندوب عن السفارة المصرية.. المفاجأة الأولى في البرنامج أنه لم يكن يشير إلى تسجيل حوار مع الوزير وإنما إلى لقاء معه فقط، أما المفاجأة الثانية فكانت موعدا بعد وصولي بساعتين اثنتين لزيارة جريدة «الوطن» ومن بعدها جريدة «الأنباء».. كنت أعلم أن بعض كتاب «الوطن» تراشقوا بالمقالات مع «روز اليوسف» على نحو مس مصر وجيشها، فاعتذرت عن الذهاب للصحيفتين، وقلت صراحة إن الهدف من زيارتي هو استيضاح حكاية البنتين من وزير الدفاع ووزير الخارجية، ووالد البنتين المصري الذي كان مقيما في الكويت عندئذ، إضافة إلى زيارة لجنة الأسرى..

صباح اليوم التالي ذهبت إلى وزير الدفاع، فكانت المفاجأة الأكبر أن حالته الصحية لا تسمح بإجراء حوار، وأن حديثه يكاد يكون مفهوما بصعوبة، لكنني على أي حال سمعت منه وجهة نظره في موضوع البنتين.. ما فهمته أنه كان متأثرا تأثرا غير منطقي بنشاط النائبة الإيطالية مونيكا لاسترداد الأسرى الكويتيين، على الرغم من أنها لم تفلح في السنوات العشر السابقة في استرداد أسير واحد من الـ ٦٠٥ أسرى الذين تقول الكويت إنهم محتجزون في العراق.. قال الوزير أيضا إن المعلومات لديه تفيد بأن الأب مصري إيطالي والبنتيْن جنسيتهما إيطالية، وقد لجأتا مع أمهما إلى السفارة الإيطالية في الكويت خوفا من اختطاف الأب لهما.. صحيح أن الأب لديه

حكم من محكمة التمييز (النقض) الكويتية بضم البنتين له، وأن هناك ثلاثة أحكام بمنعهما من السفر، لكن الأحكام تم الاستشكال فيها وقُبل الاستشكال.. إذن فمن حقها السفر، خاصة إذا كانت حالتهما الصحية متدهورة بمقتضى شهادة طبية.. هكذا أعطى الوزير الضوء الأخضر لسفر البنتين مع أمهما..

ناقشت الوزير في بعض التفاصيل فأنصت دون أن يعلق.. كل ما قاله: «إذا توافرت لديك معلومات أخرى خلال زيارتك، أرجوك أبلغني بها».. قلت: «لديَّ في الوقت الحالي ملاحظتان.. الأولى أنني أشعر بأن هناك رائحة غدر في القصة، ويبدو لي منها أنها مبنية على شطارة محامين إن لم يكن فيها تلاعب بالقانون.. أما الملاحظة الثانية فهي أن وزارة الخارجية المصرية أصدرت بيانا حول الأمر منذ شهر تعلن فيه أسفها لسفر البنتين على هذا النحو، لكن السلطات الكويتية لم تعلق على البيان منذ ذلك الوقت؛ وهذا يمثل استهتارا بالبيان إن لم أقل استخفافا بمصر»..

قال الشيخ سالم: «ملاحظتك معقولة، ليتك تذكرها للوزير سليمان الشاهين عندما تقابله».. سليمان ماجد الشاهين هو وزير الدولة للشئون الخارجية، عرفته عن قرب عندما كان سفيرا للكويت في القاهرة.. ذهبت إليه، وكررت حديثي عن موقف الكويت من البيان، وقلت إنه لو كان لدى الخارجية الكويتية تعليق عليه فأنا على استعداد لتسجيله في الحال، لكن الشاهين فضل أن نؤجل نقاش الأمر حتى يعود الشيخ صباح الأحمد نائب رئيس الوزراء الذي كان خارج البلاد عندئذ..

تناولت الغداء على مائدة السفير المصري اللامع وجدي أبو زيد الذي رتب لي اتصالا مع الأب المصري هشام أبو النجا، لكنه كان على وشك السفر إلى القاهرة، فاتفقت معه على إجراء حوار في إستوديو البرنامج عندما يعود كلانا إلى مصر.. زرت بعد ذلك لجنة الأسرى، وفي المساء ذهبت إلى بيت الشيخ سالم الصباح الذي كان قد وجه لي دعوة عشاء دعا إليها عددا من كبار الصحفيين، وكذلك الدكتور بدر اليعقوب محامي السفارة الإيطالية ووزير الإعلام الأسبق، الذي كان يحمل معه ملفا أبلغني أن به عديدا من الوثائق.. أمام اليعقوب وبقية الحاضرين قلت للوزير: «يا معالي الوزير.. أقول لك أمام الدكتور بدر إن الموضوع فيه تلاعب بالقوانين، حتى قبل أن ألتقي بوالد البنتين وأعرف منه روايته»..

وفي الصباح الباكر غادرت الكويت إلى بيروت؛ حيث كانت تنتظرني مفاجأة جديدة في الطائرة.. خبر اجتماعي مع الوزير مصحوب بصورة لنا منشور في عدة صحف كويتية بصيغة واحدة ذكر فيها أنني صحفي بروز اليوسف.. غلى الدم في عروقي.. تبينت خديعة الوزير الذي لا بد أن وزارته هي التي وزعت الخبر، وقصدت الإشارة إلى «روز اليوسف» لتوحي أن المجلة التي كانت تهاجم الكويت بشدة أتت للاتصال بالشيخ سالم.. وهكذا لم يكن بمقدوري عند الوصول إلى بيروت سوى الاتصال بالمستشار الإعلامي في سفارتنا بالكويت أرجوه تصحيح الخبر..

صدرت «روز اليوسف» بعدها بأيام، وعلى صدر غلافها عنوان بالبنط العريض «فضيحة حمدي قنديل ووزير الدفاع الكويتي»، وبالداخل موضوع على ثلاث صفحات بقلم وائل الإبراشي كله سب وقذف في حقي.. أنني انتحلت صفة صحفي بالمجلة.. أنني تورطت في مؤامرة مفضوحة لبيع كرامة مصر، وتضليل الرأي العام، وتشويه «روز اليوسف».. بل إن «مندوبنا في صفقة الخزي والعار ذهب إلى الكويت لاستلام حقيبة الدولارات، ونحن ننتظر الحقيبة التي لم تصل حتى الآن».. نشر هذا بأسلوب وقح في عدد المجلة الصادر في ٢٣ سبتمبر سنة ٢٠٠٠..

في ٢٥ سبتمبر كان موعد حلقة «رئيس التحرير» التالية، فسردت القصة كما أوردتها الآن تماما، وأجريت حديثا مع والد الطفلتين.. ولم أشر إلى روز اليوسف إلا بجملة قصيرة قلت فيها إنني أود أن أبلغ قراء الصحف الكويتية أن الذي شرفني في هذه المهمة هو أنني أمثل التلفزيون المصري وليس روز اليوسف، التي لم أعمل بها من قبل ولن أعمل بها من بعد.. وفي نهاية البرنامج قلت: «باختصار، معالي وزير الدفاع الكويتي هو المسئول عن فضيحة تسليم داليا وسارة أسيرتيْن في يد الحكومة الإيطالية.. هو إذن الذي أطالبه بالنداء الشهير الذي يعرفه جيدا: معالي الوزير، أعيدوا إلينا داليا وسارة.. أعيدوا إلينا أسيرتيْنا»..

إثر الحلقة قررت أن أرفع قضية سب وقذف ضد الصحيفة ومحررها وائل الإبراشي.. وفي الوقت الذي وصل فيه الإنذار إليها مصحوبا بالرد الذي طلبت نشره، كان العدد التالي من المجلة قد صدر حيث واصلت المجلة وقاحتها في حين امتنعت عن نشر ردي.. لكن عددا من الكتاب وقف إلى جانبي بينهم الدكتور عبد الحليم

قنديل والأساتذة سليمان الحكيم وماجد حبته وعمر فرج، وكذلك ماجدة خضر التي نددت بفتح صفحات روز اليوسف لنشر رسالة عاطفية من علية العيوطي الهاربة من حكم بالسجن ١٥ عاما في قضية نواب القروض في العدد نفسه الذي هاجمتني فيه.. أما الأستاذة آمال عثمان فقد نشرت مقالا في «أخبار اليوم» أشادت فيه بالبرنامج الذي كشف الفضيحة، وشجاعته في توجيه اتهام صريح لوزير الدفاع الكويتي، نائب رئيس الوزراء والرابع في الترتيب في الأسرة الحاكمة، وشكرت لصفوت الشريف سماحه بطرح القضية بكل هذه المساحة من الصراحة والحرية..

إلى اليوم لا أزال مدينا بالعرفان لكبار المحامين الذين تطوعوا للمرافعة في القضية: د. صلاح صادق ود. محمد عصفور ود. عاطف البنا والخبير الدستوري الأستاذ عصام الإسلامبولي، وكذلك شقيقي عاصم قنديل الذي كان دينامو هذا الفريق.. وقد أثمر جهدهم عن حكم بتغريم الإبراشي ١٠ آلاف جنيه، وكانت غرامة قاسية في ذلك الحين، وكذلك حقي في التعويض، ولكنني - رفقا بالإبراشي الذي كان صحفيا شابا في ذلك الحين، واحتراما لما تبقى من حق الزمالة - اكتفيت بالإدانة والغرامة وامتنعت عن طلب التعويض..

أوردت الخبر في حلقة برنامجي التالية لصدور الحكم دون تعليق، ولكن الرقيب حذف هذه الفقرة، وصمم على قراره، فلجأت إلى وزير الإعلام صفوت الشريف لكنه أيد موقف الرقيب.. قلت: «يا صفوت بك أنت بذلك تحمي روز اليوسف».. قال: «أنا أحميك أنت من روز اليوسف».. واصلت: «وهل استطعت حمايتي من سفالتها في المقال الذي كان سببا في القضية؟ روزا يا صفوت بك تكاد تستهدفني كل أسبوع فيما يشبه بابا ثابتا».. قال: «هذا عندما أقمت الدعوى».. قرأت له آخر ما كتبته المجلة، وكان قد نشر قبلها بأيام:

«من الناحية المبدئية فإن البرنامج الذي يقدمه المذيع إياه مليء بالثغرات المهنية، ويمكن أن نسجل عليه عشرات من الملاحظات النقدية، بداية من كونه مونولوج شخص أحادي الرؤية تقطعه بعض الحوارات، مرورا باستضافته أصدقاء في البرنامج وحتى لعبه على المشاعر الخطابية المتناقضة مع المواقف الرسمية للدولة، وصولا إلى حد تجاوز كل الأعراف الإعلامية عندما أصر على ترويج مقاطعة البضائع

الأمريكية، ودعا بالاسم إلى مقاطعة مارلبورو وميريت وكوكاكولا وبيبسي كولا، وقد كانت هذه الدعوة الشخصية التلفزيونية المركزة، أحد أهم العوامل التي أسهمت في ترويج مقاطعة سينسبري في الشارع، وأدت في النهاية إلى خروج هذا المستثمر البريطاني المهم من السوق المصرية في الأسبوع الماضي».

علق الأستاذ حسنين كروم على ذلك في جريدة «القدس العربي» قائلا إن سينسبري في تبرير انسحابها لم تذكر قنديل، كما أنه لم يذكر اسمها في أي من حلقات برنامجه، وقال إن السبب في هجوم «روز اليوسف» هو أنها «تحولت للدفاع عن التطبيع مع إسرائيل بعد أن تولى رئاسة مجلس إدارتها ورئاسة تحريرها محمد عبد المنعم، وهو عضو بجمعية القاهرة للسلام».. بعد أن قرأت ذلك كله على صفوت الشريف تراجع عن رأيه، وطلب من رئيس قطاع الأخبار السماح بالفقرة المحذوفة..

وعندما جاءني الإبراشي إلى بيتي معتذرا، ومعه المهندس أسامة الشيخ والأستاذ إبراهيم عيسى في عام ٢٠٠٦، أغلقت صفحة هذه القضية..

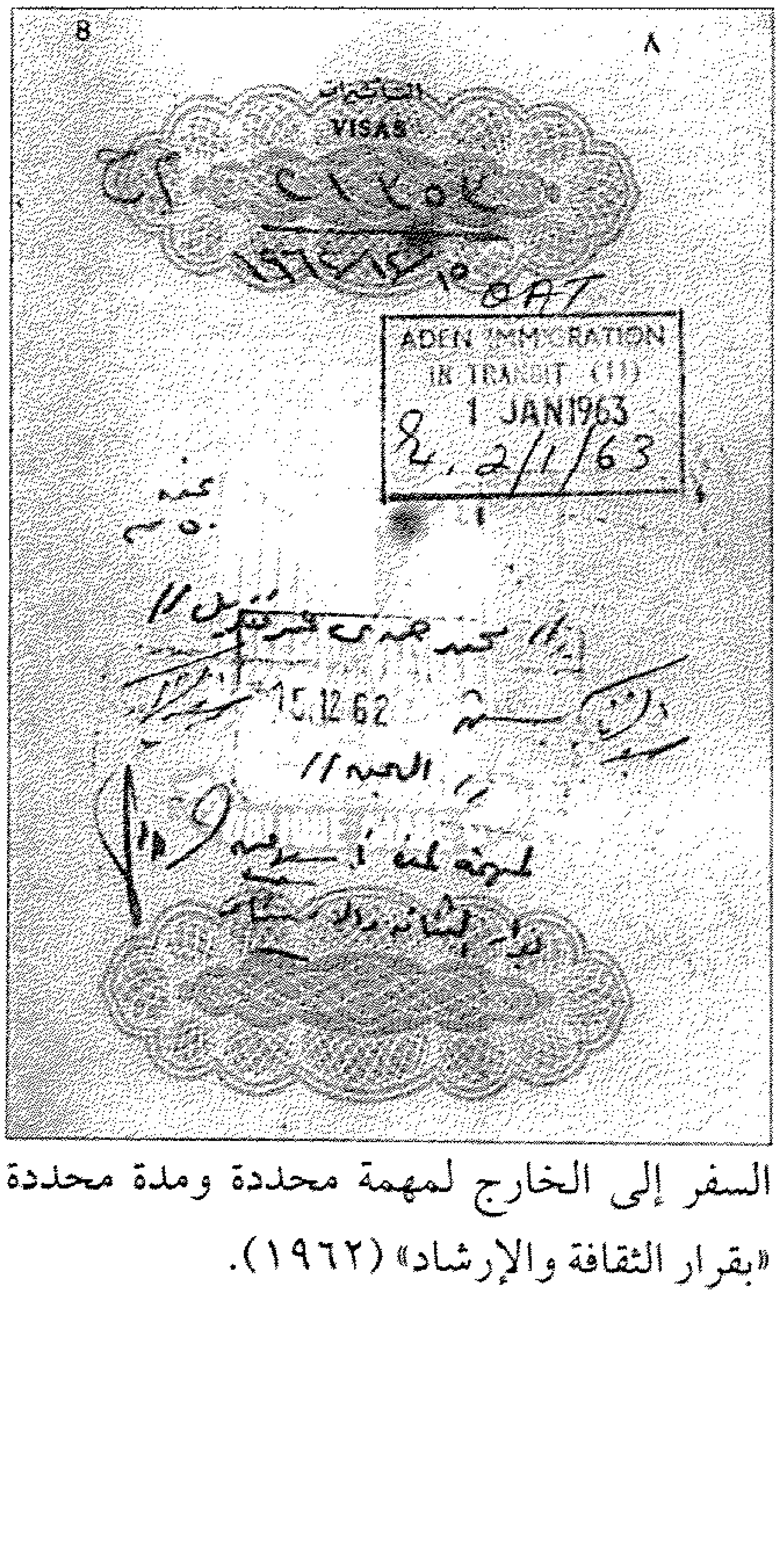

السفر إلى الخارج لمهمة محددة ومدة محددة «بقرار الثقافة والإرشاد» (١٩٦٢).

(٢٣)

الثورة التي خذلها البرادعي

٢٠١٠ - ٢٠١٣

◆ ◆ ◆

استقل الرجل سيارته وانطلق بها وسط جموع
الشباب الذين كانوا قد قضوا ساعات في ساحة المطار
ينادون باسمه، فلم تتوقف السيارة لحظة لتحيتهم،
وإنما انطلقت بسرعة حمقاء لا تمكنه من أن يطل
عليهم من كرسيها الخلفي وراء الزجاج المغلق.

◆ ◆ ◆

ألغيت ندوتي الأولى بدعوى احتفالات أعياد الأضحى، أما الندوة الثانية فقد ألغيت هي الأخرى بسبب طريف للغاية، هو سوء الأحوال الجوية.

عدت من لندن إلى القاهرة في أغسطس ٢٠٠٩ بعد خمس سنوات من الإقامة في الخارج، معظمها في دبي.. كنت دائما على صلة بكل ما يجري في مصر من أحداث، كما أنني لم أنقطع عن زيارتها بانتظام.. لكنني تبينت بعد ذلك أن الإقامة شيء مختلف.. أصبحت داخل الفرن، وسط الناس.. ليلة وصولي ذهبت مع صديقي أستاذ الطب عدلي الشربيني لنشهد عرضا فنيا في بيت السحيمي، رحنا بعده إلى مقهى نجيب محفوظ في خان الخليلي لنستمع إلى عزف منفرد على القانون، فإذا بعدد من الرواد يتجمع حولنا، والكل يتحدثون عن همومهم وهموم مصر، عن استئثار مبارك بالسلطة والقرار، عن تردي أحوال المعيشة وافتقاد الخدمات الأساسية، على الرغم من الأبواق الزاعقة بنمو الإنتاج وتدفق الاستثمارات الأجنبية..

بعد أيام كنت مع جمهور مختلف تماما، عندما دعيت إلى إفطار «دار الشروق» الرمضاني السنوي الذي التقيت فيه رموز الثقافة والسياسة والإعلام في مصر.. أدهشني يومها أن أسمع ما سمعت في خان الخليلي وإن بلسان آخر، وتكرر المشهد بعد يومين في إفطار «المصري اليوم» الذي أعقبته ندوة مغلقة دارت حول مبادرة الأستاذ هيكل للخروج من الأزمة السياسية في مصر بتشكيل مجلس مستقل باسم «مجلس أمناء الدولة والدستور»، وبعدها بأيام ذهبت بدعوة من الحزب الناصري إلى حلقة نقاشية حول مبادرة هيكل أيضا..

في الأسبوع نفسه اتصلت بي إنجي حمدي، الوجه البارز في حركة ٦ إبريل، تطلب زيارتي مع مجموعة من أعضاء الحركة للحديث حول المؤتمر الذي نظموه على الإنترنت تحت الشعار الساخر «القلة المندسة»، فكشفت لي زيارتهم عن الغليان الذي كان يفور في صدور الشباب.. وسجلت لهم يومها كلمة لتبث في المؤتمر، قلت فيها إن المأزق في مصر لا يمكن الخروج منه سوى بصياغة دستور جديد، وقيام جمهورية برلمانية، وانتخابات نزيهة تفرز نوابا صالحين ورئيسا تختاره الأمة بشكل

نزيه وحر.. كانت مصر كلها، كما رأيت في تلك الأيام، تتحدث عن المأزق، الأزمة، المَخرَج والمصير..

تأكد لي أيضا هذا بعد أن لبيت دعوة الدكتور عبد الحليم قنديل لحضور حفل توقيع كتابه «كارت أحمر للرئيس» في نقابة الصحفيين.. عبد الحليم قنديل واحد من أشرف رجال مصر الذين وقفوا ضد السلطان الجائر؛ لذلك ذهبت إلى حفله بشغف، وهناك وجدت جمهورا كبيرا يزدحم على الأبواب بعد أن قررت النقابة منع إقامة الحفل في القاعة الكبرى بالطابق الرابع، على الرغم من أن الدعوة موجهة من لجنة الحريات بالنقابة.. تجمع الكل في ساحة الاستقبال بالطابق الأرضي، وكان المكان حاشدا بشباب الصحفيين وأقطاب العمل الوطني، وكذلك أعضاء حركة «كفاية»، إلّا أن ما أقلقني ليلتها هو ما سمعته عن الانشقاقات التي حدثت في الحركة بسبب انتخابات المنسق العام..

بادرت بالاتصال بالدكتور عبد الجليل مصطفى والدكتور عبد الحليم قنديل والدكتور صلاح صادق، واجتمعنا في بيتي مرتين على مدى ساعات نحاول رأب الصدع، ولكن ذلك كان عسيرا.. كانت علاقتي بالدكتور عبد الجليل قد بدأت تتوثق عندئذ، وكان زميل طب قديما وجارا لي في مصر الجديدة، وكنت أقدره تقديرا خاصا لما عرف عنه من حزم ورؤية واستقامة في إدارته لمستشفى السلام الدولي عندما تعثر في التسعينيات.. كلمني بعدها بأيام وقال إن هناك أستاذا في الطب اسمه أشرف بلبع بادر بجمع عدد من المثقفين لإعلان حركة باسم «نهضة مصر»، وبالرغم من أن أهداف الحركة فضفاضة فإن الرجل مخلص، وقد استطاع أن يجمع حول مبادرته أسماء ثقيلة الوزن مثل د. جلال أمين ود. يحيى الجمل والسفير إبراهيم يسري ود. حسن نافعة ومحفوظ عبد الرحمن وعبد الغفار شكر وشاهندة مقلد ود. محمد السعيد إدريس.. شجعتني الأسماء على الذهاب إلى الاجتماع الذي عقد بالمعادي في مكتب د. سمير عليش مؤسس حملة «صوتي مطلبي»، وكان الاجتماع قد خصص لانتخاب الهيئة التأسيسية للحركة، وهناك وجدت أصدقاء آخرين مثل أبو العلا ماضي والسيد الغضبان وجورج إسحق وغيرهم..

منذ ذلك اليوم لم أنقطع عن اجتماعات الحركة، وأخذت الأهداف تتبلور والأعضاء يتزايدون.. وعندما تمثلت في المجموعة معظم الشخصيات الوطنية البارزة بعد بضعة أشهر، وجدنا أن اسم «جماعة العمل الوطني» يليق بها بجدارة، وأظن أنني كنت واحدا من هؤلاء الذين ساهموا في صياغة أهداف للجماعة أكثر وضوحا وأكثر حدة في مناداتها بتغيير جذري للنظام في مصر، وهكذا انتخبت في فبراير ٢٠١٠ منسقا للجماعة.. في البداية ترددت في قبول هذه المسئولية لأنني لم أكن راغبا في التورط في العمل السياسي الملوث بطبيعته، ولكن حماس هذه المجموعة من القامات الكبيرة للتصدي لإنقاذ البلد جعلني أرضخ في النهاية على ألَّا تستمر مهمتي أكثر من ستة أشهر..

أخذت وقتها أنتظم في لقاءاتي بالمعارضين من كل ألوان الطيف السياسي، وبدأت كتابة مقال أسبوعي في «المصري اليوم»، وكان خط المقالات واضحا في عناوين مثل «فلت العيار» أو «هل يعيش جمال مبارك في مصر؟» أو «أطالب وزير الإعلام بالاستقالة»، ولم أنقطع عن الإدلاء بتصريحات للصحف أقول فيها إن «قطار التوريث سينتهي بكارثة» وأن «الزمن انتهى الذي يعمل فيه المثقفون خدما لدى النظام»، وفي حوار مع عمرو الليثي في قناة دريم في حلقتين متتاليتين واصلت الحملة على الحكم بلا هوادة، فحذفت فقرات بكاملها مثل تلك التي قلت فيها إن هناك زنا بين السلطة والثروة لم ينتج عنه سوى الاحتكار والفساد..

اتسعت دائرة اتصالاتي مع مرور الوقت، وكان طبيعيا أن توجه لي دعوات من جمعيات وهيئات مختلفة لأحدثها في الشأن العام بعد غيابي الطويل عن مصر، ويبدو أن هذا أقلق السلطة فألغى نادي الجزيرة ندوته التي كان قد دعاني إليها بحجة «الاستعدادات لاحتفالات عيد الأضحى» على الرغم من أنه كان لا يزال هناك أسبوعان اثنان حتى يحل العيد، وتجاهلت وزارة الإعلام دعوتي للمهرجان السنوي للإعلام العربي.. يحكى أنه في إحدى جلسات اللجنة العليا للمهرجان، وكانت مخصصة لترشيح الشخصيات الإعلامية التي تستحق التكريم، رشحني الكاتب الكبير محفوظ عبد الرحمن، فساد الوجوم القاعة وإذا بأنس الفقي وزير الإعلام يقطع الصمت قائلا: «ترشيح ممتاز.. فعلا الأخ حمدي الكنيسي يستحق التكريم».. وهكذا كان..

لم تمضِ أسابيع حتى ألغيت لي ندوة أخرى دعاني إليها نادي «ليونز الفراعنة» في فندق بمصر الجديدة قبل انعقادها بساعات.. كان السبب في الإلغاء طريفا هذه المرة، فقد اتصل بي رئيس النادي ليقول إن السبب هو سوء الأحوال الجوية، فلما سألته عن العلاقة بين هذه وتلك، قال إن النادي اكتشف أن شركة مصر للطيران حجزت الفندق بالكامل لركابها بسبب توقف حركة الطيران نتيجة للسيول.. ولكن هذا لم يكن صحيحا؛ إذ إنه لم تلغَ رحلة واحدة من رحلات الطيران آنئذ، ولم يكن الفندق محجوزا لمصر للطيران أو لغيرها، وحتى إذا كانت غرفه كلها مشغولة فهذا لا علاقة له بندوة تعقد عادة في إحدى القاعات.. تأكد لي وقتها أن الأمن يطلع على كل الأنشطة في الفنادق عن طريق شرطة السياحة، وأن الحال لم يختلف عما كان عليه قبل أن أغادر مصر في ٢٠٠٤ عندما منعت من إلقاء محاضرة في جامعة القاهرة، فرحت أهاجم النظام في تصريحات للصحف التي نشرت الخبر، وأتهمه بأنه من الهشاشة بحيث لا يتحمل ندوة في فندق..

حرصت أيضا على المشاركة في عدد من الندوات في نقابة الصحفيين التي كانت المكان الوحيد الآمن للأنشطة السياسية في قاعاتها ووقفات الاحتجاج على سلالمها.. إحدى هذه الندوات كان عنوانها «مستقبل الديموقراطية في مصر»، وكان الهدف منها تعزيز التحالف بين القوى السياسية لمواجهة التوريث وإنجاز التغيير.. شارك في الندوة الدكتور حسن نافعة منسق «الحملة المصرية ضد التوريث»، وكنت ألتقي به بين الحين والآخر في مناسبات مختلفة، وكان الوحيد بين من أعرفهم الذي يتصل به الدكتور محمد البرادعي بانتظام..

كنت كغيري مهتما في ذلك الحين بتصريحات البرادعي في الخارج، خاصة عندما أعلن في CNN أنه يعتزم خوض انتخابات الرئاسة المقررة في ٢٠١١ إذا ما رفعت القيود الدستورية على الترشيح.. وكانت المعارضة وقتها تبحث عن شخصية مرموقة يمكن أن يلتف حولها الشعب إذا دخلت الانتخابات الرئاسية بحيث نضع نهاية لحكم الفرد الذي استمر ثلاثين سنة، وكنت أرى أن البرادعي هو الشخص المناسب، خاصة أن حركة التغيير كانت في حاجة إلى رمز لا يختلف حوله الناس كثيرا، وكنت أعرف تماما أن هذا الرمز لابد أن يأتي من خارج القوى السياسية القائمة

التي يستحيل عليها الاتفاق على شخصية تنتمي إلى إحداها.. ثم إن البرادعي كانت لديه الشجاعة ليطرح نفسه ندا لمبارك أو لابنه جمال في انتخابات الرئاسة..

حاولت الصحف القومية تلويث سمعة البرادعي بأكبر قدر من البذاءات والشائعات، من بينها مثلا أنه حاصل على الجنسية النمسوية، ولكنني تحققت من كذب هذه الشائعة.. أما الشائعة الأخرى أنه عميل للولايات المتحدة وأنه هو الذي أعانها على غزو العراق عندما قام مع وزير الخارجية السويدي السابق هانز بليكس بالتفتيش على الأسلحة الكيماوية والبيولوجية العراقية، فلم تكن تقوم على أساس، إذ كان تقديري أن البرادعي لم يعمل عمدا لحساب الولايات المتحدة، ولكنه مع بليكس اتخذا موقفا مائعا وماطلا طويلا في الكشف عما توصلا إليه من حقائق تؤكد أن العراق تعاون مع المفتشين الدوليين، وتؤكد أيضا أنه لا دليل على معاودة العراق العمل بأنشطة تسليح محظورة، كما أنهما لم يتقدما بتقريرهما إلى مجلس الأمن إلَّا بعد ثلاثة أيام من بدء العدوان.. نعم، تقصيرهما كان واضحا، لكنه لم يكن يرقى في نظري إلى التواطؤ مع الغزاة..

شجعني على الانجذاب نحو الدكتور البرادعي أيضا ألوف الشباب الذين انتظموا في حملة سموها «البرادعي رئيسا لمصر في ٢٠١١» نشطت على نحو غير معتاد على شبكات التواصل الإلكتروني، وكان الدكتور عبد الجليل مصطفى كثيرا ما يحدثني عن نقائهم وحماسهم.. وهكذا قررت الذهاب إلى المطار لاستقبال الدكتور البرادعي يوم الجمعة ١٩ فبراير ٢٠١٠.. فاق الاستقبال في المطار كل التوقعات الرزينة.. لم يكن أكثرنا تفاؤلا يعتقد أن عدد المستقبلين سيصل إلى بضع مئات، خاصة أن الأمن كان قد اعتقل قبلها بيومين بعضا من شباب حركة ٦ أبريل، ووجه لهم تهمة أثارت الاستهجان والسخرية هي محاولة قلب نظام الحكم؛ لمجرد أنهم حاولوا لصق إعلانات تدعو لانتخاب البرادعي رئيسا.. وفي صباح الجمعة خرجت معظم الصحف تحمل أخبارا كالإنذار تحذر المستقبلين من أن السلطات ستتعامل بقسوة مع أي تجمهر، وأن رجال الأمن سينتشرون حول المطار وفي الطرق إليه، بعضهم بالملابس الرسمية وآخرون من بلطجية الكاراتيه في ملابس مدنية..

مع ذلك فقد تجمع نحو ثلاثة آلاف شخص من كل الفئات في المطار، معظمهم كانوا من الشباب، ولكنني رأيت هناك أيضا الدكتور محمد أبو الغار والدكتور عبد الجليل مصطفى والدكتور علاء الأسواني وجورج إسحق وعبد الخالق فاروق وسكينة فؤاد والفنان خالد أبو النجا والمخرج خالد يوسف والمستشار الخضيري وعديدا من الوجوه السياسية والثقافية البارزة.. تأخرت الطائرة نحو ثلاث ساعات، وعندما استطاع الرجل أن يجد طريقه بين الجموع التي تدافعت تجاهه، فوجئت به يستقل سيارته وينطلق بها وسط الشباب الذين كانوا قد قضوا ساعات في ساحة المطار ينادون باسمه، فلا تتوقف السيارة لحظة لتحيتهم، وإنما تنطلق بسرعة حمقاء لا تمكِّنه من أن يطل عليهم من كرسيها الخلفي وراء الزجاج المغلق..

كتبت عن هذا المشهد في مقال نشر بعد وصول البرادعي بيومين، وقلت إنه بينما كان الهتاف لا يزال يرن في أذني: «عشان الجموع مفيش رجوع يا برادعي» كان البرادعي يعد للعودة من حيث أتى بعد قرابة أسبوع ليلقي محاضرات ويشهد مؤتمرات التزم بحضورها من زمن، وأضفت أن البرادعي عليه أن يعلن موقفه بوضوح.. «التردد يصيب السياسي في مقتل.. الناس لا تسير وراء زعيم إلَّا إذا رأوا فيه ملامح الاقتحام والتصميم واضحة، واستمعوا إلى إجابة حاسمة عن سؤالهم عن الخطوة القادمة.. البطاريات التي شحنت يوم المطار يجب ألَّا تترك حتى تفرغ»..

في ٢٣ فبراير استضاف الدكتور البرادعي ممثلي كل القوى الوطنية وعددا من الشخصيات المستقلة في منزله في اجتماع كان قد أعد له د. حسن نافعة، وغاب عن الاجتماع حزب التجمع وكذلك حزب الوفد وإن كان قد حضر المستشار مصطفى الطويل الرئيس الشرفي للحزب، أما الإخوان المسلمون فمثلهم الدكتور سعد الكتاتني رئيس كتلتهم البرلمانية، وفي حين تغيَّب الحزب الناصري عن الاجتماع، فقد حضره ممثلا حزب الكرامة حمدين صباحي وأمين إسكندر.. كنا نحو ثلاثين شخصا، وكانت هذه أول مرة ألتقي فيها البرادعي..

لم أنبهر بالرجل على النحو الذي كنت أظنه.. ربما ما شدني إليه قبل ذلك أفكاره الشجاعة، ولاشك أن منصبه الدولي أضاف رونقا خاصا زاد بريقه مع جائزة نوبل.. أما يوم الاجتماع فقد بدا البرادعي كما لو كان مرهقا أو أنه كان متعجلا للانتهاء من

طقوس اللقاء بنخبة بدا أنه لا يحمل لها تقديرا خاصا، وربما كان يرى أنها أسهمت في انهيار أوضاع البلد إلى ما آلت إليه.. مع ذلك فقد ضبطته عدة مرات وهو يصغي للمتحدثين الذين اضطر إلى سماعهم جميعا، وأظن أنهم في مجملهم أبلوا بلاء حسنا في عرض أفكارهم بإيجاز لم يعتادوا عليه، لكن السؤال الذي بدا محلقا في القاعة طوال الوقت هو: ماذا بعد؟ أذكر يومها أن علاء الأسواني وعبد الخالق فاروق بالذات دفعا بوضوح إلى ضرورة قيام كيان يضم كل هذه القوى التي نادرا ما اجتمعت على هذا النحو، أما أنا فقد آثرت التركيز على أن يكشف البرادعي عن نواياه ومدى عزمه على مواصلة السير في طريق التغيير، وقلت: «أخشى أن نراك تترك الساحة ونحن في منتصف الطريق»..

انتهت المناقشات بعد نحو أربع ساعات لم يفصح فيها البرادعي عن شيء جديد خلاف ما كان يقوله في وسائل الإعلام الغربية، لكن الجو الذي كان مشحونا بالحماس ضغط لكي يسفر الاجتماع عن نتيجة ملموسة، وهكذا توصل المجتمعون إلى ضرورة تأسيس جمعية وطنية للتغيير يعلن البرادعي قيامها، وقام عصام سلطان بكتابة بيان مختصر، ولكن البرادعي تردد كثيرا قبل أن يمتثل للضغوط ويوافق على أن يعلن قيام الجمعية بنفسه، وأكد أن ذلك لا يعني أنه رئيسها..

في الأيام التالية بدأ البرادعي يباشر بنفسه وضع تصور لخطة عمل الجمعية وآليات تنفيذها، وعقد اجتماعا مطولا لهذا الغرض مع حسن نافعة ود. أبو الغار ود. الأسواني، ثم سافر.. كان سفره صدمة كبيرة لكل من تجمعوا حوله على الرغم من أنهم كانوا يعلمون برحيله منذ مجيئه، ولكن الدكتور حسن نافعة حاول قدر طاقته أن يمسك بالزمام ويحافظ على الكيان الوليد.. أما أنا فكان وقتي كله مكرسا للاستعداد لإعلان ميلاد جماعة العمل الوطني، من ناحية بصياغة البيان الذي كنا قد اتفقنا على إعلانه في نقابة الصحفيين، ومن ناحية أخرى باستكمال قائمة الأعضاء في الجماعة (بيان بأعضاء لجنة التنسيق في ملحق رقم ٤)، والتأكد من موافقتهم على البيان.. أذكر وقتها أنني اتصلت بالفنانة الكبيرة نادية لطفي التي كنت قد تحدثت معها في الأمر من قبل، فقالت: «أنا موافقاك على كل اللي انت بتقوله، ووعدتك قبل كده إننا نكون سوا، لكن مش قادرة أخالف ضميري.. أنا مش مقتنعة بحكاية البيانات دي أبدا.. إحنا محتاجين

نفكر في طريقة مبتكرة غير كده.. لازم حد فينا يقدر يطلع بأسلوب جديد خالص».. اتفقنا على أن نستمر على اتصال، لكن الوقت كان قد أزف لإعلان البيان..

عنوان البيان كان صارخا «لم يعد الصمت ممكنا»، وكنت قد قضيت وقتا في صياغته في أسلوب ناري مركز ومباشر يعكس ما دار في مناقشاتنا، ويوجز وصف الأوضاع التي كادت تنهار في كل المجالات في مصر، وينادي بأربعة مطالب؛ دستور يلبي طموحات الشعب، وحكومة وحدة وطنية، ولجنة عليا مستقلة لإدارة الانتخابات، وإيقاف مخطط التوريث حتى يقوم نظام جديد قادر على تحقيق أهداف الأمة (نص البيان في ملحق رقم ٥).. وعندما أعلن البيان في نقابة الصحفيين استقبل استقبالا رائعا في القاعة الكبرى التي احتشدت بالرموز الثقافية والسياسية البارزة، والشباب المتطلع للتغيير..

لكننا كنا قد واجهنا أزمة في الليلة السابقة على إعلان البيان، إذ كنت أرى أننا سنربك الرأي العام بإعلان مولد جماعة سياسية جديدة، في حين أن عددا ليس بالقليل من أعضائها كانوا قد شاركوا قبل ذلك بأسابيع معدودة في مولد الجمعية الوطنية للتغيير، وكنت على يقين أن السؤال سيثار: لماذا كيان جديد؟ بحثت الأمر بالفعل مع بعض الزملاء فارتأينا أننا بذلنا جهدا في قيام جماعتنا استمر عدة أشهر تآلفنا خلالها وأجمعنا على أهداف محددة، وكنا نرى أيضا أن الجماعة تضم أفرادا مستقلين في حين أن الجمعية تشكلت من ممثلي أحزاب وجماعات تنتمي إلى تيارات مستقلة متباينة ومتعارضة أحيانا، ثم إن البعض أثار أن الجمعية الوطنية يبدو أنها قامت على أساس الالتفاف حول شخص، في حين أن ذلك لم يكن حالنا..

كنت مقتنعا تماما بالموقف الذي انتهينا إليه، ومع ذلك فعندما جاءت الليلة السابقة على إصدار البيان كان كل مايساورني أن هذا الطرح لن يصل إلى أذهان الجمهور بسهولة، وأن الصورة الصحفية ـ التي يعتمد عليها الجمهور العام في استقاء المعلومة وتكوين الرأي ـ ستربك الكثيرين الذين رأوا منذ أسابيع بعضنا ونحن ملتفون حول البرادعي، وها هي اليوم صورة أخرى لهؤلاء أنفسهم وهم يعلنون عن قيام فريق خاص بهم.. وهكذا توصلت إلى أنه من الضروري عند إعلان جماعة

العمل الوطني أن نعلن أيضا انضمامنا إلى الجمعية الوطنية للتغيير، واختلف معي عديدون ليلتها، وكان في مقدمتهم أبو العلا ماضي ومنار الشوربجي، ولكنهم أمام إصراري قبلوا على مضض، وشاركوا جميعا في حفل الإعلان عن الجماعة.. ويبدو أنني كنت مخطئا؛ إذ نشر في اليوم التالي مباشرة مقال للأستاذة نوارة نجم في صحيفة «الدستور»، تساءلت فيه: «لماذا تأسست الجماعة أصلا إذا ما كان في نيتها الانضمام إلى جمعية التغيير؟»..

كنت أظن أننا سوف نحافظ على كياننا في إطار الجمعية الوطنية، مثلنا مثل الأحزاب والجمعيات الأخرى، لكننا لم نستطع ذلك لأسباب مختلفة؛ بينها أننا كنا لا نزال كيانا وليدا هشا وسط أحزاب وهيئات عريقة، وبينها أيضا أنه لم تكن لديَّ العزيمة الكافية للانغماس في العمل السياسي، كذلك كنت قد استغرقت في بعض أنشطة الجمعية الوطنية التي كنا قد قررنا القيام بها في البدايات، في مقدمتها جمع التوقيعات على وثيقة التغيير بمطالبها السبعة، التي قام بالجهد الأكبر فيها الحملة المستقلة لدعم ترشيح البرادعي للرئاسة ومنسقها الشاعر عبد الرحمن يوسف.. كذلك زرنا طبيب الفيوم طه عبد التواب في مستشفى سنورس الذي كان يتلقى فيه العلاج بعد تعرضه للتعذيب في مقر مباحث أمن الدولة؛ بسبب مشاركته في مؤتمر شعبي تأييدا للدكتور البرادعي.. وكانت هذه هي المرة الأولى التي ألتقي فيها الباحث الأديب الدكتور عمار علي حسن..

وفي أواخر مارس ذهبت إلى الدوحة مدعوا في منتدى لمكافحة الاتجار بالبشر، وهناك دعيت لإلقاء محاضرة في نادي الجسرة، وهو صالون ثقافي شهير في قطر، فالتقيت بوفد من الجالية المصرية فور وصولي، كانت بينهم الإعلامية فادية الغزالي حرب، واتفقنا على أن ننتهز المناسبة لجمع التوقيعات لبيان الجمعية الوطنية للتغيير وإعلان ميلاد أول فرع لها خارج مصر..

كانت الندوة ناجحة للغاية بفضل أساتذة جامعيين مثل الدكتور زكريا مطر وشباب مثل وليد راشد، وقد قابلتهما من بعد في ميدان التحرير ولا أزال على صلة وثيقة بهما حتى الآن.. كان عنوان المحاضرة «الديموقراطية في الوطن العربي ـ مصر نموذجا»، وهكذا صمم النادي إعلانا عن الندوة نشر في الصحف، لكن الرقابة حذفت عبارة

«مصر نموذجا» عند النشر.. في كل الأحوال، خرجت الصحف القطرية جميعا في اليوم التالي للندوة بعناوين بالبنط العريض مثل «الصمت لم يعد ممكنا في مصر» و«مصر بحاجة إلى التغيير».. (تشاء الصدف أن تكون قطر هي البلد الذي ألقيت فيه محاضرتين في ذلك العام، فقد ألقيت محاضرة أخرى في المعرض الدولي للكتاب في شهر ديسمبر، أي قبل الثورة بأسابيع، حول حرية الإعلام هاجمت فيها الحكومات العربية والنظام المصري بصفة خاصة لمصادرتها لحرية التعبير، فنشرت جريدة «الراية» عنوانا بعرض إحدى صفحاتها «حمدي قنديل يلهب المشاعر في ندوة متميزة بمعرض الكتاب»)..

وصلت من الدوحة في الوقت الذي وصل فيه الدكتور البرادعي من رحلته التي استغرقت شهرا.. ذهبت بين من ذهبوا إلى منزله.. يومها اتفقنا معه على توزيع العمل بيننا في لجان يعيَّن لكل منها مسئول، فأصبح الدكتور عبد الجليل مصطفى مسئولا عن الاتصال والتوقيعات على بيان الجمعية، والدكتور أبو الغار مسئولا عن المصريين في الخارج، والدكتور محمد غنيم وجورج إسحق مسئولين عن لجان المحافظات، والمستشار الخضيري مسئولا عن اللجنة القانونية، وعصام سلطان مسئولا عن مساندة الأعضاء، أما أنا فكلفت بأن أكون المتحدث الإعلامي للجمعية.. وعندما أعلن الدكتور البرادعي هذا الهيكل التنظيمي للصحفيين كان أول سؤال وجه له لماذا اختار هؤلاء المسئولين بالتعيين وليس بالانتخاب، وكان رده أن هذه تكليفات وليست مناصب، وأنها مؤقتة، وأن من حق أعضاء الجمعية جميعا محاسبة من تولوا المسئولية، وأعلنت أنا أن مهمتي لن تستمر أكثر من ثلاثة أشهر يتم بعدها تولي مسئولين جدد لجنة الإعلام، وأن كل المسئولين في الجمعية متحدثون باسمها، وأن هذا ليس وقت الحديث عن مناصب..

بعد أن التقينا بالصحفيين انتحيت بالدكتور البرادعي جانبا.. قلت: «يا دكتور محمد أنت تعلم بالطبع أنني ناصري، ولكن ما سأحدثك فيه الآن لا ينطلق من هذه الخلفية، فقد عاهدنا أنفسنا جميعا أن نطرح جانبا معتقداتنا السياسية ونعمل أولا على إحداث التغيير.. لقد قرأت اليوم حديثك في جريدة المصري اليوم، ويؤسفني أنك ذكرت فيه معلومة مغلوطة هي أن عبد الناصر دفن الإخوان المسلمين أحياء في

سنة ١٩٦٧.. هذا أولا غير صحيح، لكن الأهم من ذلك أن نشره سوف يستعدي الناصريين، ونحن لا نريد استعداء أي فريق سياسي بينما نعمل على تجميع الكل حول أهداف الجمعية».. طمأنني الدكتور البرادعي أنه سيراعي ذلك في المستقبل..

في اليوم التالي نزل البرادعي إلى الشارع لأول مرة ليصلي الجمعة، وبعد أن طاف بشارع المعز توجه للصلاة في مسجد الحسين، وعند خروجه تدافع الناس لمصافحته، وهتف المئات من الشباب الذين تجمعوا حوله: «التغيير التغيير».. كنا نظن يومها أن احتكاكه بالناس سيدفعه للنزول إلى الشارع واللقاء بالجماهير، إلَّا أن استقباله في الحسين لم يثمر سوى عن افتتاحه لحسابه الشهير على «تويتر»، وكنا قد لاحظنا قبل ذلك أنه وجه شكره للشباب الذين استقبلوه في المطار من خلال رسالة في «فيس بوك»، أما عندما أعلن عن حضوره مؤتمر «الحملة الشعبية لدعم البرادعي» في ١٧ ديسمبر ٢٠١٠، فقد غاب عن المؤتمر، وفسر غيابه بمرض والدته، وألقى كلمة في المؤتمر عن طريق الموبايل.. منذ اليوم الأول كان البرادعي يتحدث إلى الناس عن بعد، وكان غرامه بشبكة الإنترنت واضحا، وكانت هي وسيلته الأولى للاتصال بمؤيديه بل وبأقرب معاونيه أيضا، وعندما أبلغناه اندهاشنا لسفره بعد أيام من استقباله الحماسي في المطار كان رده جاهزا: «الإنترنت ألغت المسافات»، وكان يكرر هذا الرد كلما سافر..

أما أثناء وجوده في القاهرة فكان برنامجه مزدحما بلقاءات وفود من مختلف الطوائف، ومن الشباب خاصة، لكنه لم يعقد مؤتمرا جماهيريا واحدا.. لم أستطع وقتها أن أجزم بالسبب في ذلك، هل لأنه ينفر من الجماهير، أم لأنه يخشاها، أم لأنه يحتقرها؟ لم أكن قريبا منه بالقدر الذي يمكنني من التعرف على ما في داخله، ولم أحضر غالبية الاجتماعات التي كان يعقدها، من ناحية لأنني لم أكن أرى أن هذا ضروري، ومن ناحية أخرى لأن منزله في أقصى القاهرة من الغرب بينما أنا أسكن في أقصى شرقها في مصر الجديدة.. حضرت اجتماعات محدودة، من بينها مثلا اجتماعه مع الفنانين، فذهبت مع نجلاء، وهناك لاحظت أن معظم الحاضرين كانوا من المخرجين مثل توفيق صالح ومجدي أحمد علي وعلي بدرخان وداود عبد السيد وخالد يوسف وكاملة أبو ذكري وهالة خليل، أما الفنانون فلم يكن هناك

منهم سوى بسمة وخالد أبو النجا، لكن النجوم الكبار الذين اعتادوا أن يدللهم مبارك غابوا كما كان متوقعا..

ازدحم الصحفيون يومها حول منزل البرادعي لالتقاط الصور، ولكن علي البرادعي ـ شقيق الدكتور البرادعي الذي كان يرافقه على الدوام ـ لم يسمح بدخولهم سوى في الدقائق الأخيرة، فانتهزت الفرصة يومها لأقول للدكتور البرادعي إن الصحفيين يأتونه كل يوم، وإنهم ينتظرون بالساعات ليقتنصوا لقطة مصورة أو خبرا جديدا، وإنه لا يوجد في «الكومباوند» الذي يسكنه مقهى أو حتى كشك سجائر حتى يتناولوا منه شيئا، بل إنه ليس هناك رصيف يجلسون عليه.. وقلت إنه يجب أن نعاملهم معاملة أفضل، وأن نعد لهم بعض الكراسي حتى ولو في جاراج الفيلا، ونقدم لهم مرطبات بين وقت وآخر، وذكرته بالمؤتمرات الصحفية للرؤساء الأمريكيين وكيف أن الرئيس يعرف صحفيي الرئاسة فردا فردا، ونصحت بأن يخالط الصحفيين قليلا، خاصة أنهم شبان يؤمن معظمهم بالتغيير..

كنا كثيرا ما نتندر فيما بيننا وقتئذ بقصة سائق المستشار الخضيري الذي كان يتأفف إذا ما علم أنه سيقل المستشار من الإسكندرية إلى القاهرة ليقابل الدكتور البرادعي، شاكيا أنه عندما يذهب إلى هناك فهو عادة ما يحتاج إلى واسطة للحصول على كوب من الشاي.. ولكننا ونحن نتندر على ما في الأمر من طرافة كنا نعرف دلالته، وهي أن الدكتور البرادعي ومن حوله لم ينجحوا في التواصل الإنساني مع من يترددون عليهم، بل إننا نحن المسئولين في الجمعية، الذين سمتنا الصحف «أمناء سر البرادعي» أو «حكومة الظل»، لم يعرض علينا مرة إذا ما تأخر اجتماعنا لديه في المساء أن نتناول سندوتش فول أو نذهب إلى مطعم قريب نتناول فيه عشاءنا معا.. لم نجد في طباعه أي لمسة شرقية..

الأهم من سندوتش الفول أن لا أحد منا كان يستطيع أن يتصل بالبرادعي مباشرة، فقد احتفظ برقم هاتفه سرا على الجميع، وكان الطريق الوحيد للاتصال محصورا في شقيقه علي البرادعي الذي يلازمه كظله، نقول له ما نقول وننتظر الرد أيضا من خلاله، أما إذا كان هناك أمر عاجل فلا سبيل لإبلاغه سوى من خلال البريد الإلكتروني،

وكنا نكظم غيظنا؛ آملين مع مرور الأيام أنه سوف يدرك أن هذا الأسلوب لا يليق مع القامات التي التفت حوله..

تناسينا مثل هذه الملاحظات تقديرا لدور الرجل في «تحريك المياه الراكدة» كما كان يقال عندئذ، كما أننا كنا أيضا في أوج الانشغال بمهمتنا التي كرسنا لها أنفسنا.. وقتها كنا نستعد لزيارة الدكتور البرادعي الأولى للأقاليم في أوائل إبريل، وكانت للمنصورة.. كان القصد المعلن هو زيارة الدكتور غنيم في مستشفى الكلى، وهكذا ذهبنا إلى هناك ومعنا نحو مائة من الشباب يرتدون قمصانا تحمل صورة البرادعي، ولكن رئيس الجامعة منع الدخول سوى لخمسة أشخاص فقط.. تجمع عدد كبير من أهالي المنصورة حول المستشفى ليتجهوا بعد ذلك لأداء صلاة الجمعة مع البرادعي في مسجد الشيخ حسانين أكبر مساجد المدينة، لكننا علمنا أن تعليمات صدرت من الحزب الوطني لأعضائه بالصلاة في المسجد لمنعنا من دخوله، فنصح الدكتور غنيم بالتوجه إلى مسجد «النور» القريب من مستشفاه.. وعندما علمت القيادات الأمنية بذلك قررت استبدال الخطيب بخطيب آخر أخذ يتحدث عن طاعة ولي الأمر، فاحتج عصام سلطان بصوت عالٍ وخرج ثم عاد للصلاة، وحدث هرج ومرج، وأخذ كثير من المصلين يهتفون: «اللهم انصرنا» حتى أقيمت الصلاة..

أذكر أننا عندما خرجنا من المسجد قررنا أن نسير في مظاهرة، فحملني عبد الخالق فاروق على كتفيه وأخذت أردد مع الشباب هتافاتهم، وكانت أول مرة في حياتي أشارك فيها في مظاهرة على هذا النحو.. تجمع حولنا عدة ألوف تقدمها البرادعي، والتهب الحماس.. كنا ننوي أن نطوف بعدد من الشوارع، إلَّا أن الرجل سرعان ما أصيب بالإرهاق فأخذه البعض للراحة في مدخل إحدى العمارات، واكتفينا بزيارة مكتبة «بوك آند بنز» لنحيي الدكتور أشرف وجدي الذي كانت شرطة المصنفات الفنية قد اقتحمت عليه مكتبته قبل عدة أيام عندما قام بجمع التوقيعات على بيان الجمعية.. لم تقتصر مظاهر التأييد على مدينة المنصورة، ولكنها بدت واضحة أيضا عندما توجهنا إلى قرية مجاورة لحضور مؤتمر شعبي نظمه رأفت سيف نائب رئيس حزب التجمع أمام منزله.. هناك واجهتنا مفاجأتان؛ أولاهما أن الخطبة التي ألقاها البرادعي كانت

باهتة للغاية، أما المفاجأة الثانية فكانت صدور بيان من حزب التجمع يعلن أن الزيارة شخصية وأنه لا علاقة لها بالحزب..

لم يستطع الدكتور البرادعي أن يقيم علاقة ناجحة مع رؤساء الأحزاب، والحق أن معظمهم كان من طينة أخرى، وكان لعدد منهم حساباتهم مع السلطة، كما أنهم كانوا يغيرون من شعبية الرجل وزعامته لتيار التغيير الصاعد والتفاف الشباب حوله، ولكن البرادعي هو الآخر يتحمل قدرا من المسئولية؛ إذ كان يعاملهم أحيانا ببعض التعالي والاستخفاف.. أذكر أن المشكلة المزمنة التي كانت تواجهنا كل مرة إذا تقرر الاتصال بأحد الأحزاب أو حتى الشخصيات العامة كان السؤال الأول الذي يطرح: من الذي يذهب للآخر؟ وبينما كنا نحن نرى أن المسألة هامشية جدا، وأن الأمر يستوي إذا ذهبنا نحن أو أتوا هم، كان البرادعي يتشدد في تلك الطقوس كثيرا كما لو كنا في ديوان للمراسم.. وعندما أبدى الأستاذ هيكل استعداده للقائه ظل الأمر متعذرا حتى دعا السفير نبيل العربي (صهر هيكل وزميل البرادعي) إلى مائدة غداء جمعت الطرفين..

تكرر هذا الموقف عدة مرات، ولكنه لم يتصاعد بحيث يشكل أزمة حتى ذلك الحين.. الأزمة الحقيقية التي واجهت الجمعية كانت قد وقعت يوم ٨ إبريل عندما أبعدت الكويت ٢٦ مصريا كانوا في طريقهم كعادتهم كل أسبوع إلى مقهى للتشاور فيما يمكنهم عمله للحصول على حقهم في التصويت في انتخابات بلادهم، وهو الحق الذى دعت إليه «الجمعية الوطنية للتغيير» ضمن مطالبها السبعة.. معظم هؤلاء تم اعتقالهم في اليوم السابق للموعد، والبعض اعتقلوا من أماكن عملهم، وسيقوا مقيدين بالأغلال أمام زملائهم كأنهم مجرمون في حوادث جنائية، وآخرون اختطفوا وهم في طريقهم إلى المقهى، واحتجز عدد آخر لأنه تصادف وجودهم لمجرد الفرجة.. بعد أن بات الجميع ليلة لدى أمن الدولة تعرضوا فيها لتحقيقات مضنية حول صلتهم بالدكتور البرادعي، بدأت السلطات الكويتية في ترحيلهم في اليوم التالي دون أن يقدموا للمحاكمة..

كنت على صلة بواحد من هؤلاء المرحلين فاتصلت بي عائلته تبلغني الخبر، فنقلناه للدكتور البرادعي، ولكننا كنا نعرف أن تعليقه سيأتينا متأخرا خاصة أنه كان

في إجازة في منتجع بالبحر الأحمر طالت بضعة أيام بمناسبة شم النسيم.. اتصلت بالدكتور حسن نافعة واتفقنا على إصدار بيان عاجل نستنكر فيه الحادث، وعلى الاتصال بالسفير الكويتي بالقاهرة، وعلى إخطار المحامي عصام سلطان المسئول عن لجنة مساندة الأعضاء، وأخذنا في إبلاغ منظمات حقوق الإنسان المصرية والكويتية والعربية بالخبر في سعي ليعامل المرحلون معاملة حسنة إذا لم نستطع إيقاف ترحليهم من الكويت..

صغت البيان واتفقت على نصه مع حسن نافعة وأرسلته للصحف، وأرسلت النص إلى علي البرادعي، فإذا به يرد برسالة يطلب مني فيها إيقاف توزيع البيان أو سحبه إذا ما كنت قد أصدرته، وأضاف أنه قد «تم الاتفاق على أن الدكتور البرادعي هو وحده المخول بإصدار بيانات باسم الجمعية»، ثم نقل لي نص رسالة الدكتور البرادعي، بالإنجليزية كالعادة.. ترجمة رسالته تقول: «هذا البيان يمكن أن يصدر بصفة شخصية، على لسان شخص أو مجموعة أشخاص، ولكن ليس باسم الجمعية.. إننا لا نعرف القانون الكويتي، ولا نريد أن ندخل في نزاع مع الحكومة الكويتية أو حكومات عربية أخرى.. نحن لا نعرف كل الحقائق، كما أن الجمعية التي تمثل جميع المصريين يجب أن يقتصر حديثها على مطالبها السبعة المتفق عليها، أما باقي الأمور فيجب التعبير عنها في تصريحات خاصة كما أفعل أنا في تويتر.. وهذا الموضوع بالذات يخص الحكومة المصرية حتى الآن»..

صدمتني الرسالة لأسباب عدة؛ أولها أن الدكتور البرادعي لم يكلف نفسه الاتصال بي أو بأي من الزملاء لاستيضاح الأمر ومناقشة التصدي له.. السبب الآخر هو أن الرسالة فيها كذب لا وصف آخر له غير الكذب؛ إذ إننا لم نتفق من قبل على أن إصدار بيانات الجمعية مقصور على البرادعي وحده، ثم إن ما فاجأني أيضا كان معالجة الموضوع بأسلوب المنظمات الدولية البيروقراطي، وخذلان أنصارنا.. أرسلت الرد، وكان نصه: «الأخ الأستاذ علي البرادعي.. أبلغتني في رسالتك أن الدكتور البرادعي هو المخول وحده بإصدار البيانات باسم الجمعية كما هو متفق عليه.. وبالرغم من أنني لم أبلغ باتفاق كهذا فإن الرسالة على هذا النحو تلغي مسئولية اللجنة الإعلامية أو المتحدث الإعلامي.. وهكذا فإنني أطلب

منك إبلاغ الدكتور البرادعي والزملاء المسئولين عن بقية اللجان أنني أعفيت نفسي من أي عمل إعلامي يتعلق بالجمعية التي سأظل وفيا لأهدافها السبعة من أجل التغيير.. تمنياتي»..

مع ذلك واصلت متابعتي لأمر المرحلين، فعلمت أنهم على وشك الوصول إلى القاهرة، وكان من رأيي عندئذ أن يستقبلهم الدكتور البرادعي في المطار، وقال حسن نافعة إنه سيبحث معه ذلك، وعندما لم نحصل على جواب توجه عصام سلطان وعدد آخر من أعضاء الجمعية لاستقبالهم، وكان ما أدهشنا أن سلطات الأمن المصرية لم تتعرض لواحد منهم؛ ربما لأن الهدف من الحكاية كلها قد تحقق، وهو إرهاب المصريين المعادين للحكم في البلدان العربية عامة، بفضل التنسيق الأمني العربي الوثيق الذي أصبح مفضوحا للكافة: اعتقلوا معارضينا لديكم ونحن نعتقل معارضيكم لدينا.. اتفقت مع سفير الكويت في القاهرة الدكتور رشيد الحمد على موعد لقاء مع المسئولين في الجمعية لمناقشة الأمر، ولكنني لم أستطع اللحاق بحسن نافعة وعبد الجليل مصطفى اللذيْن ذهبا للاجتماع، وعلى الرغم من أن السفير وعد بلقاء المرحلين والسعي لعودتهم وضمان حقوقهم المالية فإن شيئا من هذا لم يتحقق، وهكذا استمرت مظاهرات الجمعية الوطنية أمام السفارة، وقادت جميلة إسماعيل معظم هذه المظاهرات..

كنت قد قررت ألا أعلن قرار انسحابي حتى لا تشمت السلطة ويفسر البعض هذا بأكثر مما يحتمل، فامتنعت عن الظهور العام أو الاتصال بالصحفيين، ولكن زملائي جميعا انزعجوا وقرروا الذهاب إلى البرادعي لرأب الصدع، وعندما ذهبوا فوجئوا بالبرادعي وحوله عدد من زملائه السفراء المتقاعدين، ولم نكن نثق بأحد منهم سوى السفير شكري فؤاد، وكان بين الجالسين أيضا عبد العليم الأبيض المستشار الإعلامي الأسبق في سفارتنا في واشنطن.. فجر البرادعي قنبلته، فقال إن الأبيض سيتولى مسئولياتي، وإن السفراء مستعدون لتولي مسئوليات أي لجان أخرى، ولكنه سرعان ما تراجع عندما تبين من النقاش الذي جرى مدى فداحة هذا القرار، وخرج للصحفيين ينفي أن هناك استقالات من الجمعية، وأن هيكلها باقٍ على ما هو عليه، وأنني لا أزال المتحدث الرسمي باسمها..

واصلت الثبات على موقفي ولكنني لم أنقطع بالطبع عن اللقاء مع رفاقي.. كانت الجمعية تعقد اجتماعاتها عادة في مقر حزب الجبهة بالمهندسين، وكنت أحضر بعض هذه الاجتماعات العامة في حين واصلت حضور الاجتماعات الخاصة التي كانت تعقد في عيادة الدكتور عبد الجليل مصطفى أو غيرها.. لم يمر واحد من هذه الاجتماعات إلَّا واستنكرنا سفر البرادعي للخارج، وكان دائما ما يقول إن لديه ارتباطات مسبقة لحضور اجتماعات ومؤتمرات، وكان ردنا أن العالم أجمع أصبح يعرف بما يدور في مصر ودوره في ذلك، وأن الكل سيعذرونه إذا تخلف عن المشاركة في مناسباتهم.. العذر الثاني الذي كان يسوقه هو الانتهاء من كتابه الذي تعاقد على تسليمه للناشر في موعد محدد، فإذا ما قلنا إنه يمكن أن يكتب في القاهرة ويرسل ما يكتب إلى الناشر فهو يتعلل بأن مكتبته لا تزال في فيينا، وإن اجتماعات القاهرة وصخبها لا يتيح له التركيز اللازم.. وكنا نتفهم ذلك أو نحاول، خاصة ونحن ندرك أنه لا بد سيتقاضى عن تأليف الكتاب مبلغا مجزيا..

كنت وقتها على صلة بالدكتور كمال الجنزوري رئيس الوزراء الأسبق.. كان قد اتصل بي عندما أذيع حديثي مع عمرو الليثي ليهنئني على الحديث، وكان هذا أول اتصال بيننا.. قال إنه يود أن يراني، فذهبت إليه في مكتبه الخاص الذي لم يكن يبعد عن بيتي كثيرا في مصر الجديدة، وبعدها أخذت أتردد عليه بانتظام.. كان شديد الانتقاد للحلقة المحيطة بمبارك، وقارئا جيدا للمقالات السياسية، وفي أكثر من مرة طلب مني أرقام تلفونات الكتاب المعارضين ليبلغهم إعجابه بما كتبوه أو ليناقشهم فيه، وحمَّلني رسائل إلى البعض منهم.. وعندما أسسنا الجمعية الوطنية للتغيير حاولت أن أحثه على إصدار بيان يعلن فيه معارضته للحكم، ولكنه آثر التريث حتى لا يرتبط ذلك بعودة البرادعي، الذي لم يكن متحمسا له حماسه للجمعية.. كان شديد الانتقاد لغياب البرادعي المتكرر عن مصر، وكان دائما ما يطلب مني أن نضغط عليه حتى يعود..

بعد سقوط مبارك بأقل من شهرين، كشف موقع «اليوم السابع» عن وجود مخطط لأمن الدولة يهدف إلى التشهير بقيادات الجمعية الوطنية للتغيير ويشير إلى الجنزوري، عثر عليه المتظاهرون الذين اقتحموا المبنى الرئيسي لجهاز أمن الدولة.. يقول تقرير «اليوم السابع» إن أمن الدولة «رصد اتصالا هاتفيا آخر بين الدكتور

عبد الجليل مصطفى، المنسق العام للجمعية الوطنية للتغيير، والإعلامي حمدي قنديل الذي يصفه أمن الدولة بـ «المناهض»، ويتضمن الاتصال حديثا لقنديل حول اعتزامه السفر للعاصمة اللبنانية بيروت للمشاركة في أحد المؤتمرات..

ويواصل التقرير: «تبقى أخطر المكالمات التي رصدتها الوثيقة هي التي تحدث فيها حمدي قنديل عن لقائه بالدكتور كمال الجنزوري رئيس الوزراء الأسبق، والذي طالب قنديل، بحسب زعم الوثيقة، بضرورة التنسيق مع الدكتور البرادعي، ومطالبته بالعودة للبلاد في أقرب وقت ممكن، وتحذيراته من الآثار السلبية جراء سفر البرادعي لفترات طويلة.. وتنقل الوثيقة عن قنديل قوله: النهاردة كنت عند الجنزوري فقال لي: الراجل ده كلموه يرجع (يقصد البرادعي)، فقلت له: إحنا بعتنا رسائل على هذا النحو ومستنيين الرد.. قال الجنزوري: لا، لا،ماينفعش، حد منكم يطلع يروح يقول له ويفهمه الوقت من ذهب والغياب ده مدمر.. وعلى هامش الوثيقة كتب أحد القيادات الأمنية عبارة بخط يده قال فيها: تجمع المعلومات لدينا عن علاقة السيد الجنزوري بهذا التحرك»..

يئست مجموعتنا من الحديث عن حضور البرادعي وغيابه، إلَّا أننا عندما اجتمعنا في ٩ مايو ناقشنا أمرا آخر كنا قد بحثناه من قبل، هو البحث عن مقر للجمعية يجري فيه البرادعي لقاءاته، ونعقد فيه اجتماعاتنا.. وكنا قد حدثنا البرادعي من قبل في ذلك متسائلين عما إذا كان مكتب والده للمحاماة في وسط البلد يمكن أن يصلح للغرض، لكنه قال إن المكتب شأن العائلة لا شأنه، فطلبنا من جورج إسحق أن يوظف اتصالاته للبحث عن مكتب نستأجره.. بلغنا جورج في اجتماعنا هذا أن هناك عدة مكاتب متاحة، وأن إيجارها يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف جنيه شهريا، فقررنا أن نسهم جميعا في سداد الإيجار، لكنني سألت: وهل سيسهم معنا الدكتور البرادعي هو الآخر؟ جاءت الإجابة من أحدنا: «الدكتور البرادعي قال إنه لن يسهم في استئجار مكتب».. قلت: «وأنا لن أساهم إلَّا إذا دفع هو نصيبا مماثلا لأنصبتنا جميعا».. دار حديث بعد ذلك عن السبب في قرار البرادعي، فأخذنا نخمن، وقال البعض إنه يبدو أنه لا يريد أن يُتداول اسمه في أي وثيقة رسمية حتى لو كانت عقد إيجار، فأسقطنا الأمر من حسابنا، وأخذنا في مناقشة ما هو أكثر جدوى، وانتهى الاجتماع بإرسال رسالة إلكترونية للبرادعي (نص الرسالة في الملحق رقم ٦)..

عاد الرجل إلى القاهرة في أواخر مايو على أن يبقى فيها لنحو أسبوعين يغادر بعدهما إلى لندن، ويستمر في الخارج حتى سبتمبر.. هكذا كان جدوله الذي أبلغه للمحيطين به، فقرروا طلب عقد اجتماع عاجل معه عقد في ٣٠ مايو في عيادة الدكتور أبو الغار.. كان البرادعي قد زار في الصباح مسجد عمرو بن العاص والمعبد اليهودي والكنيسة المعلقة، وكان عدد من القيادات قد اعترض على هذه الزيارة حتى لا تستغل للتذكير بالاتهامات القديمة بأن البرادعي غريب عن مصر يزورها كالسياح (وهذا ما حدث)، وهكذا تمت الزيارة وسط غياب معظم قيادات الجمعية.. وبعدها بأيام ذهب إلى الفيوم، ولكنه بدلا من أن تتم الزيارة وفقا للبرنامج الذي وضعته اللجنة التأسيسية للجمعية هناك، كان هناك اتفاق خفي بينه وبين الإخوان المسلمين لحضور مؤتمر شعبي آخر، فتغيبت قيادات الجمعية أيضا واستقالت لجنتها في الفيوم، وأعلن المستشار الخضيري أنه سيتفرغ لجماعته «مصريون من أجل انتخابات حرة ونزيهة»..

بعدما تم اجتماع المصارحة بين البرادعي وأركانه في عيادة الدكتور أبو الغار، استقال الدكتور حسن نافعة، وأبلغني الحاضرون الذين لا أزال أعتبرهم من أنقى الشخصيات في النخبة المصرية، أن الخلاف مع البرادعي خلاف جذري، وأنه تمسك بمواعيد حضوره وغيابه، أما نواياه فقد ازدادت غموضا على نحو مقلق.. كان التواصل بين الرجل وبين قيادات الجمعية قد أصبح محدودا للغاية، والأرجح أنه كان يستعين بمجموعة بديلة، وكنا نرى أن هذا من حقه وإن كان من الضروري أن تخرج مجموعته السرية هذه إلى العلن.. وبدا واضحا أيضا أنه لا يثق كثيرا في الجمعية الوطنية للتغيير، وربما كان هذا هو السبب في ذهابه لزيارة الإخوان المسلمين في مقر كتلتهم البرلمانية في المنيل، وما دفع الإخوان ليعلنوا حشد كل قواهم لجمع التوقيعات على بيان الأهداف السبعة..

هكذا كان لابد من مصارحة الرأي العام فقلت رأيي دون مداراة في أكثر من مناسبة وكتبت مقالين في «الشروق» أحدهما بعنوان «البرادعي والمياه الراكدة»، والآخر بعنوان «أسرار الخلاف والاتفاق مع البرادعي».. قلت ما خلاصته إننا «رمينا طوبة البرادعي»، وإنه «إذا كان وقته متاحا للبقاء في مصر هو كما هو، فليكن، هذا أفضل من عدمه، وإذا كان أسلوبه في العمل لا يزال على حاله، فلا بأس، كل أسلوب

له مزاياه.. أما نحن فسنواصل العمل من خلال الجمعية الوطنية نجاهد من أجل مصر الجديدة، وستظل للدكتور البرادعي مكانته كرمز للتغيير».. أقنعنا نافعة بالعدول عن استقالته، وطلبت الجمعية من الجميع البقاء في مناصبهم ثلاثة أشهر تولى بعدها د. عبد الجليل مصطفى مسئولية المنسق العام في أكتوبر.. تفادينا هدم المعبد على من فيه، وإحباط شباب تقدم للتضحية وأمة تعلقت آمالها بحلم التغيير، وحاولنا أن نحفظ للبرادعي قدره، وأن نحافظ على كيان الجمعية وتماسكها..

كان أهم إنجاز للجمعية هو حشد الشباب الذي انضوى في عضويتها، وانصهار حملة البرادعي فيها، والتنسيق بينهم وبين حركة ٦ إبريل وأعضاء صفحة «كلنا خالد سعيد» في الإنترنت.. دفع تواصل هذا الشباب مع الناس مسيرتنا خطوات إلى الأمام، أما أنا فأعترف أنني لم أكن قادرا مثلهم على النزول إلى الشارع، وهكذا نشطت في التحرك بين القوى السياسية المعارضة واجتماعاتها في القاهرة، وأحيانا في مناطق أخرى، خاصة قبيل انتخابات مجلس الشعب التي أدى تزويرها إلى تفاقم الغضب.. وعلى الرغم من أن حملة جمع التوقيعات على بيان التغيير كانت في أوجها، فإنني لم أكن واثقا إلى أي مدى ستصل بنا هذه التوقيعات.. كنت أعول وقتها كثيرا على الإعلام المعارض، وعلى وجه الخصوص شباب الصحفيين الذين يعملون في الصحف الخاصة، ويدفعون إليها كل يوم بالأخبار والتحقيقات عن تدهور أحوال البلاد وناسها (كانت قنوات التلفزيون الخاصة في معظمها مساندة للنظام).. لذلك فعندما اشترى رجل الأعمال رضا إدوارد جريدة «الدستور» وفقد كثير من هؤلاء وظائفهم واعتصموا في نقابة الصحفيين، قمت بزيارتهم أكثر من مرة.. نشر وقتها أنني وزميلنا محمود سعد والمهندس يحيى حسين عبد الهادي (بطل معركة خصخصة عمر أفندي) نمول العصيان نكاية في حزب الوفد الذي ينتمي إليه مالك الجريدة الجديد، وسعيا إلى تعميق الأزمة بين الصحافة والسلطة.. وكنت بالفعل أعاون يحيى حسين وقتها في جمع تبرعات، لا من أجل صحفيي الدستور، ولكن من أجل سداد الغرامات التي تحكم بها المحاكم ضد المعارضين الذين كانوا من الشباب في معظمهم..

كنت مشغولا في ذلك الوقت بالقضية التي رفعها ضدي وزير الخارجية أحمد أبو الغيط، ولكنني كنت مهموما ـ مثل السفير إبراهيم يسري تماما ـ بقضيته لوقف

ضخ الغاز إلى إسرائيل، فصاحبته مرارا إلى مجلس الدولة.. وعندما أتى يناير ذهبت لأول مرة، بعد سنوات الغربة، إلى ضريح عبد الناصر لنحتفل بذكرى مولده يوم ١٥، ونلتقي الناصريين القادمين من الأقاليم.. كان همنا يومها أن نحشد القوى الوطنية خلف الدعوة التي كانت الجمعية الوطنية للتغيير قد أطلقتها في اليوم السابق لتشكيل حكومة إنقاذ وطني لفترة انتقالية، لكن اليوم السابق كان قد شهد حدثا كبيرا اهتزت له أرجاء الوطن العربي كله: هروب الرئيس التونسي بن علي أمام زحف المعارضة في شوارع تونس..

ألهبت الثورة التونسية المشاعر، وأشعلت غيرتنا.. الكل يومها كان يقول: «ولماذا لا نفعلها نحن أيضا؟»، وازدادت ثقتنا أننا نستطيع، ليس فقط بسبب انتظام جحافل الشباب ضمن قوى المعارضة، ولكن أيضا بسبب ضعف النظام وغبائه، وما تتالى من أحداث إثر تفجير كنيسة القديسين بالإسكندرية الذي أدى إلى نقمة عارمة على الحكم وعلى ممارسات الشرطة، وخاصة عندما عذبت الشهيد سيد بلال حتى الموت بعد اتهامه في حادث الكنيسة.. كانت شبكة الإنترنت عندئذ حافلة بالمواقع التي تدعو للتظاهر في ٢٥ يناير، وكان اختيار هذه المناسبة يرجع إلى عام ٢٠٠٩ حين دعت حركة ٦ إبريل إلى احتجاجات واسعة في عيد الشرطة الذي سمته «عيد البلطجية».. وشيئا فشيئا تركز التنسيق بين المواقع المختلفة في صفحة «كلنا خالد سعيد» التي أنشأها المدون الشاب عبد الرحمن منصور عند اغتيال الشهيد خالد في يونيو ٢٠١٠.. وعندما التحق وائل غنيم بمنصور إثر ثورة تونس كان أول من سمى هذا اليوم «ثورة».. كان الشعار الذي وضعه «ثورة على التعذيب والبطالة والفساد والظلم»..

مبارك كان حينئذ في دنيا غير دنيانا.. كان في شرم الشيخ يلتقي بناتنياهو في حين كانت القوى السياسية قد بدأت النزول إلى الشارع.. تتالت مظاهر الاحتجاج في أنحاء القاهرة وغيرها من المدن على غلاء المعيشة أو حملة الاعتقالات أو حقوق العمال وغيرها، وكان عدد من المواطنين قد أقدم على الانتحار بسبب الفقر وقلة الحيلة، ولكن السلطة وصفتهم جميعا بأنهم مرضى نفسيون.. ذهبنا حينها إلى مقر الوفد لنعلن قيام «البرلمان» الشعبي الموازي لبرلمان مبارك، والذي اشتهر بالتعليق الذي أطلقه على أعضائه «خلِّيهم يتسلوا».. وفي حين أن هذه الخطوة كانت رمزية إلى

حد كبير، كان الشباب هم المحرك الفاعل في الثورة ووقودها.. صفحة خالد سعيد التي أطلقت شعار «فعلتها تونس»، و«٦ إبريل» التي صاغت في النهاية شعار الثورة «عيش، حرية، كرامة إنسانية» في بيانها الذي صدر بعنوان «عايز أعيش»، وحركة «كفاية» التي دعت للتخلي عن سلالم نقابة الصحفيين، وحشد ١٠ آلاف متظاهر للاعتصام في الشوارع لمدة أسبوع حتى يسقط النظام..

يوم ٢٢ يناير جاء شباب الجمعية الوطنية للتغيير يعرضون على قيادتها خطة التحرك في ٢٥ يناير التي حددتها قوى الشباب بحركاتها المختلفة، وكانت تقوم على أساس الانطلاق من مناطق القاهرة الأكثر فقرا مثل بولاق وإمبابة وناهيا وشبرا متجهة إلى ميدان التحرير، فإذا لم يكن التحرك كبيرا بالقدر المأمول يتحول إلى اعتصام في ميدان مصطفى محمود.. في عواصم المحافظات كانت الخطة تقضي بتوجه المظاهرات للتجمع في ميادينها الكبرى.. وفي اليوم التالي اجتمعنا في الجمعية الوطنية للتغيير حيث دعونا إلى أن تكون وقفتنا يوم ٢٥ أمام مكتب النائب العام مع البرلمان الشعبي.. في هذا الاجتماع قال عصام العريان إن الجماعة ستقصر مشاركتها في الوقفة على بعض رموزها فقط، لكنها لن تمنع من يريد النزول من شبابها..

كان الدكتور علاء الأسواني يحتفل ليلتها بتوقيع كتابه «مصر على دكة الاحتياطي»، فذهبت إليه في مكتبة دار الشروق بالمهندسين، ومن هناك توجهنا إلى بيت الدكتور أبو الغار في الدقي، حيث لحق بنا عبد الجليل مصطفى وممدوح حمزة ثم حسين عبد الغني.. سهرنا حتى الفجر نتدبر في السيناريوهات المختلفة ليوم ٢٥ يناير ورد فعل السلطة وخطة المواجهة، ونجري اتصالاتنا بالأطراف المشاركة في الحدث، إلّا أننا لم نستطع الاتصال بالدكتور البرادعي لنحثه على الحضور فورا إلى مصر بعد أن علمنا أنه قرر البقاء في الخارج.. اتصل بي ليلتها شقيقي عاصم، وهو ضابط شرطة سابق، يحذرني من أن الشرطة تتحين ظهوري في أي مظاهرة بالشارع لاعتقالي بعد الخطاب الحاد الذي كنت قد ألقيته قبل أسابيع في نقابة الصحفيين احتفالا بحصول علاء الأسواني على جائزة «الإنجاز العلمي» من جامعة إلينوي الأمريكية (نص الخطاب في ملحق ٧)..

لكن القوى الوطنية كانت قد قررت النزول على الرغم من الإنذار الذي وجهته لنا وزارة الداخلية بضرورة الحصول على تصاريح للتظاهر، وكان اللواء إسماعيل الشاعر مساعد وزير الداخلية قد صرح يوم ٢٤ أيضا بأن «الوزير أصدر توجيهات باعتقال من يخرجون على الشرعية».. وأنا في طريقي إلى دار القضاء العالي كنت أعتقد على الرغم من ثقتي بإحكام التخطيط للمظاهرات، أنها سوف تجبر النظام على إقالة وزير الداخلية، وربما تقديمه للمحاكمة بتهمة التعذيب، وسوف تتجاوب مع بعض المطالب الشعبية مثل تحديد الحد الأدني للأجور مثلا، وعندها نلتقط أنفاسنا، ونعاود التجهيز لخطوة أخرى، لكنني لم أستبعد قط أن يضطر مبارك إلى إقالة الوزارة، وتشكيل حكومة إنقاذ لتسد بعض أبواب الغضب..

في الثانية عشرة كان عددنا قد بلغ الألف تقريبا أمام دار القضاء العالي، لكنني لم أشاهد من قيادات الإخوان أحدا سوى محمد البلتاجي، في حين كانت قوات الشرطة التي تحيط بنا وتلك الرابضة في لوريات الأمن المركزي تزيد على عدة آلاف.. فوجئت بشقيقتي مآثر تشق طريقها نحونا فحاولت أن أثنيها عن البقاء، ولكنها قالت إنها وصلت من مدريد في الليلة السابقة لتشهد هذه اللحظة.. تمكنت بعد حوالي نصف الساعة أن أقنعها بالذهاب، وأن أجد ضابطا شابا سمح لها بالخروج خرقا للتعليمات التي كانت تقضي بحصار الوقفة ومنع الدخول إليها أو الخروج منها، وعندما ركبت سيارتها عدت ثانية حيث كان الخطباء يصعدون إلى السلالم ليلقوا خطبهم النارية واحدا بعد آخر..

بعد قليل لمحت محمد عبد القدوس يتسلل ليقف أمام صيدلية الإسعاف، وهو ممسك بمكروفونه الشهير بيد وبعلم مصر باليد الأخرى ينادي علينا أن نخرج من الحصار ونتجه بمظاهرتنا إلى شارع رمسيس.. مرت لحظات من التردد حتى خرج بعضنا، ولكن عددنا كان قليلا للغاية في حين آثر الآخرون البقاء للتشاور الأخير في الخطوة القادمة، خاصة بعد أن تلقوا معلومات متضاربة حول بضع مظاهرات خرجت في أماكن أخرى بالمدينة.. لم ينجح محمد عبد القدوس في جمع عدد كافٍ للانطلاق بمظاهرة، فذهبت إلى سيارتي لأستطلع بنفسي ما يحدث في نقاط التجمع التي كانت الحركات الشبابية قد حددتها.. اتجهت في شارع ٢٦ يوليو نحو بولاق، فكان هادئا

تماما، وعندها تلقيت مكالمة من واحد من شباب الجمعية الوطنية للتغيير أبلغني أن الشرطة أجهضت مسيرة الحلمية، فتوجهت من الكورنيش إلى روض الفرج ثم إلى دوران شبرا ومن بعده شارع شبرا فميدان رمسيس.. كانت كل هذه المناطق خالية من أي مظهر من مظاهر الاحتجاج..

لكنني تذكرت أنني لم أذهب إلى ناهيا، وعندما رحت إلى هناك لم أجد حالها مختلفا عن غيرها، وعندئذ قررت العودة إلى البيت من فرط الكمد والإحباط.. في طريقي للعودة ذهبت إلى شارع جامعة الدول العربية ومنه إلى شارع محيي الدين أبو العز.. هناك كانت المفاجأة الكبرى.. مسيرة هائلة يشارك فيها الألوف.. لم أستطع التمكن من مشاعري، فأوقفت السيارة وأجهشت بالبكاء.. ولما تمالكت نفسي تركت السيارة، والتحقت بمؤخرة المسيرة التي شقت طريقها إلى شارع التحرير ثم ميدان التحرير.. في الطريق كنا نشتبك مع الشرطة بين حين وآخر، ولكننا عندما اقتربنا من الميدان اشتدت المواجهة، وبدأ إطلاق مدافع المياه وقنابل الغاز والرصاص المطاطي..

سقط مئات المصابين، ومع ذلك فقد وصل عدد المحتشدين في الميدان إلى نحو ٥٠ ألفا كما قدرنا.. عندها دبَّ الحماس وأيقنا أنها بشائر حدث جلل، خاصة عندما علمنا أن المظاهرات اندلعت أيضا في الإسكندرية والمحلة الكبرى، وأن شهيدا سقط في ميدان الأربعين في السويس، وهكذا خرج بعض الشباب من الميدان لشراء خيم تمهيدا للاعتصام.. كانت الساعة قد بلغت التاسعة لما شعرت بالإجهاد، وكانت الاتصالات التلفونية قد قطعت، فذهبت إلى عيادة الدكتور عبد الجليل مصطفى لآخذ قدرا من الراحة، وكانت الجمعية الوطنية للتغيير قد قررت اتخاذ العيادة مقرا دائما لقيادتها لقربها من الميدان، ولكنني لم أجد أحدا هناك، فتوجهت إلى البيت بعد أن أمضيت ساعتين أحاول فيهما الوصول إلى سيارتي التي تركتها في المهندسين..

عندما اقتربت من البيت وجدت طابقنا مغطى من كل ناحية بالأعلام التي وضعتها زوجتي، ولما دخلت عليها كنت أكاد أستطيع الوقوف على قدميَّ، وكان صوتي قد بح من الهتاف.. كل ما قلته: «هذه أول مرة أتمنى أن أعود فيها شابا في العشرين»..

قصة الأيام الثماني عشرة المجيدة بعدئذ أصبحت معروفة للكل.. لا أدعي أنه كان لي فيها دور يذكر إلى جانب دور الملايين الذين حققوا الحلم.. كانت الطليعة يومها

للشباب والضحايا كانوا في صفوفهم.. لكنني عندما استلقيت في سريري تذكرت، على الرغم من صوت الراديو إلى جانبي، أولئك الرجال والنساء من حركة «كفاية» الذين خرجوا في ديسمبر ٢٠٠٤ في مظاهرة أمام دار القضاء العالي، أيضا، ينادون بسقوط النظام المستبد.. لم يكن لي يومها شرف الوجود بينهم؛ إذ كنت قد سافرت للإقامة في دبي في إبريل، لكنني يوم سمعت بالمظاهرة كنت فخورا أنني كنت واحدا من الذين وقعوا بيان تأسيس الحركة..

عندما قرأت صحف الصباح في اليوم التالي، ٢٦ يناير، لم أفاجأ بنشرها تصريحا لجورج إسحق قال فيه: «الله يحرق البرادعي.. لا نريد معرفة أي شيء عنه».. كان يشير إلى غياب الدكتور البرادعي عن يوم اندلاع الثورة.. غاب البرادعي بعد ذلك عن جمعة «الثورة أولا» في ٨ يوليو ٢٠١١، وتخلف أيضا عن الاحتفال بالذكرى الأولى لثورة يناير في ٢٠١٢، وكان قد أعلن قبل ذلك بأيام انسحابه من انتخابات الرئاسة..

قبل أن يعلن البرادعي انسحابه، كنا جالسين معا، الدكتور أبو الغار والدكتور عبد الجليل مصطفى والدكتور الأسواني والدكتور حسن نافعة وأنا، في نادي السيارات.. كنا قد تقاربنا كثيرا منذ ٢٠٠٩، وكان ما يجمعنا هو أننا مستقلون عن التيارات السياسية القائمة.. أجمعنا ليلتها على أن فرص البرادعي في الرئاسة باتت ضئيلة، وأن أفضل قرار يمكنه اتخاذه هو أن ينسحب، واقترحنا أن يذهب إليه عبد الجليل مصطفى وعلاء الأسواني ليعرضا عليه الأمر، إلَّا أنه عندما ذهب عبد الجليل مصطفى إلى منزله كان، كالعادة، قد أعلن انسحابه دون أن يتشاور مع أحد، وقال إن هذا «ليس انصرافا من الساحة، بل استمرار لخدمة الوطن بفاعلية أكبر من خارج مواقع السلطة، وتحرر من كل القيود»، إلَّا أن أحلام الزعامة ظلت تراوده دائما على الرغم من أنه يعلم جيدا أنه لا يستطيع الوفاء بالتزاماتها.. كتب د. حسن نافعة وقتها يقول إن البرادعي «شخصية تريد لعب دور البطولة دون أن تكون مستعدة لدفع أي من أثمانها الباهظة»، وإنه يرى نفسه فوق الجميع ومختلفا عن الجميع، ويريد من الجماهير أن تصعد إليه لتحمله على أكتافها دون أن ينزل هو إليها..

عندما فوجئ البرادعي بالإحباط الذي حدث للشباب، وبانقلاب بعضهم عليه، حاول أن يحتوي الموقف بالدعوة إلى تأسيس كيان هلامي سماه حزب

«الدستور» ليس له اتجاه إيديولوجي واضح سوى أن شعاره هو مبادئ ثورة يناير «عيش، حرية، عدالة اجتماعية، كرامة إنسانية».. كان ذلك في إبريل ٢٠١٢ عندما هبت مظاهرة إعلامية أغرقت وسائل الإعلام بالأخبار والبيانات اعتمادا على أسماء وثقل المؤسسين للحزب وكتلة الشباب النشطة المنضمة إليه، لكن تأسيس الحزب تعثر بسبب خلافات البرادعي مع المؤسسين والخلافات بين بعضهم البعض وانشقاقهم عن الحزب واحدا تلو الآخر.. عندها حاول الشباب الأنقياء الذين ظلوا على ولائهم للبرادعي مرة أخرى الانتصار على الإحباط بدفع زعيمهم ثانية إلى واجهة المشهد السياسي، فأطلقوا فكرة قيام مجلس رئاسي يضم عددا من مرشحي الرئاسة، برئاسة البرادعي وعضوية حمدين صباحي وعبد المنعم أبو الفتوح.. وبعد أن راجت هذه الفكرة في سوق السياسة أياما، انطفأت لما تبين الجميع أن مصيرها الفشل، وانطفأ معها اسم البرادعي ـ الذي وصفتُه بأنه كشمس الشتاء لا يظهر إلَّا لماما ـ حتى خرج مرة أخرى ليتقدم بأوراق تأسيس حزب «الدستور» إلى لجنة شئون الأحزاب في أغسطس ٢٠١٢، وكان ذلك بعد ظهور نتائج انتخابات الرئاسة..

كتبت عندئذ مقالا بعنوان «لماذا حزب الدستور؟»، قلت فيه إن واحدا من أسباب قيام الحزب ربما يكون التخوف من زحف تيار الإسلام السياسي الذي وصل مرشحه إلى كرسي الرئاسة، أو ربما يكون هو إدماننا على التشرذم، على نحو ما رأينا في الانتخابات الرئاسية، وتساءلت: لماذا كل هذا الجهد لقيام حزب جديد، وهناك حزب يرفع الشعارات نفسها مثل الحزب المصري الديموقراطي الاجتماعي؟ لماذا لم يندمج «الدستور» في أي حزب آخر يتفق معه في الأهداف بدلا من عناء قيام حزب جديد؟ لكن الأحزاب «المدنية» لم تتحالف في تكتل سمي «جبهة الإنقاذ» إلَّا كرد فعل على قيام الدكتور مرسي ـ الرئيس عندئذ ـ بإصدار إعلانه الدستوري في ٢١ نوفمبر ٢٠١٢ وعندما علمت أن البرادعي سوف يتصدر قيادتها لم أستبشر كثيرا بالخبر، وكان هذا هو موقفي أيضا عندما ذهب البرادعي وحمدين صباحي إلى ميدان التحرير «إيد واحدة»، فعلى الرغم من أن المتظاهرين في الميدان حملوهما على الأعناق فإنني كنت أرى في ذلك نذير خطر..

ثم مرت الأيام، وبعد ٣٠ يونيو عادت الجبهة فعلقت عليه آمالها، وأعلنت مع تنسيقية ٣٠ يونيو أنهما يفوضان الرجل متحدثا باسمهما مع القوات المسلحة، وانتهى التفاوض إلى تعيين البرادعي نائبا للرئيس في ٩ يونيو ٢٠١٣، ولكنه خان الأمانة التي علقها عليه أنصاره، واستقال في ١٤ أغسطس احتجاجا على فض اعتصامات مؤيدي مرسي بالقوة.. لم أجد في ذلك جديدا؛ إذ كيف ينجح البرادعي في إدارة شئون الدولة وهو الذي لم ينجح في إدارة شئون حزبه؟ وعندما كتبت يومها أقول إن البرادعي، كما عرفته، متردد، كاذب، أناني، لا يتحمل مسئولية، لا يقبل رأيا آخر، البرادعي ليس منا، لم أكن أقول يومها شيئا جديدا..

إلغاء ندوة لـ «حمدى قنديل» بسبب سوء الأحوال الجوية

كتبت. الشيماء عزت:
للمرة الثانية فى أقل من ٣ أشهر، وبسبب «واهى» على الأقل من وجهة نظره، تم إلغاء ندوة الإعلامى

مصر للطيران لم تحجزه بالكامل وذلك من خلال إدارة الشركة والفندق معاً.
وبرر «قنديل» إلغاء الندوة: «من الواضح أن الأمن

خبر إلغاء ندوتي «بسبب سوء الأحوال الجوية» (يناير ٢٠١٠).

الاجتماع التأسيسي للجمعية الوطنية للتغيير في منزل د. البرادعي (فبراير ٢٠١٠).

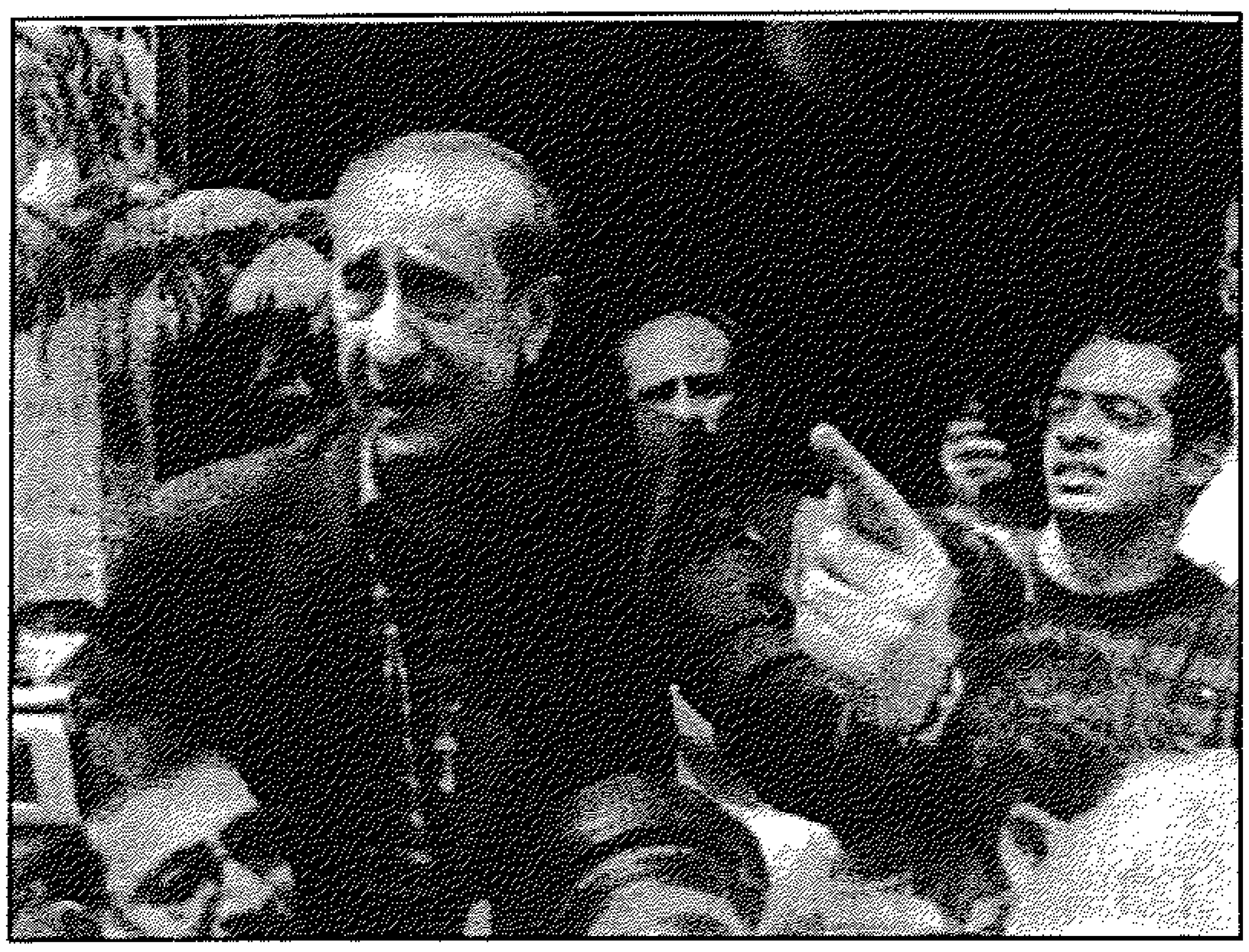

على أكتاف الخبير الاقتصادي عبد الخالق فاروق في مظاهرة المنصورة (إبريل ٢٠١٠).

١٥٨ سياسيا يعلنون تأسيس «جماعة العمل الوطنى» لتغيير الدستور ومواجهة «التوريث»

حمدى قنديل: نعمل سراً منذ شهور و«حملة البرادعى» تجمع ٨ آلاف توقيع

إعلان تأسيس «جماعة العمل الوطني» في نقابة الصحفيين (مارس ٢٠١٠).

في المؤتمر الشعبي في «منية سمنود»: على يميني د. البرادعي والنائب رأفت سيف، وعلى يساري د. أبو الغار وجورج إسحق (إبريل ٢٠١٠).

تحت عنوان "حرية الإعلام

حمدي قنديل يلهب المشاعر في

أ/ حمدي قنديل

كتب - كريم إمام

شهدت قاعة الندوات بمعرض الدوحة الدولي الحادي والعشرين للكتاب مساء أمس الأول محاضرة تحت عنوان «حرية الإعلام بين الملكية العامة والخاصة» للإعلامي والكاتب المصري الكبير حمدي قنديل قد حضر الندوة عدد كبير من رواد المعرض من المواطنين والمقيمين تقدمهم الأستاذ عبدالله الأنصاري مدير المعرض والدكتور زكريا مطر مستشار وزير الأوقاف وجمع من المثقفين من قطر والدول العربية.

أدار المحاضرة الأستاذ موسى زينل الذي رحب في البداية بالحاضرين مباركا للجميع الخبر التاريخي الذي أعلن قبل لحظات من بدء الندوة بفوز قطر باستضافة كأس العالم 2022، ثم قدم قنديل واصفا إياه بصاحب الرحلة الطويلة

الصحف القطرية تتحدث عن ندوتي في «نـادي الجسرة» في الدوحة (ديسمبر ٢٠١٠).

في ميدان التحرير وإلى يساري شقيقتي مآثر وإلى يميني ابنها السفير ياسر مراد وابنته زينة (فبراير ٢٠١١).

(٢٤)

مأساة «فيرمونت»

١٩٦٥ - ٢٠١٣

◆ ◆ ◆

كان مرسي في اجتماعاته مع رموز مصر ينصت باهتمام بالغ، ويكتب ملاحظاته كطالب مجتهد، لكنه كان أكثر حرصا على أن يؤم المجتمعين في صلاة العصر، من حرصه على تنفيذ مقترحاتهم.

◆ ◆ ◆

قبل الانتخابات الرئاسية قلت: «لن يطول بنا الانتظار أربع سنوات.. سيتفجر السخط الشعبي غدا أو بعد غد أيا من كان الفائـز»..

رويت في فصول سابقة أنني كنت واحدا من «الشبان المسلمين»، وأن والدي حذرني من «الإخوان المسلمين»، ورويت أول لقاء لي بالإخوان في السجن الحربي عندما تآمروا على عبد الناصر في ١٩٦٥، ثم اعتذاري عن الأحاديث التي سجلتها معهم في ذلك الحين.. بعد نحو عشرين عاما التقيت عددا منهم في الثمانينيات والتسعينيات، واقتربت منهم أكثر وأكثر عندما تصاعدت المعارضة ضد نظام مبارك.. أذكر أنني كنت أحضر دائما مناسبات خروج أقطابهم من السجون، مثل د. عصام العريان ود. عبد المنعم أبو الفتوح ود. جمال حشمت.. وفي برنامج «قلم رصاص»، الذي كنت أقدمه في تلفزيون دبي، حاورت عددا من زعمائهم، بينهم الأستاذ مهدي عاكف المرشد العام عندئذ، وكذلك نائبه الأول الدكتور محمد حبيب الذي استضفته في الإمارات قبل خروجه من الجماعة..

بعد أن غادرت دبي في ٢٠٠٩ لأقيم نهائيا في القاهرة، شاركت في تأسيس «الجمعية الوطنية للتغيير» عند وصول الدكتور البرادعي إلى مصر في ٢٠١٠، وكان الإخوان ممثلين في الاجتماع التأسيسي بالدكتور سعد الكتاتني، ثم انتدبوا لحضور اجتماعات الجمعية فيما بعد عضوين، هما الدكتور العريان؛ ربما بسبب قدرته البارعة على المناكفة، والدكتور محمد البلتاجي الذي ميزته ابتسامته البلاستيكية الشهيرة.. أشهد أن البلتاجي كان فائق النشاط وكان مراوغا ماهرا، وأشهد أنه كان يكن لي تقديرا خاصا حتى إنه طلب مني أن أكتب مقدمة كتاب سياسي كان ينوي إصداره، وكتبت المقدمة بالفعل وأرسلتها له بالفاكس لكنه قال إنها لم تصل، فسلمتها له بعدئذ باليد، ولم أعلم منذ ذلك الحين إذا كان الكتاب قد صدر، وإذا كانت المقدمة في تصدرته..

منذ ذهب البرادعي إلى الإخوان في دارهم كثفوا حركتهم في الجمعية، وجمعوا أكثر من ٧٠٠ ألف توقيع لمطالب التغيير السبعة، وفتحوا مقار نوابهم في المحافظات

لمؤتمرات الجمعية.. شاركت في واحد من هذه المؤتمرات في أغسطس ٢٠١٠.. كان من المقرر أن يقام المؤتمر في سرادق في شارع ١٥ مايو في شبرا الخيمة، ولكن الأمن منع إقامة السرادق، وأغلق الشارع، وقطع الكهرباء عن المنطقة، فاستضاف الإخوان المؤتمر على سطح عمارة يوجد بها مقر نائبهم جمال شحاتة.. كنا مقبلين وقتها على انتخابات مجلس الشعب، فقلت في كلمتي يومها إن الجمعية الوطنية للتغيير ستعلن عن موقفها من الانتخابات خلال أسابيع قليلة، وإذا لم تتحقق مطالب التغيير فسوف يكون قرار المقاطعة هو البديل؛ حتى لا نضفي شرعية زائفة على إرادة الشعب..

أثبتت الأيام بعدها أن الحكم لا يتجاوب مع المطالب الشعبية، فحاولنا في الجمعية أن نوحد موقف القوى الوطنية خلف المقاطعة، خاصة الإخوان والوفد اللذيْن تردد أنهما ينسقان فيما بينهما لخوض الانتخابات.. كنا قد لاحظنا أن مشاركة الإخوان في اجتماعات الجمعية انحسرت إلى الحضور بالقطاعي، يحضرون وقت الحاجة ويختفون عند اللزوم، ويتبنون مايروق لهم من قرارات.. وعندما ذهبت مع الدكتور حسن نافعة إلى حزب الوفد، فهمنا أن عددا من قياداته يريد اختبار قوة الحزب تحت قيادته الجديدة (د. سيد البدوي) في أتون معركة انتخابية، وأن هناك اجتماعات دورية تعقد بين الإخوان والوفد، وأن الجماعة تنتظر قرار الحزب، إن قاطع فستقاطع هي الأخرى، وإن شارك فسوف تكون ذريعتهم للمشاركة هي استحالة المقاطعة الجماعية..

قررت الجمعية أن ترسل وفدا للقاء مرشد الإخوان د. محمد بديع لحث الجماعة على المقاطعة، وكان الوفد مكونا من د. عبد الجليل مصطفى ود. حسن نافعة ومني.. في صباح اليوم الذي حدد للاجتماع ذهبت مع السفير إبراهيم يسري إلى مجلس الدولة الذي كان ينظر قضية بيع الغاز المصري لإسرائيل، فلم أستطع اللحاق بالاجتماع عند بدايته، وعندما دخلت وجدت نحو ستة من أعضاء مكتب الإرشاد يحيطون بالدكتور بديع.. اعتذرت عن تأخيري، وقلت: «آسف يا فضيلة المرشد أن أستخدم عبارات مباشرة، بل وقد تكون منافية للياقة.. لقد وجدت أن حضوري في الصباح في جلسة مجلس الدولة أكثر أهمية من أي شيء آخر.. فضيلتك تعلم أن الحركة الوطنية حققت مكاسب من خلال القضاء أكبر بكثير مما حققته في مجلس الشعب».. قال: «علمت

من الإخوة أن هذا رأيكم في الجمعية، ولكن».. فتح درج مكتبه وأخرج منه ملفا قال إنه يرصد إنجازات نواب الإخوان المسلمين في المجلس، وطلب مني أن أقرأه بعناية فيما بعد.. على الرغم من أن آخر ما قيل لنا في الاجتماع هو أن الجماعة بصدد مشاوراتها الأخيرة لاتخاذ قرارها بشأن المشاركة في الانتخابات من عدمها، فإننا خرجنا ونحن على يقين أنها ستدخل هي وحزب الوفد المعركة..

كتبت مقالا في «الشروق» عندئذ كان عنوانه «مجرد كومبارس»، قلت فيه إننا «يمكن أن نتفهم دواعي مشاركة الوفد، ويمكن أن نتفهم أن المعركة الانتخابية فرصة استثنائية للجماعة المحظورة أن تقوم بنشاط علني على الرغم من الحصار الدائم المفروض عليها، لكن نتيجة المعركة معروفة سلفا في ضوء تزوير النظام الدائم للانتخابات الذي تأكد في انتخابات الشورى الأخيرة.. لن يحصل المعارضون سوى على الفتات، وسيكتشف الشعب عندئذ، وسيكتشفون هم أنفسهم، أنهم عقدوا باختيارهم صفقة مع النظام يقومون فيها بدور السنيد الذي لا تكتمل بدونه المسرحية.. وكثيرون لا يريدون أن يسجل التاريخ للإخوان المسلمين أو للوفد أنهما كانا مجرد كومبارس».. وهذا ما حدث، كانا مجرد كومبارس..

عندما هبت ثورة ٢٥ يناير قرر الإخوان ألَّا يشاركوا في المظاهرات لكنهم فتحوا بابا مواربا لأعضاء الجماعة الذين يودون المشاركة.. شارك كثير من شباب الجماعة في مظاهرات مختلفة يومها، لكن القيادات اختفت تماما.. صبيحة يوم ٢٦ يناير ذهبت مع عدد من رموز القوى السياسية إلى النائب العام، وقدمنا بلاغا ضد العادلي وزير الداخلية ومساعده إسماعيل الشاعر ووزير الصحة وشركات الاتصالات العاملة في مصر، نتهمهم بالقبض على المواطنين دون وجه حق، وتسليم المصابين في المستشفيات لأقسام الشرطة، ووقف الاتصالات في منطقة التحرير بالمخالفة للقانون.. كان بين مقدمي البلاغ د. عبد الجليل مصطفى ود. أبو الغار والحقوقي البارز جمال عيد والمهندس يحيى حسين وجورج إسحق وغيرهم، إلَّا أن أحدا من الإخوان لم يشارك.. أذكر أن النائب العام عبد المجيد محمود يومها قال: «لو كنتم تعلمون مكان احتجاز المعتقلين فأبلغوني وعندها سأتصرف على الفور».. عندئذ تأكد لنا أنه لن يتصرف على الإطلاق..

في يوم ٢٨ يناير حدث ما حدث عند هروب قادة الجماعة من السجون، سواء بدعم من «حماس» أو بدونه، وقررت الجماعة الالتحاق بالثورة بعد ظهر ذلك اليوم عندما تبين لهم أن قوات الشرطة قد انهارت.. في اليوم التالي، ٢٩ يناير، اجتمعنا في «البرلمان الشعبي» وحددنا عشر شخصيات للتفاوض مع النظام باسم الثورة، كنت بينهم مع الدكتور البرادعي وحمدين صباحي والدكتور عبد الجليل مصطفى وعلاء عبد المنعم وأيمن نور والمستشار محمود الخضيري، ومعنا أيضا الدكتور محمد البلتاجي اعترافا بمشاركة الإخوان في الثورة، حتى لو كانت مشاركتهم متأخرة.. خرج عدد منا من مقر البرلمان بميدان طلعت حرب متشابكي الأيدي إلى أن وصلنا إلى ميدان التحرير، وعندما بدأ الأستاذ علاء عبد المنعم في تلاوة البيان الذي أصدرناه تصاعدت هتافات الإخوان الذين كانوا في الميدان: «الله أكبر ولله الحمد»، فطلب علاء من البلتاجي أن تكون الهتافات باسم الثورة وحدها..

لكن الجماعة كانت قد قررت فور التحاقها بالثورة أن تنفرد بها، وهكذا ذهبوا للتفاوض سرا مع عمر سليمان في صفقة يخلون له فيها ميدان التحرير مقابل إفساح المجال لهم في الحكومة والبرلمان.. الكاتب الصحفي البريطاني روبرت فيسك قال وقتها في جريدة «الإندبندنت» إنه في

> «الوقت الذي كان الشباب فيه يضحون بأرواحهم كان الإخوان يلتقون بعمر سليمان للتفاوض على الغنائم»، وعمر سليمان نفسه اعترف في تسجيلات صوتية نشرت في أواخر ٢٠١٣ أن لقاءه مع الإخوان كان «مكسبا وغنيمة لهم».. عندما فشل مخطط عمر سليمان في النهاية اتجهوا بكل ثقلهم إلى المجلس العسكري، واستطاعوا أن يقتنصوا منه الاستفتاء على التعديلات الدستورية، وكانت تنص على إجراء الانتخابات البرلمانية خلال ٦ أشهر.. أجمعت باقي القوى الوطنية على رفض التعديلات، ورأت أن إجراء الانتخابات في مثل هذا الوقت المبكر يعني فوز جماعة الإخوان ومرشحي الحزب الوطني المنحل في حين تتخلف قوى الثورة الجديدة التي لم تكن قد نظمت صفوفها بعد..

قبل الاستفتاء بأيام ذهبت إلى المنصورة لأشارك مع أبو العز الحريري وعلاء عبد المنعم وجورج إسحق ود. أسامة الغزالي حرب في مؤتمر شعبي دعا له الدكتور محمد غنيم لرفض الاستفتاء.. قضيت ثلاث ليالٍ هناك لأجري فحصا كاملا على

كليتي المرهقة لدى الدكتور غنيم، وأجوب في بعض القرى المجاورة للدعوة للتصويت بلا.. وقتها تبينت أن معركتنا ستكون في غاية الصعوبة بعد أن بث الإخوان دعوتهم في الأقاليم أن التصويت بنعم واجب شرعي، ورفعوا لافتاتهم جهارا نهارا تنادي بذلك، وبالفعل كانت نتيجة استفتاء ١٩ مارس أن ٧٧٪ من الناخبين صوتوا لصالح التعديلات.. في برنامج «بلدنا بالمصري» رويت للأستاذة ريم ماجد حكاية المنصورة، وقلت إن أسلوب الإخوان الطائفي في الاستفتاء خيانة للوحدة الوطنية، وإنهم أحدثوا شرخا غائرا عندما قسموا البلاد إلى فسطاطين؛ «فسطاط إسلامي» و«فسطاط مدني»..

في حين كان الكل مشغولا بدفع الثورة خطوة هنا وخطوة هناك، كان شغل الجماعة الشاغل هو اقتناص مجلس الشعب الذي كانوا قد وعدوا بأنهم لن يترشحوا على أكثر من ٣٠٪ من مقاعده، ولكن تيار الإسلام السياسي فاز بـ ٧٠٪ من مقاعد المجلس.. وكان ما رأيناه بعدئذ صادما تماما.. لاحظ الكل استعلاء مستفزا في مسلك الإخوان، ولم يكن بالمستطاع مداراة القصور المؤسف في كفاءة النواب، وفشل المجلس في سن قوانين تخلخل نظام مبارك، وسقط في مواجهة حكومة الجنزوري التي ظل أسابيع ينادي بإسقاطها، وأثار المخاوف بطرح عدد من الأفكار المتطرفة.. على أن مكانة المجلس اهتزت إلى حد كبير بصده جماهير الثورة عندما ذهب شبابها ليستنجدوا به فحشد لهم ميليشيات تحول بينه وبينهم.. ونالت من سمعة المجلس أيضا سقطات البلكيمي وونيس على الرغم من أنها سقطات فردية، وخدشت صورته مفارقات مثل أداء اليمين «بما لا يخالف شرع الله»، ونوادر مثل رفع الآذان في القاعة.. إلا أن خطيئة المجلس الكبرى كانت مناوراته للاستحواذ على الجمعية التأسيسية للدستور..

وكان الذي تبقى من هذا كله ـ أو على الرغم من هذا كله ـ هو صور الجلسات التي ظلت تلح بها علينا قناة «صوت الشعب» التي تركت انطباعا يصعب التغلب عليه، هو أن هذا البرلمان ليس برلمان الشعب.. هؤلاء لا يمثلوننا.. وهكذا فعندما صدر حكم المحكمة الدستورية العليا في يونيو بحل مجلس الشعب لم يبكِ عليه كثيرون، خاصة أن الإخوان عندما استولوا على البرلمان بدأوا في ترويج شعار «البرلمان لا

الميدان»؛ ميدان التحرير، وغابوا في مواجهات الميدان مع المجلس العسكري في محمد محمود ومجلس الوزراء ومابعدها، وقالوا إن أحداث محمود محمود تهدف إلى نشر الفوضى وتعطيل الانتخابات، وإن أحداث مجلس الوزراء خلفها مخطط أجنبي وشهداءها بلطجية.. لهذا لم يكن غريبا عندما وقع الاعتداء على المعتصمين أمام مجلس الوزراء في أكتوبر ٢٠١١ أن أذهب أنا ود. عبد الجليل مصطفى وجورج إسحق ود. عمرو حمزاوي دون أن يصاحبنا أحد من الجماعة؛ لتقديم بلاغ في قسم قصر النيل ضد وزير الداخلية وقائد الشرطة العسكرية وقائد المنطقة المركزية..

على الرغم من أن الإخوان كانوا معرضين عن الميدان فإنهم كانوا يخطبون وده كلما دعت الحاجة، وهكذا كان الميدان قبلتهم قبيل انتخابات الرئاسة التي كانوا قد أعلنوا أنهم لن يخوضوها.. وقتها راجت في البداية فكرة «المرشح التوافقي» الذي يمكن أن يتفق عليه الجميع دون أن يتصارعوا، وأطلق اسما منصور حسن ونبيل العربي كبالونتي اختبار، ولكنني سميت في إحدى مقالاتي مثل هذا المرشح «المرشح التواطئي» الذي ستتواطأ قمتا السلطتين التنفيذية والتشريعية، أي المجلس العسكري والإخوان المسلمين، على ترشيحه.. أقلع الإخوان بعدئذ عن هذا الطرح عندما تأكدوا أن لديهم الفرصة للفوز في انتخابات الرئاسة، فرشحوا في البداية خيرت الشاطر نائب المرشد، وعندما استبعد استبدلوا به الاحتياطي (الذي درج العامة على تسميته الإستبن) الدكتور محمد مرسي.. وتقدم آخرون للترشيح بينهم حمدين صباحي وعبد المنعم أبو الفتوح وغيرهما..

تأسست في ذلك الحين لجنة سميت «لجنة المائة»؛ نسبة إلى عدد أعضائها الذين يمثلون التيارات الثورية كافة، وكان للدكتور كمال الهلباوي ود. سمير عليش ود. عمار علي حسن والأستاذ عبد الخالق فاروق الفضل في تأسيس اللجنة التي كنت واحدا من أعضائها.. كانت اللجنة تهدف إلى الاتفاق على «فريق رئاسي» يمثل الثورة ويحتشد خلفه المؤمنون بها، في ظل الصراع القائم بين القوى الوطنية وقوى نظام الفساد والاستبداد التي كانت لا تزال ممسكة بمفاصل ومفاتيح الدولة.. وقتها ذهبت إلى المؤتمر الانتخابي الكبير الذي نظمه الدكتور أبو الفتوح في الأزهر، وألقيت كلمة قصيرة ناديت فيها بالاتفاق على فريق رئاسي بدلا من تشتيت الأصوات، وذهبت

مع المهندس يحيى حسين لنبلغ حمدين صباحي الرسالة نفسها، ونشط قادة اللجنة في السعي للتوفيق بين المرشحين، ولكنهم لم ينجحوا في مسعاهم بسبب الموقف المتشدد الذي اتخذه د. عبد المنعم أبو الفتوح.. هكذا فشلت محاولات تشكيل فريق رئاسي يضم صباحي وأبو الفتوح، فكتبت في «المصري اليوم» مقالي الأسبوعي الذي أعلنت فيه أنني «قررت انتخاب حمدين صباحي»..

عندما تقدم مرسي وشفيق لانتخابات الإعادة، نشرت لي تصريحات في الصحف قلت فيها إن «مصر ستغرق في الفوضى إذا نجح مرسي»، وقلت للأستاذة منى الشاذلي في برنامجها في MBC إن «ترشيح بطل موقعة الجمل إهانة»، وأعلنت مقاطعة الجولة الثانية للانتخابات ودعوت لمقاطعتها.. وفي ٢٨ مايو اختصرت مقالي في «المصري اليوم» في عدة سطور كانت بمثابة بيان عنوانه «نداء إلى قوى الثورة»، قلت فيه:

> «نعم، نحن جماهير الثورة المحاصرين اليوم بين التصويت لمرسي والتصويت لشفيق في مأزق، ولكننا لسنا رهائن لأحد..
>
> سنخون ٢٥ يناير ودماء شهدائه لو منحنا أصواتنا لمن حاولوا اختطاف الثورة بالأمس أو لمن ينتوون اغتيالها غدا.. لن نضع أيدينا في أيديهم.. لا نريد منهم مناصب، ولا نتوسل مكاسب..
>
> لدينا من الإيمان والصلابة والصبر مايكفي ويفيض لنشكل تيارا ثالثا يقود مصر في الانتخابات القادمة..
>
> لن يطول بنا الانتظار أربع سنوات.. سيتفجر السخط الشعبي غدا أو بعد غد أيا ما كان الفائز هذه المرة..
>
> سنقاطع بالملايين جولة الإعادة.. لن نسلم بلادنا إلى قوى الماضي؛ لأننا نمثل المستقبل..».

بدأ تأسيس التيار الثالث في ذلك الوقت، وقاطعنا المرشحين الاثنين.. لم يدعُني شفيق إلى أي من مؤتمراته الانتخابية، أما مرسي فدعاني إلى مؤتمرين؛ كان آخرهما ذلك الذي عقده قبل الجولة الثانية بأيام للقاء بالإعلاميين في فندق في مدينة الإنتاج الإعلامي، ولم أذهب إلى أي من المؤتمرين.. ارتأت قوى التيار الثالث، أي القوى المدنية، في ذلك الوقت أن تطرح ما سمته «وثيقة عهد» على كل من مرسي وشفيق

لتأخذ منهما تعهدا لضمان دولة مدنية إذا ما فاز أحدهما في الجولة الثانية، لكن كلا منهما قابل الوثيقة بالصمت.. كانت الوثيقة تتضمن ٢٢ بندا في مقدمتها احترام الحريات العامة وحقوق الإنسان وتداول السلطة، وتشكيل حكومة ائتلاف وطني ترأسها شخصية وطنية، والتزام الرئيس القادم بتحقيق العدالة الاجتماعية وتمكين الفئات الضعيفة، وتشكيل اللجنة التأسيسية للدستور على نحو متوازن..

أجريت الجولة الثانية للانتخابات الرئاسية يومي ١٦ و ١٧ يونيو، وفي مساء يوم ٢١ كنت في اجتماع للتيار الثالث لتدارس نتائج الانتخابات في فندق «جراند حياة» في جاردن سيتي.. قرب نهاية الاجتماع جاءتني مكالمة من د. محمد البلتاجي يدعوني فيها للاجتماع مع مرسي لمناقشة الموقف بعد الجولة الثانية، ولم تكن نتيجة الجولة قد ظهرت بعد، وقال إنه وجه الدعوة إلى بعض الحاضرين في اجتماعنا أيضا.. أخذت أفكر في الأمر، وقلت إنه ربما تكون «وثيقة العهد» قد سقطت لأن القوى الوطنية لم تذهب إلى لقاء المرشحيْن أو لأن المرشحيْن لم يذهبا للقائها، فما الضير في أن نلتقي بمرسي لنأخذ منه تعهدا على المبادئ الأساسية التي وردت في الوثيقة؟ بعد ساعات قد يصبح الرجل رئيسا للبلد.. إذا نجحنا في الاتفاق معه كان هذا مكسبا للقوى الثورية ولمصر في النهاية، وإذا فشلنا فسوف تنصب اللعنات على رؤوسنا وحدنا.. كنت ميالا إلى خوض المغامرة، وكنت أعرف أنها مخاطرة؛ لذلك فضلت أن أتشاور مع عبد الجليل مصطفى وحسن نافعة اللذيْن كانا يشاركان في اجتماع «جراند حياة» أيضا، ولكنه عندما جلست مع النائب مصطفى الجندي والمخرج خالد يوسف وجورج إسحق لنتحدث في موضوع آخر لم أجد أيا منهما..

ذهبت إلى فندق «فيرمونت مصر الجديدة» الذي كان مقررا الاجتماع مع مرسي فيه، وقدرت أنه ربما يذهب آخرون أيضا.. وفي الطريق دارت في ذهني كل مواقف الإخوان السابقة معنا، ورن في أذني ما قلته للأعزاء هالة سرحان ومنى الشاذلي وعمرو الليثي ومحمود سعد في حواراتي معهم عن مقاطعة الانتخابات.. قلت وقتها إن «الإخوان المسلمين ليس لهم عهد».. مع ذلك كنت أعلم جيدا أن البلد على فوهة بركان، والأوضاع يمكن أن تتفجر في أي لحظة، والبعض يتنبأ بأنها الحرب الأهلية لا مفر، وآخرين بلغ بهم الهم حد التأكيد بأن سيناريو الجزائر على وشك أن يتكرر

بعشرات الألوف التي سالت دماؤها على مدى عشر سنوات وأكثر.. لم ينكر أحد وقتها أن الموقف ينذر بكل الاحتمالات، وأن الأطراف كلها متربصة، وأن الاحتقان بلغ أشده بعد الاستقطاب الحاد الذي خلفته جولة الانتخابات الرئاسية الثانية..

كثيرون تحركوا في ذلك الحين، أو حاولوا التحرك؛ لتفادي الكارثة.. لكن موقف المجلس العسكري كان وقتها غامضا تماما.. كل ما كنا نعلمه أنه على صلة مستمرة مع الفريق شفيق، لكنه كان قد فتح قناة للاتصال مع الإخوان أيضا من خلال الدعوة السلفية وحزب النور.. كان السلفيون يطبخون شيئا مع المجلس العسكري في تلك الأيام السابقة على الجولة الثانية للانتخابات، لكن هذه الطبخة لم تنكشف سوى بعد الانتخابات بشهور، عندما صرح الشيخ ياسر برهامي في نوفمبر ٢٠١٣ أن المجلس كانت لديه مخاوف من سيطرة الإخوان على الحكم إذا فاز مرشحهم في الانتخابات، فاتفق مع السلفيين على أن يطلبوا من الإخوان تقديم مبادرة تتضمن توجيه رسالة تطمين قوية لجميع مؤسسات الدولة وجميع أطيافها، والحرص على دعم الدولة الحديثة، وتقديم تعهدات من قبل الرئيس القادم تضمن تحقيق الاستقرار داخل الوطن، وعدم تصفية مؤسسات الدولة بدعوى مواجهة الفساد، ولكن من خلال إعادة هيكلتها بشكل تدريجي يضمن استقرار كيان هذه المؤسسات (الشرطة، القضاء، المخابرات، المحافظين، والمحليات)، وإعادة النظر في تشكيل الجمعية التأسيسية لكتابة الدستور، إلخ..

لو كان المجلس العسكري قد أفصح عن نواياه عندئذ، أو كان حزب النور قد اتصل بالقوى المدنية لكانوا قد شكلوا قوة ضاغطة لا يمكن بحال تجاهلها، خاصة أن عددا من القيادات السياسية البارزة كان قد أعلن عن مبادراته.. الدكتور البرادعي أعلن أنه يسعى لفتح حوار بين مختلف القوى السياسية للتوافق على صيغة تعبر بها مصر تلك المرحلة الشائكة.. المهندس حسب الله الكفراوي دعا عمرو موسى ومرشد الإخوان السابق مهدي عاكف لبدء وساطة للتوصل إلى حل لتهدئة التوتر المتصاعد في الشارع.. حمدين صباحي حذر من الاندفاع إلى مواجهة غير محسوبة وأعلن عن مبادرة لتشكيل فريق يمثل جميع الاتجاهات بقيادة الرئيس المنتخب، وحكومة وطنية برئاسة البرادعي.. معظم الوجوه السياسية حاولت جهدها للحفاظ على البلد..

هذا هو الطريق الذي اخترته أنا الآخر وسط رجال ونساء من الأوفياء لمصر ولمبادئهم، وشباب تسابقوا للشهادة في ٢٥ يناير فداء لهذا الشعب.. كنا نستهدف توجيه بوصلة الثورة إلى المسار الصحيح، وتحقيق الممكن العاجل من أهدافها، والحفاظ على ثوبها الأبيض نقيا من الدم.. الاختلاف الوحيد بيننا وبين آخرين كان أننا ذهبنا مباشرة إلى الإخوان المسلمين الذين تتركز المخاوف من احتمال لجوئهم إلى العنف إذا ما فاز شفيق، وأننا ذهبنا إليهم في العلن، وأننا ذهبنا إليهم بسرعة.. هكذا قررت أن المغامرة تستحق، خاصة أن ضررها يقع عليَّ وحدي، ولم أزعم أنني أمثل أحدا.. مضيت في طريقي إلى «فيرمونت»..

عندما دخلت قاعة الاجتماع وجدت عبد الغفار شكر هناك، ثم دخل عبد الجليل مصطفى وبعده حسن نافعة وسكينة فؤاد وعبد الخالق فاروق الذين كانوا في اجتماع التيار الثالث أيضا.. وشارك في الاجتماع كذلك د. عمار علي حسن ود. محمد السعيد إدريس ود. هبة رؤوف والنائب سعد عبود ود. رباب المهدي وأيمن الصياد ووائل قنديل ومحمد الصاوي ود. سيف عبد الفتاح، أما شباب الثورة فكان هناك منهم وائل غنيم وشادي الغزالي حرب ووائل خليل ومحمد القصاص وإسلام لطفي وطارق الخولي وأحمد إمام ومصطفى شوقي وأحمد ماهر.. علاء الأسواني جاء متأخرا، وقال ما عنده في دقائق، ثم غادر لارتباطات أخرى ولم يحضر ثانية..

يعرف الحاضرون أنه أتيح لي أن أكون أول من تحدث في الاجتماع، وأنني كررت مخاوفي مما إذا كان الإخوان المسلمون يحشدون الناس في العلن لرفض قرارات المجلس العسكري وإعلاناته الدستورية في الوقت الذي يجرون فيه الاتصالات كعادتهم مع المجلس في الخفاء.. وأعاد الكل على مسامع الدكتور مرسي كل مايزعجهم بلا تزويق ولا مجاملة.. بعدها انتقلنا إلى صلب ما ذهبنا من أجله.. يا د. مرسي، إذا شاءت لجنة الانتخابات الرئاسية أن تكون الرئاسة لشفيق فنحن هنا معكم لكي نحول دون أن ينزلق البلد إلى شفا هاوية، وإذا كانت الرئاسة من نصيبكم فلن يمكنكم البقاء في الحكم بتأييد الإخوان وحدهم.. الشعب له مطالب عليكم أن تلبوها، إن تعهدتهم بتلبيتها أمام الشعب فسنساندكم، بل ونصطف معكم في جبهة واحدة، وإن حدتم عنها كان هذا فراقا بيننا وبينكم.. طال النقاش بيننا حتى الرابعة فجرا..

في مؤتمرنا الصحفي الشهير يوم الجمعة ٢٢ يونيو، أي قبل إعلان النتيجة بعدة أيام، كررنا نحن ثباتنا على موقفنا، وقلت في كلمتي إننا نرفض الهيمنة باسم الدين أو الاستبداد باسم العسكر وإننا نتسامح فيما مضى من أخطاء، وتعهد محمد مرسي بما تعهد به أمام الناس جميعا.. دولة ديموقراطية مدنية.. كفالة الحريات.. ضمان حقوق المواطنة.. نواب رئيس من الأقباط والشباب والنساء مسئولون عن ملفات محددة.. رئيس حكومة مستقل.. حكومة غالبية وزرائها من غير الإخوان.. جمعية تأسيسية للدستور تمثل أطياف الشعب.. هو الذي تعهد بنفسه، وكنا نحن الشهود.. أظن أن أحدا لم يتوقع منا أن نسوق الرئيس المحتمل إلى الشهر العقاري ليسجل لنا تعهدا ممهورا بختم النسر.. إذا تولى الرجل الحكم وأوفى بتعهداته، فأنعم وأكرم، وسنكون إلى جانبه في جبهة واحدة.. وإذا نكص عن وعده فحسابه مع الشعب، ولا مكان لنا إلى جانبه..

فعلت ورفاقي الشرفاء ما يرضي ضمائرنا وما أملاه علينا واجبنا تجاه الوطن، وقلنا إنه لا بأس من أن ندفع الثمن أياما، نرجو ألا تطول، نقدا من هنا أو سبابا من هناك.. بعدها تتضح الحقائق.. يسفر جهدنا مع جهد غيرنا عن إنقاذ البلد من مصير بائس إذا ما خسر مرسي، أو نوجهها معا إلى المسار الصحيح لتحقيق أهداف الثورة إذا ما فاز، ذلك هو الأمل.. ألا نوفق في تحقيق ما أردناه، لا بأس.. يجازينا الله والناس بقدر إخلاصنا..

رفاقنا في الثورة الذين يعرفوننا، أو يعرفون معظمنا، تفهموا موقفنا، وعلى الرغم من أن عديدين منهم كانوا رافضين لمبادرتنا فإن أحدا منهم لم يهاجمنا في السر ولا في العلن.. بعضهم انتقدنا بشدة، والبعض اتصلوا بي معاتبين، وآخرون تمنوا أن يوفي مرسي بتعهداته لنا.. لكننا تعرضنا من بعض الكتاب الصحفيين لسيل من التنديد لم يخلُ في أحيان من التجريح، نلت منه القدر الأكبر لأنني كنت في الواجهة، وراح عدد منهم يصفونني بـ «الممثل الذي يبحث عن دور» أو بالسعي إلى منصب تحت جناح الإخوان.. وعندما أعلن فوز مرسي بعد ذلك بيومين خرجت عدة صحف تشيع أنني مرشح لوزارة الإعلام أو لمنصب هام في الرئاسة، على الرغم من أنني كررت أكثر من مرة لأكثر من صحيفة أنني أطالب بإلغاء وزارة الإعلام، وأنني أرفض منصب

الوزير الذي لم يعرض عليَّ أصلا، وأنني قررت ألَّا أقبل أي منصب رسمي مهما كان المنصب، مفضلا البقاء في صفوف الجماهير الثائرة..

في اليوم التالي لما سمته الصحافة «إعلان فيرمونت» شُكلت من المجتمعين جبهة سمت نفسها «الجبهة الوطنية لاستكمال الثورة» ضمت أيضا عددا محدودا من قيادات الإخوان، كان من أنشطهم البلتاجي وخالد حنفي (أمين حزب الحرية والعدالة في القاهرة فيما بعد)، وعلى الرغم من أنني لم أحضر الاجتماع التأسيسي للجبهة فقد اختارتني منسقا للجنتها الإعلامية، لكنني لم أتولَ فعليا هذه المسئولية.. وعندما استقبل مرسي الجبهة في قصر الاتحادية في ٢٧ يونيو لم أحضر كذلك.. كنت قد قررت الاختفاء قدر الإمكان عن عيون آلات التصوير حتى أتفادى اللغو الذي دار في وسائل الإعلام حول اختياري لمناصب هنا وهناك، وكذلك حتى أتثبت من أن مرسي بدأ يوفي بعهوده، أو أن هناك على الأقل إشارات جادة أنه في الطريق إلى ذلك.. ربما أخطأت بهذا الاختفاء، وربما كان الأجدر بي عندئذ أن أكون حاضرا في المشهد لكي أضمن قيام آلية تتابع بدقة خطوات تنفيذ «اتفاق فيرمونت»، لكنني كنت أظن وقتها أن «الجبهة» هي التي ستقوم بهذه المهمة..

حضرت اجتماعين للجبهة، علمت منهما أن الدكتور سيف عبد الفتاح اختير منسقا لها، وأن الجبهة أخذت في إرسال ترشيحاتها للمناصب الكبرى إلى الرئيس، وأن أعضاءها اتفقوا على ألَّا يتولوا أي مناصب في الإدارة الجديدة للدولة، وإن كان الاستثناء الوحيد لهذا القرار هو ترشيح د. عبد الجليل مصطفى رئيسا للوزراء (رفض د. عبد الجليل الترشيح كعادته في الاعتذار عن أي منصب تنفيذي منذ قيام الثورة).. وعلمت أيضا أن كل الاقتراحات التي تعرض على الرئيس لا تجد صدى، وأن البلتاجي لا يحضر الاجتماعات إلا إذا كان الإخوان يحتاجون من الجبهة أمرا أو آخر، تماما كما كانوا يفعلون أيام الجبهة الوطنية للتغيير.. لكنني لاحظت من النقاش أيضا أن الدكتور عبد الفتاح يضغط حتى لا يوضع قيد على تولي الأعضاء أي منصب..

في يوم ١٤ يوليو بدأ الرئيس مقابلاته التي سميت «مشاورات حول المشهد السياسي الراهن» باجتماعين؛ كان أولهما مع السفير محمد رفاعة الطهطاوي الذي سمي فيما

بعد رئيسا للديوان، والثاني معي.. وأنا ذاهب إليه كنت على يقين أنه سيعرض عليَّ وزارة الإعلام، وكنت مستعدا للرد.. كانت هذه هي المرة الأولى التي ألقاه فيها بعد «فيرمونت»، وكان اللقاء في قصر الاتحادية.. كان انطباعي عنه بعد اجتماعنا المضني في «فيرمونت» أنه رجل طيب على الرغم من أنه كان يحاول الإفلات من الالتزام ببند أو آخر من بنود الاتفاق.. بادرني الرجل بترحيب دافئ، وعندما جلسنا دخل في الموضوع مباشرة: «كيف ترى الأوضاع؟».. قلت: «يا سيادة الرئيس، كيف لي أن أدلي برأي صائب وأنا لا أعرف بدقة ما يدور حولك في الكواليس؟».. تحدثت عن الوضع بقدر ما فهمته، وفصلت بعض الشيء فيما تداولته جبهتنا في اجتماعاتها، وفي أننا نبعث برؤيتنا بانتظام إلى الرئاسة، لكن ما رجوناه من تشاور يبدو وكأنه اتصال من جانب واحد.. بدا على الرئيس الانزعاج، وطلب من الدكتور ياسر علي، الذي كان حاضرا الجلسة، أن يذكِّره بالأمر فيما بعد..

أضفت: «موضوع إعادة تشكيل الجمعية التأسيسية للدستور بحيث تكون أكثر توازنا لم يحدث فيه أي تطور، وممثلو الحرية والعدالة في الجمعية لم ينبس واحد منهم بكلمة تشير إلى ما اتفقنا عليه».. قال الرئيس: «سنعمل على ذلك»، وأتبع بكلمات امتنان وهو يتذكر الليلة التي توصلنا فيها إلى الاتفاق في «فيرمونت».. سألت: «وهل تسمح لك القوى التي خلف الستار بتنفيذه؟».. بدأ الدكتور مرسى حديثا مستفيضا فهمت من مجمله أن الرجل مدرك لتعقيدات الموقف، وأنه لايزال يتحسس أقدامه في حقل الألغام الشائك، ولكنه على استعداد لمغامرة محسوبة.. كلمني أحيانا بالرمز، وكثيرا بصريح العبارة عن علاقاته المتشابكة مع المجلس العسكري «الذي يحتاج إليَّ وأحتاج إليه»، ومع القضاء، ومع الإعلام، وحتى مع الشرطة.. كان يرى أن علاقته بالشرطة سوف تسوى، خاصة بعد الاجتماعات المتتالية التي عقدها مع رجالها، لكنه عندما تحدث عن الإعلام كانت كلماته تنطق بخيبة أمل واضحة.. قلت: «نحن الإعلاميين نشكو أيضا، لكن الكل مع ذلك مؤمن بأمرين أساسيين: ضمانات الحرية، واستقلال الإعلام الرسمي عن الحكومة».. قال الرئيس: «وأنا الآخر، وأؤكد لك أنه لا يمكن أن تحدث مذبحة للإعلام في عهدي»..

انتقل بنا الحديث من بعد إلى التعرض بإيجاز لأوضاع المؤسسات الإعلامية.. قلت إنني معترض منذ زمن على وجود وزارة للإعلام، واقتراحي أن تكون للإعلام وزارة دولة لنعطي إشارة إلى أنه ليس في نيتنا الإبقاء عليها إلا لمهمة قصيرة محددة هي إعادة هيكلة أجهزة الإعلام.. عندما طرحت بعض الأسماء المرشحة للوزارة، أدركت من تعليقه أن المجلس العسكري قد تكون له كلمته في الاختيار، وربما لوزارات السيادة جميعا..

عاد بنا الحديث إلى الوضع العام.. قلت: «ربما تندهش يا سيادة الرئيس إذا ما اقترحت عليك التهدئة مع المجلس العسكري لبعض الوقت.. نعم، نحن لا نقبل دولة برأسين، لكننى مع ذلك، أرى التريث قليلا، وأذهب في القول إلى حد مطالبتك بألا تصغي لفترة إلى صياح الميادين حتى لو تصدرتها أصوات الإخوان.. الناس تود أن تلتقط أنفاسها وتنعم باستقرار يتيح للاقتصاد أن ينتعش بعد الاستقطاب الحاد الذي خلَّفته الانتخابات الرئاسية، لكن واجبك الأخلاقي العاجل هو العفو عن المعتقلين والمحاكمين عسكريا، وغير ذلك مقدور عليه».. قاطعني الرئيس: «وهذا سيبدأ مع رمضان، وربما قبله».. استطردت: «وعندما تضطر إلى حسم الأمور الأخرى فيجب أن تُحسم في حزمة واحدة، وأن يتم ذلك بعد تشكيل حكومة وطنية قوية تساندك في مواجهة التبعات».. كنت أقصد العلاقة مع المجلس العسكري، ولكنني أوجزت، خاصة وأنني لاحظت أن مرسي يتكلم بحساب خشية آلات التنصت كما كنت أتصور..

أكد الدكتور مرسي أن الحكومة ستتم تسمية رئيسها خلال أيام، وأن اختيار الوزراء متروك لرئيس الحكومة، وإن كان هو معنيا بالأمر بالطبع.. شجعني هذا على تذكيره بكفاءات مرموقة، خاصة ممن يمكن أن تسقط أسماؤهم من الذاكرة بسبب إقامتهم في الخارج، مثل الدكتور هاني عازر الذي صمم وأشرف على إنشاء محطة سكك حديد برلين، وهي أكبر محطات قطارات في أوروبا، وحصلت على جائزة أفضل محطة في العالم.. توقفت أيضا عند اسم الدكتور البرادعي، وقلت إنه إن كانت هناك عوامل في رأيي تحول دون توليه منصبا دائما، فمن الممكن مع ذلك أن يكون ممثلا شخصيا لك في بعض المهام الدولية، وتوقفت أكثر عند اسم عمرو موسى، وقلت:

«ليته يكون قريبا منك في موقع يليق به، وليته يقبل».. امتدح الدكتور مرسي بحرارة موقف موسى بعد خسارته الانتخابات، وقال إنه رجل دولة بحق..

قلت أيضا: «إن كان لي من ملاحظة أخيرة، وهي حول وزارة الخارجية، فالوزارة حسبما أعلم ليست راضية تماما عن بعض الأسماء المرشحة لها، واعذرني أنني لا أنوي الخوض في الأسماء، ومع ذلك فمن الضروري أن يكون وزير الخارجية من أبناء الوزارة، وأن تتولى الوزارة مسئوليات السياسة الخارجية كافة».. أكد الرئيس ذلك، وقال إن ما يسري على الجيش والشرطة يسري على الخارجية تماما، ومع ذلك فإنه لو كان أمر الحكومة يحتل لديه المقام الأول، فإن الذي يعنيه أيضا وبالقدر نفسه من الأهمية، أمران آخران: أولهما التشاور مع القوى الوطنية حول الأوضاع الراهنة، وثانيهما الشفافية مع الشعب..

عندما نشرت في «المصري اليوم» مقالي عن اللقاء مع مرسي، قلت في نهايته: «لو كنت قد نشرت هذا المقال قبل أسبوع لكنت أكثر تفاؤلا، لكن القلق يساورني مع مضي الأيام.. مؤشر الثقة يهبط لدى الرأي العام، والقوى السياسية في معظمها غارقة في المناطحة والمناكفة، والصمت يلف القصر الجمهوري بلا سبب مفهوم!»..

كان هذا الصمت يقلقنا كثيرا في الجبهة مما دعانا إلى إصدار تصريح صحفي طالبنا فيه الرئيس بتنفيذ تعهداته قبل رمضان، أي في خلال الأسبوعين التاليين.. وفي يوم ٢٨ يوليو، وبعد أن كلف هشام قنديل بتشكيل الحكومة، اضطررنا للخروج إلى العلن، فعقدنا مؤتمرا صحفيا في ساقية الصاوي، أعلنا فيه استياءنا خاصة من تكليف رئيس حكومة يفتقر إلى المعايير التي تم الاتفاق عليها، ومن الغموض الذي يلف قصر الرئاسة فيما يتعلق بتشكيل الفريق الرئاسي.. استأنا كذلك من غياب الشفافية بين الرئيس والشعب، ومن انعدام التشاور مع الجبهة، ومن تجاهل تعديل تشكيل اللجنة التأسيسية للدستور، وطالبنا الرئيس بتصحيح المسار، أي إننا عدنا مرة أخرى ننادي بما نادينا به قبل شهر في اجتماعنا في «فيرمونت»..

بعد أن شكل هشام قنديل وزارته، أصيب معظمنا بخيبة أمل كبرى مرة أخرى، فاجتمعت الجبهة، وتركت الاجتماع قبل أن تنتهي صياغة البيان الذي كان من

المنتظر إصداره، وذلك لأكتب مقالي الأسبوعي في موعده المحدد.. نشر المقال في ٦ أغسطس، أي بعد تولي مرسي الحكم بخمسة أسابيع.. كان عنوانه «أنعي إليكم الشراكة مع الرئاسة».. وجاء ضمن ما جاء فيه..

«إن لم يكن قد بلغ الرئيس صدى تشكيل حكومة قنديل، فقد بلغنا نحن.. بلغنا في انتقادات حادة حمَّلتنا كشركاء مسئولية الاختيار، ومسئولية خداع الرأي العام الذي أوحينا إليه باتفاقنا مع الدكتور مرسي أن الأمور ستسير على نحو أفضل.. بل إن البعض أمعن في التهجم علينا حتى اتهمنا زورا بأننا اختلفنا مع الرئيس لأننا لم نوعد بمناصب وزارية، في حين أننا أعلنا أننا لن نتولى أي مسئوليات رسمية، ونفى بعضنا شائعات حول تولي وزارات بعينها، وقمنا بترشيح آخرين ينتمون لقوى سياسية مختلفة..

«اليوم، بعد تشكيل الحكومة على النحو الذي شكلت به، وبعد النكوص عن التعهدات التي أعلنت ضمن اتفاق الشراكة في «فيرمونت»، فإننا لا نستطيع تحمل مسئولية هذه الشراكة، بل إنها في واقع الامر لم تعد قائمة، على نحو ما يتضح من بيان الجبهة المقرر أن يكون قد أعلن أمس.. حرصنا في مسودة هذا البيان، تماما كما حرصنا في مؤتمرنا الصحفي الأخير، على أن نوضح أننا لا ننقلب على الرئيس، ولكننا سنتعامل مع الرئاسة كمواطنين لهم حقهم في الانتقاد والنصح، وعليهم واجب في تقديم العون إذا ما دعت الحاجة»..

إلا أن ما فاجأني بعد أن نشر المقال أن بعض أعضاء الجبهة قبلوا مناصب في الرئاسة، وكانت الأستاذة سكينة فؤاد هي الوحيدة التي استشارتني فقلت إن ذلك خيارها وحدها، وفاجأني أيضا أن بيان الجبهة لم يصدر، بل إن سيف عبد الفتاح نشر مقالا في «الشروق» بعنوان «الشراكة الوطنية أمانة ومسئولية»، وعلى الرغم من أنه قال فيه إن نعيي للشراكة مع الرئاسة نبع من روح وطنية خالصة، فإنه أكد أن الشراكة الوطنية لا تموت ولا تنعى.. على أنه لم تمضِ أيام حتى نشرت «الأهرام» مقالا لعبد الغفار شكر بعنوان «مأزق الجبهة المساندة للرئيس»، قال فيه إن المأزق يتمثل في أن جماعة الإخوان المسلمين هي صاحبة القرار بالنسبة إلى الرئيس، وإن أعضاء الجبهة سيكتشفون عاجلا أو آجلا أنهم مطالبون بالعودة إلى صفوف القوى الثورية..

أما أنا فآثرت التريث؛ إذ كنت أرجو ألَّا تكون مواقفنا فردية مقصورة على مقال هنا أو تصريح هناك، ولكن أن تصدر الجبهة بكامل أعضائها بيانا تعلن فيه أنها حلت نفسها.. وكان د. محمد السعيد إدريس يتفق معي تماما في هذا الموقف..

في خلال ذلك حضرت اجتماعين من تلك الاجتماعات التي كان مرسي يعقدها مع الشخصيات السياسية والثقافية، اكتشفت بعدهما أن هدف هذه الاجتماعات هو الفضفضة ونشر الصور.. وعلى الرغم من أنه كان يبدو كما لو كان ينصت لمن يتكلم باهتمام بالغ ويكتب ملاحظاته كطالب مجتهد، فإنني لاحظت أنه كان منتشيا بكرسيه في الصدارة، تماما كطفل حصل على لعبة جديدة لم يحصل عليها أي من رفاقه، ولاحظت كذلك أنه أكثر حرصا على أن يؤم المجتمعين في صلاة العصر بعد كل اجتماع من حرصه على تنفيذ اقتراحاتهم، وهكذا اعتذرت عن الاجتماع الثالث، وأبلغت أمين الرئاسة أن هذه الاجتماعات بلا جدول أعمال وأنه لا جدوى منها..

بدأت في الوقت نفسه أدلي بتصريحات أو أكتب في «تويتر» عبارات أكثر حدة، مثل «يصعب الثقة في أن مرسي سيكون حاكما ديموقراطيا».. «الرئيس أعلن عن أرقام لم يلمسها المصريون».. «ما يفعله الإخوان لم يجرؤ عليه حزب مبارك».. «يا دكتور مرسي وضح لنا علاقتك بصديقك العظيم بيريز».. إلى أن جاءت مظاهرات «جمعة الحساب» في ميدان التحرير يوم ١٢ أكتوبر، وهي التي خرجت فيها القوى المدنية تحاسب الرئيس على وعود مائة اليوم، وتعترض على سياسات الحكم خاصة فيما يتعلق بوضع الدستور، وزاد من الاحتقان يومها مهرجان البراءة لكل المتهمين في موقعة الجمل.. فجأة اقتحم الإخوان الميدان، واعتدوا على المتظاهرين من القوى الثورية، وحطموا المنصة، فطالبت الإخوان بالانسحاب على الفور من التحرير، ثم كتبت «ننتظر اعتذار الإخوان عن حماقة يوم الجمعة.. ننتظر بلا أمل»..

دعوت أعضاء الجبهة بعدها بأيام على عشاء في مطعم «القاهرة٤٠» في الزمالك فحضر معظمهم، ولم يحضر من الجماعة إلا النائب السابق خالد حنفي، وقلت يومها إنني أردت أن يكون لقاؤنا هذا وديا لأنني على يقين أنه سيكون العشاء الأخير، وقلت أيضا إن الجبهة ليس لها أي ثقل في المعترك السياسي، وأخذت أعدد ما آلت إليه مطالب «فيرمونت» من ضياع، وأؤكد أننا لم نستطع ولن نستطيع أن نفرض على

الرئيس شيئا.. في النهاية قلت إنه لا يمكن لي أن أواصل الانتساب إلى الجبهة إلا لو اعتذر الإخوان المسلمون عن أحداث جمعة الحساب، فوعد خالد حنفي بطرح الأمر على قيادتهم، ولكنني كنت أعرف النتيجة مسبقا.. هكذا انفض لقاؤنا والكل مدرك أننا لن نلتقي ثانية في إطار جبهة تأكدنا أنها مجرد وهم، ولم نلتقِ بالفعل، ونشرت مقالا في المصري اليوم في ٢٢ أكتوبر كان عنوانه «أعلن اعتذاري عن مساندة الرئيس»..

في ذلك الوقت دعا حمدين صباحي إلى مؤتمر جماهيري كبير في ميدان عابدين يعلن فيه تأسيس «التيار الشعبي».. ألقيت كلمة في المؤتمر دعوت فيها أعضاء التيار للعمل على حصد أغلبية في البرلمان القادم تمكننا من الحفاظ على الهوية المصرية وبناء دولة المواطنة والحداثة، وقوبلت الكلمة بحماس من الآلاف التي شاركت في المؤتمر، إلا أنه عند خروجي من السرادق التفت لي واحد من الشباب الذين ينظمون المؤتمر صائحا: «وكانت فين دولة الحداثة دي لما رحت لمرسي؟».. لم يكن هناك مجال وسط تدافع الجمهور كي أقول شيئا.. وعندما اتجهت لسيارتي التي لم تكن تبعد أكثر من مائة متر استوقفني في الطريق عدة مرات عدد من الشباب أرادوا أن يناقشوا إعلان «فيرمونت»، وكان أحدهم يتكلم بطريقة فظة في حين كان الآخرون غاضبين تماما، حتى إن السفير ياسر مراد الذي كان يصحبني انفعل لأنهم تحدثوا إلى خاله على هذا النحو.. كانت هذه أول مرة أظهر فيها بين الجماهير، وكانت تجربة مريرة ترددت بعدها في الذهاب إلى ميدان التحرير أكثر من مرة..

تجربتي الأخيرة مع الميدان لم تكن هي الأخرى تجربة سارة.. كان ذلك قبل الانتخابات الرئاسية بشهور، وكان عدد من شباب الثورة المخلصين الذين يمثلون تيارات مختلفة والذين نعرفهم عن قرب (كان بينهم على ما أذكر تقادم الخطيب ومحمد رؤوف غنيم) قد أتوا إلى اجتماع دعا إليه الدكتور عبد الجليل مصطفى في مكتب مؤقت للجمعية الوطنية للتغيير خلف ميدان التحرير، وكان معظم أعضاء مكتب الجمعية حاضرين.. قال الشباب إنهم قادمون إلينا من ميدان التحرير، وإن المعتصمين هناك قد أنهكوا من الاحتكاك بالشرطة والبلطجية والباعة الجائلين، وإن أعدادهم تتناقص باستمرار، وإن غالبيتهم لم تعد ترى في اعتصامهم جدوى، وإنهم يبحثون عن مخرج مشرف.. بعد أن ناقشنا الموضوع انتهينا إلى الاتفاق على عدد من

المطالب نوجهها إلى المجلس العسكري من الميدان، ونطلب من المعتصمين نقل اعتصامهم مؤقتا إلى شارع مجلس الوزراء.. أذكر أنني قلت للشباب يومها لأطمئنهم أن ميدان التحرير سيظل معقلهم، إننا، نحن الأكبر سنا، مستعدون للاعتصام في الميدان بدلا منهم..

لم يكن هناك وقت كافٍ لصياغة بيان، وهكذا توجهت في الصباح إلى الميدان مع الدكتور عبد الجليل الذي كان يحمل في جيبه ورقة صغيرة دَوَّنَ فيها المطالب باختصار.. هناك التقينا بأكثر من عشرين من الزملاء أعضاء اللجنة، وعندما اكتمل جمعنا طلب مني الدكتور عبد الجليل الصعود إلى المنصة لإلقاء البيان.. سردت المطالب (١) صدور إعلان رسمي بقدسية الدم المصري (٢) المحاكمة الناجزة لقتلة الثوار (٣) إنجاز محاكمات مبارك وأركان نظامه (٤) عزل من أفسدوا الحياة السياسية (٥) توقف المسئولين وإعلامهم عن توجيه الإساءات للثورة والثوار (٦) إيقاف المحاكمات العسكرية للمدنيين (٧) الإفراج الفوري عن المعتقلين من شباب الثورة (٨) علاج المصابين وتعويض أسر الشهداء.. بعد أن أعلنت هذه المطالب بدأت أمهد برفق لانتقال الاعتصام، ولكنني قبل أن أكمل جملتي الأولى انقض على المكروفون الذي في يدي واحد من الشباب الذين أدمنوا الوقوف على المنصة، وخطفه بغلظة حتى كدت أفقد توازني، وبدأ في هتاف متشنج: «اعتصام، اعتصام» فردد الألوف الذين تجمعوا في الميدان هتافه.. فشلت الخطة، وأخذنا نتسرب من الميدان..

عندما مررت بالتجربة المُرة الأخرى في مؤتمر التيار الشعبي تضاعف إحباطي، وزاد من الغم أن صحتي أخذت في التدهور، فبالإضافة إلى القصور الكلوي المزمن الذي كنت قد أصبت به منذ سنوات والذي كان يسوء عاما بعد آخر ويؤدي كثيرا إلى تورم قدميَّ، اكتشفت أن لديَّ نقصا في المناعة أدى إلى نوبات متتالية من الأنفلونزا كانت في بعض الأحيان تصيبني مرتين في أسبوع واحد، واستمر الحال على هذا النحو حتى الآن.. حرمني ذلك كله من المشاركة في العمل العام كما اعتدت من قبل، وزهدت الظهور في برامج التلفزيون على الرغم مما سببه لي هذا من حرج مع أصدقائي مقدمي البرامج..

ثم جاءت نكبتي في مرسي وعهوده، التي انتهت بأنني أعلنت لمن وثق بي يوم إعلان «فيرمونت» اعتذاري عن مساندة الرئيس.. جاء هذا الاعتذار بعد أربعة

أشهر تماما، نالني خلالها ما نالني من أذى من كل جانب، من أنصار شفيق، ومن أنصار الإخوان.. أما أنصار الثورة فكانوا عاتبين عليَّ أشد العتب، إذ كيف أذهب إلى الإخوان على الرغم من درايتي بأساليبهم؟ وكان هناك أيضا المغرضون الذين صمموا على أنني أنا الذي دعوتهم لانتخاب مرسي قبل جولة الانتخابات الرئاسية، واستمر هذا الأذى يلاحقني حتى الآن، وخاصة من الكتائب الإلكترونية للإخوان التي أدهشتني سفالة الكثير من رسائلها..

ربما كنت تحت وطأة ضغط نفسي عندما نشرت اعتذاري، لكن الأيام لو عادت بي مرة أخرى إلى تلك اللحظة، بظروفها ذاتها، لما اعتذرت.. لقد حاولت أن أصل إلى تعهد من الإخوان يضمن استقرار البلد وثباته على طبيعته المدنية كما حاول المجلس العسكري، وحاول البرادعي، وحاول السلفيون، وحاول الكفراوي مع عمرو موسى، وحاول صباحي، وحاولت كل القوى السياسية التي طرحت «وثيقة العهد».. لكنني كنت الوحيد الذي اعترفت بالفشل في مسعاه ودفع الثمن غاليا، وكان هذا يكفي، ولم أجد فيه ما يعيب.. العيب أن نستمر في خداع أنفسنا، ومن ثم في خداع الناس.. لم نكن نحن الذين أخطأنا.. مرسي هو الذي أخطأ في حق الشعب؛ ولذلك استحق الجزاء.. أما نحن، فمهما كان تقييم الناس لما فعلناه، ومهما كانت ردود أفعالهم، فلن يثنينا شيء عن مواصلة المسيرة لتحقيق أهداف ثورة ٢٥ يناير التي استكملت في ٣٠ يونيو..

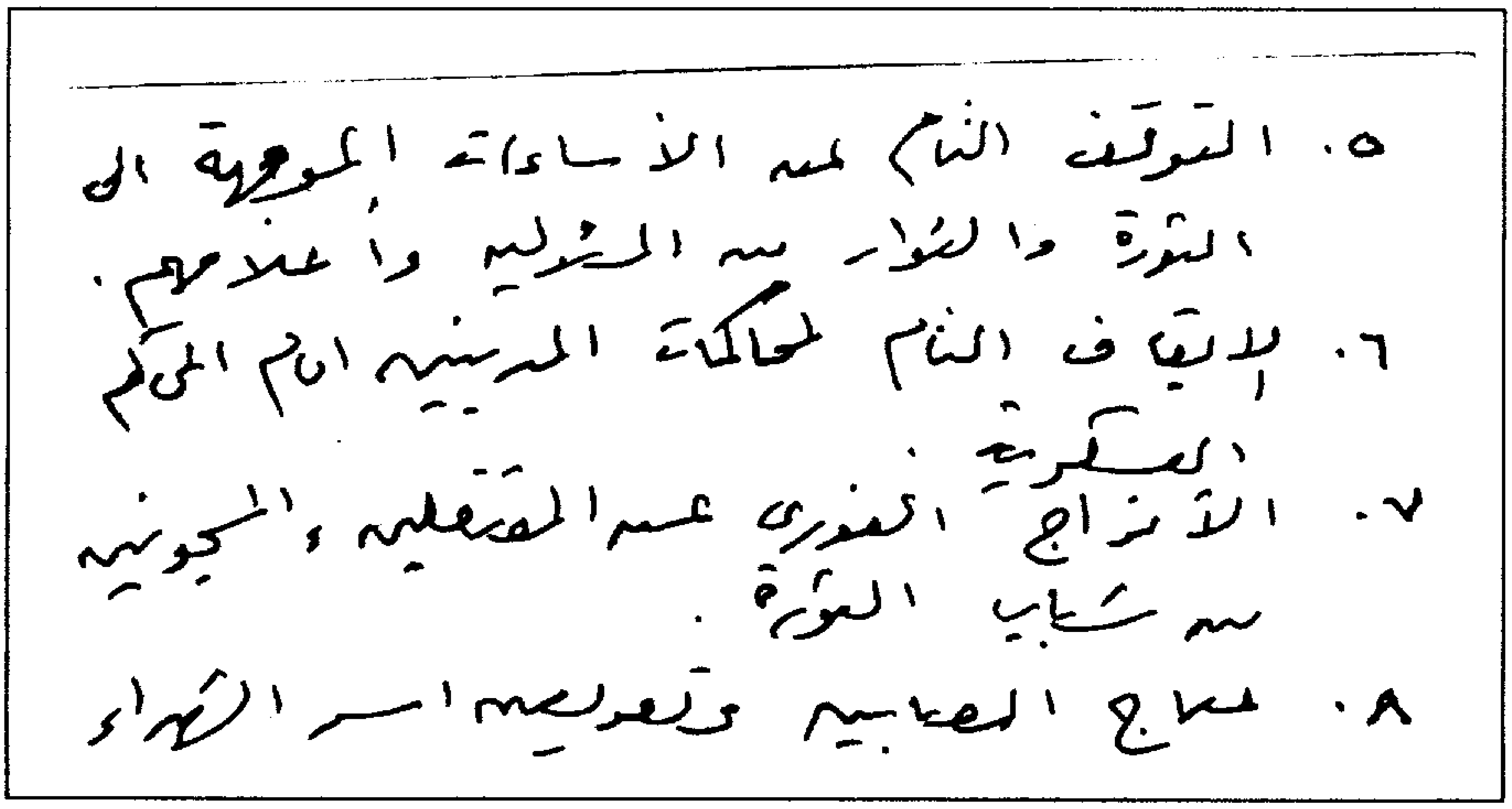
٥. التوقف التام عن الإساءات الموجهة إلى الثورة والثوار من المسئولين والإعلام.
٦. الإيقاف التام لمحاكمات المدنيين أمام المحاكم العسكرية.
٧. الإفراج الفوري عن المعتقلين والمحكومين من شباب الثورة.
٨. علاج المصابين وتعويض أسر الشهداء

مطالب الميدان بخط الدكتور عبد الجليل مصطفى (أظن أنها في يناير ٢٠١٢).

«مرسى» يعرض على «الجبهة الوطنية» ضم «قنديل وعبدالفتاح وخليل» للفريق الرئاسى

كتب - محمد عمارة وأحمد غنيم:

كشفت مصادر داخل الجبهة الوطنية المؤيدة للرئيس محمد مرسى، عن أن مؤسسة الرئاسة عرضت على الإعلامى حمدى قنديل والدكتور سيف عبدالفتاح والكاتبة سكينة فؤاد والناشط وائل خليل، الانضمام للفريق الرئاسى.

وأوضحت لـ«الوطن» أن العرض أحدث تبايناً وانقساماً فى وجهات النظر داخل الجبهة الوطنية ما بين مؤيد ومعارض.

وأضافت «المؤيدون يرون العرض الرئاسى إيجابياً باعتباره يحقق المشاركة الوطنية، ويعظم من دور الجبهة فى المراقبة والمحاسبة، الا

حمدى قنديل

أدوار الجبهة».

وأشارت إلى أن قبول العرض أو

تحدده الجبهة، وكشفت عن وجود اتجاهات لدى البعض داخل الجبهة يلوح بالاعتذار عن استكمال عمله حال استمرار «ضبابية» آليات العمل الداخلية.

بدورها، أبدت الكاتبة سكينة فؤاد، عضو الجبهة، ما قالته المصادر، لكنها أبدت رغبتها فى عدم التحدث فى هذا الأمر حتى انتهاء الاجتماع احتراماً لأعضاء الجبهة ودورها وتماسكها.

وقال وائل قنديل الكاتب الصحفى، إن اجتماعات عقدت خلال الـ٧٢ ساعة السابقة بين أعضاء الجبهة، لبحث الموقف الراهن عقب التشكيل «النهائى» للحكومة، غير المرضى، حسب

الصحف تتحدث عن المناصب التي يعرضها مرسي على أعضاء «الجبهة الوطنية» (أغسطس ٢٠١٢).

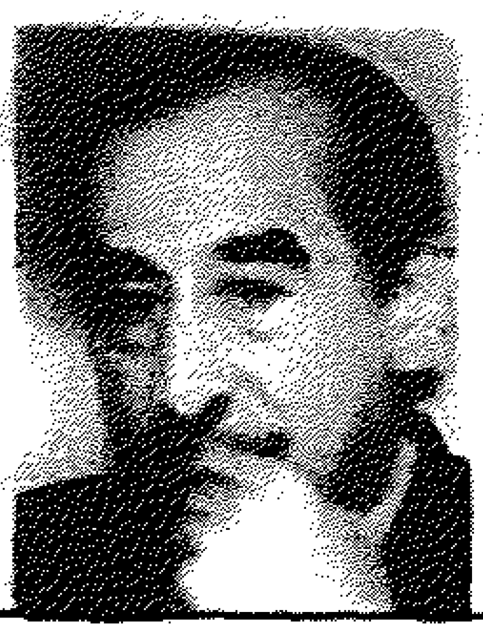

حمدى قنديل

أعلن اعتذارى عن مساندة الرئيس

كانت «جمعة الحساب» حدا فاصلا.. خرجت القوى المدنية يومها إلى ميدان التحرير تحاسب الرئيس على وعود المائة يوم، وتعترض على سياسات الحكم خاصة فيما يتعلق بوضع الدستور، وزاد من الاحتقان مهرجان البراءة لكل المتهمين فى موقعة الجمل.. فجأة نزل الإخوان المسلمون الميدان، فحدثت الاحتكاكات المتوقعة، التى كان من نتائجها تحطيم المنصة، وحدوث

الأمل يراودها - بعد أن أنهى الرئيس الحكم العسكرى يوم ١٢ أغسطس - فى أن يتحرر من القيود ويصحح الأوضاع، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث.. حتى بعد أن عين الرئيس فريق مساعديه ومستشاريه اتضح أنهم بلا مسؤوليات محددة.. جاء بعدها حساب المائة يوم، فلم يستطع الحكم تقديم شهادة مقنعة.. تحرش الحكم بالصحافة مرات، وتعدى على

مقالي «أعلن اعتذاري عن مساندة الرئيس» في صحيفة «المصري اليوم» (أكتوبر ٢٠١٢).

الهيئة الاستشارية تجمد عضويتها فى «التأسيسية»

«قنديل»: الترزية «يسلقون».. و«نافعة»: الجمعية خائفة من «حكم الدستورية»

كتب- محمد غريب وعادل الدرجلى:

قال حمدى قنديل، عضو الهيئة الاستشارية فى الجمعية التأسيسية، إن أعضاء الهيئة قرروا، فى اجتماعهم، مساء أمس، إرسال طلب إلى المستشار حسام الغريانى، رئيس الجمعية التأسيسية، يطالبونه فيه بضم عضوين من الهيئة الاستشارية إلى لجنة الصياغة المصغرة وهما الدكتور ثروت بدوى والدكتور صلاح فضل.

وأضاف «قنديل»، فى تصريحات خاصة لـ«المصرى اليوم» أنهم طالبوا «الغريانى» بأن يكون للعضوين كامل الحقوق داخل الجمعية التأسيسية، بما فيها عملية التصويت، وأوضح

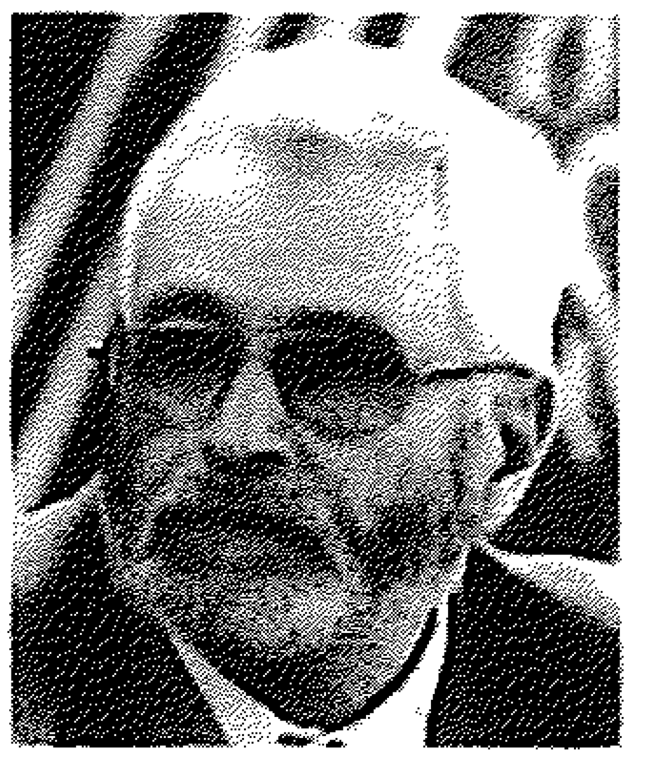

حسام الغريانى

حمدى قنديل

الغريانى، رئيس الجمعية، وعرض عليه جميع هذه النقاط، وفوجئنا ب يشتكى هو الآخر من عمل الجمعـ التأسيسية، وقلنا له: إن الحل م مد عمل الجمعية على الأقل لـ شهرين، لأن ما يحدث الآن ما هو إ عمل ترزية وهواة وسلق للدستور، إ أن رئيس الجمعية يرى أن الأفضـ للبلاد هو خروج الدستور فى أقر وقت لتحقيق الاستقرار فى البلاد.

ولفت «قنديل» إلى أن هناك قو تسعى لسلق الدستور على أساس أ وضع الدستور على أى نحو سيكو أفضل من عدم وجود دستور، وأ أقول لهم إن وضع دستور غير مناسـ سيفجر البلد وأتينا بأزمة كبرى نتيـ

أخبار تجميد الهيئة الاستشارية لعضويتها في اللجنة التأسيسية للدستور (نوفمبر ٢٠١٢).

حمدى قنديل
يكتب:

سيادة الرئيس.. قل لعشيرتك: كفّوا عن الاستكبار

وصلتنى دعوة للقاء الرئيس المقرر أن يعقد بعد ظهر اليوم فى سلسلة لقاءاته مع القوى السياسية والشخصيات العامة ضمن «حوار حول مسودة الدستور».. لعلها المرة الأولى التى توجّه فيها الدعوة لاجتماع كهذا مرفقة بخطاب، وهى المرة الأولى أيضا التى تشير فيها الدعوة إلى جدول أعمال محدد ومفصل، ثم إنها كذلك المرة الأولى التى توجّه فيها على نحو لائق، أى قبل الموعد بأكثر من ٤٨ ساعة.. سبق أن أوضحت عندما استضافنى العزيز يسرى فودة فى برنامجه المرموق «آخر كلام» الخميس الماضى أننى أحترم الرئيس، وأننى سألبى دعوته إلى أى اجتماع إذا استوفت الدعوة هذه الشروط، وإذا ما لم يكن المدعوون ممن من المعادين للثورة.

عندما طلبت من أمين مراسم الرئاسة الذى أبلغنى الدعوة إطلاعى على قائمة

يهدد إصدار الدستور ذاته.. أقول ذلك عن علم بكثير من التفاصيل، بصفتى عضوا فى «المجموعة الفنية الاستشارية» للجمعية، وهى مجموعة شرُفت بالعمل فيها ضمن مجموعة من أقطاب العمل الوطنى، واستطاعت قدر الطاقة أن تنجز جانبًا مهما من مراجعة مسودات الدستور فى فترة وجيزة.. ومع ذلك، فقد فوجئنا قبل العيد مباشرة بموظف كبير فى مجلس الشورى يدخل على اجتماعنا وفى يده ورقة بها سبعة أسماء، يقول لنا إنها ضمت للمجموعة الاستشارية.. لا بأس، خاصة أن القائمة تضم قامات كبارا مثل الأساتذة طارق البشرى وفهمى هويدى والسيد ياسين، ولكن، من الذى قام بضمهم، وهل يفيد ضمهم الآن ونحن فى مراحل عملنا الأخيرة، وهل نعود بمشاركة الأعضاء الجدد لمراجعة ما كنا

١٤ أكتوبر، ثم أتانا أحدهم بمسودة أخرى مؤرخة بتاريخ ٢١ أكتوبر، وبعد أن انتهى العيد، اكتشفنا أن هناك مسودة جديدة بتاريخ ٢٤ أكتوبر تتداولها بعض الأيدى، وفوجئنا بنشرها فى صحيفة «الحرية والعدالة».. حتى يوم السبت، وأنا أكتب هذا المقال، لم يسلم لنا مكتب الجمعية هذا النص، فما بالك إذا كان الارتباك سائدا على هذا النحو داخل الجمعية فكيف يكون الحال خارجها؟

الشعور السائد لدى الكثيرين، وأنا منهم، أن هناك أيادى تحرك أمورا من وراء ستار، وتدفع إلى الانتهاء من وضع الدستور على نحو يرضى الأغلبية الحاكمة بأى ثمن.. حتى فى الجمعية التأسيسية للدستور هناك طرف ثالث ولهو خفى.. الهدف الظاهر هو الالتزام بالمواعيد المقررة، لكن النتيجة الحتمية هى التضحية بسلامة

قنوات التليفزيون، ولذلك فإن حضور واحد مثلى الاجتماع أو غيابه عنه غير ذى قيمة.. فى كل الأحوال لو كنت حاضرا لقلت: أحييك يا سيادة الرئيس على ترتيب هذا الحوار، وكل ما أرجوه ألا يكون الغرض منه - كما قال واحد من مستشاريك - هو تلطيف الأجواء وتهدئة النفوس.. تلطيف الأجواء شىء لطيف، ولكننا نريد فعلا محسوسا.. لا نريد تعهدا آخر منك بالسعى لكى يكون تشكيل الجمعية التأسيسية أكثر توازنا فى تمثيله للوطن.. هذا أمر فات أوانه.. سبق أن تعهدت به أمام الأمة فى ٢٢ يونيو ولكنك لم تف بالوعد.

الآن يبدو أنك ترى أن المخرج الأوفق والأسرع من أزمة الدستور، كما نراه نحن أيضا، هو فى وضع مقترحات لصياغات توافقية.. هذا لن يتم بدعوة كل فريق إلى اجتماع مستقل ليقدم مقترحاته.. الطريق

مقالي «سيادة الرئيس .. قل لعشيرتك : كفوا عن الاستكبار» في صحيفة «المصري اليوم» (نوفمبر ٢٠١٢).

(٢٥)

الفصل الساخر الأخير من الدراما

٢٠١١ - ٢٠١٣

◆ ◆ ◆

قال الرجل إن الوزيرة لم تتلقَ اتصالك ولا رسالتك؛ لأن شاشة تلفونها «بايظة».

◆ ◆ ◆

في نهاية لقائي مع اللواء عبد الفتاح السيسي، أبلغني أن المشير يريد مني أن أظهر في التلفزيون غدا.

كان للإعلام الخاص، بشقيه المطبوع والمرئي، دور أساسي للتمهيد لثورة يناير، وإن بقدر متفاوت.. وفي بلد تنتشر فيه الأمية كما هو الحال في مصر، كان للتلفزيون التأثير الأكبر، على الرغم من أنه كان مقصورا على عدد محدود من البرامج مثل «واحد من الناس» الذي قدم فيه عمرو الليثي مآسي أدمت القلوب، وكذلك بثت بعض القنوات الخاصة تحقيقات عن أحوال البلاد المتردية أثارت الغضب على السلطة.. ولم تنقطع صحف المعارضة عن جلد الحكم بالمقالات الحادة، وكذلك بالأخبار والصور المختارة بعناية، ولا يمكن هنا إغفال دور صحيفة «العربي» التي كانت أول من أثار قضية التوريث وهاجمها بضراوة.. أما الإعلام الرسمي فكان خاضعا خضوعا تاما للحكام، لم يفلت من قبضتهم ـ على نحو أو آخر ـ سوى برامج معدودة مثل برنامج «رئيس التحرير» في التلفزيون، ومقالات حفنة من الكتاب المستقلين في الصحف القومية..

لم تتورع السلطة عن اتخاذ كل ما يمكنها من إجراءات لتكبيل الحريات الإعلامية يوما بعد يوم، حتى بلغ التضييق على حرية التعبير أوجه مع تصاعد الأصوات المعارضة إيذانا بالثورة.. وفي ٢٠٠٩ ـ السنة التي احتلت فيها مصر المركز ١٤٣ في حرية الصحافة من بين ١٧٥ دولة ـ تم استدعاء ألف صحفي إلى النيابة، مَثَلَ نصفهم على الأقل أمام المحاكم.. قائمة هؤلاء الصحفيين ممن صدرت عليهم أحكام بالحبس أو الغرامة أو كليهما، وآخرين ممن اعتقلوا في سنوات سابقة، لا تكفي لنشرها هذه الصفحة.. بين هؤلاء، الأساتذة سلامة أحمد سلامة وجمال فهمي وعمرو ناصف وأحمد عز الدين ومحمد الباز والرسام عصام حنفي وعلاء الغطريفي وعبد الناصر علي ويوسف العومي ومحمد هلال وصلاح بدوي وصابر مشهور وغيرهم وغيرهم، مما دعا ٢٢ صحيفة للاحتجاب عن الصدور يوم ٧ أكتوبر ٢٠٠٧ احتجاجا على استمرار تطبيق عقوبة حبس الصحفيين بالرغم من الوعد الرئاسي بعدم نفاذها، ودعا

المجلس الدولي لحقوق الإنسان مصر إلى الوقف الفوري لمصادرة حرية التعبير في الصحافة والإنترنت..

تعرض مدونو الإنترنت هم الآخرون للحبس والاعتقال، ومن بينهم كريم عامر الذي حكم عليه بالسجن ٤ سنوات بتهمة ازدراء الإسلام وإهانة الرئيس، وحكم على المدون كمال مراد بالسجن ٦ أشهر بتهمة إهانة رجال الضبط، واعتقل عدد من المدونين لفترات متفاوتة.. أما بالنسبة إلى العاملين في حقل الإذاعة والتلفزيون فهناك قضيتان شهيرتان كانتا مجال تعليق واسع في الصحف؛ أولاهما قضية صحفية قناة الجزيرة الأستاذة هويدا طه التي حكم عليها في ٢٠٠٧ بالحبس ٦ أشهر وغرامة ٢٠ ألف جنيه بتهمة الإضرار بالمصالح القومية للبلاد والإساءة إلى سمعتها.. والمثير للسخرية أنه في الذكرى السنوية الأولى للقبض عليها ألقي القبض عليها مرة ثانية، وهي تصور أحد برامجها في إمبابة، على الرغم من حصولها على إذن بالتصوير من الشرطة..

القضية الثانية كانت في ٢٠٠٨ عندما قامت الشرطة باقتحام «شركة القاهرة للأخبار» ومصادرة أجهزتها وتحويل مديرها نادر جوهر إلى المحاكمة، بعد أن قدم اتحاد الإذاعة والتلفزيون التابع لأنس الفقي بلاغا ضده بتهمة استيراد وحيازة معدات تلفزيونية دون ترخيص؛ وذلك إثر تغطية الشركة لمظاهرات المحلة الكبرى عندئذ.. وقد صدرت أحكام براءة في القضيتين في النهاية، إلا أن الرسالة كانت قد وصلت والبهدلة تمت..

الأنكى من الحبس والاعتقال والغرامة كان إهانة الكرامة الإنسانية.. وهنا لا يمكن أن يغفر للحكم حادث الاعتداء الشهير في ١٩٩٥ على الكاتب الكبير جمال بدوي رئيس تحرير جريدة «الوفد» عندئذ، الذي قام نحو ١٠ أشخاص مجهولين بإخراجه من سيارته في شارع صلاح سالم والاعتداء عليه، بعد أن اعترض على القانون ٩٥ الذي غَلَّظَ العقوبة في قضايا النشر، وهو ما تكرر أيضا في العام نفسه مع الأستاذ محمد عبد القدوس، وتكرر مرة أخرى على نحو فظ مع الدكتور عبد الحليم قنديل في عام ٢٠٠٤، حين اختطف من أمام منزله، وقام مجهولون «كالعادة» باقتياده في سيارة معصوب العينين مكمم الفم إلى الصحراء؛ حيث أوسعوه لكما وركلا وتركوه

عاريا بعد أن أبلغوه صراحة أن «يتكلم بأدب ولا يتطاول على الكبار»، وهو ذات ما حدث لمدون الإنترنت محمد الشرقاوي الذي اختطف في ٢٠٠٦، وعذب وجُرِّدَ من ملابسه كاملة..

كل الوقائع السابقة تتعلق فقط بسجن واعتقال وخطف وتغريم الإعلاميين وإيذائهم.. ولكن كبت حرية التعبير في عهد مبارك اتخذ مظاهر أخرى متعددة.. ففيما يتعلق بالتلفزيون كان لأنس الفقي السبق في استصدار وثيقة تنظيم البث الفضائي من الجامعة العربية، وهي الوثيقة التي استهدفت تكميم القنوات الفضائية وبرامجها السياسية خاصة، وبموجب هذه الوثيقة أوقف بث قنوات الحوار والبركة والحكمة وقناة العالم الإيرانية من القمر المصري «نايل سات».. وفي ظل أنس الفقي أيضا مورست صنوف ضغط عديدة على القنوات المصرية الخاصة، تحدث عنها ثلاثة من أصحابها في الصحف في ٢٠١٠ بإبهام مفرط.. ولعل الاتهامات التي أطلقها الوزير عندئذ على هذه القنوات بأنها «تكسر كل القواعد من أجل الانتشار»، وأنها «تتاجر بمعاناة الناس»، وأنها «تختار مادتها من أسوأ الأخبار»، دليل بذاته على الإرهاب الذي كان يمارسه على التلفزيون الخاص.. وفيما يتعلق بالإنترنت فقد أحكمت السلطة الرقابة عليها، وتم حجب عدد من المدونات، ويعرف مرتادو مقاهي الإنترنت كيف أنهم أصبحوا مجبرين على ملء استمارات تحوي بيانات بأسمائهم وعناوينهم وأرقام هواتفهم.. وفي عهد مبارك أيضا تمت مصادرة أعداد من الصحف من بينها «الأهالي» و«الموقف العربي»، ومنع طبع صحف في مصر مثلما حدث مع «الدستور» في ١٩٩٨ عندما كانت تصدر بتصريح من قبرص، وصودرت كتب عديدة بينها كتاب «النبي» لجبران خليل جبران الذي ظل متداولا في مصر لنحو ٧٠ عاما، ولوحق عدد من المبدعين والكتاب بدعاوى حسبة متباينة..

أمام سطوة الحكم على الإعلام الرسمي والخاص، والمخاوف من خضوع الإعلام الخاص لمصالح رأس المال، دعوت منذ نحو أربعين عاما إلى كسر الخناق على الإعلام المطبوع والمرئي بوسيلتين؛ أولاهما إصدار صحف وإطلاق محطات تلفزيونية بالاكتتاب العام، أما الثانية فكانت تحويل الإذاعة والتلفزيون من التحدث باسم الحكومة إلى التحدث باسم الدولة، وذلك بقيام مؤسسة مستقلة شبيهة بهيئة

الإذاعة البريطانية، يديرها مجلس مستقل.. وكان الأستاذ هيكل أول مسئول يستصدر قانونا في هذا الاتجاه عندما كان وزيرا للإعلام في عام ١٩٧٠، ونشرت لي «الأهرام» حينها بحثا في صفحة كاملة حول ضرورة هذا القانون، لكن المجلس فقد استقلاله عندما ترأسه وزراء الإعلام فيما بعد..

دخلنا في أول تجربة لفك الحصار الإعلامي حولنا في نهايات ٢٠١٠، ونحن نحشد جهودنا للانتفاض ضد حكم مبارك.. قررنا في الجمعية الوطنية للتغيير أن نشرع في إطلاق قناة فضائية باكتتاب المعارضين للنظام، ومحاولة إيجاد منفذ تلفزيوني مؤقت؛ حتى نستطيع استكمال مشروع القناة على مهل، وكلفتني الجمعية مع الأستاذ السيد الغضبان بمتابعة المشروع..

اقترحت وقتها أن نستكشف بصفة مبدئية التعاون مع قناة «الحوار» التي كانت تبث من لندن، وكان ملاكها فلسطينيين في معظمهم، وكانت تبث في ذلك الحين برامج مناهضة للنظام في مصر.. كنت أعرف من الملاك الأستاذ عزام التميمي، فاتصلت به والتقينا في العاصمة الأردنية عمان.. كان متعاونا إلى أقصى حد تمنيته، فاتفقنا في النهاية على أن يعطينا ساعتين من البث مجانا، نقدم خلالهما ما نريد من برامج باسم الجمعية الوطنية للتغيير، وأن يتيح لنا استخدام إستوديوهاته في لندن مجانا أيضا، وكذلك وعد أن ييسر للجمعية استخدام إستوديوهات قناتي «القدس» و«الأقصى» في بيروت بأجر رمزي، على أن نتحمل نحن باقي نفقات الإنتاج.. عدت إلى القاهرة سعيدا بالاتفاق، ولكننا سرعان ما تبينا أننا ـ تحت ضغوط الوقت وندرة الموارد ـ لن نتمكن من تحقيق حلمنا في موعد مناسب.. كنا في حاجة إلى مبلغ مؤقت لا يزيد على مليون جنيه نسد به أجور المذيعين والضيوف ونفقات انتقالهم إما إلى بيروت وإما إلى لندن، وتغطية نفقات فريق أو اثنين لتصوير وتسجيل المواد التي سنرسلها من القاهرة، وغير ذلك من النفقات غير المنظورة..

في الوقت ذاته، كانت قنوات الاتصال مفتوحة بيننا وبين الجالية المصرية في أمريكا التي تبادلنا معها الاجتماعات في القاهرة أو في نيويورك وواشنطون، وكان عدد من أعضاء الجالية متحمسين لفكرة إطلاق قناة بالاكتتاب العام من الولايات

المتحدة، ووعدوا بالمساهمة في المشروع (كان هناك مشروع مماثل قبل سنوات تحدثت عنه في الفصل ٢١)، إلا أننا بعد أن واصلنا مناقشة الأمر معهم لأسابيع اكتشفنا مدى صعوبة تحقيق الفكرة.. ولعل الرسالة التي أتتني من الدكتور عادل كبيش، أحد المهتمين بمتابعة الأمر في الولايات المتحدة، وكانت بتاريخ ١٦ نوفمبر ٢٠١٠، أي قبل الثورة بشهرين، تدلنا على جانب من الصعوبات التي واجهت المشروع.. يقول الدكتور كبيش في رسالته:

«الأسهل هو الجانب التقني.. ردا على سؤالك حول الأقمار فأفضلها في رأيي هو أتلانتك بيرد ٤، وسوف أعيد التأكيد على ذلك.. أما البرامج فإنني - على وجه العموم - لا أعتقد أنها يمكن أن تعكس حياة الناس وتطلعاتهم وهي تبث من خارج بلادهم.. لا أريد أن أتطرق الآن للشائعات التي ستطلق حول أهداف القناة ومن يمولها، ولكن هذا يجرنا إلى الجوانب الاقتصادية للمشروع، وما إذا كانت قد درست بدقة.. لا بد أنك الآن قد اطلعت على حجم الإنفاق مبدئيا، ولكن التجارب علمتنا أن هناك مصروفات غير مرئية قد تكون باهظة.. سألتني عن ترشيح مقدمي برامج مثلا.. هنا تطرح أسئلة عديدة.. من أين سيقدمون البرامج، من مصر أم من أمريكا، وهل نبحث عن نجوم نخطفهم من القنوات التي يعملون بها، أم عن آخرين أقل كفاءة وتكلفة؟ أعلم أنكم تريدون أن تبدأوا بساعتين فقط، ولكني أشفق على من سيتولى تسديد الفاتورة، خاصة أن العائد غير مضمون.. أكتفي الآن بهذا القدر من هذه الجرعة الموحية بالتشاؤم.. آسف لذلك، ولكن هذا ما أراه، وأرجو أن أكون مخطئا.. في كل الأحوال، فإن الأمر يحتاج إلى تدارس مع أطراف عدة أكثر علما وتفاؤلا»..

تجددت الفكرة مرة أخرى بعد قيام ثورة يناير، وكنا نظن أن قوة الدفع التي ولدتها الثورة ستتغلب على العقبات التي صادفت التجارب المماثلة السابقة، وكانت هذه التجارب أعطتنا من الدروس ما جعلنا أكثر واقعية، فقررت مع مجموعتنا التي ازدادت ترابطا مع الأيام العصيبة التي قضيناها معا قبل الثورة وخلالها أن نكتفي بجريدة يومية (بدلا من محطة تلفزيون)، يقوم بتمويلها في البداية عدد محدود من المساهمين، ثم نفتح التمويل بعد ذلك للاكتتاب العام.. كنت واحدا من المؤسسين مع الدكاترة ممدوح حمزة ومحمد أبو الغار وعبد الجليل مصطفى وعلاء الأسواني، وانضم لنا مساهم آخر هو رجل الأعمال محمد متولي رئيس الشركة العربية للاستثمارات..

كنت قد قابلت محمد متولي قبل الثورة بسنوات في باريس، ولم تكن سنه قد تعدت الثلاثين سوى بسنوات قليلة، وكان قد أنهى دراسته في الولايات المتحدة حيث انتخب رئيسا لاتحاد الطلبة العرب.. وخلال الثورة لم ينقطع متولي عن ميدان التحرير طوال الـ١٨ يوما بحلوها ومرها، وكان قد أصيب في وجهه في الصدام مع الشرطة يوم ٢٨ يناير.. كان هذا ما قربنا منه، وعندما طرح مشروع الجريدة بادر بعرض المشاركة فيه، وأجمعنا على اختيار الكاتب الصحفي عبد الله السناوي رئيسا للتحرير، في حين اخترت لرئاسة مجلس الإدارة، وهكذا تواصلت اجتماعاتي مع السناوي ومتولي الذي كانت لديه خبرة بكواليس الصحافة اكتسبها من مفاوضاته الصعبة لشراء جريدة «الدستور»، وإن كانت الصفقة قد راحت في النهاية إلى مستثمر آخر..

على الرغم من أننا اتخذنا كل الإجراءات القانونية لقيام الشركة التي ستصدر الجريدة، وكنا قد سميناها «الحرية»، وعلى الرغم من أن هيكل الجريدة كان قد درس دراسة مستفيضة، وتم اختيار عديد من العاملين فيها، وَوُقِّعت مع بعضهم عقود مؤقتة، وعلى الرغم من أننا كنا قد اخترنا المقر والمسئولين عن الإعلانات والتوزيع، فإن دراسات السوق لم تطمئنا كثيرا، وهكذا لم يطل عمر المشروع أكثر من أشهر معدودة..

لكن مشروعا آخر كان على وشك أن يبدأ.. في أحد أيام مارس ٢٠١١، تلقيت مكالمة من مكتب اللواء عبد الفتاح السيسي عضو المجلس العسكري ومدير المخابرات الحربية حددت لي موعدا لمقابلته.. يومها عبرت الشارع إلى مبنى المخابرات المواجه لبيتي، فوجدته في انتظاري أعلى السلم المؤدي لمكتبه.. كانت هذه أول مرة ألتقي فيها واحدا من أعضاء المجلس الذي كنا نعتبره حينئذ حامي الثورة، وكان انطباعي الأول عندما رأيت الرجل أنه متواضع، دمث الخلق، خفيض الصوت..

استغرق لقاؤنا نحو ساعات ثلاث، دار فيها الحديث حول المجلس العسكري واستيائه قبل الثورة من الأوضاع التي كانت قائمة، ومما كان يدور من حديث حول التوريث، وقال إنه على الرغم من ذلك كله لم يفكر المجلس لحظة في الانقلاب على الحكم «لأن الانقلاب غير وارد في عقيدة القوات المسلحة»، وأخذ يذكرني بأنه عندما حانت الفرصة بادر الجيش بإعلان موقفه عن طريق المتحدث باسمه عندما قال في

٣١ يناير إن «القوات المسلحة لن تستخدم القوة ضد المحتجين، وأن حرية التعبير مكفولة لكل المواطنين الذين يستخدمون الوسائل السلمية»، وبما اتخذته القوات المسلحة من إجراءات بعد ذلك.. تحدثنا كثيرا عن الأوضاع القائمة، وقال إنه يود أن يعقد اجتماعات أسبوعية مصغرة مع بعض الشخصيات المرتبطة بالثورة ليجري معها نقاشا حول المستقبل، وطلب مني مقترحات في هذا الأمر.. كان حديث الرجل يوحي بأنه يمسك من الخيوط قدرا أكبر مما كنت أظن، وبأنه يستطيع ترتيب أفكاره جيدا..

في النهاية قال إن المشير يثق بي كثيرا، ويريد مني أن أقدم برنامجا يوميا في التلفزيون.. رحبت، وسألت: «متى؟».. قال: «يريدك أن تبدأ غدا».. استمهلته يومين أرتب فيهما أفكاري وأجري اتصالاتي.. وقتها لم أكن مقتنعا بأن قالب برامج «التوك شو» يناسبني؛ من ناحية لأن جمهور المشاهدين، كما كنت أظن ولا أزال، لا يتحمل أسلوب مقدمي البرامج الخطابي خاصة لو طالت مدته؛ ومن ناحية أخرى لأنه لم يكن لديَّ الوقت ولا الصبر اللذان كانا لديَّ في الماضي؛ بحيث أستعرض صحف الدنيا وأكتب التعليق وأجري الحوارات مع شخصيات في الداخل والخارج؛ لذلك رشحت الصديقين حسين عبد الغني وحافظ المرازي لتولي مسئولية البرنامج، على أن أقدم خلاله تعليقا يوميا لا تزيد مدته على عشر دقائق، واتصلت بهما لأخيرهما بين تقديم البرنامج معا أو تبادل تقديمه بينهما، فاتفقنا على الصيغة الأخيرة..

حَضَّرت مذكرة بحاجيات التحرير والإنتاج في صفحة واحدة، وذهبت بها في اليوم التالي إلى المخابرات، ولما لم أجد اللواء السيسي سلمتها لمساعده اللواء عباس كامل قبل أن أتوجه إلى المنصورة للمشاركة في المؤتمر الذي نظمه الدكتور محمد غنيم للدعوة للتصويت بلا في الاستفتاء على التعديلات الدستورية، التي كان الإخوان المسلمون يدعون ـ باسم الدين ـ للموافقة عليها.. في الفصل السابق كتبت تفصيلا عن زيارتي هذه التي استغرقت عدة أيام، عدت بعدها حانقا على المجلس العسكري الذي يخطو لتسليم البلاد إلى الإخوان، لكنني وجدت أن الأمانة مع المشير ومع اللواء السيسي تقتضي مني الاعتذار عن تقديم البرنامج..

كان الدكتور سامي الشريف في ذلك الوقت يرأس اتحاد الإذاعة والتلفزيون، وهو أستاذ بارز في الإعلام، وإن لم تكن لديه خبرة عملية كافية.. وكان قد لاقى مصاعب جمة لم تمكنه من تحقيق إنجاز ملموس.. ويبدو أنه رأى أن أسرع وسيلة يحس بها الجمهور العام أن التلفزيون قد التحق بركب الثورة هو أن يجري تعديلا جذريا على برنامج التلفزيون الإخباري الرئيسي «مصر النهاردة»، أو استبداله ببرنامج آخر تقدمه وجوه ارتبطت بـ ٢٥ يناير.. وهكذا اتصلت بي شركة «صوت القاهرة» التابعة للاتحاد بعد شهر من لقائي باللواء السيسي، واقترحت عليَّ تقديم برنامج جديد.. أخذت أُقَلِّبُ طويلا في الامر، وأخيرا قررت أن أستكشف سقف الحرية المتاح، فأخذنا في الإعداد للبرنامج عدة أسابيع، واتفقنا على تقديمه باسم «قلم رصاص»، واخترت الطاقم المعاون، وتم تصميم وتسجيل العناوين، وجاء للقائي في «صوت القاهرة» الدكتور الشريف والأستاذة نهال كمال التي كانت رئيسة التلفزيون عندئذ؛ ليطمئنا أن الأمور تسير على ما يرام..

الحق أن اللواء سعد عباس رئيس الشركة يَسَّرَ لي كل إمكاناتها، وأحاطني بكثير من الود، ولكنه عندما اقترب الموعد المحدد لإطلاق البرنامج في مايو ٢٠١١ كنت قد أصبحت أقل ثقة في قدرة المجلس العسكري على إدارة البلاد، وفي مدى تحمله لحرية التعبير في تلفزيون الدولة الرسمي.. وكانت الصحف عندئذ تحمل لي كل يوم خبرا يفيد بأن هناك معارضة شديدة بين العاملين في ماسبيرو لتقديمي برنامجا فيه؛ بدعوى أن الفرصة يجب أن تتاح لأبناء التلفزيون الذين لم يعتبروني واحدا منهم.. ووصل الأمر بتشكيل سمى نفسه «ثوار ماسبيرو» حد الاعتصام احتجاجا، بل وقدم «الثوار» بلاغا إلى النائب العام ضد المذيعة هالة فهمي لأنها تجاسرت ونادت بالاستعانة بي.. لم يغضبني ذلك كله، ولكنني رثيت لحال هؤلاء الذين لم يعوا أنني كنت أصعد إلى مكتبي في ماسبيرو على السقالات في عام ١٩٦٠، قبل أن يبدأ التلفزيون إرساله بشهور.. ومع ذلك كنت أتفهم طموحات الشباب الذين يقدمون البرامج، بل وكنت أقدر عددا من الموهوبين منهم الذين بذلوا بعد الثورة جهدا أعلم أنه شاق، ليبثوا الحياة في التلفزيون الذي حنطه عهد مبارك..

أوقفت تقديم برنامج «صوت القاهرة»، إلا أنني لا أزال أذكر مقالا للأستاذ عبد الرحمن فهمي، في جريدة «الجمهورية» قال فيه إن الثورة تأكل رجالها، وكذلك مقالا للأستاذة منال لاشين في جريدة «الفجر»، شككت فيه في أهداف «ثوار ماسبيرو» وفي رغبتهم في الاستئثار بما يقال عن كعكة المال داخل المبنى المفلس، كما أذكر أيضا نداء الشاعر جمال بخيت بيومي لي ألَّا أترك ماسبيرو للبوم والغربان وأعداء النجاح.. وأذكر قبل ذلك وبعده مواقف العديد من الزملاء في ماسبيرو الذين تصدوا لأصحاب الأصوات الزاعقة..

اكتفيت في تلك الشهور الأولى التي تلت قيام الثورة بالظهور في بعض برامج التلفزيون، مثلما فعلت في المناقشة الشهيرة مع الفريق أحمد شفيق عندما دعتني ON TV مع الدكتور علاء الأسواني ضيوفا على يسري فودة وريم ماجد بحضور نجيب ساويرس.. كان ساويرس يومها يخشى أن أكون عنيفا مع الفريق شفيق، لكن الأسواني خدعه وهاجم شفيق بضراوة في حين كنت أكثر برودا مما كان يظن..

حافظت على هدوئي لسببين؛ أولهما أن أوازن انقضاض الأسواني الساحق على الفريق شفيق، أما السبب الثاني فلم يكن يعلم به أحد؛ إذ إنني كنت قد قابلت شفيق في مكتبه بعد أن كلف بتشكيل الوزارة، وصارحته بكل ملاحظاتي.. كان قد تأكد يومها أن الدكتور يحيى الجمل مرشح لمنصب نائب رئيس الوزراء، فتشاورت في الأمر مع الدكتور عبد الجليل مصطفى وقررنا الذهاب إليه لحثه على رفض المنصب؛ لأننا كنا نرى أن أعضاء الجمعية الوطنية للتغيير - التي كان الدكتور الجمل واحدا من قياداتها - يجب ألَّا يتعاونوا مع حكومة شفيق التي عينها مبارك.. ذهبنا إلى الدكتور الجمل فوجدناه جالسا مع الدكتور أحمد البرعي.. جاء الدكتور البرعي ليبلغه أنه مرشح لتولي إحدى الوزارات، وأن زوج ابنته الدكتور هاني سري الدين مرشح لوزارة أخرى، وأنه يرى أن هذا لا يليق؛ لذلك فهو يفضل الانسحاب، ويريد أن يسمع رأي الدكتور الجمل في الأمر..

بعد أن انصرف الدكتور البرعي أبلغنا الدكتور الجمل رسالتنا بوضوح، فقال إنه عازف عن المشاركة في الوزارة خاصة أن صحته لا تسمح بذلك، ولكنه محرج أمام

إصرار الفريق شفيق الذي زاره في مكتبه في اليوم السابق، ولم ينصرف إلا بعد أن أخذ منه وعدا بالموافقة.. خرجت إلى غرفة مجاورة قابلت فيها ابنته الدكتورة مها، المحامية هي الأخرى؛ لتعيننا في مسعانا لدى والدها، فقالت إنها أبلغته رفضها لمشاركته في وزارة شفيق لكنه لم يستجب، فاتصلت بواحد من أقرب أصدقائه، المهندس حسب الله الكفراوي، الذي رد قائلا: «قلت له امبارح بلاش في آخر أيامنا نغلط، لكن الظاهر مفيش فايدة».. عاودت مع الدكتور عبد الجليل الضغط حتى اتجه لي الدكتور الجمل وقال: «أنت تعرف الفريق شفيق جيدا، لماذا لا تذهب إليه، وتشرح له حالتي الصحية، وتطلب منه أن يعفيني من وعدي له؟».. اتصلت بمكتب الفريق شفيق وطلبت تحديد موعد لأمر عاجل، وعدت إلى البيت ظنا مني أن الموعد سوف يحدد بعد عدة ساعات على أفضل تقدير، لكنني تلقيت مكالمة من مراسم رئاسة الوزارة وأنا في طريقي، أبلغوني فيها أن الموعد بعد ساعة، فعدت من حيث أتيت..

دخلت مجلس الوزراء فأخذ الصحفيون يسألونني إذا ما كنت سأقبل منصب وزير الإعلام وأنا الذي طالبت مرات بإلغاء الوزارة، وسألني أحدهم: ما أول إجراء سأتخذه عندما أتولى المنصب؟ وهنأني بعض أمناء الرئاسة وتمنوا لي التوفيق، وبالطبع لم يصدق أحد من هؤلاء أنني جئت لأمر آخر في الوقت الذي يتقاطر فيه على المجلس المرشحون للمناصب الوزارية المختلفة.. كنت أعرف الفريق شفيق منذ زمن، وكان بيننا ود وتقدير متبادل.. قلت له عند دخولي إليه: «أنت تعلم جيدا أنني سأكون صريحا وأمينا معك.. تعلم كم أقدرك، وأرى أنك واحد من أفضل من يمكنهم تولي مثل هذا المنصب، لكن ذلك كان في الماضي.. الآن، شئت أم أبيت، أنت محسوب على مبارك، وزمن مبارك قد ولى، وسوف نظل نطارد رموزه، ولا أريد لك أن تتحمل ما سوف تتحمله؛ لذلك أنصحك ياسيادة الفريق بالاستقالة مهما كان الحرج في ذلك.. سوف تواجه ما تأباه على نفسك إذا ما بقيت في هذا الكرسي».. صمت شفيق قليلا، وشكرني على إخلاصي معه، وقال في النهاية ما خلاصته إنه كجندي لا يمكنه الانسحاب من المعركة، وإنني متشائم أكثر مما يجب..

قلت: «على أي حال لم يكن في نيتي أن أكدر عليك يومك بالحديث عن هذا الأمر على الإطلاق، والحقيقة أنني قدمت إليك في أمر آخر يتعلق بالدكتور يحيى الجمل»..

أسهبت في الحديث عن العملية الجراحية التي أجريت له قبل أسابيع، وعن الأمراض التي يعاني منها، ورجوته ألَّا يضغط عليه كثيرا بينما هو في فترة النقاهة.. كان الدكتور الجمل حينئذ في قاعة الاستقبال ينتظر موعده المحدد سلفا مع الفريق شفيق، وكان لقائي بالفريق قد تعدى المدة المقررة له بنحو ثلث الساعة، وعندما خرج ليودعني، وجدت الدكتور الجمل ينتظر الدخول.. همس يسألني: «قلت له كل حاجة؟».. قلت: «وأكتر».. بقية الحكاية قالها لي الدكتور الجمل فيما بعد.. تحدد موعد حلف اليمين في اليوم التالي، وعندما حاول الاعتذار مرة أخرى اصطحبه الفريق شفيق في سيارته، وقال: «تعالَ معي الآن، وأبلغ المشير اعتذارك بنفسك».. بالطبع لم يكن هناك مجال للاعتذار.. شكلت الحكومة، وعين الدكتور الجمل نائبا لرئيس الوزراء، وعانى الفريق شفيق ما عانى، حتى كان لقاؤنا في ON TV الذي استقال في اليوم التالي له، وعين الدكتور عصام شرف رئيسا للوزراء..

كنت على اتصال دائم مع الدكتور شرف منذ ترك وزارة النقل في عهد مبارك.. وقتها كنت أقدم برنامجي في دبي، وأردت أن أستضيفه في إحدى حلقاته بعد أن فاز بإحدى الجوائز الدولية المرموقة، لكنه اعتذر عندما أبلغته أنني سوف أسأله أيضا عن خروجه من الوزارة، ومع ذلك حرصنا على التواصل.. صدمت عندما كلف بتشكيل الوزارة لأن خبرته لم تكن تؤهله لهذه المسئولية؛ ولأن هناك من هو أقرب منه إلى الثورة وأقدر.. صحيح أنه كان من الوزراء السابقين القلائل الذين ظهروا في ميدان التحرير، لكنه لم يتأكد لي أنه قاد ـ كما كان يقال ـ مظاهرة أساتذة جامعة القاهرة التي سارت إلى ميدان التحرير في الأيام الأولى للثورة، بل إن بعضا من رموز حركة ٩ مارس أبلغوني أنهم لا يعرفون إذا ما كان قد شارك في المظاهرة أم لا، والأرجح أن ترشيحه للحكومة بدأ بورقة سربها إلى ميدان التحرير اللواء حسن الرويني قائد المنطقة المركزية وعضو المجلس العسكري ضمت ثلاثة أسماء يرشح الميدان واحدا منها لرئاسة الوزارة..

على الرغم من ذلك كنت أعرف أن الدكتور شرف شخصية نقية وجادة، وإن لم يكن حازما بما فيه الكفاية.. أيدته آملا أن يوفق، وأعلنت بعد عدة أشهر من توليه المنصب مساندتي له وتحفظي في الوقت نفسه في مقال كان عنوانه «نعم لعصام شرف بشرط»،

ولكنني بعد شهور أخرى طلبت منه أن يستقيل عندما كان هناك اتجاه قوي لتطبيق العزل السياسي على أعضاء لجنة سياسات الحزب الوطني، وكان شرف عضوا في هذه اللجنة.. وقد عطل تنفيذ العزل عندئذ السؤال الذي كان يدور في الكواليس: «ونعمل إيه في موضوع عصام شرف؟».. هكذا كان اقتراحي أن يرفض هو الاستثناء ويستقيل، ولكنه لم يفعل.. وفي النهاية اضطر إلى تقديم استقالته في ٢١ نوفمبر ٢٠١١..

بعد أسابيع من تشكيل الدكتور شرف لوزارته الأولى في مارس، قرأت في الصحف أنه أصدر قرارا بتشكيل مجلس أمناء جديد لاتحاد الإذاعة والتلفزيون من ١٣ عضوا (بخلاف رؤساء القطاعات في الاتحاد) كنت واحدا منهم، وكان المجلس يضم إذاعيين بينهم فاروق شوشة وفريدة الشوباشي ودرية شرف الدين وأحمد المسلماني وحافظ المرازي (الذي استقال فور تعيينه)، وكتابا منهم لويس جريس وفاروق جويدة وسلامة أحمد سلامة وسكينة فؤاد ولبيب السباعي رئيس مجلس إدارة «الأهرام»، وكذلك اللواء طارق المهدي عضو المجلس العسكري، وكان المجلس قد عينه مشرفا على اتحاد الإذاعة والتلفزيون في فبراير ٢٠١١ ليخلف رئيس الاتحاد السابق المهندس أسامة الشيخ..

لا يليق بي أن أقيِّم إسهام زملائي في عمل المجلس، لكنني أظن أن التسجيلات ومحاضر الاجتماعات تؤكد أنه لم تكن هناك مشاركة تذكر للمسلماني ودرية شرف الدين، اللذين كلفا بأكبر منصبين في الإعلام؛ مستشار الرئيس ووزيرة الإعلام، بعد ٣ يوليو ٢٠١٣؛ ذلك أنهما إما كانا غائبين وإما حاضرين غائبين.. أما اللواء المهدي فكان أكثرنا نشاطا، بل والأكثر دراية بما في ماسبيرو وكواليسه عندئذ؛ إذ كان قد أمضى فيه ثلاثة أشهر دخل فيها في مواجهات وواجه أزمات وأصدر قرارات وناور مرات، وحظي في النهاية بشعبية لدى معظم العاملين، حتى إنه عندما أصدر المجلس العسكري قرارا بإلغاء منصبه لتفادي ازدواجية السلطة بينه وبين رئيس الاتحاد الدكتور سامي الشريف، حدثت اعتصامات في المبنى تطالب بعودته، فتراجع المجلس العسكري عن قراره..

لم نستطع أن نحقق الكثير في العمر القصير لمجلس الأمناء، ولم يتح لنا أن نجتمع كما يجب.. ذهبت إلى اجتماعنا الثالث فوجدت اللواء المهدي وأنا خارج

من المصعد، فأخذني من يدي وهمس: «مبروك».. سألت عن السبب، فقال: «سيادة المشير أمر بتعيينك رئيسا للاتحاد».. قلت: «مستحيل، ثم إن أحدا لم يستشرني، وقد تحدثت معك في ذلك من قبل عندما نشر في الصحف أنني مرشح للمنصب».. قال: «يا حمدي هذه أوامر تلقيتها مباشرة».. قلت: «بالتأكيد أنا ممتن لثقة المشير، ولكن اسمح لي، هذه أوامر بالنسبة لك وليس لي».. استمر حديثنا حتى جلسنا في مكاننا، وافتتح الاجتماع ثم التفت لي قائلا: «مرة أخيرة أرجوك، دعني أعلن الخبر الآن»، فهددت بأنني سأغادر الاجتماع على الفور.. آخذني البعض لأنني لم أتصدَ للمهمة، ولكنني كنت أعلم أن النجاح فيها يستوجب إجراءات حاسمة وقاسية أحيانا لتصفية إمبراطورية الإذاعة والتلفزيون التي تملكها الدولة تدريجيا مع مراعاة حقوق العاملين فيها، وفك ماسبيرو وتركيبه من جديد، ووضع مشروعات قوانين تنظيمية لا تجرؤ حكومة شرف على تبنيها، وكنت أرى أن مثل هذه الإجراءات لا يمكن اتخاذها إلّا في ظل حكومة قوية تشكل بعد انتخابات تشريعية..

في الاجتماع التالي، وكان في نهاية مايو، اتجه مجلس الأمناء إلى حل جذري لمواجهة تبعية اتحاد الإذاعة والتلفزيون للسلطة ولحل وزارة الإعلام بصفة نهائية، فاقترحنا قيام مجلس وطني مستقل للإعلام على أن نعد مذكرة تفصيلية بتشكيله ومهامه لرفعها إلى مجلس الوزراء، وتصادف أن الإعلان عن المجلس الجديد توافق مع استقالة الدكتور الشريف رئيس الاتحاد، ففسر البعض ذلك بأنها إقالة وليست استقالة، لكنني نفيت الخبر، وأوضحت أن الأوضاع في ماسبيرو كانت أكبر من احتمالات الرجل الذي صرح بأن رئاسة الاتحاد مثل الحكم بالإعدام، وأعلن أكثر من مرة أنه يحرث في البحر بسبب الديون ومشاكل العاملين، وتهاون الحكومة في مساندته بالدعم المالي الكافي.. بعد أن وافق الأمناء على مقترح المجلس الوطني اقترحت أن يكون اللواء المهدي رئيسا له، ووافق الأمناء بالإجماع، وهكذا خرج خبر التعيين في الصحف وكأنه قرار وليس اقتراحا على الرغم من أن المجلس العسكري ومجلس الوزراء تجاهلاه تماما.. نشرت «الشروق» في اليوم التالي تصريحا على لساني ورد فيه:

«صرح حمدي قنديل أن الأوضاع في ماسبيرو دفعته لترشيح اللواء طارق المهدي لفترة انتقالية؛ لأن المبنى يحتاج إلى شخصية تستطيع أن تقبض على الأمور المالية والإدارية في هذه الفترة الدقيقة، على أن يقوم مجلس الأمناء بالمعاونة فيما يخص الأمور المهنية.. وأضاف أن المجلس اتخذ هذه التوصية على الرغم من الحساسية الشديدة من عسكرة مؤسسات الدولة، خاصة الإعلام، ولكن المهدي كان أداؤه جيدا، ويمكنه العبور بالإعلام المصري في هذه المرحلة»..

ظل اللواء المهدي يعامل كرئيس اتحاد حتى عين محافظا للوادي الجديد في أغسطس ٢٠١١، وكان مجلس الأمناء قد أعيد تشكيله بعد أن عين أسامة هيكل رئيس تحرير جريدة «الوفد» ـ وهو واحد من أقرب أصدقاء عصام شرف ـ وزيرا للإعلام في يوليو.. كنت على صلة طيبة مع الوزير الجديد، وكنت أذكر له أنه تجاسر قبل الثورة واستضافني في «صالون الأوبرا» الذي كان يديره ويستضيف فيه إحدى الشخصيات مرة كل شهر، على الرغم من أنني كنت معارضا لمبارك.. كان ذلك في يونيو ٢٠٠٦ بمناسبة مرور خمسين عاما على عملي بالإعلام، حينما ألقيت محاضرة في الأوبرا تداولت الصحف أخبارها بعناوين مثل «الحرية الإعلامية وهم كبير».. «الإعلام الفضائي العربي هو البرلمان الحقيقي، وعدد المصوتين في برامج التلفزيون يزيد على المشاركين في الانتخابات».. «نرسل شبابنا للتدريب في الفضائيات العربية ثم نتحدث عن الريادة».. ونشرت «المصري اليوم» نص المحاضرة على صفحة كاملة..

بعد أن مضى نحو شهر على تعيين أسامة هيكل اقترح على عصام شرف تشكيل مجلس أمناء جديد كنت عضوا فيه أيضا، لكنني استقلت في اليوم التالي، وأعلنت أسباب استقالتي: (١) عودة وزارة الإعلام في حكومة عصام شرف الثانية بعد أن ألغيت في التعديل الأول لحكومة شفيق وفي حكومة شرف الأولى.. (٢) تعيين رئيس اتحاد الإذاعة والتلفزيون ثروت مكي رئيسا لمجلس الأمناء، أي إنه يجمع بين السلطتين التنفيذية والرقابية؛ مما يعزز سيطرة السلطة على الإعلام.. (٣) ضم المجلس الجديد شخصيات تعاونت مع النظام البائد وضللت الجماهير وكانت أدوات للنظام غير بعيدة عن فكره، على الرغم من أن الحكومة التي عينته تزعم أنها ستطهر مؤسسات الدولة من بقايا ذلك النظام.. لم أذكر أسماء وإن كنت أقصد مكي

الذي كان رئيسا لقطاع الأخبار عندما أوقف برنامجي رئيس التحرير في ٢٠٠٣، وأقصد أيضا سناء منصور وسهير الأتربي.. وقد أدهشني وقتها أن صديقة العمر الأستاذة آمال فهمي هاجمتني ظنا منها أنني كنت أقصدها هي الأخرى.. (٤) أن وزير الإعلام لم يستشر المجلس السابق في أي موضوع منذ تعيينه في الوزارة على الرغم من أنه اتخذ قرارات مهمة ينص القانون على إشراك المجلس في اتخاذها؛ الأمر الذي يعني أننا لم نحقق تقدما منذ نجاح الثورة، وأننا لا نزال نتعامل بأدوات النظام البائد وأساليبه..

وهكذا تحدثت الصحف عن معركة مفتوحة بيني وبين هيكل، خاصة عندما نشرت مقالي الأسبوعي في «المصري اليوم» تحت عنوان «عودة أنس الفقي».. لم أكن أقصد بالمقال شخص أسامة هيكل، ولكنني قصدت أن أقدم رؤية ناقدة للأوضاع الإعلامية وخلفياتها السياسية.. مضى على نشر المقال نحو أسبوع عندما ذهبت إلى عزاء الصديق خالد عبد الناصر، وعلى الرغم من حدة أسلوبي في انتقاد المجلس العسكري والحكومة، فإن اللواء إسماعيل عتمان مدير إدارة الشئون المعنوية وعضو المجلس العسكري جاءني ليقول: «يا أستاذ حمدي، سياة المشير عاوزك تطلع تقدم برنامج في التلفزيون.. أنت تعلم كم يقدرك».. قلت إنني آسف لعدم تلبية دعوته للمرة الثانية، ولكنني لا أملك من أمري شيئا لأنني تعاقدت بالأمس فقط مع قناة «التحرير»، وليس هناك من حل كما أعتقد إلا أن يتفق التلفزيون مع القناة على بث البرنامج في وقت واحد، فوعدني بأن يرى كيف يتم ذلك ويرد عليَّ في الصباح..

وعند خروجي من العزاء التقيت باللواء سمير فرج مدير الشئون المعنوية الأسبق ومحافظ الأقصر عند قيام الثورة، وكنت قد قابلته في عشاء دعا إليه الدكتور الأسواني قبل اندلاع الثورة بأسابيع، وقلت له يومها: «نحن نثق بك، ونرجو منكم أنتم كبار الضباط أن تتخذوا الموقف الذي ترتضيه ضمائركم في اللحظة المناسبة»، ولم أضف إلى ذلك كلمة، واكتفى هو بالقول: «إن شاء الله، سنكون أهلا لثقة الشعب».. كان هذا آخر لقاء بيننا قبل أن نلتقي في العزاء، عندما فوجئت به يكرر رسالة اللواء عتمان، فأبلغته بما جرى، ووعدته أن أتصل به في الغد لإبلاغه بأي جديد، وكما توقعت لم يكن هناك جديد..

قبل أن أوقع العقد مع «التحرير» بأيام كنت عازما على قضاء أسبوع في اليونان.. سددت أجر إقامتي في الفندق مقدما، وعندما توجهت إلى «توماس كوك» لحجز تذاكر السفر لي ولزوجتي، استوقفتني في الشارع سيدة مظهرها بسيط وسألتني: «إنت فين؟».. حاولت أن أقول شيئا لكنها استطردت: «إنتو سبتوا الثورة وروَّحتوا ولَّا إيه؟».. لم أعرف بماذا أجيب، لكن السؤال ظل يطن في أذني وأنا في الطريق إلى البيت، ثم وأنا في الطائرة في اليوم التالي، حتى إنني لم أكد أسمع شيئا سواه، بل ولم أعد قادرا على أن أحس بالبحر الذي كنت أجلس على شاطئه.. اتصلت بالأستاذ إبراهيم عيسى.. كنت أعلم أنه واثنين من جيله من الإذاعيين قد أسسوا قناة فضائية جديدة باسم «التحرير» في الأيام الأخيرة من عهد الاستبداد، أنفقوا عليها من جيوبهم، وكنت معجبا بجرأتهم وشطارتهم خاصة أنني لم أنجح في الماضي في إطلاق مشروع كمشروعهم.. قلت: «يا أستاذ إبراهيم، هل لي مكان بينكم؟»، وعندما رحب اتصلت بمدير مصر للطيران في أثينا أطلب حجز مكان على أول طائرة، واستأذنت زوجتي أن أتركها وحدها، وتفهمت كعادتها ما يغلي في صدري، وعدت إلى القاهرة بعد أن غادرتها بيومين..

اجتمعت بإبراهيم وزميله محمد جوهر، واتفقنا على كل التفاصيل، وعندما بدآ في الحديث عن العقد قلت: «لا ترهقوا أنفسكم.. أنا لا أود أن أحمِّلكم شيئا؛ لذلك أقترح الاكتفاء بإعطائي النسبة التي ترتضونها من الإعلانات التي ستجيء للبرنامج.. هذا يكفيني».. اتفقنا، وبدأت أقدم برنامجا يوميا مدته نحو عشر دقائق في أواخر سبتمبر ٢٠١١، وسار كل شيء على مايرام، إلى أن قرأت في الصحف أن اثنين من رجال الأعمال قاما بشراء نحو ٧٠٪ من أسهم القناة، والحق أن الخبر لم يزعجني كثيرا لأن الذي أخشاه عادة أن يمتلك شخص واحد كل الأسهم؛ وبذلك يستطيع توجيه سياسة القناة وفقا لأهوائه أو مصالحه، لكنني مع ذلك شعرت بشيء من المهانة أنني أعامل هكذا كسلعة يبيعها مالك لآخر دون أن أعلم، وكنت أرى أن أي تعديل في الملكية يجب أن يخطر به العاملون في القناة جميعا..

قلت كل ما أريد لجوهر، وأوضحت له أنني لن أتخذ إجراء هذه المرة، خاصة أنه هو وإبراهيم عيسى وشريكهم الثالث أحمد هيبة مدير القناة لا يزالون يملكون نسبة من

الأسهم، ويديرون العمل وفقا للسياسة التي قامت من أجلها القناة، ورويت تفاصيل ذلك كله في إحدى حلقات برنامجي.. قلت أيضا إنني أتفهم أن القناة في حاجة إلى دعم برامجها، خاصة وقد تركها محمود سعد وبلال فضل، ولم يتبق فيها من النجوم سوى دينا عبد الرحمن؛ وبالتالي فهي في حاجة إلى ضخ تمويل جديد، ولكنني حذرت من أنني سوف أضطر إلى إيقاف برنامجي لو أدت المصالح المرتبطة بالتمويل الجديد إلى تغيير في هدف القناة، خاصة لو تم ذلك في الخفاء دون أن ندري..

لكنه ما إن مرت أسابيع حتى فاجأتنا الصحف، للمرة الثانية، بأن هناك مفاوضات تدور لبيع القناة إلى مالك واحد، هو رجل الأعمال المهندس سليمان عامر، وأن الملاك القدامى لن يحتفظوا سوى بنسبة محدودة من الأسهم.. زاد من غضبي أن «عامر» لم يكن فوق الشبهات بسبب الانتقادات التي وجهتها له الصحف عندما اشترى أرضا لمشروعه «السليمانية» على طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوي، قيل إنه اشتراها بثمن بخس على أساس أنه سيستصلحها للزراعة، ولكنه حولها إلى مجتمع عمراني.. مرة أخرى أثرت الأمر في برنامجي.. نقلا عن تسجيل حلقة ١٨ ديسمبر ٢٠١١ قلت:

«المالك، المستثمر، له كل الحقوق المتعارف عليها في إدارة المنشأة اللي بيملكها، مفيش نزاع في ذلك.. إنما المالك في مجال الإعلام مابيديرشي مصنع بولوبيف ليه السلطات المطلقة في إدارته.. لازم ضمان للحريات.. في اعتقادي ده مبدأ ما يجبشي يقرر في قناة التحرير لوحدها، وإنما يجب يكون مطلب لكل العاملين في صناعة الإعلام.. أنا باطلق الدعوة دي من هنا، باتكلم أساسا في الموضوع لأنه موضوع ما يتعلقشي بقناتنا لوحدها، بيتعلق بكل وسائل الإعلام الخاصة، ده حتى بيتعلق كمان بوسائل الإعلام القومية، اللي لازم توفر ضمانات لاستقلال وحرية العاملين فيها.. إنما أولا وأخيرا، باتكلم في الموضوع علنا لأنه بيتعلق بالجمهور العام، وحقه في الحصول على المعلومات وحقه في المعرفة»..

اتصلت بمراد محتجا، وكذلك إبراهيم عيسى الذي وعدني بأن يترك القناة إذا تركت، لكن سليمان عامر طلب الاجتماع بي.. استغرق الرجل نحو ساعتين في

الحديث عن سلامة مشروعه من الناحية القانونية.. قلت: «أرجو أن تدع ذلك جانبا الآن.. أنا لي طلب محدد، أن تفصل الملكية عن التحرير، وأن تشكل مجلس تحرير للقناة يُعَيَّن لعضويته عدد من العاملين حتى لو اخترتهم أنت.. أنا أعرف أن ذلك أمر جديد على ميدان الإعلام في مصر، ولكننا بصدد مستقبل قناة فريدة أيضا، هي القناة الوحيدة التي نعول عليها في مساندة الثورة.. بغير هذا لن يكون لي مكان بينكم»..

أبدى الرجل تفهما لم أتوقعه، ووعدني بتشكيل المجلس، وقال إنه سيعطيه سلطات أكثر من تلك التي طلبت، وسوف يسميه مجلس الأمناء، بل وعرض عليَّ رئاسة المجلس أيضا.. اعتذرت، وقلت إنني أنتظر قراره معلنا داخل القناة، وحتى ذلك الحين سأتوقف عن البرنامج مؤقتا لأنني أحتاج، في الوقت ذاته، إلى رحلة علاج في الخارج.. شكا لي الرجل كثيرا من الثمن المبالغ فيه الذي دفعه في الصفقة، وفي اليوم التالي زارني في بيتي، وكنا في ليلة رأس السنة، وأهداني بهذه المناسبة ماكينة «إكسبريسو» قال إنه وجد أنها أفضل هدية عملية يمكنه أن يقدمها لي بعد أن لاحظ أنني شربت ثلاثة فناجين من القهوة في لقائنا السابق.. كان عامر يحمل أيضا ملفا مثقلا بالأوراق، فسألته مداعبا: «مؤكد أنك تريد أن تبيع لي فيلا في السليمانية».. قال: «لا.. هذه كل الملفات المالية السرية للقناة، أريد أن أطلعك عليها».. قلت: «هذه ليلة لا يتحدث فيها الناس في مثل هذه الأمور عادة».. ومرت الأيام دون أن يصدر الرجل قراره، فاتخذت قراري بالرحيل..

انتويت عندئذ اعتزال تقديم البرامج التلفزيونية، ولعل السبب الذي دعاني إلى الانسحاب عندئذ ذلك الاستقطاب الذي كان قد بدأ يحتد في الشارع المصري، ثم ظهر جليا مع بداية الحديث عن الانتخابات الرئاسية، والانقسام الذي أحدثته من ناحية بين قوى الثورة وبقايا النظام القديم، ومن الناحية الأخرى بين القوى المدنية وتيار الإسلام السياسي.. اتضح هذا الاستقطاب بشكل واضح على شاشات التلفزيون، سواء بين مقدمي البرامج أو بين ضيوفهم، وانعكس ذلك على المشاهدين الذين اتخذوا مواقف حادة، فهم إما مع وإما ضد، لا يطيقون كلمة متزنة، ويعتقدون أن صاحبها من المعسكر الآخر المعادي لهم.. وكان هذا ما دفعني للاعتذار عندما أبلغني الدكتور البلتاجي أن هناك رغبة في أن أقدم برنامجا في التلفزيون أيام رئاسة الدكتور مرسي..

بدأت عندئذ في إعطاء مزيد من الوقت لأنشطة البحوث الإعلامية والأنشطة السياسية.. ذهبت مثلا إلى نيويورك للمشاركة في احتفال جامعة كولومبيا بالثورة المصرية، في صحبة د. محمد أبو الغار والأساتذة بلال فضل ومصباح قطب ورشا عزب؛ حيث ألقى كل منا محاضرة في الجامعة عن تجربته.. وكان قد دعانا إلى هذه المناسبة د. نائل الشافعي مؤسس موسوعة «المعرفة» والخبير الدولي في الاتصالات، وكذلك د. مصطفى الخشاب أستاذ الطب الشهير في نيوجيرسي، اللذان نظما لنا برنامجا ثريا وممتعا لعدة أيام مع صفوة الجالية المصرية هناك.. ذهبت أيضا إلى الشارقة حيث ألقيت كلمة في «مؤتمر الإعلام الحكومي»، أكبر مؤتمر من نوعه في العالم العربي.. وشاركت في تأسيس مجلة «الإعلام والعصر» في «أبو ظبي»، التي كنت قد اخترت عضوا في هيئتها الاستشارية مع وزير الإعلام الأسبق في السودان علي شمو، وكاتب الدولة الأسبق للاتصال في الجزائر عز الدين ميهوبي..

ذهبت إلى تونس عدة مرات للتشاور مع القوى السياسية، وكذلك لإلقاء كلمة افتتاحية في «المؤتمر الدولي لنصرة الأسرى في سجون الاحتلال الإسرائيلية»، والتقيت بالرئيس التونسي المنصف المرزوقي، الذي كنت قد اجتمعت به من قبل مع الدكتور سمير مرقس والأستاذ جورج إسحق عند زيارته للقاهرة.. شاركت في المجلس الاستشاري لتقرير «التكامل الحضاري العربي» الذي ترأسه د. ريما خلف أمينة لجنة الأمم المتحدة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا (الإسكوا)، وكذلك في مؤتمرات عديدة أخرى في مصر..

وضاع جانب كبير من وقتي في اجتماعات «الهيئة الاستشارية» للجنة التأسيسية للدستور التي سلقت الدستور بليل في النهاية، فاضطر العديد من أعضاء اللجنة للانسحاب منها، ومع ذلك فقد حظيت بصحبة ممتعة مع نخبة يندر أن تجتمع تحت سقف واحد: د. كمال أبو المجد، ود. صلاح فضل، د. ثروت بدوي، د. سعاد الشرقاوي، د. حسن نافعة، د. محمد السعيد إدريس، د. صلاح عز، ود. هبة رءوف عزت، الذين تعلمت منهم عن القانون وغيره ما لم أكن أعلم.. ولم يكن انسحابنا سياسيا، ولكنه كان متعلقا بمواد خاصة بصميم التوازن بين السلطات، وبعدم التخلي عن التقاليد الدستورية، وبطموحات الإنسان المصري بعد الثورة التي لم تجد

الصدى المناسب في مناقشات اللجنة التأسيسية، وكان انسحابنا يرجع أيضا إلى تجاهل اللجنة لمشورتنا..

أما اهتمامي الأول في ذلك الحين فقد تركز في قيام «المبادرة المصرية لتطوير الإعلام».. والحق أن الذي طرح فكرة المبادرة في البداية كان الأساتذة منى الشاذلي والسيد الغضبان مستشار مدينة الانتاج الإعلامي وياسر عبد العزيز الباحث والكاتب الصحفي، وشجعني على المشاركة في تأسيسها أن الفرصة كانت مواتية عندئذ لمناقشة قوانين الإعلام الجديدة في البرلمان.. ثم انضم للمؤسسين الأستاذان حازم غراب مدير تلفزيون «مصر ٢٥» ومحمد هاني مدير قنوات CBC.. وعندما أعلنا قيام المبادرة في مارس ٢٠١٢ (بيان المبادرة وأهدافها في ملحق رقم ٨) كان المؤسسون قد بلغوا نحو ثلاثين إذاعيا وصحفيا.. كان أهم ما قدمناه للأسرة الإعلامية، مشروعات القوانين لقيام مجلس وطني للإعلام، ولتحويل اتحاد الإذاعة والتلفزيون إلى هيئة مستقلة، وهي المشروعات التي اعتبرت أساسا للنقاش الدائر حول تنظيم الإعلام حتى الآن.. كذلك شاركت في «اللجنة الوطنية للدفاع عن حرية الرأي والتعبير»، التي شكلت فريقا لوضع مقترحات حول القوانين الإعلامية مع الأساتذة صلاح عيسى وحسين عبد الرازق ويحيى قلاش وجمال فهمي وياسر رزق وياسر عبد العزيز وعبد الله خليل..

كان من أهم المعارك التي خضناها في مبادرة تطوير الإعلام تصحيح أوضاع محطة «نجوم إف. إم» الإذاعية، فرفعت بصفتي رئيس مجلس أمناء المبادرة، ومعي الأستاذ حافظ المرازي، دعوى في مجلس الدولة في ٢٠١٢ نطالب فيها بفسخ عقد «شركة النيل للإنتاج الإذاعي» مع اتحاد الإذاعة والتلفزيون؛ بسبب حصولها على تردد الإذاعة بالأمر المباشر في عهد مبارك، وعدم إخضاعه للقواعد القانونية بإجراء ممارسة بين الشركات العاملة في المجال.. وفي أكتوبر ٢٠١٣ ساند تقرير مفوضي محكمة القضاء الإداري موقفنا، وقال المستشار صلاح الجرواني الذي أعد التقرير إن الدعوى «تأتي دفاعا عن حقوق جميع الإعلاميين، وذلك لعدم سيادة الاحتكار في المجال الإعلامي، والسماح بوجود المنافسة المشروعة».. وكان الدكتور سيد بحيري المحامي هو الذي تولى المرافعة باسمنا في الدعوى..

أما آخر نشاط شاركت فيه في مجال الإعلام، والأصح أنه آخر نشاط لم أشارك فيه، فكان «لجنة اقتراح مشروع قانون حرية المعلومات» التي شكلتها وزارة العدل في يناير ٢٠١٣، ولكنني اعتذرت عن المشاركة فور وصول الدعوة لي، ووجهت كتابا للمستشار أحمد مكي وزير العدل قلت فيه:

أشكر ثقتكم لدعوتي لعضوية اللجنة التي كلفتموها بوضع مشروع لقانون لحرية تداول المعلومات..

أعرف أن مجموعة من الجنود المجهولين داخل الوزارة، وربما من خارجها أيضا، لا بد أنها قد عكفت بإخلاص على التحضير لهذا القانون،وأعرف أيضا أنكم دعوتم للمشاركة في اجتماع اليوم ثلة من الشخصيات العامة لا يمكن لأحد أن يزايد على وطنيتهم أو خبرتهم في هذا المجال (أذكر من بينهم الأستاذ فهمي هويدي والأستاذ فاروق جويدة والدكتور عمرو الشوبكي والدكتور عمرو حمزاوي)، وهو، ولا شك، شرف لي أن أصاحبهم في الاضطلاع بهذه المهمة..

إلَّا أنني لا أملك، آسفا، سوى الاعتذار.. ذلك لأنني، أولا: لا أثق بالسلطة القائمة في البلاد، وعلى الأخص في حكومتها..

ثانيا: أن تجارب سابقة مع هذه السلطة تعزز شكوكي في أنها لا تفي بالتزاماتها، في مقدمتها قانون الانتخابات الذي اتفق عليه في ما يسمى بـ «الحوار الوطني» تحت رعاية الرئيس نفسه، ثم جرى انتهاك الاتفاق في مجلس الشورى..

ثالثا: من هذه التجارب أيضا ما خبرته بنفسي عندما قبلت عضوية اللجنة الاستشارية الفنية في الجمعية التأسيسية للدستور أملا في جمع الشمل لوضع دستور تتوافق عليه القوى السياسية كما وعد الرئيس نفسه، إلَّا أن جهدنا ذبح في النهاية على مقصلة فصيل سياسي يهدف إلى الاستئثار بمقدرات البلاد..

فإذا أضفت يا سيادة الوزير إلى ذلك نكوص الرئيس ذاته عن عهده عندما بادرت مع عدد من الرموز الوطنية إلى دعمه في بيان «فيرمونت» الشهير، فلا أشك أنك سوف تتفهم اليوم اعتذاري عن المشاركة في تجربة أخرى بعد أن اكتويت بنفسي بنار ما سبق من تجارب..

راجيا أن تخيِّب اللجنة ظني بوضع مشروع قانون يليق بمصر، يجري التحاور بشأنه مع مؤسسات المجتمع المدني المعنية واعتماد سلطة التشريع له بأمانة وتجرد..

لم يمضِ شهر حتى خرجت صحيفة «المصري اليوم» بخبر في صدر صفحتها الأولى أن د. عبد المنعم سعيد عين رئيسا لمجلس إدارتها، فسارعت إلى «تويتر» وكتبت: «أعتذر لقرائي الأعزاء.. قررت التوقف عن الكتابة في المصري اليوم بعد تعيين رمز من رموز عهد مبارك رئيسا لمجلس إدارة الصحيفة».. وكنت قد كتبت في مقال لي بالجريدة من قبل أطالبه وغيره من الدعاة لعصر مبارك أن ينسحبوا طوعا من مجال الإعلام.. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يخرج فيها التناقض بيني وبينه إلى العلن؛ إذ كانت الصحف قد تحدثت قبل ذلك بأكثر من عشرة أعوام عن دعوتي في برنامج «رئيس التحرير» في التلفزيون لمقاطعة إسرائيل وبضائعها، في حين كان هو في طليعة مؤيدي التطبيع معها..

منذ ذلك الحين أصبح عندي من الوقت ما يسمح بوضع هذا الكتاب، لم أخرق اعتكافي سوى مرة واحدة في يوليو ٢٠١٣ عندما دعا الرئيس عدلي منصور القوى الوطنية إلى مؤتمر حول «المصالحة الوطنية والعدالة الانتقالية».. طلبت الكلمة في بداية الجلسة وقلت إن لديَّ نقطة نظام.. كيف يدعو جناح من الدولة (كنت أقصد الفريق أول السيسي) الشعب المصري للنزول يوم الجمعة القادم لتفويض القواتِ المسلحة لمواجهة العنف والإرهاب، في حين يدعو جناح آخر اليوم للمصالحة؟ وقلت إن الحديث عن المصالحة لا يجدي في الظروف القائمة، واقترحت فض الاجتماع رسميا، وإن كان من الممكن استمراره لمناقشة الوضع العام.. علق المستشار عدلي منصور قائلا إنه يتفق مع وجهة نظري تماما، ولكنه يفضل أن يترك القرار للمجتمعين.. فضل الحضور أن يواصلوا الكلام.. كانت هذه هي المرة الأولى التي أقابل فيها رئيسنا المؤقت.. فاجأني بانطلاقه في الحديث وسرعة بديهته، وكذلك بحزمه وسماحته في آن.. تمنيت يومها أن تطول رئاسته سنة أخرى أو اثنتيْن..

وفي أغسطس ذهبت إلى اليونان كعادتي.. ومرة ثانية (بعد حكاية قناة التحرير)، كنت على وشك أن أقطع رحلتي لأعود إلى القاهرة عندما قامت الشرطة بفض

اعتصام رابعة.. يومها اتصلت بوزيرة الإعلام أقترح عليها أن أقدم «تعليقا في برنامج قصير شبه يومي بلا مقابل في ضوء الظروف الحاسمة».. كان هذا نص رسالة SMS أرسلتها إليها عندما تعذر الاتصال بها، وانتظرت عدة أيام بلا جدوى، فطلبت من المخرج عبد الرحمن حجازي، الذي كان مخرجا تنفيذيا لبرنامجي «رئيس التحرير»، أن يذهب إلى مدير مكتب الوزيرة لإبلاغه أنني حاولت الاتصال بها فوجدت هاتفها مغلقا، فأرسلت لها رسالة، أرجو أن تكون قد وصلتها.. علل الرجل تعذر الاتصال بأن شاشة تلفون الوزيرة «بايظة»، وقال إنها لا بد ستتصل بي في اليوم ذاته..

لم أسمع من الوزيرة في الأيام الخمسة التالية، وعندها تصادف أن اتصل بي الأستاذ جابر القرموطي في برنامجه «مانشيت» لأعلق على بعض الأحداث السياسية، فرويت له ما جرى مع الوزيرة دون أن أعلق بكلمة، فما كان من القرموطي إلَّا أن عَنَّفَ الوزيرة تعنيفا قاسيا، زاد من حدته سخريته من التلفون وشاشته «البايظة».. في حديث للأستاذ محمد عبد القدوس معها نشره في «أخبار اليوم»، قالت الوزيرة إن سبب زعلها مني هو أنني قلت كلاما لا يجوز في حقها وأساء إلى شخصها في إحدى الفضائيات الخاصة.. لكن مجلة «آخر ساعة» نشرت مقالا للأستاذ عبد الرازق حسين كان عنوانه: «هل أصبح حمدي قنديل محظورا في ماسبيرو؟»..

سواء كان حل اللغز هو أن الوزيرة اتخذت قرارا متعلقا بالعمل بسبب زعلها من أمر شخصي، أو أنه كان بسبب خشيتها مما يمكن أن أقول في البرنامج المقترح، أو بسبب تدخل من مدير مكتبها الذي كان مديرا لمكتب الوزير الأسبق أنس الفقي أو لأي سبب خافٍ آخر، فالمثير للأسف في النهاية أن صوتي لم يحجب فقط في ظل نظام مبارك، ولكن أيضا في عهد ما بعد ٣٠ يونيو.. ذلك هو الفصل الأخير الساخر.. النهاية المثلى لدراما الفصول السابقة من هذا الكتاب!

لكن.. كيف يكون الفصل الأخير، والستار لم يسدل بعد؟!

تركت نجلاء في اليونان عندما قدمت برنامجي في قناة «التحرير» (أغسطس ٢٠١١).

فزورة «عروستي»، كتبها أسامة عبد الصبور ورسمها عمرو طلعت .. نشرت في جريدة «التحرير» (أغسطس ٢٠١١).

الملاحق

ملحق رقم (١)

حول الملكية الخاصة وحرية الصحافة

برنامج «هيئة الإذاعة البريطانية»

BBC (١٤ يناير ١٩٨٤)

هذا سجل لما قلته في ندوة عقدتها هيئة الإذاعة البريطانية BBC في جامعة أوكسفورد في بريطانيا ضمن حلقة من برنامج «موضوع للمناقشة» A Matter for Debate أذيعت يوم ١٤ يناير ١٩٨٤.. ويقوم البرنامج على مشاركة الجمهور، بحيث يصوت المشاركون الحاضرون في بداية الحلقة على الموضوع المطروح للنقاش إذا ما كان يؤيده أم يعارضه، ثم يجري نقاش بين فريقين من الضيوف يتبنى كل منهم رأيا معاكسا للآخر، وفي نهاية الحلقة يصوت الجمهور مرة ثانية وفقا لما اقتنع به بعد النقاش..

كان الموضوع المطروح يومها هو «الملكية الخاصة وحدها هي التي تضمن حرية الصحافة»، وهو موضوع لصيق بالجدل الذي كان محتدما في اليونسكو عندئذ حول النظام العالمي الجديد للإعلام والاتصال، ولذلك دعتني BBC ضيفا للبرنامج إلى جانب «توني بين».. «بين» كان وقتئذ قطب المعارضة اللامع في بريطانيا؛ إذ لم يكن فقط واحدا من زعماء حزب العمال ولكنه كان أكثرهم راديكالية.. كان أيقونة اليسار، وكان في الحكومة السابقة لحكومة ثاتشر وزيرا للصناعة ثم للطاقة، وكنت مزهوا بوجودي إلى جانبه على المنصة..

وزاد من تحفزي للمشاركة في النقاش أننا كنا نواجه على الجانب الآخر الصحفية البريطانية المتعجرفة «روزماري رايتر» التي كانت تعمل في «صنداي تايمز» وتقود الحملة ضد اليونسكو في الصحف البريطانية، وكنت كثيرا ما ألقاها في أروقة المنظمة بابتسامتها الصفراء ولسانها اللاذع، وكنا قد اصطدمنا قبلها بأسابيع قليلة عندما لم تكتفِ بالهجوم على المنظمة ولكنها شنت هجوما شديدا على شخص مديرها أحمد مختار إمبو، بلغ في وقاحته حد الطعن في ذمته المالية، واختلاق تهم رخيصة مثل الحصول على بدلات سفر في مهام وهمية.. وكان الفريق المقابل لي ولتوني بين يضمها مع «دونالد تريلفورد» «رئيس تحرير» «الأوبزرفر» البريطانية..

وعلى الرغم من أن النقاش الذي استمر نصف الساعة يستحق أن ينشر بكامله، فإنه لما كان هذا الكتاب متعلقا بتجربتي في الحياة، فقد فضلت أن يقتصر على مداخلتين من مداخلاتي

في الندوة التي كانت، ولا تزال، تعبر عن رأيي في جانب هام من جوانب العمل الصحفي.. وفضلت أيضا أن أنقل النص عن أوراق الـ BBC نفسها التي تعتبر مضبطة للبرنامج..

* * *

المداخلة الأولى:

«أنا معترض على فرضية أن الملكية الخاصة هي وحدها التي تحقق الحرية للصحافة في العالم، ولكن هذا لا يعني أن الملكية الحكومية هي التي تضمن هذه الحرية، لأن كليهما، الصحافة الحكومية والصحافة الخاصة، يتم احتكاره والتلاعب به بواسطة مؤسسات كبرى يتحكم فيها مستبدون فاشيون، هذه هي الحقيقة (تصفيق).. وهكذا فإن افتراض أن الصحافة الخاصة وحدها هي التي تضمن الحرية لا يمكن أن يكون إلَّا وهما إن لم يكن خداعا.. لا أحد يمكنه أن يتخيل أن صحيفة سوف تكون حرة لمجرد أن التشريعات تنص على ذلك، هذا ما قاله منذ فترة طويلة لورد أنان (الذي ترأس لجنة وطنية لدراسة مستقبل الإذاعة في بريطانيا عام ١٩٧٧).. ومشكلة الصحافة الخاصة أنها دائما ما تكون خاضعة لضغوط دوائر المال والأعمال الكبرى.. «باري آسكيو» «رئيس تحرير» «نيوز أوف ذي وورلد» السابق يقول: «أنا لا أعتقد أن فليت ستريت (شارع الصحافة) يلقي بالا على الإطلاق لمبادئ الأخلاق أو الفضيلة، ما يهمه هو اجتذاب القراء لاجتذاب الإعلانات بهدف تحقيق الأرباح؛ وهذا ما يجعل لبارونات الصحافة ثقلا سياسيا..

«بسبب هذا الجشع في التنافس من أجل الربح فلابد لنا أن نعترف أن سجل الصحافة الخاصة قد نال من الثقة فيها، والبرهان الصارخ على ذلك هي مذكرات هتلر التي زورتها مجلة «شترن» وجريدة «صنداي تايمز» ببشاعة.. وفي بريطانيا رأينا كيف أن اختراق الصحف الصفراء للخصوصية، حتى تلك المتعلقة بالأسرة المالكة، قد أثار انتقادات قوية ضد الصحافة بل ودعوات لوضع قوانين تحمي الصحافة من نفسها على حد تعبير مجلة «الإيكونوميست».. ولا أريد كصحفي أن أشهد اليوم الذي يتجه فيه الجمهور العام أو البرلمان أو الحكومة إلى تبني قوانين معادية للصحافة، ومع ذلك فإنني لا أرى وسيلة غير القانون للتعامل مع صبغ صناعة الصحافة بمزيد من التجارة وتركيزها في أيدٍ قليلة، خاصة أن صحفا ومحطات راديو وتلفزيون خاصة عديدة قد وقعت في السنوات الأخيرة في أيدي كبار الناشرين، وأحيانا الشركات متعددة الجنسية..

«هناك حضور واضح الآن للناشرين بين الـ ٤٠٠ شخص الذين يعدون أكبر أغنياء الولايات المتحدة؛ إذ لا يقل عدد هؤلاء عن ٤٤ في قائمة عام ١٩٨٢، وبالإضافة إلى ذلك توجد ١٣ عائلة تعمل بالنشر بين الـ ٤١ عائلة التي تملك أكبر الثروات هناك.. في فرنسا هناك ناشر واحد يملك صحفا تدر عليه الآن دخلا سنويا يعادل ٥٠٠ مليون دولار؛ لأن هذه الصحف تصل إلى ٢٠٪ من القراء الفرنسيين، أي إنه يملك من الوسائل ما يستطيع به أن يؤثر على عقول خمس سكان الأمة وقراراتهم.. ولا يمكن أن يكون الصحفيون العاملون في صحفه أحرارا تماما، ففي ١٩٧٥ استقال عدد من الصحفيين البارزين في «لوفيجارو» بعد محاولاته التأثير في سياسات التحرير..

«وهذه قصة ليست غريبة على الجمهور البريطاني، ولا حاجة بي أن أذكِّر المستمعين بإمبراطورية اللورد الأسترالي روبرت ميردوخ التي يتمتع فيها الصحفيون بحرية الاختيار الكاملة بين الفصل انتقاء والاستقالة طوعا.. وليت إدارة الأخبار في BBC تمدنا الآن بمعلومات عن صحيفة «شيكاغو صن تايمز»، سابع الصحف توزيعا في الولايات المتحدة، التي علمت أن استقالة رئيس تحريرها ستصبح نافذة اليوم لأن ميردوخ اشترى الصحيفة..

«زميلي مستر بين تحدث عن شراء الصحف منذ قليل، وفي رأيي فإن الجمهور العام في بريطانيا لم تتم إحاطته بالمعلومات الكافية.. بسبب مثل هذه الاحتكارات الكبرى فإن الجمهور، لا في بريطانيا ولا في أي بلد آخر، يستطيع الحصول على المعلومات اللازمة التي تمكنه من اتخاذ قرارات مستنيرة.. كندا مثال جيد آخر، ففي سنة ١٩٨٠ شكلت كندا لجنة ملكية حول الصحافة يقول تقريرها إن بناء صناعة الصحف في كندا يتعارض كليا مع الصالح العام، ويمضي التقرير فيصف الوضع بأنه غير مقبول على الإطلاق في مجتمع ديموقراطي؛ إذ إنه وضع نفوذا عظيما في أيدٍ قليلة، وهو نفوذ بلا محاسبة.. لا أحد يعنيه ما إذا كان هذا النفوذ يستخدم بشكل رشيد أو خاطئ، ولكن الواقع أنه في قبضة عدد قليل من الأفراد يعملون في مؤسسة لا نعرف كنهها تماما، ويستخدم هؤلاء الأفراد نفوذهم إما بلا اكتراث وإما طبقا لأهوائهم.. هذه هي النقطة الأولى التي أود أن أذكرها، أما النقطة الثانية فهي أن حرية الصحافة يمكن قياسها بعامل واحد يفوق العوامل الأخرى أهمية، هو التعددية والتنوع.. بدون التعددية وبدون التنوع لا توجد صحافة حرة» (تصفيق)..

* * *

المداخلة الثانية:

«أوضحت قبل ذلك أن التعددية لا تعني التنوع بالضرورة، وفي مرحلة أخرى من النقاش أجبت عن سؤال بالقول إننا يجب أن نذكِّر أنفسنا بأن عديدا من الدول النامية لا تزال تتحرر من تاريخها الاستعماري.. ويليام كلارك، وهو نفسه بريطاني، قال إن «الثابت أننا في بريطانيا قد تركنا معظم دول الكومنولث في نهاية فترة الاستعمار بدساتير على نسق دستورنا، تنص فيما تنص على صحافة حرة، لكننا يجب أن نتذكر أنه لم تكن هناك صحافة حرة ولا إذاعة حرة طوال فترة حكم الاستعمار.. هكذا عادت المستعمرات السابقة لتطبق ما تعرفه».. أنتم البريطانيين إذن من علَّم بلداننا، وعليكم أن تتحملوا جانبا من اللوم..

«بالإضافة إلى ذلك فإن الحدود الفاصلة بين المؤسسات في معظم الدول النامية ليست حتى الآن بالوضوح الذي عليه في بلد مثل بلدكم، فما البديل الذي يمكن أن يتوفر لها لإصدار الصحف غير حكوماتها، خاصة في المرحلة الأولى بعد الاستقلال؟ وهل كانت الفرصة متاحة لوجود استثمار وطني خاص؟ هل كان بإمكان السيد ميردوخ أن يقوم بمثل هذه المخاطرة عندئذ؟ وهل موديل الصحافة الذي ابتدعه السيد ميردوخ أو اللورد طومسون هو أفضل ما يناسب كل الثقافات والاحتياجات؟ ما أقوله هو أن هذا الموديل غير مناسب حتى لبريطانيا ذاتها، وإذا ما كان له أن يجد مكانا هنا فلا بد له أن يجد مكانه إلى جانب نماذج أخرى، أما إذا كان هو النموذج الوحيد للصحافة الخاصة فهو ليس النموذج الأفضل بالقطع لبقية أنحاء العالم.. وبالنسبة إلى كثيرين منا في الدول النامية، فنحن نرفض الصحافة المدجنة، ولكنه من المؤكد أننا نرفض الصحافة الصفراء أيضا» (تصفيق)..

* * *

وبعد أن استمرت المناقشات لمدة نصف ساعة وأجري التصويت، أعلن مقدم البرنامج أن ٥٥٪ من المستمعين كانوا يعتقدون قبل أن يبدأ البرنامج أن الصحافة المملوكة ملكية خاصة هي وحدها الضمان لحرية الصحافة في العالم، و٤٥٪ منهم كانوا لا يتفقون مع ذلك، أما بعد هذا النقاش المثير فقد كان التصويت الثاني يشير إلى أن النسبة اختلفت فأصبحت ٤٧٪ مع هذه الفرضية و٥٣٪ ضدها (تصفيق)؛ وهكذا فإن هذا انتصار لتوني بين وحمدي قنديل.. نشكر أيضا دونالد تريلفورد وروزماري رايتر..

ملحق رقم (٢)

في مصر صوت ناقد يجد له رنينا

بقلم: أنتوني شديد

بوسطن جلوب (٢١/ ١٠/ ٢٠٠١)

إذا اعتبرنا حمدي قنديل مقياسا بأي معنى، فإن الحملة الأمريكية لكسب عقول وقلوب العالم العربي ـ على الأقل فيما يتعلق بالحرب على أفغانستان ـ ليس مقدرا لها سوى الفشل..

حمدي قنديل ذو الكاريزما المميزة يخرج ببرنامجه ذي الشعبية الواسعة «رئيس التحرير» أسبوعا تلو أسبوع ليتفاعل مع الجمهور المصري والعربي في أداء ساخر، أحيانا ما يكون مرحا وأحيانا ملتهبا في رؤية تبدو فيها الإدارة الأمريكية في كل الأحوال فاشلة..

لا يشبع من هذه الآراء المشاهدون الذين لا يثقون في الحملة العسكرية الأمريكية بل ويرونها موجهة ضد الإسلام، ويدافعون عن بن لادن واثقين أن اتهامه باطل.. يتحول هجوم البرنامج على البلطجة الأمريكية والوحشية الإسرائيلية إلى المادة المفضلة على المقاهي.. يمتدح سائقو التاكسي سخريته من أولئك الذين ينظرون إلى المسلمين باعتبارهم السبب في كل المساوئ في العالم.. ويصل الأمر بامرأة أن تطلب من أحد الصحفيين أن يحضر لها صورته..

صابر سيد المحامي البالغ من العمر ٣٠ عاما وأحد المتيمين بالبرنامج الذي يمتد لنحو ساعة أسبوعيا في التلفزيون الرسمي، وينقل بالقناة الفضائية المصرية إلى العالم العربي كله، يقول: «هذا البرنامج ننتظره جميعا.. والناس تتحدث عن الحلقة طوال الأسبوع حتى تبث الحلقة التالية، وإذا أدركت أن ظروفي لن تسمح بمشاهدته أطالب أخي أو ابن عمي أن يسجله لي»..

بينما تصور الولايات المتحدة حربها ضد بن لادن وطالبان كحملة للخير ضد الشر، فإن الغالبية في العالم العربي والإسلامي تنظر إليها بطريقة مختلفة تماما.. دعم الولايات المتحدة لإسرائيل واستمرارها في فرض العقوبات ضد العراق يستفزان الكثيرين، وكثيرون

تساورهم الشكوك في دفاع أمريكا عن حقوق الإنسان بينما تدعم الطغاة في المنطقة، ويرون ذلك نفاقا..

في الوقت نفسه يتساءل حمدي قنديل بطريقة يختلط فيها النجم بالصحفي وبالمحرض: «لماذا يغلي دم الناس في غضب؟ لأنهم حتى الآن ـ وسوف أكرر هذا ألف مرة ـ يعاملون العرب بمعيار وباقي العالم بمعيار آخر»..

استمر قنديل، وهو يستخدم مصطلحات من العامية المصرية، في القول إن أمريكا ترمي الطعام للأفغان لأنها تريد أن تسمنهم قبل أن تذبحهم، وإن الأمريكيين ـ ودون أي دليل ضد بن لادن ـ يمارسون العدوان ضد شعب يكسب في عام ما ينفقه الأمريكيون في يوم.. «يا للعار.. يا للعار»..

قنديل ذو الـ ٦٥ عاما، الصحفي الذي قضى ١٠ أعوام في اليونسكو في باريس، يقول إن تفسير نجاحه بسيط للغاية، فهو يضع يده على نبض الناس.. وفي حديث له وهو يشرب كوب عصير في فندق ٥ نجوم قال قنديل: «بكل تواضع، برنامجي هو صوت الناس.. هو منحة من الله عز وجل، فأنا أحس بما يريد أن يقوله الناس فأعبر عنه في كلمات مباشرة وقوية»..

وعلى المستوى الشخصي نجد أن قنديل ليس أقل صراحة.. عندما سألته عن الولايات المتحدة قال: «أنا فعلا أكره الولايات المتحدة.. أكره سياساتهم»..

ولما سألته عن السلام مع إسرائيل قال: «لا سلام هناك.. السلام الحقيقي هو ذلك الذي بين الشعوب».. أما إجابته حول أسامة بن لادن فكانت: «أنت تعلم جيدا كيف ينظر الناس إلى ابن لادن هنا.. إنهم يرونه بطلا».. وماذا عن الحملة الأمريكية ضد الإرهاب؟ قال: «الإرهاب ما تفعله أمريكا الآن ضد أفغانستان.. هذا إرهاب فعلا».. واستطرد: «إنني مهموم باتجاه الولايات المتحدة ضدي ـ ضد شعبي ـ ولا أرى أي شيء طيب منها»..

قنديل متزوج من الممثلة نجلاء فتحي، قومي متعلق بالمثل التي طرحها الزعيم جمال عبد الناصر من ١٩٥٢ - ١٩٧٠.. يظل عبد الناصر رمز الأيام المجيدة حين كان العالم العربي يسعى للاستقلال والنمو الاقتصادي..

على مستوى سلوكه الشخصي نجد حمدي قنديل غارقا في مبادئه حتى أكمامه، بالمعنى الحرفي للكلمة؛ فهو لا يرتدي ملابس أمريكية.. ملابسه مصرية أو فرنسية.. يدخن سجائر دفيدوف الألمانية، ويركب سيارة بريطانية «جاجوار»..

«أنا لا أعتبر نفسي ضيق الأفق.. أنا جاهز لأن أسمع وأغير رأيي لو أقنعني أي شخص بغير ما أتصور.. لكن لسوء الحظ لم أرَ شيئا غير ذلك فيما يتعلق بالولايات المتحدة، ولا يوجد في الأفق ما يشهد بغير ذلك»..

هناك آراء مختلفة حول رسالة قنديل..

هشام قاسم ناشر مجلة «كايرو تايمز» يرى أن «رئيس التحرير» واحد من أكثر البرامج معاداة للأمريكان في مصر، وهو مسئول عن ٥٠٪ ـ إن لم يكن أكثر ـ من المعاداة للأمريكيين في هذا البلد، ويعتقد أن الحكومة المصرية واعية بنفوذ البرنامج ولذا أعطته مساحة واسعة، أما نبيل عثمان رئيس هيئة الاستعلامات فيقول إن البرنامج شعبي جدا جدا، وقنديل محترف ولديه خبرة وكاريزما..

حتى سنوات مضت كانت البرامج المصرية محصورة في إطار معين، لكن ظهور فضائيات مثل الجزيرة أجبر التلفزيون المصري أن يوسع آفاقه، وإلا فقد جمهوره..

يقول قنديل إنه عندما بدأ البرنامج اشترط على الرقيب المصري أن يقول ما شاء، وإلى اليوم ـ كما يقول ـ لم يبلغه أحد أن يتجنب موضوعا بذاته، أو يلتزم خطا معينا.. لكن الرقابة لا تزال قائمة؛ فالبرنامج يسجل مسبقا، والرقباء الحكوميون يحذفون فقرات يعتقدون أنها مهيجة حتى بمعايير قنديل نفسه؛ ولذلك فإن عبارته عن «تسمين الأفغان قبل ذبحهم» على سبيل المثال حذفت في أسبوع بينما تركت في الأسبوع التالي..

كذلك تحذف فقرات متعلقة بإسرائيل في بعض الأوقات الملتهبة، كما تخضع لمقص الرقيب فقرات تتعلق بالبلدان الخليجية، التي تعتبر معظمها دولا هشة.. وعلى الرغم من ذلك فإن الكثير يمر، خاصة إذا كان متعلقا بسياسة الولايات المتحدة..

يبتسم قنديل وهو يختتم الحوار: «أنا ألاعبهم وأعرف حيلهم»..

ملحق رقم (٣)

النقّاذ

بقلم: خيري شلبي

مجلة الإذاعة والتلفزيون

(٢٩/ ٥/ ١٩٩٩)

ليس في جعبتي أي معلومات عن سيرته الذاتية، أين ولد وأين تعلم وفي أي كلية تخرج، لكنني أشعر أن وجهه يمت بصلة قرب وثيقة لمدن القنال: السويس والإسماعيلية وبورسعيد، وبينه وبين القاهرة نسب ومصاهرة، وربما كانت الزقازيق من عائلته، ولعله ابن خالة شبين الكوم، وطنطا بنت عمته، والإسكندرية زوجة عمه، والمنيا وأسيوط وسوهاج وقنا والأقصر وأسوان وأبو سمبل والنوبة يقولون له: يا خال..

أشعر أيضا أن شخصيته محبوكة حبكا جيدا كحبكة الدراما الأرسطية الكلاسيكية..

شخصية «تفصيل» وليست «سوقي» مفصلة على قده، على مقاسه، لا فضفضة لا جعببة ولا تحزيق..

شخصية لا تصلح لأحد سواه؛ إذ هي غير مستعارة من أحد، غير قابلة للإعارة وإن كانت قابلة للتداول والرواج..

في الفنون والآداب كما في الإعلام والصحافة توجد الشخصية الصوت، والشخصية الصدى..

أما الشخصية الصوت فإنها الشخصية الخلاقة، المتفردة، صوتها - بتعبير العامة العبقري الدارج - من دماغها هي، لها قاموسها الخاص، بمفرداته الخاصة بالضرورة، حتى وهي تتناول الأشياء المألوفة تراها جديدة تماما كأننا نراها لأول مرة فإذا نحن نتذوقها جيدا ونستشرف أبعادها ونغوص في أعماقها وقد تملكنا العجب كيف لم ننتبه إلى هذه البديهيات من قبل؟! كيف فاتنا أنها مهمة بل على درجة عالية من الأهمية؟ فالشخصية الصوت - إذن - إيجابية بناءة ذات إضافات وبصمات خاصة تدخل في نسيج الثقافة القومية..

أما الشخصية الصدى فإنها الشخصية المقلدة تمتاح من آبار الآخرين، وتحاول الإبداع من مخزونها الثقافي لا من إبداعها الأصيل، فإبداعها إذن ليس إبداعا إنما هو إعادة صياغة

لما سبق أن قاله السابقون ولاكه المعاصرون وتشدق به الفارغون التافهون.. إنها، إذن مجرد أصداء كالطبل الأجوف، كالطرق على الصفيح، تثير الصخب والضجيج، تشوشر على أصحاب الفكر الحق، قد تأخذ فرصهم وتحجبهم وتقضي عليهم..

المؤسف أن حقولنا الفنية والأدبية، وحقلنا الإعلامي بوجه خاص، حاشد بهذه الشخصية الصدى، الشخصيات التي ندعو الله ليل نهار أن يزيح عن أعيننا وجوهها الكريهة المتسلطة.. ولكن من لطف الله بنا أن تكون في حقلنا الإعلامي شخصية كحمدي قنديل تنتمي إلى فصيل الشخصية الصوت..

المؤكد طبعا أن حمدي قنديل تخرج في إحدى الكليات الجامعية، لعلها الحقوق أو الآداب أو العلوم السياسية.. لكن المؤكد أيضا أنه تخرج في كلية أكبر، فأصبح آخر أجيالها المحترمين، ينضم إلى صف من الأفذاذ الذين أسسوا الإعلام العربي في مصر وخدموه بإخلاص بكل ذرة في كيانهم، من أمثال محمد فتحي وعبد الوهاب يوسف وعلي خليل وأحمد طاهر وسعيد لطفي وحسني الحديدي وعبد الحميد الحديدي وأنور المشري وعلي الراعي وسامي داود ورشدي صالح وطاهر أبو زيد وسعد لبيب وتماضر توفيق وجلال معوض وصالح جودت وغيرهم..

وإذا كان الأسد كما يقولون هو بضعة خراف مهضومة، فإن حمدي قنديل هو هذا التاريخ الإعلامي بكل شخصياته مهضومة هضما جيدا، تكونت منها شخصيته المستقلة الخاصة التي لا تشبه أحدا ولا يشبهها أحد..

ليس من قبيل المجاملة أو البقشيشة أن نقول إن حمدي قنديل هو رائد ومؤسس الصحافة التلفزيونية العصرية المتطورة.. تلك حقيقة تاريخية لا مجاراة فيها ولا تقبل المساومة.. وقد ولدت ريادته تلك مع مولد التلفزيون المصري ـ الذي قيل أيامها إنه ولد عملاقا ـ وكان ذلك من خلال برنامج «أقوال الصحف»..

أيامذاك لم تكن تقنية العمل التلفزيوني قد تحددت معالمها بالنسبة لجميع العاملين فيه، فالتمثيلية الدرامية ظلت محتفظة بالطابع الإذاعي لفرط اعتمادها على الحوار دون الصورة، ونشرة الأخبار ظلت إذاعية صرفة، مجرد أخبار مقروءة، كل ما هنالك أننا نرى صورة المذيع وهو يقرأ أمامنا، مع إضافة بعض الصور الفوتوغرافية لبعض الزعماء والشخصيات العامة، حتى برامج المنوعات كانت إما إذاعية وإما لقطات سينمائية منتقاة من بعض الأفلام، وبقيت الأغنية في محنة، وثار جدل طويل حول معنى الأغنية التلفزيونية وكيف تكون، وصدرت

بعض أغنيات من إخراج محمد سالم وحسين كمال وغيرهما تترجم كلمات الأغنية إلى صور فوتوغرافية أو مناظر طبيعية أشبه بوسائل الإيضاح الساذجة..

تبعا لذلك كان برنامج «أقوال الصحف» لا يتميز بأي تقنية تلفزيونية خاصة، لكنه تميز بشخصية مقدم البرنامج، وكانت هذه في حد ذاتها كافية لإنجاحه وتحويله إلى برنامج جماهيري حظي بشعبية واسعة لتفوقه على نشرة الأخبار الجامدة..

في هذا البرنامج كان حمدي قنديل يستعرض أقوال الصحف المصرية الصادرة في نفس اليوم، استعراضا فنيا يتضمن التعليق على ما ورد فيها من أنباء، وقد تميزت تعليقاته باحتوائها على الرأي الجريء الحر، إما من خلال التعقيب البليغ اللاذع على ما ورد في الصحف، وإما من خلال استكمال الأخبار الواردة ناقصة في بعض الصحف، وإما نفي بعضها، وإما السخرية من بعضها الآخر حين تستوجب السخرية..

ولأن الكفاءات المتميزة في مصر تتعرض دائما للإحباط والعراقيل وربما اليأس أو الشطب النهائي أمام سيطرة التافهين ومؤامرات أنصاف الموهوبين الناجحة دائما، فقد اختفى حمدي قنديل لسنوات طويلة تكاد تكون حقبة كاملة من الزمن، لاشك أنه خلالها قد تنقل في ميادين إعلامية كثيرة خارج الوطن، ربما في الأمم المتحدة، ربما في الخليج أحيانا، لكنه ما لبث حتى عاد، والعود أحمد بغير شك..

كان لعودته ما يشبه المظاهرة، وصحيح أن نسبة كبيرة من الأجيال الحالية لم تكن تعرفه على النحو الصحيح، إلَّا أنها كانت تحمل عنه فكرة طيبة من خلال ما بقي في أذهان آبائهم وإخواتهم الكبار من ذكريات جميلة عن شخصية هذا الإعلامي النابه الذي لمع في أفق البلاد زمنا ثم اختفى لسبب غير معلوم، ولكن بعض الذين لديهم أطباق هوائية شاهدوه على إحدى القنوات الفضائية يقدم برنامجا حواريا ثمينا، فانفتحت شهيتهم للتألق المصري، اشتاقوا إليه، شعروا بالغيرة، كيف يكون لدينا مثل هذه الموهبة الحوارية ثم نتركها لشاشات أجنبية تنافسنا به وتكبر على حسابنا؟ إن الشعب المصري لا ينسى أبناءه النابهين مهما اختفوا عن الأنظار، ولا شيء يموت في أرض مصر، والبذرة ما دامت صافحت أرضها فلابد أن تنمو إن عاجلا أو آجلا، قد تتأخر لسوء المناخ لكنها لابد أن تعود مزهرة مخضوضرة..

وهكذا نشأ رأي عام في المحيط الثقافي والإعلامي يطالب باستقطاب حمدي قنديل واسترداده.. فنحن أولى به من غيرنا..

هو بدوره ـ لأصالة فيه ـ كان يتلكك كالعاشق الكتوم يظن أنه نجح في نفي العشق وهو مفضوح الوجد، كان في الواقع قد برح به الشوق لجمهوره المصري، ذلك أن الفنان الصادق الجاد لا يتألق ولا يحصد الوهج الحقيقي الخلاق إلا في بيئته الأصلية، بين أهله وأحبائه، إنه يستمد الألق والوهج من العلاقة الجدلية القائمة بينه وبينهم، من خلال الفعل ورد الفعل.. لابد أن يشعر بأنه يلعب دورا في حياة أهله، لابد أن يتأكد يوما بعد يوم أنه يرد ما في عنقه للبلاد من دين واجب السداد.. فما كاد يرى بوادر ريح مواتية، تنذر بانفساح المجال لمواهبه بشروطها التي تلتزم بها ولا تحيد عنها، حتى بادر بتوسيع الخلاف بينه وبين القناة التي حظيت به، ليعود إلى شاشته المصرية الأثيرة..

خيرا ما فعل، وهنا لابد من تسجيل أمرين مهمين، أن القيادة الإعلامية المصرية المستنيرة لديها الرغبة حقا في توسيع الأرض الإعلامية تحت أقدام الديموقراطية، ولا مانع لديها من تنشيط برامج الرأي الحر إذا توفرت لها عقول مرنة على مستوى المسئولية، الأمر الثاني الذي يجب تسجيله ها هنا أن حمدي قنديل ببرنامجه «رئيس التحرير» قد ستر وجه الشاشة المصرية حقا، وبدون أدنى مبالغة..

برنامج «رئيس التحرير» ليس مجرد برنامج تلفزيوني من البرامج المسماة بالـ«توك شو»، إنما هو مؤسسة صحفية كاملة..

البرنامج معاصر ومتطور بمعنى الكلمة، يستفيد من كل التقنيات التلفزيونية المستحدثة ليخلق منها عملا صحفيا صرفا..

هناك فرق بين الصحافة والإعلام يغيب دائما عن فطنة الكثيرين من العاملين في الحقل الإعلامي، فيخلطون بين الصحافة والإعلام باعتبارهما عملا واحدا..

الواقع أنهما عملان مختلفان تماما، فالإعلام كما هو واضح من معنى المفردة ينحصر دوره في نقل سياسة الدولة إلى المواطنين، وتبصيرهم بها، وتحديد أبعادها ومراميها للعالم الخارجي، والدفاع عنها، والتكريس لها من خلال النشرات والتعليقات والمراسلين والبرامج الحوارية، وكثيرا ما تمتد صرامة هذا الدور إلى كل ما تعرضه أجهزة الإعلام حتى برامج المنوعات وحتى التمثيليات الدرامية، بمعنى أن هذه وتلك إن لم تكن موظفة لخدمة سياسة النظام الحاكم فإنها على الأقل لا يجب أن تكون مضادة لها، أو تهاجمها ولو بشكل مستتر، ومن حسن الحظ أننا قد تخلصنا ـ إعلاميا ـ من هذه الصرامة إلى حد كبير..

أما الصحافة فإنها الرأي الحر، والتحليل السياسي بصرف النظر عما إذا كان مواليا للنظام أو مناوئا له، ومحاسبة الحكومة وانتقاد سياستها وفضح ألاعيبها ومناطق الفساد فيها، وعرض قضايا الناس بأكبر قدر ممكن من الأمانة والدقة والموضوعية، إلخ.. الإعلام رسمي، والصحافة شعبية، الإعلام هو الدولة، والصحافة هي الشعب بالضرورة، وشاعرنا القديم لم يجنح به الخيال حين قال بيته الشهير: صوت الشعوب وروحها الصحف.. تجري بهم للمجد إن وقفوا..

ولقد تجلت عبقرية حمدي قنديل في قدرته على تقديم صحافة حقيقية من خلال جهاز إعلامي باقتدار وحسن كفاية أزال الغربة والتناقض بين الإعلام كتبليغ وتوعية في خدمة النظام، والصحافة كرأي حر يقوم ببناء الرأي العام وطرح القضايا الساخنة الطازجة الملحة.. لقد ألف بينهما فبات صحفيا يكتب على الأثير ما يشاء، بالنبرة التي يريد والنظرة التي يرى..

وإننا لنندهش من قدرته الفذة على استعراض الصحف ـ وما أكثرها ـ استعراضا تفصيليا ومن الذاكرة، كل الصحف في رأسه باسم الله ما شاء الله ذاكرة حية نابضة، غير أنه استعراض فني صرف، بمعنى أنه استعراض من خلال وجهة نظر موضوعية حيث تتحول جميع الأعمدة والمقالات التي تحفل بها الصحف والمجلات إلى محض وثائق يستعين بها في توسيع موضوعه وتدعيم وجهات نظره..

أما حمدي قنديل الكاتب الساخر، صاحب الأسلوب المتميز جدا، الخاص جدا، فإنه في الواقع أديب كبير من فصيلة نادرة تضم عمالقة من أمثال إبراهيم عبد القادر المازني وعبد العزيز البشري وبيرم التونسي ومحمود السعدني ومحمد عفيفي وأحمد رجب وغيرهم، وكلما قرأت له مقالا ساءلت نفسي: كيف بنفسه يسجن هذه الملكة الطازجة المبهجة فلا يفرج عنها إلا ريثما تزور أهلها في إحدى المناسبات ثم تعود إلى محبسها؟!

ملحق رقم (٤)

أعضاء لجنة التنسيق لجماعة العمل الوطني

١ ـ الأستاذ/ حمدي قنديل (منسقا ومتحدثا رسميا)

٢ ـ الدكتور/ يحيى الجمل

٣ ـ السفير/ إبراهيم يسري

٤ ـ الدكتور/ عبد الجليل مصطفى

٥ ـ المستشار/ محمود الخضيري

٦ ـ الأستاذ/ محفوظ عبد الرحمن

٧ ـ الأستاذ/ جورج إسحق

٨ ـ الدكتور/ حسن نافعة

٩ ـ الأستاذ/ السيد الغضبان

١٠ ـ الدكتور/ سمير عليش

١١ ـ الأستاذ/ عبد الغفار شكر

١٢ ـ الأستاذة/ سكينة فؤاد

١٣ ـ المهندس/ يحيى حسين عبد الهادي

١٤ ـ الأستاذ/ أمين إسكندر

١٥ ـ الدكتور/ محمد السعيد إدريس

١٦ ـ الأستاذ/ عبد الخالق فاروق

١٧ ـ الأستاذ/ حمدين صباحي

١٨ ـ المهندس/ أبو العلا ماضي

١٩ ـ الأستاذة/ ماجدة عبد الباري

٢٠ ـ الدكتور/ أشرف بلبع

٢١ ـ الدكتورة/ منار الشوربجي

ملحق رقم (٥)

نداء إلى الشعب المصري
لم يعد الصمت ممكنا

بيان «جماعة العمل الوطني»

(٢١/ ٣/ ٢٠١٠)

نحن الموقعين على هذا البيان نعلن أن الصمت لم يعد ممكنا ونحن نشهد مع إخواننا المواطنين ما آلت إليه أحوال البلاد من تردٍّ..

نشهد الثروة محتكرة هي والسلطة، وتفاوتا بين الطبقات زادت حدته.. أكثر من ثلث المصريين يعيشون تحت خط الفقر، وملايين تعيش في العشوائيات والمقابر، وغالبية ساحقة لا تكاد تجد ما يسد الرمق، في حين استأثرت قلة قليلة بمقدرات البلد ومواردها وهربت بأموالها العامة إلى الخارج..

نشهد الأصول العامة التي أقامها الشعب عبر عشرات السنين تنهب، وخداع الناس ببيعهم صكوك وهم الملكية الشعبية مستمرا وراء الأستار..

نشهد الاحتكار يستأسد، وقانون منع الاحتكار يجهض، وشركات الأسمنت الأجنبية تبتلع أرباحا بالمليارات، والعصابات تسيطر على مصايد الأسماك في البحار والبحيرات، والفساد يستشري في مفاصل الدولة، والشفافية تكاد تنعدم..

نشهد صنوف الجباية تتوالى بمختلف ألوان الضرائب، آخرها ضريبة السكن، في حين تنهار الخدمات التي يجب أن توفرها الدولة لمواطنيها من تعليم وتطبيب وإسكان ومرافق..

نشهد أنه لم يعد هناك تعليم ولم تعد هناك تربية، بيننا ١٦ مليون مواطن لا يقرأون ولا يكتبون، ٢٧٪ من أبنائنا يتسربون من التعليم، وجامعاتنا تراجعت مكانتها حتى لم تعد تذكر ضمن قوائم التميز في العالم..

نشهد تدنيا مزريا للرعاية الصحية، وانتشارا مقلقا لأمراض الكلى والكبد والسكر والسرطان، في حين يطرح مشروع قانون للتأمين الصحي يزيد من إرهاق المواطن..

نشهد الشعب يشرب الماء مختلطا بالصرف الصحي، والزراعات تروى بالمجاري، ومياه النيل مصدر حياة المصريين ورزقهم تتلوث إهمالا وعمدا..

نشهد البطالة تتفشى، وأمل الشباب في المستقبل ينعدم..

نشهد الفلاح الذي يتغنى به الحزب الوطني يعاني من ديون بنك التسليف، وندرة البذور، وغلو أسعار الأسمدة والمبيدات، والمحاصيل الرئيسية تتراجع، وغذاء الناس تحت رحمة الأجنبي..

نشهد تمزقا في اللحمة الوطنية ينذر بالخطر، وطمسا للهوية المصرية والقومية، وإسفافا في الإبداع، وانحطاطا في الأخلاق العامة، وازديادا متصاعدا في معدلات العنف والجريمة..

نحن الموقعين على هذا البيان نعلن أن الصمت لم يعد ممكنا على تسيير الحكم لشئون البلاد..

ونسجل رفضنا على تتالي الأزمات والفشل في إدارتها واحدة بعد أخرى، من فشل في إدارة مباراة كرة، إلى فشل في رفع القمامة، إلى فشل في معالجة السحابة السوداء والتلوث، إلى فشل في تفادي حوادث العبَّارات والقطارات والطرق، إلى فشل في أزمة العشوائيات، وفشل في أزمة الخبز والبنزين والبوتاجاز وغيرها..

ونسجل رفضنا للقصور الفاضح في إدارة الملفات السياسية الكبرى الخاصة بعلاقات مصر بدول المنطقة والعالم، وفي مقدمتها ما يتعلق بمحاولات الهيمنة الأجنبية، وما يتعلق بالمخططات الصهيونية احتلالا وعدوانا واستيطانا وسلبا للغاز المصري، وما يتعلق باقتسام مياه النيل، وما يتعلق بالوطن العربي والصلات الإفريقية..

ونسجل رفضنا لضياع مكانة مصر بين الأمم، وامتهان كرامة المصريين في الخارج بعد امتهانها في الداخل..

ونسجل رفضنا لانتهاك حرية المواطنين بأدوات التسلط والقمع والرقابة والتنصت، وفرض قانون الطوارئ لأكثر من ربع قرن، والسيطرة على الإعلام الرسمي والخاص، وتقييد تداول المعلومات، وحبس الصحفيين، ومنع التظاهر السلمي، وحظر قيام أحزاب جديدة، والتضييق على الحياة الحزبية وعلى أنشطة المجتمع المدني، وإحالة القضايا المتهم فيها

مدنيون للمحاكم العسكرية، والاعتقال دون مسوغ قانوني، والتعذيب في أقسام الشرطة، والتدخل في عمليات الانتخاب بمختلف مستوياتها ومجالاتها..

ونسجل رفضنا لازدراء الحكم لمطالب الإصلاح، وتجاهل المقترحات لتعديل الدستور، والمضي في خطة توريث الحكم..

نحن الموقعين على هذا البيان نعلن أن الصمت لم يعد ممكنا..

ونطالب بدستور يلبي طموحات الأمة تتم صياغته خلال مرحلة انتقالية في ظل حكومة وحدة وطنية، وحتى يتم ذلك نطالب على نحو عاجل بتعديل المواد ٧٦ و ٧٧ و ٨٨ بحيث تتاح الفرصة لتعدد الترشيحات الرئاسية، وتحدد مدة ولاية الرئيس بفترتين فقط، وتُجرى الانتخابات بقاضٍ لكل صندوق..

ونطالب بتعديل قانون الانتخاب بحيث تصبح اللجنة العليا لإدارة الانتخابات لجنة مستقلة، وتنقي جداول الناخبين، ويتم التصويت بالرقم القومي، وتُجرى العملية الانتخابية بمنظومة إلكترونية..

ونطالب بإيقاف مخطط توريث حكم مصر، الذي يتنافى مع أسس النظام الجمهوري ويجافي مبادئ المساواة وتكافؤ الفرص ويهين كرامة المصريين..

نحن الموقعين على هذا البيان نعلن أن الصمت لم يعد ممكنا، ونهيب بشعب مصر وقواه الحية أن يتصدى لهذه المهمة المقدسة من أجل نظام سياسي مصري جديد قادر على تحقيق آمال الأمة..

جماعة العمل الوطني

ملحق رقم (٦)

رسالة منسقي جمعية التغيير إلى البرادعي

(٩ مايو ٢٠١٠)

الدكتور محمد البرادعي

تحية طيبـة

أعتقد أنك بالتأكيد تعلم مدى شوق غالبية المصريين إلى التغيير وإلى التحول الديمقراطي، وكان إعلانك من فيينا ثم بيانك من القاهرة بارقة أمل لنا جميعا، وكان التفاف هذه المجموعة حولك دليلا على شعورهم بأهمية التغيير وعلى ثقتهم بك.

تحدث بعض المحيطين بك في بعض المشاكل والصعوبات التي تكتنف عمل الجمعية، والتي يرجع معظمها إلى العقبات التي تضعها الدولة ضد أي تقدم ديمقراطي، واتفقنا جميعا على بعض النقاط التي نرغب في أن تصلك عند عودتك.

أولا: نحن نعلم التزاماتك السابقة في الخارج والمحددة منذ زمن، ونعتقد أن سفرك للخارج يجب أن يكون قليلا وأن يكون لمدة قصيرة؛ لأن عدم وجودك يؤثر في مسيرة التغيير.

ثانيا: نعلم جميعا مخاطر فتح مقر وذلك لاحتمال كبير أن يضغط الأمن على بعض الشباب الذين يعملون على أجهزة الكمبيوتر ومصادرتها، ولكن جميع الجمعيات والحركات التي في مصر لها مقرات غير رسمية وغير مرخصة ومعرضة لنفس المشكلة.. يجب أن نأخذ المخاطرة، وإذا تمت مهاجمتنا فسنعيد فتحها ونثير مشكلة داخلية وخارجية للدولة بسبب تعسفها.. ذلك يجعل اجتماعات الجمعية أسهل وأبسط ويصبح هناك عنوان للجمعية.

ثالثا: يجب أن يتم التواصل المباشر مع جماهير مصرية في مختلف الأماكن، ونحن نعلم أن هناك مخاطر في ذلك، ولكن عندما يكون التحضير جيدا والأمر مدروسا بعناية تكون المخاطر قليلة.

رابعا: يجب أن تتفق المجموعة معك بعد مناقشات على إستراتيجية الجمعية تجاه انتخابات مجلسي الشورى والشعب ثم الرئاسة وأشياء أخرى.

خامسا: يجب الاتفاق مع شركة أجنبية متخصصة في طريقة إظهار زعيم إلى الشعب والرأي العام؛ طريقة الكلام والخطابة و الملبس وغيرها.

سادسا: يجب أن يتم الاتفاق على طريقة دبلوماسية لفك الارتباط مع بعض السياسيين المصريين الذين يكون ارتباطهم بالجمعية ضارا مع عدم اكتساب عداوتهم.

سابعا: يجب تحديد بعض النقاط التي سبق إثارتها وأغضبت بعض المجموعات مثل عبد الناصر وحقوق العمال والفلاحين وأشياء أخرى، والاتفاق على بعض النقاط التي يجب تفاديها لعدم الوقوع في مطبات تضر الجمعية.

ثامنا: الاتفاق على تصور مستقبلي:

- ماذا بعد الإمضاءات؟
- ما التصرف حالة هجوم الدولة على المجموعة وأعضائها أو موقعها؟

مع تحيات وتقدير المجموعة.

ملحق رقم (٧)

في تكريم علاء الأسواني

خطاب لحمدي قنديل

٩ نوفمبر ٢٠١٠

عرفت الدكتور علاء الأسواني عن قرب منذ أقل من عام، عندما هبت على مصر رياح الموجة الأخيرة الداعية إلى التغيير التي سبقتها موجات وسوف تتلوها موجات أخرى.. وعلى الرغم من أن ما بيننا لا يزيد عمره على شهور قليلة، فإنني عندما لا أراه أفتقد الوجه السمح الذي يعكس روحا نقية صافية، وأفتقد الصوت المجلجل المشحون بالحماس الذي مبعثه إيمان وإخلاص نادر.. أكثر ما أجِلُّه فيه هو نبله في الخصام والخصومة.. شاهدت ذلك في واقعتين عندما اختلف مع الدكتور البرادعي، الذي أصبح كشمس الشتاء لا تظهر إلا لماما، وعندما غيَّبت الضغوط مقالاته التي أشرقت بها جريدة «الشروق».. في كلا الحالين كانت له وقفة صارمة، وفي كلا الحالين كان رقيقا كما لو كان عريسا يتودد لخطبة فتاة أحلامه، في حين أنه كان على أعتاب طلاق بدا كما لو كان طلاقا بائنا.

لا تؤهلني هذه المدة القصيرة للوقوف بينكم متحدثا عن علاء الأسواني، لكن الذي استفزني اليوم للحديث عن الدكتور علاء هو أنه لو كانت لدينا وزارة ثقافة ترعى الثقافة بحق لكنتَ قد حصلتَ على أرفع جوائزها أو حتى تصدرت المدعوين إلى محافلها ولياليها الساهرة.. لو كانت جامعة القاهرة، التي تخرجت فيها، جامعة مستقلة مثل جامعة إلينوي التي نلت منها الماجستير، لقدمت إليك درجة تقدير أو حتى رحبت بك لإلقاء محاضرة في إحدى كلياتها.. لو كانت لدينا صحافة حرة حقا لتسابقت لنشر مقالاتك أو حتى تابعت بريق خطواتك بعرض الدنيا وطولها على صفحاتها.. لو كنا في بلد مستقل حقا، سيد حقا، ديمقراطي حقا - وأنت الداعي إلى أن الديمقراطية هي الحل - لتاهت بك بلدك زهوا وفخرا بين العالمين.

ولكنك تعلم ونحن جميعا نعلم بأن الثقافة عندنا أصبحت حظيرة، وتعلم ونحن جميعا نعلم بأن الصحافة عندنا أصبحت أسيرة.. إن لم تكن أسيرة للحكام فهي أسيرة لأصحاب المال والأعمال، أزلام وأسرى النظام.. وتعلم ونحن جميعا نعلم بأن الجامعة عندنا أصبحت مسرحا للبلطجة لا موردا للعلم، وأنها تسيَّر بالحرس وأمن الدولة لا بمجالس الأساتذة،

وأنها لا تمنح شهادتها الفخرية إلا لأهل القربى والناعمين برضى السلطان.. وتعلم ونحن جميعا نعلم بأن الوطن كله اختطفته، بالقمع والتزوير والتبعية للأجنبي والتواطؤ مع العدو، عصبة زادت فجرا وغنى بما استلبته من ثروة هذا البلد ومن قوت عياله الذين وأدهم العوز وأنهكتهم الحياة..

لا تجزع، إذن، يا أسواني لأن تكريمك لم يأتِ من أي من هؤلاء..

لا تجزع فتكريمك اليوم بين هذه النخبة النضرة من شباب وشيوخ الجماعة الوطنية التي لم تمسك إلا بالجمر هو التكريم الحقيقي.. تكريم هذا الجمع لك هو أشرف تكريم.. هو أرقى تكريم.. هو الأخلص والأنقى.

اليوم، لا نكرم فيك الروائي الذي حصد الجوائز من مشرق العالم ومغربه وحقق أقصى أرقام التوزيع لكتبه، أو الكاتب الذي قال كلمة حق عند سلطان جائر، أو المناضل بالفكر والجهد والمال من أجل بسطاء الناس ومن أجل رفعة مبادئ الحرية والكرامة والعدل.. لا نكرم فيك أيا من هؤلاء أو كل هؤلاء فحسب، ولكننا نكرم فيك اليوم أيضا كل من رفع راية النضال من أجل الوطن.

نكرم فيك إبراهيم يسري الذي ناب عنا جميعا في الصمود أمام منصات العدالة ليوقف إرضاع إسرائيل بغاز مصر وإقامة جدار العار مع غزة.

نكرم فيك مجدي أحمد حسين الذي سجن لنصرته إخواننا في فلسطين، المضرب منذ الأمس عن الطعام في محبسه الذي تجاوز القوانين والأعراف.

نكرم فيك مسعد أبو فجر الذي ناضل من أجل حقوق أهلنا في سيناء؛ من أجل أن يكون لدماء شهدائنا على أرضها ثمن.

نكرم فيك شهيدنا خالد سعيد الذي راح ضحية سطوة وتدليس وعهر الشرطة التي كرست سلطانها لحماية الحكام وقهر المحكومين.

نكرم فيك يحيى حسين عبد الهادي الذي قال: لا لبيع مصر في مزادات السماسرة صبية شركات الأجنبي والبنك الدولي.

نكرم فيك عبد الجليل مصطفى ومحامي الشعب صلاح صادق اللذين اقتنصا حكم طرد الحرس الجامعي من براثن رؤساء الجامعات ووزيرهم، وقاوما تحايلهم الرخيص على تنفيذ كلمة القضاء.

نكرم فيك أحمد دومة الذي قضى في السجن شهورا لأنه خرج ليحمي شباب مظاهرة من بطش السلطة، ونكرم شادي الغزالي حرب الذي اختطف من مطار القاهرة، ونكرم الشباب الذي اعتقل أياما وأسابيع لأنه رفع صوته ضد الظلم أو وزع مطبوعا يدعو إلى تغيير هذا النظام المحنط.

نكرم فيك رموز الدعوة إلى استقلال القضاء زكريا عبد العزيز والبسطويسي ومحمود الخضيري ونهى الزيني والأخوين مكي وأقرانهم الشامخين.

نكرم فيك كل المعتقلين بلا أحكام وكل من مثلوا أمام المحاكم العسكرية، إخوانا مسلمين وغير إخوان مسلمين.

نكرم فيك حمدين صباحي وأبو العلا ماضي اللذين لم يكل لهما عزم في السعي وراء الترخيص لأحزاب تمثل عقائدهما السياسية، والذي يحصل عليه الناشطون في بلاد أخرى بمجرد الإخطار.

نكرم فيك المحظورين والمحظورات، الممنوعين والممنوعات.. نكرم بهاء طاهر وأحمد فؤاد نجم وسكينة فؤاد وأبو العز الحريري وعبد الرحمن يوسف.

نكرم فيك رفيقيك الأقربين، الطبيبين محمد غنيم ومحمد أبو الغار.

نكرم فيك حمدي الفخراني الذي بزغ في ظلمة صورت الشعب كما لو كان قد استكان لأرضه تُسرق وماله يُنهب، فإذا به يهب ليستعيد لهذا الشعب حقه في مدينته وبلده.

نكرم فيك ناجي رشاد الذي حصل للعمال على حكم تاريخي بوضع حد أدنى للأجور في بلد يدفع الملايين علاجا لعين وزير حالي، والملايين مرتبا لوزير سابق تحوطه تهم الفساد والإفساد.

نكرم فيك كمال أبو عيطة الذي وقف ضد التطبيع والتوريث والطوارئ، وقاد مسيرة موظفي الضرائب العقارية حتى حصلوا على حقوقهم النقابية، وصاروا مثلا لنضال الحركة العمالية ونضال حركات الاحتجاج السياسي.

نكرم فيك إبراهيم عيسى وصحبه الذين ضحوا من أجل كلمة حرة وصحافة حرة.

ونكرم عبد الحليم قنديل الذي لم يساوم قط حتى ولو عروه في غياهب الطرق الصحراوية وهو الذي يستره شرفه وتدثره مبادئه.. ونكرم وائل الإبراشي وجميع الصحفيين الشرفاء الذين جرجروهم إلى المحاكم في زمن يرفع فيه اللئام عقيرتهم بالاتهام، وتداس فيه حرية الكرام تحت الأقدام.

نكرم فيك كل من حاصروا رأيه وصادروا حريته وضيقوا عليه عيشه.. نكرم فيك كل المناضلين شهداء وأحياء، أسرى وأحرارا، من أصابهم القهر ومن لا يزالون في الانتظار.

هؤلاء يا دكتور هم من نكرمهم فيك ومعك.

فلتقبل منا وليقبلوا جميعا منا الامتنان والتقدير والاحترام.. ولك يا دكتور علاء قبل ذلك وبعده المحبة، خالصة لوجه الله والوطن.

ملحق رقم (٨)

بيان «المبادرة المصرية لتطوير الإعلام»

(٧/ ٣/ ٢٠١٢)

يتعرض الإعلام وخاصة المرئي منه، في هذه الأيام لحملة ضارية توجهها له سلطات الدولة الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية، بل ومعظم قطاعات المجتمع وفي مقدمتها القوى السياسية، يستوي في ذلك المحافظون والتقدميون، الفلول والثوار، وكذلك المثقفون والعامة..

وتتناول الانتقادات مؤسسات التلفزيون الرسمية والخاصة على حد سواء، وتتعرض للأداء الإعلامي في مجمله، بما في ذلك أخلاقيات المهنة، ومعايير تنظيم البث المسموع والمرئي، وأسس منح التراخيص لمزاولة النشاط، وقواعد المنافسة، ومصادر التمويل، وحماية مصالح الجمهور وحقه في المساءلة والمحاسبة، وتركز بشكل خاص على أمرين هما حرية التعبير وآفاقها ومقتضيات الحياد والموضوعية، وكذلك جدارة الإعلاميين بتولي مسئوليتهم، ومؤهلات ممارستهم لعملهم، كما أن الانتقادات تشمل أيضا كل صنوف البرامج التي يتم بثها سواء كانت سياسية أو رياضية أو دينية أو ترفيهية، ولا تستثني الإعلانات..

اللافت أن أهل المهنة أنفسهم يشاركون بقية المواطنين في نظرتهم إلى الإعلام، بل إنهم، وهم الذين يدركون عن كثب مواطن الضعف فيه، يعانون من السلبيات أكثر من غيرهم، ويقرون بمسئوليتهم عما يخصهم منها، وينادون بإصلاح حال المهنة وتطهيرها من الفاسدين فيها..

إننا نصدر هذا البيان الآن لإحساسنا بأن وتيرة الانتقادات اشتدت بعد الأحداث الأخيرة التي شهدتها البلاد، وأن نبرة الاحتجاج تصاعدت بحيث تجاوز الغاضبون الحد بتوجيه اتهامات بالخيانة والعمالة دون سند، كما تم تصوير القنوات التلفزيونية وكأنها المحرض الأول والمباشر على أعمال العنف، وتعالت نداءات صريحة بفرض الرقابة والحد من الحريات، وتردد صدى ذلك كله تحت قبة البرلمان في الوقت الذي تعقد فيه لجنة الثقافة والسياحة والإعلام بمجلس الشعب اجتماعها ربما بقصد التأثير على أعمالها..

نعلم الدوافع التي أدت إلى ذلك كله ونتفهمها، لكننا نود أن نسجل أنه في فترات التحول التي تشهدها الأمم، كمثل الفترة التي مرت بها البلاد منذ ثورة ٢٥ يناير ولا تزال تمر بها حتى الآن، ومع الشوق الجارف إلى التغيير وطموحاته التي تصطدم بواقع عفن استمر عقودا من الزمن وتتلاطم بها رياح عاصفة آتية من الخارج، وفي حالة الارتباك والالتباس الناشئة عن هذا كله، ليس من المستغرب أن تعلق الإحباطات في عنق الإعلام، حتى وإن كانت سلطات البلاد كافة هي المسئولة عما آلت إليه حالة البلاد من تردٍّ..

ومع ذلك، فنحن لا نصدر هذا البيان للرد على الهجمات على المهنة أو دفاعا عن أدائها على الرغم من غيرتنا على الرسالة التي تؤديها وواجبنا تجاه المؤسسات التي نعمل بها، ولكن لنذكِّر أن النظم والقوى السياسية عادة ما تلجأ إلى تشويه الإعلام للتنصل من تشوهاتها وأنه لا يليق بنظام يأتي نتيجة لثورة الحرية أن يعادي الحريات، ولننبه أيضا أن الذين يوجهون الاتهامات بالإثارة والتخوين والسباب للإعلام إنما يستخدمون نفس السلاح في هجمتهم عليه، ولنحذر من أن يؤدي ذلك كله لتشريع قيود على حرية التعبير..

نحن نصدر بياننا هذا لنقول إن التصدي لمشكلة الإعلام يأتي بالعمل على بناء نظام إعلامي يضمن إسهام الإذاعة والتلفزيون في تقدم البلاد، والحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع، وعلى حقوق المواطنة، وعلى حرية التعبير وتداول المعلومات، ويهدف إلى ازدهار صناعة الإعلام، وتقويم أدائه وضبطه، وحماية مصالح الجمهور من انحيازاته وانفلاتاته، وضمان حقوق منتجي وموزعي الخدمات الإعلامية، وتحديد أسس المنافسة ومنع الاحتكار، والارتقاء بالأداء المهني.. باختصار، يهدف النظام الإعلامي المرجو إلى تطوير الإعلام، والحفاظ على حقوق المستهلكين، وتحقيق المصلحة العامة..

نحن لا نزعم أن المجتمعين اليوم، الداعين إلى «المبادرة المصرية لتطوير الإعلام» يمثلون جموع الإعلاميين، ولكننا مهنيون يستشعرون المخاطر ويحسون بوطأة المسئولية ويحلمون بمستقبل زاهر للأمة وللمهنة؛ لذلك نبدأ بتشكيل هذه المبادرة التي نأمل أن يلتف حولها الإعلاميون، أفرادا ومؤسسات، وأن يتجاوب معها المجتمع بكافة سلطاته وكياناته وأفراده.. نحن لا نهدف من وراء المبادرة إلى تصدر صفوف أو إقامة كيان يمثل أبناء المهنة بديل عن أي كيانات قائمة أو الحصول على مناصب أو مزايا، ولكن مبادرتنا تهدف إلى اتخاذ إجراءات عملية، في مقدمتها الإعلان خلال أيام عن وضع مسودة لهيكل تنظيمي للإعلام الإذاعي والتلفزيوني يعرض على مجلس الشعب أملا في إقراره..

وتتضمن خطتنا للمستقبل المشروعات التالية، التي سنسعى للتكامل في معظمها مع جهود الصحفيين العاملين بالصحافة المكتوبة ونقابتهم، وكذلك مع الجهود ذات الصلة المتعلقة بالإعلام الإلكتروني:

ـ وضع مقترح لقانون «هيئة وطنية مستقلة للإعلام المسموع والمرئي» يعمل تحت مظلتها، ويلتزم بقواعدها اتحاد الإذاعة والتلفزيون والإعلام الخاص على حد سواء.

ـ دعم المطالبة بتعديل القانون المنظم لعمل اتحاد الإذاعة والتلفزيون؛ بحيث يضمن أن يكون إعلام الدولة ملكا للشعب قولا وفعلا.

ـ دعم وتطوير المشروعات السابقة لإقامة نقابة للإعلاميين.

ـ تنظيم دورات تدريبية وورش متخصصة وندوات ولقاءات للارتقاء بالأداء الإعلامي.

ـ اقتراح أطر لحماية مستهلكي صناع الإعلام.

ـ توفير الحماية للإعلاميين.

ـ التنسيق والتعاون مع جميع الجهات المعنية الرسمية والخاصة والأهلية في مشروعات المبادرة.

السيد الغضبان

حازم غراب

حمدي قنديل

محمد هاني

منى الشاذلي

ياسر عبد العزيز

عشت مرتين

«سوف أتحدث عن تجربتي دون أن أنزلق إلى إعطاء الدروس.. لن أروي من الوقائع إلا ما رأيته بعيني أو سمعته بأذني، ولن أعمد إلى تبييض صفحتي أو تلويث خصومي.. لي بالطبع أصدقاء طوتهم دوامة الزمن، كما أن هناك من اختاروا أن يعادوني لأنني أخالفهم الرأي، لكنني أرجو أن أكون منصفًا لأصدقائي عادلاً مع غرمائي؛ إذ ليس في نيتي الانتقام، وليست لديَّ رغبة عارمة في تسجيل هدف في مرمى أحد.. يعرف رفاقي أنني قابض على قناعاتي حتى لو اشتعلت جمرًا، لكنهم يعرفون جيدًا أنني لا أميل للعراك، كما أنني –دون ادعاء- لا أود أو أعمد للإساءة إلى أحد، إلا إذا كان في قول الحقيقة ما يسيء».

بهذه الكلمات يقدم لنا الإعلامي القدير حمدي قنديل سيرته الذاتية بصراحة نادرة وأسلوب حميمي شائق؛ فيحكي لنا عن الشخصيات المثيرة للجدل التي قابلها وعمل معها من ساسة وحكام ومثقفين ومفكرين، والتجارب التي شكَّلت وعيه ومواقفه، منذ تأسيسه لأول قسم أخبار بالتلفزيون المصري في الستينيات، ومشاركته في تأسيس القمر الصناعي العربي وقنوات فضائية عربية مختلفة، مرورًا بتقديمه برامج هامة مثل «قلم رصاص» و«رئيس التحرير»، وحتى دوره في الجمعية الوطنية للتغيير؛ لنتعرف على حياة أحد أهم رواد الصحافة التلفزيونية.

Bibliotheca Alexandrina
1212232

9 789770 932810

دار الشروق
www.shorouk.com